

د. كاظم حبيب

## قراءات في كتب حديثة مثيرة للجدل

## المحتويات

1	قراءات في كتب حديثة مثيرة للجدل .....
2	المحتويات .....
4	الإهداء .....
5	استهلال .....
6	قراءة في كتاب "عُصن مطعم في شجرة غريبة" (سيرة ذاتية) للدكتور صلاح نيازي .....
21	قراءة في كتاب جدار بين ظلمتين" للكاتب بلقيس شرارة ورفعة الجادرجي .....
21	"الجلاد والضحية في بلاد الرافدين!" .....
33	"الوحشية المرعبة للنظام في زنازين النساء بالعراق" في ضوء كتاب جين ساسون .....
39	1. "الوحشية المرعبة للنظام في زنازين النساء بالعراق" .....
50	2. واقع المرأة في المجتمع العراقي .....
58	قراءة حزينة في كتاب "شاهد عيان: ذكريات الحياة في عراق صدام حسين" للدكتورة جمانة كبة....
64	قراءة في كتاب السيدة بلقيس شرارة الموسوم (محمد شرارة من الإيمان إلى حرية الفكر) .....
86	ماذا يمكن أن نقرأ في ثنايا رواية "رسائل حب خليجية" للكاتب والقاص جاسم المطير؟ .....
94	قراءة مكثفة في كتاب وكتاب "بغداد حبيبتي ... يهود العراق... ذكريات وشجون" .....
94	البروفيسور شموئيل - سامي - موريه .....
118	قراءة في كتاب "بغداد أمس" للكاتب البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ .....
	هل لعقلاء العرب والمسلمين من مصلحة في نفي الهولوكوست ومحارق النازيين ضد اليهود في أوروبا؟
140	.....
147	في كتاب "أحاديث برلينية حول قضايا أوروبا والإسلام وفي الأدب والفكر" .....

- 147 ..... للكاتب الدكتور الطبيب حامد فضل الله
- 160 ..... قراءة في كتاب [هروب موناليزا "بوح قيثاره"] للشاعرة بلقيس حميد حسن
- 166 ..... قراءة في مسرحية "ثور فالارس" للكاتب والصحفي ماجد الخطيب
- 187 ..... دراسة معمقة في حياة وأعمال ونقاد هاينريش هاينه للكاتب ماجد الخطيب
- 192 ..... السلطة والمثقف في مسرحية -عاشق الظلام- للكاتب ماجد الخطيب
- 199 ..... قراءة في رواية صيد البط البري للروائي محمود سعيد
- 208 ..... قراءة في كتاب "نبوة محمد" للكاتب الدكتور محمد محمود
- 217 ..... "سعيد قزاز ودوره في سياسة العراق حتى عام 1959" للسيد عبد الرحمن إدريس البياتي
- Fejl! Bogmærke er ikke defineret. .... وكتاب القاضي زهير كاظم عبود "لمحات عن سعيد قزاز"
- 247 ..... تعقيب على تعقيب الأستاذ القاضي زهير كاظم عبود
- 247 ..... حول مقال النقي لكتابه الموسوم -لمحات عن سعيد قزاز
- 256 ..... قراءة نقدية متأنية في كتاب (عندما كنت وزيراً) للبروفيسور الدكتور عبد الأمير رحيمة العبود
- 289 ..... قراءة في مقالة - صورة الإسلام في ألمانيا - للبروفيسور الدكتور هاينر بيليفيلد
- 303 ..... قراءة في الجزء -النظري- من كتاب نحو ثقافة تأصيلية-البيان التصيلي- للسيد محمد شاويش
- 312 ..... قراءة في كتاب تاريخ العنف الدموي في العراق" للكاتب باقر ياسين
- 312 ..... الأساس المادي للقسوة والتعذيب والتمييز في المجتمع
- 347 ..... "قراءة في كتاب "دراسات حول القضية الكردية ومستقبل العراق" للأستاذ الدكتور منذر الفضل
- 356 ..... في تأبين "أبو الحسن" هادي العلوي
- 367 ..... قراءة ومناقشة "خارطة طريق اقتصادية" للعراق
- 367 ..... للسيد الدكتور محمد علي زيني 1-8

## الإهداء

إلى زوجتي ارمتراود (يان) حبيب، ألمانة الجنسية وعراقية الهوى، التي تحملت مني الكثير بسبب انشغالي الكثير في السياسة وفي البحث العلمي والقراءة والكتابة والاجتماعات والندوات والمؤتمرات ذات الشأن العام، وكانت خير عون لي في تأمين حياة الحب والاستقرار في شيخوختي لأكرس ما تبقى من وقت يسابق الريح للشأن العام الذي لصق بي ولصقت به طوال عمري، تماماً كما لصق الحب بيننا منذ نيف وخمسة عقود حتى الآن...

إلى كل من كتب ونشر كتاباً وحفزي على القراءة والكتابة والنشر، إلى كل من أخذ ويأخذ بالحكمة المندائية الرفيعة القائلة:

"ويل لعالمٍ لا يفتح على غيره، وجاهل منغلق على نفسه"، ولم تكن هذه الحكمة مجرد قول نظري، بل مارسها الأستاذ المرموق والمميز والفقيه الدكتور عبد الجبار عبد الله بعلمه وعمله وانفتاحه على المجتمع من خلال جامعة بغداد وبحوثه العلمية ومواقفه الإنسانية..

ك.ح.

## استهلال

خلال السنوات المنصرمة تسنى لي قراءة كتب كثيرة ومتنوعة في الاقتصاد والسياسة، في الأدب، القصة والشعر والنثر والرواية والمسرح، في سير حياة الكثير من الشخصيات العراقية، في القانون والتاريخ والتراث والدين والعلمانية، وفي الفنون الإبداعية. وقد أغنتني كلها وتعلمت منها الكثير ولها الفضل في ما أكتب. وتسنى لي أن أكتب مجموعة غير قليلة من الكتب، إضافة إلى كتابة مجموعة من القراءات في كتب اقتنيتها أو أهديت لي من كتابها مشكورين والتي وجدت هوى في نفسي فكتبت عن بعضها لأنها كانت وما تزال تثير الجدل وتدفع الإنسان إلى التفكير والبحث والتقصي.

لقد سجلت وجهة نظري الشخصية في ما قرأت، وهي بمثابة دعوة للقراء والقارئات في أن يساهموا في مناقشة ما ينشر والكتابة النقدية عن الكتب والمقالات التي تنشر لأنها تساهم في بلورة الكثير من المسائل الحياتية الضرورية وتناقش المعلومات والمعارف والخبرات وتساهم في تحفيز الناس على القراءة والكتابة.

أملّي أن أشارك بنشر هذا الكتاب وما يحويه من قراءات في التحفيز المرجو للقراءة والكتابة والنشر.

ك.ح.

قراءة في كتاب "عُصن مُطعم في شجرة غريبة" (سيرة ذاتية) للدكتور صلاح نيازي



اسم الكتاب: عُصن مُطعم في شجرة غريبة

اسم الكاتب: صلاح نيازي

دار النشر : دار ميزوبوتانيا للطباعة والنشر والتوزيع

مكان النشر: بغداد

سنة الإصدار: 2013

استهلال

تسنى لي في ربيع العام الجاري (2013) اللقاء بالأخ الدكتور صلاح نيازي في احتفال تأبيني حزين، في الذكرى التاسعة والثلاثين للعدوان الذي نفذه النظام البعثي الدكتاتوري بالعراق ضد جامعة السليمانية في العام 1974 في مدينة قلعة (دي زه) مستخدماً طائراته الحربية في قصف الاحتفال مع بدء الدراسة فيها. فسقط 167 شهيداً ومئات الجرحى والمعوقين ضحايا هذا القصف الإجرامي. وجهت الدعوة إلى الدكتور صلاح نيازي ولي من الأخ والصديق رئيس المجلس المركزي للاتحاد الوطني الكردستاني الأستاذ عادل مراد. وإذ قدمت كلمة قصيرة في هذا الاحتفال الجماهيري الحاشد في مدينة قلعة دي زه، ألقى الصديق صلاح نيازي قصيدته الرائعة حول تلك المجزرة اللعينة والفاجعة الحزينة التي كان قد كتبها في العام 1989 وجاء فيها:

قال لي صديقٌ هاربٌ توّاً:

كنتُ مثلَ أعمى مهْدِدٍ بالاغتيال

يركضُ في كلِّ اتجاهٍ وأُذناه في دردور

كيفَ تُواسي أعمى مهْدِداً بالاغتيال؟

اتخذَ الجنودُ مواضعَ الرمي بالذخيرةِ الحيّةِ

عينٌ مغلقةٌ، وعينٌ محشوةٌ بالرصاص

سدّوا الطرقات، كالأسلاك الشائكة

آلافَ الأدميين بثياب النوم

داخلَ اللورياتِ الخاكيةِ

مائةٌ وثلاثون ألفَ صراخٍ محصور

ممنوعٍ عليها الأكلُ والشربُ والمراحيضُ

كمَ طفلٍ بالٍ على نفسه من الخوفِ الآن

وخلال وجودنا المشترك ومع مجموعة من الأصدقاء في السليمانية لمدة أسبوعٍ ازدادت المعرفة بيننا وشرفني بإهدائي بعض كتبه، ومنها كتابه المعروف: "غُصن مُطعمٌ في شجرة غريبة" سيرة ذاتية للكاتب صلاح نيازي.

الدكتور صلاح نيازي شاعر وكاتب ومترجم عراقي قدير بتميز، يعيش منذ العام 1963 في لندن وصاحب مجلة الاغتراب الأدبي التي أصدرها في العام 1985 واستمرت حتى العام 2002 بجهود فردية استثنائية وبدعم من زوجته الكاتبة والقاصة العراقية سميرة المانع. ومن اطلع على أعداد من المجلة يدرك الدور المهم الذي لعبته في نشر الفكر والثقافية الديمقراطية والتقدمية وفي مواجهة الفكر والثقافة الصفراويين حينذاك.

كان صلاح نيازي وما يزال غزير الإنتاج شعراً وأدباً، إضافة إلى أبحاث ودراسات ومقالات، ومجموعة من الكتب الغنية والمهمة وكذلك ترجمات لكتب ذات أهمية في الحياة الأبية والثقافية العالمية. نشر صلاح نيازي في المجالات التالية:

\*\* "الشعر":

كابوس في فضة الشمس . بغداد 1962

المفكر . بغداد 1976

الهجرة إلى الداخل . بغداد عام 1977

نحن . بغداد عام 1979

الصهيل المقلب . لندن 1988

وهم الأسماء . لندن 1996

أربع قصائد . لندن 2003

ابن زريق وما شابه . بيروت 2004

\*\* البحوث والدراسات:

تحقيق ديوان ابن المقرب العيوني مع دراسة نقدية، أطروحة دكتوراه مقدمة لجامعة لندن . 1975

البطل والاعتراب القومي . بيروت 1999

المختار من أدب العراقيين المغتربين الجزء الأول/ المقالة

\*\* السيرة الذاتية:

غصن مطعم بشجرة غريبة . بيروت 2002

\*\* الترجمة:

رواية العاصمة القديمة لكواباتا . دمشق 1999

مسرحية مكبث لشكسبير . بيروت 2000

رواية يوليسيس لجيمس جويس . دمشق 2001

مسرحية ابن المستر ونزلو " لترانس راتيغان" . بيروت 2002

مسرحية هاملت / ترجمة

ملحمة گلگامش / دراسة نقدية.

ترك صلاح نيازي العراق في العام 1963 على اثر الانقلاب الدموي الذي وقع في 8 شباط/فبراير الدموي ضد الجمهورية العراقية الأولى واعتقل وأسيء إليه، كما أسيء إلى الكثير من أبناء وبنات الشعب العراقي وغذب منهم الألوف المؤلفة وقُتل المئات من خيرة أبناء وبنات الشعب. واجه حياة الغربة



والاغتراب الداخلي حتى حين كان في الوطن. وكان قد نكب قبل ذلك بمقتل أخيه في ظل الاضطرابات السياسية التي سادت البلاد في العام 1961.

والكتاب سيرة حياة ذاتية للكاتب، فريدة في نوعها ومليئة بالأحداث والمفاجئات. الكتاب يختلف عن عشرات الكتب التي سجلها أصحابها باعتبارها سيراً ذاتية. ولم تكن تماماً كذلك. لقد ارتدت الغالبية العظمى من كتب السير الذاتية أقنعة وكتب أصحابها ما يشاؤون واعتقدوا بأن الناس لا يرون وجوههم الحقيقية أو لم يقرؤوا عنها شيئاً ولا يعرفون سيرتهم. أما كاتبنا المميز القادم من الناصرية، المدينة الممتلئة شعراً وغناءً، فقد خلع كل الأقنعة التي كان في مقدوره أن يرتديها، وهو التقدير، وفضل الاستلقاء على سرير طبيب نفسي هو ذاته، وترك لنفسه حرية الحديث المفتوح والصريح والشفاف عن نفسه والصادق مع نفسه وعن معاناته ليتخلص من علة النفسية وأوجاعه الجسدية psychosomatic التي تسبب بها المجتمع والنظم السياسية التي سادت بالعراق والتي طارده طوال عقود. والسؤال المشروع هو: هل تخلص صلاح نيازي منها بعد أن نكثها عن نفسه ونظر إليها بمرآة كاشفة؟ أشعر، كما هو يرى ذلك أيضاً، إنه ما يزال يحمل بقايا من تلك العلل والأوجاع التي تحدث عنها في كتابه ولم يبل منها تماماً، ومن يرافقه لفترة يستطيع أن يتلمس ذلك ويدرك الأسباب الكامنة وراء ذلك والتي شخصها الدكتور صلاح نيازي ذاته بجرأة ومسؤولية عالية. الكثير جداً من المثقفات والمثقفين العراقيين يأنون من ذلك ولكنهم لا يجرأون على مكاشفة النفس ولا يخلون إلى أنفسهم لمراجعة جادة ومسؤولة.

استناداً إلى هذا التقدير، وربما أكون مخطئاً فيه، وجدت أن الكاتب قدم لنا كتاباً تحليلياً عميقاً خاص في عمق المجتمع العراقي الشرقي ونشر غسيل هذا المجتمع بقوة وحيوية عالية وقناعة تامة، فهو يحمل في ثناياه تناقضات الإنسان والمجتمع والحياة ذاتها والكاتب في آن. والكتاب ليس جديراً بالمطالعة فحسب، بل يسهم وإلى حدود جيدة في مساعدة الإنسان في التعرف على نواقصه ومشكلاته وعلله، وخاصة أولئك الذين يريدون كتابة سيرهم الذاتية أو من يعمل في الشأن العام، وأنا منهم، من أجل أن يفيدوا أنفسهم وينفعوا الناس.

الكتاب يحمل أصالة وفرادة في آن. استخدم الكاتب لغة بارعة رشيقة وأنيقة وحديثة، وفيها أحياناً زمجرة الأسد الجريح أيضاً وأحياناً أخرى أنين الإنسان المريض. اللغة الأدبية التي كتب بها الكتاب ذات نكهة شعرية جميلة يحس القارئ أو القارئة من خلالها بمعاناة الكاتب في اختيار الكلمة والجملة المناسبين

المعبأتين بمضامين مكشوفة ومبطنة، رغم سلاسة ما وصل إلينا منه. فالكلمة لها جدليتها الخاصة ومكوناتها، إنها عبق الأدب والحياة.

لم يكن صلاح نيازي وحده في الحالة المزرية التي عاش بها بالعراق أو حين خرج منه، حين كان يتمنى أن يموت بعيداً عن يريد قتله بطريقة أخرى غير التي هو يريد الموت بها، ولكن ليس كل هؤلاء حملوا ذات الهموم وذات المشاعر وذات الأحاسيس التي حملها وعبر عنها صلاح نيازي بكتابه المفعم بروح إنسانية حالمة. حين تقرأ كتابه "غصن مطعم في شجرة غريبة" يفرض عليك الكاتب أن تحلق في فضاء أوسع، فعنوان الكتاب حمال أوجه عديدة ومعانٍ كثيرة وأبعادٍ عديدة، إنه اللحن الجميل والمعذب، إنه لحن الحياة النابض المزروع في أرض قاحلة، إنه لحن الواحة في سراب الصحراء الممتد بعيداً في الأفق، إنه الغصن المعطاء والمطعم في شجرة مزروعة في أرض سبخاء.

خرج صلاح نيازي من العراق وهو يعاني من علل نفسية وأوجاع وزواج جميل تم لتوه في أوضاع مرّة، كان يريد أن يموت كما يرغب هو وليس كما يريده الأشرار له، فالأشجار الشامخة تموت وهي واقفة ولا تحني شموخها للعواصف الصفراء أو تموت بها. كتب يقول:

"أمنيّتي الوحيدة لا الوصول إلى لندن، لا العيش فيها، ولكن الموت في مكان آخر، الموت بإرادتي، أردت أن أحس اللذة السوداء في الوفاة.. أردت أن اختار نوع موتي، كما اختار السهروردي موته.. كان أشق شيء عليّ أن يشفي قاتلي غليله، أن أموت تحت قدميه وآلات تعذيبه مهاناً مذلاً، أمنيّتي أن أحرمه من إشباع حقه.. غمرتني النشوة ثانيةً حينما تفتحت أمامي أوروبا خضراء شاسعة. إذن - قلت لنفسني - هذه أوروبا وكلها قبر لي، ومرة واحدة شعرت بلذة الانتصار، كمن يخاف المشنقة فيتلذذ بقرص للموت.. الآن أستطيع أن أقرر مصيري في أي لحظة. أصبحت إرادة موتي بيدي، وهو ما لا أريد لأحد أن يفرضه عليّ بالتجويع والتعذيب والإذلال. قررت أن لا ألتفت إلى الوراء بعد اليوم". (ص 47). (1) إنه لا يريد أن يموت كما مات أخيه غدرا!

الكتاب الذي بين أيدينا يمنحنا فرصة التعرف على حياة شخصية عراقية متفردة في نشيجها وفي ما تحمّلتها من هموم وأحلام وأوهام وشكوك وخشيات وقلق مستفحل كامن ومستقر لا يغادرها، وهي شخصية لا تريد أن تترك كل ذلك، فهي التي ساهمت وساعدت في أن يكون على ما هو عليه الآن: إن يكون شاعرنا الكبير وكاتبنا المقدم و مترجمنا الذي لا يضاهي، إضافة إلى كونه إنساناً بديعاً وصديقاً لا يعوض ومتحدثاً لبقاً لا يكل ولا يمل إذ يحمل معه إرثاً حضارياً وتجربة غنية.

"غصن مطعم في شجرة غريبة": نحن أمام كاتب دوخته الدنيا وأتعبته الحياة وعجنته المصائب والمصاعب وأداقته السنين العجاف مرَّ العذاب والحرمان والجوع، ولكنه لم يركن إلى الكسل ولا إلى الملل ولم يترك المقاومة والنضال في سبيل البقاء على قيد الحياة والتقدم، فانتصر عليها وأن تركت بصماتها وآثارها بارزة في حياته اليومية وعلى شخصيته وعلاقاته. فهو شخصية حاملة يتمتع ببراءة الأطفال حين يكون في صحبة النساء الحسنات ويتباهى بهن وينتفش بكلمة حب طاهرة تنطلق من فم باسم لإحداهن، فما تزال نفسه خضراء بتعفف أبوي وروحه زاهية بتوثب وقدرته على العطاء غير محدودة.

صلاح نيازي ابن الرافدين وابن حضارات سومر وأكد وبابل، وواحدة من مهود الحضارة الإنسانية، إنه سليل ذلك الشاعر المجيد والخالد الذي سجل لنا ملحمة گلگامش بكل شجونها ومراراتها واستبداد حاكمها گلگامش. ابن بلد الشعر والغناء والرسم، ولد في ذات البلد الذي تحدث عنه الشاعر گلگامش في ملحمة. لم يكن گلگامش يبحث عن سر الوجود والخلود، ولم يكن قوياً ومقدماً فحسب، بل كان قاسياً وظالماً ومستبداً في آن. وهنا ربما نكتشف الخيط لذي يشد المستبد بالعملاق، خيط غليظ يشد گلگامش بصدام حسين والمالكي وقبل ذلك ومن يأتي بعدهم.

كتب في قصيدة المنزل عن العراق كمنزل وعن أهل هذا المنزل يقول: (2)

ذكرت الحضارات،

بيتي التقاء العصور

جنائن بابل فوق الجدار

معلقة ، همّ يمشي بها الماء ، سباحة في سماها الطيور

وذلك حارس بوابتي أسد سومريّ هصور

مصغرة نينوى فوق مكتبي يشرب بها الكهنة

وعروة كوز قديم أرى

بزرقة فخارها عطش الذائبين بأتربة الأزمنة

العراق بلد العلل والأوجاع النفسية، بلد الأحزان والآلام، بلد الحب والعطاء، بل الخشونة والقسوة واللارحمة والاستبداد. يصور لنا صلاح نيازي، وهو في بداية الكتاب كيف عاش تجربة سادية مريعة وهو ما يزال صبيّاً تركت أثرها الشديد في نفسه، حين قام واحد من أبناء الجيران "البدو!" بقتل قطة صلاح نيازي التي كانت تكره المسبحات السوداء وتزعج المارة بسلوكها، ويقارن هذا السلوك البشع بأسلوب التعامل الإنساني لطبيب بريطاني متحضر مع قطة صلاح نيازي المريضة التي كان لا يرجى شفاؤها. (ص 16). حين يتحدث عن هذه الحادثة الأليمة وتشعر وكأنه يتمنى أن يستطيع كنس تراث القرون الوسطى الذي ما يزال يعيش في العراق وفي رؤوس الكثير من حكام العراق.

قبل عدة سنوات قرأت مقالاً لعراقي يحمل لقب بروفييسور ودكتور في اللغة والأدب يتحدث فيه بفخر واعتزاز وشموخ كيف إنه أدب شخصاً في محطة التلفزيون ببغداد بالكلمات والبوكسات والرفس والركل والهجوم على المرمي على الأرض! وقد تألمت كثيراً وشعرت بالحزن لهذا الرجل والنفور منه وهو الذي يعيش منذ عقود في وسط الحضارة الغربية ولكنه لم يتعلم منها شيئاً حضارياً مفيداً، بل واصل اعتزازه بعمل قبيح ووقح مارسه قبل خمسين عاماً ضد شخص آخر لاختلاف في الفكر ويعيد ذكره، وربما يحن لإعادة إنتاجه، وكأنه كتب قصيدة عصماء! إنها العنجهية والعدوانية التي لا تفارق الكثير من البشر بالعراق وفي غيره من البلدان النامية. وما يعيشه عراق اليوم يكشف عن هذه الحقيقة المرة بأبشع صورها!

حين يتحدث صلاح نيازي عن الإنسان وتواضعه ويقارن بين عراقي يتحدث كثيراً عن نفسه، وبين بريطاني يبتعد عن ذلك، يشير إلى زميلته في الإذاعة التي كان يحدثها عن وضعه ومشاريعه فكتب ما يلي: "مرة، وقد أشبعتها مشاريع ومطامح، قالت بخفوت من بين شفتيها الطريتين:

“AS USUAL”, “SETTING THE THAMES ON FIRE” (ص 174)

لم اسمع بهذا القول، فابتسمت وكأنني فهمت ما الذي تعنيه، ثم حجبت وجهها بين صفحتي رواية ذات حجم كبير، قلت لا بد إنها غارقة فيما تقرأ. لم أحاول أن أعرف في الحال، ولا في اليوم الآخر ولا في السنة التالية، لأنها انتقلت، ولم يكن يعينني من أمرها شيء، لأن غروري كان أكبر من أي عارض مرحلي. عرفت بعد حوالي سنتين، وأنا أسترجع تلك الفتاة في ذاكرتي أنها لدغني لدغة مهذبة، كلدغة القطرة في العين. هل كنت فعلاً كما قالت الفتاة الإنكليزية ساخرة، اجترح المعجزات وآتي بالمستحيل؟ لماذا كل هذا التشبع بالذات؟ من المسؤول عن خرابي النفسي؟" (ص 175/174). ثم يعود إلى

الموضوع ثانية بعد عدة صفحات ليؤكد ما يلي: "كانت لدغة زميلتي الإنكليزية حادة كسكين مسنونة لا تحسُّ بجرحها فوراً ولا ينزف معها دمك فوراً. ولكن بعد حين يبدأ الألم والنزف". (ص 180).

يلاحظ القارئ والقارئة إن الجواب عن السؤال الخاص بخرابه النفسي يوحى للقارئ والقارئة بجواب واحد لا غير: إنا ضحية، ضحية هذا المجتمع. ويؤكد ذلك حين يقول في مكان آخر: "أنا ضحية العقلية الشفاهية السائدة بالعراق!"

ثم يعرج صلاح نيازي حول قضية أخرى ويشير إلى التباين في الرؤية والتحليل والتفسير بين العراقيين والبريطانيين، كيف نقف نحن عند سطوح الأمور وهم يوغلون عمقاً، يلجون في عمق المسائل المدروسة، ونحن نبث في القشور، يقول الكاتب: "نحن نتحدث عن الغابة والبستان، وهم يفحصون كل نبتة على حدة، طولها، عرضها، خلاياها، أنساغها، لحاءها، استنباتها، تطويرها، أفضل بيئة لها" ويخلص إلى القول "أنا ضحية العقلية الشفاهية السائدة في العراق" (ص 83). هذا الإحساس العميق بأنه ضحية رافقه طوال حياته، وما يزال يعاني منه، ولن يتخلص منه!

وفي موقع آخر يقول صلاح "لماذا نتحدث عن أنفسنا بهذا الإفراط لدرجة الإسفاف؟ أحراننا أكبر من كل الأحران، وأفراحنا ممتلئة بالأنانية. وفي بعض الأحيان يكون فرحنا تشفياً، بالآخرين". (ص 181) ألا يبرهن لنا هذا الكتاب ذاته عن صحة ما توصل إليه الكاتب وهو مستلقي على سرير الطبيب النفساني، الذي هو نفسه، ليعالج نفسه بنفسه؟ لقد ترك لروحه وحياته حرية الحديث عن نفسيهما، وقد أجادا تسجيل حقائق الأمور، وأجاد التعبير عنها ونفع من يريد الانتفاع منها.

كتب الصديق صلاح نيازي: "قال لي أستاذي المشرف على أطروحتي بثقة طبيب وكأنه يعالجنى من مرض: إنك تكثر من أد "أنا" وهذا لا يجوز في الأطروحات الأكاديمية، ولم يكمل قراءة الفصل. كانت الوصفة الطبية ناجعة فعلاً، أولاً لأن اد "أنا" قرنت بمرض، وثانياً لأن الأطروحة لن تقبل بوجود هذه العاهة". (ص 182). اعتقد جازماً بأن الأستاذ نيازي يعرف جيداً بأن الإكثار من أد "أنا" غير محمود، سواء أ جاءت في أطروحة دكتوراه أم في الأحاديث العامة والحياة اليومية.

يواصل الزميل قوله: "كان العلاج صعباً وتطلب سنوات، وما زلت أشكو من عقابيله". (ص 182). مرة أخرى يستلقي الزميل على سريريه فهو متيقن حتى الآن بأنه ما يزال بحاجة إلى معالجة هذه الظاهرة. كم أنت صادق مع نفسك، كم أنت حكيم.

يشخص صلاح نيازي مشكلة اجتماعية ونفسية كبيرة وعميقة الجذور يعاني منها الإنسان العراقي. إنها الحديث عن الـ "أنا" المضخمة والمفخمة والغرور والاعتداد بالنفس ويعتبرها أمراضاً تستوجب العلاج، وهي ناشئة من تربية الأجيال المتعاقبة، فكيف الخلاص منها؟ إنه فخاخ منصوبة للإنسان! والـ "أنا" تصل في مراحل معينة إلى المقارنة مع الـ "آخر"، عندها تبرز ظاهرة النمطية في التمييز بين الـ "أنا" والـ "آخر: أو ما يطلق عليه بالاستريوتوب Stereotyp.

كتب عن نشوء هذه العلل النفسية لدى الإنسان وهو طفل رضيع وصبي في المدرسة ما يلي:

"الأم العراقية ترضع طفلها الغرور مع الحليب: أجمل طفل، أفضل طفل، في المدرسة، درجاته أعلى الدرجات بين أقرانه، المعلمون يستغربون من ذكائه، جاء بالمرتبة الأولى. بجمل كهذه تنمي الأم في طفلها روحاً ديكية، قوية في المظهر، هشة في الداخل، والديك مهما كان نطوسه أجبن من عليها". (ص 64). ثم يتحدث عن المجتمع والمدرسة ويخلص إلى حصيلة واقعية ومحرزنة:

"شربت الاعتداد بالنفس والطموح، منذ البداية، وها أنا اليوم أحاول شيئاً مستحيلاً. أريد أن أعزل حليب الأم الأول عن تلك الأمراض الخطرة المعدية". (ص 65). أجدد إعجابي وصدّق احترامي لجرأته في تحديد ما عانى وربما يعاني منه حتى الآن.

يثير الدكتور صلاح الكثير من الأسئلة المهمة التي يجيب عن بعضها ويترك البعض الآخر لمهمة القارئ والقارئة. ويريد أن يشعرك بأنه قد تغير تماماً عما كان عليه من قبل حين كان ثورياً بالعراق، إذ كتب يقول:

"باختصار، لم تعد الشعارات الثورية، تلهب في دمي النار، وأصبحت فلسفة "التغيير من الجذور، تفزعني". (ص 68). ولكن صلاح نيازي نفسه كتب عن الجمود الذي يلف العراق والذي هو بأمس الحاجة إلى التغيير:

"منذ مئات السنين، لم يتغير شيء في سومر. نفس الوجوه المتأزمة، نفس الأحاديث الشاتمة والعنجهية، نفس الغرور المزهو بذاته، وفي الإحباط هم قصيرو الرقاب يلودون كحيوانات منهورة ووجوههم كامدة كخيم محترقة". (ص 203).

ليس هذا بغريب عن إنسان عاش المصاعب والمصائب بالعراق، ثم هو الآن يعيش في بلد تركت الروح الثورية منذ قرون خلفها واستساغت التطور الإصلاحي أو التدريجي، كما إن العمر والثقافة وطاقت الإنسان تلعب كلها الدور البارز في تحديد الموقف من عمليات التغيير الاجتماعي. أحس بأني لم أعد ثورياً بتلك الصورة التي كنت عليها قبل عقدين أو أكثر مثلاً، ولكن ما زلت أطمح إلى التغيير الجذري في المجتمع وعن طريق سلمي وديمقراطي.

يوصل الدكتور صلاح نيازي تسجيل رؤيته للتغيير فيشير إلى ما يلي:

"لا يمكن للحضارة أن تبدأ بين عشية وضحاها. إنها كالبدور لا بد لها من نمو بطيء. قد تعجل في خلق مجتمع متعلم، ولكن من الصعوبة أن تخلق مجتمع متحضر، في فترة زمنية قصيرة". ص (68) وهذه المسألة تنطبق على الفرد أيضاً. فكثيراً ما يلاحظ بأن شخصاً عاش في بريطانيا عقوداً عدة وتعلم فيها وكون علاقات واسعة، ولكنه، وحال ما يعود إلى بلده، يعود على ذات السلوكيات التي مارسها قبل وصوله لندن مثلاً. أي لا بد لنا من التمييز بين التعلم والتحضر، فالمسافة بينهما طويلة. ولكنها ليست مسافة فقط، بل يفترض أن نفكر بما يفترض أن يحصل خلال الفترة الواقعة بين التعلم والتحضر، إضافة إلى: ماذا نريد من تعلم الفرد والمجتمع؟ كانت الإجابة عن هذا السؤال ضرورية ولو بصورة غير مباشرة. عليّ هنا أن أشير إلى إن المشكلة تكمن أيضاً في الانقطاع الحضاري بين سومر والعراق الراهن، إذ بينهما الإسلام وما أدراك ما حصل خلال الفترة الواقعة بينهما، إنه الانقطاع الحضاري الفعلي الطويل يا صديقي العزيز.

ليست مهمة الكتاب وضع المعالجات للمشكلات القائمة، فهو كتاب يتحدث عن سيرة ذاتية، فهو ليس بكتاب تعليمي، رغم ما فيه من حكم ودروس وإيحاءات وإشارات نقدية قوية في هذا الصدد. ولكنني أدرك تماماً بأن الوصول إلى التعليم والتحضر يفترض أن يرتبطاً عضوياً وجدلياً بتغيير البنية الاقتصادية المشوهة والمتخلفة الراهنة والتي ستساهم بدورها كعلمية سيروية وصيرورة مترابطة في تغيير البنية الطبقيّة للمجتمع وبلورة الفئات الاجتماعية الحاملة للمجتمع المدني والديمقراطية. إذ إن التغيير الاقتصادي والاجتماعي يقترنان بتغيير في بنية التعليم والتربية وفي الوعي لدى الإنسان، وكلها تدفع وعبر عملية اقتصادية- اجتماعية- ثقافية- تعليمية وتربوية منزلية وسياسية معقدة وطويلة وصعبة للغاية، ولكنها غير مستحيلة، باتجاه خلق مجتمع ليس متعلماً حسب، بل ومتحضرًا. فالمجتمع البريطاني لم يكن قبل عدة قرون أفضل من المجتمعات العربية أو المجتمع العراقي بصدد تلك العلة. والمسافة بين

المجتمع البريطاني والمجتمع العراقي حالياً بعيدة وكأنها قرون تفصل المجتمع العراقي عن المجتمع البريطاني، ولكنها ليست قروناً من السنين فقط، بل وانقطاعاً حضارياً مديداً. دعني أقول ما ذكره الصديق الدكتور زهدي الداوي في إحدى نقاشاتنا، وهو مؤرخ وروائي في آن. ما يلي:

"مشكلة معظم الأدباء والفنانين العراقيين في الغربية هي المقارنة بين وطنهم العراق وأوروبا، دون فهم الخلفية التاريخية لعملية التطور. العراق ليس امتداداً عضوياً لسومر وأكد بدليل أن الإسلام قد أدى إلى انقطاع حضاري عن الجذور، الأمر الذي أدى إلى ركود هائل في عملية التطور وكان أن تخلف العراق والبلدان الأخرى عن مواكبة الثورة الصناعية التي تسببت في نشوء وتطور البورجوازية الصناعية"، وهو رأي صائب أتفق معه تمام الاتفاق وأضيف إليه وتسبب في نشوء وتطور الطبقة العاملة وفئات من المثقفين والمثقفات والحياة الثقافية.

يقول صلاح نيازي:

"خربنا في داخلنا وهذه أتعس طامة، أصبحنا كالخشب المأروض. لأن مريضاً وطبيباً، رأس عيادتي. لأتعرّف عليّ، أولاً، وعلى جذوري الخفية." (ص 195). هذا بالضبط ما أشرت إليه في البداية في كونه استلقى على سرير طبيب نفساني هو صلاح نيازي ذاته. أعود فأقول لا يكفي أن نشخص العيب، بل لا بد من رؤية وتشخيص سبب العيب، إذ عندها يمكن معالجة العيب! إذ إن الحيرة أمام هذا الواقع لا تدفع بنا خطوة إلى الأمام.

كتب يقول بلغة وصورة شاعرية: "ما الذي حدث؟ هل جعلتني الغربية شبحاً لأجوس في الأطلال؟ كفلاح صيني وازنت العصا والسلتين على ظهري. سومر بكفة وبغداد بكفة وعدت إلى لندن. رششت التراب الذي حملته من العراق على طول حديقتي. لماذا فعلت ذلك؟ لا أدري". لا نحتاج إلى كثير عناء لنعرف السبب. نشر المركز الثقافي العراقي في شباط/فبراير من هذا العام (2013) مقالاً لكاتب لم يذكر اسمه جاء فيه: "كلما ابتعدنا صرنا نلتفت إلى الوطن أكثر، نبحث في ما حولنا عن إشارة أو ذكرى أو ابتسامة أو حتى دمعة تشير إليه، لذا حين تطالعنا كلمات الشاعر العراقي الدكتور صلاح نيازي يمكن أن ندرك أي جهات تبددت أمامه وهو يلتفت دوماً نحو العراق". العراق يعيش في بريطانيا، ولكنه يعيش الغربية ويعيش الحنين، شاء ذلك أم أبى وهو الذي كتب القصيدة البديعة التالية:



هكذا، من بلدٍ إلى بلد  
أفتش بين النجوم عن بنات نعش  
وأقول إذن من هنا العراق  
درجت معهنّ منذ الطفولة  
أعرّفهنّ واحدة واحدة، ويعرفنني من بين كل الصبيان  
في بعض الأحيان يغمزن لي حين أكون وحيداً  
يومها دخلت رهبوت السر، وانتشيت كطائر، كطائر  
هنّ كالقناديل في صواني العرس يطفن في السماء  
وفي الليالي الغائمة احزن وتختلّ الدنيا  
أتفقدهنّ لأنهنّ كلّ ما أملك من أمان  
مجرد وجودهن دليل الثبات والديمومة، يا للاطمئنان  
تعودت أن أراهنّ فوق رأسي  
إلى اليمين قليلاً، أمامي قليلاً.  
هذا هو مكانهنّ الثابت، جذوري التي في السماء.  
أحببت صفراهنّ التي تلهث وراءهن في رحيل دائم  
تلهث وتعرج وتلهث في رحيل دائم  
ما انتظرنها يوماً، ولا هي قادرة على اللحاق  
قيل عرجاء، تلهث وتعرج، ومن حبي لها سمّيتها مليحة  
هكذا من بلدٍ إلى بلدٍ إلى بلد  
أفتش بين النجوم عن مليحة العرجاء  
واليوم اسمع لهاثها ولا أراها في هذه السماء الغربية  
نظرت كالمعتاد إلى المكان الثابت في السماء  
إلى اليمين قليلاً، إلى الأمام قليلاً، وما من أثر  
حينما تتغير خريطة الأشياء تستنفر الحواس  
هذه هدية الغربية

سألت صديقاً عن وضعه في الشتات العراقي، فأجابني قائلاً: "الوطن أم، والغربة مرة الأب". وفي أوضاع العراق الراهنة: "الوطن مرة الأب والغربة هي الأم"، كما عكسها صديق آخر.

مارس صلاح نيازي أعمالاً كثيرة وأبدع فيها، سواء أكان ذلك في الإذاعة أم التدريس الجامعي أم في الترجمة، ولكنه لم يمارس العمل اليدوي، ولذلك تجد تجربته قد تكتفت في تلك المجالات التي عمل فيها ولم تنعكس أو تتجلى في ما تعاني منه الطبقة العاملة أو فئة الفلاحين الفقراء أو جمهرة الكسبة والحرفيين. ولم يكن مطلوباً منه أن يمارس ذلك. ولكن حين كان جائعاً جداً وحين كان عاجزاً عن تأمين خبز يومه، يُطرح السؤال التالي: لماذا لم يفكر في العمل اليدوي ويسعى إليه ليوفر عيش يومه، كما فعل الكثير جداً من المثقفين العراقيين الذين غادروا صوب الشتات العراقي في الستينيات والسبعينيات وما بعدهما حتى الفترة الراهنة؟ سؤال طرحته على نفسي وأنا أقرأ الكتاب، إذ كانت هناك إمكانيات غير قليلة للعمل اليدوي في بريطانيا وهي ليست بالضرورة ثقيلة على الإنسان كما في حالة العمل في دائرة البريد أو محطات القطار أو غيرها. وعلى سبيل المثال لا الحصر، حين كنت في مدينة فرايزنك قرب ميونيخ واحتجت إلى نقود عملت في البناء ومن ثم في معمل صبّ السبائك الحديدية (Gieserei=foundry).

أنهى الكاتب الكبير الدكتور صلاح نيازي كتابه بجمل حزينة جداً تعبر عن حيرة محيرة، إذ يقول، ما الفائدة في كل هذا؟ الشيء اليقين في حياتي الآن هو الحيرة... فتشت في البداية عن لقمة العيش وكأنها الإكسير، واليوم أفتش عما ينسيني حيرتي التي تزداد وتستفحل بمرور السنين. سأخرج من حلبة الحياة بحيرة أكبر. الحيرة ميراثي الأول والأخير، فأتخبط :

في كل آلة موسيقية، آلاف الأنغام لم تكتشف بعد

في كل شجرة، أصباغ بقدر عيدان الأعشاش

في كل صخرة، عدد لا يحصى له من تماثيل لم تنحت بعد

يولد الإنسان وفي صدره مدن مطمورة

في حنجرته لغات مدحورة. لغات منقرضة

لغات في تابوت. لغات في زفاف.

ملاحه ليست ملاحه

ويداه مجدافاً نوح دائماً

هل نحن الحقيقة أم الصورة؟ أم صورة الصورة إلى ما لا نهاية

هل نحن أغصان مطعمة في أشجار غريبة؟

ثم ينهي كتابه بما يلي:

قال معلّم الإنشاء بتأنيب مرّة: "لماذا تستعمل كلمات لا تعني شيئاً؟. والسؤال هو: هل كان المعلم على حق، أم أن كاتبنا فيلسوفاً يفتش كما كان شاعر الملحمة الرائعة، "ملحمة گلگامش"، يفتش عن سر الحياة وعن سر عذابات الإنسان!

برلين في 2013/6/19

(1) السهروردي: هو شهاب الدين السهروردي، يحيى بن حَبِش بن أَمِيرِك كنيته أبو الفتوح ولقبه شهاب الدين (545هـ-586هـ - هـ) قتل في قلعة حلب بحكم قرقوشي أصدره صلاح الدين الأيوبي. اختار السهروردي طريقة موته في أن يترك في الصحراء دون طعام أو ماء ليموت وحيداً وبعيداً ومتفرغاً لنفسه وفلسفته الإشراقية. نشر موقع المعرفة بعضاً من أبيات شعره وهو يتوقع موته القريب:

أبدأ تحنّ إليكم الأرواحُ      ووصالكم رِيحانها والراحُ  
وقلوبُ أهلٍ وداكم تشناقكم      وإلى لذيذ لقائكم تترأخُ  
وارحمتا للعاشقين! تكلفوا      سترَ المحبّة، والهوى فضأخُ  
بالسرّ إن باحوا تبأخ دماؤهم      وكذا دماء العاشقين تُبأخُ

2. مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود بابطين للإبداع الشعري. المعجم. رسالة الدكتور صلاح نيازي

رسالة الدكتور صلاح نيازي

عزيزي الأخ الدكتور كاظم حبيب

تحية طيبة وبعد

كانت مقالتك الضافية مفاجأة هزّتني من الأعماق

أردت أن ألتقط أنفاسي من هول الدهشة

قبل الكتابة إليك ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان. كان علي أن أجري عملية جراحية

في العين اليمنى. كانت طويلة ومملة اختلط فيها اليأس بالأمل

منذ أكثر من أسبوعين وأنا لا أستطيع القراءة الجادة ولا الكتابة

سأعود للمستشفى بعد أسبوع وأتسلم النتيجة النهائية

على أية حال أهنئك بموهبتك الأدبية التي ظهرت بأفكارك الثقافية الناضجة حقا

وبآرائك النقدية الكاشفة

أعجبت كذلك بطريقة طرحك للموضوع .

طريقة مقنعة بكل معنى الكلمة متهادية متروية بلا منبرية أو استعلاء يفتقر لها معظم الباحثين

المتفرغين

ما أخصبك يا رجل وما أغزر علمك وإنسانيتك

كل الشكر والامتنان صلاح نيازي 2013/7/18

قراءة في كتاب

"جدار بين ظلمتين" للكاتبة بلقيس شرارة ورفعة الجادرجي

"الجلاد والضحية في بلاد الرافدين!"



قراء في كتاب : جدار بين ظلمتين

المؤلفان: بلقيس شرارة ورفعة الجادرجي

دار النشر: دار الساقى، لندن

تاريخ النشر: 2003

عدد الصفحات: 350 صفحة من القطع المتوسط

عند تصفح كتب التاريخ التي تبحث في مسيرة العراق منذ آلاف السنين، وحين يقرأ الإنسان كتاب "موسوعة العذاب" للكاتب عبود الشالجي (1910-1996م)، وكتاب الأستاذ هادي العلوي (1933-1998م) حول

التعذيب في الإسلام، أو عند قراءة كتابي الموسوم الاستبداد والقسوة في العراق، على سبيل المثال لا الحصر، يتيقن القارئ أو القارئة بأن هذا التاريخ كان ولا يزال مليئاً بعلاقة خاصة متميزة ومستمرة غير إنسانية بين الضحية والجلاد، بين الإنسان المفكر وعدو الإنسان والتفكير، بين الخير والشر، سواءً اجتمعا في الواحد أم توزعا على اثنين على وفق ميثولوجيا الشعوب المتنوعة. وحين يقرأ الإنسان الشرائع العراقية منذ القدم، ابتداءً من قانون أوروكاجينا وإصلاحاته الاجتماعية ومروراً بقوانين أورنمو ولبت عشتار وإيشنونة وشريعة حمورابي وقوانين الكلدان والآشوريين من بعده، سيجد أمامه تطورات وتحولات إيجابية في تلك المجتمعات، ولكن برز معها المزيد من القوانين العقابية القاسية والموجعة للإنسان بالارتباط مع واقع تطور الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وتطور ملموس في تقسيم العمل الاجتماعي ونشوء دولة المدينة ومن ثم الدولة المركزية. ففي الوقت الذي خلت أولى الشرائع العراقية من عقوبات ردعية واعتمدت على فرض الغرامات المادية، فإنها تحولت تدريجاً إلى عقوبات تصيب الجسد والنفس البشرية في آن، ثم اتخذت أبعاداً جديدة في شريعة حمورابي التي تضمنت 52 مادة تعاقب بالموت على الكثير من المخالفات، واقترب عدد قوانين ومراسيم صدام حسين الذي كان يحكم بالموت على الإنسان من عددها في زمن حمورابي رغم التغيرات الكبرى بين الفترة التي وجد فيها حمورابي والفترة التي برز فيها صدام حسين وحكم حزب البعث العربي الاشتراكي الاستبداديين.

لقد تميزت قوانين حمورابي بالقسوة المفرطة، دللت عليها قاعدة العين بالعين والسن بالسن. لقد مارس الحاكم الجلاد التمييز والاستغلال والاضطهاد ضد سكان البلاد بشتى الأساليب والأدوات، واستند في ذلك على قوانين وقواعد معينة في الحساب والعقاب منطلقاً من كونه يمثل الإله على الأرض، إضافة إلى الاعتقاد بأن الحاكم (حمورابي مثلاً) نصفه من الآلهة ونصفه الآخر من البشر.

وفي الدول "الإسلامية" تعددت صيغ تعذيب الإنسان وإذلاله وسحق كرامته وتنوعت أدوات وأساليب ممارسة التعذيب، وخاصة من قبل الخلفاء الأمويين والعباسيين وسلطين الدولة العثمانية وولاتهم في مختلف المناطق. وكتاب "موسوعة العذاب" يقدم لنا لوحات مأساوية عن العلاقة الحاكمة بين الجلاد والضحية، حيث يقشع لها الإنسان وتجسد الانحطاط الأخلاقي والتعسف للإنساني الذي تميز به هؤلاء الحكام الأوباش. كما يمكن العودة إلى كتابي الموسوم "الاستبداد والقسوة في العراق" صادر عن مؤسسة حميد، السلبيمانية 2005.

إن تاريخ العراق السياسي الحديث حافل بالتجاوزات الفظة والكارثية على حياة الإنسان وحقوقه وكرامته، سواءً أكان ذلك في فترة الاحتلال البريطاني وسنوات الانتداب حتى العام 1932، أم بعد ذلك وعلى امتداد فترة الحكم الملكي حتى العام 1958. ولم تخل فترة عبد الكريم قاسم من ممارسات قمعية من جانب أجهزة الأمن، وبشكل خاص ابتداءً من العام 1960 حيث تعرض الكثير من المعارضين أو حتى المؤيدين للسجن والتعذيب أيضاً.

وفي الفترة التي أعقبت انقلاب شباط الدموي في العام 1963 واجه الشعب العراقي صنوف التعذيب والعذاب والحرمان والتنكيل والقتل بالجملة. وهذه الفترة القمعية استمرت عملياً حتى سقوط الدكتاتورية في العام 2003 تحت ضربات القوات الأمريكية - البريطانية. ومنذ سقوط الدكتاتورية الغاشمة حتى اليوم يواجه العراق استبداداً شريعياً جديداً مطعماً بالدين وفتاوى شيوخه والأحزاب الدينية الإسلامية السياسية ذات النهج الطائفي المقيت. وهذا النوع من التمييز والاستبداد الفكري والسياسي لا يقل خطورة وبشاعة عن الدكتاتورية الشوفينية والعنصرية لحزب البعث العربي الاشتراكي وقيادته ابتداءً من أحمد حسن البكر ومروراً بالآخرين وانتهاءً بصادق حسين الذي فاقهم جميعاً في مستوى استبداده وفضاعة جنون العظمة التي ميزته وشدة ساديته وعمق نرجسيته. وبعد سقوط الدكتاتورية الغاشمة تعرض الإنسان العراقي إلى شتى أشكال التعذيب في سجن "أبو غريب" على أيدي القوات الأمريكية المحتلة والتي أصبحت نموذجاً يضاهي ما مارسه الجزائريون في فترة البعث ضد السجناء والمعتقلين، إضافة على ما يمارس اليوم في فترة الحكم الطائفي بالعراق.

على امتداد عقود طويلة كان العراق وما يزال يحكم دون قوانين، رغم وجود دستور مؤقت أو دستور دائم، فالحاكم هو الدستور وهو القانون وهو الذي يمسك بيديه السلطات الثلاث إضافة إلى الإعلام بمختلف وسائله وأدواته باعتباره السلطة الرابعة. فالحاكم بأمره هو الذي يقرر كل شيء وبقراراته تعمل أجهزة الدولة ومؤسساتها. فهو الذي يقرر من يعيش ومن يموت وكيف يموت وبأي واسطة، وهو الذي يحدد من يشبع ومن يجوع، ومن يسجن ومن يمتلك حرية ناقصة دوماً، وهو الذي يقرر من يعمل ومن لا يعمل ويحارب بالرزق اليومي ويركن جانباً ويعيش في عزلة خانقة حتى الموت. إنه المستبد بأمره، إنه القائد الضرورة، إنه الفلته التاريخية التي أنتجها العرب عبر تاريخهم الطويل على شاكلة الكثير من الحكام ممن سبقوه في حكم العراق، إنه صدام حسين. وما أذكره هنا ليس حديثاً عبثياً عابراً، بل يجسد حقائق موثقة بألاف القرارات الصادرة عن مجلس قيادة الثورة أو عنه مباشرة، وكان ما يصدره يعتبر قانوناً واجب التنفيذ، وهو ما عبر عنه بنفسه في واحدة من خطباته الكثيرة.

الكتاب الذي قرأته في العام 2008 كتبت عنه مقالاً ونشر في نفس العام. ولكني اليوم في نهاية العام 21013 قرأت الكتاب ثانية ووجدت فيه الكثير الذي يستوجب الكتابة عنه. فالكتاب الموسوم "جدار بين ظلمتين" يقدم لنا لوحة استثنائية ووصفاً مميزاً للعلاقة بين الجلال والضحية بالعراق. ببلاد الرافدين، ويؤكد ما أشرت إليه بأن العراق شهد على امتداد تاريخه الطويل علاقة مريضة بين الإنسان العراقي المفكر والناقد والمتطلع نحو الأفضل، وبين الحاكم الجلال المستبد بأمره، المنغلق على نفسه، المشدود إلى كرسيه، المطعون في ضميره والمغتصب لإرادة الإنسان وحقوقه والدائس على كرامة الإنسان. فما هو هذا الكتاب وما هو سر أهميته؟

في العام 2003 صدر عن دار الساقي بلندن كتاب قيم للأديبة والكاتبة السيدة بلقيس شرارة والمهندس المعماري الكبير والباحث والكاتب الأستاذ رفعة الجادرجي تحت عنوان "جدار بين ظلمتين". ومن المؤسف حقاً أنني لم أطلع على هذا الكتاب إلا في الآونة الأخيرة حين تسلمت الكتاب هدية غنية وطيبة من الأستاذ رفعة الجادرجي، ولهذا لم يتسن لي الاستفادة منه حين أنجزت كتابي الموسوم "الاستبداد والقسوة في العراق" والذي صدر عن مؤسسة حمدي في مدينة السليمانية في العام 2005، إذ لو كنت قد اطلعت عليه لخصصت لأحداثه المأساوية موقعاً مناسباً في كتابي.

وكتاب "جدار بين ظلمتين" يكشف ببراعة ودقة وبأسلوب غير معهود عن جوانب جوهرية وحساسة للعلاقة غير المتكافئة والمريرة بين نظام الحكم والمواطن، بين الجراد والضحية، بين مستبد مُغتصب للسلطة ومهيمن على أجهزة القمع والسالب لحقوق الإنسان كافة والناهب للأموال من جهة، وبين الإنسان الضحية والأعزل والمُغتصب والمسلوب من حريته وحقوق المواطنة والفاقد لكل ما يمت بصلة لما يسمى بمبادئ لائحة حقوق الإنسان التي ساهم العراق في وضعها ووقع وصادق عليها منذ العام 1948 وما صدر من لوائح أخرى في مجال شرعة حقوق الإنسان عن الأم المتحدة من جهة أخرى. الكتاب يقدم لوحات إنسانية وواقعية أصيلة تصور الإنسان الأعزل في مقابل سلطة مستبدة، ظالمة ومستتهرة بكل القيم الإنسانية وما يطلق عليه بـ"الشرائع السماوية!"، يقدم لنا صوراً مشحونة بالألوان والعواطف والمشاعر الإنسانية الجياشة والمخنوقة في آن. يقدم لنا الكاتبان صورة الحزن والألم الإنسانيين اللذين يسيطران على مشاعر الإنسان في أكثر اللحظات قسوة ومرارة وعذاباً وهو عاجز تماماً عن الدفاع عنه نفسه أو عن أبنه أو ابنته أو زوجته أو زوجه. بينه وبين الموت أو اعتياله خارج القانون وباسم القانون قاب قوسين أو أدنى. من يقرأ هذا الكتاب الفريد في طريقة عرضه للأحداث سيجد أمامه شريطاً سينمائياً فريداً في عرضه للأحداث، متنقلاً بين السجن الصغير والسجن الكبير، متحركاً في فضاء الفكر غير المقيد بالرغم من السجن القامع لكل شيء، إنه بانوراما واقعية لما كان يواجه العراق والشعب في تلك المرحلة من مراحل الإرهاب الحكومي الماحق لكل ما إنساني. والكتاب مؤهل جداً وبامتياز لكتابة سيناريو رائعة لفيلم سينمائي يسجل حقائق الوضع في أحلك مرحلة من مراحل عراق القرن العشرين، إنها المرحلة الأكثر سواداً وعبثية وهدراً للإنسان وكرامته وحقوقه وأمواله وبدء حروبه الخارجية. أتمنى أن يكتشف واحداً من خيرة المخرجين البارعين على الصعد العراقية والعربية والعالمية هذا الكتاب ليبدأ بالبحث عن منتج وكاتب سيناريو ومصور وممثلين مبدعين يمكنهم تحويل هذه الرواية الواقعية إلى حياة مليئة بالحركة والفعل الإنساني على الشاشة البيضاء من أجل المساهمة بإزالة الحجب السمكية التي شكلت جداراً منع عن عيون الكثير من الناس حينذاك، وخاصة الناس بالدول العربية، وبعضهم ما يزال حتى يومنا هذا يواجه مثل هذا الجدار الإيديولوجي المانع عن إدراك الحقائق في الأوضاع التي سادت العراق في فترة حكم البعث وصدام حسين.



يجسد هذا الكتاب تجربة ذاتية غنية جداً لشخصين، وتعبير أدق، لزوجين حبيين، لعاشقين بكل ما في هذه الكلمة من معنى عميق، أحدهما يعلن عن ذلك صراحة وأحلى الكلمات المعبرة وأكثرها رقة وشوقاً وحيوية، وهي المرأة الشجاعة والمفعمة بالأنوثة والحيوية والحب، هي بلقيس شرارة، والآخر العاشق الذي يتجنب الحديث عن الحب، رغم هيامه بزوجته الجميلة وحبه للإنسان واحترامه له، إنه رفعة الجادري، إنه الرجل الذي، وكأي رجل عراقي، يستحي من التعبير عن حبه والإعلان عن عواطفه إزاء حبيبته وزوجته صراحة، رغم تفتحه الفكري والثقافي الكبيرين، فهو ابن هذا المجتمع رغم تمرده المتنوع عليه وعلى تقاليده البالية ورغم غزارة علمه ووعيه الهندسي.

عاشا معاً ما يقرب من ثلاثة عقود قبل أن يواجهها ظلم النظام واستبداده واستهتاره بكل القيم الإنسانية المتراكمة عبر الزمن وتاريخ الشعوب حين تم اعتقال الزوج رفعة الجادري، عاشا في عالم الثقافة العراقية والإقليمية والدولية، تجولا في بلدان العالم سعياً وراء الفن والموسيقى والثقافة وفن العمارة، عاشا الحياة الثقافية المتنوعة والإبداع الفني معاً وكل في مجال اختصاصه، وبالتالي قدم كل منهما لنا بأسلوبه الجميل المتباين في تجربته واتجاهات تفكيره وأفكاره ومعايشته للآخرين عن ذات الفترة التي عاشاها طيلة عشرين شهراً، وهي الفترة التي قضاها الأستاذ رفعة في معتقلات العراق الجهنمية بعد أن حكم عليه بالحبس المؤبد.

يبدأ المهندس المعماري البارِع والدولي الأستاذ رفعة الجادري ورئيس المكتب الاستشاري العراقي بوصف مكثف عن حياته اليومية وحياته من عاش معه تلك الأحداث منذ أن اعتقل من قبل جهاز المخابرات العراقية في زمن الدكتاتورية المطلقة والنظام الشمولي الفردي، فترة كانت قبل وأثناء وبعد صعود صدام حسين من موقع الرجل الثاني أو نائب رئيس الجمهورية ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة إلى رئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس قيادة الثورة ورئاسة الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة، ووضعه في زنازين المخابرات العراقية واضطهاد الجلادين اليومي له ولغيره من المعتقلين. والثاني هي الأدبية والكاتبة الأستاذة بلقيس شرارة التي عاشت المأساة خارج السجن بحرية مقيدة وقدرة ضعيفة على تقديم العون لمن يقبع وراء الجدار رغم الجهود المبذولة لفك حبسه وإطلاق حريته وكتبت لنا عن معاناتها وقسوة الحياة عليها بعيداً عن حبيبها وعن أسئلة محيرة لا جواب لديها عن المستقبل المجهول لزوجها وعن مستقبل العائلة.

وضع زوجها في زنانات صغيرة جداً وفي معتقلات وسجون أكبر، بينما كانت بلقيس تعيش في سجن كبير هو العراق كله في فترة حكم صدام حسين، ولكنه يبقى ضيقاً جداً إذ يحرم الإنسان من التنفس بحرية من الحلم بأمان، يحس دوماً بالاختناق. لقد كان الفاصل بين الزوجين جداراً سميكاً وعالياً، جداراً اسمه الدكتاتورية الغاشمة وسجونها المظلمة، إنه الـ"جدار بين ظلمتين".

الكاتبة بلقيس شرارة خريجة كلية الآداب ومن وسط وعائلة ثقافية وديمقراطية تقدمية وأبوها الأستاذ الكبير والكاتب محمد شرارة وأختها الكاتبة الرائعة حياة شرارة اللذين تسبب النظام بموتهما، أسلوبها شفاف وراقي

ينساب بعفوية كما تنساب المشاعر الإنسانية الحرة، وأدب جميل في الكتابة ينساب بهدوء إلى عقل الإنسان ويدغدغ عواطفه ويحرك مشاعره ويشعره بالمظالم التي يتعرض لها الإنسان في الربع الأخير من القرن العشرين، سواء حين كتبت عن الحزن والألم والمرارة وفقدان الأمل والثقة بالآخر، أم حين كانت تعيش البسمة والسعادة حين يحاورها أبوها ويسعى على تغيير أجواء الحزن المهيمنة عليها، وسواء كتبت عن الغضب أم عن الحب بأجمل معانيه، حب أم رفعة لابنها وحب نصير ويقظان لأخيها وحب وبكاء الأخت أمينة لأخيها والزوجة لزوجها، أو السائق وهو يبكي ويردد "شلون عمي رفعة ينسجن مؤبداً؟ شلون؟ شلون يابا شلون!" إنها التفاتة إنسانية بارعة تشير إلى العلاقة الطيبة والحميمة بين السائق والعائلة والأستاذ رفعة. حين تكتب تغوص في عمق الإنسان وتسعى إلى اكتشاف دواخله والعوامل التي تحركه وتبحث في خلفية ذلك. وكما يقول الممثل المصري الإنسان عوالم!

أما الأستاذ رفعة الجادري فهو ليس مهندساً كبيراً فحسب، بل هو فنان كبير ومثقف رفيع المستوى وقارئ نهم وكاتب مجيد، وكتاباتهِ تعبر عن ذهن هندسي متقد ومبادر ومبدع وله منهجية صارمة وقدرة عالية على التحليل للنفس البشرية، صريح وجريء في عرض أفكاره الفلسفية والحياتية والمواقف التي مرّ بها ورأيه في الناس والأحداث التي عاشها.

والكتاب يروي لنا قصة شخصيتين عاشتا عشرين شهراً في موقعين مختلفين أحدهما في السجن والآخر في البيت والمجتمع، ومن هنا اختلف فحوى أحاديثهما وحركتهما وتباينت طبيعة الشخصين الذين تعايشوا وتعاملوا معهم وسلوكياتهم وفائهم للصدقة أو انتهازيتهم أو خشيتهم الشديدة من بشرط النظام، ولكنهما التقيا في تشخيص عام سليم حول مسائل مشتركة كان يعيشها الشعب العراقي بغالبته. فماذا ينقل لنا الكاتب رفعة الجادري من وراء القضبان وفي وكر الذئاب جلاوزة النظام وسجانيه، وماذا تكتب لنا بلقيس شرارة وهي خارج السجن الصغير وفي سجن أكبر حيث تعلق القلق والخوف من غدٍ مجهول؟

غالباً ما كانت اعتقالات الناس، سواء أكانوا معارضين أو قضايا أخرى غير معروفة للمعتقل، تجري على الطريقة التي طرحها الأستاذ رفعة الجادري حسن جاء شخصان لاعتقاله:

قال رفعة: ماذا تريدان مني، أخبراني الآن؟

أجابا بصوت خافت وقور: "أستاذ، لن يطول غيابك أكثر من عشرين دقيقة، يريدون الاستفسار، بعض الأسئلة و ترجع إلى بيتك وأهلك." وكانت النتيجة أن قدم إلى محكمة الثورة، وهي محكمة قرقوشية خارج القوانين والدستور، وحكم عليه مؤبداً، وحكم على آخرين بالموت أو الأحكام المماثلة في ذات الدعوة الملفقة! وهكذا كان حين جاء رجلا أمن إلى بيتي في شهر تموز من العام 1878 لاعتقالي، وكان أحدهما طالباً في الكلية التي كنت أدرس فيها في الجامعة المستنصرية:

سألتهما: أخبراني ما جاء بكما في هذه الظهيرة التومزية الحارة؟

"لا شيء بالمرّة، أستاذ كاظم، المدير العام الدكتور فاضل البراك يريد اللقاء بك، قيل لنا إن اللقاء لن يطول أكثر من نصف ساعة." وكان الاعتقال والتعذيب البربري الذي تعرضت له في مديرية الأمن العامة في البتاوين. وهكذا كانت تجري عملية اعتقال مئات ألوف الناس بل ملايين الناس الأبرياء على مدى 35 عاماً، أي خلال فترة حكم حزب البعث العربي الاشتراكي بين عامي 1968-2003. وإذا كان الآلاف منهم قاد عادوا إلى بيوتهم فأن الكثير والكثير جداً منهم قد قتل تحت التعذيب أو سجن لسنوات طويلة أو أرسل إلى جبهات القتال ليموت هناك كما حصل لآلاف من شباب الكرد الفيلية ابتداءً من العام 1980. وكانت هناك أساليب أخرى وحشية في الاعتقال تجري من خلال الهجوم على الدار أو النزول من السطوح ومفاجأة العائلة، أو الاختطاف من الشوارع أو الاعتقال في المدارس والعمل والمعامل... الخ.

لقد بذل نظام البعث وأجهزته الأمنية والمسؤول الأول عن الجهاز صدام حسين جهوداً استثنائية لبث الرعب في صفوف الشعب وقهر وإسكات القوى المعارضة له وإضعافها ومن ثم السعي لصفية وجودها. فكان القتل والرمي في الشوارع والاعتقالات العشوائية وأحكام مجلس قيادة الثورة وإعدامات المواطنين اليهود بتهم باطلة وإعدام عراقيين بتهمة التجسس لإسرائيل في الساحات العامة وترك الجثث معلقة وكأن البعث والنظام في كرنفال قد أعاد إلى ذاكرة الشعب أحدث انقلاب 8 شباط/فبراير البعثي الفاشي. فساد الخوف على نطاق واسع حقاً. وحين كان يعتقل كان يصعب على الأهل معرفة مكان الاعتقال أو حتى الاستفسار عنه. وحين أصبح صدام حسين رئيساً للجمهورية نفذ مجزرة دموية بحق رفاقه في الحزب وصعد على أشلائهم ليتربع على كرسي رئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس قيادة الثورة ورئاسة حزب البعث والقائد العام للقوات المسلحة ورئيس الوزراء. ومن هنا أصبح صدام حسين المالك بيديه مصير الدولة العراقية والبشر فيها. في لحظة يقرر الموت لهذا الشخص وفي لحظة أخرى يقرر العفو عنه دون أن يستطيع أي شخص حتى من أقرب الناس إليه أن يستفسر عن السبب في اعتقاله أو إعفائه. هكذا حصل أثناء التحقيق مع رفعة الجادرجي حين جرى الحديث التالي مع حاكم التحقيق صادق سالم الذي استدعاه إلى غرفته بعد صدور الحكم المؤبد عليه ومصادرة أمواله:

"أصبحنا أنا وحاكم التحقيق وجهاً لوجه هذه المرة.

فقال "ماذا تقول عن قرار الحكم؟"

فقلت: "حدث"، كنت أقصد أن أقول "صدمة"، ولكن كنت لا أزال في دوامة وأنا أدور في صدمة الحكم المؤبد، وأحداث المحكمة السورية."

فقال: "الذي أدخلك، سيطلعك. أنت بالنسبة إلينا مهم جداً، ونعتبرك ثروة وطنية، فالذي أدخلك سيطلعك، وإذا وجدت أي صعوبة أو مضايقة في السجن أو مشكلة، فاتصل بي شخصياً." (ص 180)

بدأت بلقيس شرارة حينذاك تتابع أخبار المعتقلين وسلوك صدام حسين في التعامل مع السجناء والتقطت العيد من الحوادث التي تدل على الأحكام المزاجية للدكتاتور واحتمال إطلاق سراح من هو محكوم بالإعدام أو المؤبد، ولكن احتمال إعدام من لم يقدم للمحاكمة أصلاً وبأساليب أخرى. وكتب عن قضيتين، على سبيل المثال لا الحصر، تؤكد بأن العراق كان يعيش في بلد الـ "واق واق":

قالت وجدان بلقيس شرارة ما يلي:

"زارني أمس في مكنتي مهندسان، لهما علاقة بالمشاريع التي ستقام في بغداد بمناسبة مؤتمر عدم الانحياز الذي سيُعقد في بغداد عام 1982، و نقلنا إليها حديثاً دار بين أحد المسؤولين المهمين و رئيس الجمهورية صدام حسين، حيث سأل الرئيس عن المعماريين المهمين الذين يمكن إناطة هذا المهمة بهم و إعادة بناء بغداد، فأجاب ذلك المسؤول: سيدي عندنا خيرة المهندسين في الشرق الأوسط، الذين من الممكن إناطة مثل هذه المسؤولية بهم. سأله الرئيس: لماذا لا يمكن إناطة هذه المسؤولية بهم؟ أجابه المسؤول: "سيدي واحد جوة والآخر برة" يقصد بذلك أن رفعة الجادرجي في السجن والمعماري الآخر الدكتور محمد مكية خارج العراق، فقد ترك العراق منذ بداية السبعينيات.

أجاب الرئيس عندئذ: الجوة نطلعوا، والبرة نجيبوا". (ص 318/319).

أما الحادث الثاني فهو التالي:

"زار الرئيس إحدى المدارس في حي المنصور، حيث استقبل بالأناشيد والهتافات من قبل طالبات المدرسة. وبعد انتهاء الزيارة، ركب سيارته، فرمت طالبة نفسها على نافذة السيارة، وبيدها باقة زهور، و عيناها مغرورقتان بالدموع. سأله الرئيس عن سبب بكائها؟ أجابته: إن والدي بالسجن. قال لها: "من هو والدك؟" أجابت عن اسم والدها، قال لها: "هو من خوش آدمي، وأذى البلد هواي، لكن لخاطرج راح أطلعه." وبعد فترة قصيرة أطلق سراحه". (ص 231)

لم يكن صدام حسين وحده يثير الرعب في نفوس الناس حسب، بل جلاوزة النظام وجلادوه وسجانوه كانوا ينفذون الرعب الفعلي المفرط على السجناء والمعتقلين إلى ابعد الحدود وكانوا يحولون حياة السجناء والمعتقلين إلى جحيم إضافي بسبب التعذيب والتجويع والحرمان من الشمس أو الهواء الطلق أو الذهاب إلى الحمام للتغوط... الخ.

حين نقرأ الكتاب نكتشف بسهولة ويسر سمات مميزة لطبيعة الفترة التي كانا نعيشان فيها، طبيعة السلطة السلطوية التي حكمت العراق طيلة ثلاثة عقود ونيف. فالنظام يتميز بـ:

- غياب كامل للحياة الدستورية والقانون والحرية الفردية وحق الإنسان في الدفاع عن نفسه.
- غياب سلطة القضاء المستقلة القادرة على اتخاذ القرار بمعزل عن إرادة السلطة التنفيذية.
- حق الحاكم المطلق بإصدار الأوامر باعتقال أي شخص مهما كانت منزلته دون الحاجة إلى تبرير ذلك.
- حق أجهزة الأمن والمخابرات ممارسة الاعتقال دون العودة إلى أمر قضائي أو التحقيق أمام حاكم تحقيق أو المحاكمة أمام محكمة شرعية وأسس وقواعد قانونية.

- حق أجهزة الأمن والمخابرات في اعتقال وتعذيب وقتل من تشاء دون خشية من محاسبة وعقاب. وقُتل تحت هذه الحماية الممنوحة للأجهزة القمعية الكثير من الناس الأبرياء تحت التحقيق والتعذيب أو دس السم لهم أو بأي أسلوب آخر.

- الكراهية والحقد يملآن صدر الجراد إزاء الإنسان والرغبة في إهانته وسحق كرامته. فليس للإنسان في عرف الجراد قيمة وليست له حقوق.

- لا اعتبار لرهافة إحساس الإنسان وأحلامه وتطلعاته، بل بذل كل الجهد من جانب النظام لتدمير الذات وتحطيم شخصية الإنسان عبر أساليب فاشية وعدوانية جارحة.

- بث الخوف، بل الرعب، الذي تطبعه الدكتاتورية، في نفوس وسلوك الناس، وما ينجم عنه من ازدواج الشخصية والتحويلات في تصرفات الإنسان وفي علاقاته العامة.

- التفكير بخلص الذات والتخلي عن الآخر أو العجز عن التضامن معه، ولكن الدكتاتورية لا تتوقف، فهي تزحف لتسحق الآخر والآخر .. وتحويل الكثير منهم إلى أشباه الناس.

- ولكن أفضل ما صوراه لنا هي تلك اللوحة الخاصة بالمستبد بأمره، ذلك الدكتاتور القادر على أن يقول "كن فيكون!"، وقد كرس ورسخ هذا المعنى في أذهان الناس، كل الناس، عبر أجهزة إعلامه ودعايته وأجهزته القمعية وعبر زيارته والأساليب التربوية الفاشية التي كانت تمارس وعبر سنوات طويلة، إذ أقنعهم عبر مآسيهم ومحنهم اليومية بأنه "القادر على كل شيء قدير"، بأنه وكيل الله على أرضه! فهو

الذي يمنح مراحمه متى ولمن شاء، ويمنعها عن شاء. وهو الذي يقرر مصير الإنسان بين الموت والحياة، وبينهما خيط رفيع ارتبط دوماً بمزاج البطريق لا غير.

ليست القسوة في الاعتقال وحده، بل في عدم معرفة الإنسان ما ينتظره، فهو حين يعتقل لا يعرف التهمة الموجهة له، ولا يعرف أين سيذهبون به، ولا من سيحاكمه، ولا من يمكن أن يدافع عنه إن كانت هناك محاكمة، ولا إلى متى يبقى معتقلاً، وهل سيموت أم سيبقى على قيد الحياة. كما أن أهل الضحية لا يعرفون لِمَ اعتقل أصلاً، وأين سيجدون، وكيف يفترض أن يتحركوا لإنقاذه. فالضحية والأهل والأصدقاء يعيشون في عالم مضرب تماماً وقلق دائماً والخوف يمارس فعله القاتل من المجهول القادم. إنها المحنة الدائمة التي يعيشها الضحية في قبضة المستبد الجلاد.

قدم لنا الكاتبان نوعين من البشر : فمنهم من نسي الصداقة والود السابقين وتحول إلى شخص غريب الأطوار بسبب الخوف الذي كرسه الجلاد في طباع الناس، والخشية من الجلاد المرتقب، أو بسبب صداقة كانت بالأساس مزيفة قبل ذلك أو بسبب الثماتة والرغبة في الحصول على مشاريع بدلاً عن الضحية التي كان يحظى بها بسبب معارفه وقدراته الهندسية. ومنهم من أبدى استعداداً كبيراً ومستمراً وبصور شتى لتقديم المساعدة والتضامن وعدم نسيان الصداقة، أو احتضان الأهل في فترة يكون فيها الضحية أو أهل الضحية في أمس الحاجة لمثل هذا الدعم المعنوي والاحتضان. إن أسلوب التحليل في تصوير تلك الشخصيات سهل ممتنع يعبر عن وعي ثقافي رفيع المستوى بالإنسان ومواطن ضعفه وصلابته.

قدما لنا صورة مباشرة وغير مباشرة عن علل المجتمع العراقي ومشكلاته الأساسية وتخلفه الحقيقي من خلال شخصيات سجيئة أو سجانة أو شخصيات من خارج السجن، رغم الحضارة التي كان يمتلكها العراق، وكذلك الخزين الفكري والثقافي اللذين تختزنهما الذاكرة المثقفة والذاكرة الجمعية العراقية. لقد ذكرني الكتاب وأنا أقرأ صفحاته كيف رن جرس الدار عندي في صيف تموز من عام 1978 رجلاً من جهاز الأمن العراقي وطلبا مني مرافقتهما، فمدير الأمن العام يريد محادثتي. كانا مؤدبان، ولكنهما منعاني بأدب أن لا أتصل بأحد هاتفياً. كانت زوجتي وطفلي، سامر وياسمين، في ألمانيا في زيارة لعائلتها. كنت حينذاك عضواً متفرغاً في المجلس الزراعي الأعلى وبدرجة خاصة بعد أن تم نقلي من جهاز التدريس في الجامعة المستنصرية. جلست في المقعد الخلفي لسيارة شيفروليت حديثة وجميلة وذات نوافذ زجاجية مانعة للرؤية من الخارج وقادا السيارة على الأمن العامة في البتاوين، حيث وضعت

في زنزانة انفرادية لثلاثة أيام دون تحقيق أو استفسار أو معرفة بما يريدون، رغم استفساري عن السبب، إذ لا جواب. ثم بدأ التحقيق، وكانوا مؤدبين حتى نهاية التحقيق، ثم جاءوا بالورقة والقلم لأجيب وأنا في زنزانتني عن أسئلة وجهها لي جهاز الأمن ولكنها معطاة من صدام حسين ذاته، كما أخبرت لاحقاً. لم تكن زنزانة الانفرادي تختلف عن تلك التي وصفها الأستاذ رفعة الجادجي في هذا الكتاب، فهي متشابهة عموماً. كنت وحدي في الزنزانة، وقبالتي كان وكيل وزارة الداخلية من عائلة الآلوسي. وبجوارني كان معتقلاً يضم عدداً كبيراً من الشيوعيين والديمقراطيين الذين حزنوا حين التقت نظرتي بهم ورفعوا أيديهم بالتحية والسلام.

ثم بدأ التعذيب في غرفة واسعة نقلوني إليها ليتسنى لهم التعذيب بعيداً عن المعتقلين. غرفة واسعة وفيها حمام ومرحاض، ولكن الحمام مليء بالغايط والبول، ومنها أصبت بالفطريات. غرفة واسعة بنيت وكان وضع تحتها مرجل شغال، إذ كانت الحرارة تصل إلى أكثر من 70 مئوية. كانت قطرات الماء التي تسقط على أرض الغرفة تجف أو تتبخر مباشرة. بدأ الضرب من شخصين "اعتبرا معتقلين" آثارهما كتابتي ضد النظام في جريدة طريق الشعب في حين أنهما من أجهزة التعذيب و من جلادين حاذقين لمهنتهم القبيحة وعارفين مواطن الخطر في جسم الإنسان وراغبين في أن أصاب بالجنون . كان الضرب مبرحاً وهدافاً إلى إيذاء رقبتي إلى تعطيل أو إلحاق الضرر بالحبل الشوكي. قاطعت الطعام الذي كانوا يقدمونه لي. لم أكل منه سوى الخبز ولم اشرب الشاي، وكنت أشرب الماء من حنفية المرحاض. قدموا لي وجبة طعام شهية بدعوة من ضباط كانوا طلبه عندي. وضعوا أمامي كأس لبن (شنيئة) نقلت الكأس من أمامي ووضعته بجهة الضابط المقابل لي وأخذت كأس لبنة. لم يشربه أبداً، ولم اشرب كأسه أيضاً. لم أكل من الرز واللحم الذي أمامي، رغم تحريك صينية الهبيط بحيث ما كان أمامي أصبح أمام الضابط المضيف. ولكن لم أذق منه شيئاً يذكر. استفسرا عن سبب ذلك، قلت له لا ثقة لي بكم. كان التعذيب لمرة واحدة ولكن كان في ساعات الليل. كنت اسمع صراخ المعتبين من السجناء. عجزوا عن لوي إرادتي وصمودي، ولكنهم أذاقوني مر العذاب. أحلت على التقاعد وأنا في المعتقل وبدون تقاعد مع إنزالي درجتين وظيفيتين، وهي للإهانة فقط. حين أطلق سراحي كنت قد فقدت أكثر من 14 كيلو غراماً من وزني ومصاب بالفطريات. لقد كان اعتقالني بأمر صدام حسين، وكان قد أرسل للأمن ورقة يعطيهم الأوامر بما يفترض أن يمارسوه معي من أساليب التعذيب وأن لا يطلق سراحي إلا بأمر منه. لا زلت أعاني بهذا القدر أو ذاك من بقايا ذلك التعذيب الشرس والمركز والموجه إلى الرأس والرقبة بشكل خاص. من هنا جاءت رغبتني في أن أبادر للكتابة عن هذا الكتاب القيم الذي قدم لنا وصفاً واقعياً عن

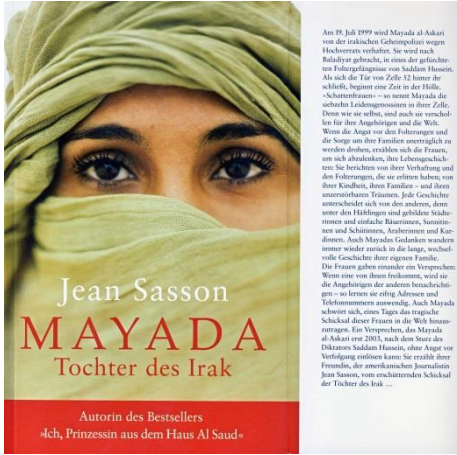
فترة الاعتقال بالنسبة للضحية وعن حالة أهل خارج السجن لفترة الاعتقال الطويلة. رغم المصائب التي صورها لنا الكتاب من زاويتين مختلفين ومن شخصين مستقلين فكراً، يمنحان القارئة والقارئ ساعات جميلة يتمتع بها في قراءة نص رائع يشد الإنسان إليه شداً ويوصل لهما تجربة إنسانية غاية في الأهمية ويمنحهما فرصة التعرف القريب جداً على نظام شمولي غادر، غادرنا بلا رجعة، ولن يغادرا القارئة والقارئ الكتاب إلا بعد ينتهيا منه. الكتاب الذي يستحق أن يكون فلماً سينمائياً بجدارة.

2008/8/8



قراءة في كتاب "ميادة ابنة العراق" للكاتبة البريطانية جين ساسون

"الوحشية المرعبة للنظام في زنازين النساء بالعراق"



اسم الكتاب: ميادة ابنة العراق

Mayada Tocher des Irak

اسم الكاتب: جين ساسون Jean Sasson

دار النشر: بلانفالييت - ميونخ

سنة الإصدار: 2004

لغة الكتاب: مترجم عن الإنكليزية إلى الألمانية

استهلال: طبيعة النظام البعثي الصدامي بالعراق

على امتداد 35 عاماً من حكم البعث الصدامي بالعراق لم يميز النظام وجلاوزته من البعثيين وأعوانهم بين الرجال والنساء في الاعتقال والتحقيق والتعريض للتعذيب والاغتصاب والقتل تحت التعذيب، بل كان يشمل الصبية أيضاً. ولم يكن التعذيب للنساء موجهاً ضد النساء اللاتي يعملن في الحقل السياسي حسب، بل وضد كل النساء اللواتي كان النظام يعتقلهن لأي سبب كان من أجل انتزاع الاعترافات بشأن القضايا التي اعتقلن من أجلها، حتى لو كانت التهمة جنحة أو مخالفة مثل تزوير جواز أو شراء جواز سفر. لقد كان تعذيب المعتقلين والمعتقلات سنة لا بد من ممارستها لدى حزب البعث وأجهزته الأمنية، دع عنك تعذيب الشعب بمصادرة حقوقه المشروعة والحرية الفردية.

أقام صدام حسين في وقت مبكر من وصول البعث للسلطة جمهورية "الرعب الصدامية"، بنيت على أسس معينة لا تختلف كثيراً عن بنية النظم الدكتاتورية في جميع بقاع العالم، وخاصة في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، ولكنها تميزت عن باقي الدكتاتوريات في عدة مسائل مهمة أشير إليها لأهميتها في مواجهة نظم من هذا الطراز في المستقبل:

\* استفاد نظام البعث إلى أقصى الحدود من خبرة وتجارب الدول الأخرى في سبل ممارسة الإرهاب والقمع والقسوة البالغة من أجل حماية النظام الدكتاتوري من الرافضين له والمعارضين لسياساته والمناضلين من أجل تغيير تلك السياسات أو الإطاحة بالنظام.

\* الدمج والتنسيق والتكامل بين الأساليب والأدوات والمعارف التي مارستها النظم الاستبدادية السابقة للبقاء في السلطة واستمرار القهر ضد الشعب، وبشكل خاص:

1. ممارسة القمع الفعلي ضد المعارضين وإشاعة الإرهاب في المجتمع كالقتل الليلي ورمي الضحية في الشوارع وعلى مقربة من الأنهار أو تسليط عملاء الأمن لقتل السجين وتقطيع أوصاله أو ملاحقة المطلوب منهم إلى خارج العراق وقتله.

2. نشر الإشاعات والحقائق عن أفعال النظام وأجهزته القمعية أو حتى تضخيمها على أوسع نطاق ممكن لإيصالها إلى الناس بهدف نشر الرعب في صفوف المجتمع.

3. استخدام المال والهدايا والمواقع الحكومية لكسر عناد الأفراد والقوى السياسية ومعارضتهم وكسبهم إلى جانب النظام. إنها أسلوب "الجزرة والعصا" لمن عصى.

\* استخدام أكثر التقنيات حديثة في تنظيم دائرة المعارف المخبرانية حول قوى المعارضة والقوى المساندة لها.

\* إضافة إلى استخدام كل ما استجد من أساليب التعذيب وممارسة القسوة في إسقاط الضحية أو تدمير كرامته وثقته بنفسه وقدرته على الصمود، أي أنه دمج بين أساليب القهر البربرية للاستبداد الشرقي وأساليب القرون الوسطى من جهة والأساليب الحديثة الأكثر تطوراً من الناحية التقنية والمنتجة في بلدان الشرق والغرب من جهة أخرى. لقد كان البعثيون في احاديثهم اليومية حول المعارضين والسجناء يتحدثون عن رميه في السجن وتخيبه!

\* وقد حظي النظام، ولأكثر من عقدين من السنين، بدعم كامل من دول الشرق والغرب ومساعدة في التسلح وخوض الحروب الداخلية ضد الشعب العراقي والحروب الخارجية وفي مساعدة النظام للإفلات من العقاب بسبب ممارسته سياسات مناهضة لحقوق الإنسان والتعذيب والقتل الجماعي، رغم أن العالم كان يعرف بكل ما كان يجري بالعراق تماماً. ولم يكن غريباً أن تزود الدولة الصناعية المتقدمة والمنتجة لأجهزة التعذيب قوى الأمن الداخلي للنظام بماكانت جبارة لفرم لحود وعظام الضحايا لتصفية ومحو اسم وجسم الضحايا من الوجود والذاكرة وإرسال مهندسين لتصليح تلك المكائن! (راجع في هذا الصدد:

23.00، ARD 3. März 2004، Buchs Krieg gegen den Irak، Duell mit Saddam Christoph Maria ،Eine Dokumentation von: Jorg Armbruster.Uhr ).Ulli Neuhoff.Fröhder

\* كما أنه حظي بدعم الدول العربية والدول الإقليمية لسنوات طويلة حتى قيامه بغزو الكويت. كما ساهمت الكثير من دول العالم الرأسمالي والاشتراكي بتجهيز النظام بكل ما يحتاج إليه من أجهزة أو تدريب كوادرات سادية مرضية للعمل على هذه الأجهزة الحديثة في التنظيم وفي ممارسة التعذيب النفسي والجسدي ضد معارضة بلاده وتصفية الكثير من قواها جسدياً.

لقد تسنى لصدام حسين ما لم يتسن لأي حاكم بالعراق أن يبقى في الحكم الفعلي قرابة 35 عاماً باسم البعث، سواء كنائب للرئيس أم باعتباره رئيساً مباشراً للجمهورية العراقية، وباعتباره "منتخباً!" من الشعب مدى العمر، بالرغم من رفض الشعب العراقي له ولنظامه الدموي. ويمكن تلخيص أهم الأسس التي أقيم النظام الصدامي على أساسها في النقاط المهمة التالية :

1. اعتبار كل الناس في المجتمع، سواء أكانوا من الرجال أم النساء، هم أعداء محتملون للنظام الجديد الذي أقيم بالبلاد عبر انقلاب عسكري، وبالتالي يفترض هذا التفكير تشديد جانب الحذر من أفراد المجتمع والمجتمع عموماً ودون استثناء، رغم ادعاء صدام حسين فيما بعد "العراقيون بعثيون وأن لم ينتموا!!!".

2. من أجل حماية النظام من جميع الأعداء المحتملين لا بد من تكوين آلة عسكرية قادرة على تدمير العدو المحتمل حال بروز شك بسيط به، حتى لو كان أقرب أقرباء رأس النظام، فالولاء بالأساس ليس للنظام بذاته بل لرأس النظام ومن خلاله للنظام الذي يقف هو على رأسه.

3. من أجل حماية النظام يفترض تغييب كل أصحاب الفكر والرأي الآخر والناشطين في الحياة السياسية من غير أتباع النظام أو العاملين تحت رايته، سواء بتصفية تلك التنظيمات بالتالي هي أحسن ومن خلال تقديم الجزرة المناسبة أو بالسجن والتعذيب والتدمير الجسدي الكامل لوجود صاحب الفكر والرأي والموقف الآخر. وفي هذا الموقف لا يوجد أي تمييز بين المرأة والرجل فكلهما سواسية ويتحملون نفس العواقب من جراء حملهم للرأي الآخر. ومن الجدير بالإشارة إلى أن الفكر الصدامي، الذي عمق الجانب العنصري والاستبدادي الشمولي والقمعي في فكر البعث العقلي وممارساته، وهو فكر استئصالي للآخر، سواء أكان الآخر فرداً أم جماعة أم حزباً أم جماعة قومية أخرى أم حتى شعباً آخر. وكان يعبر عن ذلك بقوله "جننا لنبقى!".

4. تعتبر كل مخالفة لقواعد النظام أو القوانين التي أصدرها بمثابة عدوان على النظام وعلى رأس النظام، وبالتالي فالعقوبة تنزل بهم كما تنزل بالسياسيين المعادين للنظام أو المخالفين لرأي رأس النظام.

5. يفترض العمل على كسب الناس إلى حزب النظام ومنظمات النظام، سواء أكانوا مستقلين أساساً أم أعضاء في أحزاب أخرى، كما يفترض ممارسة جميع الأساليب لتحقيق هذا الهدف، ومنها العنف والقسوة للفرد، سواء أكان رجلاً أم امرأة، ولأفراد عائلته. إلا إن عضوية الحزب أو المنظمات المهنية التابعة له لا تعني الثقة بهذا الشخص أو ذلك، بل يفترض اعتماد الرقابة عليه وعلى أفعاله والتيقن المستمر منه. ولهذا صدر قانون يقضي بإعدام أي بعثي يترك حزبه وينتمي إلى حزب آخر.

6. وللوصول إلى مثل هذا الهدف لا يمكن الاعتماد على جهاز واحد، إذ أن الشك بولاء الأجهزة الأمنية ذاتها يفترض أن يبقى قائماً باستمرار لكي لا ينتفي الحذر منها، خاصة وأنها تمتلك وسائل العنف في يديها أيضاً، وبالتالي لا بد من تشكيل أكثر من جهاز أمني متعدد الأغراض كل منها يراقب الآخر وهلمجراً وتبقى خيوط هذه الأجهزة بيد رأس النظام ذاته وأقرب المقربين له ومنه. ومن هنا نعرف لماذا كان في حوزة صدام حسين خمسة أجهزة أمنية يراقب بعضها البعض الآخر وخيوطها كلها بيد صدام حسين مباشرة. وكان أخوه برزان أو بقية أخوته أو ولداه قصي وعدي يمارسون هذه المهمة أيضاً وتحت إشراف "القائد الضرورة!"

7. إن وجود هذا العدد الكبير من الأجهزة الأمنية لم يكن كافياً، كما يبدو لأجهزتها الأمنية، لحماية رأس النظام من معارضي النظام، فلا بد والحالة هذه أن يتحول جزء كبير من بنات وأبناء المجتمع العراقي إلى

مخبرين وعيون للنظام الأمني الذي كونه، سواء أكان من خلال دفع رواتب ومكافئات ومراكز حكومية لهم أم فرض التطوع عليهم لحماية أنفسهم من غضب النظام وأجهزته. على أن يكون عمل هؤلاء يشمل المجالات والمستويات كافة وتنشيط أكبر عدد ممكن منهم لهذا الغرض، إذ بذلك يتم ربط هذه المرأة أو ذاك الرجل بالنظام وحركة عجلته واتجاهات تطوره. ويمكن لهؤلاء أن يرتبطوا بآخرين وبالتالي يمكن تحويل الملايين من البشر ممن لا يثق النظام بهم بأساليب وطرق مختلفة بالنظام وأجهزته الأمنية وغير الأمنية وبمنظّماته المهنية. والهدف من وراء ذلك شدّ المواطنة والمواطن بعدة خيوط لا يمكن الإفلات منها وبيتعد عن كل نشاط يمكن أن يلحق الضرر بالنظام بأي صورة من الصور. لقد حضرت مؤتمراً لاتحاد الاقتصاديين العرب بالقاهرة في منتصف العقد الأخير من القرن العشرين. نظم مسؤول المؤتمر سفرة جميلة في نهر النيل. وحين بدأت الأحاديث بين عدد من الضيوف العراقيين، ترجى أحد الضيوف، وكان موظفاً كبيراً في البنك المركزي العراقي، أن لا نتحدث بالسياسة لأنه مجبر على كتابة تقرير تفصيلي عن النقاشات وبأسماء الأشخاص. وإن لم أفعل سأعاقب لأن شخصاً آخر أو أكثر من الحاضرين في هذه السفرة ربما سيكتب مثل هذا التقرير، وعند ذلك سأحاسب وستكون العقوبة قاسية جداً. إن هذا يعبر عن انعدام الثقة والشك القاتل إزاء الآخر الذي نما وتفاقم لدى العراقيين حينذاك. وتحدث لي الأخ الفقيه الدكتور عبد المنعم السيد علي، وهو قومي عربي، حين كنت معه في مؤتمر للاقتصاديين العرب ببيروت بأنه لا يستطيع الحديث عن صدام حسين في البيت لأنه يخشى أن ينقل أبنائه حديثه للمسؤولين، وهكذا كان وضع الدكتور محمد جواد العبوسي، وهو قومي عربي، في سنواته الأخيرة، وكان وزيراً للمالية في فترة حكم عبد السلام عارف. أما ثامر رزوقي، وزير مالية سابق في زمن البعث وعضو جمعية الاقتصاديين العراقيين، فقد قال لي حين زارني في غرفتي بالفندق ما يلي: "لقد أرسلت رجل الأمن المرافق لي ليزور الأسكندرية لكي أتفرغ وأزورك". ثم تحدث لي عن الوضع المزري بالعراق وخشيته من الظهور إلى العلن بعد أن أبعد عن وزارة المالية لكي لا يراه ويتذكره صدام حسين. وحين غادر العراق للمشاركة بمؤتمر الاقتصاديين العرب بالقاهرة أُجبر على القسم أمام زوجته وببديها القرآن أن لا يأتي على ذكر "أبو عبدو" فأبي من جلساته بالقاهرة. والمقصود هنا صدام حسين. وحين دعانا الدكتور خير الدين حسيب إلى جولة نهريّة في قارب عبر نهر النيل، طلب منا أن ننتبه بأن "يد الثورة طويلة". وأثناء الحديث قال أحد كبار موظفي البنك المركزي العراقي بأن عليه أن يكتب تقريراً عن هذا اللقاء إلى مديرية الأمن العامة، وإن لم يكتب وسيكتب غيره من الحاضرين القادمين من العراق مثلاً،

عندها سيحاسب على ذلك حساباً عسيراً. وكان يرجو بذلك وبشكل غير مباشر أن لا نتحدث بالسياسة أو بموضوعات تمس رأس النظام أو النظام عموماً!

8. ولا يكفي ربط الفرد بمثل هذه الخيوط الأمنية لحماية النظام من نشاط المناوئين، بل لا بد له من السيطرة الكاملة على النشاط الاقتصادي بالبلاد لكي يشعر كل إنسان في المجتمع بأنه محتاج للنظام في الحصول على رزقه وعلى حجم الرزق الذي يريد الحصول عليه. وتتم السيطرة بشكل خاص على أجهزة الإعلام كلها لضمان تربية المواطنة والمواطن بالأفكار والسلوكية والمعاملة التي يريدها رأس النظام لأفراد المجتمع، إذ بدونها يمكن نشوء بؤر مضادة له.

9. ومن أكثر الأمور أهمية بالنسبة للنظام كانت امتلاكه "الحرية المطلقة!" في منح الحياة لمن يشاء ويسلبها متى يشاء وممن يشاء في كل الأمور التي تمس المواطن والمواطنة وحقوقهما المشروعة دولياً، ولكن من حيث المبدأ لا توجد حياة حرة ولا ديمقراطية بصورة مطلقة، إذ يفترض على المواطن إبداء آيات الخضوع والطاعة التامتين لرأس النظام وتعليماته في الحياة والعيش والعمل، في أوقات الحرب والسلام. وتعليماته تعتبر قوانين وقواعد عمل ملزمة للناس، سواء أكانوا من الرجال أم من النساء.

10. لا تكفي تقديم فروض الطاعة التامة والخضوع الكامل لرأس النظام وإرادته حسب، بل يفترض العمل المتواصل على تمجيد رأس النظام والتسبيح بحمده. ومن هنا تعززت وأصبحت فعلاً يومياً، وهما العقاب لمن لا يلتزم بذلك والثواب لمن يلتزم بذلك. فتبارت مجموعات من الشعراء وكتاب القصة والرواية وكتاب المقالات الصغرى من وعاظ السلاطين وناشري المطبوعات التي تمجد شخصية الدكتاتور وتبرز جوانب من حياته الشخصية و"أفعاله العظيمة!" التي ارتبطت بتقديم الهدايا والأوسمة من نقود وسيارات ودور سكن وحلى ذهبية ومعالجات طبية باعتبارها عطايا القائد للمخلصين له من أبناء شعبه المداحين! وكان النسيان أو العقاب يشمل الآخرين ممن كان لا يقف مع فرق المداحين. كما التزم بعض الرسامين والنحاتين بمباراة تقديم تماثيل وصور ولوحات زيتية تمثل "القائد الضرورة!". ولكن الغالبية العظمى من مثقفي العراق ومثقفاته رفضت الخضوع لإرادة الدكتاتور ورغباته الحيوانية، وبالتالي أُجبر الكثير منهم على مغادرة العراق بطرق وأساليب مختلفة حفاظاً على حياتهم وشرف الكلمة الحرة. كما إن الكثير ممن بقي في الداخل حافظ على سمعته وشرف الكلمة أيضاً ولكن عبر صعوبات مريرة ومخاطر جمة.

11. وخلال فترة غير قصيرة مارس النظام سياسة فرق تسد ونهج التحالف لضرب وتدمير طرف ثالث. وهكذا استطاع النجاح في ضرب العديد من الأطراف عبر ممارسة هذه السياسة. ولكن لم يكن العيب فيه

وحده، بل العيب في الأطراف التي قبلت الوقوع في فخ التحالفات المؤقتة للتخلص من الآخرين أو القناعة بأن في مقدورها التأثير على وجهة سير النظام، رغم دروس الماضي التي كانت قد أوضحت بعدم إمكانية الوصول إلى تغيير في طبيعة هذه المجموعة من القوى السياسية ذات الاتجاهات الشوفينية والعنصرية والاستبدادية والتي جربت في أعقاب ثورة تموز 1958 وفي انقلابها الفاشي الدموي في شباط من العام 1963 والمجازر التي ارتكبتها وقطار الموت الذي نظمه للشوعيين وخاصة ضباط الجيش الشيوعيين والديمقراطيين. ومع أن القوى التي وقعت في حبال النظام لم تكن كثيرة، إلا أنها كانت كافية لتعزيز مواقع النظام في فترات أحس بها بالضعف والحاجة للآخر وأضعفت مصداقيتها في أعين الكثير من المؤيدين لها قبل ذلك.

12. ومن أجل منح فكره وسياسته قوة دافعة وكاسحة، هيمن النظام على أجهزة الإعلام السمعية والبصرية والمقروءة وعلى النشر والطباعة والمسرح والسينما بهدف التثقيف الكامل بوجهة البعث، وكذلك على مناهج التدريس في مختلف مراحل الدراسة ابتداءً من الروضة وانتهاءً بالدراسات العليا.

13. وعلى وفق سياسات خارجية معينة مارسها النظام تسنى له ولفترة طويلة التحكم بعلاقاته السياسية والاقتصادية والتجارية والثقافية مع أغلب دول العالم في فترة كان العالم ما يزال يعاني من عواقب الحرب الباردة بين الشرق والغرب أولاً، كما كانت سياسة دول العالم، وهي ما زالت حتى الآن، تقوم على المصالح أساساً وليس على المبادئ التي تضمن حقوق الإنسان والشعوب ثانياً، وبالتالي، كان النظام مستعداً لتلبية مصالح تلك الدول من خلال الثروة النفطية الهائلة من جهة، ومن خلال استيراد المزيد من السلع العسكرية والاستهلاكية بسبب امتلاكه لعوائد النفط الخام المصدر من جهة ثانية. وقد حققت الدول الكبرى وغيرها الكثير من الأرباح الممزوجة بدم العراقيات والعراقيين ودموع الثكالي على حساب مصالح وحياة ومستقبل الشعب العراقي من خلال أسلوب وأهداف تعاملها غير الإنساني الشعب العراقي لصالح النظام السياسي الفاشي.

1. "الوحشية المرعبة للنظام في زنازين النساء بالعراق" في ضوء كتاب جين ساسون

أقام صدام حسين بالعراق نظاماً دكتاتورياً تميز بالقسوة والشراسة والسادية الدموية، نظاماً لا يميز بين الشيخ والصبي، وبين المرأة والرجل، وبين المريض والناصح، في التصدي لمن يشعر بأنه قد يشكل

وبهذا القدر أو ذاك خطراً عليه وعلى موقعه ونظامه. وفي المقابل صمت العالم كصمت أبو الهول عن كل ما كان يعرفه عن ممارسات إجرامية لهذا النظام. ولهذا السبب أيضاً تمكن النظام من البقاء فترة طويلة في الحكم. ويمكن أن نشير إلى إن منظمة العفو الدولية قد رفعت راية النضال من أجل الحرية للسجناء السياسيين و ضد التعذيب بالعراق عالياً واستحقت تأييد الشعب العراقي.

بقى المجتمع العراقي في حينها وإلى حين سقوطه يعاني من قسوة النظام وجلاوزته ومن سياساته وعقوباته ونشاط أجهزته الأمنية العديدة. والنسوة بالعراق عانين من طبيعة هذا النظام ومن سياساته باتجاهات عديدة، فقد فقدن أقرباؤهن في الحروب الداخلية والخارجية وفي السجون والمعتقلات، وحرمن من حقوقهن المشروعة وجرى التجاوز حتى على حقوقهن التي ضمنها الدستور المؤقت للنظام. كما واجهن غضب النظام وقمعه الشرس بشكل مباشر عبر الملاحقة والاعتقال والتعذيب والسجن دون محاكمة والاعتصاب الجنسي والقتل تحت التعذيب أو الإعدام بمختلف الأساليب.

لقد فقدت المرأة العراقية حقوقها التي تمتعت بها في ظل العهود والحكومات السابقة، وخاصة تلك الحقوق البسيطة التي منحتها لها ثورة تموز 1958 بفعل نضالها من أجل تلك الحقوق والتي تجسدت في قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959، وأصبحت من جديد تعاني من ويلات اضطهاد الرجل في البيت والذكور في المجتمع عموماً ومن الدولة بقوانينها وعقوباتها وسلبها كامل شخصيتها تقريباً. ومنح صدام حسين الحق للرجل بضرب زوجته لتأديبها، وكان هذا أحد المخازي التي مارسها صدام حسين في إطار حملاته الإيمانية بالبلاد.

ولم تختلف أساليب التعذيب التي كانت تمارس ضد النساء عن تلك التي مورست ضد الرجال، فكن في هذا الأمر سواسية، إلا أن ما كان يصيبهن وهن حاملات أو راضعات مثلاً يفوق ما كان يصيب الرجل، إذ غالباً ما كن يفقدن حملهن بسبب التعذيب أو يقتلن وفي بطونهن حملهن أو يلدن وهن في السجن ثم تتم مصادرة أطفالهن أو حتى يعذبون لفرض الاعتراف عليهن أو يقتلون. وفي هذا الصدد يفترض أن نقرأ بعناية الكتاب الذي صدر في لندن في العام 2003.

نشرت الكاتبة البريطانية جين ساسون في العام 2003 كتاباً جديداً باللغة الإنجليزية ثم ترجم مباشرة إلى اللغة الألمانية ونشر في العام 2004 تحت نفس العنوان "ميادة ابنة العراق". يحكي هذا الكتاب قصة حياة سيدة عراقية من عائلة أرستقراطية عراقية معروفة هي ميادة نزار جعفر مصطفى العسكري، إنها حفيدة القائد العسكري العراقي ووزير الدفاع في العهد الملكي جعفر مصطفى العسكري (1886-



1936م) من جانب الأب (نزار العسكري) والذي اغتيل في أعقاب انقلاب بكر صدقي في العام 1936، وحفيدة الشخصية القومية العربية المعروفة ساطع الحصري (1879-1988م) من جانب الأم (سلوى الحصري). عملت ميادة في الصحافة والنشر وحصلت على ثلاثة أوسمة لثلاث سنوات متتالية بين 1981 و1983 مخصصة للكتاب سلمت لها من قبل صدام حسين.

في هذا الكتاب سجلت الكاتبة البريطانية نقلاً عن أحاديثها مع ميادة العسكري لوحة مريعة ومحزنة جداً لواقع النظام العراقي في فترة حكم صدام حسين ووضعت القارئ والقارئ في صورة واقعية، ولكنها جزئية مهمة، تتحدث عن معاناة النسوة في بعض معتقلات النظام العراقي وخارجها، وعن جملة من أساليب التعذيب التي مورست ضدهن في معتقلات مديرية الأمن العامة (البلديات في البتاوين) ببغداد على أيدي جلاوزة النظام. كما قدمت لوحة صادقة عن السلوكيات الغريبة والأخلاقيات المنحطة لبعض أبرز مسؤولي النظام وأجهزته الأمنية.

أعتقلت ميادة العسكري في مكتبها الواقع في شارع المتنبي، المختص بطبع وبيع الكتب، بذريعة أن مكتبها طبع بيانات سرية لقوى المعارضة العراقية موجهة ضد النظام. وهي لا تعرف بذلك ولم تمارسه بأي حال لأنها كانت تدرك عواقب هذا العمل، كما إنها لم تعمل بالسياسة ومن عائلة ذات علاقات واسعة بحكام العهد البعثي. منعت بخشونة من قبل ضابط الأمن الاتصال بابنتها وابنها في البيت لأخبارهم باعتقالها. وقد أصاب الرعب الشباب والشابات الذين كانوا يعملون في المكتب خشية من اعتقالهم وعلى حياتهم في آن. وبعد أن قبلوا المكتب وما فيه وبعثروا أثاثه ومحتوياته أخذوا معهم أجهزة الكمبيوتر وميادة إلى دائرة الأمن العامة بالبتاوين.

اصطحبها رجال الأمن الثلاثة إلى بناية عالية في مديرية الأمن العامة وصدمت برؤية عدد كبير من المعتقلين، وكأنهم خرجوا لتوهم من معركة دامية. بعضهم مشدودة يديه من الخلف والدماء تسيل من رأسه وبعضهم الآخر الدما تغطي وجوههم والبعض الآخر يزحف على ركبتيه ليصل إلى جدار الزنزانة الدماء تسيل من قدميه. بدأت بالبكاء للنظر الموحش الذي رآته وخشيتها من أن تعامل بذات الطريقة. بعد تسجيل اسمها في سجل المعتقلين، نقلت إلى بناية أخرى حيث توجد زنازين منفردة للنساء وأخرى للرجال. وضعت السيدة ميادة العسكري في الزنزانة رقم "52" الخاصة بالنساء. كان رقم الزنزانة يمثل الشؤم كله بالنسبة لميادة، إذ بقي في ذاكرتها أن جدها الفريق الركن جعفر العسكري اغتيل بعد أن بلغ 52 سنة. وأبوها تمرض وعمره 52 وأدخل المستشفى ووضع في ردهة 52 ومات فيها. وهي الآن حطت

في الزنزانة رقم "52". حاولت الامتناع من الدخول حين قرأت الرقم، ولكن جاءتها دفعة قوية من رجال الأمن خلفها جعلها تتعثر في ولوجها الزنزانة ليتلفنها النساء قبل سقوطها على الأرض.

كانت الزنزانة قد صممت لتسع ثمانية أشخاص في الحد الأقصى، ولكن حُشر فيها ثمانية عشر امرأة من مختلف الأعمار وإن كان أغلبهن من الشابات. تفوح في هذه الزنزانة رائحة العفونة والبول والرطوبة وبرودة الأرضية الإسمنتية المسلحة ورائحة الأجسام غير المغسولة لأشهر أو سنوات خلت وهي كلها ممزوجة برائحة الطعام السيئ جداً الذي يطبخ في مطعم خاص للمعتقلين في سجون الأمن العامة والذي يصعب ازدراده وتعفه النفس. وقد همسن في أذن ميادة عليها أن لا تأكل مرقة الباذنجان لأنها مسممة. وفي الزنزانة 52 أصبن جميعاً بالتسمم ولكن نجين من الموت في حين مات البعض في زنازين أخرى. ثمانية عشر امرأة حُشرن في هذا الزنزانة هن: سمارة وعلياء ورشا ورولا وإيمان ود. صباح ومنى وسفانة وسارة وجميلة وحياء وآسيا وأمان ومي وأماني وأنوار ووفاء وميادة. لكل منهن قصة حزينة تذكرنا بدولة كانت لا تحترم نفسها لأنها لا تحترم كرامة مواطنيها ومواطناتها. ليس بينهن سوى ثلاث نساء اتهمن بهذا القدر أو ذاك بالسياسة، إحداهن بعثية وأخرى متهمة بقربها من الشيوعيين وثالثة اعتقلت لأن زوجها وابنها هربا إلى تركيا خشية الاعتقال بسبب اتهامهما بالعمل مع الأحزاب الإسلامية السياسية الشيعية. أما اعتقال ميادة فقد جاء على خلفية احتمال استخدام أحد العاملين لديها جهاز الاستنساخ في مكتبها في استنساخ بعض البيانات لقوى دينية شيعية. أما بقية النساء، فالإتهامات الموجهة لهن أما السفر بجواز سفر مزور أو فقدانهن جواز سفرهن واستخدامه من أخريات للسفر إلى خارج العراق أو حصول سرقة في الدائرة التي كانت تعمل فيه إحداهن بسبب تلاعب مدير حسابات البنك الذي كانت تعمل فيه أو اتهامهن بالتجسس لإسرائيل أو إيران... الخ!!!

الكتاب يروي قصص هؤلاء النسوة أثناء سرده لقصة ميادة العسكري بين اعتقالها وإطلاق سراحها وهروبها إلى الأردن قبل سقوط النظام الدكتاتوري. جميع النسوة المعتقلات في الزنزانة رقم "52" تعرضن للتعذيب الشرس يومياً تقريباً وبالتناوب لانتزاع اعترافات منهن بأنهن مشاركات في التهم الموجهة إليهن دون أن تكون التهم الموجهة لأغلبهن، إن لم نقل لجميعهن، صحيحة أو مستندة إلى وثائق دامغة، إذ لم يكن هناك تحقيق سليم من الناحية القانونية، كما لم يكن التحقيق سوى عملية تعذيب وإهانة واستباحة مستمرة، وخلال عملية التعذيب كانت الأسئلة تطرح من قبل الجلادين أنفسهم وليس من حكام تحقيق وبصورة قانونية. بعض النسوة قضى ثلاث سنوات مثلاً وانتقل من معتقل إلى آخر إلى أن حظ

الرجال في الزنزانة رقم "52"، وعانين من التعذيب بمختلف صورته وأشكاله في كل تلك المعتقلات ودون أن يقدمن إلى المحاكمة أو تصدر أحكام بحقهن. فهو اعتقال خارج القانون بامتياز. كان أسوأ تلك المعتقلات بعد الأمن العامة معتقل الرمادي حيث تستخدم الأساليب الوحشية واغتصاب النساء والتهديد باغتصاب أطفال النساء المعتقلات.

إلا إن قمة العذاب النفسي والجسدي الذي واجه هؤلاء النسوة كان في معتقل الأمن العامة في البلديات، هذا المعتقل الذي وضعت فيه ميادة العسكري والذي تحدث عنه السيدة جين ساسون. أغلب النساء المعتقلات كن من أتباع المذهب الشيعي، في حين تتبع ميادة وامرأة عربية أخرى المذهب السني، إضافة إلى معتقلة كردية سنية. هذا على وفق ما ورد في كتاب جين ساسون.

تصف الكاتبة البريطانية وصفاً دقيقاً وحزيناً لحالات التعذيب التي تعرضت لها سارة وسفانة وسمارة ومنى وجميلة وميادة أو إيمان ورولا وبقية المعتقلات في هذه الزنزانة المخصصة للنساء، إضافة إلى وجود زنزانات أخرى للنساء المعتقلات على ذمة التحقيق. كما كانت تنقل الكاتبة عن ميادة العسكري وصفها لحالة المعتقلات والمعتقلين الآخرين من الرجال والنساء في الزنزين المجاورة.

لنستعرض وبسرعة وصف الكاتبة للتعذيب الذي واجهته سمارة. امرأة ريفية جنوبية تميزت بالرشاقة والجمال. حين بلغت سن الزواج تزوجت من شخص تعرفه منذ الطفولة. أنجبت سمارة طفلين جميلين أيضاً. وعاشا حياة طبيعية هادئة حتى أعلنت الحرب العراقية الإيرانية وجند زوجي وشارك في الحرب وكان يأتي بين فترة وأخرى لزيارتنا. بعد فترة جاءت الشرطة وجلبت تابوتاً قيل لنا بأنه زوجي. وحرّموا علينا فتح التابوت. ولكن أخ زوجي، وبعد ذهاب الشرطة، أصر على فتح التابوت وإذا بنا نفاجاً بعدم وجود جثة بل مليء بالتراب لا غير. لم نستطع الاستفسار لأن عقوبة فتح التابوت شديدة ونخشى على أنفسنا، فسكتنا. أقامت عائلة زوجي مجلس فاتحة على روحه الطاهرة، رغم أننا لا نعرف هل اسر من قبل إيران، هل قتل ودفن من قبل الحكومة، هل ما يزال على قيد الحياة؟ كلها أسئلة كانت تدور في بالنا وليس لنا لها جواب. بعد مرور عدة سنوات تزوجت من رجل آخر وقررنا وضع الطفلين لدى عائلتي والسفر إلى الأردن للتفتيش عن عمل بسبب البطالة الواسعة في فترة الحرب بالعراق. وقبل السفر قرر زوجي تبديل لقبني الذي كان باسم جدي إلى اسم والدي وأصر على ذلك. وافقت وجرت عملية تغيير اللقب في المحكمة بصورة رسمية وسجل في السجلات الرسمية. وغادرنا العراق إلى الأردن. حصلنا على عمل في الأردن حيث كنا نشترى السجائر بسعر مناسب ونبيعها في شارع الهاشمي ونربح بعض المال.

بقينا سنتين في عمان، فجمعنا بعض المال وكنا سعداء، وقررنا العودة لزيارة الأهل. حال وصولنا الأرض العراقية وأخذ جوازاتنا للتدقيق والختم، جاءت شرطة الحدود وعزلونا عن الآخرين ثم اعتقلنا وأرسلنا إلى الرمادي بواسطة رجال الأمن. في معتقل الرمادي بدأ تعذيبنا بشراسة مفرطة مستفسرين عن أسباب تبديل لقبى واتهامنا بكوننا جواسيس إما لإسرائيل وإما لإيران. كنت وزوجي في زنزانة واحدة في الرمادي. استعدي زوجي للتحقيق ثم أعادوه إلى الزنزانة وهو محمول من رجال الأمن ورموه على أرض الزنزانة. كان بين الحياة والموت، غائب عن الوعي. أردت أن أعرف هل هو حي أو ميت فبصقت في وجهه بسبب عدم وجود ماء لدينا. تصوري إني بصقت في وجه زوجي الطيب لأعرف هل هو حي أو ميت ولكي أنعشه. بعد يوم واحد وحين صحا زوجي قرروا نقلنا إلى بغداد، إلى معتقل الأمن العامة (البلديات بالبتاوين). وكما حصل في الرمادي لم يكف التعذيب كما لم يكف طرح ذات الأسئلة وأجيب بالإجابة ذاتها. في هذا المعتقل فصلت عن زوجي ولا أعرف ما جرى له. لا يريدون تصديقي ولا يمكنني أن أعترف بشيء لم أقدم عليه أو أمارسه. وحين أقول نعم سيكون قرار الموت قد صدر بحقي. استدعيت مرة للتحقيق. كان الضابط لطيفاً معي وسألني ماذا أريد أن يهديني هل أقرط للأذن أو سروال جميل. قلت لا يمكن استخدام السروال في السجن بل أقرط. وتصورت أنهم تيقنوا من براءتنا وقرروا تعويضنا بكلمات رقيقة. فنادى الضابط على الحراس ليحلبوا الأقرط. فضحكوا جميعاً. وإذا بهم يأتون بأجهزة كهربائية مسكوا يدي من الخلف ولصقوا الأسلاك الكهربائية بأذنيّ وبدأ الضابط يضغط على زر كهربائي بين يديه. فبدأت الآلام تسحقني. بذلت كل الجهد لتحمله ولكنه كان فوق طاقة البشر. واستمر الضابط على تشغيل وإطفاء الزر مرات كثيرة حتى شعروا بأنني أقرب إلى الغيبوبة فتوقفوا. بعدها نادى الضابط على الحراس وطلب فك وثاقي والأسلاك الكهربائية وجلب السروال. وإذا بهم يجلبون شيئاً أشبه بالسروال فرضوا عليّ ارتداءه. ثم حملوني ووضعوني على منضدة في وسط غرفة التعذيب وشدوا وثاق ساقي وبدأ الضرب الوحشي على باطن قدمي بشكل متواصل. استمر طويلاً حتى شعرت بأن شيئاً يتمزق في باطن قدمي وكنت اصرخ من شدة الألم. بعدها فكوا وثاقي وأنا غائبة عن الوعي وحملوني إلى الزنزانة وكان جلد باطن القدمين قد تمزق وبدأت الدماء تسيل فاعتنوا بي بقية المعتقلات. رفعت قدميها الرقيقتين ورأت ميادة الندب الكبيرة على باطن القدمين والتي ما تزال لم تندمل الجراح تماماً ولكنها قادرة على السير بآلام غير قليلة.

في أحد الأيام نودي على السيدة سماره وأخذت إلى التحقيق. وهي المرأة الأكثر استدعاءً من جانب أجهزة الأمن وكانت كل مرة تعود إلى الزنزانة وهي في حالة إنهاك شديد. بعد عدة ساعات جليها الحرس

ودفع بها بقوة إلى الزنزانة. تأرجحت يمناً ويسرة ثم هوت على الأرض الإسمنتية. تجمع النسوة حولها اعتقدنا بأنها على وشك الموت. اقتربت منها المعتقلة الدكتور صباح وحاولت معرفة ما بها. لم تكن قادرة على الحديث كانت عيناها مغمضتان ولا تبشران بالخير. تسنى للنسوة حملها ووضعها على السرير الحديدي. جلبت لها الدكتور صباح قطعة قماش بللتها بالماء ووضعها على رأسها ووجها المليء بالكدمات. فتحت أزرار قميصها فوجدوا آثار استخدام التيار الكهربائي وأعقاب السجائر التي تسبب بندب كبيرة على صدرها وثدييها وكامل جسمها. بعد فترة استطاعت أن تفتح عينيها وأشارت إلى أن رجل الأمن الضخم قد داس بقدميه على بطنها وصدرها وشعرت بشيء تكسر داخلها، إضافة إلى ضربها في كل مكان من جسمها. لقد أحست ميادة وكأن شيئاً منها يقتل في هذه الزنزانة وقد نشأت بينها وبين سمارة صداقة إنسانية عميقة. كان التضامن والتعاون والمساعدة أو الاحتضان بين نساء الزنزانة 52 كبيراً جداً مما كان يساعد على تحمل العذابات اليومية التي كن يتعرضن لها وخاصة سمارة. لقد كانت سمارة شابة جميلة وحريصة على مساعدة الجميع وإلى الالتفاف حول المعذبين والقادمين الجدد لتشجيعهم على تحمل ما يمكن أن يتعرضون له من جلادي النظام.

أثناء سرد سمارة قصتها كانت ميادة تسمع صوت رجل يقرأ القرآن بصوت مرتفع من زنزانة للرجال ليست بعيدة عن زنزانتهن. وكان الحرس يطلب منه السكوت، ولكنه كان يواصل تجويد القرآن. ورد في كتاب جين ساسون النص التالي في نهاية الفصل الموسوم "جدو الحصري" إن المعتقل أحمد متهم بالوهابية، وكان يؤذن كل صباح أو يتلو القرآن بصوت مرتفع يصل عبر الجدار العازل بين زنزانته وزنزانة النساء فتذكر ما يلي:

"من خلال الجدار كان بإمكانهم سماع صوت الشاب الوهابي المتدين وهو يدعو إلى الصلاة بصوت مرتفع. وفجأة تحولت صلاته إلى صراخ. بلغت التوتر العصبي لدى ميادة إلى الحد الذي قفزت من مكانها وتشبثت بذراعي سمارة وصرخت مرعوبة: "إنهم يقتلونه! إنهم يقتلونه!"

ردت عليها سمارة بصوت منخفض قائلة: كلا، ولكن ما يفعلونه به هو أبشع من الموت، وبشكل خاص لرجل مسلم متدين. لم تفهم ميادة ما كانت تعنيه سمارة، إلى أن سمعت، كيف كان الرجال يسحبون أحمد إلى الممر حتى وصولاً به بشكل متعمد أمام مدخل زنزانة النساء ورأت بأمر عينيها كيف بدأ جلاوزة الأمن باغتصابه واحداً بعد الآخر. كانت ميادة في حالة رعب شديد. الاغتصاب، هذا الفعل الوحشي، استمر

قربانة ساعة واحدة، ثم سمعت ميادة، كيف كان أحد الحراس يضحك وهو يقول لأحمد: "ريح نفسك. أنت الآن أصبحت امرأة لثلاثة رجال ويجب أن تكون منذ الآن طوع إرادتنا."! (ص 119).

وفي الفصل الموسوم بـ"التعذيب" تصف الكاتبة نقلاً عن ميادة حالة الزنزانة والنسوة المعتقلات وأساليب التعذيب التي كن يتعرضن لها يومياً، سواء أكان ذلك في الصباح أم في الليل، رغم أن عمليات التعذيب كانت تتم في غرفة التعذيب الخاصة ليلاً. كان رجال الأمن يمارسون أفعالهم القبيحة في الغرفة المهيأة لأغراض التعذيب من قبل جلادين ضخاماً غلاظ النفوس وبيدي الإحساس وفاقدى الكرامة الإنسانية، قساة لا تعرف الرحمة طريقها إلى قلوبهم، يتلذذون ويقهقهون ويتندرون في ما بينهم وهم يمارسون الأساليب التي تؤدي إلى إصابة المرأة المعتقلة بالرعب والخوف والتشنجات العصبية بسبب الأم التعذيب أو خشية الموت تحت التعذيب. كان الضرب المبرح بالسياط على الظهر أو الضرب بالعصي والسياط على باطن الأقدام أو الضرب العشوائي في كل مكان من أنحاء الجسم، وخاصة على العمود الفقري والرقبة، أو التعليق والضرب وتقييد الأيدي أو استخدام التيار الكهربائي على المواقع الحساسة من جسم المرأة وإنزال الصعقات التي تعرض الضحية إلى شتى أشكال العذاب والاقتراب من الغيبوبة أو السقوط بها فعلاً. كان التعذيب عادة يومية لا مناص منها، ولكنها كانت تتباين في من يسحب للتحقيق أو لمجرد التعذيب والتلذذ به.

يجري التعذيب في أحيان غير قليلة والمرأة عارية تماماً بهدف إذلالها أو التمتع الجنسي السادي بعذابتها وهدر كرامتها، وهي سادية مرضية خطيرة، أو بعض الأحيان اغتصابها من أكثر من رجل أمن دون أن تجرأ المرأة المغتصبة جنسياً على التحدث بذلك أو حتى دون أن يجرأ الأخريات من النسوة الاستفسار عن ذلك. ولكن كل الدلائل كانت تشير إلى احتمال كبير بحصول ذلك. وكان بعضهن يتحدثن إلى من توطدت العلاقة بينهن داخل الزنزانة.

تحت سياط التعذيب الهجمي المتواصل سقطت المعتقلة جميلة جثة هامدة. كانت عملية إطفاء أعقاب السجائر المشتعلة في جسم الضحية، على الثديين، والحلمة، وفي البطن والظهر، وعلى الساقين والمؤخرة، حالة اعتيادية في عمليات التعذيب! وكان التعذيب يمارس بسبب اعتياد الجلادين على ممارسته دون الرغبة في الحصول على معلومات، إذ كان الجلادون يدركون أن ليست هناك معلومات يمكن الحصول عليها أو يمكنهم الإدلاء بها. ماتت جميلة دون أن يشعر هؤلاء الجلادون الأميون بوخز الضمير، حملوها كما يحمل كيس من الرمل لتلقى في مكان ما للتخلص من جثتها أو ربما رميت

في ماكنة فرم لحوم وعظام الضحايا التي كان يستخدمها النظام ويرمي بالثرورم من لحوم وعظام البشر إلى نهر فيه اسماك!

ثم روت لنا الكاتبة ما حصل لعلياء ورشا من تعذيب همجي قاد رشا إلى الموت المحقق لولا نقلها إلى المستشفى ومعالجتها بسرعة وعودتها بعد الظهر على الزنزانة. لقد سرق جواز رشا ومن ثم تم بيعه واشتره أخ عليا واستخدمته للسفر، فاعتقلت علياء ثم اعتقلت رشا بسبب فقدانها لجوازها. بدأ التعذيب ضدتهما لمعرفة من الذي اشترى من رشا الجواز وباعه لأخ علياء. وهكذا هم يقضيان الأيام والأسابيع والأشهر المتتالية في المعتقلات وتحت التعذيب اليومي دون أن تعرف رشا إن قد بيع لطرف آخر بعد أن سرق منها، كما لم تعرف رشا إن الجواز مسروق ومزور.

تصف ميادة عبر الكاتبة البريطانية ما حصل لهن جميعاً حين جاء الجلادون يوماً واقتادوهن واحدة تلو الأخرى وبحركة سريعة جنونية صوب غرفة التعذيب. بدأ الصراخ يملأ الممر والقاعة المظلمة التي دفعوا إليها ووضعوا فيها. أدركوا أنهم يساقون لجولة جديدة جماعية من التعذيب من قبل مجموعة كبيرة من رجال الأمن. بدأ الجلاوزة عملهم بإطلاق العيارات النارية فوق رؤوس المعتقلات بما يوحي وكأنهم سيقتلون جميعاً. كانت اللوحة مأساوية. سيطر الرعب على النسوة دون استثناء. كان الصراخ يعبر عن رعب شديد أصيب النسوة به، وامتزج بقهقهات معقدة وزعيق شرس للشرطة السرية المكلفة بحراستهن وتعذيبهن والتحقيق معهن يعلو كل الأصوات ويطلب منهن الصمت. كن قد تدافعن واصطدمت الواحدة بالأخرى في تلك الغرفة المعتمة ولا يعرفن أين وماذا يراد بهن، ثم تم دفعهن إلى مؤخرة القاعة حيث فرض عليهن الوقوف جنباً إلى جنب ووجوههن صوب الجدار. ثم بدأت الشرطة بتهيئة البنادق الرشاشة وكأنهم يريدون رمي النساء. أيقن النسوة بأنهن يعشن آخر لحظات حياتهن، فبدأ بعضهن بالصلاة والدعاء، وبعضهن الأخر، غاص في دواخله يفكر بما ترك خلفه من أطفال وأمهات كبيرات السن .. الخ.

بعد عدة ساعات من هذا النمط من التعذيب النفسي والجسدي الفاشي أُعدن إلى زنزانتهن وهن اقرب إلى الغيبوبة والموت منهن إلى الحياة. هكذا كانت رغبة الجلادين في أن يتمتعوا بتعذيب النسوة على هذه الطريقة، إذ لم يكن لهم ما يقومون به غير ذلك النوع من العمل غير الإنساني والبشع. لم يكن صدام حسين وحده يعاني من النيكروفيليا حسب، بل نقل علته المرضية الجسيمة إلى رجال أمنه وكوادر حزبه.

لم يمارس النظام البعثي التعذيب ضد النسوة تماماً كما كان يمارسه ضد الذكور حسب، بل كان قد بدأ بقطع رؤوسهن بذريعة العهر والرذيلة، في حين كان النظام نفسه يغوص في العهر السياسي والرذيلة

الفعلية واغتصاب النساء والرجال على حد سواء. لقد كان النظام البعثي الصدامي هو الرذيلة بعينها. لقد كان نظاماً عاهراً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه!

تحدثت ميادة للسجينات عن حادث حصل لها في أوائل الثمانيات من القرن الماضي. كان يمر عليهم بين فترة وأخرى مدير الأمن العام الدكتور فاضل البراك ليطلب من والدتها بعض الكتب المتوفرة في مكتبة والدها ساطع الحصري. وفي أحد الأيام وحين أعاد الكتب إلى دارهم وغادر الدار جاءت جارتهم السيدة أم سامي فطرقت الباب. خرجت إليها ميادة فرجتها التفضل بالدخول. سألتها أكان الرجل الذي جاءكم الآن هو الدكتور فاضل البراك مدير الأمن العام. أجابت ميادة نعم هو ذاته. فرمت أم سامي نفسها علي عنقها وتوسلت إليها أن تتوسط لديه لمعرفة مصير ولديها التوأمين اللذين اختطفا من الشارع حين ذهب لشراء كرة قدم ولم يعودا للدار. بذلت المستحيل للعثور عليهما في المستشفيات وفي مراكز الشرطة ولكن لم يدلها أحد على مكانهما. ولكن قيل لها بأن رجال من المخابرات أخذوهما بسبب كونهما كانا ينظران بخزر في وجوه رجال المخابرات. أوعدها ميادة العسكري بأنها ستتصل بمدير الأمن العام صباح اليوم التالي هاتفياً وتسأله عن مكان ولديها. قبلتها وعادت أم سامي بسرعة إلى دارها المجاور.

في اليوم التالي اتصلت ميادة بمدير الأمن العام هاتفياً وأخبرته بمشكلة أم سامي ورجته مساعدتها. عنفها فاضل البراك مشيراً عليها بأن ليس من حقها التدخل في مثل هذه الأمور. ولكنها أصرت عليه أن يساعدها. وافق أخيراً وأخبرها بأن على الأم أن تأتي إلى مديرية الأمن العامة صباح اليوم التالي وتخبرهم بالباب بأنها من طرفه. شكرته وفرحت بهذا الخبر وذهبت مباشرة إلى أم سامي وأخبرتها بأن عليها أن تذهب غداً لمعرفة مكان أبنائها التوأمين.

عدة أيام لم تلتق ميادة بجارتها أم سامي ولم تر الصبيين وعمرهما 14 عاماً يلعبان كرة القدم في الشارع كعادتهما. فذهب إلى دار أم سامي تستفسر منها عن ولديها. وجدتتها في حالة يرثى لها. شعر مشعث وملابسها غير منتظمة وكأنها نهضت لتوها من النوم، كانت عيناها واهنتان ووجهاً أصفر. استغربت ميادة من هذه الحالة وأرادت أن تتحدث معها في دارها، لكن المرأة امتنعت عن الحديث وأشارت لها بالصمت وسحبتهما إلى أحد أركان حديقة الدار وهي في رعب شديد. همست لها بأنها ذهبت في الموعد ووجدت مئات الناس يقفون بباب المديرية العامة بانتظار السماح لهم بالدخول. عملوا بلطف، إذ كانت هناك وصية من "السيد العام"، أي من السيد مدير الأمن العام، هكذا كانوا يسمونه، بالسماح لها ولزوجها بالدخول وتسهيل مهمتهما. أدخلوا في قاعة كبيرة وأعطوا قائمة بأسماء كثيرة طلبا منهما



التفتيش عن جاءوا لمعرفة مكانهم. لم يكن بين الأسماء اسما ولديهما. أخبرا بأن عليهما أن يذهبا على قاعة أخرى مقابلة. ذهبا إلى القاعة المقصودة وصدا برائحة عفونة الموت الصادرة من القاعة وعدد الجثث المرمية في هذا القاعة. قالت أم سامي: رأيت جثة قد تيبس الدم على الرأس والصدر، وأخرى شق الصدر من الأعلى حتى البطن، وثالثة رأت أثر مكواة كهربائية مطبوعا على صدر الضحية، ورابعة كانت سيقان الضحية محطمة... الخ. ثم لمحت من بعيد جثتي ولديها وهما ممددان جنباً إلى جنب في نهاية القاعة وكأنهما يغطان في نوم عميق. أبلغا بأنه مسموح لهما بأمر المدير العام أخذ الجثتين ودفنهما دون ضجة ودون الحديث بأمرهما وعدم إقامة مجلس الفاتحة على رويهما. دفنا ولدينا، وها أنا كما ترين لا أختلف عن أي أم مجنونة فقدت عقلها لفقدان ولديها الحبيبين. ارتمت ميادة على أم سامي تعزيها والدموع تنساب من عينيها إذ تذكرت كيف كان الصبيان يلعبان ببراءة أمام ساحة دارها وحين كانت تقود السيارة للخروج من المرأب كانا يتوقفان عن اللعب لحين مغادرتها المكان. بعد فترة قصيرة باعت أم سامي وزوجها درهما وغادرا المنطقة بأمل مغادرة العراق.

إن هذا الكتاب مليء بالأحداث المحزنة يصعب الكتابة عن كل ما جاء فيه وكم أتمنى أن يترجم إلى اللغة العربية ليكون تحت تصرف القراء والقارئات ليتعرفوا على حقيقة ما كان يعاني منه الشعب العراقي كله وليس القوى السياسية المعارضة وحدها من استبداد النظام وقمعه الوحشي وقتله للناس الأبرياء.

والذي لا بد من ذكره إن المرأة بالعراق تواجه مصاعب جمة لا تختلف كثيراً عما كان يعاني منه الناس في زمن الدكتاتورية الغاشمة. وإذا كان الضيم قد وقع على الكثير من الجماعات الشيعية والكردي في زمن صدام حسين، فأن الضيم واقع اليوم على الجماعات السنية على نحو خاص، وهي الحالة التي يعبر عنها بروح الانتقام التي يجسدها حكام العراق اليوم من أتباع المذهب الشيعي الذين لا يعبرون من حيث المبدأ عن إرادة الناس المنتمين إلى المذهب الشيعي، بل يعبرون عن مصالح الحكام من أتباع المذهب الشيعي لا غير.

## 2. واقع المرأة في المجتمع العراقي

لم تكن معاناة المرأة في ظل النظام الاستبدادي القمعي إلا مغالاة وإمعاناً في اغتصاب حقوق المرأة وجعلها جزءاً هامشياً تابعاً وخاضعاً لسيادة الرجل. إذ أن الأصل في كل ذلك هو موقف الرجل عموماً من المرأة في المجتمع العراقي. فالمعايير التي يعتمدها علم الاجتماع في التعرف على الموقع الذي تحتله المرأة في أي من المجتمعات البشرية كثيرة ومتعددة الأوجه، ومن خلالها يمكن التعرف على واقع ومستوى تطور تلك المجتمعات. ويمكن في هذا الصدد إيراد ثلاثة معايير جوهرية تعتبر معايير مركزية لاختبار موقع المرأة ومكانتها في مجتمع ما، وهي:

- طبيعة علاقات الإنتاج السائدة في هذا البلد أو ذاك ومستوى تطور القوى المنتجة المادية منها والبشرية فيه، بما في ذلك مستوى تطور التعليم والمهارة الفنية وتطور العلوم والحياة الثقافية والمعارف العامة، أو ما يطلق عليه اليوم بالتطور البشري أو الإنساني.
- مستوى الحياة الديمقراطية ومدى وجود وسيادة دستور ديمقراطي وتمتع شعوب هذا البلد أو ذاك بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق القوميات والعدالة الاجتماعية.
- دور المرأة ومكانتها في المجتمع إلى جانب الرجل ومكانتها في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومدى تمتعها بحريتها وحقوقها كاملة غير منقوصة من جهة، ومدى تمتع الطفل بالرعاية والحماية والتربية العلمية من جهة أخرى، إضافة إلى سبل التعاون والتفاعل بين المرأة والرجل في البيت والمجتمع.

وإذا حاولنا دراسة واقع المجتمع العراقي من خلال هذه المعايير، أي من خلال الربط العضوي في ما بين البناء التحتي للمجتمع والبناء الفوقي المهيمن عملياً لوجدنا الحقائق التالية:

1. سيادة العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية وتقاليد عاداتها، بما في ذلك العلاقات العشائرية التي تعود إلى حد ما إلى العلاقات الأبوية التي تسبق العلاقات الإنتاجية الإقطاعية في الريف، ولكن تعكس تأثيراتها وممارساتها البارزة على المدينة بشكل كبير وبشكل خاص في المجمعات المهمشة اقتصادياً

واجتماعياً وسياسياً من قبل الدولة والمجتمع والمنحدرة من أصل ريفي فلاحي ولم تدخل عالم الصناعة والعلاقات الإنتاجية الرأسمالية. وهي علاقات تحترم المرأة نسبياً في داخل العائلة، ولكنها تحتقرها خارج إطار العائلة والمجتمع وتعتبرها ناقصة العقل وعاجزة عن التفكير والتصرف العقلاني وهي دونية ينبغي الحذر منها، إذ حتى عندما يأتي ذكر المرأة في حديث بين الرجال يرفقها الرجل "حاشاك!"، وكأنها شيئاً محتقراً أو غير نظيف. وهو تعبير يحط من قدر الأنثى، وكأن الذكور يتحدثون عن شيء لا قيمة له بل أن ذكره يسيء للإنسان الذكر الذي هو "أعلى خلقاً وأكثر عقلاً وأوفر حصافة وقدرًا من الأنثى في المجتمع". والعلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية ترتبط بالإنتاج الزراعي في الريف الذي يعتمد الزراعة اليدوية والأدوات البالية التي تؤثر على ضعف مستوى الإنتاجية والإنتاج ومستوى المعيشة للغالبية العظمى من الفلاحين مما يجعل حياة الفلاحين في فقر مدقع ودين دائم، في حين يهيمن الإقطاعي على القسم الأعظم من الربيع المنتج من جهد الفلاحين لصالحه ولصالح أفراد عائلته وسراويله. ويحرم هذا الواقع الفلاحين بشكل عام من القدرة على التعلم والتمتع بالثقافة وفهم أمور الحياة بشكل أعمق، علماً بأن المرأة في الريف تُستغل بشكل مريع وأكثر من الرجل في أحياء كثيرة، فهي التي تنجب الأطفال وتطبخ وتنظف والدار وتربي الأطفال وتعمل في الحقل وهي التي يمكن أن تذهب لتسويق المنتجات الزراعية في السوق المحلية، ورغم كل ذلك فهي غير مستقلة اقتصادياً عن الرجل، بل خاضعة وتابعة لسطوة الرجل وهيمنته الكاملة اجتماعياً واقتصادياً، ولكنها يخضعان معاً، أي المرأة والرجل، لنفوذ الإقطاعي وسطوته المالية وهيمنته الكاملة واستغلاله البشع. والمجتمع العراقي لم ينفذ عن نفسه هذه العلاقات، رغم صدور قانون الإصلاح الزراعي بعد ثورة تموز 1958، فإن المرحلة التي تلت ذلك، وخاصة في فترة الثمانينات وما بعدها عاد المجتمع إلى تلك العلاقات الاستغلالية المتخلفة والمعرقلة للتطور الصناعي لتفرض نفسها في الواقع الحياتي المعاش في الريف والمدينة. وهكذا نجد وضع المرأة العراقية في المدينة لا يختلف كثيراً عن المرأة في الريف إلا من حيث كونها تحصل على بعض الخدمات الإضافية التي تحرم منها المرأة في الريف، وهي حبيسة البيت والمطبخ وتربية الأطفال وسجن العبادة الظالم والحرمان من أغلب الحقوق والواجبات الحقيقية في المجتمع. وعندما تحرم النسبة العظمى من النساء من العمل والحصول على أجر مناسب، فهن لا يتمتعن بأي استقلال اقتصادي ولا بحريتهن، وبالتالي فهن خاضعات وتابعات للرجل.

2. والحياة السياسية بالعراق على امتداد العقود الثمانية المنصرمة لم تكن في الغالب الأعم سوى حياة خالية من ممارسة النصوص الدستورية، سواء أكانت نصوص دستورية دائمة أم مؤقتة، رغم أن تلك

الذساتير كانت تتضمن بعض المبادئ الديمقراطية، ولكن الممارسة العملية كانت تشير إلى عكس ذلك وخاصة في العقود الأربعة الأخيرة. فالمجتمع خلال فترة حكم البعث الصدامي لم يعرف الحرية والديمقراطية واغتيلت بالكامل حقوق الإنسان وحرية وكرامته بصيغ وأساليب وأدوات شتى. وكانت حصة المرأة تمثل الجزء الأكبر من الحرمان والظلم والعذاب والتمييز المقيت في كل شيء. فإذا كانت حصة الرجل الزوج في الحروب ليحمل السلاح ويقابل الموت يومياً وسقط منهم مئات الآلاف، فإن المرأة فقدت حتى ذلك الجزء الضئيل من الحرية التي تمتعت بها في العهد الملكي، وخاصة الفئة الأرستقراطية أو الفئة المثقفة، أو في العهد الجمهوري الأول وفق قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959، رغم كل نواقصه الجدية. وتعرضت المرأة إلى الموت تماماً كما تعرض الرجل في إطار الاعتقالات والتعذيب والحملات العسكرية التي نظمها النظام الاستبدادي ضد الشعب الكردي والقوميات الأخرى في كردستان العراق والعراق عموماً، وضد عرب الأهوار والوسط والجنوب، أو ضد الأكراد الفيلية، أو في ولوج السجون والتعذيب والموت تحت التعذيب أو التهجير الإجباري. كما تحملت مع أطفالها الكثير من المعاناة بما في ذلك جرائم الحرب وسقوط القنابل والصواريخ على رؤوس المدنيين في تلك الحروب القذرة وموت الكثير من البشر بسببها. لم تتمتع المرأة بحريتها واستقلالها الاقتصادي ونشاطها الاجتماعي ولم تُظلم من قبل الدولة والحكومة وحدهما فحسب، بل من قبل المجتمع، والذكور منهم بشكل خاص. وهي إشكالية مرتبطة بالعامل الأول. وغياب الدستور المدني الديمقراطي هو الذي يعزز من الحالة الراهنة التي تواجهها المرأة العراقية، وهي اليوم ليست حبيسة الدار والمطبخ والعباءة فحسب، بل حبيسة تخلف الغالبية العظمى من النسوة والجهل الكبير والتفسير الخاطئ والتمحيز والسيئ للدين من قبل الذكور والموجه ضد النسوة وحرتهن. ورغم اعتراف دولة العراق بلائحة حقوق الإنسان منذ إقرارها في العاشر من كانون الأول/ديسمبر 1948، فإنها لم تجد التطبيق الفعلي، بل داس جميع الحكام بالعراق عليها بالأقدام، وعندما حاول عبد الكريم قاسم إجراء تغيير نسبي على وضع المرأة باتجاه التغيير والتحسين النسبي وفق ما جاء في قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959، هبت ضده كل قوى الظلام، وخاصة الرجال منهم، وشنت ضده حملة ظالمة في هذا المجال، لأنه أراد سحب بعض الامتيازات الممنوحة للرجل ومنح المرأة بعض حقوقها، من بينها الحد من تعدد الزوجات والإرث والطلاق... الخ. وشاركت هذه القوى الظلامية بدورها في التآليب ضد قاسم من هذا المنطلق وساهمت في إسقاطه، وهي ما تزال تحمل رايات الظلام لتجهز على المرأة قبل أن تطالب بحقوقها، وقبل أن تصل تلك القوى إلى السلطة.

3. لو ألقينا نظرة فاحصة على المجتمع العراقي الراهن لوجدنا ما يلي :

♣ تراجع حقيقي للمرأة عن المشاركة في الحياة الوظيفية والخدمة العامة وفي النشاط الاقتصادي، وبالتالي تبعية فعلية للرجل في الحصول على تأمين لقمة العيش والمأوى.

♣ تراجع فعلي في دور المرأة في الحياة الاجتماعية والثقافية وفي التأثير الإيجابي على المجتمع وفي حياة الأندية الفكرية والرياضية والمحافل الثقافية.

♣ تراجع شديد في عدد الطالبات في المدارس والمعاهد والجامعات بما يعكس موقف الرجل من المرأة. وكل المعطيات المتوفرة تشير إلى ذلك بصراحة كاملة.

♣ انتشار البطالة بشكل واسع في صفوف الإناث أضعاف حجم البطالة في صفوف الذكور .  
♣ التأثير الصارخ لرجال الدين الرجعيين، وليس لبعض علماء الدين الذين يقرأون القرآن قراءة سليمة عقلانية واعية لأمر الدين والدنيا والعصر الحديث والتغيرات الطارئة على هذه الحياة، وكذلك المشعوذين والسحرة واللاعبين بعقول كثرة من الذكور البسطاء والمسيطرين على عقول نسبة كبيرة من النساء وعلى تصرفاتهن وممارساتهن اليومية .

♣ وقوع المرأة حبيسة العباءة المركبة والحجاب الخانق الذي لم يأمر به القرآن ولا السنة المحمدية ولا الخلفاء الراشدين ولا علماء الدين المدركين لأمر الدين والدنيا، بل بعض أولئك الذين قرأوا القرآن بصورة خاطئة وغير عقلانية وظالمة ووفق ما يريدونه مسبقاً للنساء المسلمات. إنها تجسد الرغبة الجامحة لدى الرجال في الهيمنة على المرأة والغيرة غير العقلانية عليها، وهي تنطلق من وعي مسطح ونزعة جنسية ذكورية مستهجنة إزاء المرأة. إن من ينظر إلى المرأة المثقفة والمتعلمة في عراق اليوم، تلك المرأة التي كانت قبل عشرين عاماً قد وضعت العباءة جانبا، يراها قد عادت العشرينات من القرن العشرين، وهي أزمة فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية يعيشها الشعب العراقي وتعيشها المرأة بالذات، كما يلعب الإرهاب الديني المشوه دوراً كبيراً في كل ذلك، وهو ما يفترض مواجهته والتصدي له بكل حزم .

♣ وإذا كانت المرأة قد وضعت في مجلس الحكم الانتقالي ثم في الحكومة المؤقتة واختيرت أو انتخبت ضمن المئة بخمسة وعشرين عضواً، فذلك جاء بتأثير المدنيين العلمانيين الديمقراطيين في

قوى المعارضة العراقية السابقة وربما بتأثير مباشر وإيجابي من قبل ببول ريمر، لا بتأثير المجتمع العراقي أو القوى التي لا تريد الخير للمرأة .

♣ ويمكن إيراد العشرات من الظواهر الأخرى التي تؤثر واقع تخلف المرأة بالعراق وحرمانها من الدور والمكانة التي تليق بها باعتبارها النصف الأكثر حيوية في المجتمع والمسئول الفعلي عن إعادة إنتاج الإنسان مع الرجل. فالمرأة لها كل الحق في أن تكون نداً للرجل ومالكاً لكامل الحقوق والواجبات التي يتمتع بها الرجل دون استثناء وفي جميع المجالات. فالمرأة ليست للإنجاب فحسب، بل هي للحياة كلها بمختلف جوانبها ومستوياتها، وهي نبع الحياة وعلى النبع أن يمتلك الحياة بكل معانيها مع الرجل سواء بسواء .

رابعاً: نحو تغيير موقف المجتمع من المرأة وموقف المرأة من نفسها بالعراق

إن المجتمعات الغربية، رغم كل النواقص التي ما تزال المرأة تعاني منها، فإنها تمتلك حقوقاً يصعب على غالبية النساء العراقيات أن يحلمن بها بسبب حالة القهر والحرمان والتخلف والظلم التي تعيشن تحت وطأتها. وهذه الحقوق ناجمة عن اختلاف في المعايير التي أوردناها قبل ذلك، إذ تسود في هذه البلدان العلاقات الإنتاجية الرأسمالية، وهي مجتمعات مدنية تسودها دساتير وحياة ديمقراطية تحترم كرامة الإنسان وحقوقه وحرياته، وللمرأة في هذه المجتمعات مكانة ودور كبيرين ينموان باستمرار، رغم تعرض المجتمع كله إلى استغلال العلاقات الإنتاجية الرأسمالية، واستغلال الإناث فيها أكبر من استغلال الذكور حتى الآن وجود بعض جوانب التمييز الصارخة بما في ذلك التمييز في الأجر إزاء نفس العمل وعدد ساعاته. ولكن المرأة تسير على خط نضالي متصاعد لانتزاع كامل حقوقها ومساواتها التامة بالرجل. وأول شيء تحتاجه المرأة هو التعليم بمختلف مراحلها لتأمين القدرة على وعي ما يجري حولها والمشاركة في ذلك. فعلى سبيل المثال لا الحصر أشير إلى أن نفوس مدينة برلين، عاصمة جمهورية ألمانيا الاتحادية بلغ في عام 2003 حوالي 340000 نسمة. في هذه المدينة ثلاث جامعات والكثير من الكليات والمعاهد المتخصصة، بلغ عدد الدارسين فيها في السنة الدراسية 2004/2003 (140177) طالبة وطالباً. 52,6 % من الإناث في مقابل 47,4 % من الذكور. حتى أن بعض الجامعات نجد أن نسبة الإناث بلغت 58,3 %، كما هو الحال في جامعة همبولدت. إن المرأة في الغرب تحتل مواقعها في السياسة وفي قيادات الأحزاب وفي الوزارات والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية وكذلك في المجالس النيابية على مختلف

المستويات، كما أنها تلعب دوراً متميزاً في الإعلام المرئي والمسموع والمقروء، وفي الحياة الثقافية والتأليف والنشر وفي مجالات العمل الإبداعي بمختلف جوانبه. ومع ذلك هناك الكثير من العوائق والمصاعب التي تواجه المرأة ومنها التمييز في بعض مجالات العمل والتوظيف والأجر والاستغلال والبطالة وانتشار ظاهرة العهر النسوي بسبب الحالة المادية لعدد متزايد من النسوة، وخاصة القادمات من أوروبا الشرقية، وهي جزء من تركة المجتمع الإقطاعي الذكوري والطابع الاستغلالي للمجتمع الرأسمالي الراهن أيضاً .

إن ما ينبغي النضال من أجله بالعراق في المرحلة الراهنة يتلخص في:

- تضمين الدستور مساواة تامة بين المرأة والرجل في كل الميادين والمستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والفنية والعسكرية دون استثناء. إصدار قانون خاص يستند إلى لائحة حقوق المرأة الدولية، وإلغاء جميع القوانين المخالفة للائحة حقوق الإنسان وللائحة حقوق المرأة الدولية وتلك التي تستهين بدور المرأة ومكانتها في المجتمع أو تمارس التمييز ضدها .
- رفض أي شكل من أشكال التمييز إزاء المرأة وإدانتها ومكافحته وتقديم من يمارسه إلى القضاء لمقاضاته.
- دعم جهود المرأة في مكافحة أمية كبار السن وخاصة في الريف، وكذلك النهوض بمستواها التعليمي والثقافي وقدرتها على مزاولتها مختلف النشاطات الفكرية والثقافية والاجتماعية والفنية وتشكيل منظماتها غير الحكومية.
- دعم جهودها للحصول على فرص عمل وضمن استقلالها الاقتصادي وأجر مساو لأجر الرجل لعمل مماثل.
- حق المرأة في احتلال جميع المناصب في الدولة ابتداء من رئيس الجمهورية وانتهاء بالوزراء ورؤساء المؤسسات وكبار الموظفين والمستخدمين والقضاء العراقي ومجلس النواب والمجالس البلدية ... الخ.
- تأمين فرص مناسبة لضمن مساعدة المرأة في تحمل أعباء تربية الأطفال مع الرجل ومن خلال فتح دور الحضانه ورياض الأطفال ... الخ.

• إصدار قانون بحرم تعريض الأطفال والصبية إلى الضرب في البيت أو المدرسة أو في أي مكان آخر وحمايته ومنع تشغيله وإلزامه بدخول المدرسة حتى نهاية الصف التاسع /نهاية الدراسة المتوسطة، وتأمين الظروف المناسبة لنشأته على أسس صحيحة.

• احتلال المرأة موقعها المناسب في مختلف المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتخصيص نسبة مناسبة لها تقترب تدريجاً ومع تطور دورها مع نسبتها في عدد السكان.

• رفض القيود التي يراد فرضها على المرأة من خلال تطبيق الشريعة، التي هي من عمل الذكور بالأساس ومتباينة من مشرع إلى آخر ومن بلد إسلامي إلى آخر، ووضع قانون الأحوال الشخصية يتماشى والعصر الذي نعيشه والحقوق التي حققتها المرأة على الصعيد الدولي.

• رفض مبدأ تعدد الزوجات وحماية المرأة من اضطهاد الرجل وتطبيق لائحة حقوق المرأة الصادرة عن الأمم المتحدة بالكامل.

• رفض إلزام المرأة المسلمة بارتداء الحجاب أو العباءة، وتركها تمارس ما تريده ومساعدتها على الخلاص من أي قيد يحد من حريتها وحركتها وتنقلاته داخل وخارج الوطن ونشاطها ومشاركتها في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقوات المسلحة وقوات الشرطة وشرطة المرور والأمن الداخلي .

• تحريم التجاوز على المرأة أو ضربها وتحريم ما يطلق عليه "القتل من أجل غسل العار" ومعاقبة صارمة لفاعليه ومروجيه والمدفعين عنه،فالمحاكم المدنية هي المسؤولة عن البت في مثل هذه الأمور .

•...الخ.

إن مثل هذه البنود تستوجب إقامة دولة فيدرالية مدنية ديمقراطية حديثة تأخذ بمبدأ الفصل بين السلطات واحترام استقلالية القضاء والفصل بين الدين والدولة مع الاحترام الكامل لكل الأديان والمذاهب والأفكار والاتجاهات السياسية السلمية ورفض العنف في الوصول إلى السلطة أو فرض الرأي.



إذا كان هذا الجانب هو الأساسي في النضال من أجل انتزاع حقوق المرأة وتأكيدهما تشريعاً، فإن المجتمع العراقي، وخاصة المرأة، بحاجة إلى نضال خاص مع المرأة ذاتها لإقناعها بأهمية تمتعها بحقوقها المشروعة وعدم الرضوخ لهيمنة الرجل أو القبول بالتبعية له. وهي عملية نضالية ليست أقل أهمية من الشق الأول، إذ أن القرون والعقود المنصرمة جعلت المرأة تعتقد بأن لا حقوق لها وأن الله قد كتب عليها العيش بهذه الصورة لا غيرها، وأن أفضل ما تقوم به هو إرضاء زوجها. إن النضال لتغيير هذه النظرة، لتغيير ما في النفس، أصعب بكثير من القيام بثورة ضد القيم القديمة البالية والراسخة في أذهان الناس. إن مهمة الرجال هو الاقتناع بذلك أولاً ثم البدء بممارسته في البيت والمحيط الذي يعيش ويعمل فيه وفي عموم المجتمع، إنها عملية معقدة ولكن لا مناص منها .

كما أن من واجب المرأة الواعية لحقوقها وواجباتها في البيت والمجتمع والدولة أن تمارس النضال لإقناع النسوة اللواتي يعملن معها والمحيط الذي تعمل وتعيش فيه والمجتمع، إذ بدون ذلك لن نحقق النتائج المرجوة. علينا أن نعمل لإقناع النساء، كل النساء، بحقوقهن المشروعة والعادلة وبواجباتهن .

ويمكن لمنظمات المجتمع المدني النسوية ومنظمات حقوق الإنسان والمنظمات الإنسانية الأخرى أن تلعب دوراً كبيراً في هذا الصدد. والخطوة الأساسية على هذا الطريق تبدأ بالتخلص من الجهل والأمية التعليمية والسياسية، ومن ثم الثقافية والحضارية. إن المجتمع العراقي الجديد مؤهل لأن يبني حضارة جديدة ويستفيد من حضارة العصر الجديد لتطوير قدراته وكفاءاته وتعزيز دوره للمساهمة في بناء الحضارة البشرية الحديثة، تماماً أو حتى أفضل من الدور الذي قام به المجتمع العراقي القديم ف بناء أول حضارة إنسانية في هذه العالم الواسع الأرجاء. إن الشعب العراقي يقبل هذا التحدي الذي يفرضه العصر، والمرأة العراقية، سواء أكانت عربية أم كردية أم تركمانية أم آشورية وكلدانية، وسواء أكانت مسلمة أم مسيحية أم إيزيدية أم صابئية مندائية أم يهودية أم من أي دين أو مذهب آخر تؤمن به وتتبعه، ستكون في طليعة هذا الركب الإنساني الحديث. إنها ليست أمنيات فحسب، بل هي طاقات وإمكانات كامنة يفترض تفجيرها بعناية كبيرة ورعاية تامة ووعي بالمسئولية التاريخية الملقاة على عاتق الجيل الجديد من الشابات والشباب العراقي، ولكنها تبقى مهمة الجميع .

قراءة حزينة في كتاب "شاهد عيان: ذكريات الحياة في عراق صدام حسين"

للدكتورة جمانة كبة



اسم الكتاب: شاهد عيان (ذكريات الحياة في عراق صدام حسين)

اسم الكاتبة: جمانة كبة

دار النشر: الوراق للنشر - لندن والفرات للتوزيع - بيروت

سنة الإصدار: 2009

اللغة الأصلية للكتاب: الإنجليزية، وصدر في الولايات المتحدة في العام 2003

الترجمة العربية: معينة نايف الغنام

عدد الصفحات: 279 صفحة

تصدر سنوياً الكثير من الكتب السياسية التي تفضح بصورة علمية موثقة طبيعة الدكتاتوريات وممارسات القسوة التي ينتهجها الدكتاتوريون وطغمهم الجائرة والفاصلة في التعامل مع الإنسان الفرد ومجتمعاتهم. كما تُنتج الكثير من الأفلام في هذا الشأن أيضاً. وهي دون أدنى ريب تلعب دوراً مهماً في رفع وعي الإنسان بضرورة مواجهة الاستبداد والقسوة ومحاولة تحصين الإنسان بمبادئ تقيه من الوقوع بشباكها.

ورغم صدق تلك الكتب وصواب ما فيها من معلومات قيمة، إلا أنها غالباً ما تخاطب العقل وحده، وهي بذلك تعجز عن الولوج إلى قلب وعاطفة الإنسان لأنها جافة، وهي بخلاف تلك الكتب التي تكتب من شهود عيان يشكلون جزءاً من تلك العائلات التي عاشت تحت وطأت تلك الأنظمة وعانت مرارتها، إذ أنها تلج العقل والقلب في آن واحد وتحرك جميع مشاعر الإنسان دفعة واحدة وتضعه أمام واقع وحقيقة الدكتاتورية وتعري أساليبها وأدواتها بكل بساطة وبيقين لا يتزعزع وثقة بالنفس.

مثل هذه الكتب تضع القارئ والقارئ وجهاً لوجه أمام عمق مأساة الإنسان ومصيره المعلق في الهواء وكذلك تحت القلق والأرق اللذين يفتكان بأعصاب الإنسان وينهشان حالته النفسية. ومثل هذه الكتب لا تقتصر على شرح حالة شخص واحد أو عائلة واحدة حسب، بل هي تقدم نموذجاً حياً لما يجري في المجتمع كله، وتفضح بشكل إنساني معبر عن أوضاع المجتمع الفكرية والسياسية والاجتماعية التي تعيش تحت وطأتها تلك العائلات أو أولئك الأفراد والعواقب الوخيمة التي تترتب على مصائر هؤلاء الناس.

صدرت الكثير من الكتب وصورت الكثير من الأفلام عن هؤلاء المستبدن القتل وعن جلاوزتهم ومخابراتهم، وكانت قيمة ومفيدة وساعدت منظمات حقوق الإنسان على ملاحقة هؤلاء الأوباش الذين يولغون بدماء الوطنيين الشرفاء من الناس. ولكن فلماً بسيطاً واحداً سجل عن حياة دكتاتور كوريا الشمالية السابق "كيم إل صونگ" ووالد الدكتاتور الجديد "كيم إل يونگ" وهو يحتضن أطفالاً صغاراً ويقبلهم، استطاع ببساطة كبيرة تجسيد طبيعة هذا الدكتاتور الذي كان يمارس الأبوة والهيمنة الشمولية لا على أطفال كوريا الشمالية، بل على المجتمع الكوري الشمالي كله. وحين نستعيد في الذاكرة تلك الصور التي نشرتها وعرضتها أجهزة الإعلام العالمية عن صدام حسين وهو يحتضن أطفالاً أجنب في إحدى مناطق العراق حين احتجزهم كرهائن ودروع بشرية ضد احتمال ضربات الطيران الأمريكي لبعض المواقع العسكرية في العراق، إذ أنها عجزت عن تقديم صدام حسين كإنسان يحب للأطفال أو يحنو عليهم، بل جسدت فيه روح الكراهية للإنسان والحقد على البشرية ووضعت أمام أنظار العالم بشاعة هذا الرجل وسخريته بالرأي العام العالمي.

في الكتاب الذي قرأته للسيدة جُمان كبة يعتبر من بين تلك الكتب ذات الصدقية العالية والشفافية في عرض الأحداث والأحوال وفيها الكثير من القوة الفاعلة والدافعة نحو القناعة بمضامين الكتاب وفي قدرة كلماته على الولوج السريع إلى قلب الإنسان وإلى عقله، حيث تستقر فيهما، إذ تضع الإنسان أمام حقائق عاشت الكاتبة يومياً وكل ساعة تحت وطأتها وهي ما تزال طفلة، ثم عاشت معاناتها وهي ما تزال صبية ولسنوات طويلة بلغت 35 عاماً.

طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها 8 سنوات ثم صبية لا يتجاوز عمرها 13 أو 14 سنة تعيش مأساة عائلتها

وتستقر في الذاكرة لتتفاعل طوال ثلاثة عقود لتصدر بعدها ذلك الخزين المعرفي في كتاب يجسد تلك المرحلة بكل أبعادها ومآسيها وكوارثها. إنها لا تعيش مأساة ومصير عائلة عراقية طيبة من أوساط المتعلمين والمتقنين فحسب، بل هي بهذا الكتاب تجسد للقارئة والقارئ مأساة شعب بكاملة من أقصى الشمال وكُردستان إلى أقصى الجنوب.

عائلة متعلمة ومثقفة تنحدر من فئات اجتماعية متوسطة. الوالد مهندس والوالدة معلمة، وهما لا يتدخلان بالسياسة وغير منتميين إلى حزب سياسي. لهما ثلاث بنات وثلاثة أولاد. العائلة تعيش بهدوء واستقرار وراحة بال. الأب والأم يمارسان عملها الوظيفي بكل إخلاص ومسؤولية. تربيتهما المنزلية، وهما من مدينتين مختلفتين (بغداد والموصل)، جعلتهما يحترمان الإنسان وحقه في العمل والحياة والعيش بكرامة وحب الوطن وخدمة الشعب. والعائلة لا تطمح إلى أكثر من ذلك. هذه العائلة الطيبة لا تختلف عن عشرات بل مئات ألوف العائلات العراقية التي تريد العيش بهدوء واستقرار وسلام مع النفس ومع الآخرين وتمارس عملها لصالح الوطن. وهي لا تهتم في من يكون في السلطة ما دام يمنحها هذه الفرصة، فرصة الحياة الهانئة والكريمة والمستقرة. والسؤال الذي يدور في البال دوماً والذي أجابت عنه هذه الكاتبة المقدمة هو: هل يمكن لمثل هذه العائلة، عائلة المهندس مكي كبة، أن تعيش بهدوء وكرامة في ظل نظام استبدادي يتفاقم استبداده يوماً بعد آخر وسنة بعد أخرى وتشتد قسوته وتتعاظم نزعته العدوانية والعسكرية ويتلذذ بممارسة العنف ضد الإنسان والمجتمع والجيران؟

يتضمن هذا الكتاب القيم إجابة شافية عن هذا السؤال. فالكتاب يحتوي على مقدمة وستة فصول وخاتمة، تستعرض الكاتبة فيها حياة ومسيرة ومصير عائلة عراقية، عائلتها بالذات. فهي تعيش الأحداث يوماً بيوماً وما لا تراه تسمعه من أمها وأبيها ومن أخوتها في البيت، ولكنها تعيش الأحداث والعذابات العائلية بكل تفاصيلها. إنها طفلة وصبية جعلتها الأحداث دفعة واحدة امرأة تعيش المآسي العراقية ولا تجد تفسيراً لها، ولكنها تهضمها تدريجاً وتجد لها أسباباً وتحليلاً يكمن في طبيعة ذلك النظام البعثي الدموي الذي سيطر على العراق وفي ذلك الدكتاتور الجلف الذي عرّض الوطن والمجتمع إلى تلك المآسي الإنسانية المتلاحقة التي لا يزال الشعب كله يعاني من عواقبها.

تتحدث جُمان مكية عن عائلتها التي تعيش حياة هادئة وطبيعية ثم تنقلب الحياة دفعة واحدة وبعد مجيء البعث إلى السلطة إلى جحيم لا يطاق، إذ هيمن الأوباش على الحكم وبدأوا بتغيير كل شيء، الهيمنة على الدولة والاقتصاد والمجتمع، الهيمنة على فكر الإنسان وعقله، الهيمنة على كل حركة في البيت والمدرسة والشارع. الهيمنة على الإعلام وإصدار الكتب والمجلات والصحف. أصبح الإنسان في داره يخشى أخيه وأبيه

وولده وعمه، الجار يخشى الجار، فجواسيس وعملاء ووكلاء النظام وعيونه منتشرون في كل مكان ويتدخلون في كل صغيرة وكبيرة ويكتبون التقارير تلو التقارير التي تتسبب في اعتقال أو سجن أو قتل الناس.

فرض الحزب الحاكم والحكم عضوية الحزب باستخدام الجزرة، وحين لا تنفع فالعصا حاضرة دوماً. ومن لم ينفعه كل ذلك يكون السجن والتعذيب والقتل على أيدي جلاوزة وبقية أوباش النظام في الحزب وفي مؤسساته الأمنية، ومنها المخابرات العامة وفي منظماته غير الشعبية.

تتحدث الكاتبة عن أحداث "أبو الطير" وبأسلوب هادئ ومنطقي سليم تتوصل إلى أن والدها، بحكم عمله، قد تعرف على من هم الذين يقفون خلف أبو الطير، من هم الفاعلون باسم "أبو الطير" فعلياً، أنهم المخابرات العامة، إنه القصر الجمهوري الذي كان يديره أحمد حسن البكر وصادق حسين حينذاك. ومن هنا، من هذه المعرفة بحقيقة "أبو الطير" ومن الدفاع عن موظفيه في قسم الهاتف (البدالة) الذين تعرضوا إلى إيذاء قوى القصر الجمهوري، تبدأ مأساة الوالد بعد أن أصبح البيت ملغماً بأجهزة التسجيل عبر المرأة المعينة ياسمين، وهي مصرية، وبدعم من عم العائلة أو زوج أخت الأم. يعتقل الأب بذريعة بائسة مفادها إنه قد ضحك في غرفة نومه مع زوجته على نكتة تدور حول القيادتين القطرية والقومية يتحدث بها الناس وسجلها الإنصات السري في البيت. ويبدأ التعذيب وتبدأ مأساة كل العائلة ويحكم الوالد بالسجن لمدة عام دون أن تكون هناك تهمة فعلية ولا تحسب له مدة التوقيف التي تجاوزت عدة شهور. ثم تتوالى الأحداث على أفراد العائلة وخاصة على الابن عامر، الذي يعتقل بتهمة زيارة كربلاء والمشاركة في تقاليد عزاءات أيام عاشوراء في كربلاء.

وتتحدث الكاتبة عن الأهوال النفسية التي عانتها الأم بسبب اعتقال الأب ومحاولات زيارته التي تنظم عبر علاقات مع قوى النظام لمرة واحدة لتجد التغيير المرعب الذي طرأ على زوجها، ذلك الرجل المهيوب بقامته الطويلة وبنيانته المتين وهدوءه والعافية التي كان يتمتع بها، لتجد أمامها زوجها وقد هزل جسده وتمزقت ثيابه وتوسخت، طالت لحيته ولم يعد ذلك الرجل الذي عرفته، رغم تنامي ما في داخله من حب للزوجة والعائلة وكراهية لمن عذبه أبشع تعذيب. وكان الأبخع من كل ذلك أن يرى كيف يعذبون الآخرين أمامه ويسمع صراخهم، إنها لمحنة إنسانية مريرة!

الكتاب يجسد عاطفة الإنسان إزاء عائلته وكل فرد فيها. كيف يجبر الناس على الابتعاد عن العائلة التي يلاحقها أزام النظام، كيف تعيش الوحدة ويصعب عليها الاتصال بالآخرين خشية عليهم أو خشية الآخرين من عواقب زيارة العائلة المنكوبة بحقد النظام وملاحقته. كيف يجبر أحد أفراد العائلة على التجسس على

عائلته، كيف يوظف المعينون، ومنهم العرب والأجانب، في بيوت الناس ليتجسسوا على تلك العائلات التي استخدمتهم بهدف الحصول على معلومات عن أحاديث وهواجس وأحلام العائلة لينزلوا جام غضبهم عليها. تمنح الكاتبة القارئة والقارئ فرصة ثمينة للتعرف على أسلوب عمل دولة بوليسية لحتها وسداها عدم الثقة بالمواطنات والمواطنين والتجسس اليومي عليهم ومضايقتهم واعتقال الكثير منهم لبث الرعب في نفوس الناس. ولم تكن قصة "أبو الطبر" سوى واحدة من تلك الأفعال القمعية الرذيلة التي اعتمدها النظام لإسكات الناس إذ كانت الخشية يومية والناس شخصت ابتداءً المنظم والمنفذ الفعلي لتلك الجرائم البشعة التي ارتكبها أبو الطبر، إذ كان الناس يؤكدون: لا يمكن أن يكون الفاعل خارج مجموع النظام.

تستعرض السيدة جُمان كبة أوضاع العراق لتخبص من خلالها إلى تشخيص أساليب وأدوات الدكتاتورية وأكاذيبه والعمل على قاعدة غوبلز "اكذبوا ثم اكذبوا ثم اكذبوا لعل بعض افتراءاتكم تعلق بأذهان الناس"، وقسوته في التعامل اليومي وكرهه للإنسان الحر والمستقل في تفكيره وإرادته. دولة عصابات الجريمة الحكومية والحزبية المنظمة التي أحدى صيغها جرائم "أبو الطبر" وأساليب قتله للناس والعلاقة القائمة بين هذا الأسلوب والمخابرات العراقية.

تشير الكاتبة العراقية إلى ظاهرتين متعارضتين برزتا في تلك الفترة في إطار المجتمع العراقي، فرضهما واقع الحال على جميع العائلات العراقية تقريباً، وهما:

\*\* روح التضامن والتكافل مع من يتعرض لإرهاب السلطة، سواء من بقية أفراد العائلة والعائلات القريبة أم من الأصدقاء. وكان هذا التضامن بارزاً في بداية حكم البعث بشكل خاص.

\*\* ولكن، وبعد أن اشتد الإرهاب والخطف والتغييب والسجن والقتل، برزت ظاهرة الخشية والابتعاد عن الزيارة والدعم من قبل العائلات القريبة جداً بسبب الخشية من الاضطهاد والملاحقة.

لقد تفتت وتفاقت في المجتمع الكثير من العلل الاجتماعية السلبية ما كان لها أن تظهر وتتفاقم لولا الاستبداد والقسوة والعنف التي مورست ضد الإنسان والمجتمع.

لقد استطاع الأبد أن يسفر بناته وأولاده إلى خارج العراق لينقذهم من مصير مجهول، ثم غادر وزوجته في الغربة الأوروبية وفي عمر يصعب معه التكيف مع الحياة الجديدة.

لقد دلت الأم عن حب وشهامة وكرامة لا مثيل لها في موقفها النبيل من العائلة ومن الزوج الذي أصيب بجلطة دماغية أقعدته وثلت حركته وأصبح نزيل المستشفى الدائم، لقد خدمته بحنان ومحبة وماتت وهي تخدمه كأفضل زوجة وأطيب أم. ثم مات الزوج حسرة وغماً على وفاة زوجته بعد فترة وجيزة، وهو التعبير الصادق والأصيل عن الحب الإنساني الذي جمع بين الزوجين.

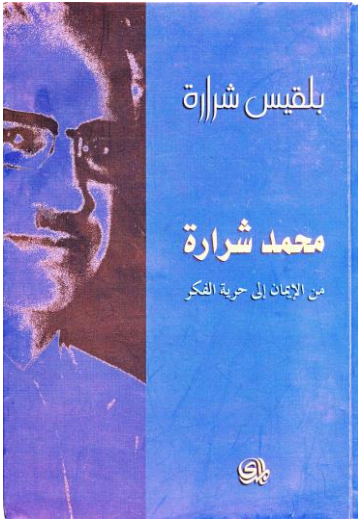
اعتقد أن إنجاز هذا الكتاب قد حرر الكاتبة ذاتها من ذكريات الماضي الأليمة وأعاد التوازن النفسي إليها، وهي ضرورة ماسة للإنسان الذي عاش في صغره تلك التجارب المريرة والقاسية، ولكن هذا الكتاب مهم أيضاً للآخرين الذين عاشوا التجربة ذاتها وما يماثلها ولكنهم عاجزون عن الكتابة فيها أو التعبير والحديث عنها، كما أن الكتاب ثمين جداً لمن لم يعيش هذه الفترة المليئة بالحروب والكوارث الإنسانية. إن قراءة هذا الكتاب ضرورة لكل عراقي ولكل قراء العربية لأنه يوضح لماذا فقدت العائلات العراقية ولسنوات طويلة البسمة والفرحة والضحكة والحلم أيضاً، ولماذا سيطر الهم والغم والحزن والبكاء والوعويل على تلك العائلات التي فقدت الكثير من أبنائها وبناتها سواء أتم ذلك عبر الحروب أم عبر الخطف والسجن أم القتل أو الذين طمروا في المقابر الجماعية ومن مختلف قوميات وفئات المجتمع.

وأنا اقرأ الكتاب أحسست بألم في قلبي ودمعة تنساب من عيني دون إرادتي، إنه الكتاب الذي غزا قلبي وعقلي في آن واحد، لأنه صور ليس حياة هذه العائلة العراقية الطيبة فحسب، بل جسد حياة الشعب العراقي بأغلبه حينذاك. لا يمكن لهذه السطور أن تعبر للقارئ والقراءة ما تضمنه هذا الكتاب من حقائق ستبقى صفحة سوداء في جبين حزب البعث العربي الاشتراكي الذي قاد حكم العراق مرتين (1963 و1968) وفي كل مرة كان جزراً للشعب وقواه الوطنية، وخاصة في مجيئه الثاني للسلطة. ومن مهمة الجميع في العراق والمنطقة والعالم منع هذا الحزب من العودة إلى الحياة السياسية والسلطة للمرة الثالثة.

شكراً وألف شكر للكاتبة الفاضلة وتعازي القلبية بوفاة الوالدين وتهاني بسلامة بقية أفراد العائلة.

2010/4/16

قراءة في كتاب السيدة بلقيس شرارة الموسوم  
(محمد شرارة من الإيمان إلى حرية الفكر)



عنوان الكتاب : محمد شرارة من الإيمان إلى حرية الفكر

اسم الكاتبة : بلقيس شرارة

الناشر : دار المدى/ بغداد

الطبعة الأولى : 2009

عدد الصفحات : 460

المدخل



كان "جدار بين ظلمتين" هو أول كتاب قرأته للسيدة بلقيس شرارة، هذا الكتاب القيم الذي أنجز مناصفة بينها وبين زوجها المعماري الكبير والفنان المبدع رفعة الجادرجي، إضافة إلى ما قرأته لها من مقالات قبل وبعد ذلك، كما كنت متابِعاً لنشاطها السياسي في بغداد في الخمسينيات من القرن العشرين. وبسبب إعجابي بالكتاب الأول، نشرت مقالاً حاولت فيه تبيان أهمية كتاب "جدار بين ظلمتين" من الناحيتين المعرفية والتاريخية وما تضمنه من تسجيل لوقائع حقيقية ومعاناة إنسانية يومية مشتركة وأن اختلف المكان، فأحدهما في سجن صغير ولكن الثاني في سجن كبير يحتضن السجن الصغير من جهة، وعن مدى التناغم والتفاعل في ملامسة الحس الإنساني العميق بين زوجين حبيبين في تجلياته الواقعية الرائعة وفي ظروف الفرج والشدة، العسر واليسر، العتمة والضياء من جهة ثانية، وكذلك الأسلوب الجديد الذي تم اختياره لإنجاز الكتاب مناصفة وبتعاقب في الفصول من جهة ثالثة. إنه التجسيد عن معاناة زوجين فصل بينهما نظام ظالم متوحش لا يعرف السجن مصيره ولا يعرف أحياناً كثيرة لِمَ اعتقل أصلاً!

من هنا كنت متشوقاً لقراءة كتابها الجديد الذي يبحث في الشخصية الأدبية الرومانسية المتميزة والسياسية الوطنية المناضلة محمد شرارة (1906-1979)، عن الرجل الذي حمل في ثناياه روحاً إنسانية أخاذة تأسر من يلتقي به بأسلوبه الهادئ والرصين في الحديث والمحاكاة، إذ كنت أحد قراء مقالاته التي كانت تنشر في الخمسينيات من القرن الماضي، كما اطلعت على كثرة من مقالاته التي نشرت في مجلات عراقية كانت تصدر في الثلاثينات من القرن الماضي والمتوفر بعض مجلداتها لدى الصديق الأستاذ عباس سميسم في غوتبورغ في السويد.

تعرفت على الأستاذ محمد شرارة في آب/أغسطس من العام 1978 وفي فترة حرجة من تاريخ العراق السياسي، التقيت به في دار الصديق الدكتور محمد صالح سميسم حين دعاني وزوجته حياة شرارة لزيارتهم. تمتعت بأمنية فكرية منعشة مع الأستاذ محمد شرارة والأخت حياة شرارة وزوجها الدكتور محمد صالح سميسم. جرى الحديث بيننا عن الشأن العام واستمعت إلى الأستاذ شرارة بأذن صاغية وهو يحل الوضع السياسي حينذاك ويشير إلى الترددي المتسارع في سياسات سلطة حزب البعث والعواقب الوخيمة المحتملة لاستمرار الدكتاتورية على الشعب العراقي برمته. وكان محمد شرارة قد رأى العاقبة التي سينتهي إليها نظام البعث مبكراً بحسه الوطني المرهف وموضوعيته العالية، ولكنه أدرك أيضاً بأن نهاية البعث ستقترن بالمزيد من الويلات للشعب العراقي، رغم أنه كان لا يريد أن يفقد الأمل بقدره الشعب على الخلاص من تلك الطغمة الفاسدة والظالمة والمتجبرة. وكانت في نبرة حديثه عتاب ودود لعواقب ذلك التحالف البائس بين الحزب

الشيوعي العراقي وحزب البعث العربي الاشتراكي، وكأني به يقول "الم نكتف بشباط/فبراير 1963 و 1970/1971؟! وكانت المحنة ولا تزال كبيرة!

مميزات كتاب السيدة بلقيس شرارة

قرأت كتاب السيدة بلقيس شرارة بعناية كبيرة. فهو كتاب قيم يتميز وجهه مشكور لشحن ذاكرة من عايش محمد شرارة وتعرف عليه أو من قرأ له، كما إن الكتاب يهدف إلى جلب انتباه الشبيبة المثقفة لواحد من أبرز مناضلي العراق في مجال الأدب والشعر والمقالة والقضايا الاجتماعية والسياسية، ومن أجل أن لا يطويه النسيان، كما أشارت الكاتبة في المقدمة. وكما أتمنى أن ينتبه إلى ذلك أساتذة كلية الآداب وكلية العلوم السياسية لدراسة جوانب مختلفة من حياة وأعمال هذا الرجل اللبناني المولد والعراقي التكوين.

يتميز الكتاب بعدد من النقاط المهمة التي تستوجب الإشارة إليها سلفاً، ومنها:

1. يتضمن الكتاب دراسة تحليلية نقدية معمقة ومتعددة الوجوه لشخصية وحياة وأدب وشعر ومجمل تراث محمد شرارة بشكل مكثف غير محل لفترة تزيد عن نصف قرن. فهو عبارة عن مسح تحليلي نقدي وليس مروراً عابراً لمحطات أساسية في حياة الشخصية الوطنية وكتابات وشعره ونشاطه السياسي والاجتماعي وعلاقاته الخاصة والعامة بدءاً من مغادرته لبنان وهو ابن الرابعة عشر ودخوله المدرسة الدينية في النجف، التي ساهمت في تكوينه، ولكنه تحرر منها لينهل من ينابيع الفكر المتحرر ويتمتع بحرية الفكر المستقل بعد معارك فكرية واجتماعية غير قليلة في أجواء المدارس الدينية النجفية حينذاك.

2. ويمنحنا الكتاب فرصة التعرف على أهم وأبرز المواقف الأدبية والثقافية العامة والاجتماعية والسياسية التي تبناها ومارسها محمد شرارة دون أن يمنعه عن ذلك تلك العواقب السلبية المحتملة التي يمكن أن تلحق به وبعائلته والتي حصلت فعلاً.

3. كما يتضمن الكتاب رؤية نقدية مباشرة وغير مباشرة مارستها الكاتبة بلقيس شرارة في البعض الأهم من تلك الأحداث والاتجاهات الفكرية والفنية والأدبية والسياسية التي كانت مشاركة فيها أو شاهداً عليها أو تحاورت بشأنها أو اتخذت موقفاً منها.

4 . ويتعرض الكتاب بحيوية وانفتاح على جوهر المعارك الفكرية والدينية والاجتماعية ومن ثم السياسية التي خاضها محمد شرارة ابتداءً من عملية التنوير والإصلاح الديني انطلاقاً من النجف حيث تعلم في مدارسها الدينية ومروراً بحقوق المرأة وحريتها ومساواتها بالرجل، وانتهاءً بالموقف من الاستعمار والهيمنة ومصادرة الحريات الديمقراطية وتشويه الدستور. وتشخيص الكاتبة كان سليماً حين أكدت بأن نضال محمد شرارة لم يكن بالقلم فحسب، بل بممارسة النضال الفعلي ودخول السجن والتعرض للفصل والطرده من الوظيفة والعيش مع عائلته في حالة الكفاف من أجل ذلك.

5 . ويتعرف القارئ من خلال الكتاب على التحول الفكري الذي صاحب تكوين شيخ الدين محمد شرارة في النصف الثاني من ثلاثينيات، والذي كان والده قد خطط له أن يدير جامعاً ومدرسة دينية في إحدى بلدات لبنان، وتبني الماركسية، أو المنهج المادي الديالكتيكي، في أوائل الأربعينيات من القرن العشرين، أي كان الرجل قد حدد النهج الذي التزم به وهو في سن النضوج الفكري والسياسي وتراكم الخبرة والمعرفة. وقد حافظ على ذلك حتى غيابه الأبدي عنا، رغم كل الضربات الموجهة التي تلقاها الماركسيون بسبب السياسات غير العقلانية وبسبب النهج الفكري والسياسي الخاطئين في فهم وقراءة الماركسية في الاتحاد السوفييتي وبقية الدول الاشتراكية والتي ساهمت في وقوع الانهيارات في دول المعسكر الاشتراكي في نهاية العقد التاسع وبداية العقد الأخير من القرن العشرين.

6 . ومن خلال الكتاب يتعرف القارئ، وكذا القارئة، على آراء ومواقف وعلاقات مجموعة كبيرة من الشخصيات الأدبية والثقافية والفنية والاجتماعية والسياسية التي عاشت خلال الفترة الواقعة بين سنوات العقد الرابع والعقد الثامن من القرن العشرين من خلال تشخيصات محمد شرارة ذاته أو من خلال شخصيات معروفة حينذاك أو كتابات لشخصيات عراقية وعربية عاشت وتفاعلت مع أحداث وشخصيات تلك الفترة، وكذلك من خلال الدراسة المتأنية والدؤوبة والدقيقة التي نهضت بها السيدة بلقيس شرارة والتي تتجلى في متن الكتاب.

7 . والكتاب يقدم بلغة رشيقة وشفافة لوحة أدبية وعلمية نموذجية من حيث المنهج في كتابة السيرة يمكن أن يحتذى به، إذ أن الكاتبة لا تقدم لنا مادة جامدة يجري الحديث فيها عن الشخص فقط دون أن تترك الأبواب مشرعة على العصر الذي عاش فيه وطبيعة علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج والأفكار التي انتعشت وتصارعت حينذاك والتي تجلت في البنى الفوقية التي ميزت الدولة العراقية ووسمت التشويهات الكثيرة في تطبيق الدستور الملكي والمؤسسات الدستورية الشكلية، وحياة الميسورين والأغنياء وكبار ملاك الأراضي الزراعية

وكبار التجار، من جهة، وحياة الفقر والفاقة والعوز للغالبية العظمى من الشعب العراقي، وكذلك مجمل الحياة الاجتماعية بالعراق من جهة أخرى، إضافة إلى حياة البؤس والفاقة للمعلمين وحملة الشهادات والمتقنين بشكل ملموس ومن خلال التعرف على الوضع المعيشي والضنك المالي والتنقلات الكثيرة سعياً وراء العيش الكريم.

8 . والكتاب ينقل إلينا صورة صادقة عن حياة سكان المدن والريف العراقي وعن المشكلات التي كانت تواجه الشعب العراقي بقوميته العديدة وأديانه ومذاهبه الكثيرة، عن معاناة الكُرد وعن عواقب تلك المعاناة في الممارسة اليومية الشعبية للكُرد في الموقف من العرب واللغة العربية، وكذلك عن المدرسة والتعليم ومصاعب المعلم وما كانت تعانيه العائلات من جراء تلك الأوضاع حينذاك.

9 . كما يستعرض الكتاب محلاً أوجه الحياة الثقافية والفنية، وخاصة في أعقاب الحرب العالمية الثانية حتى سقوط الملكية ودور المثقفين ومدارسهم المختلفة في الرسم والشعر والأدب عموماً. وتتحدث عن أبرز الرسامين والكتاب والشعراء، ومنهم جواد سليم ومحمود صبري وبدر شارك السياب ونازك الملائكة ...، وتبد موقفاً نقدياً بصورة غير مباشر للنشاط السياسي الاجتماعي الذي نقله محمود صبري إلى أجواء الفن التشكيلي، في حين أرى بأن محمود صبري شكل ظاهرة فنية مهمة وجوهرية في مجال الفن التشكيلي خلال الفترة التي سبقت مغادرته العراق والبقاء في الاتحاد السوفييتي ومن ثم في تشيكوسلوفاكيا بلوحاته الاجتماعية الجميلة والمعبرة عن واقع العراق حينذاك، وهو اليوم مشغول بعرض نظرية الكم الفيزيائية في الفن والتي عليها خلاف كبير عن مدى جدوى ذلك في مجال الفن.

وإذ ينتقل الكتاب من المرحلة الملكية إلى المرحلة الجمهورية ويؤشر الخيبة التي أصيب به المثقفون والسياسيون الديمقراطيون بعد سقوط الملكية الدستورية التي شوهدت الدستور في الممارسة العملية، وبين الجمهورية التي أسقطت ذلك الدستور وتشويهاته، ولكنها عجزت عن إقامة دولة دستورية ومجتمع مدني وممارسة سياسات مدنية عقلانية، بل حافظ الثوار العسكر بالسلطة بأيديهم حتى تجرعوا وجرعوا غيرهم الموت على أيدي الانقلابيين الأوباش. ولكن الكتاب يقدم تحليلاً ذكياً وواضحاً عن مضامين وممارسات النظام السياسي الذي ساد في الفترة الملكية والتي كانت السبب وراء نشوء الرغبة العارمة في الخلاص من سياسات النظام الملكي ومن حكوماته المتعاقبة التي مارست الاضطهاد والظلم ضد قوى المعارضة السياسية حيث كانت ثورة تموز 1958 السبيل للخلاص من الملكية برمتها. أي أن الكتاب ينطوي على رؤية واقعية للعلاقة

بين المجتمع والسلطة، بين أجهزة الدولة، وخاصة الأمنية والشرطة، وبين الشعب وقوى المعارضة السياسية التي كانت تعاني الأمرين من حياة السجون وعذاباته وآلام وحرمان عائلات السجناء .

أين تكمن أهمية وموضوعية كتاب بلقيس شرارة عن محمد شرارة؟

يبدو لي أن أهمية وموضوعية وشفافية هذا الكتاب تكمن في الأسلوب العلمي الجدلي والأدبي الرصين والتحقيق الدقيق الذي اتبعته الكاتبة بلقيس شرارة في وضع وتنفيذ مفردات هذا الكتاب. ويمكن بلورة بعض النقاط في هذا الصدد:

• فالكاتبة لا تطرح أفكاراً ومواقف محمد شرارة وكأنها كلها صائبة، بل تقدمها للقارئ والقارئة كما كانت تعيش في ذهن وتتجلى في ممارسات محمد شرارة، وهي أفكار ومواقف قابلة للنقاش، بل هي تمارس النقد أحياناً إزاء بعضها بسبب تقليديتها أو رومانسيتها أو العواقب الوخيمة التي تترتب عليها.. الخ، وهي بالتالي دعوة صريحة وجدية للنقاش والحوار المفتوح، والذي يسهم في إغناء الجميع.

• هي تطرح مواقف ورؤى سياسية لأحداث تاريخية اعتبرتها صحيحة، ولكنها، كما أرى، قابلة للنقاش وتستوجب إعادة النظر لا من قبل الكاتبة حسب، بل ومن المؤرخين لأحداث العراق، ومنها على سبيل المثال لا الحصر الموقف من ثورة العشرين والذي سأحاول مناقشته لاحقاً.

• ثم تطرح أفكاراً لمحمد شرارة وما يخالفها أو يستكملها الأستاذ رفعة الجادرجي في موضوع الخلود لنص أدبي أو عمل فني، والذي أرى ضرورة التوسع به ومناقشته لما له من أهمية بالنسبة إلى مفاهيمنا المعرفية وسطحية التفسير له في الفكر السياسي السوفييتي وفي الموقف من الفن والثقافة والحداثة.

• وتطرح الكاتبة أسئلة كثيرة غير مباشرة في الحقول الأدبية والفنية والاجتماعية والسياسية في آن، وهي تحتاج إلى إجابات لا ترديد لما قيل سابقاً، بل تسعى إلى إجابات فيها التجديد والتحديث واكتشاف العلاقات في ما بين الظواهر التي تساعد على تشخيص اتجاهات التطور اللاحقة. وهي في بعضها تطرح دراسة العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، بين المتراكم من المعرفة والآثار الفنية والأدبية، وبين ما هو جديد، لا يقفز على الماضي ولا يتخذة متكناً للراحة ولا يبتعد عن الواقع القائم، بل من خلالهما يدرك حركة التاريخ وقوانينها الموضوعية ثم يكتشف الجديد القابل للحياة بصورته الأكثر إنسانيةً وجماليةً واكتمالاً.

• والكاتبة، وهي تبحث في ماضي حياة وأدب وشعر وآراء ومواقف محمد شرارة، تثير فينا بشكل عفوي جميل وبلا تصنع، رغبة المقارنة بين ماضي وحاضر حياة ومشكلات الشعب العراقي، فرغم المصائب التي عانى منها في العهد الملكي أو في أعقاب تراجع ثورة تموز 1958، وبين ما عانى منه العراق منذ وصول حزب البعث العربي الاشتراكي إلى السلطة والحروب الداخلية والخارجية التي خاضها والاستبداد والقسوة والتدمير الذي مارسه إزاء المجتمع، إضافة لما يواجهه اليوم من قضايا أكثر تعقيداً وتشابكاً، ما في موضوع الطائفية السياسية أو المحاصصة الطائفية في السلطة أو القتل على الهوية أو الصراع وضحالة الفكر الديني المتخلف الذي يهيمن على الشارع العراقي حالياً وغياب النقد الديني وضعف التنوير بالمقارنة مع سنوات الثلاثين من القرن العشرين مثلاً وتفاقم السلفية والتطرف والعدوانية.

#### قراءة في بعض المسائل الفكرية والسياسية لمحمد شرارة

اختارت السيدة الكاتبة منهجاً علمياً وعملياً في دراسة والولوج إلى فكر وحياة ونشاط والدها محمد شرارة بحيث سمح لها منحنا رؤية بانورامية نادرة، فكانت واثقة من المادة التي بين يديها، بعيدة عن المبالغة بدور والدها أو التقليل من دوره أو إهمال بعض جوانب مهمة من نشاطه الأدبي أو السياسي أو علاقاته الواسعة والحميمة والخصبة مع الذين عرفهم من النساء والرجال، سواء أكان ذلك في مجال الأدب والشعر أم في مجال المشكلات الاجتماعية أو العمل السياسي أم في مجالات التعليم ومشكلات التنوير الديني والاجتماعي والمرأة. ولم تغفل حبه الجارف وهو ابن الرابعة عشر لبنت الجيران، ثم الخيبة الأولى في الحب وزواجه من غير من أحب وعلى طريقة النظام الأبوي في بلداننا العربية والشرق الأوسطية. ثم الحديث عن صراعه الداخلي في البيت حول الموقف من حرية البنات والعباءة وانتصار الحديث على القديم رغم الجراح الداخلية التي تتركها الخسارة في نفس الأم المؤمنة على طريقة أهالي النجف وكربلاء. وكان شعره في الحب رومانسياً يحلق في فضاءات وردية جميلة، رغم مرارة الحياة الواقعية في المجتمع الذي يعيش فيه، وكأن الشعر يداوي مواقع الخيبة في نفوس البشر، وخاصة في نفوس الشعراء.

عاش متنقلاً بين المدارس الثانوية في المدن العراقية واكتسب الخبرة والمعرفة بأمور الناس ومستوى التعليم والمعلمين. كتب عن حياته في أجواء الناصرية ومدرسيها قائلاً:

"فأنا أحيا ... حياة جافة جامدة لا أثر فيها للعاطفة المشبوبة أو الخيال الجامح أو الروح الملتهبة. حياة أقل ما يقال عنها أنها "ميكانكية" بكل ما في لفظ الميكانيك من "معنى جاف". ولو كان لي مورد ضئيل من الرزق

أحفظ به كرامتي و عزة نفسي، و أحفظ به عائلتي من الفاقة لضربت هذه "الوظيفة" ضربة فيها الكثير من الحقد و النقمة و الإهانة و السحرية لا لأنها "جنت" عليّ بل لأنها قربتني من أناس أنا أبعد ما أكون عنهم روحاً و تفكيراً و عاطفة و خيالاً. قربتني من أناس لا يرون العلم إلا بقصاصة ورق ... والتجديد بالسترة والبنطلون ... ". (راجع: لمصدر نفسه، ص 88).

ورغم الموقف الأممي الواضح لمحمد شرارة في تأييد حقوق الشعب الكردي بالعراق، فقد عانى من مصاعب غير قليلة في التعامل اليومي حين عين وعمل في أربيل لتدريس اللغة العربية، إذ كان الموقف من الكرد ومطالبهم العادلة من جانب الحكومة العراقية غير ودي وغير سليم وقهري، مما كان ينعكس في ردود فعل الناس بشكل عام وتجلياته في الموقف من العرب أو من تعلم اللغة العربية.

سأحاول أخيراً أن أتناول بالتعليق على البعض القليل من المسائل المهمة التي عالجتها السيدة بلقيس في هذا الكتاب بدراية جيدة ، حيث وجدت مناسباً للتطرق إليها وجلب انتباه القارئ والقراء لها بأمل أن يحظى كل الكتاب بنقاش حيوي من جانب الكتاب والشعراء والدارسين. فكثرة الجوانب المهمة التي عالجتها الكاتبة تحتاج إلى عدة مقالات لتغطية البعض المهم من تلك الجوانب، ولكن سأقتصر على عدد من المسائل العقديّة.

#### •• الموقف من الاستعمار وثورة العشرين

ولد محمد شرارة وترى في بيت ديني وأدبي لبناني كارهٍ للهيمنة الأجنبية والاستعمار. وحين وصل إلى النجف كانت ثورة العشرين قد أخذت بعد معاناة ومظالم كثيرة ارتكبت بحق الثوار من جانب القوات البريطانية. تشير السيدة بلقيس شرارة إلى هذا الموضوع بما يلي:

"لقد بدأت الثورة العراقية لعام 1920 كاحتجاج عام ضد الحكم البريطاني و لكنها انتهت بثورة لمنطقة الفرات الأوسط. إذ "كانت الثورة بالنسبة إلى العراقيين حرباً وطنية من أجل الاستقلال. رفعت شعار الوحدة العربية إلى جانب استقلال العراق... كانت بمعاركها البطولية باعثاً قوياً لنشر الوعي الوطني، أغنت ممارسات الناس الحياتية وتجاربهم النضالية، وغذت العمل السياسي ضد الأجنبي ومصالحه غير المشروعة....". ثم تستعير مقطعاً من كتاب حسين جميل "شهادة سياسية 1908-1930 لتأكيد هذا التقدير للثورة. وتشير إلى أن الفتى محمد شرارة قد "أحس بما خلفته من غبن وتعسف وقسوة في إخمادها بين الناس. وخلفت في أعماق

الصبي المتوقد الذهن ، أثراً عميقاً من التمرد والثورة على الغبن، وتحدي الظلم" (راجع: بلقيس شرارة في كتاب "محمد شرارة". ص 34/33).

لا شك في أن هذا التحليل منطقي وسليم من حيث المبدأ ويتماشى مع ما طرح حتى الآن من تحليل حول ثورة العشرين. وبدا لي أن الدكتور علي الوردي حاول الإشارة إلى هذه المسألة بصيغة ما، وأشعر بضرورة الإشارة إلى مسألتين بشأن ثورة العشرين، وهما:

1. إن الاستعمار البريطاني وبسبب طبيعته الاستغلالية قد أجبر وبصورة عمياء، شاء أم أبى، على فتح نافذة مهمة للعراق على الحضارة الإنسانية الغربية الحديثة بعد ظلام وظلم داماً أربعة قرون تحت هيمنة الثيوقراطية العثمانية الكالحة. وبالتالي وبالرغم من كرهنا لهذا الاستعمار البريطاني، فقد كان السبب وراء الانفتاح على العالم وفي الحصول على دستور ديمقراطي بعد فشل الثورة وولوج أولي للعلاقات الإنتاجية الرأسمالية في قطاع التجارة والنقل وفي قطاع استخراج النفط الخام، ولكنها فرضت أسلوباً جديداً مرفوضاً في التعامل مع العراق حينذاك.

2. إن المشاركة الواسعة لشيوخ الدين والحوزة الدينية لم تكن كلها منطلقاً من روح وطنية، بل كان فيها الكثير جداً من الخشية الفعلية من ثلاثة اتجاهات محتملة:

أ. الانفتاح على الحضارة الغربية، وهي حضارة مسيحية تعتبر كافرة بالنسبة لشيوخ الدين المسلمين بشكل عام. وقراءة سريعة في بيانات شيوخ الدين حينذاك تؤكد هذه الحقيقة.

ب. وكان الانفتاح على العالم الخارجي يعني دون أدنى ريب بدء التقلص في نفوذ المؤسسة الدينية ودور شيوخ الدين في حياة الناس، كما تكون البداية لبناء المجتمع المدني والذي تبلور فيما بعد في دستور 1925.

ج. وكانت هذه الواجهة تعني بدء دخول العلاقات الإنتاجية الرأسمالية إلى اقتصاد البلاد، وهي بالضد من العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية، وكانت نذيراً بقرب نهايتها، وكذا المجتمع العشائري، رغم المساومة التي حصلت فيما بعد وفق قوانين "اللزمة" و"تسوية حقوق الأراضي" مع مجيء الخبير البريطاني "أرنست داوسن" من الهند إلى بغداد. وبالتالي فهذا التوجه كان يحمل في طياته خسارة كبيرة لشيوخ الدين الشيعة الذين كانوا يحققون جزءاً من إيراداتهم السنوية وإيرادات الحوزة الدينية من الإقطاعيين وكبار الملاكين في الوسط



والجنوب وعلى حساب الفلاحين، بخلاف شيوخ الدين السنة الذين كانوا يتسلمون رواتبهم من السلطنة العثمانية ومن ثم من الدولة العراقية. لقد كان هناك تحالف اجتماعي وسياسي واقتصادي بين شيوخ العشائر والقوى المدافعة عن العلاقات شبه الإقطاعية وبين المؤسسة الدينية الشيعية على نحو خاص التي كانت تجد الرعاية والحماية من النظام الملكي والحكومات العراقية المتعاقبة.

ومن هنا يفترض أن نؤكد بأن قيادة الثورة لم تكن تحمل طابعاً وطنياً معادٍ للاستعمار حسب، بل كانت ذات مضمون رجعي مناهض للتقدم والتنوير والعلمانية أيضاً، خاصة وأن قيادتها كانت بيد شيوخ الدين وليس بيد التجار أو المثقفين حينذاك. لقد كانت دفاعاً عن السلطة والنفوذ والثروة لهذه القوى أساساً.

إن هذا لا يقلل من أهمية ثورة العشرين ولا من هبة جماعة أبو الكلل في العام 1918 في النجف أو في انتفاضة العام 1919 في السليمانية بقيادة الشيخ محمود الحفيد من جانب، ولا يقلل من أهمية النضال اللاحق الذي خاضه الشعب العراقي ضد الوجود البريطاني ومعاهدة 1930 وضد محاولة فرض معاهدة بورتسموث 1948 وما بعدها من انتفاضات والمشاركة الجادة من جانب محمد شرارة في هذا النضال الوطني. إلا أن الأهداف المتباينة للقوى التي كافحت حينذاك يفترض أن نضعها نصب عيوننا لنستطيع أن نقدر اتجاهات التطور اللاحقة التي عاشها العراق. كما يفترض أن نلاحظ التناقض الذي يحمله الاستعمار معه للبلدان المستعمرة والتابعة. ومثل هذا التحليل يساعدنا على تقدير ما يجري اليوم بالعراق أيضاً من جانب قوى الإسلام السياسية المتطرفة وتلك التي يطلق عليها بالمعتدلة أيضاً.

لقد كان محمد شرارة مناضلاً صلباً في سبيل التحرر والاستقلال والتقدم الاجتماعي، كما كان مناضلاً ضد الحروب وفي سبيل السلام وكان عضواً في مجلس السلم الوطني بالعراق، إذ عاش الرجل حربين عالميتين وأدرك مخاطرها في ظل السلاح النووي ونتائجه البشعة في هيروشيما وناغازاكي، واطلع على عواقب الحرب الفيتنامية والحرب الكورية وحرب التحرير الجزائرية والحرب في فلسطين، وقبل ذلك حرب التدخل في الاتحاد السوفييتي في العام 1918-1922. وقد دخل السجن وفصل وعانى من شظف العيش ومرارة البطالة نتيجة تلك المواقف المشرفة ضد الاستعمار وسياسات الحكومات القمعية والقهرية حينذاك. وقد كتب عشرات المقالات في التعبئة العامة ضد الاستعمار والهيمنة الأجنبية وفي سبيل التحرر والديمقراطية والتي وجدت مكاناً مميزاً لها في كتاب السيدة بلقيس شرارة، ونعم ما فعلت.

• محمد شرارة وثورة 14 تموز 1958

اتخذ الأستاذ محمد شرارة موقفاً مؤيداً لثورة 14 تموز 1958 واستبشر بها خيراً لشعب العراق، الذي أصبح محمد شرارة منذ فترة طويلة جزءاً منه، رغم أنه لم يستطع تحمل الألحان والأغاني الحزينة الباكية ولا عمليات التطبير والضرب بالسلاسل وبقية البدع التي لم يجرأ جمهرة كبيرة من شيوخ الدين على مواجهتها ورفضها، فمحمد شرارة ولد في لبنان وترعرع هناك، حيث لم تكن هذه البدع معروفة هناك، والتي أدخلها خلال الأعوام الأخيرة ومنذ الحرب الأهلية بلبنان ومع تشكيل حزب الله اللبناني في إيران منذ العام 1982.

وقف محمد شرارة مع الحزب الشيوعي في دعم عبد الكريم قاسم وسياساته في الإصلاح الزراعي وقانون العمل والعمال وإلغاء معاهدة 1930 والخروج من حلف بغداد ومنطقة الإسترليني وإصدار قانون الأحوال الشخصية لصالح المرأة وبعض حقوقها المهمة... الخ. ولكنه تلمس أيضاً، وبعد فترة وجيزة من مسيرة الثورة، بروز الفردية في سياسات وسلوك عبد الكريم قاسم وإهماله للحريات الديمقراطية والدستور واتخاذ مواقف سلبية من الحياة العامة ومن الاعتداءات التي بدأت تمارسها القوى القومية الشوفينية والرجعية ضد الشخصيات الديمقراطية والتي تعرض هو شخصياً إليها. . (نفس المصدر، ص 316/317). وقد كتب محمد شرارة مقالاً يعبر فيه عن التدهور الجاري في مسيرة الثورة والعواقب المحتملة والتي وردت في مقال له تحت عنوان "كرامة المعلمين". جاء فيها قوله:

"و اعتقد الناس أنهم دخلوا في عصر جديد و أن تموز محاً جميع المفاهيم السابقة وأحل محلها مفاهيم تتناسب مع روحه وفجره وإشراقته. ولكن العقائد - على ما يبدو - مسرفة في التفاؤل. فالمفاهيم التي ثار عليها تموز تحولت إلى أشباح و اختفت هنيهة في الكهوف. ثم أخذت تطل علة الحياة إطلالة الأفراس الخائفة أخذت تحاول أن تظهر بمظهر النور. كل ما بناه تموز هوجم و كل مفاهيمه تعرضت للطعن و الضرب. و كان بإمكانه أن يعتمد الهجوم بإشارة من سبابته و لكنه ترك الهجوم يسير وتخلي عن شيء كبير من مفاهيمه ...".

إن هذا النص الواضح، وبدلاً من أن يدفع بعبد الكريم قاسم إلى أن يعيد النظر بسياساته ويحاور الكاتب، أمر باعتقاله وتقديمه للمحاكمة وحبسه ثلاثة شهور، فكان الرجل سجين الرأي في العهد الملكي وسجين الرأي أيضاً في عهد عبد الكريم قاسم. ولم ينفذ تأييد الديمقراطيين له، مثل حسين جميل وكامل الجادرجي، واحتجاجهم ضد صدور قرار حكم بالسجن على كاتب مخلص للعراق وشعبه مثل محمد شرارة بسبب مقال نقدي كتبه والذي اعتبره عبد الكريم قاسم تجاوزاً وإساءة له. وكان قاسم قد بدأ السير حينذاك في العد التنازلي لنظامه. إن من يتجاسر على تقديم كاتب مثل محمد شرارة وغيره من المخلصين للعراق وشعب العراق

إلى المحاكمة والحكم عليهم بسبب مقالات نقدية لواقع العراق حينذاك، لا بد أن يكون قد تجاوز الكثير من الخطوط الحمر وأنه قد بدأ يحفر قبره بيديه.

محمد شرارة والموقف من الماركسية والحزب الشيوعي العراقي

تبنى محمد شرارة الفكر الماركسي الجدلي من اجل تعميق عملية التنوير الديني والاجتماعي. وكان يعيش في مجتمع مدني ضيق ومحدود ومغلق على نفسه وتقاليده وعاداته، وهو مجتمع يحاصر الإنسان ويدفع به إما إلى التناغم معه والخضوع له أو التمرد والثورة ضده. والبيت الذي تعلم فيه والثقافة التي تزود بها لم تسمح له بالخضوع والقبول بواقع تلك المجتمعات فتمرد وثار عليها. وهذا ما نجده في تمرد وثورة الكثير من أبناء وبنات هذه المدن العراقية التي تغلق أبواب الأمل والانطلاق والتفتح أمام الشبيبة بشكل عام، فتتحرى عن سبل وأدوات للخلاص من ذلك والتزام الفكر الذي يساعدها على السير بهذا الاتجاه.

وبرزت بالعراق في تلك الفترة موجتان فكريتان سيطرتا حينذاك، أي في الثلاثينيات وبداية الأربعينيات، على الساحة الفكرية والسياسية العراقية:

موجة الفكر القومي اليميني التي تجلت في توجه الكثير من الشباب صوب النازية والتي أجمت فيما بعد الحرب العالمية الثانية ومارست سياسات معاداة الفكر الآخر والقوميات الأخرى والعرق الآخر وارتكبت أبشع الجرائم في معسكرات الاعتقال النازية.

موجة الفكر الماركسي التي تجلت في ثورة أكتوبر الاشتراكية 1917 ومنجزات الاتحاد السوفيتي حينذاك ومشاركته الحرب ضد النازية وفي سبيل مصالح الطبقة العاملة وعموم الكادحين.

وقد اختار محمد شرارة الاتجاه الفكري الثاني بسبب ما في هذا الفكر من مواقف أممية ومن معاداة للاستعمار والرجعية ومن دعوة للعدالة وإنصاف الفقراء والكادحين ومساواة المرأة بالرجل.... الخ. وهذا الموقف هو الذي وضعه فيما بعد في صف الشيوعيين العراقيين ونضاله معهم. جاء في الموسوعة الحرة عن محمد شرارة ما يلي: "في العام 1948 شارك في الانتفاضات الشعبية على الوضع القائم، فاعتقل في كانون الثاني 1949 وظل معتقلاً زهاء الشهرين ثم فصل من وظيفته. بعد اعتقاله الأول اشتغل في بعض الأعمال التجارية، ولكنه سرعان ما ترك التجارة وعمل في إحدى المدارس الأهلية. اعتقل ثانية في العام 1952 م وقدم للمحاكمة فحكم عليه بالسجن سنة واحدة". أما الدكتور مكرم الطالباني فقد كتب في كتابه الموسوم "دمء وراء

القضبان - مذبحه سجنى بغداد والكوت عام 1953" والصادر في العام 2002 عن محمد شرارة حين كان في سجن بغداد وأثناء المذبحة ضد السجناء ما يلي: "شاهدت الأديب والكاتب المسن الأستاذ محمد شرارة ويده قطعة من الخشب لا يمكن إيذاء ذبابة بها، "مجرمين.. وحوش.. فاشيست" يلوح بها للشرطة، فسحبته من يده إلى داخل القاعة" ولقد استشهد في هذه المذبحة 7 من السجناء الشيوعيين وجرح 23 سجيناً شيوعياً من مجموع 156 سجيناً على وفق التقرير الرسمي للحكومة العراقية حينذاك. علماً بأن السجناء الشيوعيين قد تعرضوا بعد مذبحة سجن بغداد (بتاريخ 18 حزيران/يونيو 1953) إلى مذبحة أخرى مماثلة في سجن الكوت بتاريخ 3 أيلول/سبتمبر 1853 سقط فيها 10 شهداء و92 جريحاً من مجموع 121 سجيناً شيوعياً.

كتبت السيدة بلقيس شرارة ما يلي:

"ظل محمد شرارة مؤمناً بالنظرية الماركسية، و ذلك بالرغم من أنها تطورت، خاصة بصيغتها الشيوعية، التي تتمثل بنظام دكتاتورية البروليتاريا، أي تفرد الحزب في قيادة الرؤية الماركسية واعتبر نفسه المالك لها دون غيره. وعلى تلك الرؤية أنبنى التفرد في قيادة المجتمع. و لم يتحد طلبات الحزب، بالرغم من الإنسانية التي كان يتحلى ويؤمن بها، والمتجلية عاطفياً في مختلف كتاباته في الشعر و النثر، لذا نجد أن هناك تناقضاً بين تلك الإنسانية و بين خضوعه التام لدكتاتورية الحزب." [خط التشديد تحت مؤمناً من عندي، ك. حبيب] (نفس المصدر ص 322).

عند القراءة المدققة لهذا النص القصير يجد القارئ بعض النقاط المهمة التي تستوجب التوقف والمناقشة، وهي:

• هل كان محمد شرارة مؤمناً بالنظرية الماركسية أم مقتنعاً بها؟ لا شك في أن الفرق بينهما كبير جداً ولا يخفى ذلك على الكاتبة والأديبة السيدة بلقيس شرارة. فالإيمان يحول النظرية لدى المؤمن بها إلى دين، والدين لا يرقى إليه الشك لدى المؤمنين به وغير قابل للنقاش، في حين أن القناعة تنشأ عن دراسة وتدقيق وقبول من جهة، وهي قابلة للنقاش والتغيير والتعديل أو أنها تتطور مع حركة الزمن والتحويلات الجارية في العالم ومع تطور المستوى الثقافي للفرد ذاته من جهة ثانية.

• فليست هناك نظرية ثابتة، بل هي متحركة ومتغيرة بتغير الظواهر التي تسببت في نشوء المقولات. والإيمان هو الذي كان يميز الجمهرة الغالبة من الشيوعيين في سائر أرجاء العالم، وبشكل خاص شيوعيو الدول

النامية ومنها العراق، وخاصة الجانب السياسي الذي يرتبط بالدفاع عن الفقراء والمعوزين وضد الأغنياء والظالمين وضد الاستعمار والهيمنة الأجنبية. في حين أرى بأن محمد شرارة بغزارة فكره وسعة اطلاعه وثقافته المميزة لم يكن مؤمناً بل مقتنعاً قناعة فعلية، إذ حين زار الاتحاد السوفييتي استطاع أن يكتشف الخل ورفض ما يجري هناك ويمارس النقد بشأن الأوضاع في الدولة السوفييتية والحزب الشيوعي السوفييتي، إذ أنها كانت تتناقض مع دراسته وقراءته للماركسية أولاً، ومع ما قرأه عن إيجابيات النظام والحياة والمجتمع في الاتحاد السوفييتي والتي لم تكن تتطابق الحقيقة والواقع القائم في الاتحاد السوفييتي حينذاك ثانياً. وهكذا كان موقفه من الصين الشعبية.

• لدى القناعة بأن محمد شرارة قد التزم بالمنهج المادي الديالكتيكي والمادي التاريخي بالأساس، وهو الذي ساهم في جعل الكثير من مقالاته، أو قل أغلبها، ينزع إلى المناقشة والحوار والعلمية الرصينة، كما أنه قد التزم الموقف المناهض لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان والذي كشف عنه بصورة جلية كتاب رأس المال لكارل ماركس.

• لم يقدم ماركس رؤية متكاملة عن الاشتراكية، بل كانت إرهابات في هذا الصدد وتطلعات، في حين أنه درس الرأسمالية بكل أبعادها، وكتابه رأس المال يشكل إرثاً إنسانياً كبيراً للبشرية كلها يدرسه الرأسماليون قبل الاشتراكيين والشيوعيين. والحزب الشيوعي هو من نتاج الفكر اللينيني في أعقاب الصراع الذي حصل في إطار الأمم المتحدة الثانية (الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية بشأن الموقف من الحرب العالمية الأولى على نحو خاص) وفي أعقاب ثورة أكتوبر 1917. وفي هذا تحدد الموقف من دكتاتورية البروليتاريا والتفرد بالسلطة التي آمنت بها كل الأحزاب الشيوعية وعملت من أجل ذلك. وهي بطبيعة الحال رؤية شمولية ومنافية للديمقراطية وكنت أحد الملتزمين بها والعاملين في سبيلها. ولكن تجارب الاتحاد السوفييتي وبقية بلدان المعسكر الاشتراكي ومعايشتي لها أكدت خطأ هذا الأسلوب في الحكم والذي شخصته روزا لوكسمبورغ في العام 1918 في كتابها الموسوم "الثورة الروسية" والذي كتبه وهي في السجن وقبل اغتيالها مع رفيقها كارل ليبكنخت بعدوانية شرسة في كانون الثاني من العام 1919، وقد شتمها لينين قبل ذاك ونعتها بـ "السياسية العاهرة" بسبب نقدها للمسيرة السوفييتية حينذاك، ولم يكن عادلاً ولا سليماً في هذه الشتمة السياسية، بل كانت على حق ورأت المستقبل برؤية جدلية آفاقية سليمة. إلا أن غالبية الأحزاب الشيوعية في الوقت الحاضر قد تخلت عن هذه الموضوعية، ومنها الحزب الشيوعي العراقي، والذي انعكس في برنامجه

الجديد ونظامه الداخلي الذي أقر في مؤتمره الخامس في العام 1993 والمؤتمرات التالية على وفق اطلاعي عليها.

• كان الحزب الشيوعي العراقي في فترة قاسم يعيش صراعاً بين اتجاهين بارزين، اتجاه يسعى للخلاص من قاسم وتسلم السلطة، واتجاه آخر يعتبر ذلك مغامرة تقود إلى عواقب وخيمة. وبين هذين الاتجاهين وقع الحزب بأخطاء شديدة زادها تأثيراً سلبياً ردود فعل الحزب إزاء سياسات القوى القومية الشوفينية وبعض الدولية العربية (مصر وسوريا) التي كانت تدعي سعيها للوحدة العربية، وكذلك الدول الإقليمية الأعضاء في حلف بغداد (السننوتو) حينذاك والدول الكبرى وشركات النفط الاحتكارية، وكذلك سياسات قاسم ورغبته في البقاء مع العسكر في السلطة وتفاقم النزعة الفردية في حكم البلاد.

• لا شك في أن قيادة الحزب الشيوعي العراقي كان تطالب جميع أعضاء الحزب وعلى كل المستويات بالتزام مبدأ التضحية وكران الذات في تلك الظروف، والتي كانت ثقيلة على الجميع وعلى عائلات الشيوعيين، ولم تنتبه لعواقبها الوخيمة على عائلات الشيوعيين التي لا يفترض أن تكون كذلك. وكانت الديمقراطية الداخلية غائبة عن الحزب حينذاك وعن العلاقات مع القوى الأخرى. ورغم التزام الحزب بالنقد والنقد الذاتي، فإن ممارسة ذلك كانت بعيدة عن حياة الحزب الداخلية ومغامرة غير محسوبة العواقب، وتشديد المركزية على حساب الديمقراطية و"نقد ثم ناقش" كان هو المبدأ المعمول به عملياً حينذاك! إن هذا الواقع وبعض تلك الأسس في العمل قد أُلحقاً أضراراً فادحة بالحزب ذاته وفقد الكثير من قياداته وأعضاء الحزب حياتهم أو دخلوا السجون. ويبدو لي أن هناك تغييرات كثيرة جرت منذ ذلك الحين وخاصة بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، ولدي القناعة بأن هناك الكثير الذي يفترض أن يتغير في هذه الأحزاب لكي تكون قادرة على التناغم مع الجديد وتسعى إلى استيعاب أوضاع العالم في عصر العولمة وتفاقم المشكلات الدولية والإقليمية والمحلية وسبل تعبئة الرأي العام لصالح القضايا العادلة والمشروعة.

• إن الحديث عن الحزب الشيوعي العراقي خلال الفترة موضوع البحث، يفترض أن لا ينسى بأي حال دور الحزب في عمليات التنوير الاجتماعي والديني والسياسي، سواء كحزب أم كأعضاء ومثقفين ارتبطوا بالحزب بصيغ شتى، إضافة إلى دوره في النضال ضد الاستعمار والأحلاف العسكرية ومن أجل التنمية والتقدم الاجتماعي والسلام. لقد استطاع الحزب أن يعبئ جمهرة كبيرة من المثقفين حوله وزجهم في النضال من أجل قضايا الشعب. ولا شك في أن الحزب قد ارتكب أخطاء غير قليلة على هذا الطريق، وليس هناك من يعمل ولا

يرتكب أخطاءً، إلا من لا يعمل وهو الخطأ الأكبر الذي يرتكبه الإنسان. إن الأخطاء التي ارتكبتها الحزب نشأت من واقعين:

أ . من المستوى الفكري (النظري) والثقافي العام الضعيف لقيادة وكوادر وأعضاء الحزب بشكل عام حينذاك. وهذا لا يلغي بأي حال وجود عناصر مثقفة ثقافة عالية، ولكن الحديث هنا على المستوى العام.

ب . من التزام الرؤية السوفييتية للنظرية الماركسية القائمة على أساس اللينينية والبراغماتية في سياسات الدولة السوفييتية.

لقد كان محمد شرارة شيوعياً ملتزماً من الطراز اللينيني، وكنا جميعاً من هذا الطراز أو من هذه المدرسة اللينينية. وقد برهنت الحياة، كما أرى، على خطأ الكثير من أفكار تلك المدرسة، وخاصة في مسائل التنظيم أو الانفراد بالسلطة أو سبل تشكيل الجبهات والدور القيادي لحزب الطبقة العاملة أو دكتاتورية البروليتاريا... الخ. إن الأخطاء التي ارتكبتها في القيادة (وأنا كنت أحدهم) جعلتني كعضو في الحزب وفي القيادة سابقاً أن أقدم اعتذاراً شخصياً في الذكرى الأربعينية لوفاة الكاتب هادي العلوي حين قدمت دراسة عنه في ندوة عقدت في أمستردام نظمها الناقد الأدبي والكاتب الأستاذ ياسين النصير، لكل من يمكن أن أكون قد أسأت إليه دون قصد بسبب الالتزامات الحزبية والسلوك اللينيني لي كعضو أو كمسؤول في الحزب حينذاك.

محمد شرارة ومسائل فكرية واجتماعية أخرى

## 1 . محمد شرارة والموقف من مأساة المرأة العراقية وحقوقها

أحسنت السيدة بلقيس كثيراً حين برزت، وفي هذه الظروف الجديدة بالذات حيث تعاني المرأة من ردة فعلية ضد مصالحها وضد ما صدر في زمن عبد الكريم قاسم من قانون خاص بالأحوال الشخصية بشكل خاص، الموقف الإنساني الرائع الذي التزم به ومارسه الأستاذ محمد شرارة في حياته الفكرية والاجتماعية والتنويرية والسياسية في الدفاع عن حقوق المرأة وإنارة الطريق أمامها وكشف المظالم الكبيرة التي كانت تتعرض لها. وقد تجلّى هذا الموقف في علاقاته العائلية في البيت ومع زوجته وبناته الثلاث (مريم، بلقيس وحياة) ومع أبنائه، وفي نضاله اليومي. لقد كانت مساواة المرأة بالرجل واحدة من أبرز وأهم أهدافه النضالية. وكما نعرف فقد بدأ الكفاح من أجل حرية المرأة وضد الحجاب بالعراق مبكراً بعد إقامة الدولة العراقية ومنذ أن بدأت جريدة الصحيفة، لصاحبها حسين الرحال وصحبه، بنشر مقالات تتميز بالقوة والصراحة والجرأة تطالب فيها بحقوق

المرأة، ومنها حقها في التعليم وضد الحجاب وحبسها وراء جدران المطبخ والدار ومن أجل مساواتها بالرجل. وقد لمع في هذا المجال بعض اليساريين والليبراليين، ومنهم حسين الرحال وأمينة الرحال ومصطفى علي وحسين جميل وزكي خيرى كما شارك في هذا الكفاح من أجل المرأة جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي وغيرهما من المثقفين والشعراء العراقيين، سواء أكان عبر الكتابة والنشر الواسعين حول هذا الموضوع أم في خوض النقاشات في مختلف المحافل. كما بدأت جماعة الأهالي ومن ثم الإصلاح الشعبي والحزب الشيوعي النضال في سبيل هذه القضية أيضاً.

ولج محمد شرارة في الثلاثينات من القرن الماضي في هذا المععان وتحمل الكثير من النقد والالتهامات لهذا السبب، ولكنه كان صارماً في الموقف وحازماً في المطالبة بحقوق المرأة وحريتها ودورها في المجتمع رافضاً المساومة عليها. وقد تركز هذا الموقف حتى قبل تبنيه الفكر الماركسي. وحين كان يعيش كمعلم تقدمي في الكثير من مدارس المدن العراقية، كان يصف لنا حالة المدينة والريف والظلم والاضطهاد المضاعفين اللذين تتعرض لهما المرأة من جانب الرجل والدولة والمجتمع. وقد وظف الشعر لهذا الغرض، كما كتب الكثير من المقالات القوية والشفافة والهادفة دفاعاً عن حقوق المرأة. ويكفي ما زودتنا به السيدة بلقيس شرارة في هذا الصدد حين نشير إلى مقطع واحد حول المرأة الريفية بعد أن شاهد بأمر عينيه بؤس المرأة والعائلة الفلاحية والاستغلال البشع الذي تتعرض له من جانب الإقطاعيين وكبار ملاكي الأراضي الزراعية بشكل مباشر أو عبر السراكيل، إذ كتب يقول:

"أما هذه الفتاة التي وقفت على الربرة تغني بصوتها الشجي "هلي يا ظلام" و هي: أهلي أيها الظالمون ، تلقيها الفتاة بصوتها الحزين فتلوح لك الدنيا سحباً مدلهمة و أجواء محلولة، ويخيل إليك أن كل شيء حولك ينادي "هلي يا ظلام". إنها كلمة بسيطة و لكنها زوبعة. فالمرأة في الريف العراقي مظلومة لو كانت كلمة "مظلومة" كافية لتندل القارئ على معاملة هذا المخلوق المجاهد الذي لا يقل كفاحه في شق الأرض و زرعها و سقيها و حصدها عن كفاح أقوى الآلات الفولاذية. تلك المعاملة التي تتصل بأعمق أعماق العصور الجاهلية و أبعدها استهانة بحقوق الإنسان... لقد كان بلاء الشرق بعمائمه و قلانس، فكيف الآن و قد تحالفت الطرايبش و البرانيط أيضاً مع القلانس و العمائم، و شكلت موكباً واحداً و جوقاً موسيقياً واحداً يضرب على وتر واحد و يغني لحناً واحداً."، (نفس المصدر، السابق. ص 164)، وهذا يعني لحن ظلم مضاعف ومشارك موجه ضد المرأة ومن أجل استمرار اضطهادها وممارسة القسوة الشرسة بحقها.

2 . الموقف من مسألة الخلود في النص الأدبي والفني



تشكلت لدى محمد شرارة فكرة الخلود للأعمال الأدبية بعد أن تبنى الرؤية السوفييتية للآداب والفنون بشكل عام، وهي رؤية ضيقة عموماً وقاصرة وقائمة على تسييس الآداب والفنون التي تخدم قضية الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ومصالح الدولة السوفييتية وتساهم في تكريس دكتاتورية البروليتاريا، وبتعبير أدق دكتاتورية الحزب الواحد لـ"خدمة" الطبقة العاملة! وهي رؤية ضيقة تبلورت في فترة ستالين وروج لها نظرياً وعملياً ديمتري جدانوف في النصف الثاني من العقد الرابع وأوائل الأربعينيات من القرن الماضي. ولم يبتل بهذه الرؤية محمد شرارة حسب، بل الغالبية العظمى من الأحزاب الشيوعية والشيوعيين في العالم حيث كانت التنظيرات الفكرية والمواقف العملية القادمة من الاتحاد السوفييتي في فترة ستالين ووجود الكومنترن، بل حتى بعد حله في العام 1942، باعتباره المركز التنفيذي للحركة الشيوعية العالمية، هي الأكثر صواباً، وكان الشعار العام هو "التعلم من الاتحادي يعني تعلم تحقيق النصر!". ومن هنا اعتبرت الأعمال الأدبية والفنية التي تخدم قضية الطبقة العاملة وفق المفهوم السوفييتي وفي المرحلة التي يمر بها المجتمع هي التي يكتب لها الخلود. ومن هذا المعين الفكري انبثقت مقالة محمد شرارة تحت عنوان "الخلود الأدبي".

أشارت السيدة بلقيس شرارة إلى هذه المسألة بصواب حين كتبت تقول:

"... اعترض محمد شرارة في هذا المقال على بعض الكتاب الذين كانوا يكتبون عن بعض الآثار الأدبية من أنها خالدة و هي لا تستحق هذه التسمية. و تخوف من الجمود الذي أضفى على الآثار الأدبية كما حدث في الصين، و نشأ تقديس للماضي والثناء عليه، ومن نافذة هذا التقديس المتمزمت أطل الخطر على تطور الحياة فرمي الكتاب الذين حاولوا التجديد بالوقاحة الإلحادية، وكان من أثر ذلك أن نشر التقديس أجنته على الكتاب الكلاسيكيين، و ألقى على اللغة الصينية وشاحاً من الجمود، و أوقفها عن التطور منذ فجر التاريخ." ثم يتساءل عن الخلود و ما هو الخلود؟ فكتب:

"الخلود. ما هو الخلود؟ حتى يهون هذا الهوان، وبيتذل هذا الابتذال! إنه كلمة هائلة لو قدر لها الوجود فيما ينتجه العقل الإنساني لأوقفت عجلة التاريخ عن الاندفاع، و أوقفت جرثومة الحياة عن التطور، وأبقتها في دائرة خاصة من الدوائر الضيقة التي تصاب معها العقول بالشلل و الأفكار بالالتواء و في ذلك ما فيه من الخطر على سير الإنسانية، و حركتها المستمرة الصاعدة! ... فأن كان الأدب "تصويراً" للحياة - و هو ما نؤمن به - فخلوده يدور في الفلك الذي دارت به الحياة. فقد قيل عن "روميو وجوليت" في الأدب الإنكليزي إنها خالدة، ولكن القصة الإنكليزية أحيطت بظروف وعادات وقتية لم يبق لها أثر في الحياة الإنكليزية

الحديثة، وإذا كانت العناصر التي استمدت القصة و روحها قد زالت في العصر الجديد فكيف يمكن أن يبقى الشيء خالداً وهو معدوم الروح؟! (نفس المصدر، ص 169).

ترفض السيدة بلقيس شرارة هذا الرأي بحق وتتبنى رأي الأستاذ رفعة الجادرجي الذي حاور محمد شرارة بهذا الخصوص فكتبت تقول:

"ولكن يرجى رفعة الجادرجي الخلود إلى "الابتمال في الفن":

" إن مبدأ الخلود في الفن الجيد هو تصوير للحياة كما كتب محمد شرارة، حيث يعبر عن حالة اجتماعية معينة، نتيجة فكر معين و عاطفة معينة في وضع اجتماعي معين. لذا فهو ضمن التاريخ ويكتسب أهميته و زواله مع أهمية التعبير عن الحالة العاطفية في زمنها، وما أن زالت الظروف فتزول أهميتها. وهذا الموقف من الفن هو بتأثير النظرة السوفييتية، التي حددت مفهوم العلاقة بين الفن و التفاعل الاجتماعي و لم تستطع أن تتوصل إلى مصطلح الابتمال - "optimal في الفن". فالفن ليس فقط تصويراً للحياة، "و قيمته بقيم الحياة التي تعبر عنها فقط، و إنما يتضمن الفن التعبير عن عاطفة الإنسان و قدرة هذه العاطفة في التعبير عن نفسها. فإذا تمكن الأديب أو الفنان أن يتجاوز الحاجة الزمنية المعينة ويعبر عن عاطفة الإنسان العمومية، يكون بذلك قد استطاع أن يتجاوز الفترة الزمنية التي كتبت فيها تلك القصة أو المسرحية أو الصورة التي رسمت فيها القطعة الفنية، وأن تقدم الزمن وراء السنين...". (نفس الكتاب، ص 171).

أتفق مع هذا التدقيق الذي تقدمه السيدة بلقيس شرارة عن الأستاذ رفعة الجادرجي حول موضوع الخلود وأرى بهذا الصدد ما يلي الذي أطرحه للمناقشة:

إن الأعمال الأدبية والفنية من شعر ورواية أو مسرحية أو لحن موسيقي أو لوحة تشكيلية أو نحت أو عمل معماري.. الخ التي يكتب لها الخلود على صعيد حضارة مجتمع واحد أو على صعيد الحضارة الإنسانية العالمية يفترض فيها أن تعبر في تكوينها شكلاً ومضموناً عن ثلاث خصائص جوهرية، وهي:

\*\* إنها تعبر عن عملية تراكم فني ومهني رفيع المستوى لشعب معين أو للإنسانية جمعاء، إذ أن الجديد ينبثق من استيعاب وهضم القديم ووعيه بشك جيد والتعرف على سماته وخصائصه ومن ثم تجاوزه.

\* \* أنها تعبر عن عاطفة إنسانية جياشة تعبر عن لحظة معينة، ولكنها تتجاوز تلك اللحظة إلى زمان يفوق ويمتد بعيداً.

\* \* وأن يكون العمل الأدبي أو الفني قد وصل إلى حد الكمال والاكتمال أو كما يسميه الأستاذ رفعة الجادرجي " الابتمال".

وهناك الكثير من الأمثلة على هذا النمط من الآداب والفنون الخالدة التي تعزز بها شعوب العالم والتي تشكل جزءاً أصيلاً من حضارتها.

### 3 . ملاحظات أخرى سريعة

\* لم يكن الاتفاق في انقلاب صدقي - سليمان قد تم بين الشخصيتين وبعض اللبراليين، بل كان بين الاثنین وجماعة الأهالي أو بين الاثنین وقيادة الإصلاح الشعبي، علماً بأن حكمت سليمان كان قد أصبح عضواً في جماعة الإصلاح الشعبي حينذاك وقبل ذلك كان محمد جعفر أبو التمن هو الآخر قد التحق بقيادة الإصلاح الشعبي، في حين كان كل من الأساتذة كامل الجادرجي وعبد الفتاح إبراهيم ومحمد حديد وحسين جميل أعضاء قياديين سابقين في الإصلاح الشعبي. أما الذي رفض الانقلاب والتعاون مع بكر صدقي فهم الأستاذ عبد الفتاح إبراهيم. وكان أول من قدم استقالته من وزارة حكمت سليمان هو الأستاذ كامل الجادرجي وبقيّة مجموعة الإصلاح الشعبي للأسباب التي ذكرت وأسباب أخرى، خاصة وأن الفردية سادت عمل بكر صدقي وحكمت سليمان وانعدم الانسجام في الحكومة ورفضاً تحويل السلطة إلى المدنيين فقط والكف عن التدخل في الشأن الحكومي من جانب بكر صدقي. لم يكن الفريق بكر صدقي العسكري عنصراً ديمقراطياً، بل كان مستبداً، وهو من العناصر التي أرسلت لقيادة القوات العسكرية لضرب انتفاضات الشعب في الوسط والجنوب وفي كردستان العراق في النصف الأول من العقد الرابع من القرن الماضي، وهو الذي أمر باغتيال جعفر العسكري.

\* لم يكن كل الذين التحقوا وأيدوا ألمانيا من العناصر الكارهة للاستعمار البريطاني فقط، بل كانت هناك مجموعة غير قليلة قد تبنت الفكر القومي اليميني المتطرف لا كرهاً ببريطانيا حسب، بل وإيماناً بالفكر القومي اليميني الشوفيني، أو الفكر القائم على الأرضية الفكرية النازية، والذي برز ابتداءً في نادي المثني بن حارثه الشيباني ودور الدكتور بيتر غروبه، الوزير المفوض الألماني في بغداد، في إقامة الدورات التثقيفية وإرسال

الوفود إلى ألمانيا ومنها وفود الكشافة أو الفتوة. لقد كان على رأس المؤمنين بالنازية حينذاك مفتي القدس محمد أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني وسامي شوكت، إضافة إلى العقلاء الأربعة. ولا شك في أن أحد الأسباب في ذلك التوجه صوب النازية هو عداة النازية لليهود أو للسامية من منطلق عنصري وبالارتباط مع القضية الفلسطينية.

لقد كان محمد شرار مقتنعاً بفكرة الأممية التي لا تعني بأي حال إهمال القومية بمفهومها الوطني وليس بمفهومها العنصري أو الشوفيني من جهة، كما أنه كان ضد كل أشكال التمييز، ومنه التمييز القومي أو الديني أو المذهبي أو التمييز ضد المرأة من جهة أخرى، وهما وجهان متكاملان لعملة واحدة. وقد برز هذا واضحاً في موقفه الوطني من قضية فلسطين وإدانته للصهيونية كفكر قومي يميني متطرف وعنفي. وكان محمد شرارة داعية ومناضلاً من أجل أن تبقى فلسطين لكل سكانها من مختلف القوميات والأديان والمذاهب، رفض التعرض لليهود بالعراق وشجب الاعتداء عليهم، ومنه ما حصل في الفرهود الذي تعرض له اليهود في بغداد في الأول والثاني من حزيران/يونيو 1941 وفي البصرة أيضاً.

كتبت السيدة بلقيس شرارة عن حادثة تعرض فيها مواطن يهودي عراقي إلى اعتداء من صبية عراقيين كانوا يرمونه بالحجارة ويسئون إليه بأفدع الشتائم. أيدتهم في ذلك وشجعتهم امرأة عربية كانت تشتغل معينة في بيت عائلة شرارة واسمها "شنيئة". وحين علم السيد شرارة بذلك وبخها على فعلها وطلب منها عدم تكرار ذلك. وعبر بهذا الموقف عن البنية الفكرية الإنسانية السليمة لدى الكاتب والشاعر السياسي والاجتماعي محمد شرارة. (راجع نفس المصدر، ص 101/100).

#### الخاتمة

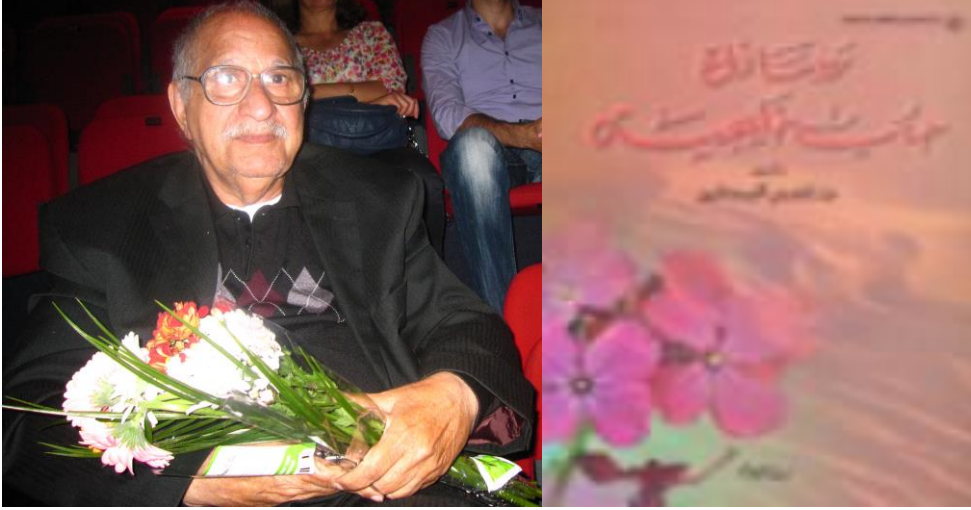
هناك الكثير من القضايا التي كان بالإمكان استعراضها والبحث فيها، إذ أن الدراسة القيمة التي قدمتها لنا الكاتبة والأديبة بلقيس شرارة تستحق القراءة الجيدة، لأنها ممتعة ومثيرة للأسئلة والنقاش، إضافة إلى كونها متعددة الجوانب وتبحث لا في الواقع العراقي خلال الفترة التي عاش فيها الأستاذ محمد شرارة، بل تبحث في الوضع الاجتماعي والسياسي اللبناني أيضاً. كما أن اعتماد الوثائق والتحقيقات الشخصية والمعرفة الملموسة بالوالد وجهاً الكبير منحت الدراسة قيمة إضافية تستحق التقدير.

ولا شك في أنني سأعود إلى الموضوع مرة أخرى في فرصة أخرى للبحث في موقف الأستاذ محمد شرارة من مسألة نقد الفكر الديني ودوره البارز في هذا المجال والذي قدمته السيدة شرارة بشكل جيد وواضح، خاصة وان هذا الموضوع يحتل في أيامنا هذه أهمية استثنائية. لقد مات الرجل ولم يحض بقبر آخر بعد أن مارس الطاغية صدام حسين فعلته القبيحة حين سوى المنطقة التي دفن فيها جثمان محمد شرارة بالأرض وأزال معالم القبر بالبلدوزرات. كتبت بلقيس شرارة في هذا الصد والحزن ينهشها ما يلي:

"الحاكم" يللم جراحه، بعد معركة "أم المعارك" و ينتقم من شعبه، أحياء و أموات. سارت البلدوزرات/جرافات لشق الطريق، في مقبرة "وادي السلام" في النجف، شيئاً فشيئاً تتقدم في عمق المقبرة، تجرف أمامها القبور التي بدأت تتلاشى من الوجود، فقطعت المقبرة وجزئت، كما تقطع أشلاء جثة خروف" ثم تواصل فتقول: و مثل أمام ناظري "البلدوزر" في مدينة النجف، وقفت أمامه أبحث عن لحد والديّ، في صمت المقبرة الموحشة الواسعة التي طمست معالم قبriهما: أفتش عما تبقى من قبriهما. وقفت أمام كماشة "البلدوزر"، وهي تجرف عظام الموتى الممزوجة بتراب الأرض. كومة من العظام الممزوجة بالتراب، و ثلثة من الرخام، ترتفع و ترتمي أمام ناظري، تتلوى و تنكسر بين أنياب "البلدوزر".

ماذا يمكن أن نقرأ في ثنايا رواية "رسائل حب خليجية"

للكاتب والقاص جاسم المطير؟



عنوان الكتاب : رسائل حب خليجية

اسم الكاتب : جاسم المطير

الناشر : الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت

سنة النشر : طبعة أولى 2008

عدد الصفحات : 288

للكاتب العراقي المعروف جاسم المطير الكثير من المؤلفات الغنية شكلاً ومضموناً، فهو منتج غزير وقارئ دؤوب وناقد سياسي واجتماعي ساخر، ومساميره ستبقى تلاحق من يستحق الملاحقة والنقد. قرأت الكثير من الكتب التي صدرت له خلال العقود الأربعة المنصرمة، كما قرأت له المئات من المقالات السياسية والنقدية التي نشرها في المهجر، أو قبل ذلك حين كان يمارس العمل الكتابي والصحفي في مجلة النفط والتنمية وفي صحف أخرى. وقد أكسبه العمل السياسي والعيش في السجون خبرة ومعرفة

قيمة بالبشر، وعواقب التعذيب في سجون ومعتقلات نظامي البعث الأول والثاني تعيق اليوم حركة جاسم المطير وأتعبت جسده، ولكنها عجزت عن تعطيل عقله وفكره النير وثقته العالية بصحة القضايا التي يناضل من أجلها وقدرته على الكتابة والتعبير الصادق عما يختلج في داخله وممارسة النقد. ومع ذلك ورغم مرارة الغربة يمتلك الكثير من الحيوية والعقلانية والعفوية الواعية في الكتابة وفي التعبير النافذ لما يريد إيصاله. وقد أعجبت كثيراً بما قرأته له خلال الفترة المنصرمة. ولكن رواية "رسائل حب خليجية" منحنتني فرصة التعرف بشكل أجود على المستوى الفني الرفيع الذي يمتلكه الصديق جاسم المطير في كتابة الرواية وحبكة أحداثها واللغة الغنية المتماسكة والشفافة التي استخدمها في إنجاز هذا العمل الروائي الجديد كل الجدة على أدبنا العربي والشرق أوسطي. فالكاتب قدم لنا في "رسائل حب خليجية" لوحة أدبية ذات قيمة تاريخية وذات مستويات وأبعاد عدة، إنها أشبه بلوحة تشكيلية متباينة في مستويات النظر إليها.

أبدع الكاتب في عملية المزج الممتع والهادف بين الحقيقة والخيال، بين الواقع والاعتراب عنه، بين الحب والكراهية، بين الادعاء بالدين والدين، بين الظاهر من الأمور والباطن منه، بين الصدق والمخاتلة، بين الأمس واليوم. وكان التاريخ أداة طبيعة بين يديه للتعبير عن الواقع الراهن عبر الماضي المتجدد بصيغة ما دون إقحام قسري لما يجري اليوم في واقع الحال. إنها رسائل حب غير اعتيادية، فرائحة الذهب الأسود، وقبلها اللؤلؤ، يفوح منها. إنها المواد التي تجلب رأس المال لتضاعفه عشرات بل مئات المرات على حساب شعوب هذه المنطقة.

الأسئلة التي تدور في بال القارئة والقاري لهذه الرسائل الخليجية في الحب كثيرة، ولكن على الأقل يمكن طرح سؤالين الأول: لماذا اختار الكاتب هذه الموضوع، ولم أختار هذه الأسلوب في الكتابة؟ والسؤال الثاني هو: ماذا نقرأ في هذه الرواية الصادرة في العام 2008؟

لا أعرف بالضبط الدوافع التي دفعت بالصديق الكاتب على اختيار هذا الموضوع، ولكن أقدر بأن الأحداث المتتابعة منذ عدة عقود في المنطقة ومن ثم في دولها يعاد إنتاجها مرات ومرات ولكن بصيغ مختلفة وبأشخاص آخرين، ولكن الأهداف تبقى واحدة والعواقب على شعوب المنطقة واحدة، وهي التي أراد بها الكاتب جلب انتباه القارئات والقراء إلى هذه الحقيقة، رغم أنه يعتقدون بالمقولة القائلة "المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، في حين أن المؤمنين من شعوبنا لدغوا مئات المرات ومن نفس الجحر لا غيره، ولم يتعلموا منه شيئاً. وأشعر بأن الأسلوب الذي اختاره أراد به أن يكشف عن الوجه المزدوج أو الوجوه العدة

لأولئك الذين يسعون إلى تحقيق أهدافهم في بلداننا على حساب شعوبنا ويمارسون الأساليب الغبية التي تمر علينا ولا نحس بها لأننا ما زلنا نياماً وكأننا في سبات عميق لا نختلف كثيراً عن أهل الكهف. أن الطريقة التي عالج بها الموضوع استنفذت منه كتاباً واحداً، في حين استنفذت من الراحل الكاتب المبدع عبد الرحمن منيف خمسة أجزاء في كتابه الموسوم "مدن الملح" ليعبر عن نفس الموضوعات ويصل إلى نفس النتائج، ولكن بتكثيف رفيع وغير مغل.

يطرح الكاتب حاسم المطير في هذه الرواية مجموعة من الإشكاليات الكبيرة التي عاشها الخليج العربي خلال الفترة الواقعة بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، استفاد في ذلك من فن كتابة "الرسائل المتبادلة" بين عاشقين أوروبيين، وبتعبير أدق إنكليزيين، بين بطلي الرواية ليكشف لنا عن تلك المشكلات التي عانى منها الخليج والتي نحصد اليوم نتائج وعواقب تلك الفترة.

الكاتب يقدم لنا بشكل خاص رؤية تفصيلية لما كان يدور في رأس الرجل العربي في تلك الفترة، وخاصة الرأس العربي البدوي قاطن الصحراء، ومدى ارتباط ذلك بما هو تحت الحزام. لقد استطاع الروائي المبدع جاسم المطير استخدام "رواية ألف ليلة وليلة" خير استخدام وقدم أفضل وأدق تحليل حول العلاقة بين الرجل والمرأة وحول إعادة إنتاج هذه العلاقة جيلاً بعد جيل في هذه المنطقة من العالم، كما أشار إلينا بشكل فني ممتع ودون إسراف كيف تتم مثل هذه العملية المعقدة والمتوارثة اجتماعياً وليس جينياً عبر تكريس العادات والتقاليد والتربية اليومية وما يمكن تطويعه عبر الدين في تربية الأطفال.

فالمرأة سلعة تباع وتشتري، إنها سلعة لأغراض متعة الرجل وليست للمشاركة مع الرجل في المتعة الجنسية، إنها متعة من طرف واحد لا غير. فالرجل سيد الموقف، ولكن السيد الفعلي الذي يتحكم به ليس عقله بل سلاحه البائس المنتصب دوماً بين فخذيه.

فالرجل البدوي أو العربي يحمل سلاحه الذاتي شاهراً إياه في وجه المرأة فيقتنص الواحدة تلو الأخرى ليزيد عددهن عما سمح به القرآن، إذ أن النبي كانت له أكثر من 10 زوجات وقيل 15 زوجة، يقول الشيخ صالح الكرباسي في مركز الإشعاع الإسلامي ما يلي: "اختلفت الأقوال في عدد نساء النبي محمد (صلى الله عليه و آله) ، لكن المختار لدينا إعتماً على ما روي عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أن رسول الله (صلى الله عليه و آله) تزوج بخمس عشرة امرأة، منها ما دخل (صلى الله عليه و آله) بهن من نسائه"، (راجع: موقع مركز الإشعاع الإسلامي للشيخ صالح الكرباسي بتاريخ 2009/10/2، ك. حبيب)، إذ يشير الشيخ صالح الكرباسي إلى أن النبي دخل بثلاث عشرة منهن ولم يدخل باثنتين منهن.



أما المجلسي فيذكر ما يلي: هناك أقوال أخرى منها ما رواه العلامة المجلسي عن " المبسوط " ، و ابن شهر آشوب عن أبي عبيدة أنه قال : تزوج رسول الله ( صلى الله عليه وآله ) ثمانية عشر امرأة و اتخذ من الإمام ثلاثا ، راجع : ما ذكره العلامة محمد باقر المجلسي ، المولود باصفهان سنة : 1037 ، والمتوفى بها سنة : 1110 هجرية ، في كتابه بحار الأنوار : 13 / 389 ، و 22 / 191 ، طبعة مؤسسة الوفاء ، بيروت / لبنان ، سنة : 1414 هجرية ، و راجع أيضاً : ما ذكره محمد بن شهر آشوب المازندراني ، المولود سنة : 489 هجرية بمانذران ، و المتوفى سنة : 588 هجرية بجلب ، في كتابه مناقب آل أبي طالب : 1 / 159 ، طبعة : انتشارات علامة ، سنة : 1379 هجرية ، قم / إيران" (راجع: موقع مركز الإشعاع الإسلامي"للشيخ صالح الكرباسي بتاريخ 2009/10/2، ك. حبيب). في حين لم يسمح القرآن إلا بأربع زوجات (لا غير!)، وما ملكت أيمانكم (لا غير أيضاً!). أما الخلفاء المسلمون في عهود الأمويين والعباسيين وسلطين العثمانيين وأولياء الله "الصالحين" والولاة وقادة الجيوش "المغاوير"، فكانت لهم زوجات وجواري يصعب عدّهن في غالب الأحيان، إذ كانت خزائن الأمة مفتوحة لهم بشكل مطلق!، وقد زادوا على ذلك حين امتلكوا الكثير من الغلمان، فهم يعتقدون بأن الله يسمح لهم بذلك ما دام سيوفه لهم في الجنة كما جاء في الآيات الثلاث التالية: "تحدّث القرآن الكريم عن "الولدان المخلّدون" في ثلاث سور هي الواقعة والطور والإنسان: "على سرر موضوعة، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مُخلّدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين" (الواقعة، 15-18)، "يطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون" (الطور، 24)، "يطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا" (الإنسان، 19)". (راجع: من هم الولدان المخلدون في القرآن؟، بقلم ناصر بن رجب).

المرأة العربية أو الشرق أوسطية هنا في ألف ليلة وليلة وفي الحياة العربية اليومية ليست سوى مشروع جنس وإشباع غير منقطع لـلذات وشهوات الرجال، ووظيفتها إنتاج المزيد من الأبناء دون البنات والبقاء وراء حجاب. المرأة خائنة، خانعة، ذليلة، مهذرة، راضية بالخنوع للرجل رغم العدد المتزايد من الزوجات فوق رأسها وكثرة هائلة من الجواري الحسان المستعدات لفتح سيقانهن لسيدهن في كل لحظة يشاء أو لغير سيدهن كما يشاء صاحب الجواري الحسان. أما الرجل فهو النموذج والأسد القادر على إخضاعهن جميعاً وغير الواثق منهن والرافض لاحترامهن. إنها مصيبة الرجل في نظره البائسة والوقحة إلى المرأة، إلى الأخرى! وهنا يذكرني أسم أحد الرؤساء الأفارقة الذي حين يترجم إلى العربية يكون

كالآتي: الديك الذي لم تنجو منه دجاجة. هل يتذكر القراء من هو؟ إنه الحاكم الشمولي موبوتو سيسيسيكو، الذي حكم كونغو المستقلة (زائير) 32 عاماً من 1965-1997!

ليست تلك الجارية العالمية في الفقه والطب والتاريخ والحياة العامة التي أعجبت هارون الرشيد سوى محاولة يائسة من مؤلف قصص "ألف ليلة وليلة" لتقليل من أثم الرجال ورفع الغبن المسلط على عقل النساء، لاتهمهن أو اعتبرهن "ناقصات عقل!". هل تذكر بنات وأبناء هذه المنطقة وكل المسلمات والمسلمين أين يرد مثل هذا النص، النساء ناقصات عقل؟ وحين تجتمع المرأة والرجل في مكان واحد فالشيطان ثالثهما! هل يمكن أن يكون يزايد أحد على هذا الشك اللعين والظالم بحق المرأة؟

جاسم المطير يمنحنا بهذه الرواية الجميلة فرصة التعرف أيضاً على الحب الذي لا يخضع للتمييز بسبب العرق أو اللون أو الجنس، أو يدلنا على الحب الشبقي الذي لا يُجهد المصابين به إلا من قلة الجنس، أو الحب الذي يعيش على اجترار الذكريات، وكذا الجنس الذي يخضع للوظيفة الحكومية والمصالح الدولية ومن أجل الوصول إلى توقيع وثيقة بالذلل الدائم للشيخ الذي ارتضى لنفسه نهش قبيلته من أجل لحظة تجلي جنسي لا غير، "لقد نكح لندن ورب الكعبة" هكذا صرخ الشيخ عبد الله بعد أن استطاع أن ينام ليلة مع كريستين التي انتزعت منه في هذه الليلة جل ما كانت تسعى إليه لصالح بريطانيا، ولكن هذا الشيخ "الفحل!" نسي تماماً أنه بذلك فتح الأبواب أمام "نكح كل شعبه" وسرقة "ثروة قومه"، ورب الكعبة! وكذلك الحب الوظيفي الذي يسمح للعاشق أن يقبل بأن تنكح حبيبته لصالح وظيفته ومركز أعلى لهما مقابل تقديمها خدمة تقدمها لوزارته!

وبهذا كشف لنا الكاتب عن تلك الشبقية التي يتميز بها أمثال هذا الرجل العربي الذي أبدى استعداداً لا حدود له من أجل إشباع شهواته الجنسية في التوقيع على اتفاقيات أبقت شعبه أسير تلك الاتفاقيات لعقود طويلة لاحقة. إنه ليس شخصاً بعينه، إنه الرمز الذي تكرر ويتكرر مرات ومرات.

كما يمنحنا الكاتب فرصة ثمينة للتعرف على النوايا والمخططات الاستعمارية والصراعات بين الدول الاستعمارية وبين الشركات الاحتكارية حول النفوذ في منطقة الخليج والمؤامرات والمناورات والأساليب الملتوية التي كانت تحاك في وزارات الخارجية وأجهزة التجسس لصالح الحصول على ما يمكّنها من البقاء واحتكار المنطقة لصالحها ومصالح شركاتها دون غيرها، إنها "المصالح الحيوية!". ولم تكن تجارة السلاح إلا شكلاً من أشكال الهيمنة وإثارة الصراعات والنزاعات بين القبائل وتحقيق أقصى الأرباح ومن خلالها الوصول إلى أفضل المواقع والامتيازات.

رواية "رسائل حب خليجية" تقدم لنا، إضافة إلى أسلوبها الأدبي الرفيع والجديد، أربع مسائل مهمة، وهي:

1 . الدور الذي لعبته المرأة في السياسة البريطانية. وعلينا أن نتذكر هنا "مس بل" ودورها في تنصيب ملك العراق وتشكيل الوزارات بالعراق وفي البناء الأول للدولة العراقية، إضافة إلى علاقاتها الوطيدة بشيوخ العشائر وتأثيرها الكبير على عبد الرحمن النقيب أول رئيس وزراء عراقي ومن كان على شاكلته والذي كان يناديها بـ"خاتون". فجاسم المطير لم يخترع كريستين، ففي السياسة البريطانية الكثير من أمثال هذه المرأة ممن لعبن أدواراً مهمة في السياسة البريطانية في الدول المستعمرة والتابعة حينذاك. لقد كانت المرأة مهمة في مخططات السياسة البريطانية في منطقة الشرق الأوسط لما لها من تأثير كبير وجاسم أحياناً غير قليلة على "الفحولة" العربية!

2 . المبدأ الذي تعتمده السياسة الاستعمارية، "الغاية تبرر الوسيلة"، إذ كانت تمارس كل الأساليب الملتوية والمضللة، بما في ذلك اللعب على قاعدة "فرق تسد" قليلاً ودينياً ومذهبياً للوصول إلى تكريس مصالحها في المنطقة. ولم تكن الاغتيالات السياسية غريبة عنها، ومن هنا لم يقبل سكان العراق حتى الآن بأسباب موت الملك فيل الأول في سويسرا أو مقتل الملك غازي بجاذب سيارة.

3 . أهمية إبقاء هذه المجتمعات متخلفة، رغم كون السياسة الاستعمارية تفتح مجبرة أبواب الحداثة على هذه الدول بسبب ركض المستعمرين الأعمى وراء مصالحهم وليس حياً في تقدم هذه الشعوب، سواء أكان ذلك عبر تكريس ممارسات الصراع والنزاع والتمييز بين القوميات والأديان والمذاهب، أم بتكريس عدم ثقة الرجال بالنساء، أم بإبقاء المرأة خاضعة للرجل ولا تمارس حياة المساواة والحرية المطلوبتين والضرورتين لتطور المجتمع وتقدمه.

4 . والكاتب يضع أماننا بانسيابية وموضوعية العوامل الكامنة وراء الأرتال الأولى من السياسيين والعاملين في أجهزة الأمن البريطانية أو الفرنسية التي وصلت إلى المنطقة بهدف التهيئة والتحضير وتوفير مستلزمات الحصول على قواعد اجتماعية مؤيدة للوجود الاستعماري في المنطقة، وعن الهدف المباشر من هذا الوجود الذي لم يكن يعني سوى استغلال ثروات هذه المنطقة. فإذا كانت في البداية مسألة الغوص في البحار لاستخراج "اللؤلؤ" ليحقق لهم أقصى الأرباح، فإن التنقيب فيما بعد عن الثروات في باطن الأرض، وخاصة النفط الخام، أصبحت هي المهمة التي استحوذت على عقول وسلوك كل العاملين، هذا الذهب الأسود الذي حقق لهم ولا يزال يحقق لهم أقصى الأرباح، في حين كلف ولا يزال

يكلف شعوب منطقة الشرق الأوسط سيولاً مريعة من الدماء الزكية، كما لا يزال الفقر يعم نسبة عالية من سكان منطقة الشرق الأوسط، رغم غنى المنطقة بثرواتها أو خاماتها الأولية. وكانت المنطقة غنية بمستبديها والفاستدين والمفسدين ممن حكموا فيها والذين وجدوا الدعم والتأييد من تلك الدول.

وعلى امتداد الرواية يقدم لنا الكاتب معلومات قيمة عن العادات والتقاليد والطقوس القبلية، صراعات هذه القبائل ونزاعاتها، تحالفاتها واتفاقاتها وعهودها، وسبل حل الخلافات في ما بينها والأسس القويمة لهذه العلاقات، إضافة إلى علاقة الشيخ بقبيلته، ومدى الغنى الذي يتمتع به على حساب قبيلته وكثرة زوجاته وجواريه والعواقب الوخيمة لمثل هذه العلاقات ومصروفات الشيخ المالية على المنطقة وثرواتها.

إن الكتاب يضع أمام القارئة والقارئ لوحة كبيرة ملونة تجسد العلاقات البدوية وحياة البداوة وقبل انتقال تلك القبائل إلى حياة المدينة. ويمكن للمتبع أن يقارن بين ما كانوا عليه هؤلاء القوم وبين ما هم عليه اليوم، فالسلوك لا زال بدوياً والعواقب لا زالت ذاتها رغم التقنيات الجديدة، فالعقلية ذاتها وما تحت الحزام ذاته لا ينقطع عن تسيير سيده!

إن الكتاب يكشف بما لا يقبل الشك عن كون الهدف الأساسي والمركزي للسياسات الاستعمارية في المنطقة كان اللؤلؤ والنفط وبقية الخامات، كان توظيف رؤوس الأموال والهيمنة على السوق وصادرات السلاح لها، وكذلك الاستفادة القصوى من الأيدي العاملة الرخيصة حينذاك، ولكنه مع ذلك أجبر على فتح نوافذ على حضارة وثقافة الغرب، كما اضطر إلى إقامة الشوارع والسدود والموانئ والسكك الحديد لكي يستطيع تمشية أموره الاقتصادية والتجارية والمالية، كما لم يكن أمامه إلى فتح مدارس .. وكان على شعوبنا أن تتابع هذا التناقض في هذه السياسة وأن تستفيد منه قدر الإمكان، ولكن الفائدة حتى الآن كانت ضئيلة.

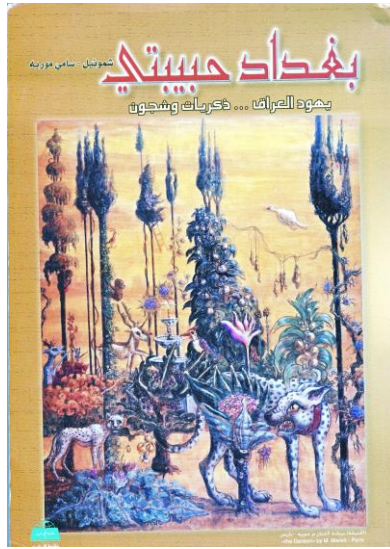
أتمنى أن يُقرأ هذا الكتاب على أوسع نطاق، إذ أنه ليس جديداً بأسلوب روايته واعتماد الرسائل في متابعة الأحداث حسب، بل باللغة الغنية التي استخدمها الكاتب ومضمون الرواية وتسلسل الأحداث عبر الرسائل المتبادلة أيضاً. إن الرواية تمس الماضي، ولكنها تقربنا اليوم وبغفوية محببة من أحداث مختلفة من حيث المكان والزمان والأشخاص والأحداث، ولكنها متماثلة من حيث الفكر والعقلية والمضامين والعواقب.



قراءة مكثفة في كاتب وكتاب

"بغداد حبيبيتي ... يهود العراق... ذكريات وشجون"

البروفيسور شموئيل - سامي - موريه



برلين 2007

استهلال

في شتاء العام 2007 قرأ الكثير منا نحن العراقيات والعراقيين ولأول مرة مذكرات تكتب وتنشر بنكهة معطرة ورؤية جديدة ذات أهداف إنسانية واعية ومحركة للعواطف النبيلة للقارئات والقراء العراقيين وبلغمة عربية ولهجة عراقية بغدادية ممزوجة بلهجة يهود العراق المحببة للنفس والتي تقترب من لهجة أهل الموصل. فمن هو هذا الكاتب الموهوب الذي آثار لدى العراقيات والعراقيين تلك العواطف النبيلة والروح الإنسانية والذكريات المنسية في البعض الكثير منها وذاكرة نادرة لرجل شاب بلغ حين بدأ كتابة هذه المذكرات ربيعته الـ 77؟ من هو هذا العراقي الذي حمل في ذاكرته وأسلوب كتابته ومضمون مذكراته تقاليد وعادات وتراث وتاريخ لا يعود

لعراق النصف الأول من القرن العشرين حسب، بل جسد ما يقرب من 2600 سنة من حياة يهود العراق والعراقيين والعراقيات بشكل عام؟ من هو هذا الكاتب المبدع الذي آثر لديّ ولدى الكثير من الناس الطيبين بالعراق وخارجه الرغبة الشديدة في متابعة حلقاته التي بلغت 53 حلقة مع خاتمة استغرقت الفترة الواقعة بين 2007/2/12 و 2011/3/21؟ وهذه الحلقات صدرت أخيراً في كتاب "بغداد حبيبتي" مع تقديم جميل وبارع للأخ الأستاذ سعد سامي نادر. وفي هذه الحلقات ذكرنا بأسلوب الفقيه سمير نقاش في الكتابة المحببة إلى النفسي والعميقة في مضامينها الإنسانية وواقعيتها ودقة المعلومات الواردة فيها. ويمكن أن نتذكر هنا رواية سمير نقاش (1938-2005م) الموسومة "شلومو الكردي وأنا والزمن".<sup>1</sup>

انه الأخ البروفيسور الدكتور شموييل موريه (سامي المعلم)، أستاذ الأدب العربي في الجامعة العبرية في أورشليم القدس ورئيس رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، ومؤلف الكثير من الكتب باللغتين العربية والانجليزية، والمشرف على الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه والمحقق لبعض الكتب المهمة والباحث في المسرح العربي، انه الكاتب والشاعر الغزير في إنتاجه في مضامين كتاباته ورؤيته للعالم.

لا شك في إن الرجل المحب لبغداد وأهلها وحنينه للمكان الذي ولد فيه، والذي أجبر على الهجرة منه إلى إسرائيل، يحب بلده إسرائيل ودولته. وهو أمر طبيعي لكي لا يذهب بالبعض منا إلى تصور خاطئ، وأعني بذلك أن حبه لبغداد يجعله ضد إسرائيل. فإسرائيل وطنه الجديد بعد أن هجر أو هاجر من وطنه الأول، العراق. ولكن من الضروري هنا القول بأن كتاباته لا تعكس موقفاً قومياً متطرفاً أو قومياً يمينياً مناهضاً للعرب، فهو مواطن إسرائيلي ليبرالي ديمقراطي وعلماني محافظ. لغته وكتاباته بالعربية تكشف لنا جانبين مهمين يتفاعلان لديه ولا يتعارضان وهما:

1) إن حبه القديم المتجدد لبغداد ما يزال ينبض بقوة فيه وبعاطفة جياشة وحقيقية نابع من الحنين إلى المكان الذي ولد فيه وشبّ صبيّاً يافعاً وحيوياً، كما إن حبه للغة العربية والكتابة بها يؤشر موقفه الإيجابي من العرب واللغة العربية. وهو أمر يختلف تماماً لدى القوميين المتعصبين أو الذين يحملون الإيديولوجية الصهيونية. وعلينا هنا أن نشير إلى إن الاتجاهات القومية اليمينية لدى جميع الشعوب تحمل وجهة تمييزية إزاء الآخر، ويلعب التفكير النمطي الرجعي بين الـ "أنا" و الـ "آخر". دوراً كبيراً في توتير العلاقات بين الشعوب وفي نشوء الفكر العنصري أو "العرقى".

<sup>1</sup> نقاش، سمير. شلومو الكردي وأنا والزمن. منشورات دار الجمل، كولونيا-ألمانيا 2004.

(2) وأن حبه لوطنه إسرائيل وحبه لشعبه وقومه يتحركان فيه دوماً ويختلف عن الحنين للعراق أو لبغداد بشكل خاص والذي أصبح من الماضي الذي لا ولن يعود! وليس في هذين الجانبين أي تناقض أو صراع.

لمحة عن حياة وكتابات شموئيل موريه

ولد شموئيل إبراهيم موريه "سامي المعلم"<sup>2</sup> ببغداد في 22 / 12 / 1932 في عائلة تؤمن بالديانة اليهودية. عاش شموئيل مع عائلته حتى سن الثامنة عشر حين اضطرت عائلته على إسقاط الجنسية العراقية ومغادرة العراق في 22 / 4 / 1951 على وفق قانون إسقاط الجنسية الذي صدر أثناء وزارة توفيق السويدي في العام 1950.

درس شموئيل في مدرسة السعدون الابتدائية النموذجية في البتاوين، ثم انتقل إلى مدرسة "فرنك عيني" المتوسطة ومن بعدها أكمل الثانوية في مدرسة "شماش" الإعدادية. نال شهادة البكلوريا العراقية في العام 1950. وكتب الأستاذ موريه عن حياته قائلاً: "هاجرت إلى إسرائيل في 22/4/1951 والتحقت بالجامعة العبرية لدراسة الأدب العربي الحديث وعلوم الشرق الأوسط. أنهيت اللقب الجامعي الثاني، الماجستير بتفوق. فأرسلتني الجامعة العبرية لكتابة أطروحة الدكتوراه في معهد العلوم الآسيوية والأفريقية في جامعة لندن حيث

<sup>2</sup> ملاحظة مهمة: أشار رأفت الهجان إلى شخص اسمه "شموئيل موريا" باعتباره رئيس قسم مكافحة التجسس العربي. وهذا الرجل هو غير البروفيسور شموئيل موريه. علماً بأن الأول هو عراقي أيضاً ومستعرب وكان صهيونياً حين غادر العراق وعمل في النشاط التجسبي والأسمين متماثلين، ولكن الأول يكتب اسمه شموئيل موريا والبروفيسور يكتب اسمه ب شموئيل موريه. وقد تحدثت بهذا الصدد مع البروفيسور موريه هاتفياً وأكد لي هذه المعلومة، وإنه غير الشخص الصهيوني شموئيل موريا، رغم إن رأفت الهجان كتب اسمه بنفس اسم البروفيسور موريه. كاظم حبيب

<sup>3</sup> صدر في العام 1950 قانون إسقاط الجنسية عن يهود العراق ممن يرغب بمغادرة العراق دون العودة إليه. لم يكن مثل هذا القانون متوافقاً مع المبادئ الأساسية التي سن بها الدستور العراقي لعام 1925، بل مخالفة صريحة له. صدر هذا القانون بفعل ثلاث قوى عملت على تهجير يهود العراق. وبعد مرور 63 عاماً على صدور هذا القانون، وبعد رفع الحظر عن نشر الكثير من الوثائق والكتب والاعترافات الصريحة لمؤسسات وحكومات وجواسيس يمكن القول بثقة كبيرة بأن هذه القوى الثلاث هي:

(1) الحكومة البريطانية ممثلة بسفارتها ببغداد وسفيرها حينذاك. (2) الحكومة الإسرائيلية ممثلة بجهاز الموساد وما اتخه من سياسات وإجراءات. (3) الحكومة العراقية ممثلة برئيس الوزراء توفيق السويدي ووزظير داخلية حينذاك صالح جبر. كما تحقق لهذا الثلاث دعم مباشر من ثلاث أطراف أخرى هي: الحكومة الأمريكية والبلاط الملكي العراقي ورئيس الوزراء المخضر والدائم في العراق نوري السعيد. وأمكن خلال فترة قصيرة تهجير أكثر من 124 ألف مواطن يهودي عراقي ومواطنة يهودية عراقية إلى إسرائيل. وبالتالي أفقر العراق من مكون ديني مهم وسقط من لوحة الموزائيك العراقية الجميلة لون وترك فراغه في اللوحة. كاظم حبيب



نلت درجة الدكتوراه عن أطروحتي حول الشعر العربي الحديث. وفي مطلع عام 1966 دعنتي الجامعة العبرية لتدريس الأدب العربي الحديث وترأست قسم اللغة العبرية فيها بين الأعوام 1979-1983. وفي العام 1980 أسست رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق. ونشرت ثمانية وأربعين كتاباً في سلسلة منشورات الرابطة لكبار الأدباء والمؤرخين والشعراء اليهود النازحين من العراق. أعمل أيضاً كعضو في هيئات تحرير للعديد من المجلات العلمية الاستشرافية والأدبية كما وقمت بنشر العشرات من الكتب ومئات المقالات باللغات الإنجليزية والعربية والعبرية، وشاركت أيضاً في عشرات المؤتمرات العلمية في العالم بإلقاء محاضرات عن تخصصي في الأدب العربي. نلت جائزة الدولة في الاستشراق عام 1999 بالإضافة إلى وسام فيلق الأسد الفنلندي من رئيس دولة فنلندا عام 1986 لنشاطي كرئيس رابطة الصداقة الإسرائيلية الفنلندية في أورشلين القدس. ولا أزال أحاضر وأرشد طلبة الدكتوراه في الجامعة العبرية وأعد وأشارك في المؤتمرات الأدبية حول أدب يهود العراق وتاريخهم.<sup>4</sup>

ولكن وقبل انتقاله للدراسة الجامعية أضطر الشاب شموئيل موريه المهاجر لتوه من بغداد أن يمارس، كبقية العراقيين الذين هاجروا إلى إسرائيل، أعمالاً شاقة، فهو الذي كتب ما يلي:

"وحين وصلت إسرائيل بدأت أعمل في البناء، وكان عملاً شاقاً، حيث انتقلت فجأة من العز إلى العمل الشاق لاستلال لقمة العيش. وجدت إني لست صالحاً لهذا العمل، فذهبت للدراسة في القدس مع أخوي جاكوب وريموند. كان ذلك في العام 1951، كنا أكثر من 70 طالباً يدرسون اللغة العبرية في الجامعة العبرية. وقد كان مستوى الطلاب العراقيين عالياً جداً. أثناء ذلك جندنا في الجيش".<sup>5</sup>

أصدر الأستاذ موريه الكثير من المؤلفات باللغات العبرية والإنجليزية والعبرية، إضافة إلى تحقيق الكتب وإعداد التراجم، حيث بلغت 35 كتاباً حتى الآن بهذه اللغات، وكذلك المئات من المقالات والدراسات ومقدمات الكتب التي نشرت في المجلات والصحف وفي المواقع الإلكترونية. يعتبر الأستاذ موريه واحداً من أبرز وألمع الكتاب اليهود الإسرائيليين عموماً والذين نشروا بالعربية والعبرية والإنجليزية، وخاصة في مجال الأدب والمسرح العربي، بشكل خاص. وأبرز كتاباته في ما يخص العراق يواجهنا كتاب يهود العراق (بالعبرية)،

---

4 إسرائيل بدون رقابة، موقع على الإنترنت. مقابلة مع البروفيسور شموئيل موريه من الجامعة العبرية. أخذ المقطع بتاريخ 2013/4/8.

5 موريه، شموئيل-سامي، بغداد حبيبتني. يهود العراق... ذكريات وشجون. مكتبة كمل شيء، حيفا 2012. ص 7.

والفرهود (بالإنجليزية)، وبغداد حبيبي (بالعربية) وتحقيق كتاب الجبرتي (بالعربية)، والتي يمكن الاطلاع على قائمة كتبه في الهامش رقم (3)6.

ساهم الأستاذ موريه بدور بارز ومتميز في تشكيل وإدامة عمل رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق وأصبح رئيسها الفعلي. وبرز دوره في هذا الجانب بثلاثة أمور:

1. السعي إلى جمع شمل الجامعيين اليهود النازحين من العراق تحت مظلة علمية واجتماعية واحدة هي "رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق".
2. إصدار الكتب التي يؤلفها أعضاء الرابطة وغيرهم التي تبحث في علاقتهم مع العراق في الجوانب الأدبية والاجتماعية والتاريخية والفنية وما يرتبط بحياة يهود العراق في بلاد الرافدين ونشرها على أوسع نطاق ممكن، وخاصة باللغة العربية.
3. إقامة الندوات الفكرية والاجتماعية والنقاشات حول تاريخ وحياة اليهود بالعراق، وكذلك مناقشة الكتب التي تصدر عن الرابطة. وكذلك المشاركة في المؤتمرات والفعاليات التي تمس حياة اليهود العراقيين بالعراق وبإسرائيل.<sup>7</sup>

يتمتع الكاتب الذي بلغ عمره اليوم 81 عاماً بحيوية و طاقة عالية للعمل والإنتاج الفكري في إسرائيل وخارجها، وهو يتمنى من كل قلبه أن يزور العراق وأن يرى بأعينه الدار التي سكنها مع عائلته في محلة البناويين والمدرسة الابتدائية التي تعلم فيها حروف الأبجدية العربية ولعب في أزقة المحلة مع أطفالها وسبح في مياه دجلة وأحب أول مرة وهو ما يزال في الثالثة من عمره، ثم ذاق طعم القبل الجمرية التي ألهمت الصبي والشاب شموئيل روحه الوثابة وجعلته يعيش في أحلام وردية لم تتحقق بالعراق. كتب بهذا الصدق يقول:

"ومنذ صغري أدركت بأني لا أصلح للتجارة التي كان يمارسها الكثير من يهود العراق. كنت في الثالثة من عمري، عاشقاً لكحلا ابنة عمتي ريما، ذهب الجميع وبقينا وحدنا في البيت وقد أصابنا الملل. عرضتُ علي ابنة عمتي عرضاً لا يمكن ليهودي رده: "تالي (تعالى) انبيع!"، قالت: "ميسغ (ممنوع) تطلع للدرب لئكون

<sup>6</sup> مورية، شموئيل د. بغداد حبيبي. يهود العراق... نكريات وشجون. مكتبة كمل شيء، حيفا 2012. ص 7.

<sup>7</sup> قائمة بأسماء الكتب الصادرة عن رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق مثبتة في الملحق رقم 4.

إصدارات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق في إسرائيل

يشرف على هذه الرابطة السادة التالية أسماؤهم: الرئيس الفخري: الدكتور نعيم دنكور (OBE)

أعضاء مجلس الإدارة: البروفيسور شموئيل موريه - رئيس، المحامي حسقيل فتال - القائم بأعمال الرئيس، المحامي شاول بار حبيب - نائب الرئيس، الدكتور نسيم قزاز، الدكتور دافيد سجعف، أبراهام كحيلة، شلومو شبيرا، عزرا مراد والبروفيسور يوسف كباي.

يضغبك المسلم"، قلت: "وليش يضربني المسلم؟". أجابت: "ألم يحذرك والداك؟" لم آخذ تحذيرها بمأخذ الجد، فتشت عن بعض الملاعق والشوكات والسكاكين الفضية "من شغل العجم"، وهي من مهر والدتي الذي دقق والدي في الحصول على كل حاجة شرطها في وثيقة الزواج. فحسب تقاليد اليهود تقدم عائلة العروس الجهاز والمهر للعريس، تصل تكاليفها في بعض الأحيان إلى أن يقضي والد العروس العمر في تسديد ديونه. فتحت الباب بعد أن صعدت على كرسي ووضعت الملاعق الفضية وغيرها على طبق من الصيني. ضحك بعض المارة لصغر سن هذين "التاجرين": "هذولي غير أيهود؟ والله بعد مفقسوا (لم يخرجوا) من البيضي وقيشتلون بالتجارة!". جاء "ويحد ليبس چراوية وزبون": "ولكم هذا سنهؤ؟ هذا بييش اتبيعونه؟"، قلت: "أبدينار!" حمل لابس الجراوية الطبق وسار في طريقه غير مكترث لصراخي وأنا متشبث بذيل دشاشته: "وين الدينار، وين الفلوس؟"، دفعني ومضى دون أن يجرؤ أحد على اعتراض طريقه. عدت باكيا إلى البيت، قالت كحلا، "مقلتوك لا تطلع للدغب (الدرب)؟". غضب الوالدان، وقالت أُمي: "وي غماد! (رماد عليك) مقلتوك لا تطلع للدغب ليضغبك المسلم؟، الله سواك نيس! (هذه كرامة من الله)، مليح ما طلع خناق الولاد وذبحك!". وقال الوالد: "قتغيد أخلص خبزك هسه؟ قلتوك مغة (مرة) وألف لا تطلع للدغب ابحدك تغا يضغبوك!", (أتريد أن اقضي عليك الآن! ألم أقل لك ألف مرة ومرة لا تخرج لوحك، سيضربونك!" علق عمي يونا على الحادث: "هذا أشلون تاجر؟، ما شا الله علينا، من أول غزاته انكسرت عصاته".<sup>8</sup>

الأستاذ الدكتور شموئيل موريه متزوج حالياً من سيدة فنلندية محترمة أحبها وفتنته بجمالها وحسن أخلاقها. له ابن اسمه آشير من زوجته الأولى، وله بنت اسمها مايا هيلينا، وهو اسم فنلندي، وابن اسمه إبراهيم، على اسم والده الطيب الذكر، من زوجته الفنلندية.<sup>9</sup> (راجع الملحق رقم 4).

قبل سفري إلى بغداد وجه لي الأستاذ موريه رسالة شخصية رجاني فيها:

1. أن ألتقط صور تذكارية للدار التي كان يسكنها مع عائلته الكبيرة في البتاوين قبل رحيلهم النهائي والمدرسة الابتدائية التي تعلم فيها.
2. وأن أ جلب له حفنة من تراب مدرسته الابتدائية في البتاوين تذكره بأرض وشعب العراق.

<sup>8</sup> موريه، شموئيل د. بغداد حبيبي يهود العراق ... ذكريات وشجون. طبعة أولى، مكتبة كل شيء. حيفا 2012. ص

20.

<sup>9</sup> رسائل متبادلة بين كاظم حبيب وشموئيل موريه. الملحق رقم 5.

وفعلاً التقطت صورة للبيت وأخرى للمدرسة وثالثة للكنيس اليهودي في البتاوين. ثم ذهبت مع زوجتي والصديق الأستاذ مازن لطيف علي إلى المدرسة وكانت مغلقة. طرقتنا الباب الجانبي، فتحت لنا الباب فراشة المدرسة وسألت عن حاجتنا. قلت لها: تسمحيلي أخذ شوية من تراب المدرسة؟ ابتسمت وقالت: أخذ عمي شكر ما تريد. ثم اعقت ذلك باستفسار معقول قائلة: ما تكلي عمي شكك بهاي حفنة التراب؟ أجبته وأنا أبتسم: لي صديق كان يدرس بهذي المدرسة وهو يعيش بعيداً عن العراق ويرغب الحصول على شوية تراب من وطنه الأصلي، العراق حتى يبقى يذكر العراق ولا ينساه. فقلت أخذ عيني وأله يطول بعمركم.

أخذت حفنة من التراب ووضعتها بكيس صغير تحت نظرات تعجب مرحة وتساؤلات عن هذا المحب لتربة العراق من المرأة العراقية الشعبية. أخذت حفنة التراب معي إلى ألمانيا، نظفتها من أوساخ علقته بالتربة ووضعتها في علبة مع صورة البيت والمدرسة والكنيس في البتاوين وأرسلتها إلى زميلي شموئيل في إسرائيل. ويبدو أن فرحته بما حوته العلبة كانت كبيرة، إذ أتحنني برسالة شكر جميلة.

شموئيل موريه في برلين

حين علمت بوجود الأستاذ موريه بمدينة بوخوم الألمانية ضيفا على معهد الدراسات الشرقية ورئيس المعهد البروفيسور الدكتور استيفان راخموت، اتصلت مباشرة بالسيد رئيس المعهد وعرفته بنفسي ورجوته أن أتحدث مع البروفيسور الدكتور شموئيل موريه إن كان موجوداً في المعهد. أكد وجوده وربط بين جهازينا. بدأ الحديث مباشرة باللهجة العراقية المحببة لكلينا. عرفته بنفسي وأشرت له إلى اطلاعي على بعض كتاباته ومذكراته ودعوته لزيارة برلين بضيافتي الشخصية. لم يتردد لحظة واحدة وشعرت بصوته مهلهلاً. بلقاء العراقيين والعراقيات، إذ وعدته ببرنامج ممتع مع لقاء أكثر متعة مع جمهرة من العراقيات والعراقيين أعضاء نادي الرافدين الثقافي العراقي ببرلين، إضافة إلى من يرغب من العرب بالحضور والمشاركة في اللقاء والاستماع إلى حديث الذكريات التي كنا إلى ذلك الحين قد تمتعنا بسلسلة من حلقاته الأسبوعية.

تفضل البروفيسور الدكتور استيفان راخموت وزوجته الفاضلة بمرافقة الأستاذ موريه إلى برلين بسيارتهما الخاصة وأوصلاه إلى الشقة التي نسكن، زوجتي وأنا، فيها. تحدثت قبل ذاك مع الصديق الدكتور علي إسماعيل جودت، إذ كان حينذاك رئيساً للهيئة الإدارية لنادي الرافدين الثقافي العراقي ببرلين، حول إمكانية

عقد ندوة للأستاذ موريه في النادي العراقي. رحب بالفكرة وطرحها على الهيئة الإدارية للنادي التي رحبت بالفكرة أيضاً. وهكذا كان اللقاء.

وضعت مقترحا أوليا لبرنامج الزيارة وحين وصل إلى شقتي ببرلين بحثت معه موضوع البرنامج وتضمن عدة فقرات:

- ندوة في نادي الرافدين الثقافي العراقي بدعوة مفتوحة للعراقيات والعراقيين والعرب من الجنسين لمن يرغب بالمشاركة.

- زيارة نهريّة في نهر "شبريه" ببرلين والمناطق المحيطة بالمدينة.

- زيارة إلى النصب التذكاري لضحايا النازية من يهود أوروبا في وسط مدينة برلين. ويتراوح عدد ضحايا النازية من يهود أوروبا بين 5-6 مليون نسمة 10، إضافة إلى ضحايا يتراوح عددهم بين 10-40 ألف من النوريين (السنّي والروما)، 11 والكثير من الشيوعيين والاشتراكيين والديمقراطيين المسيحيين الذي قتلوا على أيدي النظام النازي في معسكرات الاعتقال النازية.

- زيارة متحف ضحايا الإرهاب النازي العنصري والفاشي من اليهود في معسكرات الاعتقال النازية ببرلين. يثير هذا المتحف الحزن في نفوس زائريه لأسباب ترتبط بالهندسة المعمارية للبناء الخارجي والداخلي أولاً، ولمعروضات المتحف من صور وحاجيات الضحايا التي تصور بواقعية محزنة تلك الجرائم البشعة التي ارتكبتها النازية بحق اليهود الأوروبيين في المعتقلات النازية، وبمختلف أساليب القتل، ولكن وبشكل خاص بالمحارق الغازية التي بناها النظام في تلك المعتقلات والتي التهمت النيران أجسام الملايين من البشر، وخاصة اليهود.

- زيارة متحف بيرغامون 12 (Pergamon Museum) التاريخي ببرلين.

10 الموسوعة الحرة ويكيبيديا، أخذ الرقم بتاريخ 2013/4/8.

11 Der Völkermord an Sinti und Roma. <http://www.dhm.de/lemo/html/wk2/holocaust/sintiroma/>

أخذ الرقم بتاريخ 2013/4/8.

12 متحف بيرغامون متحف ألمانيا بني خلال الفترة الواقعة بين 1910-1930 وأطلق عليه هذا الأسم تيمناً بمدينة أغريقية تاريخية قديمة. يحتوي هذا المتحف على آثار بابلية مثل باب عشتار الأصلية، وآثار آشورية وسورية قديمة وآثار اغريقية وفرعونية وإيرانية قديمة وإسلامية... الخ، وهو واحد من أضخم المتاحف بالعالم. كاظم حبيب

- لقاء مع بعض الأصدقاء من نادي الرافدين على مأدبة عشاء في شقة كاظم حبيب

وافق الصديق شموئيل موريه على البرنامج، وبذلنا الجهد لتنفيذه مباشرة وبالتعاون مع عدد من أعضاء النادي.

وخلال الأيام الأربعة أجهدنا الأستاذ موريه ببرنامجنا، ولم نأخذ بنظر الاعتبار "حوبة" العمر، ولكنه لم يتأوه ولم يعتذر عن فقرات البرنامج وحافظ على حيويته ونشاطه في تلك الفعاليات كافة وكأنه في الخامسة والعشرين من عمره.

كان اللقاء الاول مع الأستاذ شموئيل موريه حاراً كحرارة صيف العراق ومنعشاً كربيع الموصل أو شارع أبو نواس وحميماً في أن، وبدأ وكأن أحدنا يعرف الآخر منذ ستين عاما. وقد تحدث عن هذه الزيارة في الحلقة التاسعة والعشرين من حلقات "ذكريات وشجون" المنشورة في كتابه "بغداد حبيبي". وقد التقطنا الكثير من الصور التذكارية. لهذا لم أجد مبرراً لتكرار نشرها أو الكتابة عنها. لقد كان اللقاء نشطاً من حيث عرض الذكريات وكذلك الأسئلة التي طرحت والإجابة عنها والمناقشة الحيوية التي دارت بين المحاضر والحضور في هذا الاجتماع الغني بتبادل الأفكار والمودة.

قراءة مكثفة في كتاب "بغداد حبيبي"

بعد أن انتهى الأستاذ موريه من نشر حلقات ذكرياته، طبعها في كتاب جميل وغلاف زُين بلوحة فنية رسمها ابن أخيه م. موريه تتضمن أشجاراً وحيوانات أليفة وغير أليفة تذكر المشاهد بلوحات خيالية مقارنة للفنون التي يجدها الإنسان في لوحات والت دزني أو بعض الرسوم الإيرانية القديمة.

أهداني الأستاذ الدكتور شموئيل - سامي - موريه كتابه الجديد "بغداد حبيبي ... يهود العراق ... ذكريات وشجون"، طبعة أولى، صادر عن "مكتبة كل شيء" في حيفا 2012. حيث صدرت الطبعة الثانية بعد نفاذ

الطبعة الأولى. كما صدر له في العام 1990 كتابه الموسوم "الفرهود" باللغة الإنجليزية. „AI-FARHUD  
“The 1941 Pogrom in Iraq بالتعاون مع زميله زفي يهودا. 13

تتوزع ذكريات الأستاذ شموئيل موريه في هذا الكتاب على 53 حلقة وخاتمة مع حوار معه أجراه الدكتور  
سمير الحاج المحامي وتقديم للأستاذ سعد سامي نادر تحت عنوان "شموئيل موريه .. شجون وأحلام وآمال  
عراقية نقية طيبة".

يبدأ الكتاب بقصيدة "مهداة إلى أخواتي وإخوتي العرقيين في كل مكان" بعنوان "قالت لي أمي، والأسى في  
عينها". 14

قالت لي أمي: "ظلمونا في العراق،

وضاقَ المقامُ بنا يا ولدي،

فما لنا و"للصبر الجميل" ؟

فهبنا بنا للرحيل!"

وعندما بلغنا الوصيда،

قالت لي: "يا ولدي لا تحزن،

إلّلي ما يريدك لا تريدة"،

همست: "يا حافر البير"

"بربك قل لي لهذا سبب؟"

ورحلنا...

وقبلَ رحيلها الأخير،

قالت لي أمي،

والقلبُ كسير:

<sup>13</sup> Moreh, Shmuel and Yehuda, Zvi. Al-Farhud The 1941 Pogrom in Iraq. The Vidal Sassoon International Center for the Study of Antisemitism, The Babylonian Jewry Heritage Center. Published by The Hebrew University Magnes Press, Jerusalem 2010.

14 موريه، شموئيل. بغداد حبيبي، مصدر سابق. ص 3/4.

"أحنّ إلى العراق يا ولدي،

أحنّ إلى نسيم دجلة

يوشوشُ للنخيل،

إلى طينها المعطار

إلى ذّيّك الخميل،

بالله يا ولدي،

إذا ما زُرتَ العراقَ

بعدَ طولِ الفراقِ

قبلِ الأعتابِ

وسلم على الأحبابِ

وحيّ الديارِ

وانسَ ما كانَ منهم ومناً!"

\* \* \*

هذه الليلة، زارني أمي

وعلى شفيتها عتابٌ:

"أما زرتَ العراقَ بعدُ؟

أما قبلتَ الأعتابَ؟"

قلت: "والله يا أمي،

لي إليها شوقٌ ووجدُ،

ولكن "الدار قفرا، والمزار بعيدٌ"،

ففي كلِّ شبرٍ من العراقِ لحدُ

ومياهُ دجلةَ والفراتِ، كأيامِ التتارِ

تجري فيها دماءٌ ودموعُ

تحطّمت الصواري وهوتِ القلوغُ

فكيف الرجوعُ؟

أماه، ليس في العراقِ اليومَ



عزّ ومجدّ،

لم يبق فيها

سوى الضياع والدموع!

أماه، كيف أزور العراق؟

أما ترين كيف يُنحَرُ

عراقنا الحبيب،

من الوريد إلى الوريد؟

خبريني بالله يا أمي!

كيف أعود؟

ولمن أعود!

ونحنُ يهودُ؟؟؟

بماذا يتميز كتاب الذكريات "بغداد حبيبتي"؟

حين ينتهي الإنسان من قراءة حلقات هذا الكتاب، سيجد نفسه أمام عدد من المزايا المهمة التي يمكن بلورتها بالآتي من النقاط المهمة:

1. يضعنا الكتاب أمام ذاكرة شابة، حية ونشطة وهادفة في آن، يجمع بين الحنين للماضي بحلوه ومرّه وحقائق الوضع الراهن، بين الحزن والفرح، بين الجد والهزل، بين النكتة الساخرة والوخز الناعم غير المؤذي، بين الحب والكراهية، الحب للعراقيات والعراقيين، والكراهية لمن تسبب في تلك الهجرة القسرية اللعينة وما يعاني منه الناس في الوقت الحاضر.
2. والكتاب يعكس المستوى الثقافي الرفيع للكاتب والأسلوب الشيق والسهل الممتنع في التعبير عن مكنوناته ويقدم مزوجة جميلة مدركة لأهمية علم النفس الاجتماعي في استعادة الذكريات مرّها وحلوها.
3. الكتاب مليء بالحب الصادق لبغداد والرغبة في زيارتها واستعادة الذكريات في أهم المناطق التي عاش فيها الكاتب.
4. وهو ليس مجرد سرد لذكريات أصبحت من الماضي البعيد الذي لا يعود، بل يجسد ذكريات حية لدى الكاتب والقراء والقارئات وكأنها حصلت بالأمس لا غير، رغم إنها بالقطع لن تعود ولن يعود للعراق.

5. كما إنه ليس مجرد ذكريات بل هي مزوجة ناجحة بين الماضي والحاضر، بين الذكريات والدروس التي يمكن استخلاصها منها، إنها جمع بين الحنين الجميل والألم الدفين وعدم القدرة على العودة إلى مواقع الذكريات، وهي تمس شغاف القلب وتحاكي العاطفة أولاً وقبل كل شيء، ولكنها تستخدم العقل والمنطق في الطرح والمعالجة.
6. والكتاب يحمل في طياته الكثير من النصوص التي يُطلق عليها بالـ "إخوانيات" المليئة بالود والشوق للأصدقاء أو لمن ذهبوا ولن يعودوا!
7. حين يكتب سامي المعلم عن بغداد وعن الحب وعن نهر دجلة تشعر بأصالة عراقيته وعمق وعيه بما يكتب رغم مرور أكثر من ستة عقود على مغادرته بغداد. فاللغة التي يستخدمها تجسد عشقه لها وعشقه وحنينه لمياه دجلة والفرات. يتحدث عن حياته وعلاقاته بالناس وبالعلم والدراسة ويضعنا أمام دأبه في العمل ومنجزاته العلمية ببساطة ووضوح بما يدفعنا للتدقيق في ما نكتب ونعمل.
8. والكتاب يتنقل بقرائه وقارئاته بين بغداد والقدس ولندن وامستردام وبوخوم بألمانيا ومدن كثيرة أخرى. وبين هذه المرأة العراقية التي التقى بها صدفة في مكتبة وذلك العراقي الذي نشر قصيدة مليئة بالموودة والاعتزاز بسامي موريه وتقديراً له. إنها رحلة جميلة وممتعة بين عوالم كثيرة بين الأدب والتاريخ وعلم النفس والاقتصاد، وهو أسلوب جديد في نحت الذكريات.
9. والكتاب لا يعتمد على ذكرياته الخاصة، بل ينقل إلينا ذكريات يهود العراق، حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، افراحهم وأتراحهم وعلاقاتهم بالعراقيين في المدرسة والشارع ومحلات السكن، في السوق التجاري وسوق الصيارفة وسوق البزازين وفي العمل، كما ينقل إلينا ذكريات آخرين وردت في كتبهم، كما في كتاب "يومان في حزيران" للكاتب إسحق بار-موشيه حيث استطاع آخرون تصوير مأساة وبوغروم (Pogrom) الفرهود ضد اليهود في العام 1941، 15 أو حين يتحدث عن الكاتب والصحفي المبدع أنور شاول أو الكاتب مير بصري.
- لو حاولنا أن نمر على الفقرات التي يتحدث فيها عن الفرهود، وله في هذا الموضوع أكثر من كتاب ومقال وبحث، يجد الإنسان في ثنايا الكتاب اللوعة الشديدة والمرارة الساحقة لما حدث من أناس كان المفروض ان يمارسوا الحماية لمواطنيهم أياً كان دينهم أو مذهبهم أو قوميتهم. وهو لا يوجه الاتهام لكل العراقيين، بل يؤكد بوضوح على من قام بذلك. كتب في الحلقة السابعة تحت عنوان من المسؤول عن الفرهود ما يلي:
- "بدأت مذبحه الفرهود في يوم 1 حزيران في باب الشيخ من قبل الأكراد الشيعة الفيلية بعد أن دس المفوض الألماني فريتز غروبه سمومه النازية وحرص ضد اليهود وبث دعايته العنصرية بين أفراد الشعب والجيش

15 موشيه، إسحق بار، يومان في حزيران. مكتبة الدكتور داود سلمان، سالما، لمؤلفات يهود العراق. أورشلين القدس، رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق. 2004.

العراقي خلال عدة أشهر مما هيا الأجواء للإيقاع بهم. ثم جاء اندحار الجيش العراقي، الذي ضمّ بعض الأطباء والضباط اليهود، أمام القوات البريطانية ورفض "مختار محلة الكريّمات" السفير البريطاني السر كيناهان كورنواليس Sir Kinahan Cornwallis (1883-1959م) السماح للجيش البريطاني المحتل بدخول بغداد وأن كانت تقع على عاتقه مسؤولية الحفاظ على الأمن فيها. (أنظر، سلمان درويش، كل شيء هادئ، ص 60-62). إذا فالألمان النازيون والانكليز الذين خدمهم اليهود حتى أصبح الشعب العراقي يرى فيهم متعاونين مع الأجنبي المحتل البغيض، هم المسؤولون عن مذبحّة الفرهود. هؤلاء الإنكليز خانوا العرب ومن ثمّ خانوا اليهود في العراق ورموهم فريسة لكل من اشترى حطام الدنيا بالآخرة فقتل اليهود ونهب أموالهم "احتساباً" في الفرهود. أما الأتقياء منهم فقد راعوا الذمة وحمو الذمار، بل خاطروا بحياتهم لحماية جيرانهم اليهود. فالذين شاركوا في مذبحّة الفرهود بالقتل والنهب كانوا من صغار ضباط الجيش والشرطة والرعاع والمجرمين الذين باعوا آخرتهم بدنياهم، هؤلاء هم المجرمون الذين شاركوا النازيين والانكليز الذين كان البترول العراقي أثنى في نظرهم من دم يهود العراق".<sup>16</sup> ورغم صواب هذا التشخيص العام، فأني أجد فيه حكماً قاسياً حين يشير الكاتب إلى إن المذبحّة بدأت من قبل الكرد الفيلية الشيعة. من الممكن أن يكون بعض الكرد الفيلية قد شارك بذلك، ولكن الغالبية والأساس لم يكن الكرد الفيلية ولا العرب الطبيعيين بل المؤدلجين من الجماعات التي تربت على الفكر النازي والكرهية لليهود. فالعلاقات بين اليهود والكرد الفيلية كانت طيبة واعتيادية ولم تكن مبنية على العدا، كما إن الكرد الفيلية لم يكونوا عموماً عدوانيين أو يعتدون على الناس. ولكن هذا لا ينفي احتمال مشاركة البعض منهم كأفراد.

كما إن الكاتب يعود وبصواب يؤكد "أما الأتقياء منهم فقد راعوا الذمة وحمو الذمار، بل ضحوا بحياتهم لحماية جيرانهم اليهود".<sup>17</sup>

أما الأستاذ موريه فلدي القناعة بأن فاتته المعرفة التفصيلية والمدققة بطبيعة شخصية رشيد عالي الكيلاني، وكذلك بشخصية يونس السبعاعي، مفكر المجموعة التي نفذت الانقلاب ومجموعته المسماة فدائي يونس السبعاعي. فاسم يونس السبعاعي السري في حزب الشعب هو "فرهود"، هذا الحزب الذي تأسس بمبادرة من الحاج محمد أمين الحسيني، مفتي الديار الفلسطينية، ورشيد عالي الكيلاني ومجموعة الضباط الأربعة. وهذه

16 موريه، شموئيل، بغداد حبيبي. مصدر سابق. ص 60.

17 المصدر السابق نفسه ص 60.

المجموعة هي التي شاركت بفعالية مع نادي المثنى بن حارث الشيباني وبالتنسيق والتعاون الكثيف مع فرانس غروب، الوزير المفوض الألماني ببغداد، في عملية التثقيف بالفكر النازي والعنف والكرهية لليهود. واقترح على الأستاذ موريه إعادة النظر بالمقطع التالي:

"وشهد بنزاهة الوزير يونس السبعوي في معاملته لليهود حتى في آخر يوم أو يومين قبل الفرهود وبعد فرار الكيلاني إلى تركيا، إذ أمر بدفع ثمن 400 "صوبة" (مدفأة) اشتراها الجيش العراقي من والده بالرغم من عدم وجود وصل بيده سوى اسم ضابط برتبة ملازم بقسم التجهيزات العسكرية وبالرغم من علمهم بأنه يهودي، فقد سمع الضباط يقولون عنه: "إنه يهودي ولا يأكل طعامنا!"، ومع ذلك فقد ناداه يونس السبعوي وقال له: "هاك الوصل، ومع السلامة!". إذن، تاجر يهودي يدخل وزارة الدفاع، عرين الحكومة التي ألقيت عليها تهمة مجزرة الفرهود والتي فرّ أعضاؤها ما عدا السبعوي، يعطيه هذا الأخير الوصل عن بضاعة اشتراها الجيش العراقي في مثل هذه الفترة الحرجة، ولم يسخروا منه ولم يهينوه بل أكرموا واحترموا محافظته على التقاليد اليهودية؟ هل كان يحدث مثل هذا في وزارة الدفاع في ألمانيا النازية أو أية دولة أوروبية متحضرة في أثناء الحرب العالمية الثانية؟ إذن، كيف نستطيع حل هذا اللغز؟ فهذه الشهادات تؤكد أن رئيس الوزراء، الكيلاني، وأحد وزرائه من كبار النازيين في العراق والذي ترجم كتاب "كفاحي" لهتلر ومن الذين اعدموا شنقا فيما بعد وهو يونس السبعوي، قد تصرفوا في تلك الظروف العصبية بشهامة وإباء لا يملكهما سوى عراقي أبي النفس عزيزها. إذن، فالنازية التي تمسخ الأوربي إلى وحش كاسر ومن زبانية الجحيم، لا تنال من إنسانية العراقي الشهم الأبّي الذي يدافع عن كرامته أمام مستعمري وطنه! وخير دليل على ذلك هو أنه لم يقتل يهودي واحد أثناء حكمهم العراق إلى يوم 31 أيار، 1941. 18 لا يمكن مقارنة حالة التاجر مع جريمة الفرهود التي لم تكن حادثة عفوية، بل كانت هادفة ومنظمة من قبل أتباع قادة النظام وحزبهم السياسي السري وجماعة نادي المثنى وفرانس غروبا ورغبتهم المشتركة في الانتقام لانكسارهم العسكري وفقدانهم قاعدة أساسية لنشاطهم في المنطقة.

ورد في كتابي عن يهود العراق ومحنة المواطنة بهذا الصدد ما يلي:

"انتهت الحركة الانقلابية بمغادرة مجموعة القيادة العسكرية والسياسية البلاد، ولاسيما القيادة الحزبية التي قادت العملية سياسيا وعسكرياً، وكانت تقف على رأس الحركة أثناء العمليات العسكرية بين القوات البريطانية

والقوات العراقية. وعقد آخر اجتماع لمجلس الوزراء برئاسة رشيد عالي الكيلاني في 27 أيار من عام 1941. ثم صدر عنه القرار رقم س 3646 بتاريخ 1941/5/28 القاضي بتشكيل ( لجنة الأمن الداخلي في العاصمة والطوارئ ) حيث تم انتخاب أمين العاصمة رئيساً لها. وهي اللجنة التي وقعت اتفاقية الهدنة مع القوات البريطانية، والتي بدأت مفاوضاتها لوقف زحف القوات البريطانية على بغداد التي تمت في 1941/5/31. وفي التاسع والعشرين من أيار، غادر رشيد عالي الكيلاني بغداد، وكذلك المفتي الحاج أمين الحسيني باتجاه إيران. وكان آخر من غادر العراق من المجموعة القيادية على الأرجح، هو السياسي البارز والمتميز في الحركة الانقلابية ووزير الاقتصاد محمد يونس السبعاعي. إذ أنه واصل العمل في بغداد، وأعلن نفسه حاكماً عسكرياً لمنطقة بغداد والمنطقة الجنوبية، وطالب باستمرار المقاومة ضد القوات البريطانية. ولكن لجنة الأمن الداخلي، استطاعت إقناعه بعدم جدوى المقاومة، وطلبت منه مغادرة البلاد باتجاه إيران . ثم بدأت بعدها التفاوض مع القوات البريطانية لغرض إعلان شروط الاستسلام. وعلى أثر ذلك حلت كتائب الشباب، ومنها مجموعة الدفاع عن يونس السبعاعي (حرس السبعاعي-الفدائيون). وجدير بالذكر هنا أن السبعاعي، عمد إلى تشكيل ثلاث منظمات شبابية شبه عسكرية لحمايته، والدفاع عن الحركة الانقلابية، والتصدي للقوات البريطانية الزاحفة صوب بغداد، وهي (كتائب الشباب) و (الحرس الحديدي) و(فدائيو يونس السبعاعي). وهذه الكتائب كانت في طليعة القوى التي هاجمت اليهود، ونفذت فاجعة الفرهود في بغداد".

من المهم أن نتابع ما ورد في ذكريات موريه عندما نقرأ في مذكراته رؤية ورد فعل الصبي موريس حول ما حصل في جريمة الفرهود حين دعي لرفع العلم العراقي في مصيف سرسنك بكرديستان العراق:

" بدأت جراح الفرهود تلتئم رويدا رويدا، أو هكذا خيّل لي. خرجنا صيف عام 1947 نخبة من طلاب المدارس اليهودية في بغداد، من مدرسة فرنك عيني وشماش والمتوسطة الأهلية في مخيم للكشافة شمال العراق نتمتع لأول مرة بمشاهدة جمال جبال شمال العراق ويناابيعها وبساتينها في مصيف صلاح الدين والسولاف وسرسنك وزاخو وساندور وغيرها من المدن الكردية الشمالية الرائعة الجمال بجبالها السامقة بطلها الخضراء وجداولها الرقاقة وطيورها المغردة بين أشجارها التي تنوء بثمارها. وبعد أن نصبنا مخيمنا في سرسنك ناداني أستاذ الرياضيات نوري منشي (واليوم يوجد شارع يحمل اسمه في طيرة الكرمل غرب سفح الجبل الأشم وشارع آخر في بيتح تكفا ("ملبس" حسب اسمها أيام الانتداب البريطاني) يحمل اسم الكاتب "سمير نقاش") وقال لي: "اذهب مع موريس شماش لرفع العلم على الصارية!". أخذت العلم العراقي وأنا مبتهج بهذا الشرف العظيم

الذي حظيت به. أمسك موريس الحبل بيده لرفع العلم ووقفت وقفة استعداد مع تحية كشفية وأنشدت تحية العلم العراقية:

دُم على هامِ الغلى يا علمَ خافقًا تحميك بيض خُدُم

بدأ موريس يرفع العلم وظننت أنه يردد معي النشيد، أرهفت سمعي فإذا به يردد باللغة العبرية: "ويَزَّاح ويمَّاح" (الْيُزَّحُ وَيُيَمَّحُ)، لم أصدق ما سمعته وصحت غاضبا وتقدمت لأصفع موريس: "يا حمار، يا مجنون! ماذا تقول؟ هذا علمنا يا خائن! أتهين العلم!" امتقع وجه موريس واغرورقت عيناه بالدموع وصرخ في وجهي: "أتقول هذا علمنا؟ لو كان علمنا لما اغتصبوا أمي وأختي وقتلوا والدي أمام عيني لأنه دافع عن عرضه. هل اغتصبوا أمك وأختك وقتلوا أباك أمام عينيك يا ابن البتاويين؟ تعال اضربني تعال! تعال! هل سمعت صراخ والدك وهو يذبح أمام عينيك وتوسلات أمك وأختك طلبًا للرحمة؟ هل رأيت الشيخ الذي قطع رجلي جارنا الطفل الرضيع بحجليهما الذهبين وسار في شارع غازي كالمنتصر الفاتح وهو يجلجل بجلاجل حجلي الذهب مترنمًا:

"اشلحو الفرهود لو أيعود يومية، يا يُمّا ويا يابا<sup>19</sup>!"

قل لي هل رأيتهم؟ من هو الخائن يا سامي، نحن أم هم؟ ألم نخدمهم كالعبيد ونسكت على ما صنعوه بنا؟ هل تعرف معنى عار الاغتصاب واليتم، هل تعرف؟" صعقتني كلمات موريس وغامت الدنيا في عيني وتجللت سماء سرسنة بالغيوم السوداء وتساقطت قطرات دم عذراء من العلم الذي توقف عند منتصف الصارية. شعرت باليأس والوحدة والضياع وصحت بموريس شماش: "كفى بربك! كفى! تعال نعود إلى معسكر الكشافة." "لم أنم الليل بطوله وكان موريس يبكي ويئن ويقول: "اغتصبوا أمي وأختي وذبحوا أبي ويريد ابن البتاويين ضربني!" كنت قد سمعت في حينه عن مثل هذا الاغتصاب من بعض الأصدقاء وكتب عن مثل هذه

19 ملاحظة: "وكان المشاركون في حملات العنف هذه، التي اقترنت بعمليات السلب والنهب والقتل والتدمير ضد

العائلات اليهودية وبيوتها ومحلات عملها ومصالحها الاقتصادية ببغداد، يهزجون في شوارع بغداد:

"حلو الفرهود كون أيصير يومية"

"حلو الفرهود كون ايصير يا خاله"

"أذاني أطرشت من كسر القفاله"

"حلو الفرهود كون أيصير يا عمه"

"أنظر على الشباب اشلون ملتمة".

راجع: حبيب، كاظم. اليهود والمواطنة العراقية. كتاب جديد لم يطبع بعد.

الحادثة فيما بعد الأديب المحامي نزيل الدنمرك نور الدين وهب في قصته الواقعية التي تقشع لها الأبدان "هتلر في الإبريق". بقيت حائراً متسائلاً: لماذا حدث الفرهود؟ ومن هو المسئول عنه؟؟؟". 20

يتناول البروفيسور شموئيل موريه موضوعات كثيرة في كتاب الذكريات والسجون فيعرج بوعي على ظاهرة سلبية ابتلى بها الشرق عموماً والعربي خصوصاً، ظاهرة قتل المرأة "غسلاً للعار ودفاعاً عن الشرف!"، وتصور الإنسان إنها انتهت، وإذا بها تعود اليوم وكأن المجتمعات العربية تعيش في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وكذلك عن الحب. ومن يتابع أخبار قتل النساء وانتحارهن القسري يؤكد عودة العراق مئة عام إلى الوراء اجتماعياً وأكثر من سبعة عقود اقتصادياً وصناعياً وزراعياً. كتب موريه بأسلوب ساخر قائلاً:

"فالعشق المسيحي هو عشق روحي أنثوي، أما العشق المسلم فهو عشق فحولي ذكري كما قال الفيلسوف الألماني نيتشه مؤلف كتاب "هكذا قال زرادشت" دعا فيه إلى الإنسان الأعلى. أما الحب الجسدي فقد كان كما روى الأستاذان نعيم قطان ونسيم رجوان في مذكراتهما، بأنه كان يشتري في مواخير المدينة، بؤرة الفساد التي يجول ويصول فيها الشيطان صباح مساء، ويقف رجال الشرطة على بابه يفتشون عن السلاح المخبأ في جيوب الرجال، سنوات طويلة قبل أن يبتكر الفدائيون تفجير أنفسهم في المطارات والأماكن العامة انتقاماً لشرف المسلمين الذي انتهكه الإستعمار والحضارة الحديثة التي تخشى من الموت، فخرّبوا الثقة والأمن بين الناس. أما أيام زمان فقد كان التفتيش لأجل الحفاظ على حياة من كن ينعن باللقب المشين "البغايا" هؤلاء المسكينات ضحية المجتمع الفاسد المعلق فوق رءوسهن دوما حكم رجال العشيرة بالإعدام طعنا بالخناجر حتى الموت، حذرا من أن أحد أفراد العائلة المنكوبة في شرفها قد يقدم على القتل لغسل عار العائلة، وعند ذلك فقط تبدأ زغاريد النساء ورقصات "جوبي" الرجال ولطعة الرصاص في الفضاء مبشرة بتطهير الشرف من أدران عار الجسد النسائي المباح بيد الشرق الذي استعبد المرأة في تقاليد بالية تجعل جسدها ملكا لرجال الحمولة والعشيرة. فشرف العائلة يكمن بين "فخذي حريم" العشيرة كما قال لي محاضر شجاع من جامعة بير زيت، ولأن "الجدار المقدس" خلقه الله وعلى الفتاة عبء الحفاظ عليه مهما كلف الأمر وإلا فرجال العائلة "تعرف شغلها". أما في صعيد مصر، فكما يقول عبد الرحمن الشراقوي في روايته "الأرض"، فيقف الأب الغيور على عتبة مخدع العروسين منتظرا أن يرمي العريس بالمنديل المضرج بدم البكارة ليبشر له بقدم الفرج وبأنه يستطيع تناول الطعام والفظور أخيرا، فقد بيضت الحلوة وجهه ولا يحتاج إلى توجيه رصاصة إلى رأس ابنته إذا حدث، لا سمح الله، أنها فقدتها في حادثة أو أنها ولدت بدون جدار مقدس. قال لي ناحوم من مدرسة فرنك عيني وهو يضحك بأسى "البوحي (البارحة) تزوج ابن عمي وعفوصو (عروسه) طلعت منقوبه،

ورجعناها البيت أبوها!" فقد أعادوا السلعة "المعيوبة" إلى صاحبها، خاطر يعرف شغلو وياها بدون سؤال وجواب، والله خوش منطوق وخوش شرف. " 21 وهو يتحدث مع أديبة عراقية فيقول:

تكرر الأديبة التي تجري المقابلة معي لتوقظني من سرحة أفكاري إلى الماضي بسؤالها المخرج: "أستاذ! حبيت بالعراق مسلمة؟"، لا شك إنها تربت بعد هجرتنا ولم تسمع بالتحذيرات الثلاث التي كانت أمهات الأطفال اليهود يرضعنها لأبنائهن مع حليهن: "لا تطلع للدغب تغا يضغبك المسلم، لا تعلي عينك على المسلمية تغا والله يذبحوك، إذا كفع المسلم ابدينك، أحسن لك اسكت ولا تجاوب" (لا تخرج الى الطريق فإن المسلم سيضربك، لا ترفع عينك إلى فتاة مسلمة فإن أهلها سيدبحونك والله، وإذا كفر مسلم بدين اليهود من الأفضل أن تصمت ولا تجبه.!) 22.

كان للمثقفين العراقيين دورهم في العودة إلى دراسة وتقييم تاريخ يهود العراق ودورهم في الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعامّة بالعراق خلال مئات السنين، ولكن وبشكل خاص خلال العهد الملكي وبين 1921-1952 ومن تبقى منهم بعد ذلك وغادر العراق في أوائل السبعينات. وصدرت العديد من الكتب في هذا الصدد. ونجد للكاتب والناشر مازن لطيف دور ثقافي وإنساني مهم في هذا الصدد. وتسنى لي أن أنشر كتاب "اليهود والمواطنة العراقية: أو (يهود العراق بين الأسر الجائر والتهجير القسري الغادر) بطبعتين في عامي 2005 و2008. والآن أعمل على تحديث وتوسيع وإضافة موضوعات جديدة للكتاب، ويطبع طبعة أولى ببيروت خلال الأشهر الستة القادمة.

لا شك من يقرأ الكتب الصادرة عن يهود العراق سيخشخس التباين الكبير بين الكتاب في مواقفهم من اليهود وهجرتهم القسرية، ولكن وبشكل عام يمكن القول بوجود موقف إيجابي سليم من الغالبية العظمى من يهود العراق ومن دورهم الفعال في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإبداعية. ومن بين من تصدى لدور اليهود العراقيين شعراً هو الأستاذ الدكتور جبار جمال الدين في عدد من قصائده العمودية والنثرية، وليسمح لي أن أضع أمام أنظار القراء قصيدته الآتية التي عنونها "سامي، يا ملهم الشعر"، والمقصود هنا صديقنا المشترك الأستاذ سامي موريه والتي نشرت على موقع الأخبار للأستاذ نوري علي بتاريخ 5 كانون الأول/ديسمبر: 23

<sup>21</sup> المصدر السابق نفسه. ص 179.

<sup>22</sup> المصدر السابق نفسه. ص 180.

<sup>23</sup> جمال الدين، جبار أ. د. قصيدة "سامي يا ملهم الشعر". موقع الأخبار. 2010/12/5. أخذت القصيدة بتاريخ 2013/4/12.



سامي، يا ملهم الشعر

نَشِيدُ الْأُنَاشِيدِ هَذَا الَّذِي.. أَطَّلَ عَلَى مَسْمَعِي مِنْ جَدِيدٍ

أَمِ الْعِيدِ عِيدَانٍ قَدْ أَصْبَحَا.. وَمِنْ بَعْدِ بَعْدٍ وَصَالٍ فَرِيدٍ

أَخِي يَا نَسِيمَ الرَّبِيعِ الْبَهِيِّ وَيَا هَمْسَةً فِي شِفَاهِ الْقَصِيدِ

لَصَوْتِكَ صَوْتُ الْهَزَارِ الْبَدِيعِ.. يُغْنِي وَيُطْرِبُنِي مِنْ بَعِيدِ

يَقُولُونَ: سَامِي، فَقُلْتُ النَّدَى وَسِحْرُ الْعِرَاقِ وَمَاضٍ تَلِيدِ

حَسِيبٍ نَسِيبٍ كَرِيمٍ الطَّبَاعِ.. عَلَى مِنْكَبِيهِ تَرَاثٌ مَجِيدِ

فَلَا غَرَوَ أَنْ صَارَ فِي خَافِقِي.. مُقِيمًا وَعَنْ وَدِّهِ لَا أَحِيدِ

يَقُولُونَ: أَنْتَ تُحِبُّ الْيَهُودَ،.. فَقُلْتُ: أَجَلُ بَلِّ وَأَرْجُو الْمَزِيدِ

هُمُ صَفْوَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ.. لَهُمْ فِي الْوَفَاءِ تَرَاثٌ عَتِيدِ

أَخِي، يَا ابْنَ مُورِيهِ يَا كَوْكَبًا.. يَلْمُ الشَّتَاتِ وَيُذْنِي الْبَعِيدِ

تَعَالَيْتَ يَا بَيْرِقًا فِي السَّمَاءِ وَبُورِكْتَ مِنْ مُخْلِصٍ لَا يَحِيدِ

سَتَبَقِي بِقَلْبِي بِرَغَمِ الْبِعَادِ.. قَرِيبًا قَرِيبًا كَحَبْلِ الْوَرِيدِ

سَادَعُ الْإِلَهَ بِتَوَارَاتِهِ.. بِأَنْجِيلِهِ بِالْكِتَابِ النَّمَجِيدِ

بِأَنْ تَلْتَقِي فِي رَوَابِي الْعِرَاقِ.. وَتَسْعُدُ دَوْمًا بِعُمْرٍ مَدِيدِ

فَيَا صَاحِبِي يَا صَدِيقَ الْوَفَا.. لِأَنْتَ بِقَلْبِي رَجَاءٌ وَطِيدِ

تَمَّرَ السَّنُونُ وَقَدْ تَنَّتْهُي.. وَمَا يَنْقُضِي وَدَّ نَا بَلِّ يَزِيدِ

كَسِفْرِ الْخُرُوجِ وَمَا ضَمَّهُ مِنَ السَّحْرِ أَوْ مَا اخْتَوَى مِنْ جَدِيدِ

أَوْ التَّتَنِّيَاتِ وَأَفْكَارِهَا.. تَسَامَتْ عَلَى كُلِّ فِكْرٍ تَلِيدِ

أَوِ الصَّوْرِ العَرَّ قَدْ صَاعَهَا.. بَتَمُّودِهِ حَزَقِيَالُ الرَّشِيدِ

سَتَبْقَى أَخِي وَاحَةً لِّلْوَفَا.. رَعَاهَا قَدِيمًا رَجَالٌ وَصِيدٌ\*

\* وصيد = الملوك

تشير نقاشات بعض العراقيين حول كتابات الأستاذ موريه وكأنه يطلب منه أن يترك دولته ويعود إلى العراق ليحمل الجنسية العراقية، والبعض الآخر يعتقد بأن كتابات الدكتور تريد كسب عطف العراقيين لأغراض في نفس يعقوب. لا يمكن للأستاذ موريه، الحاصل على جائزة الدولة في الاستشراق والمخلص لشعبه ودولته أن يتخلى عن جنسيته ويعود ليأخذ الجنسية العراقية بعد أن تجاوز عمره الـ 81 عاماً، وأن يترك عائلته وأولاده وبناته وأحفاده. وهو طلب غير معقول وغير مقبول. شموئيل موريه يجب أن يزور العراق ويحن إليه وإلى أهله على أن يزوره حين تنشأ علاقات طبيعية بين البلدين في قادم الأيام وليس غير ذلك. كما إنه يكتب بصراحة وشفافية دون أن يترك مجالاً لتفسير أقواله ولا يراوغ في موقفه الدفاعي عن إسرائيل والمحبة لها، ولكنه في الوقت نفسه يقف إلى جانب حل الدولتين ومعالجة المشكلات بالطرق السلمية والديمقراطية التفاوضية. وأنا أشير إلى هذا الموقف يتبادر إلى ذهني واقعاً آخر أشير إليه في أدناه:

أجبر مئات ألوف العراقيات والعراقيين افراداً وعائلات على الهجرة واللجوء إلى الدول الأوروبية والولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وبعض الدول العربية وغيرها بهدف الخلاص من الدكتاتورية البعثية الغاشمة وإرهابها وحروبها وتجويع سكانها لسنوات طويلة في فترة الحصار على العراق. وأجبر هؤلاء على البقاء أكثر من عقدين أو حتى أكثر من ثلاثة عقود في الشتات العراقي. وحين سقط النظام عاد القلة من العراقيات والعراقيين، ولكن أجبر كثرة من الناس على مغادرة العراق بسبب طبيعة النظام القائم على المحاصصة الطائفية السياسية والأثنية، وبسبب الإرهاب والفساد والبطالة. وأصبح الآن ما يقرب من اربعة ملايين إنسان عراقي يعيشون في الشتات. ونسبة عالية منهم لن تعود إلى العراق لأسباب عدة منها:

1. إن الأوضاع في العراق لم تستقر وما تزال تهدد الإنسان في حياته ورزقه كما حصل لعشرات الألوف من العراقيين خلال السنة العشرة المنصرمة سواء أكانوا من المسيحيين أم الصابئة المندائيين أم الإيزيديين أم من أتباع المذاهب السني والشيوعي في الإسلام بسبب التمييز الديني والطائفي السياسي وبسبب الإرهاب والفساد المالي والإداري والحزبي، وبسبب البطالة وغياب مبدأ المواطنة الحرة والمتساوية.
2. إن الكثير من العراقيات والعراقيين اكتسبوا جنسيات جديدة بالوطن الثاني الجديد الذي احتضنهم كلاجئين كرام أو كعاملين أو قدم لهم المساعدة الاجتماعية للعيش الكريم. ودخل أبناء وبنات هؤلاء في المدارس والجامعات وتوظفوا في تلك الدول ولم يعد يشدهم إلى الوطن سوى الحنين لمرايح الطفولة والصباء.

وهم لا يطمحون أكثر من القيام بزيارة الأقرباء والعودة إلى وطنهم الجديد الذي احتضنهم ووفر لهم أسباب العيش الكريم والسعادة وعدم الخوف من المستقبل.

3. شعور المواطن والمواطنة بالحرية والديمقراطية والتمتع بحقوق الإنسان واحترام كرامة الإنسان في وطنهم الجديد، في حين ما زال وطنهم الأصلي لا يوفر لهم الأمن الاستقرار والبقاء على قيد الحياة، كما يوفر لأطفالهم كل أسباب الدراسة والتقدم في العمل والحياة. وعلينا أن نقرأ ما يصرح به من ذهب إلى العراق وعاد بخفي حنين من أصحاب الكفاءات بسبب الجفوة والإهمال الذي جوبهوا به من المسؤولين وعلى مختلف المستويات.

وإذا كان هذا حال العراقيات والعراقيين الذين هجروا البلاد طوعاً أو هرباً من مآسي وكوارث البلاد في فترة حكم الدكتاتورية البعثية والدكتاتور الشمولي صدام حسين وفي فترة الحكم الطائفي السياسي والإرهاب الدموي والتمييز والفساد والبطالة والفقر، فلماذا نطالب البروفسور سامي موريه وغيره من يهود العراق إلى التخلي عن جنسيتهم الإسرائيلية بعد أن طردوا من العراق شر طردة وحرموا من وطنهم وممتلكاتهم المجمدة حتى الآن، أن يعودوا إلى العراق ليأخذوا الجنسية العراقية التي لا تقدم لهم الأمن والاستقرار والكرامة. والأستاذ موريه على حق كبير حين يقول بأنه مستعد لزيارة العراق حين يكون الوضع طبيعي بين الدولتين وحين يسود السلام وحين يغيب الاستبداد والتمييز الديني والمذهبي والقومي من أرض العراق وبيتعد حكام العراق عن مصادرة حقوق الإنسان وحقوق المواطنة.

هناك الكثير الذي يمكن كتابته عن كتاب بغداد حبيبتني وعن مؤلف الكتاب وكتبه وكتاباته الأخرى، ولكن أفضل أن أوجه الدعوة للقراء والقارئات أن يقرأوا هذا الكتاب لا للمتعة فحسب بل للإمعان به واستخلاص الدروس والعبر منه واستذكار حياة العراقيات والعراقيين اليهود وغير اليهود بالعراق خلال النصف الأول من القرن العشرين أو عن مواقف ورؤية الكثير منهم ممن التقوا أو تعرفوا على الأستاذ موريه وتحاورا معه.

وبين من كتب عن الأخ شموئيل موريه الفقيه الشاعر أنور شاول، إذ نظم قصيدة نشرها في ديوانه الموسوم "وبزغ فجر جديد" في باب الأخوانيات وبمناسبة منحة درجة بروفيسور من الجامعة العبرية بالقدس نشرها فيما يلي: 24

لو كان شعري لؤلؤاً

يُنظم في سلكٍ ذهب

يستقطب الأنظار ممن

قد نأى أو اقترب

24 شاول، أنور. وبزغ فجر جديد، شعر. تحيتي إلى البروفيسور شموئيل موريه. منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق - رقم 4 - مكتبة الدكتور سلمان درويش - سالاً لمؤلفات يهود العراق. أورشليم - القدس ، 1983. ص 147.

لو كان سحرِيّ الرؤى	به القوافي كالشُهْب
لو كان شمّساً قد أطلّت	من تلافيف السُّحْب
لو كان شعريّ نعمةً	عبرَ هدوءٍ أو صخبٍ
أو نفحةً مسكيةً	بها نسيمُ الفجرِ هب
لعله كان يرى	أهلاً لأعلامِ الأدبِ
لكن شعريّ أحرّف	من وشوشاتٍ أو لهبٍ
فحبذا العذر إذا	قصر عن نيلِ الأربِ
يا معدن اللطف ويا	أمثلة الخلق العذب
يا عبقرِيّ البحثِ والـ	تحقيق خيرٍ من دأبِ
يا من له فصلُ الخطأ	ب إذ أذاع أو كتب

إن الكاتب يمنحنا بكتابه الجديد فرصة ثمينة للتفكير بما جرى لليهود العراقيين وما جرى ويجري اليوم ضد المسيحيين والصابئة المندائيين والإيزيديين بالعراق من تمييز وقتل وتشريد وتهجير وتغيير لديموغرافية مناطق سكناهم، إضافة إلى الصراعات القابلة للتحويل إلى كارثة مرعبة بين الأحزاب الإسلامية السياسية الشيعية والسنية ومليشياتها المسلحة، ودور قوى الإرهاب لتنظيم القاعدة الإجرامي وقوى البعث الدموية المسلحة في تشديد كل ذلك. إنها فرصة لكل مواطن أن يقدر أهمية الخلاص من الحكم الطائفي السياسي والتحول إلى المجتمع المدني الديمقراطي حيث تسود هوية المواطنة العراقية الحرة والمتساوية.

برلين في آذار/مارس - نيسان/أبريل 2013

## رسالة من الكاتب البروفيسور شموئيل موريه (سامي المعلم) إلى كاظم حبيب

البروفيسور العلامة كاظم حبيب الصديق الوفي، حفظه الله،  
وصلني مقالكم المنصف الرائع، ولا اكمل ولا اشمل، الذي يُعتمد عليه في تفاصيله وتحليله. وهنا تكمن  
عظمة الكاتب والمؤرخ في تحليله الصائب الموضوعي دون تزيف الواقع ليلائم النظريات السياسية  
والقومية والدينية، هل تسمح لي ان اضعه كخاتمة لديواني الجديد "تلك ايام الصبا، وهذه ايام الحنين"؟  
ارجو ان تتكرم بالسماح لي بنشره لاهميته التاريخية ولا اخالني ان احدا من الكتاب يستطيع ان يبلغ  
شأوه وشموله ودقته،

"اضاعوك واي فتى اضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر"

ولو عرفوا قدركم لعينوكم وزيرا في الوزارة العراقية لانقاذ العراق من محنه،  
اطال الله في حياتكم ونضالكم وقائمة كتبكم وسأوصي المهتمين بتاريخ العراق بكتابة اطروحة عنكم اذا  
وجدت من بين الطلاب من هو كفوء لمثل هذا الموضوع الجليل.

اصدرت الجامعة العبرية تحقيق كتاب الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاخبار، في 2700 صفحة  
مع فهرست شامل في مجلد كامل في 1086 صفحة ، وسعره \$550 بدون تكاليف البريد، كما صدرت  
ترجمة كتابي عن المسرح العربي الوسيط في العالم العربي ترجمه عمرو زكريا عبد الله في نطاق  
منشورات الجمل، لم يصلني منه سوى نسخة واحدة، كما نشرت الجمل الطبعة الثالثة المنقحة لكتابي  
"الشعر العربي الحديث وتأثير التيارات الشعرية عليه، وصلتني نسخة واحدة منه، والله كريم.

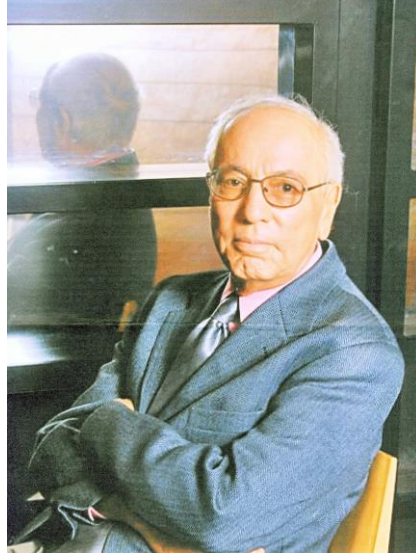
سلامنا الى العائلة الكريمة، والى من يذكرنا من الاصدقاء في برلين والمانيا،

ودمتم وعوفيتم

اخوك، سامي

2014/3/21

## قراءة في كتاب "بغداد أمس" للكاتب البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ



اسم الكتاب: بغداد أمس

المؤلف: البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ

المترجم: د. محمود عباسي (الكتاب بالأصل باللغتين العبرية والإنجليزية وترجم عن اللغة العبرية إلى العربية).

دار النشر: دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر م. ش. - شفاعمرو/ إسرائيل

سنة النشر: 2011

عدد الصفحات: 176 صفحة بضمنها مجموعة من الصور للنصف الأول من القرن العشرين بالعراق.

ملاحظة: يشير الكاتب إلى إن كتاب بغداد أمس "Baghdad Yesterday" هو الجزء الأول، في حين ستصدر ترجمة الكتاب الثاني الموسوم "Life after Baghdad" تحت عنوان "الحياة بعد بغداد" في صيف عام 2014.

## المدخل

نحن أمام شخصية أدبية كبيرة، أمام عالم رائع في الأدب العربي والنقد الأدبي، كتبه وكتابات الأدبية ودراساته العميقة تجسد ذلك لمن اطلع على أبرز كتابات هذا الأديب اليساري والحدائي في آن (راجع الملحق رقم 1 في نهاية هذا المقال). لهذا فالكتابة عنه لن تكون سهلة بأي حال، ولست طامعاً في ذلك بل سأحاول أن أقرأ بعناية كتابه المترجم من الإنجليزية إلى العربية والموسوم "بغداد أمس". إنه كتاب قيم وأصيل وكتب بلغة أدبية رائعة.

والكاتب البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ من مواليد بغداد 1933 وعاش فيها مع عائلته حتى العام 1951 حين هاجر العراق إلى إسرائيل بعد صدور قانون إسقاط الجنسية عن يهود العراق. ولد في عائلة متوسطة الحال وعلمانية، وهي عائلة كبيرة ومعروفة عراقياً، كما انتشر أبناء هذه العائلة في بقاع كثيرة من العالم منذ النصف الأول من القرن العشرين حتى الوقت الحاضر. إلا إن أبرز شخصيات هذه العائلة القدامى هو الحاخام الكبير عبد الله سوميخ، في حين أبرز أبناء وبنات العائلة في الوقت الحاضر هو البروفيسور الدكتور ساسون سوميخ. وقد كتبت عنه في كتابي الموسوم "اليهود ومحنة المواطنة العراقية" ما يلي: "بعد بضعة قرون من التقهقر في ميدان التعليم الديني بدأت الطائفة اليهودية ببغداد بفتح مدارس دينية على مستوى عالٍ عرفت باسم (تلمود تورا) أي دراسة التوراة، وقد تم تأسيس أولى هذه المدارس عام 1832 أعقبها تأسيس أول كلية دينية (يشيبا) عام 1840 وقد ترأسها الحاخام عبد الله سوميخ وبلغ عدد تلاميذها عام 1848 الستين<sup>25</sup>. كما كتب عنه الدكتور سلمان درويش في كتابه الموسوم "كل شيء هادئ في العيادة" ما يلي: "الحاخام عبد الله كان احد ثلاثة الحاخامين الذين تقلدوا سلطة القضاء الديني اليهودي في بغداد حيث كان التعليم الديني فيها راقياً وفيها مدرسة دينية يتولى هو رئاستها ويقوم بهذا العمل البار مجاناً، كما كان مرجعاً للرد على اليهود في مختلف الأقطار كالهند والصين وإيران والشام بالإضافة إلى بلاد ما بين النهرين من تفسيرات وإيضاحات دينية في تحليل أو

---

25 رجوان، نسيم. موجز تاريخ يهود العراق. منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق - 19. أورشلين - القدس. 1998. ص 83.

تحريم مأكولات ومشروبات عصرية ومخترعات مختلفة. وكان بعيداً عن التعصب وعرف بمجاراته لروح العصر والتقدم ومتطلبات التطور الفكري الاجتماعي".<sup>26</sup>

درس ساسون سوميخ الابتدائية في مدرسة "مدام عادل" الأهلية ثم درس المتوسطة والثانوية في مدرسة "شماش". وفي المدرستين أكثرية من أبناء وبنات العائلات اليهودية ولكنها ضمت مجموعة من المسيحيين والمسلمين أيضاً. حين تخرج من الثانوية كانت الأبواب قد أغلقت بوجه أبناء وبنات اليهود في التعليم العالي أو الوظائف الحكومية بل حتى الوظائف في القطاع الخاص. مما وجد الشباب اليهودي أن مستقبله قد أغلق بوجهه وفقد حرية الحركة هي أقسى ما يمكن أن يعاني منه الإنسان في بلد لا يعترف بالهوية العراقية بل بالهويات الفرعية ويميز بينها لصالح هوية فرعية واحدة وجزئية ضد الهويات الفرعية الأخرى، وهي الحالة التي لا تخلق المواطنة الموحدة والمتساوية، بل تدفع به إلى الهامش والهجرة إن أراد صيانة حرته وكرامته ورعاية مستقبله.

تعرف على الرؤية العلمانية للمجتمع في علاقات عائلته وفي موقفها من الدين أو الدولة أو إزاء الديانات الأخرى وكذلك في المحيط الذي كان على احتكاك به، وخاصة عبر بعض المدرسين الذين درسوه في المدرسة الثانوية ويعتز بذكر البعض منهم سواء أكان من أتباع الديانة اليهودية أو الإسلامية أو المسيحية، منهم على سبيل المثال لا الحصر أستاذ الكيمياء نسيم عزرا نسيم، والكاتب الأستاذ محمد شرارة والدكتور حسين مروة، صاحب كتاب النزعات المادية في الإسلام" الذي اغتيل بتاريخ 17 شباط 1987 في منزله ببيروت من أعداء الحزب الشيوعي اللبناني والحركة الوطنية اللبنانية. تعرف على الكثير من الأدباء والشعراء العراقيين ومنهم بشكل خاص محمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السياب وبلند الحيدري وعبد الرزاق عبد الواحد ورشيد ياسين ووأكرم الوتري وحسين مردان وغيرهم من شعراء تلك الفترة. بدأ بكتابة الشعر مبكراً ونشر بعض أشعاره في الصحف العراقية حين كان تلميذاً في مدرسة

---

26 درويش، سلمان د. كل شيء هادئ في العيادة، منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق-2. 1981،  
أورشليم القدس. ص 55.



شماش الثانوية. لم يكن مغموراً بالسياسة كالكثير من أبناء وبنات جيله، كما لم يكن عضواً في حزب سياسي بالعراق، ولكنه كان ديمقراطي النزعة وتقدمي التوجه صوب الحداثة واليسار.

حين هاجر إلى إسرائيل كان عمره 17 سنة. تسنى له الدراسة بعد مرور عدة سنوات في جامعة تل أبيب وحصل على شهادة البكالوريوس في اللغة العبرية والتاريخ من جامعة تل أبيب في العام 1962 ومن ثم على شهادة الماجستير في اللسانيات في قسم اللغات السامية في الجامعة العبرية بالقدس في العام 1965. ثم انتقل إلى جامعة أوكسفورد بلندن لينجز رسالة الدكتوراه التي حاز عليها في العام 1968 وكانت تبحث في أدب نجيب محفوظ وثلاثيته الشهيرة بين القصرين (1956)، قصر الشوق (1957)، السكرية (1957). وقد حازت دراسات وكتابات البروفيسور سوميخ على تأييد كبير وتقدير استثنائي من الروائي والكاتب الكبير والحائز على جائزة نوبل للآداب، إذ كتب رسالة بخط يده موجهة للأستاذ ساسون سوميخ بتاريخ 1978/10/12 وموقعة بـ "المخلص نجيب محفوظ"، القاهرة، جاء لضمها المقطع التالي: (راجع الملحق رقم 1 ويتضمن صورة رسالة نجيب محفوظ بخط يده).

"الأستاذ ساسون سوميخ

إليك صادق تحياتي وشكري وبعد

لقد اطلعت على رسالتك بسرور صادق ، إعراباً عما أكنه لك من شكر لعنايتك الكريمة بدراسة أدبي ، وقد صرحت في أكثر من مجال بأن كتابك عني يعتبر عملاً نقدياً عميقاً وشاملاً ، وإنه يعتبر من أفضل ما كتب عني إن لم يكن أفضلها جميعاً. وطبيعي إنني لمست فيه حبك للأدب العربي ولإجتهاداتي فيه لا تحرياتك عن عقلية عدو. بل إن دراستك كانت غنية في المقام الأول وإنسانية بالمعنى الشامل والدقيق."

27

قبل إنجاز رسالة الدكتوراه عين سكرتيراً علمياً لمجمع اللغة العبرية. وبعد التخرج عمل محاضراً في مادة الأدب العربي ثم رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في جامع تل أبيب في الفترة الواقعة بين 1972-1984، ومنح درجة الأستاذية في الأدب العربي والنقد الأدبي في العام 1980. وفي الفترة الواقعة بين 1982-2003 شغل كرسي الأستاذية للأدب العربي في جامعة تل أبيب. وبين عام 1996-1998

---

27 راجع Sasson Somekh, Life after Baghdad, Memoirs of an Arab-Jew in Israel, 1950-2000. Sussex, Academic Press, Brighton. PortlandToronto. 2012. P.168).

شغل مركز رئيس مركز الأكاديمية الإسرائيلية بالقاهرة. وفي العام 2004 حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة بن غوريون.

لقد عمل الأستاذ ساسون سوميخ أستاذاً زائراً في جامعات كثيرة منها "جامعة برنستون، كلية سانت أنتوني في أكسفورد ، ومعهد بحوث أنبرغ ، جامعة نيويورك وجامعة أوبسالا."28  
حاز الأستاذ ساسون سوميخ على وسام إسرائيل، وهو أرفع وسام يمنح في إسرائيل لدوره العلمي الكبير في مجال الآداب واللغة. كما كرم بعضوية شرف في مجمع اللغة العربية بإسرائيل تقديراً له على ما قدمه للأدب العربي الحديث من دراسات وأبحاث قيمة أغنت المكتبة العربية. وهو أول كاتب وأديب إسرائيلي ممتيز من أصل يهود العراق ينال هذه الجائزة الكبيرة. وفي هذا الاحتفال تحدثت الدكتورة كلارا سروجي - شجراوي التي قدمت نبذة عن حياته وأعماله القيمة كما تحدثت أساتذة وأدباء بهذه المناسبة التكريمية، إضافة إلى الأستاذ ساسون سوميخ الذي قدم كلمة بهذه المناسبة.29 والبروفيسور سوميخ عضواً فخرياً في مجمع اللغة العربية بإسرائيل، وكان من مؤسسي هذا المجمع المهم الموازي لمجمع اللغة العبرية.

منذ انتقال ساسون سوميخ إلى إسرائيل التصق بالتيار الفكري اليساري دون أن ينتمي إلى حزب سياسي، فنشر في جريدة الاتحاد ومن ثم في مجلة الجديد ونشر عشرات المقالات حول الأدب العربي والنقد الأدبي متخذاً مساراً واقعياً ومحفزاً لقراءة الأدب العربي أو الدعوة للمشاركة في الكتابة العربية. لقد أتقن اللغة العبرية مما ساهم في مشاركته في ترجمة الكثير من الشعر العربي الحديث، إضافة إلى مساهماته الشخصية. إن مقالاته عن الأدب العربي بشكل عام والفلسطيني منه بشكل خاص في الصحف العبرية والمجلات المتخصصة جلبت انتباه الكثير من القراء واكتسبت أهمية خاصة لنشر الأدب العربي، ومنه الشعر العربي. كصحيفة "هآرتس" ومجلة "عتون 77" ومجلة "كيشت" ومجلة "موزنايم" وغيرها. ويجد الباحث مقالات له في مجلة الكرمل المتخصصة باللغة والآداب والتابعة لكلية الآداب في حيفا، حيث نقرأ لساسون سوميخ فيها مثلاً : فن الشعر العبري في ظل فن الشعر العربي

---

28 راجع: وكيبديا ، الموسوعة الحرة، ساسون سوميخ. باللغة الإنجليزية).

29 مؤتمر ثقافي لمجمع اللغة العربية في حيفا، موقع بانيت وصحيفة بانوراما. عقد مجمع اللغة العربية يوم السبت

15-12-2012 في مسرح الميدان في حيفا، مؤتمراً ثقافياً خصصه لإصداراته لعام 2012.

في القرون الوسطى، وبدايات الترجمة الأدبية في القرن التاسع عشر ومشكلة الأسلوب القصصي.30  
كما كان ينشر الكثير من مقالاته في جريدة الشرق الشفاعمية.

وبصدد الأدب الفلسطيني واهتمام الأستاذ ساسون سوميخ به كتب البروفيسور محمود غنايم مقالاً  
موضوعياً ومهماً نشر في جريدة الشرق الأوسط بتاريخ 4 أيلول/سبتمبر 2001 بعنوان "من «اعرف  
عدوك».. إلى البحث الاستشراقي، جاء فيه :

"أما أهم باحث في تقديري للأدب الفلسطيني فهو بلا شك البروفيسور ساسون سوميخ، أستاذ كرسي  
الأدب في جامعة تل أبيب. وسوميخ من أصل عراقي جاء إلى الجامعة من الحياة الأدبية. فقد كان في  
شبابه من النشيطين في صفوف الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وقد كتب في مجلات الحزب وعرف العديد  
من الأدباء الفلسطينيين عن كتب وأقام علاقات ودية مع هؤلاء الأدباء، أمثال راشد حسين وسميح  
القاسم وتوفيق زياد وإميل حبيبي وحنا أبو حنا وغيرهم الكثير.

ودراسات سوميخ الأكاديمية انطلقت من وجهة نظر فنية، حيث انشغل بقضية اللغة في الأدب. وتكتسب  
دراسات سوميخ أهمية خاصة لأنها لم تبق محصورة في أروقة الجامعة، بل له العديد من المقالات  
والدراسات التي نشرت في الصحافة الإسرائيلية: العربية والعبرية. يضاف إلى ذلك رصيد كبير من  
الترجمات إلى العبرية لأدباء فلسطينيين، مثل غسان كنفاني، راشد حسين، إميل حبيبي، محمود درويش،  
ميثيل حداد، سهام داوود وغيرهم.

والبروفيسور سوميخ، صاحب مدرسة في الأكاديمية الإسرائيلية، وقد تخرّج على يديه العديد من الطلاب  
الذين انتشروا في عدة جامعات داخل إسرائيل وخارجها. وكتب هذا المقال أحد تلامذته الذين اهتموا  
اهتماماً خاصاً بالأدب الفلسطيني. وقد أصدر سوميخ كتاباً عن الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود  
وكتاباً آخر عن إميل حبيبي، وكتاباً ثالثاً باسم «المدار الصعب: رحلة القصة الفلسطينية في إسرائيل».

ولا بدّ أن نذكر للبروفيسور سوميخ جديته وموضوعيته في دراسة الأدب الفلسطيني، وكذلك معالجته  
لموضوعه عن حبّ للأدب العربي لا من منطلق التعالي على هذا الأدب أو التعامل معه كشهادة سياسية  
. اجتماعية فحسب، وتحتل جامعة تل أبيب اليوم مكان الصدارة في دراسته هذا الأدب، وإن يدرّس فيها

أساتذة عرب يفردون حصة لا يستهان بها لدراسة الأدب الفلسطيني. وفي كل سنة لا يخلو المنهج الدراسي من مساق أو عدة مساقات لدراسة هذا الأدب"31.

لقد أخذت هذا المقتطف الطويل من مقال البروفيسور غنايم لأهميته في تشخيص العلاقة السليمة بين البروفيسور سوميخ والأدب الفلسطيني والأدباء الفلسطينيين والقائمة على الندية والتفاعل والحب الخالص للأدب العربي عموماً والفلسطيني والمصري على نحو خاص.

نشر الأستاذ ساسون سوميخ الكثير من الكتب الأدبية التي يمكن ذكر العديد منها فيما يلي:

"عالم نجيب محفوظ" و "دنيا يوسف إدريس" و لغة القصة عند يوسف إدريس، كما صدر له عن إسهامات الأدباء اليهود الأدبية والفكرية في مصر وكتاب آخر يستعيد فيه ذكرياته عن العراق، عراق الفكر والثقافة. ولد كتاب آخر عن الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود وآخر عن أميل حبيبي. ثم توج إنتاجه بكتاب يعتبر قمة في البحث الأدبي الأكاديمي يتطرق فيه إلى تطور لغة الأدب في المنجزات الأدبية الحديثة. 32

ترجم البروفيسور ساسون سوميخ الكثير من الشعر لشعراء عرب منهم الشاعر الفلسطيني محمود درويش. جاء في مقال كتبه مايا جاغي عن سيرة حياة محمود درويش ورد النص التالي المأخوذ عن سوميخ حول العلاقة بين الفلسطينيين والإسرائيليين في شعر محمود درويش :  
"وعند ساسون سوميخ، الباحث الإسرائيلي في الأدب العربي في جامعة تل أبيب والذي عرف درويش في ستينات القرن العشرين، ويترجم القصيدة إلى العبرية " تهدف القصيدة إلى الحوار: إنها لا تتكلم عن الإسرائيليين كمجرمين، بل تقول : لم لا يفهمون ؟ لا معنى للقول أن هذا الرجل يكرهنا". 33 وهذا الموقف يجسد الفكر الإنساني الذي يحمله ويتمتع به الأستاذ ساسون سوميخ.

---

31 غنائم، محمود د. "من إعرف عدوك .. إلى البحث الاستشراقي"، جريدة الشرق الأوسط العدد 8316 بتاريخ 2001/9/4، والدكتور محمود غنايم باحث فلسطيني يقيم في مدينة باقة الغربية في المثلث، أستاذ الأدب العربي في جامعة تل أبيب.

32 بولس، حبيب د. ساسون سوميخ ، عريس جائزة إسرائيل في مجال الدراسات الشرقية، لسنة 2005- الناصرة.

33 المصدر : الغارديان البريطانية 8 حزيران 2002. الكاتبة مايا جاغي وترجمة غازي مسعود. الدستور الأردنية، 28 حزيران/ يونيو 2002

## خصائص هذا الكتاب

الذكريات التي كتب عنها ساسون سومبخ والتي يتراوح عمرها بين 65-75 عاماً تشعرك بحيوية الكاتب وطراوة الذكريات التي يتحدث عنها واعتزازه بها، ففي هذه الفترة بالذات تكونت في واقع الحال شخصية الأستاذ سومبخ الأديب الشاعر والكاتب والباحث والأكاديمي المميز والمترجم والناقد الأدبي الكبير وتكاملت عبر العقود المنصرمة بمعارف جمة وتراكم خبرات هائلة وجهود دؤوبة لم تعرف الكلل أو الملل. يقدم الكاتب في كتاب لا تتجاوز صفحاته 160 صفحة (عدا الصور الأرشيفية) معلومات تحليلية غنية جداً عن حياة يهود الطبقة الوسطى العراقية، عن حياتها اليومية وعلاقاتها وزواجها والمشكلات التي تحيط بها ودورها، وعن حياة أطفال تلك العائلات ودراساتهم والأجواء المحيطة بهم. إنه تكثيف رائع لمن يرغب في الحصول عن حياة الطبقة الوسطى بالعراق في الأربعينات من القرن العشرين. فالكتاب يعتبر وثيقة تاريخية مهمة جداً عن حياة الطبقة الوسطى من يهود العراق، ولكنها تنقل أيضاً لوحة قاتمة عن حالة اليهود والمسلمين الفقراء والمعوزين في مناطق سكن بئسة تؤكد التمايز الاجتماعي الطبقي في المجتمع العراقي عموماً وبين اليهود باعتبارهم جزءاً من هذا المجتمع.

وأهمية الكتاب تبرز في قدرة الكاتب في أن ينقل بعفوية عالية جداً وبلغة جميلة بالأصل إلى القارئ حياة المثقفين العراقيين في سنوات العقد الخامس التي تميزت بالتواضع والعلاقة الحميمة والرغبة في المساعدة لدى الشعراء والأدباء والأساتذة حينذاك لمن يحتاجها ويطلبها من التلاميذ والطلبة والتي يجدها مجسدة في شخصية أستاذه في ثانوية شماش الأديب اللبناني العراقي المعروف محمد شرارة والذي يكن له جل الاحترام والاعتزاز.

وأهمية الكتاب تقدم رؤية صادقة وموثقة في مصادر كثيرة أخرى بأن الغالبية العظيمة من يهود العراق كانوا مخلصين جداً للوطن العراقي الذي عاش فيه أجدادهم منذ ما يزيد عن 25 قرناً، وإن هذه الوطنية الخالصة لا تقل حباً والتصاقاً بالمجتمع والعراق عن أتباع بقية الديانات والمذاهب بالعراق. ويمكن أن نجد مصداقية ذلك في ما كتبه في دفتره الامتحاني في وصف التغييرات التي طرأت على العراق منذ الحرب العالمية الأولى حتى أواخر الحرب العالمية الثانية، وكان متأثراً بفكر أستاذه وصديقه الحميم محمد شرارة حيث كتب ما يلي: "باشرت على الفور أكتب أشياء من روح محاضراته الثورية، وأكثر من استعمال تعابيره الماركسية. أتذكر أنني كتبت خلاصة حين فتحت كتاب "بغداد أمس" قرأت الإهداء الآتي الذي خصني به الأستاذ ساسون سومبخ "الأستاذ كاظم حبيب، من بغدادي إلى أخيه، محبتي واعتزازي، 2013/10/6". جملة مكثفة محملة بمشاعر الود والحنين إلى مدينة بغداد وأهلها وما فيها. حينها قررت الكتابة عن هذا الكتاب. ولكن انشغالي بإنجاز كتابي الموسوم "لمحات من عراق القرن العشرين" الذي صدر أخيراً بأربيل عن دار آراس، أعاقني عن البدء بإعادة قراءة الكتاب والكتابة عنه. وحين عدت

إليه قرأته أكثر من مرة وتمتعت به وأعادني إلى أجواء بغداد الحبيبة. وقبل البدء ببعض التفاصيل بودي أن أشير إلى بعض الانطباعات التي تشكلت في ذهني حال انتهائي منه.

تسويغاتي وتبريراتي، قائلًا: بأن العراق لم يحظ أبداً بالاستقلال، لأن الاستعمار البريطاني قد تعامل مع العراق كمستوطنة له، رغم المؤشرات الخارجية للاستقلال السياسي، وأضفت والآن تبدأ مرحلة كبت مرير آخر، يتمثل بتأثير الاستعمار الأمريكي" وأضاف في كتابه ما يلي: "من كان يتخيل في تلك الأيام احتلالاً أميركياً للعراق، كما حدث فعلاً في عام 2003).

وعند قراءة استهلال الكتاب تواجه القارئة والقارئ أفكاراً جوهرية تعبر عن مدى التصاق يهود العراق حين كانوا بالعراق بوادي الرافدين، ببلاد ما بين النهرين، كما إن الكثير منهم ما يزال يمتلك الزخم نفسه حتى الآن في تتبعه لأحداث شعب العراق رغم افتراقه عنه أكثر من ستة عقود. فيهود العراق كانوا "يفتخرون ويتباهون، كما يقول سوميخ، بأقدميتهم في بلاد الرافدين"، فهم قد عاشوا على هذه الأرض الطيبة أكثر من 2500 سنة وسبقوا العرب إليها. كما إنهم يفخرون لما أنجزوه أو شاركوا في إنجازه، سواء أكان في الجوانب الدينية أو الثقافية العامة وفي ما حمله يهود العراق من ثقافة رافدينية صوب بلدان العالم الغربي والشرقي. ولا شك في أن يهود العراق لهم الحق الكامل بالافتخار بأنهم أول من أدخل المدارس الحديثة إلى العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومن بين هؤلاء تبلورت تدريجياً الاتجاهات المدنية والعلمانية في حياة المجتمع العراقي، إضافة إلى دور المسيحيين في هذا الصدد. إن من تبقى من المجموعة الكبيرة من يهود العراق التي أجبرت على الهجرة وانتقلت إلى إسرائيل أو الدول الأوروبية والولايات المتحدة وكندا ما زالت ترتبط روحياً وثقافياً بالعراق وثقافة العراق والناس بالعراق وتتأثر بأحداثه. فعلى سبيل المثال لا الحصر يشير الأستاذ سوميخ إلى ما يلي:

" أنشأت مجموعة مثقفين إسرائيليين من أصل عراقي عام 1994 تقريباً جمعية جديدة تهدف إلى استعادة استنكار الماضي العراقي ليهود بغداد وعلى الأخص حياتهم إلى جوار جيرانهم المسلمين والقيام بذلك على قدر الإمكان، دون التأثير بالنزاع الإسرائيلي". (ص 10).

يتحدث ساسون في هذا الكتاب عن شعبه العراقي، الذي عاش في أحضانه حتى بلوغه السابعة عشر سنة، بلغة كلها حب وتقدير وتعبير عن إدراك حقيقي لطبيعة هذا الشعب ومشكلاته وطموحاته ولا يحمل هذا الشعب بغالبيته مسؤولية تهجير اليهود أو هجرتهم الجماعية بعد صدور قانون إسقاط الجنسية عن اليهود، بل يحمل جهات أخرى مثل هذه المسؤولية. وقد أشرت إليها في كتابي عن يهود العراق والتي لا اعتقد أنه يختلف فيها معي في هذا الصدد والتي لخصتها بثلاث قوى تتحمل هذه المسؤولية: هي الحكومة العراقية والقوى القومية الشوفينية المتعصبة، والحكومة الإسرائيلية والحركة الصهيونية والموساد الإسرائيلي والحكومة البريطانية والدور النشط لسفارتها ببغداد، إضافة إلى دعم مباشر من جانب الولايات المتحدة. إن الكتاب يسجل ذكريات الصبي ساسون سوميخ وتتركز تقريباً بين سن العاشرة

ومغادرة العراق، وهي غزيرة بمضامينها الديمقراطية والاجتماعية ذات الخلفية السياسية غير المعبأة بالحزبية أو بأيديولوجية محددة.

لقد كان يهود العراق مندمجين بالمجتمع العراقي، فهم يعيشون مع مسلمين ومسيحيين وأتباع ديانات أخرى ويعملون معهم ويسكنون في مناطق مختلطة، إذ لم تعرف بغداد أو المدن الكبيرة الأخرى حيثما وجد اليهود العراقيين "غيتوات" خاصة بهم، كما كان الحال في أغلب الدول الأوروبية. لقد كانوا يعيشون بصورة مشتركة، وكان الإنسان يجد في منطقة الشورجة ثلاثة دور للعبادة: مسجد للمسلمين وكنيس لليهود وكنيسة للمسيحيين، وكانت تشكل أركاناً ثلاثة لأكبر الديانات من حيث العدد بالعراق. وكان للصابئة والإيزيديين وغيرهم دور عبادتهم أيضاً ومرآد أوليائهم الصالحين. وعلينا أن ننتبه إلى إن هذه الظاهرة الإيجابية كانت لا تعني أنه لم يكن بالعراق تمييز ديني أو طائفي ينطلق من الفئات الحاكمة ومن بعض شيوخ الدين، ولكنها كانت محدودة ولا تتحرك إلا بفعل الحكام أو بعض الأوغاد الذين يجدون في القومية أو الدين مرتعاً خصباً لمعاداة الآخرين. ونجد في كتاب "بغداد أمس" ما يؤكد على الحياة المشتركة إذ كتب سوميخ يقول:

"ويهمني أساساً أن أوجه القراء إلى تأمل تاريخ المعاصر ليهود العراق من خلال رؤية مستفيضة، أي ليس من خلال كون هذه الجماعة مجموعة بشرية منطوية على نفسها، منفصمة عما يجري في الدنيا، زاهدة عن التواصل مع جموع المسلمين والمسيحيين في البيئة التي تعيش فيها". (ص 11) ونجد مصداق ذلك في فصول الكتاب والعلاقة بين المثقفين من أتباع الديانات كافة.

ومن الجدير بالإشارة إلى إن المتعلمين والمثقفين من يهود العراق والمتحدثين بأكثر من لغة أجنبية، إلى جانب العربية، ونتيجة لعلاقتهم الواسعة بأوروبا ودول الشرق الأخرى، ومع القوات البريطانية والإدارة البريطانية إلى العراق وتشكيل الدولة العراقية في العام 1921 نشأت بفترة مبكرة النواة الجديدة بين يهود العراق قبل غيرهم للبرجوازية المتوسطة العاملة في ثلاث مجالات أساسية في الإدارة وفي التجارة والبنوك والثقافة والتي أصبحت حاملة للرؤية المدنية والعلمانية للدولة والمجتمع. وقد التحقت بها ذات الجماعات من أتباع الديانات الأخرى، وخاصة المسيحيين والمسلمين.

### قراءة في كتاب "بغداد أمس"

يشتمل الكتاب على استهلال و25 فصلاً يستند كاتبها البروفيسور ساسون سوميخ على ذكرياته التي ما تزال حية طرية شاخصة أمام ناظره بكل أحداثها وأبعادها ونتائجها أو عواقبها، كما تضع القارئ والقارئة في أجواء العقد الخامس من القرن العشرين، أجواء الأربعينات التي تميزت بالحركة والتطور السريع للبنات الأولية لبناء المجتمع المدني العراقي الجديد. إن ما يختزنه من ذكريات يعود لهذه الفترة بالذات

وما وصل إليه عبر عائلته أو المحيط الذي تحرك فيه وتعامل معه والشخصيات التي أثرت فيه وتفاعلت معه إن ما يقدمه لنا في هذا الكتاب الكثيف يعتبر لوحة صادقة ومعبرة وصافية عن العراق الملكي، العراق الذي لم يهرب هو منه، بل أُجبر على مغادرته حين سَدَّت أبواب المستقبل بوجهه ووجه الكثير من شباب وشابات اليهود العراقيين في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات من القرن العشرين حيث ترك العراق في تلك الفترة بشكل خاص ما يزيد عن 120 ألف عراقي من أتباع الدين اليهودي وقبل ذلك وبعد ذلك أنتقل إلى فلسطين أو إلى إسرائيل بعد 1948 أو إلى أوروبا والولايات المتحدة ما يتراوح بين 20-30 ألف مواطنة ومواطن عراقي يهودي الدين. لقد صدرت قرارات من الحكومة العراقية بمنع قبول خريجي المدارس الثانوية في الكليات والمعاهد العراقية في جميع أنحاء العراق: كما منعوا من التوظيف في الدوائر والمؤسسات الحكومية وفصل أو أحيل على التقاعد من كان ما يزال يعمل فيه، ثم أصبح العمل في القطاع الخاص صعباً للغاية لأغلب يهود العراق. وكانت هذه القرارات الظالمة والسيئة هي من بين الأسباب الرئيسية، إضافة إلى قانون إسقاط الجنسية السيئ الصيت، إلى هجرة اليهود، وخاصة الشبيبة منهم في البداية ومن ثم الهجرة الجماعية. لقد كان هناك موقف واضح لدى الحكومتين البريطانية والإسرائيلية بضرورة تهجير يهود الدول العربية كافة إلى إسرائيل والتي أقرتها الحكومة الملكية العراقية في حينها وعملت هذه الدول وحكوماتها على تنفيذ القرار وبإصرار عجيب. ومن يطالع الصحافة العراقية القريبة من الحكومة العراقية والقوى القومية اليمينية المتشددة حينذاك، والصحف العربية، وخاصة في نهاية الأربعينات وفي أعقاب تأسيس الدولة الإسرائيلية وحرب العام 1948 حتى وفي العامين 1950 و1951، ومنها الصحف التالية: "النبأ، الأمة، الحصون، اليقظة، الأخبار، نواء الاستقلال، الزمان، الحوادث، الدفة، النهار، الفخ والآراء." 34 ، سيجد إنها كانت مليئة بمقالات وإعلانات لكتاب معروفين بالهجوم العنصري والمناهض لليهود العراق والتي كانت تؤلب الرأي العام العراقي ضد اليهود وتدعو إلى عزلهم ومقاطعتهم وكأن يهود العراق هم المسؤولين عما حصل في فلسطين من تقسيم وإقامة الدولة الإسرائيلية على وفق القرار الصادر عن مجلس الأمن والأمم المتحدة في العام 1947 وتنفيذه في العام 1948 وبدء الحرب العربية الإسرائيلية.

في الفصول الأربعة الأولى يتحدث سوميخ عن فترة الصبا والعائلة وزواج العم عزرا ويتجاوز الطفولة، ولكن لم ينس حبه الأول وهو ما يزال طفلاً صغيراً. وهي إشارة جميلة إلى إن الحب يبقى الهاجس الأساسي لدى الإنسان والذي يصل إلى الطفل بصورة عفوية وطبيعية مع حب وحليب الأم. ويتذكر ساسون حين كان يتمدد في سريره على سطح الدار كيف كان يتطلع بإعجاب ودهشة بالغة وانتعاش

---

34 Iraqi Jewish Archive. IJA Number: 2746. Arabic Newspaper Clippings Regarding Jews Emigrating from Iraq.



كبير وتساؤلات كثيرة دون إجابات يسمح بها العمر والمعرفة والخبرة إلى سماء بغداد الصافية المفروشة بملايين النجوم المتلألئة المضيئة، وهي تبعث الطمأنينة في نفسه وتنشط الخيال. وحين يشير بشكل عفوي إلى الناموسية التي كان تستخدمها العائلة على سطح الدار يتعرف الإنسان على إن العائلة متعلمة ومتوسطة الحال وقادرة على شراء واستخدام الناموسية للخلاص من البق الذي لا يرحم في لسعته الشديدة وامتصاصه دم العراقيين. وقد قال "أبو إسحاق الصابي" في وصف ليلة شديدة الحرارة وكثيرة البق فيقول:

وليلة لم أذق من حرها وسناً      كأن في جوها النيران تشتعل  
أحاط بي عسكر للبق ذو لجب      ما فيه إلا شجاع فاتك بطل  
من كل سائلة الخرطوم طاعة      لا تحجب السجف مسراها ولا الكلل  
طافوا علينا وحر الصيف يطبخنا      حتى إذا نضجت أجسادنا أكلوا

وكان ساسون الصبي وهو ينظر إلى السماء والنجوم تدور في ذهنه الكثير من الأسئلة حيث كتب يقول: "من الطبيعي، أن تدور في دماغي الصغير، في تلك الليالي، وأنا داخل الناموسية تساؤلات "وجودية" من الذي خلق هذه الأشياء؟ متى وكيف؟ كان من الواضح لي، آنذاك، إن ما جاء في سفر التكوين... غير "منطقي" وغير "علمي". ويبدو إن ساسون قد احتفظ بهذه الأفكار لنفسه، في حين بادرت إلى السؤال عن هذه الحالة على النحو التالي:

حين كنت في الصف الرابع الابتدائي سجلت في "المدرسة الإرسالية الإنكليزية السورية" ببيروت. وكنت أسكن مع أخي في شقة مقابلة لساعة الجامعة الأمريكية ببيروت حيث كان أخي يدرس الطب هنا. في البيت كنت أصلي صلاة المسلمين، وفي المدرسة كنا نصلي جماعياً وعلى أنغام البيانو صلاة المسيحيين وكنت أدعو معهم، وهي ما تزال في الذاكرة كما في الذاكرة صلاة المسلمين: "أبانا الذي في السموات. ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك. كما في السماء كذلك على الأرض. خبزنا الذي للغد أعطنا اليوم. وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا. ولا تدخلنا في تجربة. لكن نجنا من الشرير. بالمسيح يسوع ربنا لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين.". وقد فكرت وأنا الصغير في هذا التباين في أسلوب الصلاة وأسبابه ولماذا نصلي ولمن. فسألت أخي مرة: هل هناك رب أو الله؟ فكان قد حصدت صفة ليست قوية ولكنها كانت كافية لتسكتني في تلك اللحظة. ولكن لم يخل السؤال عن بالي. وحين عدت إلى العراق أتذكر أنني كتبت قصة قصيرة وأنا في الصف الخامس الابتدائي تحوم حول الموضوع ذاته وفيها نكران لوجود الله، رغم صلاتي اليومية وقراءتي للقرآن الذي ختمته عشرات المرات في أشهر رمضان، وإلا لكان عليه أن لا يكون بين الناس فقيراً أو مريضاً، إذ كان لنا بعض الجيران المرضى والفقراء وكان ذلك ينغصني كثيراً. وأتذكر أنني حرقت تلك القصة خشية أن تقع في يد عائلتي وأتقل علة أو "بسطة" عراقية. وذاك التساؤل هو الذي جعل مني ما أنا عليه الآن مع احترامي

الكامل لأتباع كل الديانات والمذاهب ودفاعي عن حقهم في العبادة وفي اختيار الدين الذي يجدون فيه ضالتهم.

ويشارك سوميخ كل يهود بغداد، سواء من يعيش في إسرائيل أم في بلدان أخرى، في حنينهم لبغداد ونهر دجلة والسباحة فيه وشارع أبو نواس والليالي المقمرة والسمك المزكوف، ولكن ليس كلهم يستطيع أن يصف جلسة المزكوف العراقية بامتياز وعمل رجل الموقد حيث كتب يقول: "كنا نصل إلى إحدى الزوايا الهادئة لهذه الأرض البتول بالبلم، وكنا نجلب معنا للترفيه بالإضافة إلى آلات العزف (أو الغرامافون)، الأسماك الكبيرة من نوع "الشبوط" التي تعد من أفخر وأجود أسماك نهر دجلة . كنا نشعل الموقد بالأخشاب الصغيرة التي كنا نعددها مسبقاً. كان رجل الموقد المتخصص في شواء الأسماك على الموقد، يعدها للشواء المكشوف بعد تعليقها على أسياخ تحيط بالنار المتقدمة. بعد ذلك كان ينزل السمك عن النار ويتبلها بأنواع البهارات المختلفة (على الأخص الكاري الهندي) وشرايح الطماطم. كنا نهش ونبش وتنسبط أسارينا في انتظار السمك الذي كان شواؤه في مراحل النضوج ... وحين كانت تتناهي إلى خياشيمنا روائح خليط البهارات ، كنا ندرك إن ساعة الاحتفال قد دنت". (ص 32).

وإذا كان الكثير من الصبية في مثل عمر ساسون حينذاك يهتمون باللعب والرياضة وأشياء مسلية أخرى، كانت سلوى الصبي ساسون القراءة واقتناء الكتب من مصروف جيبه اليومي المحدود أو إجراء الاختبارات الكيماوية التي كف عنها بعد إحداثه انفجاراً في البيت كان يمكن أن يورطه مع التحقيقات الجنائية العراقية التي كانت حين ذاك تشك بكل يهودي عراقي وكأنه صهيوني وعدو للعراق، وكانت على خطأ فاحش.

لقد عشق الكتاب، وخاصة الكتاب الأدبي نثراً وشعراً، وراح يبحث عنه وعن الكتاب والشعراء، فكان له العون في مدرسة شماش الثانوية التي عينت أساتذة عرب مسلمين يدرسون فيها اللغة العربية والأدب العربي والأحوال المدنية، ومن بينهم بشكل خاص الأستاذ محمد شرارة وحسين مروة، وهما لبنانيان جاءا إلى العراق ليدرسا في الحوزة الدينية في النجف وتحولوا إلى صف اليسار العراقي، وهما كاتبان وأديبان متميزان. نشأت صداقة حميمة بين سوميخ وشرارة استمرت روحياً رغم انقطاعها الفعلي، وتواصلت مع بنات شرارة في الخارج. لقد كانت لقاءاته في مقهى حسن العجمي بصحبة الأستاذ شرارة ذات أهمية في تطوره الفكري والأدبي والتصاقه المبكر بالفكر اليسار، ومنها لقاءاته بشاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري الذي كتب عن ذلك يقول:

"بعد انتهاء اليوم الدراسي، استجمعت قواي، وذهبت مع الأستاذ شرارة إلى مقهى حسن العجمي. كان الشاعر يجلس وحيداً يذخن ويشرب الشاي "الكسكين". كنت مرتبكاً ومتوجساً. لم أعد أتذكر اليوم فحوى محادثتنا وما دار فيها، سوى أنني أتذكر أن الموضوع "اليهودي" قد أثير في هذه الجلسة. حكى لنا الجواهري، كيف وجد نفسه في عام 1937 بين قضبان السجن بسبب دفاعه عن فقراء الجالية

اليهودية"، (ص 136). ثم يسرد سوميخ الحكاية ويذكر الأبيات الآتية ضمن قصيدة كتبها الجواهري بعد توقيفه بتهمة "زرع الفتنة الطائفية" وهو بعيد عنها كل البعد بعد خروجه من السجن في حينها:

يا عابثاً بسلامة الوطن العزيز وبالأماني

ومفرقاً زمر اليهود كلالشان

ما أنت والكاشير والطاريف من بقرٍ وضان

ثم يقول: "أثار بي اللقاء مع الجواهري شهيتي الأدبية، كما أدى الدفاء الإنساني الذي طوقني به، إلة أن أغوص عميقاً في قراءة الأدب العربي، وعلى الأخص الشعر، وصرت أتخيل نفسي شاعراً". (ص 136). وبالمناسبة فقد كانت لي علاقات حميمة مع الشاعر الجواهري وأهداني قصيدة جميلة "إلى أبي سامر" من 31 بيتاً شعرياً ضمن ما يطلق عليه بـ "الإخوانيات" في العام 1987، وقد نشرها الصديق الفقيه الدكتور محمد حسين الأعرجي في كتابه الموسوم "الجواهري دراسة ووثائق" الصادر عن دار المدى 2002. وجاء في البيت الأول قوله: 35

يا أبا سامر ، وأنت حبيبٌ      تتخطى الأحباب والأسمارا

لكَ مني شوقٌ يدغدغُ نفسي      كنسيمٍ يُدغدغُ الأسحارا

لقد كان محمد شرارة الشخصية التي ساعدت سوميخ للوصول إلى أبرز الشعراء والأدباء وأصحاب الصحف المحلية في تلك الفترة وكتابها، وبشكل خاص الجواهري والسياب وحسين مروة ومحمد حسن الصوري وغيرهم. وكان لهذا الأثر الكبير والأساسي في البدء الفعلي لنشوء الشخصية الأدبية الكبيرة ساسون سوميخ الذي أعتز بصداقته الجديدة.

يستحث الأستاذ محمد شرارة هذا التجليل الكبير الذي يكنه له صديقه المبكر ساسون سوميخ، فهو إنسان جليل وكاتب وأديب مرموق نشر العديد من الكتب والمقالات ذات الأهمية الفائقة في حياة ونضال الشعب العراقي وعلى امتداد عشرات السنين. لقد التقيت بالأستاذ محمد شرارة في بيت ابنته حياة شرارة وزوجها الصديق الدكتور محمد صالح سميسم. لقد دعيت على وجبة غداء في بيتهم وقد كان ذلك بعد إطلاق سراحه من مديرية الأمن العامة ببغداد وبعد تعذيب كاد يودي بحياتي في حينها. وقد استقبلت بحفاوة اعتز بها كثيراً وتحدثنا عن الوضع العام بالعراق والعواقب الوخيمة لاستمرار ذلك. وكان الأجابة الثلاثة وأنا معهم قد اتفقنا على إن على الحزب الشيوعي العراقي أن يترك الجبهة مع البعث لأن البعث يمارس التعذيب والقتل بحق الشيوعيين واليساريين ويحاول أن يتستر بالجبهة القائمة. ومن المحزن تأكيد واقع أن الرفيق العزيز محمد صالح قد استشهد على أيدي البعثيين الأوباش مسماً ومات بعد أن

35 الأعرجي، محمد حسين د. الجواهري دراسة ووثائق. دار المدى للثقافة والنشر. ط أولى، دمشق، 2002. ص

أطلق سراحه بفترة قصيرة في العام 1982 وكنت قد غادرت العراق بطلب من المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي. ولقد سبق استشهد الدكتور الطيب محمد صالح سميسم وفاة الأستاذ محمد شرارة في العام 1979. وفي أول آب من عام 1997 وقع انفجار في بيت حياة شرارة استشهدت على أثره حياة وابنتها الكبرى مها ونجت البنت الصغيرة زينب. وتشير بعض المعلومات إلى إن البعث هو الذي دبر هذه الجريمة النكراء.<sup>36</sup>

يتحدث ساسون سوميخ في هذا الكتاب عن مسألتين مهمتين باتجاهين مختلفين في العقد الخامس من القرن العشرين تحت عنوان مشترك "بين الفرهود والوثبة" وهما حدثان وقعا في العام 1941 و1948 على التوالي. وقد عشت الأولى ببغداد وأنا صبي صغير لا يتجاوز السادسة من عمره، شاركت في الثانية وأنا بعمر الثالثة عشر في كربلاء دون أن أعي تماماً أهمية الحدث. كتب عن الحدث المأساوي الأول يقول:

"لقد انهار النظام القصير الأمد المحابي للنازية، وفر قاداته ليجد الكثير منهم ملاذاً خارج العراق. في حين تلاك الجيش الإنجليزي وولي العرش العراقي في فرض سيطرتهم على العاصمة العراقية من جديد. في تلك الأيام التي خلت فيها المدينة من سيطرة النظام والقانون، عاثت جماهير المشاغبين فساداً وفوضى وكان معظمهم من أبناء القبائل البدوية الذين توطنوا في ضواحي المدينة، فنهبوا وقتلوا دون تمييز في الأحياء اليهودية، خاصة الأحياء القديمة والفقيرة، وقد انضم إلى المشاغبين بعض الجنود الفقراء، بعد أن تشتت وحداتهم وتفرق شملها. ومن حسن الحظ أن المشاغبين لم يصلوا إلى معظم الأحياء الجديدة التي شيدت في الثلاثينات والأربعينات وسكن فيها عشرات الآلاف من يهود المدينة". (ص 106) ثم كتب ما يليك: تدفقت الأنباء عن أعمال النهب والقتل والاعتصاب، في أوساط يهود بغداد. لقد ذبح المشاغبون الكثير من اليهود (حوالي 150 شخصاً) دُفنوا فيما بعد في قبر جماعي، وهكذا ظلت تتوارد، على مدى شهرين، أخبار الفظائع الرهيبة وأعمال التنكيل وعبث المشاغبين والقتل بالدم البارد، واغتصاب الفتيات اللاتي أحاق بهن الويل والدمار". (ص 107/106) وللحقيقة نقول بأن هناك تبايناً في عواقب تلك الفاجعة. فالتحقيق الخاص الذي قامت به رئاسة الطائفة اليهودية توصل إلى ما يلي: "كان عدد اليهود الذين قتلوا 179 قتيلاً، كما جرح 2118 شخصاً آخر، وبلغ عدد الدور التي نهبت في الفرهود حوالي 1000 دار، وعدد الحوانيت التي أفرغت 2500 حانوت، كما بلغ عدد اليهود الذين مسهم الضرر في قليل أو كثير 40 ألف يهودي"<sup>37</sup>، في حين سعى التقرير الحكومي الرسمي إلى تقليص عدد القتلى إلى 120 قتيلاً فقط.

36 الحزب الشيوعي العراق. الرحيل المر في آب. مجلة صوت العمال، بغداد. 16 آب/أغسطس 2012 .

37 معلم ساسون، عزت. على ضفاف الفرات، ذكريات أيام مضت وانقضت. دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر. شفا عمرو. 1980. ص 158. يشير السيد أنور شاول، نقلاً عن الباحث الأستاذ إبراهيم تويننا في الجزء السادس من كتابه

ويشير الأستاذ سوميخ إلى العواقب النفسية والاجتماعية على يهود العراق، خاصة وأن الفرهود قد وقع بالبصرة أيضاً دون وقوع قتلى وجرحى في الأوساط اليهودية، بما يلي:

"حلت على جميع أبناء جالية بغداد صدمة عنيفة، بمن فيهم أولئك الذين لم ينلهم الأذى خلال فواجع "الفرهود" وويلاته (هكذا سمي سكان بغداد هذا الحدث الأليم ولا أدري لماذا) وقد دهمتهم الأحداث وبتوا مفاجوعين مشدوهين. ترى كيف حدث أن انقلب جيران الأمس إلى وحوش ضارية؟ وهل الفرهود سيبقى حدثاً طارئاً. لن يتكرر أبداً؟ أم أنه سيكون فاتحة لعصر جديد مثير للمتعاب، في العلاقات بين المسلمين واليهود في بلاد الرافدين؟ (ص 107). ثم يواصل فيكتب:

"تجدد هنا الإشارة أن الكثير من المسلمين القاطنين في جوار اليهود في المناطق القديمة من بغداد قد دافعوا عن اليهود، ولم يترددوا في منحهم الحماية والملاذ، رغم المخاطر التي تعرضوا لها من جراء ذلك. ورغم كل هذا، قل وتضاءل الشعور بالأمن الذاتي، الذي رافق يهود بغداد". (ص 107). هنا بودي أن أشير إلى بعض الملاحظات المهمة بعد دراستي المستفيضة والمستمرة لأحداث فاجعة وجريمة الفرهود ببغداد، وأخف من ذلك بالبصرة.

1. لقد قاد حزب الشعب، الذي تأسس في العام 1940 ببغداد برئاسة مفتي الديار الفلسطينية

الحاج أمين الحسيني، ومعه رشيد عالي الكيلاني والعقلاء الأربعة ويونس بحري، الذي سمي نفسه حزبياً "فرهود"، الانقلاب على الشرعية حينذاك وشكل حكومة الإنقاذ الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني دوراً كبيراً في تأجيج الدعاية ضد يهود العراق واليهود عموماً. كما لعبت العلاقات التي بدأت قبل ذلك ومنذ منتصف العقد الرابع بين القوى القومية العراقية، وخاصة نادي المثني بن حارثة الشيباني الذي تأسس في العام 1936 ببغداد، وبين النظام النازي الهتلري دوراً كبيراً في نشر الدعاية المضادة لليهود بالعراق وخاصة ببغداد، ولعب الدكتور فرتز غروب، الوزير الألماني المفوض ببغداد دوراً كبيراً في تطوير هذه العلاقة وفي تبادل الوفود الشبابية وفي إلقاء المحاضرات في النادي، كما لعبت إذاعة برلين (هنا برلين حيي العرب) والمذيع الضابط النازي العضو في قوات الـ SS يونس بحري (Johannes Bahri) دعايته المضادة لليهود، إضافة إلى دور حكومة رشيد عالي الكيلاني والعقلاء الأربعة ويونس السبعاي الذي ترجم كتاب هتلر المعروف "كفاحي" إلى العربية، وكان وزيراً للاقتصاد وشكل ثلاث منظمات شبابية شبه عسكرية، بضمنها "فدائيو يونس السبعاي. وقد طرحت في كتابي في النسخة التي ستطبع في ربيع هذا العام عن محنة يهود العراق ما يلي:

1. وقعت في يومي الأول والثاني من حزيران عام 1941 القوى الشوفينية المتطرفة ذات العلاقة الوثيقة بقوى حركة رشيد عالي الكيلاني المناهضة لليهود حملات عدوانية شرسة منظمة وواعية وهادفة ضد

---

"يهود بابل" إلى أن عدد المنكوبين بلغ 48,584 شخصاً. راجع: **شاؤول، إبراهيم**. قصة حياتي... مصدر سابق، ص

المواطنات والمواطنين اليهود ببغداد تميزت بالعنف والشراسة واستخدام مختلف الأسلحة الخفيفة والجارحة تساندها جمهرة غبية وغير واعية وجاهلة من الأوساط الشعبية ومن الرعايا الذين يتحينون أية فرصة للمشاركة في النهب والسلب والقتل الذي حفل به تاريخ العراق القديم والحديث، التي حركتها تلك القوى المنظمة سياسياً، وعصابات الجريمة والنهب والسلب. أي تلك القوى التي تأثرت كثيراً بالدعاية النازية والفاشية بالعراق والموجهة لمعاداة اليهود والتي أصيبت بخيبة أمل نتيجة انهيار الانقلاب العسكري وعودة قوات الاحتلال البريطانية للسيطرة الكاملة على العراق وتوقيع العراق على اتفاقية الهدنة التي اعتبرها القوميون الشوفينيون العرب مذلة للجيش العراقي والعراق. أطلق على هذه الحملة بـ "فاجعة الفرهود"<sup>38</sup>. وكان المشاركون في حملات العنف هذه، التي اقترنت بعمليات السلب والنهب والقتل والتدمير ضد العائلات اليهودية وبيوتها ومحلات عملها ومصالحها الاقتصادية ببغداد، يهزجون في شوارع بغداد:

"حلو الفرهود كون أيصير يومية"

"حلو الفرهود كون ايصير يا خاله"

"أذاني أطرشت من كسر القفاله"

"حلو الفرهود كون أيصير يا عمه"

"أنظر على الشباب اشلون ملتمة".

هذه الأهزوجة باللهجة العراقية العامية تعني: (حلوة هي عمليات السلب والنهب والقتل وإشعال الحرائق ضد اليهود عساها أن تتكرر يومياً، أذناي يا خالتي أصيبتا بالبكم من كثرة أصوات كسر أقفال المحلات والبيوت .. وأن عمليات النهب والسلب والقتل والتدمير حلوة يا عمتي، إذ أرى كيف أن الشباب يتجمعون

---

38 تشير أغلب الدراسات التي تحت تصرفنا إلى أن عدداً كبيراً من اليهود كان قد خرج لاستقبال عبد الإله عند عودته إلى بغداد. وقد صادف ذلك اليوم عيد النبي يشوع. وكان اليهود فرحين مستبشرين بعودة الوصي. وقد أثار هذا الموقف غضب الجماهير التي كانت ترى في اليهود حلفاء لبريطانيا. وبالتالي توجهت بعمليات العنف ضدهم. ولكن التحرك ضد اليهود كان قد بدأ قبل عودة عبد الإله إلى بغداد وخروج اليهود فرحين لاستقباله. فالمذكرة التي قدمها فهد إلى رئيس الوزراء حينذاك، رشيد عالي الكيلاني، تتضمن احتجاجاً ضد أعمال العنف والاعتداء التي توجهت ضد اليهود خلال تلك الفترة مؤكداً أهمية عدم التمييز في المعاملة إزاء اليهود. إن فرحة جماعات من اليهود بعودة عبد الإله إلى بغداد ربما جاءت نتيجة خشيتهم من استمرار الاعتداءات عليهم من جانب القوى القومية الشوفينية، وهي ليست السبب في الاعتداء الذي وقع عليهم، بل بسبب العداء الذي روجت له الدعاية النازية بالعراق وفي مناطق أخرى من العالم ضد اليهود، وبسبب النشاط الصهيوني ضد العرب في فلسطين. لقد برهنت كثرة من القوى والجماعات القومية العربية أثناء وجودها على رأس السلطة أو في ممارساتها السياسية وكتاباتاتها أنها معادية لليهود، وليس للصهيونية فقط. وفي المقابل تتخذ القوى الصهيونية بإسرائيل مواقف مماثلة للقوميين الشوفينيين العرب، فهي لا تميز بين العرب وبين أولئك الذين يمارسون التمييز ضد اليهود، بل هناك نزعة عنصرية غالبية في الحركة الصهيونية مناهضة للعرب، الذين هم أيضاً من أصل سامي.

لممارسة الفرهود أيضاً!! إنها تعبر عن روح الشر والغزو البدوي الذي لا يرحم والكراهية الدينية المقبولة الناجمة عن تربية دينية مشوهة ومزيفة.

لم تكن جمهرة من الجنود وحدها وراء هذه العمليات الإجرامية فحسب، بل وجمهرة من الشرطة المسؤولة عن أمن المواطنين والمواطنين والمدنيين وبتأييد من بعض الضباط وبعض رجال السياسة من المعسكر القومي الشوفيني، إضافة إلى كتائب الشباب التابعة للحركة الانقلابية وأتباع يونس السبعاعي.

2. أتفق تماماً بأن عدد كبيراً من أهالي بغداد الذين عاشوا مع مواطنيهم يهود العراق قد دافعوا عنهم وسعوا إلى حمايتهم من غضب الرعاع حقاً. وهناك وثائق كثيرة تؤكد ذلك. ولكن كان هناك من خان الجيرة وشارك في عمليات النهب والسلب والاغتصاب والقتل. وكان ساسون على حق حين تساءل: "تري كيف حدث أن انقلب جيران الأمس إلى وحوش ضارية؟ رغم إن البعض من الباحثين اليهود العراقيين بإسرائيل يعارضون ذلك، وأعتقد أنهم ليسوا على حق، فالكثير من الكتابات التي نشرت من قبل كتاب يهود عراقيين أشاروا بوضوح إلى حقيقة محاولة عائلات عراقية سعت واستطاعت حماية البعض من يهود العراق ممن تعرضوا إلى تلك الفاجعة المريع. كتب السيد مير بصري عن هذه الفاجعة وبهذا الصدد ما يلي: "كان الحاج طاهر محمد سليم من أشرف بغداد عائداً إلى داره المظلة على شارع غازي (الذي سمي بعدئذ شارع الكفاح) فرأى شباب يهود ينزلون من السيارات العامة ويذبحون، فتجري دماؤهم البريئة على قارعة الطريق. أسرع في سيره ودخل مركز الشرطة وقال للشرطة: ألا ترون المذبحة أمامكم، فأين شهادتكم المسلكية وغيرتكم العربية؟ لكنهم سخروا منه وقالوا له: أذهب إلى دارك، أيها الحاج، فلا شأن لك في الأمر، وخرج يجر أذيال الخيبة، وحاول عبثاً ردع الرعاع، ولم يجد بداً من المضي إلى داره كئيباً." 39 وهذه الحقيقة المتواضعة لا تنفي الهمجية التي مارسها هؤلاء المجرمون بحق المواطنين والمواطنين اليهود في مذبحة الفرهود.

ووثبة كانون الثاني/يناير 1948 هي المسألة الثانية التي يتحدث عنها الأستاذ ساسون سوميخ، والتي نجمت عن محاولة بريطانيا عقد اتفاقية جديدة هي اتفاقية بورتسموث (نسبة على ميناء بورتسموث بانجلترا) لتحل محل معاهدة 1930 التي رفضها الشعب العراقي باستمرار في وقت كان صالح جبر رئيس وزراء العراق، وكانت الطبخة قد تمت بين الثلاثي عبد الإله ونوري السعيد وصالح جبر وبالتنسيق والتعاون الكاملين مع السفارة البريطانية وقادة القوات البريطانية في الحبانية والشعبية. وقد استطاع الشعب بوحدته إسقاط هذه الاتفاقية ولكن لم يستطع إلغاء المعاهدة إلا بعد نجاح ثورة تموز 1958. وفي هذه الوثبة شارك يهود العراق، كبقية الموطنات والمواطنين من أتباع الديانات والمذاهب والقوميات

39 بصري، مير. رحلة العمر: من ضفاف دجلة إلى وادي التيمس، ذكريات وخواطر. منشورات رابطة الجامعيين اليهود

النازحين من العراق. مكتبة الدكتور داود سلمان. ساللا. أورشلیم-القدس. 1992. ص 59.

والاتجاهات الفكرية والسياسية الأخرى في المظاهرات وتكلت بالنجاح. ويشير الأستاذ سوميخ بصواب كبير إلى وحدة الشعب العراقي حينذاك وعن الاحتفال الذي ألقى به الجواهري قصيدته الرائعة "أخي جعفر" في جامع الحيدرخانة، والذي شارك فيه طلاب مدرسة "شماش" حيث كتب:

"وما زلت أذكر كيف استقبل منظمو الاحتفال طلاب مدرسة "شماش" اليهود وأنا من ضمنهم، بحفاوة بالغة، حتى إن المنظمين حاولوا إدخالنا إلى ساحة المسجد في الداخل، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك إثر الازدحام المذهل. لقد أردوا أن يؤكدوا لنا ولغيرنا بأن اليهود أيضاً وطنيون عراقيون. وأنهم يفرقون بين اليهودية والصهيونية". (ص 111). وهنا أستطيع أن أجيب عن استفسار الأستاذ سوميخ حين كتب عن والديه يقول: "بين حين وآخر، كلما انتابني ذكريات تلك الأيام، صعوبة جمّة في العثور على شرح مقنع، لحقيقة عدم تفكير والديّ في يوم من الأيام على مدى الأربعينات بالهجرة إلى الولايات المتحدة مثلاً". (ص 109). إن سبب عدم تفكير والديه بالهجرة إلى بلاد أخرى غير العراق يكمن في التصاقهما الشديد بأرض الأجداد والآباء منذ قرون وقرون، إنه وطن الولادة ومرابع الطفولة والصبا، بلد الحب الأول والزواج وولادة الأطفال والعمل والأصدقاء...، هذه وغيرها تجعل الإنسان لصيقاً بأرضه التي ولد فيها وشرب من مائها وعانى الحلو والمر فيها، إنهما وطنيان عراقيان بكل معنى الكلمة وليس غير ذلك.

كان الحزب الشيوعي العراقي، كما يشير إلى ذلك الأستاذ سوميخ بصواب كبير، هو الفاعل الكبير في وثبة كانون الثاني ومعه منظمة "عصبة مكافحة الصهيونية" بالرغم من منع نشاطها، إلى جانب مشاركة بقية القوى والأحزاب الوطنية، رغم مشاكسة وإساءة القوميين اليمينيين والشوفينيين العرب للشيوعيين واليساريين. ولهذا سعى حكام العراق للانتقام بوحشية كبيرة من الحزب الشيوعي لفشلهم في عقد الاتفاقية الجديدة فقرروا إعدام خمسة من قادة الحزب الشيوعي العراقي، هم يوسف سلمان يوسف، السكرتير العام للحزب الشيوعي العراقي، وزكي بسيم وحسين محمد الشبيبي، عضوا المكتب السياسي للحزب، إضافة إلى يهودا صديق وساسون دلال. وقد نفذ الحكم في الأربعة الأوائل في شباط من عام 1949 في حين أعدم الأخير في مايس/أيار من العام نفسه. وأتفق هنا تماماً مع الأستاذ سوميخ في إشارته إلى الظلم الذي أراد حنا بطاطو إلحاقه بـ "ساسون دلال" حين ارتكب خطأ فادحاً في إشارته غير الموضوعية وكأن ساسون دلال كان يعمل بدوافع صهيونية. وهنا يمكن الإشارة إلى ثلاث ملاحظات مهمة حول ساسون دلال وهي:

- لقد كان ساسون دلال شاباً حيويًا وذكيًا ومخلصاً حين وصل إلى قيادة الحزب نتيجة اعتقال عدد كبير من قادة الحزب الشيوعي العراقي وكوادره، وبالتالي كانت تجربته التنظيمية والقيادية محدودة.
- كان ساسون دلال شاباً متحمساً ونشطاً وفعالاً في نضاله في صفوف الحزب الشيوعي العراقي، ولكنه كان في الوقت نفسه ثورياً يتسم باليسارية، أو ما يطلق عليه بـ "مرض الطفولة اليساري" في ممارسة السياسة والتي تجلت في نداءاته التي كان يوجهها من خلال التنظيم لرفاق الحزب.



ولم يكن الوحيد قد اتسم باليسارية حينذاك. ففي انتفاضة تشرين الثاني 1952 رفع المتظاهرون شعار "بس تأمر باسم العرش انشيلة"، أي حالما يأمر بهاء الدين نوري، وكان في العام 1952 سكرتيراً للحزب وكان اسمه الحزبي حينذاك باسم، نطيح بالملكية أو بالعرش مثلاً

• وكان الخطأ الذي ارتكبه ساسون دلّال يكمن في عدم انتباهه أو إدراكه السياسي الضروري لواقع "الجزر" الذي كانت تعاني منه الحركة اليسارية خصوصاً والحركة الوطنية العراقية بشكل عام حينذاك، وبالتالي كانت المظاهرات التي دعا لها ونفذها بالهيكل العظمي للحزب لا تنسجم مع واقع الحركة وقدرات الناس على التظاهر، وكانت تلك التظاهرات تنطلق بالشيوعيين وحدهم وليس بالجماهير التي يفترض أن تكون محيطية بهم. ونتيجة ذلك كانت أغلب الاعتقالات تقع على أعضاء في الحزب الشيوعي العراقي.

وعلينا أن نؤكد بأن هذه السياسة لم تكن متعمدة أو بهدف إيذاء الحزب الشيوعي، بل تعبر عن ضعف في الوعي وعن فكر يساري صبياني خاطئ حينذاك.

وحين حاول نوري السعيد مساومته وإنقاذ رأسه من الموت رفض ساسون دلّال ذلك وهتف من على أعواد المشنقة بحياة الحزب الشيوعي العراقي، إضافة إلى ما سجله ساسون سوميخ عن الرسالة التي كتبها عشية إعدامه والتي جاء فيها: "إنني أبتهل إلى الله ألا يضيع كفاحي هباءً. لن تستطيع القوى الرجعية السيطرة إلى الأبد، إنني مُقَدِّم على الموت غدراً لأنني آمنت بأن للناس الحق في تقرير مصائرهم بالديمقراطية والسلام والحياة المتكاملة. إنني إنسان حر لأنني أعرف الحقيقة." (سوميخ، ص 104).

من المآسي الكبيرة التي نفذها البعثيون القتلة ونظامهم الاستبدادي كان الهجوم المجرم في العام 1973 على عائلة يهودية ببغداد، الذي كتب عنه ساسون سوميخ في كتابه "بغداد أمس"، والذي نفذته أجهزة أمن النظام الاستبدادي حين عمدت إلى ذبح عائلة يهودية من أصل سوري سكنت العراق واعتبرته وطنها، حيث كتب يقول:

"حدثت هذه المصيبة حين داهم جنود أو رجال شرطة بيتهم وذبحوهم ذبح النعاج، الوالدين وأولادهم الثلاثة الذين كانوا معهم في البيت، وقد نجا الأولاد الثلاثة الآخرون بأعجوبة." (ص 150). وقبل ذلك كان قد نفذ البعثيون أحكاماً بالإعدام ضد يهود عراقيين بتهمة العمل لإسرائيل، كما قتل الكثير من المسلمين بتهمة العمل لصالح الولايات المتحدة الأمريكية أو بريطانيا، وكل التهم كانت باطلة والأحكام ظالمة متعسفة.

إن كتاب "بغداد أمس" يقدم شهادة آسرة عن أوضاع العراق في الأربعينات من القرن الماضي يستحق القراءة ويستحق كاتبه الشكر الجزيل على ما وفره لي من متعة في قراءة الكتاب والكتابة عنه. وأتمنى أن يحظى بما يستحق من اهتمام من القراء والقارئات ونقاد الكتب الأدبية والمذكرات.

البروفيسور كاظم حبيب

كانون الثاني / يناير 2014

الملحق رقم 1: قائمة أهم كتب البروفسور ساسون سوميخ للفترة

1972-2014، جامعة تل ابيب

- 1972 (بالعربية): دنيا نجيب محفوظ: الرواية – الأقصوصة – المسرحية \ مختارات مع مقدمات |  
3 197 (بالانكليزية): 'Novels The Changing Rhythm: A Study of Najib Mahfuz  
1973 (بالعبرية): نهر الفراش - مجموعة من الشعر المعاصر في سوريا ولبنان – ترجمة وتقديم  
1975Two Versions of Dialogue in Mahmud Taymur's Drama (بالانكليزية):  
1976 (بالعربية): دنيا يوسف إدريس من خلال أقاصيصه  
1979 (بالعبرية): التراكمات – مختارات شعرية لميشيل حداد  
1978 (بالعبرية): تحت المظلة – قصص مصري معاصرة  
1981 (بالعربية): مبنى القصة ومبنى المسرحية في أدب يوسف إدريس  
1981 (بالعربية): ثلاثة فصول في أدب نجيب محفوظ  
1981 (بالعبرية): أعشق بالحبر الأبيض – من إشعار سهام داود  
1984 (بالعربية): لغة القصة عند يوسف إدريس  
1993 (بالعبرية): الترجمة على جانب الطريق |مداخلات في الترجمة الأدبية |  
2003 (بالعبرية): بغداد أمس - سيرة ذاتية ج 1 (ترجم للعربية والانكليزية والتركية)  
2007 (بالعبرية): جغرافية بديلة: مترجمة عن الشاعرة المصرية إيمان مرسال  
2008 (بالعبرية): أيام غريبة - سيرة ذاتية ج 2 / صدرت له ترجمة انكليزية بعنوان "الحياة بعد بغداد"  
2012 (بالعبرية): حامل المصباح في ليل الذناب- مختارات مترجمة من شعر سركون بولص  
تحت الطبع (بالعبرية): مختارات مترجمة من شعر محمود درويش

الملحق رقم 2: رسالة الروائي المصري الكبير نجيب محفوظ إلى الأستاذ ساسون سوميخ

الاستاذ ساسوه سوينج  
اليك صابرة تحياتي وكفري وبعد

فقد اطلعت على رسالتك بمرور صابرة ، اعزاً يا محباً الله لك من شكر  
لعنايتك الالهيمة بداسة ادبي ، وقد صدمتني اكثر من مجال بانه كقالب  
عني يقتر بملازمتي محمداً وشاملاً ، وانه يقتر من افضل ما كتب عن انه  
لم يات افضل جميعاً ، وطبعاً اني لسقا فيه من اهل العرب ولا حظ ذاتي  
في ذلك تحدياً من عقلية عدو . بل انه رسالتك كانت فنية في المقام الأول  
وانسانية بالمعنى الشامل والدقيق .

ذاتي او اقله مع الاسباب التي منعك من الاتصال في وانت بعدد التأليف  
والحمد لله الاتصال بالمولف - فيما عدا الحقير من بعض المعلومات المصنوعية اذا  
تغير الحصول على - فيوجد في نظري بل لعله ضلل - فتمه لاكتساب للتجربة من  
الهدف مباشرة بملء ابله للغير بقدر ما تأجب لاكتشاف منه الاهداف والنتائج  
لاكتشاف انفسنا والتدبريه ، اذ ذلك هو الغالب في ثلاث ارباع العمر .

اشكر لك تقديره لدورنا في الدنيا ، وارجو ان تأمره مغالياً فيه كثيراً ،  
كما ارجو ان اشترك بنفسى في يوم قريب ان شاء الله . ولنذبح الله ما  
به نكحل المسامح المنذولة اليوم بالتمام ، وانه يعود سبحانه الى العاشرة  
الشمسة كما كان الحال في ما صلب الطويل . فما لذلك في ان تعاوننا بمر  
قام به شعبيًا على مدى الاعظم الطويلة في العصور العديمة والدرج  
والدينه ، وانه ايام الحظ كانت قهيرة وحليلة - غير اننا وبالذات  
هنا بتسجيل لحظات الرضا الى ما في مرة من تسجيل ايمان الصداقة  
والتعاون . ذاتي اعلم بعد تسجيل بفضل التقدير المشترك هذه المنفعة في  
قيام رضى بشان العلم مبارك جبار في السماء السامية .

والله اللقاء يا سيدي الاستاذ العزيز وانت ووطننا في غير حال

المخلص  
تحيات محفظة

١٩٧٨/١٠/١٤

القاهرة

## هل لعقلاء العرب والمسلمين من مصلحة نفي الهولوكوست

### ومحارق النازيين ضد اليهود في أوروبا؟

#### استهلال

قرأت الكثير من المقالات والكتب الصادرة باللغة العربية أو المقالات المنشورة على مواقع الإنترنت حول الهولوكوست، هذا المصطلح الذي يعني عمليات منظمة وممنهجة ومباشرة وفعلية ضد يهود ألمانيا وأوروبا في الفترة الواقعة بين 1933 - 1945 استناداً إلى الفكر النازي العنصري المعادي للسامية، باعتبارها أذكوبة يهودية صهيونية عالمية وأسطورة لا يجوز الاقتناع بها. ويحاول البعض الآخر أن يؤكد كذبها من منطلق إن الاعتراف بها يفيد إسرائيل كدولة معادية للعرب والفلسطينيين. وهو منطق أفلج بطبيعة الحال فالاعتراف بالحدث شيء وسبل الاستفادة منه شيء آخر تماماً. ومن حق إسرائيل ويهود العالم أن يستفيدوا منه ليمنعوا وقوعه ثانية في أي مكان من العالم. فلو قرأت مقال السيد إدريس الكنيوري في إسلام ويب بعنوان "أسطورة الهولوكوست، أو مقال السيد هاشم محمد والسيدة سمر الشافعي على موقع "محرس" تحت عنوان "لماذا تهول الآلة الإعلامية اليهودية من الحدث؟ .. "الهولوكوست" أسطورة إسرائيلية.. نذبح المفكرين المنكرين لها ! " حيث ورد فيه " استفادت إسرائيل بشكل منقطع النظير من فكرة "المحرقة" أو "الهولوكوست" التي زعموا أن زعيم الحزب الألماني النازي هتلر أمر بها، والتي ادعوا أنه عذب اليهود خلال الحرب العالمية الثانية في محاولة منه لاجتثاث العرق اليهودي من جذوره،.. (موقع حرس في 2010/1/27)، إضافة إلى مئات المقالات التي دبجت من العرب والمسلمين في إنكار هذه المحرقة والمجزرة البشرية التي تعتبر بحق "جريمة إبادة جماعية وضد الإنسانية".

كتب الأستاذ مصطفى الرفاعي مقالاً بعنوان " العرب و المحرقة اليهودية .... زيارة ميدانية" جاء فيه بصواب ما يلي:

" و في هذا السياق لا يفوتني أن أذكر الشعبية الكبيرة التي يحظى بها الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي في العالم العربي، نظراً لاعتناقه الإسلام وإنكاره لأهوال المحرقة النازية. فهل العرب قومٌ تحكّمهم الأهواء و الانفصالات و حب الانتقام أكثر من طرح الإشكالات في سياقها التاريخي الإنساني و الموضوعي. فقد صدّق العرب و المسلمون كل ما ورد في كتابه دون تدقيق و لا تمحيص لمحتواه. و قد تمّت محاكمته حينها و انتهت بإدانته لإنكاره الهولوكوست في تصريحاته وكتاباتة، كما شهدت تعبئة

كبيرة للنازيين الجدد وأتباع نظريات المؤامرة والمشككين بالهولوكوست، الذين حضروا لمؤازرته أمام محكمة باريس.

فقد شكك غارودي في هذا الكتاب بالتطهير العرقي، الذي تعرض له اليهود الأوروبيون، معتبراً أنه مجرد ادعاء من أجل تبرير سياسة إسرائيل العدوانية. وبسبب فقرات مختلفة في الكتاب تشكك بحدوث الهولوكوست حكم على غارودي سنة 1998 في الجلسة الأولى بالسجن لمدة تسعة أشهر مع وقف التنفيذ وغرامة مالية بلغت 160 ألف فرنك فرنسي. مما جعل عدة دول من العالم الإسلامي و العربي تحثي به بصفته نجماً كبيراً واستقبل خصوصاً في مصر والأردن سنة بحفاوة كبيرة في الجامعات والملتقيات الكبيرة ونظر إليه كبطل أو "شهيد مطارد" في الغرب ومن طرف "الصهاينة" بسبب تصريحاته المنكرة لوقائع المحرقة.. " (الحوار المتمدن، العدد 3196 بتاريخ 2010/11/25).

لقد دفعتني هذه القراءات إلى كتابة المقال التالي ونشره، ومن ثم توسيعه وإغنائه بمعلومات إضافية من أجل أن يكف العرب المسلمين والمسلمين من غير العرب عن ممارسة الافتراء المتعمد والمستمر بإنكار جريمة الإبادة الجماعية ضد اليهود التي ارتكبت في ألمانيا وأوروبا في الفترة الواقعة بين 1933-1945. فالأحداث التي تعرض لها يهود أوروبا ليست أكاذيب بل حقائق دامغة، ولكن إنكارها يعتبر مأساة ومسخرة حقاً وتعتبر عن جهل في الأحداث أو محاولة للانتقام أو كما كان الهتلريون النازيون الألمان يرددون مقولة غوبلز "افتروا ثم افتروا ثم افتروا، لعل بعض افتراءاتكم تعلق بأذهان الناس".

هل جريمة الإبادة الجماعية ضد اليهود في أوروبا حقيقة أم أسطورة؟

حين وصلت إلى ألمانيا في نهاية العام 1958 وفي الفترة اللاحقة قمت بزيارة لأكبر معسكرات الاعتقال النازية الموزعة على مناطق مختلفة من ألمانيا. وانطلاقاً من كوني أمارس السياسة وسجيناً سابقاً رغبت الإطلاع على واقع تلك المعسكرات ومعاناة الإنسان فيها، سواء أكان عبر التعذيب النفسي أم الجسدي والتجوع والتشغيل المميت وعذابات وموت بالجملة بالمحارق أو الأفران النازية أو غرف الغاز التي شملت النساء والرجال والأطفال بمن فيهم الأطفال الرضع أو النساء الحوامل. فكان لي أن زرت أول معسكر في مدينة داخاو (Dachau) مع مجموعة من الطلبة العراقيين في ألمانيا الاتحادية. وحين انتقلت للدراسة في ألمانيا الديمقراطية تسنى لي زيارة معسكري بوخنفالد (Buchenwald) في ولاية تورنغن (Tuerengin) وعلى مقربة من مدينة وايمر (Weimar) الثقافية والتاريخية، مدينة العملاقين في الأدب الألماني غوته وشيلر والموسيقار العالمي ليست. ثم زرت معسكر ساكسن هاوزن (Sachsenhausen) القريب من مدينتي برلين-براندينبورغ في ألمانيا الديمقراطية مع مجموعة من الطلبة الأجانب. وفيما بعد زرت ضمن وفد اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي ضم الرفيق عزيز محمد سكرتير الحزب والرفيق الراحل مهدي عبد الكريم، عضو اللجنة المركزية، في العام 1974 معسكر أوسفيتز (Auschwitz) في بولونيا. وتسنى لي فيما بعد زيارة معسكرات اعتقال أخرى في مدن

أوروبية أخرى. وقد كانت الصدمة الأولى شديدة القسوة والأثر النفسي لما شاهده من حقائق صارخة على أرض الواقع والتي يصعب على الإنسان وصفها وتصور ما حصل فيها في تلك الفترة السيئة والمرعبة من تاريخ ألمانيا النازية. إن المواقع التي شاهدها والكتب التي قرأتها والناس الذين التقيت بهم من مختلف الأطياف الفكرية والسياسية الذين كانوا في معسكرات الاعتقال النازية وقضوا فيها سنوات من عمرهم والأفلام التي شاهدها، والتي لم تنتج لأغراض الدعاية بل كانت من الأفلام الوثائقية، والمتاحف التي قمت بزيارتها، كلها تؤكد بما لا يقبل الشك أحد احتمالين: إما أن يكون الناكر لهذه الحقائق إنسان جاهل ولا يمتلك المعلومات الكافية، وبالتالي فهو يردد بغباء كبير من سبقه من الناس في التشكيك بكل ذلك والادعاء بعدم صدق تلك المعلومات الخاصة بضحايا النازية، أو أنه عنصري تافه وغبي بامتياز، بغض النظر عن القومية أو الدين الذي ينتسب إليه، فمثل هذا الإنسان يكون عموماً عاجزاً عن التفكير بعقلانية وسوية حول ما حصل في ألمانيا بين 1933-1945.

من درس تاريخ ألمانيا وفترة الحكم النازي بين 1933-1945 يعرف بأن البوليس الألماني التابع لوزارة الداخلية أقام خلال عام 1933 ستين معتقلاً وزعت على كل الإمبراطورية الألمانية للسياسيين المناهضين للسياسات الفاشية الهتلرية من الأحزاب والقوى الأخرى، وكانت تابعة لوزارة الداخلية وتحت رقابتها. إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما هيمنت عصابات آل إس إس الألمانية (أمن الدولة) على تلك المعسكرات وراحت تعيد تنظيمها وتجميعها في معسكرات كبيرة. وفي العام 1937 كانت هناك ستة معسكرات اعتقال في ألمانيا تضم عشرات الألوف من السياسيين. ثم كانت المرحلة الثانية التي تجمعت في معسكرات أخرى حتى بلغت في العام 1942 (22) معسكراً للاعتقال. وفي المحصلة النهائية وفي وقت مبكر جمع النازيون كل السياسيين من مختلف الاتجاهات السياسية واليهود والسلافيين والسنتي والروما Sinti & Roma (العجر) والمثليين والمعوقين والمجرمين ومن يطلق عليهم بالباحثين في الإنجيل في معسكرات مشتركة. وأعطى لكل نوع من هؤلاء لون معين على قطعة قماش تخاط في مقدمة قميص المعتقل، فكان على اليهود حمل النجمة السداسية بلون أصفر على صدورهم، كما فرض على السياسيين حمل قطعة قماش دائرية حمراء اللون، وللمشردين اللون الأسود، وللمجرمين اللون الأخضر، وبعثة الإنجيل اللون البنفسجي واللجائين اللون الأزرق. وقد وزعت هذه المعسكرات في ألمانيا وبولونيا والنمسا وفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية. وكانت السجون الأخرى، وكذلك الجيش الألماني، يرسلون الكثير من المعتقلين إلى ألمانيا للعمل القسري في معامل الإنتاج الحربي وتحت ظروف عمل قاسية ومريعة جداً ولساعات طويلة تفوق قدرة الإنسان على التحمل، إضافة إلى التجويع المتواصل الذي أدى كل ذلك إلى سقوط ضحايا قدرت بمئات الآلاف من المعتقلين من مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية والجنسيات والأديان والمذاهب الدينية.

ورغم أن القتل الجماعي قد شمل كافة المعتقلين، إلا أن القتل الجماعي كان من حصة مواطنات ومواطني يهود الدول الأوروبية بشكل خاص بدافع الحقد العنصري الأسود الذي تميزت به العقيدة النازية

وكافة القوميين الآريين الهتلريين. فوفق المعلومات المتوفرة والصادرة عن مراكز البحث العلمي التاريخية فقد بلغ عدد معتقلي هذه المعسكرات خلال فترة الحكم النازي 18 مليون إنسان، قتل منهم بأساليب مختلف 11 مليون إنسان (راجع القاموس السياسي الصغير، ديتس فيرلاگ Dietz Verlag، برلين 1985، ص 516). أما عدد اليهود الذين قتلوا وينحدرون من دول أوروبية خلال العهد النازي في الفترة الواقعة بين 1933 - 1945 فقد تراوح بين 5-6 مليون إنسان. وإذا جمع هذا الرقم مع عدد الذين انتحروا بعد التحرير لأسباب ترتبط بعواقب وجودهم السابق في معسكرات الاعتقال فإن العدد يرتفع ليتراوح بين 6156185 - 6261185 نسمة وكلهم من أتباع الديانة اليهودية. هذا هو العدد، الذي اتفقت واستقرت عليه كل المصادر العلمية التي يمكن الثقة بعلميتها ونزاهتها العلمية وبعدها عن التأثيرات السياسية في البحث. وهذا العدد الكبير موزع على النحو التالي: 40

،الإمبراطورية الألمانية 165000، النمسا 65000، فرنسا وبلجيكا 32000، هولندا 102000، لوكسمبورغ 1200، إيطاليا 7600، اليونان 60000، يوغسلافيا بين 55000-60000، تشيكوسلوفاكيا 143000، بلغاريا 11000، ألبانيا 600، النرويج 735، الدنمرك 50، هنغاريا 502000، رومانيا 211000، بولونيا 2700000، الاتحاد السوفييتي بين 2100000-2200000 .

لقد قتل الكثير من السنّي والروما حيث بلغ عدد ضحاياهم خلال ذات الفترة وبمعسكرات الاعتقال النازية 500000 إنسان. كما فقد السلافيون الكثير من البشر بسبب الكراهية والحقد العنصريين، إضافة إلى من قُتل من الشيوعيين والاشتراكيين والمسيحيين وجمهرة كبيرة من المثقفين ممن لم يتسن لهم الهرب من ألمانيا بسبب الاختلاف الفكري والسياسي، إضافة إلى قتل اليهود بسبب عنصري، إنه العداة المسموم ضد السامية.

إن هذه الجريمة البشعة التي ارتكبت بحق أتباع الدين اليهودي لا يمكن أن تغتفر ولا يمكن نسيانها وستبقى في ذاكرة التاريخ حية تعبر عن الفكر العنصري والشوفينية والقسوة السادية المريضة والحقد الأعمى والكراهية للأخر ولا يجوز بأي حال نسيانها لأنها عار في جبين الإنسانية كلها. ولا بد للعرب والمسلمين أن يعترفوا بها وأن يدينوها لأنها كانت جريمة إبادة جماعية ضد الإنسانية، ولا يجوز لهم إنكار حصولها. فهي حقيقة واقعة، وإنكارها ليس فقط رؤية عنصرية، بل وأكبر غباء وحماقة سياسية. ولا يمكن أن ينكرها سوى أولئك الذين يكرهون اليهود من منطلق عنصري وكراهية الإنسان الآخر والدين الآخر، وهم أولئك الذي يتبنون الفكر القومي العربي اليميني الشوفيني الذين مارسوا الجريمة ضد اليهود

---

40 Wolfgang Benz. *Legenden Lügen Vorurteile, Ein Wörterbuch zur Zeitgeschichte*, Deutsche Taschenbuch Verlag (dtv). München – Juni 199.

بينز، فولفغانگ. أساطير وأكاذيب وأحكام مسبقة. كتاب الجيب الألماني. 1992، ص 112، باللغة الألمانية).

في العام 1941 في العراق، وكذلك في مجازر الأنفال في كردستان وحلجة أو تهجير وقتل الكرد الفيلية أو العرب الشيعة من الوسط والجنوب، أو الذين يرفضون حتى الآن إدانتها رغم كل الوقائع الدامغة التي ظهرت في محاكمات المجرمين المسؤولين عنها. وتقدم المعاهد العلمية ومراكز البحث العلمي المتخصصة الكثير من الأدلة التي يمكن سوقها فيما يلي:

" \* الدراسات الديموغرافية المتعلقة بأعداد اليهود المقيمين في أوروبا قبل الحرب وبعدها؛

- التقارير اليومية الصادرة عن القادة النازيين المشرفين على معسكرات الموت وعلى فرق القتل في المناطق المحتلة في الأقاليم ؛
- شهادات القادة النازيين في فترة ما بعد الحرب النازية ؛
- الأدلة الحديثة التي ظهرت، على سبيل المثال، بعد اكتشاف المقابر الجماعية للضحايا اليهود في أوكرانيا .
- الإشارات العديدة التي ألمح إليها قواد النازية حول إبادة اليهود ، بما في ذلك: -يوميات جوزيف غوبلز ، رئيس الدعاية في عهد هتلر، 1948 ، ص 86 و 147-148، منها:

14 - شباط / فبراير 1942 : يشير الفهرر (هتلر) مرة أخرى إلى عزمه على تنظيف أوروبا من اليهود بلا رحمة. يجب ألا يكون هناك أي مكان للحساسية العاطفية إزاء هذا الموضوع. اليهود يستحقون الكارثة التي تحل بهم الآن. لا بد من تدمير تلك الأسلحة جنباً إلى جنب مع تدمير أعدائنا. ويجب علينا أن نسرّع هذه العملية مع التزام القسوة الباردة." (موقع الهولوكوست، 2014/2/9).

كتب الحاج أمين الحسيني، مفتي الديار الفلسطينية، في مذكراته اليومية، وكان صديقاً للدولة النازية ومعجباً بسياسات هتلر إزاء اليهود، نقلاً عن هملر في حديث مباشر معه ما يلي: 41

وقد كنت أسمع من هملر كل مرة ما يدل على شدة حقه على اليهود، يتهمهم بأنهم ظالمون، ويزعمون أنهم مظلومون، ويقول أنهم موقدو نيران الحروب، وأنانيون ونحو ذلك، ويبين مقدار الأذى الذي انزلوه بألمانيا في الحرب الماضية، وأنهم دائماً يوقدون نار الحرب ثم يستغلونها لمصالحهم المادية، دون أن يخسروا فيها أي شيء، ولذلك فإننا صممنا في هذه الحرب على أن نذيقهم وبال أعمالهم مقدماً، فقد أبدنا حتى الآن حوالي ثلاثة ملايين منهم. (وكان حديثه هذا في صيف عام ١٩٤٣)

41 العمر، عبد الكريم. مذكرات الحاج محمد أمين الحسيني. إعداد. الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع. ط 1. دمشق، 1999. ص 126.



فاستغربت هذا الرقم ولم أكن أعلم شيئاً عن ذلك من قبل، وقد سألتني هملر، لهذه المناسبة، كيف تفكرون في تصفية القضية اليهودية في بلادكم؟ فأجبت: إننا لا نريد منهم إلا ان يعودوا إلى البلاد التي جاؤوا إلينا منها، فقال: لن نسمح لهم بالعودة إلى ألمانيا أبداً.

كان الرقم الذي ذكره هملر عن عدد الضحايا اليهود في معسكرات الاعتقال النازية في صيف عام 1943، في حين إن الهمجية الهتلرية قد تصاعدت في السنتين اللاحقتين وقبل سقوط ألمانيا وبقية دول المحور في الحرب العالمية الثانية، وبالتالي فإن الرقم الذي تشير إليه مؤسسات ومراكز ابحاث العلمي حول ضحايا اليهود في معسكرات الاعتقال الألمانية وبقية الدول الأوروبية، وبشكل خاص في بولونيا، صحيح تماماً ولا يقبل الإنكار.

وفي أول لقاء بين هتلر والحسيني قال هتلر، على وفق ما جاء في مذكرات الحاج الحسيني ما يلي:42

رسبباً لمنعنا من دفع جميع القوى إلى الشرق. سأقول لكم الآن شيئاً أرجو ان يبقى مكتوماً لديكم:

أولاً: سأستمر في كفاحي إلى أن تدمر اليهودية الدولية تماماً.

ثانياً: وفي أثناء هذا الكفاح، وعندما تصبح فرق الدبابات الألمانية، وأسراب الجوّ، واقفة في منحدرات جنوبي القوقاز، يكون قد حان الوقت للملائم لإذاعة التصريح الرسمي، لأن ساعة تحرير العرب تكون قد دقت، إن ألمانيا ليس لها في البلاد العربية أية مطامع، إلا القضاء على القوى التي تحمي اليهودية العالمية.

وهذا التصريح يؤكد النية المبيتة التي كانت لدى هتلر والحزب النازي على تصفية اليهود أينما وجدوا. والغريب بالأمر إن الحاج أمين الحسيني لم ينتبه ويفكر بشكل موضوعي عن حقيقة أن الفكر العنصري الذي يؤمن به ويلتزم بتنفيذه هتلر وروزنبرغ وهملر وغوبلز وكل الجوقة النازية موجه ضد جميع الشعوب التي يطلق عليها بالسامية والحامية، أي شعوب آسيا وأفريقيا لصالح الشعوب الآرية، وبالتحديد لصالح الشعب الجرمانى. وكان العرب من ضمن الشعوب الموضوعة في أسفل سلم نظرية الأعراق النازية.

وأخيراً فإن من تعرف على معتقلات صدام حسين يستطيع أن يدرك طبيعة الأساليب الفاشية السادية اللعينة التي مارسها جلاوزة صدام حسين بحق المعتقلين السياسيين بالعراق. لقد مات الكثير من البشر تحت التعذيب وقتلوا بصيغ شتى. ولا شك في أن صدام حسين وجلاوزته هم من بقايا أيتام الفكر النازي على وفق عقلية المتخلفين من العرب والرجعيين والعنصريين. إنها الإجابة الواضحة والصريحة عن

السؤال الذي ورد سابقاً حول طبيعة المحرقة التي نفذتها الفاشية في ألمانيا وأوروبا ضد اليهود، إنها أبشع جريمة ارتكبت بحق اليهود في العالم وأبشع ما ارتكب في الحرب العالمية الثانية، إنها جريمة إبادة جماعية وضد الإنسانية. وقد سبقتها جريمة أخرى ارتكبتها الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ضد الأرمن والتي أدت إلى موت أكثر من مليون مسيحي أرمني في العام 1915، وكانت من أبشع جرائم الإبادة الجماعية التي ارتكبت في تلك الحرب والتي تلبست بالذهنية العنصرية والدينية المتعصبة والعدوانية للحكام العثمانيين والدولة العثمانية.

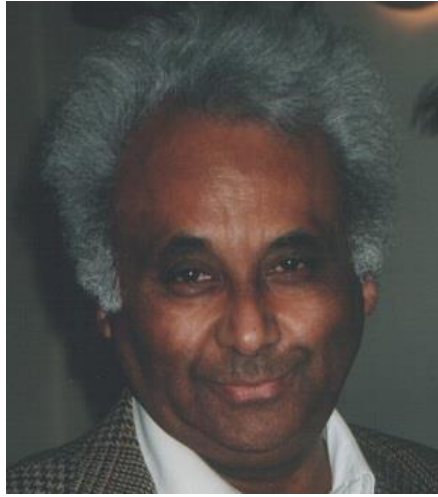
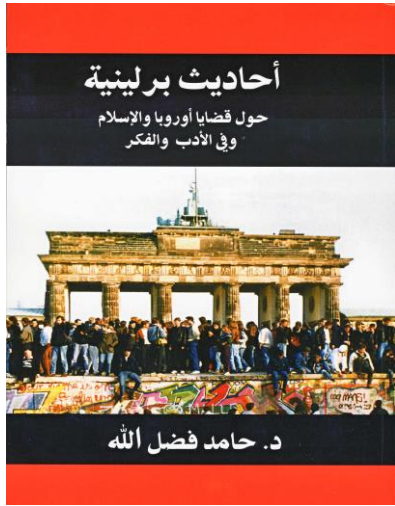
أتمنى على العرب وعلى المسلمين في كل مكان أن لا يخلطوا بين الحقائق التاريخية وبين ما يحصل من صراع في الشرق الأوسط، الصراع بين دولة إسرائيل والشعب الفلسطيني، أو احتلال إسرائيل لمزارع شبعاً أو الجولان السوري، أو العقوبات الجماعية التي تمارسها إسرائيل في الأراضي العربية المحتلة في فلسطين، فهما قضيتان منفصلتان عن بعضهما من حيث المكان والزمان والقوى والعقلية. ونكران تلك الجريمة هو عداً وكراهية لليهود وغباء ودون وجه حق وعار لا يجوز السكوت عنه ولا يعبر مثل هذا الموقف عن رؤية ومشاعر إنسانية وعقلانية سياسية. وإذ من واجبنا أن ندين تلك الجرائم التي ارتكبت بحق اليهود حينذاك، علينا أن ندين ونشجب السياسات اليمينية المتطرفة التي تمارسها الحكومة الإسرائيلية ضد العرب في فلسطين وتسويق حل المشكلة لصالح إقامة دولتين والتجاوز على قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي. وفي الوقت ذاته علينا أن نتلمس السياسات الخطرة التي تمارسها حماس والقوى العربية اليمينية والمتطرفة، بدعم مباشر من إيران وأتباع إيران في المنطقة، لعرقلة أي حل للقضية الفلسطينية، وبالتالي فهم يدعمون اليمين الإسرائيلي الذي يرغب في ذلك أيضاً.

كاظم حبيب

2014/2/10

في كتاب "أحاديث برلينية حول قضايا أوروبا والإسلام وفي الأدب والفكر"

للكاتب الدكتور الطبيب حامد فضل الله



اسم الكتاب: أحاديث برلينية حول قضايا أوروبا والإسلام وفي الأدب والفكر

اسم المؤلف: الدكتور الطبيب حامد فضل الله

الناشر: دار الدليل للطباعة والنشر - برلين ،

سنة النشر: تشرين الثاني/نوفمبر 2013

عدد الصفحات: 458 صفحة

اللغة: العربية والألمانية

بدعوة من الجالية السودانية ببرلين/ براندنبورغ عقدت مساء يوم الجمعة المصادف 2014/1/17 ببرلين ندوة فكرية - أدبية حول كتاب الدكتور حامد فضل الله الموسوم "أحاديث برلينية حول قضايا أوروبا والإسلام وفي الأدب والفكر" حضرها جمع واسع من مواطنات ومواطنين الدول العربية المقيمين ببرلين، كما تضمنت الدعوة تقديمي لكتاب الصديق العزيز حامد فضل الله

## محتويات الكتاب

صدر عن دار الدليل للطباعة والنشر ببرلين كتاب جديد للكاتب والقاص والطبيب الدكتور حامد فضل الله من السودان والمقيم ببرلين تحت عنوان "أحاديث برلينية حول قضايا أوروبا والإسلام وفي الأدب والفكر". وقد كرمني الصديق بهدية قيمة هي نسخة من كتابه الجديد فشكراً جزيلاً له.

يتضمن إهداءً ومقدمةً وستة فصول وقسم خاص في نهاية الكتاب باللغة الألمانية مع مجموعة من الصور التذكارية ورسائل من أرشيفه الخاص.

الأديب والدبلوماسي السوداني الأستاذ خالد موسى دفع الله كتب مقدمة الكتاب وجعلها تحت عنوان ناجح ومُعبر "تأملات في حياة مثقف استثنائي"، وهي قطعة أدبية تبحث وتناقش في وجهات نظر الكاتب وما ورد في الكتاب من أفكار لكتاب آخرين، إضافة إلى جملة من المسائل الفكرية والعملية من وجهة نظر الكاتب وكتاب آخرين حول قضايا الهجرة والغربة والهوية والإسلام وموضوعات حيوية أخرى التي كتب عنها أو ترجمها وناقشها المؤلف د. حامد فضل الله.

وفي الفصل الأول يتذكر المؤلف صباه ودراسته في أمدرمان والخرطوم والقاهرة ولايبزك وعلاقاته الصداقية ونشاطاته السياسية والاجتماعية والثقافية الشبابية وتتبعه للندوات الفكرية ورغبته العارمة في الإطلاع والقراءة وتأثره بالفكر الإسلامي عموماً والإخواني على وجه الخصوص، ثم عودته إلى السودان ومن ثم السفر بزمالة دراسية إلى ألمانيا الديمقراطية وعودته منها بعد التخرج إلى السودان ورجوعه الثاني إلى ألمانيا للعمل والاستقرار فيها.

أما الفصل الثاني فيبحث بحيوية فائقة قضايا الاندماج والانصهار والهوية وتفاعلات العرب والإسلام في أوروبا. وتضمن هذا الفصل العديد من الترجمات التي قام بها المؤلف لكتاب مختصين ألمان بشؤون الإسلام

والمسلمين والمعتريين. وهي كتابات غنية وترجمة ممتازة تجسد المعرفة الدقيقة للكاتب باللغتين العربية والألمانية. وتقدم للمكتبة العربية دراسات قيمة وهادفة في هذا الصدد.

أما الفصل الثالث فيبحث في قضايا فكرية تدور حول الاقتصادي المميز الكبير سمير أمين وعن مشكلات التعذيب ومشاركة العرب في الحرب الإسبانية ضد الفاشية الفرانكوية وعن مشكلات الثقافة السودانية في دولة استبدادية، كما يبحث في الأحزاب السياسية وقوى الإسلام السياسي في السودان والطبيعة الانتهازية لبعض هذه القوى.

أما الفصل الرابع فيأتي تحت عنوان الوجه مرئياً، وهو عنوان قصيدة أدونيس التي ترجمها مؤلف الكتاب ونشرها سابقاً. في هذا الفصل نقرأ بعض كتابات المؤلف وكتاب آخرين عن الروائي السوداني الطيب صالح، سواء باستعراضها أم تحليلها ونقدها أم بترجمة نصوص منها.

ويبحث الفصل الخامس عن شخصيات في خاطر، وهي من نمط الإخوانيات في الشعر العربي يتحدث فيها عن مجموعة من أصدقائه الذين احتفظ لهم في ذاكرته مكاناً طيباً.

أما الفصل السادس فكتب تحت عنوان الأجنبي وقصص أخرى للكاتب. وهي مجموعة فريدة لكاتب القصة القصيرة المبدع حامد فضل الله وقراءات في قصص أخرى. ثم يتضمن الكتاب قسماً خاصاً أسماه من الأرشيف البرليني وكتابات أخرى باللغتين العربية والألمانية وبعض الصور من أرشيف المؤلف.

## رؤية في الكتاب

قليلة هي الكتب العربية التي تطبع ببرلين، عاصمة ألمانيا الاتحادية. ونادرة هي الكتب التي تطبع طباعة جيدة وغلاف ناجح. وهذا الكتاب هو الأكثر نجاحاً من حيث الطباعة ومن حيث بنط الحروف (14) بحيث يمكن أن يقرأ من الشباب وكبار السن في آن واحد دون جهد كبير، إضافة إلى جودة تصميم وطباعة الغلاف، مع ثقل غير مستحب في الورق المستخدم في طبع الكتاب.

في هذا الكتاب القيم وجدت نفسي أمام إنسان مثقف كبير واسع الأفق والاطلاع، كثيف القراءة وكثير التنوع في قراءاته ابتداء من الشعر والنثر والقصة والرواية والاقتصاد والتاريخ وعلم النفس والفلسفة والطب، الذي هو اختصاصه المباشر، كما إنه متعدد الكفاءات وعميق في رؤيته وتحليلاته للأحداث والوقائع، يمتلك

أسلوباً رشيقياً في الكتابة وسلساً في التعبير عما يدور في باله. عرفته منذ ما يقرب من ربع قرن في نشاطات الشأن العام والتزام الدفاع عن حقوق الإنسان والمجتمع المدني ببرلين وتوطدت علاقتي به لما تميز به من ود استثنائي حميمي في صداقته وسعيه للمساعدة واستقلالية عالية في التفكير وفي اتخاذ المواقف والقرارات وفي الأدوات التي يستخدمها في معالجة المشكلات التي تحيط به أم بالسودانيين أم بأصدقائه العراقيين والسوريين وبقية العرب، وفي مواقفه الإنسانية إزاء القوميات والشعوب الأخرى. الود حامد يحمل حساً وطنياً وقومياً نظيفاً لا تشوبه الشوفينية وضيق الأفق، فبقدر ما يحترم ويحب وطنه وشعبه يحترم ويقدر القوميات والشعوب الأخرى ويثمن عالياً نضالاتها في سبيل الحرية والديمقراطية والسلام والعدالة الاجتماعية. واحدة من خصاله الأصيلة رغبته الصادقة وممارسته الفعلية في الفصل بين الصداقة والعلاقات الاجتماعية من جهة، وبين المواقف والعلاقات السياسية من جهة أخرى. فهو بقدر ما يكون سمحاً وودوداً وصادقاً في علاقاته مع جميع الناس أيا كانت وجهتهم الفكرية والسياسية، بقدر ما هو صارم وواضح في الموقف السياسي إزاء النظم الدكتاتورية والشوفينية ومنها النظام السوداني، فلا يجامل في ذلك رغم جلوسه مع السفير السوداني أو الملحق الثقافي أو الاقتصادي وحواره الودي معهم وفي الوقت نفسه لا يتراجع عن نقد هذا النظام أمامهم بصراحة ووضوح. والبعض من الأخوة العرب الذي يقيم معهم علاقات واسعة، وأعتقد بأنه العربي الوحيد الذي يقيم أوسع العلاقات مع الجاليات العربية في برلين وعلى مستوى ألمانيا بسبب هذه الروح السمحة التي يحملها قلباً وعقلاً، يشكك في علاقات د. حامد مع السفارة السودانية ويصعب عليهم وعي طبيعة هذه الشخصية ومزاجها والمبادئ التي يعتنقها. وإذا كان في أول شبابه يؤيد الإخوان المسلمين فإنه قد تلى عن هذا التأييد منذ عقود ولم ينتم إلى أي حزب سياسي سوداني أو عربي أو في أوروبا، ولكنه يقيم علاقاته مع الجميع وله قيمه ومعاييره ومبادئه التي يسير عليها. لقد عرفته عن قرب، لهذا توطدت صداقتي به وحرصت، كما حرص علي ديمومتها وتطورها بين العائلتين.

إن ما تضمنه هذا الكتاب يجسد شخصية الكاتب بتنوعه الثقافي وسلوكه الإنساني وحبه للمعرفة وخبرته الطويلة والتجارب الغزيرة التي مر بها ورغبته الصادقة في عمل الخير وحيويته الفائقة في المتابعة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية على مستوى السودان والعالم العربي وألمانيا وحبه للترجمة لإغناء المكتبة العربية.

يمدنا الكاتب في الفصل الأول بالكثير من المعلومات عن الحياة الثقافية بالقاهرة في الخمسينات من القرن العشرين والصراعات الفكرية بين الأحزاب والمجموعات السياسية وملاحقته للفكر وتتبعه لندوات طه حسين

وغيره من الأدباء والكتاب المصريين من رواد القصة المصرية والشعر، إضافة إلى تتبعه للثقافة السودانية والحوارات حول استقلالية هذه الثقافة وتفاعلها وتلاقحها الطبيعي مع الثقافة العربية والثقافة الإسلامية والثقافة الأفريقية، وهي من حيث المبدأ نقاشات حول الهوية الوطنية والثقافية في آن.

ثم يسجل ذكريات انتقاله من أجواء القاهرة والخرطوم وأدرمان إلى أجواء لايبزك ودراسة اللغة والأخوة السودانيين الذين رافقوه في الدراسة وأجواء الطلبة وصراعاتهم السياسية التي أثقلت عليهم ومنعتهم من وحدة الصف لأسباب ترتبط بالجمود الإيديولوجي للمسؤولين عن الاتجاهات الفكرية والسياسية في هالة/صالحه، والتي هي نموذج لحياة الطلاب العرب في ألمانيا وفي كل أوروبا. وغالباً ما يشعر القارئ بحنين شفيف لفترات الدراسة والصدقات التي نشأت وليالي الشباب والنقاشات الحامية والأصوات المرتفعة التي تعج بها المقاهي التي يؤمها الأجانب، والعرب منهم على وجه الخصوص. يمنحنا الكاتب هنا، وخاصة الشباب منا، فرصة الاطلاع على تلك الفترة وعلى بعض الأحداث ويستخلص منها الدروس دون أن يؤكد لها، فهي تصل إلى القارئ سلسلة دون أن تحمل معها عصا الواعظين.

يشتمل الفصل الثاني المكون من 100 صفحة على ستة أبحاث مهمة تعالج إشكاليات العرب والمسلمين في ألمانيا. الأول منها للمؤلف ويبحث في موضوع "المسلمون والعرب وإشكالية الاندماج في المجتمع الألماني ودور النخب العربية" في حين تعود بقية الأبحاث لكتاب وأساتذة مختصين ألمان قام المؤلف بترجمتها ونشرها، وأحياناً بالتعاون مع آخرين، لأهميتها لفهم إشكالية الإنسان العربي والمسلم في ألمانيا عن طريقة تفكير الألماني، والأوروبي عموماً، إزاء العرب والمسلمين في مجتمعاتهم.

يشكل بحث الدكتور حامد فضل الله أهمية خاصة لمعالجته الجيدة لموقف العرب والألمان من إشكالية الاندماج في المجتمع الألماني والمصاعب التي تعترض هذا الطريق والخشية المضخمة لدى العرب والمسلمين من فقدانهم للهوية العربية أو للهوية الإسلامية باندماجهم في المجتمع الألماني. ومع واقع وجود تمايز بين مصطلحي الاندماج والانصهار، فإن تلك الخشية غير المبررة تعرقل إلى حدود بعيدة عملية الاندماج الضرورية والملحة لكل الأجانب القادمين والقاطنين في ألمانيا لأن الاندماج هو الطريق الوحيد للعيش والعمل المشترك والتفاهم والتفاعل والتلاقح أو التأثير المتبادل بين الثقافة القادمة وثقافة أهل البلاد الأصليين، دون أن يؤثر ذلك سلباً على الهوية القومية أو الدينية للعرب والمسلمين أو على هوية وثقافة الألمان، إذ بين الألمان من يخشى على هويته الثقافية الألمانية، التي يطلق عليها بعضهم بالثقافة الأصلية والقائدة، من تأثير ثقافات الأجانب، وخاصة ثقافة ودين المسلمين والعرب. ولكن هذه المجموعة من الألمان

صغيرة عموماً وذات تأثير محدود في المجتمع الألماني، وأغلبهم من النازيين الجدد. إن المجتمع الألماني متعدد الثقافات (MultiKulti)، وأجبرت الأحزاب التي كانت تتشبث برفض ذلك على الاعتراف بذلك لأنها بحاجة إلى الأجانب، ومنهم العرب والترك والفرس وغيرهم لعدد كثير من الجوانب الاجتماعية والسكانية وغيرها.

إن البحث المنهجي والموضوعي الهادف الذي أنجزه المؤلف نتيجة خبرته وعمله في مجال حقوق الإنسان ومنظمات كثيرة أخرى وعلاقاته الواسعة بالألمان من خلال عمله كطبيب نسائية ومن خلال علاقاته الاجتماعية ومندمج إيجابياً بالمجتمع البرليني، يشير بوضوح إلى الخسائر الكبيرة التي يتحملها العرب والمسلمين حين يبتعدون عن الاندماج في مجتمعهم الجديد، سواء في جانب الحصول على فرصة عمل أو بالنسبة للعلاقات العامة أو تشكيل لوبي عربي من العرب الألمان للتأثير إيجابياً لصالح القضايا العربية في السياسة الألمانية، إضافة إلى تأثيره السلبي على لغة الأبناء والبنات من الأجيال اللاحقة.

وينطلق الدكتور حامد فضل الله من نقطة جوهرية في موقف الدولة والمجتمع في ألمانيا من الدين، وأعني بذلك تيقنه من علمانية الدولة والأحزاب والمجتمع في ألمانيا. فالدولة العلمانية والمجتمع الألماني المدني العلماني يحترمان كل الديانات والمذاهب وفي الوقت نفسه يفصلان بوضوح بين الدين والدولة وبين الدين والسياسة، وبالتالي فإن الدين بالنسبة للغالبية العظمى من الألمان لا يعتبر مشكلة بحد ذاتها، ولكنها يصبح مشكلة لهم ولغيرهم من القاطنين في ألمانيا حين يقترن بالعنف والدعوة البائسة والخطرة "للجهاد"، كما فعل بعض شيوخ الدين الترك أو غيرهم، أو ممارسة الدعاية الفجة لكسب الناس للإسلام أو ممارسة أساليب يرفضها المجتمع المدني العلماني الديمقراطي. إن هؤلاء الناس يذكرونني بشخصية دون كيشوت التي تعيش أوهاماً وتحارب الطواحين وتعتقد أنه جيوش جرارة لا بد من محاربتها وهي تحارب أتباع دينها الذي انحرقت عنه وغاصت في مستنقع التكفير.

إن معاشتنا للألمان سنوات طويلة تؤكد بما لا يقبل الشك إن الإنسان العربي والمسلم قادران على الاندماج بالمجتمع الألماني دون أن يؤثر ذلك على موقفهما من دينهما أو مذهبهما الديني أو قوميتهما التي ينحدران منها، فالمهم عند الإنسان الألماني وعند كل إنسان احترام أتباع الديانات والمذاهب والقوميات الأخرى تماماً كما يحترم الفرد دينه أو مذهب أو قوميته أو فكره..

لا يتحمل العربي والعربية أو المسلم والمسلمة وحدهم مسؤولية ضعف الاندماج، وإن كانوا يتحملون المسؤولية الكبرى، إذ إن سياسات الدولة الألمانية في السابق وإلى حد ما الآن تتحمل الجزء الآخر من



المسؤولية. فهي لم تبذل الكثير من الجهد في سبل تحقيق الاندماج، كما إن سياسات بعض القوى، كما في الحزب الاجتماعي المسيحي على نحو خاص، وبعض فئات المجتمع المناهضة للأجانب عموماً، والنازيين على وجه الخصوص، وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، لعبت وما تزال تلعب دوراً سلبياً في هذا الصدد. إن هذه الفترة خلقت ما يطلق عليه برهاب الإسلام أو الخشية منه (Islamophobia) نتيجة لتصاعد وتيرة العمليات الإرهابية، سواء تلك التي وقعت في أوروبا، ومنها إسبانيا، أو التي وقعت في الدول الأفريقية، نيروبي، أم في الدول العربية والتي تفاقمت خلال السنوات الأخيرة. وخشيتهم بالتالي ليست دون مبرر من المتطرفين بعد أن تطوعت مجموعة من العرب المسلمين أو من غير العرب من ألمانيا للوحدات الإرهابية لقوى القاعدة وداعش والنصرة في سوريا والعراق.

يقدم الدكتور حامد فضل الله بعض الحلول العملية لهذه المشكلة. ولكن لا يجوز المبالغة في حجم وتأثير هذه المجموعة في موقفها الخاطئ من الأجانب عموماً، ومن العرب والمسلمين خصوصاً، كما لا يجوز أن تكون السبب في عدم اندماج جماعات كثيرة من العرب والمسلمين في المجتمع الألماني.

إن العرب والمسلمين يعيشون في هذا المجتمع ومع سكانه الألمان وتقع على عاتقهم مسؤولية التعاون في إيجاد الصيغة المناسبة والضرورية للاندماج من جهة، والحفاظ على هويتهم القومية والدينية، وبتعبير أدق الثقافية، من جهة أخرى، إذ ليس هناك من يعترض على احتفاظهم بهويتهم الثقافية أو الدينية والقومية، إذ إن المجتمع الألماني يعمل على قاعدة مهمة جداً وصحيحة تماماً تقول بأن "الدين لله والوطن للجميع". وهذا يعني إن المجتمع الألماني علماني ديمقراطي متسامح يتجلى ذلك في ما أشار إليه الدكتور حامد في بحثه بصواب كبير حين كتب ما يلي: "يصل عدد المساجد والمصليات في ألمانيا إلى نحو 2300 مسجد ومصلى - أو 100 مسجد بالتعريف الكامل للمساجد. أول مسجد شيد في ألمانيا بالقرب من برلين وافتتح في 1915/6/13". (ص 91/90) ولم تتعرض هذه المساجد إلى التخريب أو الحرق في ألمانيا، في حين تعرضت مئات المساجد في الدول العربية والدول الأخرى ذات الأغلبية المسلمة إلى التخريب والحرق إضافة إلى حرق وتفجير الكثير من كنائس المسيحيين وقتل الكثير جداً من الناس على أيدي المتطرفين والإرهابيين ممن يدعي الإسلام ويرتدي عباءة المؤمن والمدعي بالتحري عن الثقافة التأصيلية أو السلفية المغرقة بالرجعية، كما جرى ويجري في مصر والعراق وسوريا على سبيل المثال لا الحصر.

ويذكر الدكتور فضل الله القراء والقارئات بمؤتمرات الحوار السنوية التي بدأت منذ العام 2006 بين الحكومة الألمانية ممثلة وزارة الداخلية ومنظمات إسلامية تمثل نسبة تقل عن 15% من المسلمين المقيمين في

ألمانيا من أجل تنشيط الفهم المتبادل والتحرّك صوب الاندماج والتعايش السلمي والديمقراطي في المجتمع الألماني. ويقدم الدكتور حامد رؤيته العملية والواقعية لسبل معالجة مشكلة الاندماج وتطور حالة التعايش الإيجابي في المجتمع الألماني، ومنها تعلم اللغة الألمانية واحترام الثقافة الألمانية بما فيها التقاليد والعادات والتراث الألماني وتكوين علاقات صداقة وتنشيط منظمات المجتمع المدني باتجاه الألمان والمجتمع الألماني والعمل في الصحافة والثقافة والأحزاب السياسية الألمانية وتشكيل لوبي عربي فاعل ومؤثر في ألمانيا لصالح القضايا العربية الأساسية والسليمة.

وتضمن هذا الفصل دراسات قيمة ترجمها الدكتور حامد فضل الله والدكتور عصام حداد تصب في معالجة إشكاليات مهمة منها مثلاً رأي البروفيسورة أنجليكا نويغرت التي تبحث في كون القرآن يشكل جزءاً من أوروبا كما هو حال التوراة والإنجيل، وبالتالي فالإسلام هو الآخر يشكل جزءاً من ديانات ألمانيا وأوروبا، وكذا فإن المسلمين والمسلمات يشكلون جزءاً عضويّاً من المجتمع الألماني وكذا الأوروبي، فهي مجتمعات متعددة الثقافات. إنها دراسة غنية ومهمة لواحدة من أبرز الباحثات والباحثين في ألمانيا وهي صديقة واعية للعرب والمسلمين.

وينشر المترجم فضل الله والمترجمة فريدة فضة للباحث البروفيسور هاينر بيلفيلد بحث مهم عن صورة الإسلام في ألمانيا وآخر عن "المسلمون في دولة القانون العلمانية". وهما بحثان أصيلان ومهمان لكل قارئ عربي ومسلم لأنه يعالج المشكلات بجدية وموضوعية عالية ومن منطلق الصداقة للعرب والمسلمين. وهكذا هو الموقف من بحث المواطن اللبناني الألماني الدكتور رالف غضبان حول الداعية الإسلامي طارق رمضان. ثم في هذا الفصل بحث للبروفيسور أودو شتاينباخ بعنوان الإسلام والحداثة، وآخر للبروفيسور كريستيان ترول بعنوان "الفكر التقدمي في الإسلام المعاصر" وكلها أبحاث تعالج المشكلات الراهنة التي تواجه العرب والمسلمين في ألمانيا وتستحق القراءة والمناقشة ولم تكن ترجمة هذه الأبحاث عفوية أو عبثية بل جدية لأنها تريد أن يتعرف العرب والمسلمين على كيفية تفكير العلماء الألمان والمجتمع الألماني حول قضايا الاندماج والإسلام والمسلمين. وعلينا أن نشير هنا إلى إن هؤلاء الباحثين هم من أصدقاء العرب والمسلمين ويسعون إلى إيجاد علاقة سليمة بينهم وبين الشعب الألماني الذي ينتمون إليه وإلى فتح الأبواب أمام العرب والمسلمين لمعالجة قضايا القرآن والإسلام وغيرها بروح نقدية واعية وعقلانية، كما تجري الأبحاث في ألمانيا أو في أوروبا دون قيود أو حدود كما هو حال البحث العلمي المتخلف والمقيد باستبداد النظم الحاكمة في الدول العربية أو في الدول ذات الأثرية الإسلامية، وخاصة الأبحاث في قضايا الإسلام والمسلمين، فهي من

المحرمات. ويمكن أن نشير هنا إلى حالة القيود الظالمة التي تفرض على البحث العلمي وعلى دخول الكتب إلى القراء العرب في الدول العربية من خلال الإشارة إلى منع واحد من أبرز الكتب العربية الصادرة في نهاية العام 2013 المتسم بالعلمية والموضوعية والجدلية في البحث العلمي، وأقصد به كتاب العالم السوداني البروفيسور الدكتور محمد أحمد محمود الموسوم "نبوة محمد: التاريخ والصناعة، مدخل لقراءة نقدية"، هذا السفر الجليل الذي يجسد العقلانية والموضوعية في البحث الجدلي العميق والدقيق والمعتمد على مئات المصادر والمراجع المشهود لها بالتوثيق.

أما الفصل الثالث فيشتمل على عدة مقالات احتلت حوالي 80 صفحة من الكتاب. وأول هذه المقالات قراءة للدكتور حامد فضل الله في كتاب محمد محمود شاويش الموسوم "تحو ثقافة تأصيلية". وقد تسنى لي أن أحضر ندوة عرض هذا الكتاب ببرلين ثم قرأت الكتاب ذاته وكتبت عنه دراسة نقدية واسعة منشورة في موقع الحوار المتمدن ومواقع أخرى. وقد اشتركنا في الموقف من مضمون هذا الكتاب بشكل عام. واختلفنا في بعض جوانبه، إذ قيمته بأنه كتاب يجسد الخشية الكبيرة من الحضارة الغربية رغم اعترافه بمنجزاتها، كما إنه كتاب تعميبي يفتقد الكثير من الموضوعية والعلمية، إنه ذو نزعة صارخة ضد الغرب والحضارة الغربية، كما يبدو لي غاص في الفكر السلفي المتخلف جداً والبعيد عن واقع الحياة المعاصرة والتغيرات الحاصلة في المجتمعات البشرية. إنه نص لا يمت إلى الواقع بصلة ولا يبحث عن ثقافة تأصيلية بل ثقافة سلفية صفراء ويؤكد على إن القرن العشرين هو قرن الاستلاب الفكري والثقافي للعرب من طرف الغرب. وهو خطأ فادح يرتكبه السيد شاويش حسب تقديري. يسجل الدكتور حامد فضل الله ملاحظات ذكية على كتاب السيد شاويش ويذكر النص الآتي ضمن مجموعة من الملاحظات النقدية للكتاب التي أويدها: "بالرغم من الغيرة القومية والتباهي بالذات في أكثر من موضع في الكتاب والتمسك الذي يكاد يصل إلى حد التعصب للخصوصية والهوية أحياناً. والأحكام المطلقة دون تبصر مسألة بالغة الخطورة...". وهي السمة الأساسية لكتاب السيد شاويش.

ويتضمن هذا الفصل العديد من الدراسات عن سمير أمين، الاقتصادي المصري المتميز بكتاباته وتنظيراته الجريئة عن الرأسمالية واقتصاديات ومجتمعات الدول النامية وقدراته العلمية الفذة. وقد حاز على جائزة ابن رشد للفكر الحر باستحقاق كبير، وهو شخصية عالمية ومعروف في الأوساط الألمانية، وخاصة التقديمية منها وعلى مستوى المختصين. كما نجد دراسات أخرى مهمة منها عن دور العرب في الحرب الأسبانية ضد

الفاشية الفرانكوية وعن السودان والجبهة القومية السودانية ومقال عن الجبهة الإسلامية القومية الانتهازية في السودان بقلم المؤلف د. حامد فضل الله.

أما الفصل الرابع فيتضمن دراسات مهمة لكتاب ألمان عن الروائي السوداني الكبير الطيب صالح تستعرض فيها أهمية هذا الكاتب المقيم في بريطانيا والقادم من أفريقيا السوداء والمالك لزماد اللغة العربية والقدرة على تصوير الأشخاص والولوج في دواخلهم والتعبير عن أفكارهم ومشكلاتهم وأفراحهم وأحزانهم وتقاليدهم وتراثهم الشعبي وطموحاتهم بصدق وأمانة وحرص كبير. وتحتل رواياته الثلاث "موسم الهجرة إلى الشمال" و"عرس الزين" و"بندر شاه" مكانة خاصة في رؤية الكتاب الألمان له وما ترجم من رواياته إلى اللغة الألمانية. إنها جدرة بالقراءة للإطلاع على كيفية تقييم الكتاب الألمان، بمن فيهم البروفيسورة الدكتورة روتراود فيلاندر والبروفيسور الدكتور هانز بيتر كونش والدكتور لودفيج أمان وقراءاتهم لهذا الروائي المتواضع والكبير في آن. وعلينا هنا أن نتذكر الدراسات الأدبية النقدية القيمة التي كتبها وحاضر بها عدد كبير من الأدباء والكتاب العرب في يوم الاحتفاء بذكرى واحد من عباقرة الرواية العربية، الذي دخلت رواياته ضمن القائمة الذهبية لأفضل مائة رواية في تاريخ الأدب الروائي العالمي. (خالد موسى دفع الله، مقدمة كتاب الطيب صالح للأستاذ خالد موسى دفع الله. وقائع ندوة أدبية ببرلين وفاء لذكرى عبقرى الرواية العربية الطيب صالح. عزوي ميديابرنر، برلين. إصدارات سفارة السودان. برلين 2012، ص 7). ومن بين تلك الدراسات نشرت دراسة مهمة للشاعر والأكاديمي والكاتب الأستاذ الدكتور حميد الخاقاني بعنوان الطيب صالح ومعضلة الهوية. وهي تتضمن تحليلاً علمياً وأدبياً قيماً دقيقاً للكاتب ولكتاب "موسم الهجرة إلى الشمال". أما الدكتور حامد فقد كانت له كلمة الافتتاح ثم دراسة بعنوان الطيب صالح بعيون الألمان. (المصدر السابق، ص 39-54).

وفي هذا الفصل نلتقي بمقالين للمؤلف الدكتور حامد فضل الله أحدهما يبحث في الكاتب الديمقراطي السوداني المعروف الدكتور حيدر علي إبراهيم وكتابه القيمة في قضايا الإسلام وحقوق الإنسان والمجتمع المدني الديمقراطي، وعن مجلة "كتابات سودانية" التي كان يصدرها، وخاصة أبحاثه القيمة في قضايا الإسلام والعلمانية وموقفه الثابت إلى جانب حرية الفكر والكتابة النقدية في قضايا الديانات دون قيود أو شروط وموقفه المدنية أو العلمانية. والمقال الثاني يركز فيه المؤلف على أدب الحوار في نقد بعض الكتابات التي هاجمت كتاب الأستاذ الدكتور محمد محمود الصادر بلندن في العام 2013 والموسوم "نبوة محمد التاريخ والصناعة، مدخل لقراءة نقدية" وهاجمت من كتب عن هذا الكتاب ومنهم الأستاذ الدكتور حيدر علي إبراهيم.

وكان الدكتور حامد فضل الله على حق كبير في نقده للدكتور محمد وقيع الله بشكل خاص والسيد خالد موسى اللذين اتهما الكاتب والكتاب من يسانده بالإلحاد، في حين أن الكتاب لم يتطرق لموضوع الإلحاد بأي حال بل استعرض الأحداث والوقائع التاريخية من مراجعها ومصادرها الأصلية. وقد تسنى لي أن أقرأ هذا السفر النفيس وأكتب عنه مقالاً نشر في مواقع الحوار المتمدن وصوت العراق والناس ومركز النور وغيرها. وبسبب خروج بعض الكتاب في نقدهم للدكتور محمد محمود وإبراهيم حيدر عن أدب الحوار كتب الدكتور حامد فضل الله مقالاً تحت نفس العنوان جاء فيه ما يلي: "إن عفة اللسان والتربية واحترام شعور القارئ الذي ربما لم يطلع على مقالات د. محمد وقيع الله تمنعني أن أرد له الكلمات الجارحة والمخجلة التي وصف بها الأستاذين الفاضلين محمد وإبراهيم". ثم يواصل فيكتب "إنني لم التقي بعالم يثق بنفسه وعلمه إلا وكان متواضعاً ومحترماً لرأي الآخر". (ص 306). ونحن نردد دوماً إن "من زاد علمه زاد تواضعه، ومن زاد جهله زاد تعاليه". وهناك حكمة مندائية رائعة تقول: "ويل لعالم لا يمنح من علمه وويل لجاهل منغلق على جهله". إن الاتهام بالكفر والإلحاد سمة المتخلفين والعاجزين عن خوض الحوار والنقاش الفكري الموضوعي، سمة الخاسرين.

وأخيراً يستعرض المؤلف في مقال مهم عن محاضرة "ما بين الباريسي والبدوي" للأستاذ الدكتور جليبير أشقر حول كتابه "صدام الهمجيات"، ومحاضرة الأستاذ أصلان عبد الكريم الذي كان مسجوناً لستة عشر عاماً في سجون الدكتاتورية السورية في عهد الدكتاتور حافظ الأسد. وقد تركز النقاش بين المحاضرين حول دور الماركسية والفكر القومي والبرجوازية الصغيرة في الدول العربية. وقد اختلفا في التقييم والتقييم. لقد تركت سنوات السجن الموحش والظلم الجارح آثارها على رؤية الكاتب السوري وعلى استنتاجاته الفكرية والسياسية.

ويتضمن هذا الفصل قراءة المؤلف لرواية صدرت في ألمانيا وباللغة الألمانية للكاتبة غونر ياسمين بالشي، وهي من أصل لبناني وتركي مختلط، تدور أحداثها عن صبي تركي متمرد على المجتمع والتقاليد وناقم ويمارس الكثير من الموبقات ابتداءً من السطو والسرقة إلى ممارسة القسوة في التعامل مع التلاميذ والقضايا الأخلاقية، إلى المخدرات... الخ وكثيراً ما دخل السجن، إنه صبي عربي شقي يعيش ببرلين. إنها رواية واقعية يأخذ الدكتور حامد على الكاتبة أنها قدمت نموذجاً سيئاً لا يمكن تعميمه فهناك نماذج أخرى حسنة لصبيان من الشرق العربي أو من تركيا وغيرها. ولكن السؤال هو: هل قدمت الكاتبة هذا الصبي نموذجاً للصبيان العرب أو الترك في ألمانيا؟ لا اعتقد ذلك. ويفترض أن نقول بأن هذا النموذج موجود حقاً في الحياة اليومية وهي تصف مقطعاً مهماً من حياة جمهرة غير قليلة من حياة الصبيان القادمين من الشرق أو

المولودين في ألمانيا ولكنهم يعيشون الحياة الشرقية في بيوتهم وفي الأزقة التي يلعبون فيها مع أقرانهم. وهي لم تقدم صورة نمطية مسبقة الصنع عن هذا الصبي وصبيان آخرين، كما إن الكاتبة لم تعمم هذه الصورة وتركت مجالاً لنماذج أخرى صالحة ومجدة، وهي تمثل الأكثرية. إن الكتابة النقدية عن النماذج السيئة والمخلة ضرورية جداً لإبراز الآثار السلبية لهؤلاء على الموقف من العرب والمسلمين بألمانيا وأوروبا وعلى مستقبل هؤلاء الصبية في المجتمع الألماني شريطة أن لا يصار إلى تعميم هذه الحالة، وكأنها النمط الوحيد الموجود. والكاتب بالشي لم تفعل ذلك.

وأخيراً يطرح المؤلف مجموعة قليلة من القصائد التي قام المؤلف بترجمتها لشعرا عرب وألمان ومنها قصيدة أدونيس وبرتولد بريشت، والأخيرة ذات أهمية كبيرة في فهم طبيعة النظم الاستبدادية. وهي قصائد مختارة بعناية لأهميتها للقارئ والقارئة من الدول العربية. وأخيراً نقرأ مقالاً مهماً للمؤلف عن المريد البرليني للطبيب صالح (مفتوناً وراوياً وباحثاً) يتحدث فيه عن رسالة دكتوراه قيمة للباحث أمير أحمد علي ناصر عن الطبيب صالح وأدبه وأثر البيئة الداخلية على كتاباته.

أما الفصل الخامس فيتضمن مقالات عديدة للمؤلف تدور حول عدد من أصدقائه وهي مماثلة لما يطلق عليه في الشعر العربي بـ "الإخوانيات". وهي عبارة عن انطباعات شخصية عن عدد ممن رافقه في فترات مختلفة في العديد من المناطق ومنها برلين. يجد القارئ فيها كفاءة وقدرة المؤلف على التشخيص وتسجيل الانطباعات الإنسانية عن علاقاته العامة. وتجد هنا روح المحبة والتسامح والتفاعل مع الأصدقاء، وإذ يبتعد عن النواقص يلتصق بالحديث عن حسنات الأصدقاء، وفي هذا يأخذ بقول الشاعر العربي العباسي بشار بن برد:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً \* \* \* \* \* صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه

أما الفصل السادس والأخير فيتضمن مجموعة من قصصه القصيرة الذكية في التقاطه للأحداث وقدرته على التعبير المكثف عما يسعى إليه، وهي مستلة من حياته كطبيب سوداني في ألمانيا ومن طرائف الحياة اليومية وما واجهه هو كسوداني عربي أفريقي أسمر البشرة أو غيره في المجتمع الألماني. وقد أعجبت كثيراً بهذه القصص وقرأتها بلذة وابتساماً تحوم على شفتي لصدق ما جاء فيها. إنه كاتب قصة قصيرة يمتلك ناصية فن القصة القصيرة وناصية اللغة والقدرة الباهرة على تكثيف الكلمات لمعاني كثيرة.

ثم يتضمن الكتاب بعض القصص التي كتبها باللغة الألمانية وقد حصدت إعجاب زوجتي الألمانية ومن قرأها من الألمان حسب علمي وتتبعي.

لقد قدم المؤلف كتاباً قيماً عن حياة العرب والمسلمين ومشكلاتهم في برلين وفي عموم ألمانيا وعن القضايا التي تشغل بال العرب والمسلمين والألمان في آن واحد وعن مشكلة الاندماج والمخاوف من الإسلام (Islamophobia) والمسلمين الذكور وقدم تحليلات عميقة لهذه القضايا وحلولاً تستوجب المناقشة والأخذ بالكثير منها لصالح العرب والمسلمين في ألمانيا.

تحية لكاتبنا المبدع ونأمل أن نقرأ له المزيد في المستقبل ونأمل أن يجلب انتباه العرب والمسلمين في ألمانيا وغيرها، إذ إن المؤلف شاهد مهم وكيس وعميق في رؤيته لأحداث العصر الذي نعيشه في ألمانيا وبرلين.

كانون الثاني/يناير 2014

قراءة في كتاب [هروب موناليزا "بوح قيثارة"] للشاعرة بلقيس حميد حسن



الكتاب: هروب موناليزا، بوح قيثارة

الكاتبة: بلقيس حميد حسن

دار النشر: دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع

مكان النشر: بغداد

تاريخ النشر: طبعة أولى، 2013

عدد الصفحات: 275 صفحة

صدر حديثاً للشاعرة المبدعة وعاشقة الحب والحياة بلقيس حميد حسن كتابها الجديد أو كما ثبت على الغلاف الأول "سيرة ذاتية للكاتبة ولنساء عرفتهن في طريق الحياة"، وهو يجسد مجرى مسيرتها الحياتية والنضالية ومن عرفتهن في طريق النضال الطويل. فماذا حمل إلينا هذا الكتاب الجديد وهي الشاعرة المبدعة التي أتحفتنا بجميل شعرها، بباقات من شعرها الفواح بعطر الحياة وسحر الحب والجمال ورقة الكلمات.



حين كنت في هولندا للمشاركة في احتفال تكريم الصديق العزيز والكاتب البارز الأستاذ جاسم المطير، أهدتني الشاعرة والصديقة العزيزة لي ولأم سامر كتابها الجديد، وكانت هدية جميلة فشكراً لها ولهديتها.

تتميز بلقيس بتعدد المواهب والكفاءات، فهي شاعرة موهوبة ومبدعة ورقيقة، تمتلك صوتاً غنائياً منعشاً ومشغلاً للأسماع ورقصها ساحر وأناقته وذوقها في اختيار ملابسها يتسم بالبداعة ويعبر عن حس مرهف للألوان وتناسقها أو علاقاتها المتبادلة، ولها طابع تغري الإنسان بحبها، إنها باختصار امرأة، نفاذة لا تنسى وجميلة في آن.

سمعتها تشدو شعراً لها بصوت غريد سحرتني وسحرت من استمع إليها من النساء والرجال الذين طلبوا المزيد فزادت باستحياء ولكن مقرونة بالثقة بالنفس، إذ كانت تصدح بأبيات من شعرها الرشيقي والرقيق، الحزين أحياناً والسعيد الضاحك المقهقهه أحياناً أخرى، العاشق حتى الثمالة أو المنكوب بعشقه، التأثير كبحر هائج، والهادئ كخير المياه في نهر صغير، إنها النسמת الصباحية المنعشة والمحفزة للحياة.

قرأت لها مقالات فتعلمت منها أسلوبها وعمق مضامينها ومفرداتها وسعة افقها ورقة أحاسيسها وجميل قولها.

تحدثنا فكانت غزيرة بمعارفها العامة وحافظة كبيرة للشعر وذات اطلاع واسع وقدرة غنية على تبادل الرأي والحوار بتواضع جم، تملك روح النكتة وقادرة على الضحك على نكتة أو موقف يخصها.

نشأت في بيت شعر عاشق وحافظ للشعر. الأب، الذي أصبح نموذجاً للطفلة والصبية والمرأة الناضجة بلقيس، كان يدفع بها وبأخيها إلى حب وحفظ الشعر العربي والتمتع به وفهم معانيه وفك رموزه. لقد نقل حبه للشعر وموهبته في حفظه لابنته وابنه، رغم اختلاف المشارب، إلا حفظ الشعر ونظمه، وأن اختلفا في الفكر والاتجاه والمضمون والمنحى العام.

قرأت لها أخيراً سيرتها الذاتية التي أسمتها هروب موناليزا "بوح قيثارة"، إنه عنوان جميل لقصيدة أو أغنية أو قصة أو سيرة ذاتية تسجيلية وتحليلية ذكية، وكانت الأخيرة. إنها بوح ونوح ومسرة قيثارة في آن، هي لوان قرحبية متناسقة، إنها أغصان جميلة معطاءة مطعمة بشجرة غريبة، ذات ثمار كثيرة، على وفق تعبير الشاعر صلا نيازي الذي عنون سيرته الذاتية بكتاب "غصن مطعم بشجرة غريبة"، إنها شجرة الناصرية ذاتها، المدينة التي ولدت فيها وولد فيها قبلها الشاعر المبدع صلاح نيازي. إنها مزيج من مشاهد كثيرة يصلح بعضها الكثير أن يمثل على المسرح بعد أن وقعت أحداثه في الواقع المعاش ولم تنقطع عن مسرح الحياة الفعلي.

إنها رواية تسجيلية لسيرة ذاتية وسيرة مطعمة بسير أخرى يشتهب القارئ لأو القارئة لها، أو قل إنها أرادت لهما ذلك، أن تتمشكل عليهما اللوحة وكأنها تقول لهما إنها أنا بلحمي ودمي وأعصابي، عشقي وجنوني في الحب والهوى، وإنها هي تلك المرأة التي تتصورونها، أو إنها هن كلهن فلا فرق في ذلك.

قبل أن أبدأ بمطالعتها قال لي الصديق الأستاذ فارس الماشطة إنها روايتها الأولى، وهي بديعة بانتقالاتها الرشيقة من وتر إلى آخر، من موقف إلى آخر، من الطفولة البريئة إلى الصببية اليافعة، إلى السياسية الثائرة، إلى النساء الرفيقات المعتقلات المعرضات للتعذيب الهمجي في سجون النظام، إلى شرطة الحدود وقرارات منع الناس من السفر المخالفة لأبسط حقوق الإنسان، وطيبة الشرطي أو رجل الأمن الذي لم يعتقلها وتركها تعود إلى بغداد، ثم الهروب بجواز مزور عبر الحدود العراقية والغربة، إلى الحديث عن الحب والحياة المنعشة، إلى سلخ سلوك الفحولية المزيفة لدى الذكور التي تستحق الجلد، إلى الرجل الذي أهمل زوجته وراح يلوط بالصغار من الأولاد وكيف يقنعهم بإدخال سهل غير مؤذٍ، إلى الرجل الذي يغشى زوجته ولا يعرف الوفاء لحبيبته ولا لزوجته، إلى الحنين الطاغي للوطن وملاعب الأطفال رغم المآسي التي يعيش تحت وطأتها الناس بالبلاد، إلى الحوار مع الأب الذي لن يعود، الأب المغرم بأبنائه والشعر وبالبنات الشاعرة المغرمة بأبيها أيضاً، إلى الأم الطيبة التي تخشى على ابنتها من أي تنوير نسوي، إلى اللعب بالعصفور من طفل صغير ومن ثم من رجل محروم ومكبوت إلى حد اللعنة في مجتمع ملعون بالمحرمات، وخاصة الاختلاط بالمرأة.

ثم قرأت الرواية واعدت قراءة بعض أوتارها. القارئ المتعجل سيجد فيها متعة جنسية في مشاهد معينة لا غير، وربما البعض الآخر سيجد فيها الشطط عن المقبول والمعقول في مجتمع متخلف مصاب باللعنة، عندها سيخرج باستنتاج متعجل أيضاً. وهو أمر طبيعي. ولكن القارئ المتمعن والمتأن سي طرح على نفسه السؤال التالي: هل هذا هو هدف الرواية؟ ليس هذا هو الهدف، حسب قناعاتي، ولكنه يحقق جانباً مهماً منه، لأن الحب هو الحياة والعشق أو الهيام بكل أنواعه، هو غاية الإنسان في الحياة وجوهر وجوده، وهو من خصائص الإنسان وطبيعته بالفطرة. لهذا لا أشك في أن تتمتع القارئة ويتمتع القارئ وهما يقرآن رواية هروب مونا ليزا (بوح قيثار) بوقت جميل والشعور بأحاسيس جياشة ورغبة داخلية في التعبير عن الذات أيضاً. ومن جانبي فقد تمتعت حقاً بها وبأوتارها ومشاهدها. ولكن السؤال الذي طرحته على نفسي هو: ما هي الخصائص التي ميزت هذه الرواية أو السيرة الذاتية للشاعرة الحاملة والمتميزة دوماً بحب الإنسان والحياة؟ أود أن الخص ما تلمسته أثناء القراءة بالنقاط التالية:

إن الرواية جسدت رغبة جامحة لا يمكن إيقافها في التعبير عن الذات، في الكشف عن المكنون، في وضع ما يسمى بالحياء المفتعل جانباً، في قول ما يجب أن يقال بكل شفافية وصدق وأمانة بالغة مع النفس والقارئة والقارئ. إنها الصراحة التي تجعل كل كتاب مرغوباً ومطلوباً ومقبولاً.

والرواية تسجل شاعرية الكاتبة بلغتها الرشيقة والرقيقة التي استخدمتها في انجاز تلك الأوتار الصداحة بالحزن والفرح والألم الدفين والرغبات الجامحة والشبق الذكوري أو النسوي الشديد. إنها شفافة ورقيقة حتى في المواقع التي تتحدث فيها عن القسوة كما عبرت عنه وهي في بيت عائلة رجل الحدود الذي منعها من السفر ولكنه لم يسلمها لقوى الأمن، إنها التفاتة إنسانية لم تفت على شابة ذكية وجميلة مثل بلقيس رغم خشيتها من نظرات الرجل الشرقي المغرم بعصفور المرأة لا غير، على حد تعبير الأستاذ الكاتب والساخر خالد قشطيني (أبو نايل) في واحد من مقالاته الغزيرة بالمعلومات والسخرية، وأن سما العصفور الطفولي باسمه الأصلي.

والرواية تكشف بلا رحمة عن المكنون والمخفي أو "السر" المعلن في المجتمع، عن حقيقة وسلوك الناس، عن الازدواجية المرضية التي تفرضها تقاليد وعادات وتربية المجتمع، عن المشاعر التي يخفونها ويخشون الإعلان عنها، عن شتمهم للواط وممارسته على أوسع نطاق، عن رفض السحاق وممارسته على نطاق واسع، عن بؤس وفاقة الفكر والعقل في المجتمع الإسلامي المأزوم دوماً والخالق للبشرية أزمت غير قليلة.

إنها تكشف بإصرار صارخ وموضوعي مطلوب عما كانت تعيشه وتحسه وهي صبية يافعة، كيف كان البعض يتعامل مع براءتها بسبب الكبت الذي كان يعيشه الجار الشاب أثناء مشاهدة التلفزيون والتي تجسد ذلك الكبت الذي يعاني منه الرجل في مجتمع لا يقدس ولا يجد غير منع الاختلاط وحماية العصفور، حسب تعبير بلقيس، إنه الشرف المزيف للعائلة والمجتمع في وقت تدنس الأنظمة العائلة والمجتمع بشتى الموبقات يومياً. إنها اللعنة حقاً، إنه الجذام الذي أصيبت به المجتمعات الإسلامية، ومنها الإسلامية العربية.

والرواية تعبر ببساطة وعفوية منشودة عن العلاقة الملتبسة دوماً، العلاقة بين القاهر والمقهور، بين السلطة والمواطن والمواطنة، بين سلطة تريد له أن يعيش تحت هيمنتها وظلمها وقهرها واستغلالها وفسادها وإرهابها وقمعها، وبين مواطن يريد ببساطة العيش بكرامة وحرية واستقلالية. والمحصلة لهذه العلاقة هي الانتفاضات والرفض الشعبي والثورات، والتي يمكن أن ترتبط بإعدامات وقتل وسجون وتعذيب الذي يصيب ولا يرحم حتى الأطفال والشيوخ والمرضى، دع عنك الرجال والنساء.

وتقدم الرواية لوحة واقعية عن المهاجرين من بلاد الشرق إلى بلاد الغرب، من بلاد التخلف والحرمان إلى بلدان التقدم والحرية والمشكلات التي يعانون منها في مختلف المجالات، ومنها الجنس والعلاقة بين المرأة والرجل. الواقع الذي أعرفه ان نسبة عالية من العراقيات والعراقيين قد تركوا أو طلقوا زوجاتهم أو أزواجهن، وإن علاقاتهم بالنساء الغربيات محفوفة بالمخاطر. تحدث لي صديق تعرف على امرأة غربية صادقها بعد أن غادر العراق وكان محروماً من النساء سنوات طويلة وربما كل عمره، فما كان منه إلا أن يحبها أو يدخل فيها أكثر من مرة في اليوم الواحد فصبرت عليه ثلاثة شهور صعبة وقاسية حتى أعلنت إنها غير قادرة على العيش على رجل لا يعرف غير الجنس فتركته، فصادق غيرها وسار على نفس الدرب المعوج فتركته بعد شهر واحد لا غير. إن هذا الصديق ليس الوحيد في هذا الأمر، فالكثير من الرجال الشرقيين، وخاصة المسلمين، يقعون في هذه المزية السيئة بسبب الكبت والحرمان وغياب العلاقة الطبيعية بين المرأة والرجل.

إلا إن السمة المميزة لهذا الكتاب تبرز في طرح الكاتبة وتبنيها الصادق والدائم للموضوع الأساسي في حياة مجتمعاتنا بالعراق والدول العربية وبالدول ذات الأثرية المسلمة، وأعني به حقوق المرأة وحريتها ومساواتها التامة بالرجل ونضالها المستديم من أجل هذه الغاية. في أغلب صفحات هذا الكتاب يشعر القارئ أو القارئة بأنهما أمام صورة المرأة المغدورة بحقوقها وحريتها وكرامتها لا بسببها بل بسبب موقف المجتمع والقوانين والأعراف والتقاليد البالية والذكور من المرأة التي لم ينصفها الإسلام ومنحها نصف حق الرجل في الميراث وأطلق عليها ناقصة العقل والدين... الخ من الترهات التي تتناقض مع دور وقدرات وكفاءات وحقيقة المرأة وتتعارض معها. وفي الكتاب صرخة مدوية ضد هذا الواقع المزري الذي تعيش المرأة تحت وطأته، وهي التي تقدم النموذج المتفتح والمنفتح على الحرية والثقافة والحضارة الحديثة. هذا هو من حيث الأساس جوهر الكتاب ومضمونه.

ويتجلى ذلك في التحليل الواقعي لشخصيات الرواية، سواء لشخصها أو لتقصصها شخصية سومر أو تقمص سومر شخصيتها، والأمر في المحصلة سيات. إذ أن التحليل الاجتماعي والنفسي الذي تقدمه عن امرأة شرقية مغرمة مولهاة برجل شرقي متزوج من امرأة غربية غنية، متسلطة بمالها ورصيدها في البنك وحقوقها كزوجة، يجسد من جهة عند سومر القلق والتردد والخوف والغيرة وآلام الحب والسهر والانتظار الذي يقارب الموت التدريجي، ويجسد من الجهة الأخرى عجز الرجل الشرقي وفقدان حريته إزاء اتخاذ قرار حاسم بين زوجته المعلن عنها وزوجته السرية. إنها الخشية منها ومن غياب النعيم المالي الذي يعيش في ببحوثه، وليذهب الجميع إلى الجحيم. إنه رجل مسكون بشهوته الجنسية، يأتي متى تورقه هذه الشهوة، ومتى لا

تكفيه أو لا تشبع غريزته المرأة القديمة، وليس للمرأة الثانية سوى فتح ساقها له ليشبع تلك الغريزة ويغادر المنزل ليعود متى شاء هو وليس متى تشاء هي، إذ ليس لها، أو للمرأة في قاموسه الذكوري من حقوق ومصالح. إن الصراع الداخلي الذي عاشته سومر يدمر وضعها النفسي ويزيدها تعقيداً، كما يجسد أوضاع المرأة الشرقية وحالتها النفسية ليس في حالة واحدة هي الزواج من رجل متزوج، فهذه الحالة نموذج لأوضاع أخرى تعيشها المرأة كفرض الزواج على شابة ما تزال في مرحلة بين الطفولة والصباء من رجل بلغ سن الشيخوخة والكهولة... الخ، أو التزويج كصتة بگصة... الخ.

وأخيراً يقدم الكتاب لوحات جميلة عن حب إنساني عميق، عن تفاعل روحيين وجسديين في حركة واحدة تعبر عن نوبانها في لحظة هائلة.

أتمنى أن يتسنى للجميع قراءة هذا الكتاب ليجدوا في المتعة والثقة في أنفسهم والجرأة في التعبير الحضاري والإنساني عما يشعرون به ويتمنون ممارسته.

كاظم حبيب

2013/10/1

## قراءة في مسرحية "ثور فالارس" للكاتب والصحفي ماجد الخطيب



الكتاب: مسرحية ثور فالارس

الكاتب: ماجد الخطيب

الطبعة: الأولى 2013

دار النشر: المطبعة والوراقة الوطنية

مكان النشر: مراكش

عدد الصفحات: 85 صفحة

صدرت في خريف هذا العام مسرحية جديدة للكاتب المسرحي والصحفي ماجد الخطيب، وهي المسرحية السابعة التي تصدر له خلال السنوات القليلة المنصرمة. وفي العديد من مسرحياته، كما في مسرحيته الجديدة يعالج الكاتب موضوع العلاقة بين المثقف والسلطة، وهو الهاجس الذي يهيمن على الغالبية العظمى من مثقفي ومثقفات العراق بسبب طبيعة السلطة على امتداد القرون المنصرمة لا بالعراق حسب، بل وعلى الصعيد العالمي. فهي إشكالية قديمة قدم نشوء السلطة ووجود معارضة فكرية

وسياسية لسياسات ومواقف السلطة، إضافة إلى وجود جمهرة من المثقفين الذين كانوا وما زالوا يطرحون وجهات نظرهم في ما يجري في أوطانهم مما يفتح باباً للصراع مع السلطة التي لا تريد أن تسمع الحقائق ولا تريد أن تسمع صوتاً غير صوتها ولا تريد أن تقرأ غير الذي يمتدح أفعالها. والدول العربية والإسلامية كلها دون استثناء تعاني من ظاهرة العلاقة المتوترة والمتصارعة بين المثقفة والمثقف من جهة، والسلطة السياسية أو الدكتاتورية الحاكمة من جهة أخرى. وكما كانت صائبة الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي حين كتبت في روايتها الأولى "ذاكرة الجسد" جملة معبرة وصادقة عن واقع حال الأنظمة العربية، وأضيف من جانبي والأنظمة في الدول ذات الأغلبية الإسلامية وغالبية الأنظمة في الدول النامية، ما يلي:

"يقضي الإنسان سنواته الأولى في تعلمه النطق، وتقضي الأنظمة العربية بقية عمره في تعليمه الصمت". وأضيف هنا أيضاً، بل وكثيراً ما تقتله!!

والحكام في هذه الدول لا يريدون التعلم من دروس الماضي ولا من الحكم التي طرحها الكثير من الشخصيات الواعية وبعض الحكام العقلاء في العالم المتحضر عن دور المعارضة والمثقفين في الحياة العامة وعن أهميتها في إنارة طريق الحكام.

مسرحيات ماجد الخطيب لا تعالج التناقض الرئيسي بين المثقف أو المثقفة والسلطة حسب، بل تطرح بوضوح صراعات أخرى مهمة بين المثقف والمثقف، أو بين الأنا والآخر في واقع العلاقة في ما بين المثقفين أو المثقفات أنفسهم، وكذلك في الصراع الداخلي الذي يخوضه المثقف مع نفسه حين يفرض عليه الواقع اتخاذ موقف معين أو كتابة نص معين. وإذا كان هذا الصراع موجود منذ آلاف السنين، فهو اليوم أكثر بروزاً وأكثر خطورة على الثقافة والمجتمع وعلى حياة المثقفات والمثقفين بالدول العربية وبالعراق ذاته.

إن متابعة الحياة اليومية للفرد والمجتمع من جانب المثقفات والمثقفين المبدعين، وخاصة العضويين منهم الذين يشعرون بالتزام معين إزاء مجتمعاتهم، تفرض عليهم أن يطرحوا معاشيتهم لهذا الواقع وما يشعرون بهم وما يحركهم للكتابة وصياغة نص أدبي، سواء أكان النص شعراً أم قصة أم رواية أم مسرحية أم نقداً أدبياً، أم لحناً موسيقياً أم أغنيةً أم لوحةً تشكيلية أم نحتاً. وحين يبدأ المثقفون والمثقفات بالعمل لتجسيد ذلك يجدون أنفسهم أمام تلك المجموعة من الصراعات، سواء أكان الصراع مع السلطة، وهو الأكثر خطورة، أم الصراع مع المثقف الآخر في مواقفه ورؤيته للأمر وعلاقته بالسلطة،

أم مع نفسه في حواراته الذاتية وفي مدى قدرته على تحمل ما يمكن أن ينشأ في أعقاب الانتهاء من العمل ونشره. وغالباً ما يصطدم المثقفين بمجموعة من وعاظ السلاطين التي تحاول التويش الدائم على أعمال العناصر المثقفة في المجتمع بمدح السلطان وأفعاله مهما كانت بائسة ومذلة للفرد والمجتمع، ومهما كانت مستبدة وظالمة.

هذه الموضوعات المتعددة الجوانب والمليئة بالحوارات المتبادلة أو الحوارات مع النفس هي موضوعات ماجد الخطيب، هي شاغله الشاغل. لهذا تراه ينقب في كتب التاريخ ويتعقب كل ما يمس هذه القضايا بصلة، سواء أكان في تاريخ العراق والشعوب العربية أم الشعوب الأفريقية أم في العهود السالفة في الإمبراطوريات القديمة وقبل الميلاد، كما في مسرحيته الجديدة الموسومة "ثور فالارس" الذي يتخذ من حكاية قديمة ليعيد قراءتها في مسرحيته وعبر تصوراتهِ للحوارات الدائرة فيها، إنه يشدها بقوة ووضوح إلى التاريخ العربي والإسلامي القديم والحديث. ومن هنا تبرز أهمية مسرحياته التي تستوجب معرفة بالتاريخ والأحداث لكي يتمكن القارئ أو القارئة شد بعض أحداثها التاريخية بالأحداث الجارية بالدول العربية أو الدول ذات الأغلبية المسلمة أو العراق على مدى القرن المنصرم حتى الوقت الحاضر. لقد كان حضور ما جد الخطيب إلى برلين وقديم محاضراته في نادي الرافدين الثقافي العراقي مساهمة مهمة في توضيح ابعاد المسرحية وإبراز علاقتها بالماضي والحاضر والخط الممتد عبر الزمن في العلاقة المعقدة بين المثقف الواعي والسلطة المستبدة وجملة الصراعات التي تواجه المثقف والتي سعى إلى بلورتها في أكثر من نص مسرحي، سواء أكان من نتاجاته أم من ترجماته لنصوص مهمة أخرى.

تدل الأحداث التي مرَّ بها العراق منذ عشرات السنين المنصرمة، دع عنك القرون السالفة، وتؤكد وجود طلاق بين الثقافة الإنسانية والسلطة المستبدة، ومن ثم، بين المثقف أو المثقفة والسلطة المستبدة. والسبب لم يكن ولا يمكن أن يكون المثقف أو المثقفة بل السلطة الجائرة في جميع الأحوال، إذ إنها كانت وما تزال تريد أن يكون المثقف والمثقف خادمين لها ولأهدافها ومصالحها أولاً وأخيراً. وهي لهذا السبب تمارس سياسة "الجزرة والعصا" لإسكات ومن ثم تركيع المثقف والمثقفة لإرادتها!

والسلطة هنا يمكن أن تكون الحزب الحاكم أو النخبة الحاكمة أو الدكتاتور الفرد.. الخ. إن هذين الاتجاهين سواء أكانت الجزرة المتمثلة بمغريات السلطة الكثيرة والمتنوعة، أم العصا المتمثلة بمحاربة المثقفة أو المثقفة بالرزق أو بالسجن أو بالتشريد أو حتى بالقتل تحت التعذيب أو الدهس بعربة أو الإعدام. إن هذين الاتجاهين يمارسان وأد حرية الإنسان المثقف أو المثقفة واستقلالته الفكرية



والسياسية والإبداعية ويحرمان المجتمع والحياة الثقافية من إبداعه ودوره المطلوب للمشاركة في تغيير المجتمع والحياة العامة. وحين يرفض المثقف والمثقفة الانصياع لأوامر السلطان، سيُجبر إما على السكوت أو التحري عن لغة رمزية يستطيع بها التعبير عما يريد قوله، أي بلغة "كليية ودمنة" أو التفتيش عن طريق للهجرة. وكثيرون هم الذين فقدوا حياتهم لأنهم رفضوا الانصياع ولم يتسن لهم الهروب من النظام وجلاوزته ولم يقبلوا السكوت ولم يجدوا لغة أخرى للتعبير عن واقع الحال أو اكتشفت لغتهم الرمزية من مثقفي السلطة ووعاظه.

وخلال فترة حكم البعث بالعراق عانى الشعراء وكتاب الرواية والقصة والمسرح والنقد الأدبي، كما عانى العلماء والمبدعون في الفنون التشكيلية والمسرح والسينما والموسيقى والغناء شتى صنوف العذاب والحرمان والتشرد والموت على أيدي النظام وجلاوزته. وفي هذا الصراع المرير بين المثقف والمثقفة من جهة، والسلطة والدكتاتور من جهة أخرى، تعرفنا على عمق وشدة تلك الصراعات المتعددة وتعرفنا على نماذج من المثقفات والمثقفين الذين اتخذوا مواقف متباينة، عالج ماجد الخطيب البعض الصارخ والمهم من تلك الحالات في مسرحياته "عاشق الظلام" أو في "حفرة السيد" أو في "الوسام" أو في "ريام في بلاد الأحلام" أو في "فئران الاختبار". لقد حاسب ماجد الخطيب الجراد والضحية في آن، وفي بعضها سلط الضوء بشكل خاص على الجراد، وفي بعضها الآخر على الضحية، ولكن في جميع تلك المسرحيات حاول أن يبرز عمق المأساة التي يعيشها المثقف أو المثقفة في ظل نظم استبدادية قهارة. ولكنه في غالب الأحيان برز الجانب السلبي بهدف تبشيع الجرائم التي ارتكبتها وترتكبها النظم الاستبدادية ضد الثقافة والمثقف والمثقفة والمجتمع. ولا شك في وجود الكثير والكثير جداً من النماذج الإيجابية، وهي الغالبة، التي يفترض إبرازها أيضاً وبلورة مواقفها في مسرحيات أخرى.

لا شك في أن السلطة حين تحاول جرّ المثقف أو المثقفة إلى جانبها، فهي تريد في واقع الحال إبعاد المثقف والمثقفة وعزلهما عن الشعب وعن حاجاته وطموحاته وأوجاعه. وهي بهذا تريد أن تخلق فجوة أو جداراً سميكاً وعالياً وعازلاً يفصل المثقف والمثقفة عن المجتمع. وحين يرفض المثقف والمثقفة هذه الحالة سيتفاقم الصراع ويحتدم في غير صالحهما على المدى القصير، ولكنهما سيحصدان حب الشعب واحترامه ودفاعه عنهما والتزامه لهما.

إن النص المسرحي (ثور فالارس) الذي أمامنا هو نص درامي يحمل بامتياز عناصر البناء الدرامي الحديثة، وقد بذل ماجد الخطيب في إنجاز هذا النص جهداً كبيراً وعملاً وتحرياً واسعاً، وكان صادقاً في ما حدثنا عن معاناته في كتابة هذا النص في محاضراته ببرلين في شهر أذار 2014.

تتسم أعمال الكاتب المبدع ماجد الخطيب بالجدية والدأب في التحري عما يساعده في تقديم عمل إبداعي يتسم بالجدية والحداثة والمعلومات التي تسهم في تطوير الثقافة العامة من جهة، ولكنها تهدف من جهة أخرى إلى معالجة إشكالية عامة معينة ومن جوانب مختلفة بحيث تمنحنا لوحة بانورامية عن مسرح الأحداث وأجوائه وشخصه. فالمعرفة الجيدة في أجواء القرن السادس قبل الميلاد والحياة الثقافية حينذاك والاقتراب الشديد من أدوار شخصيات فكرية وعلمية معروفة عالمياً وعلى نطاق واسع وكتب عنها وعن فلسفتها ونشاطها العملي الشيء الكثير هي التي سمحت للصديق الكاتب أن يتناول هذه الفترة وهذا الموضوع الحساس بالكتابة والتحليل وبجرأة كبيرة. وهو اختيار مقصود، إذ إنه يخلق لدى القارئ والقارئة تداعيات عن الفترات السابقة والحالية مما يسهم في رفع الوعي لما يجري في الواقع المعاش عراقياً أو عربياً على سبيل المثال لا الحصر. وعند قراءتي للنص شعرت بالمقاربة بين تاريخ تلك الأحداث ودراميتها والأحداث التي مرَّ بها العراق على مدى أكثر من خمسة عقود حتى الوقت الحاضر. وشكلت هذه المقاربة التاريخية من الناحيتين الفكرية والسياسية والاجتماعية والجانب الدرامي للأحداث أهمية خاصة. إن النص المسرحي الذي أمامنا هو نص درامي يحمل بامتياز عناصر البناء الدرامي الحديثة، وقد بذل في إنجاز النص جهداً كبيراً.

تتسم أعمال الكاتب المبدع ماجد الخطيب بالجدية والدأب في التحري عما يساعده في تقديم عمل إبداعي يتسم بالجدية والحداثة والمعلومات التي تسهم في تطوير الثقافة العامة من جهة، ولكنها تهدف من جهة أخرى إلى معالجة إشكالية عامة معينة ومن جوانب مختلفة بحيث تمنحنا لوحة بانورامية عن مسرح الأحداث وأجوائه وشخصه. فالمعرفة الجيدة في أجواء القرن السادس قبل الميلاد والحياة الثقافية حينذاك والاقتراب الشديد من أدوار شخصيات فكرية وعلمية معروفة عالمياً وعلى نطاق واسع وكتب عنها وعن فلسفتها ونشاطها العملي الشيء الكثير هي التي سمحت للصديق الكاتب أن يتناول هذه الفترة وهذا الموضوع الحساس بالكتابة والتحليل. وهو اختيار مقصود، إذ إنها تخلق لدى القارئ والقارئة تداعيات عن الفترات السابقة والحالية مما يسهم في رفع الوعي لما يجري في الواقع المعاش عراقياً أو عربياً على سبيل المثال لا الحصر. وعند قرائتي للنص شعرت بالمقاربة بين تاريخ تلك الأحداث ودراميتها

والأحداث التي مرَّ بها العراق على مدى أكثر من خمسة عقود حتى الوقت الحاضر. وشكلت هذه المقاربة التاريخية من الناحيتين الفكرية-السياسية والجانب الدرامي للأحداث أهمية خاصة.

أذاً النص المسرحي الذي نحن بصدده هو من جانب نص درامي ويحمل في تكوينه البنيوي الجانب الآخر الجانب الفكري والسياسي العملي. فهو بهذا المعنى نص درامي متميز، ومن جانب آخر نص يعالج مسألة فكرية سياسية كانت وما تزال ذات أهمية فائقة للمبدعين والمجتمع في آن. وأجد في النص ذاته إجابة شافية ووافية إلى حدود بعيدة عن السؤال الكبير الذي كان وما يزال يدور في بال الكاتب ماجد الخطيب، إذ كتب ما يلي:

"أتساءل منذ ثلاثين سنة، وما زلت أتساءل، وأنا على ثقة من أنني سأبقى أردد هذا السؤال حتى مماتي. ما الذي يدفع مبدعاً واعياً برسائله الفنية-الإنسانية إلى تسخير فنه لخدمة طاغية دموي. كيف تسنى للشاعر الفلاني أن يمجّد قاتلاً يعاني من "النيكروفيليا"؟ ألم ترتجف يد فنان رقيق مثل بيريليوس وهو ينحت الثور النحاسي الهائل ويهديه إلى فالارس بل كيف تفتق ذهنه عن هذه الوحشية، بمعنى أن يزود الثور بنظام موسيقي يحول صرخات المشوي داخله إلى موسيقى يرقص عليها الملك؟ "النيكروفيليا (Necrophilia) مصطلح يستخدم لوصف احد أنواع الاضطراب والشذوذ الجنسي (Paraphilia) المتمثل في الانجذاب جنسيا نحو جثث الموتى. هذا الانجذاب قد يكون تخيليا فقط أو قد ينطوي على اتصال جسدي حقيقي...". (أياد العطار، "نيكروفيليا .. الجنس مع الموتى (1) موقع كابوس). وبمعنى آخر إنه عشق الموت وشذوذ نكاح الموتى، ك.ح). أشار الأخ ماجد الخطيب إلى وجود دراسة تحليلية قيمة للأستاذ الطيب الذكر غالب هسا عن عاشق الموت الذي شبهه بصدام حسين.

سأحاول في هذه المقالة أن أتطرق إلى الجانبين الفكري والدرامي المتلازمين والمتكاملين. لا شك في إن الأسئلة التي يطرحها الكاتب مهمة جداً وتستحق المزيد من البحوث في مجال علم النفس الاجتماعي، ولا في أن من مرَّ بتجارب حياتية معينة عايش بعض المناضلين الشجعان الذين صمدوا تحت سياط الجلادين ولكنهم في لحظة معينة انهاروا تماماً وراحوا يبدعون في إيذاء رفاقهم الذين ناضلوا معهم. لقد مررت بتجارب من هذا النوع والتقيت بالبعض من هؤلاء ويمكن البحث في الحالة النفسية للشخص، سواء أكان شاعراً أم فناناً تشكيمياً أم مسرحياً، أم إنساناً اعتيادياً. وربما سأكتب عن بعض التجارب في هذا الصدد في محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة المهمة، وهي لن تكون إجابات نهائية ولا مطلقة بأي حال.

هذا هو النص المسرحي الثاني الذي يقدمه لنا ماجد الخطيب حول هذا الموضوع المهم وهو بعنوان "ثور فالارس"، في حين كان عنوان النص المسرحي الأول "عاشق الظلام"، الذي دار موضوعه حول ذات العلاقة بين السلطة والمثقف، إذ اختار الكاتب شخصية أدبية مميزة في الثقافة العراقية، في الشعر والكتابة الصحفية وله تراث وتاريخ نضالي تقدمي يشار له بالبنان والذي تحول بفعل تلك العلاقة التي فرضها الحاكم الجراد على المحكوم الضحية، على الشاعر بالهراوة المصحوبة بالسكّر، إلى شاعر يمدح الجراد وأفعاله الدنيئة وحروبه الدامية ويسعى إلى تمجيده وتقديسه!!!

لم تكن هذه الشخصية، الشاعر، هي النموذج الوحيد في هذا السقوط الدرامي، بل كان هناك العديد من الشخصيات الأخرى التي عاشت وضعاً درامياً مماثلاً. اختار الكاتب واحداً من هذه النماذج ليكون عينة كانت الأكثر فداحة لتلك العلاقة بين الجراد والضحية التي خضعت لإرادة الجراد وتبعته وسارت في ركابه وروجت لمفاهيمه بعد التخلي، قهراً أو عجزاً أو رغبة أو لأي سبب كان، عن مبادئه ومفاهيمه وعقلانيته السابقة وفلسفته في الحياة والنضال والثقافة ودور كل ذلك في حياته وحياة المجتمع.

لقد تابعت في "عاشق الظلام" حواراً مهماً ومتماسكاً يشد القارئ والقارئة إليه وينقله ليصل به إلى الحدث الدرامي، إلى لحظة تحول هذا الشاعر الرقيق من مواقفه المبدئية والوطنية والتقدمية السابقة إلى سقوطه في مستنقع الانتهازية وخيانة قضية الشعب ودفاعه عن الحرب والقتل والتدمير، دفاعاً عن الدكتاتورية. إنه الحدث الأكثر درامية، أو الخطأ المأساوي الذي كان يعرف الشاعر إنه سيصل الأمر به إلى هذا الدرك إن سار على "درب الصد ما رد" الذي دفعه النظام الدكتاتوري إليه، وهو مشابه للخطأ المأساوي الذي ارتكبه أوديب والذي أطلق عليه بـ "مأساة أوديب".

منذ نشوء الدولة ومؤسساتها، وخاصة سلطتها التنفيذية، برزت ظاهرة الصراع بين المثقف والمثقفة من جهة، والحكم من جهة أخرى. وبرز من حيث المبدأ صراع بين تيارين أو اتجاهين متصارعين، يتوزع الاتجاه الأول صوب المحافظة والجمود على ما كان عليه ويبشر بأن "ليس بالإمكان أبدع مما كان"، واتجاه آخر ينزع للتغيير والتقدم ويبشر بالتقدم وتحقيق الأفضل ويرى بأن الجمود والمحافظة لا يستقيمان مع مفهوم الحياة وحركة الزمن المستدامة. هذا الانقسام ما يزال قائماً وفاعلاً في كل المجتمعات. ولكن الانقسام الأخطر برز وما يزال يفعل في الصراع بين المثقف والسلطة، حين لعبت أو تلعب السلطة دورها في كسب جمهرة من المثقفين، وفي فترة لاحقة حين تكونت جمهرة من المثقفات في

الدول النامية، ومنها العراق، إلى جانب الحكم وإبعادها عن المعارضة، في حين ابتعدت جمهرة أخرى عن السلطة المستبدة ولجأت إلى الصمت الفاضل تجنباً للوقوع بحبال النظم لأنها ليست ديمقراطية ولا تعمل لصالح الشعب وغير قادرة على تحمل ظلم النظم وتعذيبه أو قتله، ولكن البعض الآخر حاول أن يمارس العمل على طريقة كليلة ودمنة.

هذا الانقسام الفعلي بين مجموعتين من المثقفين والمثقفات، مجموعة أتباع السلطة والمجموعة المستقلة عن السلطة وفيها المعارض للسلطة. وإن اشتملت المجموعة الأولى جمهرة من المحافظين وغير المحافظين، اشتملت المجموعة الثانية على محافظين وديمقراطيين وتقدميين ويساريين بألوان شتى. والعامل الحاسم في هذا التقسيم برز وبرز في الموقف من مسائل مهمة بالنسبة للمثقف والمثقفة وأعني بها:

حرية المثقف واستقلالته وقدرته على التعبير بما يحس به ويشعر بدون قيود أو شروط تحد من قدرته أو قدرتها على الإبداع والالتزام بالفكر أو الرأي السياسي الذي يتبناه ويتجاوب مع مفاهيمه في الحياة والعمل والإبداع والموقف من مصالح الشعب على وفق اجتهاده الشخصي. هذا الانقسام خطير ومؤلم لكل المثقفين والمثقفات، ولكن الأخطر منه يبرز في محاولة السلطة ونجاحها في تأليب مثقف السلطة ضد بقية المثقفين والعمل على كسبهم عن طريق السكر أو الجزرة التي "يتمتعون بها!" أو بالتهديد والوعيد والإساءة والاتهام أو الشحن غير الأخلاقي لدى السلطة ضدهم. وفي هذا يتحول مثقف السلطة ليس إلى واعظ أجرب لسلطان مستبد حسب، بل وإلى أداة قمع وتخريب وإساءة ضد بقية المثقفين والمثقفات وضد الثقافة بوجه عام. عن هذا الصنف من المثقفين، وليس عن أولئك الذين كفوا عن النضال وسكتوا بعيداً عن أضواء السلطة أو الإساءة للمثقف الآخر والذي حاول ان يخترن في ذاكرته ما يمكن أن يعبر عنه بأساليب وطرق أخرى، كالكتابة على طريقة كليلة ودمنة أو لوحات فنية رمزية... الخ.

إذا كانت مسرحية "عاشق الظلام" قد تحدثت عن شاعر عراقي كنموذج للبقية المماثلة له بالعراق أو في غيره من الدول، فإن ثور فالارس واقعة تاريخية، وضعها الكاتب ماجد الخطيب في نص مسرحي درامي، مأخوذ من الميثولوجيا وكتب التاريخ الإغريقية التي تتحدث عن نحات مشهور عاش في القرن السادس قبل الميلاد، إنه النحات المعروف في وطنه بيريليوس الذي أبدع عملاً فنياً كبيراً هو الثور النحاسي،

ولكنه ثور جهنمي، دس في العسل السم الزعاف، وضع أداة للقتل الهمجي بيد الحاكم المستبد ضد شعبه وأصبح الضحية الأولى لمنجزه الفني. دعونا نتابع مع الكاتب هذا النص المسرحي.

بعد المقدمة المهمة التي شرح لنا الكاتب كيف توصل إلى كتابة هذه المسرحية، يضعنا عبر مدخل قصير للمسرحية في الأجواء التي كانت سائدة في مملكة "أركاغوس" في اليونان القديم وبحدود النصف الأول من العقد السادس قبل الميلاد بعد أن وقع انقلاب على الملك ثيرون قاده المهندس الذي كلف ببناء معبد للإله أبولو.

يقدم لنا شبحاً يرافق الكثير من لوحات العمل المسرحي يحمل معه تاريخ وأحدث ومآسي هذه المملكة ويعلم منذ البدء بأن بناء المعبد قد أنجز من قبل المهندس المشهور فالارس واستغرق البناء أربعة عشر عاماً بين 556-570 ق.م واستخدم الآلاف من العبيد المسخرين والمراقبين لإنجاز هذا المعبد الذي أقيم بثلاثة أضلاع مع باحة وسطية مثلة لاحتفالات الملك. وبعد الانتهاء من البناء قاد هذا المهندس آلاف العبيد في هجوم انقلابي على القصر وأجهزوا على الملك ومن هم في القصر. ولم ينج من هذه المجزرة سوى شخص واحد هو تيليامخوس من أقرباء الملك. استولى فالارس على العرش وأعلن نفسه ملكاً على أركاغوس وتحول إلى طاغية جبار وظالم مارس القتل والقمع ضد من لا يمتدحه.

نتعرف في هذا المقدمة على أبرز شخصيات المعارضة الجديدة للملك الجديد، إنهم غالاتا الشاببة الجميلة ابنة مهرج الملك، ثم تيليامخوس صاحب الجماعة المعارضة، وباريليوس الشاعر الشاب المتمسم بالثورية والمندفع بحماس الذي أعلن بأن فالارس المهندس المشهور والمحب للفن، لكنه لا يقبل في مملكته من لا يرفع راية الولاء له ويكيل المديح له.

تقدم لنا اللوحة الأولى نحاتاً مرموقاً وعاشقاً للفتاة غالاتا ابنة المهرج وهو يعمل في ورشته وأمامه عمل فني ضخم مغطى بستارة لا تكشف عنه. تدخل عليه حبيبته غالاتيا فيدور بينهما حوار أخلاقي مهم. فهو يريد تقدم هذا العمل الفني إلى الملك هدية ليتحفه بمبلغ من المال يستطيع معه الزواج من حبيبته وبناء عش الزوج الجميل ويطلب منها أن يتوسط أبوها لدى المقابلة لتنظيم لقاء مع النحات. لا تعرف غالاتيا طبيعة الهدية ولكنها تستنكر تقديم هدية من فنان كبير إلى ملك ظالم ويمارس القتل يومياً. يدعي الفنان إنه لا يريد رشوة ولكنه يعطيه عملاً فنياً يأخذ عنه مبلغاً من المال. تغادره دون أن تعرف نوع الهدية التي أنجزها الفنان وتوعده بالحديث مع أبيها. يشعر الفنان بالزهو من عمله الفني المتقن ويريد أن يحتفظ بسرية تامة لمنجزه. في هذه اللوحة يشعرنا المؤلف بحبكة واعية بمسألتين:

إن النحات المشهور غير مبال بظلم الملك وطغيانه وقتله للمزيد من أبناء مملكته، وإنه يتطلع بانتهازية خبيثة نحو الحصول على المال للزواج من حبيبته، في حين تتخذ الفتاة موقف المعارض والمناهض للملك ولتقديم هدية إلى جزار وتحذر حبيبها بجملة قاطعة وهي خارجة: حسناً ولكن لا تنحت سيفاً للجلاد يا بيريليوس! يا ويلك إن سلطه على رقبتك.

أما اللوحة الثانية فتضعنا أمام النحات في ورشته حيث ينتبه إلى دخول رجل عجوز، إنه الشبح الذي تقمص هذه المرة

شخصية تاريخية معروفة، إنه شاعر الملاحم العظيمة في القرن السادس قبل الميلاد، إنه ستيسيكورس، والذي لم يتعرف عليه النحات رغم إنه قد نحت له تمثالاً، إذ يثير ظهوره الفزع لدى النحات. يطرح هذا الشبح ما عاناه من طاغية بلاده. ويجري حوار مهم بين الشاعر الشبح والنحات حول العديد من عباقرة اليونان الذين قتلوا بطرق شتى على أيدي الطغاة. ويحذر الشبح بيريليوس من مغبة تقديم النحت الذي أنجزه، الثور النحاسي، إلى الملك، إذ سيصبح أداة للقتل اليومي بيد الملك ضد أبناء شعبه. لقد كشف النقاب عن النحت المنجز وأثار استغراب النحات. ويحاول أن يخفف من طبيعة الهدية، ولكن الشبح يحذره "لكن هذا التمثال، أيها الفنان الكبير، ليس بومة نحاسية نحتها فنانو أوليمب هدية إلى ألهة الحكمة أئينا... إنه تمثال ضخم نحته بشري جشع ليضعه بين أيدي بلوتو. لا يشعر النحات بالمخاطر فجشعه أعمى بصره وبصيرته. وهذه اللوحة تقدم لنا تلك الحكمة الفيثاغورية التي برهنت على صحتها إن "الحكمة والمال لا يجتمعان". ويرد النحات بقوله إن الفن والحب والمال يجتمعان.

وتضعنا اللوحة الثالثة في قصر الملك فالارس ومعه ميلانخوس، مهرج وضحاك الملك ووالد غالاتيا حيث استطاع إقناع الملك باستقبال النحات بيريليوس. إن التحليل الدقيق لطبيعة وسلوك النحات جعلت الكاتب يؤكد: ينحني الفنان طويلاً في حضرة الملك. فيرحب به الملك باعتباره فناناً مشهوراً في أركاغاس، ويرد عليه الفنان ويطلق عليه احيي جلالة الملك فالارس، ملك اركاغاس، شاعر الملك وملك الشعراء. ثم يبدأ بوضع الهدية بين أيدي الملك. فما هو هذا النحت المتقن الذي وضعه الفنان ليهديه إلى الملك؟ إنه تمثال لثور نحاسي ضخم جداً متقن الصنع وفيه خاصيتان تجسدان وعياً سادياً مرضياً لدى النحات ذاته، إضافة إلى انتهازيته وجشعه ومدحه للملك بالضد من الخصائص التي تميز الطاغية.

\*\* الخاصة الأولى تبرز في إمكانية تقديم القرابين البشرية إلى الآلهة على وفق التقاليد القديمة التي جرى التخلي عنها ويردي النحات إعادتها. حيث يمكن أن يوضع الضحية في جوف الثور وتغلق الفتحة

المصممة لهذا الغرض وتوقد ناراً تحت جوف الثور النحاسي ليشوي الضحية ويموت مشوياً ويتحول إلى رماد.

\*\* الخاصة الثانية صنع آلة موسيقية متقنة تسمح بتحويل صراخ وتشنجات الضحية المشوي إلى موسيقى صاخبة تصدر من فم ومناخير الثور النحاسي فيطرب الطاغية لهذا التشنجات الصادرة عن الضحية. إذ يقول: "زودت الفم بآلة موسيقية كي تخرج صرخات الضحية من الفم وكأنها خوار ثور يجامع بعنفوان، وزودت المنخرين بآلتين موسيقيتين صغيرتين تحولان زعيق وعويل المشوي إلى موسيقى جميلة تليق بطقوس تقديم القرابين".

وإذ يذكر الملك الفنان بأن دلفي لم تعد تأخذ بالتقاليد القديمة ويقدمون الحيوانات قرابين بدلاً من البشر، باعتبار تقديم البشر عمل فينيقي لا إنساني بعد أن التزم بمبادئ فيثاغوراس. ويرد عليه الفنان بضرورة العودة إلى طقوس تقديم القرابين البشرية. وهنا وبهذا الحوار المرعب يضعنا الكاتب ماجد الخطيب على عتبة المأساة الخطأ، فالنحات يحفر قبره بيديه، إذ يطلب الملك منه أن يريه كيف يعمل الثور النحاسي أو السماوي، أن يفتحه، أن يدخل فيه وحين انتهى من رفع الأغذية يدفع الملك به إلى جوف الثور ويغلق الفتحة ويطلب من الحراس بإشعال النيران تحت جوف الثور. إنها اللحظة التي لا بد أن النحات قد تذكر حبيبته وهي تقول له "لا تنتج سيفاً للجلاد يا بيريليوس! يا ويلك إن سلطه على رقبتك" أو تحذير الشبح من مغبة صنعه لهذه الألة القاتلة وتسليمها بيد جلاد ظالم.

جلس الملك وبيد كأس من الشراب يستمع إلى الموسيقى المنطلقة من فم ومناخير الثور التي حولت عويل وزعيق وتشنجات النحات إلى موسيقى طقسية مناسبة للطغاة. إنها مأساة الخطأ الذي كان يعرف به النحات وكان متوقفاً وهو يضع بيد الجدلان هذا السلاح لا ليقتل النحات به بل ليقتل الآخرين، ولكن الحكمة الشعبية تقول "يا حافر البير لا تغمج مساحيها، خاف الفلك يندار وانت التگع بيها".

وهنا وفي هذه اللوحة يستعرض الكاتب عبر الأشباح أولئك الشعراء الضحايا الذين قتلوا على أيدي الطغاة كالشاعر أنا كريون من تيسوس الذي قدم طعاماً للخنازير الذي يدخل ويحمل رأسه بين يديه، أو الشاعر أيبيكوس من ساموس الذي قتله القرصنة وقطع رأسه الطاغية بوليكراتيس. وشبح ثالث يحمل رأس كاتب قصص الحيوان أوسيبو من دلفي الذي رماه الكهنة بالبحر. إنهم يتحدثون عن مآسي تلك الشخصيات الفئة والأدبية التي كانت ضحايا للملوك الجلادين.



إن التفكير بإنجاز عمل فني من هذا النوع ويقود إلى هذه الطريقة في القتل هو السادية المرضية القاتلة بعينها، وهي التي جعلت الكاتب ماجد الخطيب يتساءل في مقدمته للمسرحية: كيف يمكن لفنان مرهف أن يفكر بهذه الطريقة ويضع مثل هذا العمل الفني في خدمة القتل اليومي للبشر؟

لقد أصيب هذا النحات العظيم بوباء الانتهازية وعشق فتاة جميلة يريد الوصول إليها، إضافة إلى جشعه وهوسه في

الحصول على المال بغض النظر عن الوسيلة التي يصل بواسطتها إلى غاياته. فيصنع هذا الثور النحاسي الهائل ليهديه إلى ملك ظالم نجح في الوصول إلى السلطة عبر انقلاب على الملك السابق الأكثر عدلاً وأصبح عاشقاً للقتل والهيمنة التامة. صنع الثور من النحاس في العام 556 ق.م. وقتل به في ذات العام. وهكذا كلما مات واحدة من ضحاياه بالشوي واسترخى على موسيقى تشنجات القتلى، استدعى من سجونه ضحية أخرى.

أما اللوحة فتعرض علينا وضع المعارضين للنظام بعد مقتل النحات بآلته الجهنمية، إذ اجتمع أصدقاء النحات غالاتيا وميلانخوس وتيليامخوس وباريليوس في ورشة الفنان المقتول. البنت تندب حظها والأب يحاول تهدئتها. يبحثون عما يمكن فعله. الحزن يسيطر على الجميع والعواطف جياشة والرغبة في الخلاص من الملك القاتل عارمة. وفي هذا يبرز الاختلاف بين الشاعر الشاب بريليوس الذي يريد أن يعلن الثورة دون أن يحسب لميزان القوى حساب، والسياسي المطالب بالعرش تيليامخوس الذي يحذر من حركة لم تنضج ظروف إعلانها لأنها ستكون وبالاً على الجميع. غالاتيا وميلانخوس يقفان إلى جانب تيليامخوس، في حين ينفرد باريليوس بالموقف الثوري ولا يهتم لتحذري غالاتيا حين تقول له: كلا يا باريليوس، أنت شاعر ومفكر، ولست مقاتلاً فلا ترتكب خطأ يجعلك طعماً للنيران. فهل يستمع لها الشاعر الشاب المندفع بحماسة الثوري دون تفكير؟ يؤكد بأنه سيتحدى الملك الظالم بقصيدة وليكن ما يكون. ولم ينتبه باريليوس إلى حديث الشبح الذي ولج عليهم وحدثهم عما يفعله الملك بالآلة الجهنمية التي صنعها النحات القاتل ويعلن إن الشعراء يعيشون فترة عذاب شديد خشية أن تشويهم هذه الآلة الجهنمية كما التهمت عشرات المشويين في جوف الثور. فماذا حصل؟ هذا ما تنبؤنا به اللوحة السادسة اللاحقة.

تجسد اللوحة الخامسة السلوك المرضي للطاغية فهو لم يعد قادراً على العيش دون ضحايا يومية حتى أتى الثور النحاسي على من في السجون من معتقلين فقد كانت قبل حصوله على الهدية مكتظة

بالسجناء الأبرياء. شهية الملك مفتوحة لمزيد من السجناء لشويهم في محرقة والحراس يخبرونه بعدم وجود سجناء آخرين، كما لم تعد ألعيب المهرج التي كانت قبل ذلك تسليه أصبحت سخيقة..، فما العمل؟ ينظر إلى الثور النحاس من طرف وإلى المهرج من طرف آخر ويجد بينهما لعبته الجديدة فيطلب من المهرج أن ينظف جوف الثور. يبرز الرعب في عيني المهرج ولا يمكن رد الطلب يبدأ بالتنظف ويعلن انتهاء تنظيف الجوف يطلب منه تنظيف الفم والمنخرين. وحين يدخل إلى الجوف ثانية يتقدم الملك ليغلق الباب وفي هذه اللحظة المميته للمهرج يدخل الحراس ليعلنوا عن عثورهم على سجين هزيل كان قابلاً في السجن منذ سنوات. ينتشي الملك المعتوه ثم يسأله عن اسمه ومتى سجن ولماذا سجن. نسي المسكين كل شيء لا يعرف كل ذلك ولا يعرف حتى اسمه ولكنه يشعر ببرد شديد. إنها لحظة مجنونة، لحظة يرتقي بنا النص إلى مستوى جديد من الدراما: الضحية يرتعش من الرد ويطلب الدفاء الإنساني، وإذا بالملك الفاجر يدفع به إلى المحرقة ويقول لحراسة: اشعلوا النيران! دفنوه جيداً، لقد أنقذ السجين أمسياتي. وفي اللحظة التي يشكر السجين الملك، يرتفع صوت الخوار والموسيقى من فم ومناخير الثور. لقد أوصلنا الكاتب بنصه إلى دراما إنسانية جديدة، إنها السادية المرضية التي استفحلت عند الطاغية وأصبح لا يطرب ولا يسكر إلا على تلك الموسيقى المنبثقة من شوي الناسي.

يطرح علينا النص في لوحته السادسة الشاعر الشاب باريليوس المنتفض على الطاغية وهو يقرأ قصيدة نارية تكشف عن سر الثور النحاسي ومقتل النحات بيريليوس الذي صنع آلة الموت الجهنمية. وأثناء اللقاء القصيدة يدخل الطاغية محمولاً من حراسه فيتلعثم الشاعر ولكن الملك يطلب منه مواصلة القراءة فيقرأ: أنا الثور النحاسي الجميل، لماذا صنع مني بيريليوس موقداً يشوي في جوفه العبيد؟ وكيف أصبح خالقي أول القرايين؟ ... وهنا يدرك الطاغية ضرورة الخلاص بطريقة الهراوة والجزرة من الشاعر. فيمتدحه ويرمي له بكيس ثقيل من النقود، فيرفعه أمام الجمهور الذي استمع لقصيدته المناهضة للملك ويقرر الأخير منحه قصراً ويوفر له سبل الراحة وينهي ثوريته ومعارضته للنظام دون استخدام فعلي للهراوة، إذ كان التأشير بها كافياً، وهكذا كان!!! ينقلنا الكاتب مباشرة في لوحته السابعة من جديد إلى ورشة النحات القتيل حيث يلتقي هناك المعارضون غالاتيا وأبوها وتيليامخوس وهم في أشد حالات الحزن والقلق على ما صار إليه الشاعر الشاب من جانب، والخشية من اعترافه عليهم لدى الطاغية واحتمال اعتقالهم. وبعد حوار يجسد حالتهم النفسية يقررون في جو كئيب هروب تيليامخوس واللجوء إلى المدينة التي حط فيها فيثاغوراس وجماعته، الذين كانوا قد هربوا قبل ذلك أيضاً من مملكة أخرى ولجأوا إلى مملكة كروتون التي أوت فيثاغوراس وجماعته واعتنق ملكها آراء وفلسفة فيثاغوراس. فهذا

الملك لا يسلم اللاجئين لديه ويحميهم. ويمنحنا النص فرصة الاطلاع على السمات العلمية والإنسانية لفيثاغوراس وتعطشه للمعرفة والفلسفة.

واللوحة الثامنة تمنحنا فرصة التمتع بحوار جميل بين فيثاغوراس وتيليامخوس حول الشاعر الشاب الإنساني النزعة باريليوس الذي رفع العلم الأحمر ضد الطاغية ولكنه عجز عن حمله وانهيائه أمام الخشية من الموت وقبل بالجزرة! وترد هنا أسماء عدد من المناضلين الكبار الذين قتلوا على أيد الطغاة لنضالهم ضدهم، في حين أن بيريليوس لم ين سياسياً ولكنه سمح لجشعه أن يدفعه لصنع آلة موت التهمته قبل غيره. يطلع تيليامخوس على فلسفة فيثاغوراس علة تقاليدهم ولعهم بالموسيقى وحركة النجوم والكواكب، كما يطمئن إليه ويبحث عن أهمية وطبيعة العلاقة بين الرياضيات أو الأرقام والموسيقى ونسمع هنا الحكمة من فم فيثاغوراس حين يقول:

"الأرقام والموسيقى من صلب طقوسنا، فكل شيء في هذا الكون يتألف من أرقام وحروف موسيقية متناغمة. كل شيء في هذا العالم يُصدر الموسيقى، وأن لم نسمعها، لاحظ أن الكواكب في حركتها الدائرية تصدر أيضاً نغمات. الموسيقى علاج للغرائز الحيوانية والشهوات، تغسل الأرواح من الشوائب، وتحافظ على اتزان الناس، وتنظم علاقاتهم ببعضهم. لن يبقى للإنسان روح بلا موسيقى، بل لن يستمر الوجود بدونها"، أو لنقل ليس هناك من وجود بدونها. ومع هذا القول قفزت إلى ذهني مواقف شيوخ الدين الذين يحرمون الموسيقى والغناء وكأنها الطاعون، في حين كان البابليون يدرسون الأطفال الموسيقى في المدارس حينذاك، فهي يمكن فهم هذه الردة الفكرية في مجتمعاتنا الإسلامية ومنها المجتمع العراقي في ظل القوى الإسلامية السياسية الطائفية والرجعية التي هي الطاعون بعينه.

اللقطة الجميلة التي يقدمها لنا الكاتب ماجد الخطيب نجدها في الأفراد المرتبطين بفكر وفلسفة فيثاغوراس، إنهم من الرجال والنساء وفي القرن السادس قبل الميلاد وهو يشكلون حلقات دائرية متعكسة ويساهمون في النقاش. وهم في هذا لا يبتعد عن تراث بابل في العلاقة بين الرجل والمرأة، فماذا حصل لمجتمعاتنا العربية أن تصاب بهذه العار، عار عزل المرأة عن الرجل واعتبارها ناقصة عقل ولها نصف ميراث الرجل وأينما اجتمع امرأة ورجل كان بينهما الشيطان ولم لا يكون ملاك الرحمة أو "الرحمن". إنه بؤس الثقافة المتدهورة التي يعيشها العالم العربي بمجتمعه الإسلامي المتخلف.

في هذا اللقاء الحميمي بين الاثنين يقرر فيثاغوراس أن يتحدى الطاغية، أن يذهب إلى عقر داره ويتحداه هناك وينهي مأساة شعب يعيش تحت ملك مصاب بشتى الأمراض النفسية ومنها النرجسية والسادية المضخمة وشهوة القتل.

ويخبرنا النص في لوحته التاسعة من أن الطاغية كان قد كلف حراسه بالتفتيش عن تيميلياخوس الذي لجأ إلى مملكة كروتون، ويخبروه عن لجوئه إلى فيثاغوراس فيفكر بشن الحرب ولكن حراسه يخبرون بأن قوى أكبر من جيوشه خسرت أمام إيمان وعزم وتصميم جماعة فيثاغوراس وملك كروتون. ويقرر الطاغية اعتقال جماعة فيثاغوراس في مملكته وتسليط آلة الموت النحاسية لقتلهم شر قتلة، يلقون واحداً تلو الآخر في جوف الثور النحاسي لتحيله النار إلى رماد. وهنا يتدخل الشبح ليعلمه عن بعض خصائص فيثاغوراس وإنه من نسل الإله أبوللو وإنه مات مرات وعاد إلى الحياة.

أما اللوحة العاشرة فتدور أحداثها في معبد الفيثاغوريين حيث يلتقي المعلم فيثاغوراس بتيلميخوس مع وجود مجموعته من الجنسين. ويشير له بأن طاغية أركاغاس طلب من ملك كروتون تسليم اللاجئ ويجابه بالرفض، كما يعلمه بأنه الطاغية إنه سيفرج عن جماعة فيثاغوراس المعتقلين في مقابل تسليم تيلميخوس. ويطلب الأخير تسليم نفسه. يرفض فيثاغوراس ويعرب بشجاعة عقلية بأنه سيتحدى الطاغية وسيذهب إلى أركاغاس. يفاجأ جماعة فيثاغورس وتتجلى في توقعهم عن الحركة ثم البدء من جديد بحركة غاضبة ضد الطاغية. وهنا يتوقف الكاتب عند فكرة تؤكد مسيرة التاريخ إذ تقول على لسان فيثاغوراس: لا يمكن للشر أن ينتصر دائماً على الخير خصوصاً إذا تزوج الخير بالحكمة. سأهزمه، وليكن أتباعكم على أهبة الاستعداد.

واللوحة الحادية عشرة تنبؤنا عن ولوج الشبح إلى بلاط الطاغية ويراه في حين لا يراه الحراس. ويدور حوار بين الاثنين. يتحدث الشبح عن وصول فيثاغوراس إلى أركاغاس ليتحداه في مناظرة الإجابة عن أسئلة يطرحها الطرفان. وبين الرفض والقبول يؤكد الشبح بأن رفض الطاغية سيغني الجبن أمام شعبه، وإن القبول يمكن أن يقود إلى الهزيمة أيضاً لحكمة فيثاغوراس. ولكن الطاغية يشعر بقوته ويقرر أن يقبل التحدي ويطرح على فيثاغوراس سؤالاً محرراً يتغلب عليه فيه. هنا يشعر القارئ والقارئة بأن الكاتب يضعنا أمام أكثر من شبح، يحمل معه الشر وآخر يحمل معه الخير، أو إنه شبح واحد يحمل الاثنين في الواحد، كما في الديانات القديمة كالديانة الزرفانية أو الديانة الإيزيدية مثلاً. إنه يحذرنا من

التراجع وإنك ستخسر أكثر إن رفضت النزال. واعلم إنك إن خسرت الرهان فلن يرميك إلا بجبر صغير واحد لا غير. فيقرر النزال واستخف بالعدو.

واللوحة الأخيرة تقدم لنا نزلاً فكرياً بين حكيم وطاغية. إذ تتحكم بالأول إرادة الخير والحكمة وحب البشر، تتحكم بالآخر إرادة الشر والجنون وكره البشر والرغبة في قتلهم. ويضعنا الكاتب في نصه المسرحي من جديد أمام مأساة الخطأ الذي يرتكبه الطاغية وهو مشابه لخطأ أوديب. فالنزال يجري أمام جمهور واسع وكله في حقيقة الأمر كارهاً للملك، في حين يكشف النص عن اعتقاد الطاغية بأن الشعب يحبه. وحين يخسر الملك الرهان ويرفع حجراً صغيراً ليرمي به الملك ترفع ألوف الأيدي أجاجاً صغيرة ترمي بها الملك وتطارده وحاشيته وتقضي عليه. وهنا يعلن موت الطاغية وتسليم تيلميخوس الحكم.

ولكن هل ينتهي الوضع. كلا، فالكاتب يذكرنا بأن قتل الطغاة بهذه الطريقة ودون وجود وعي لدى الناس ومشاركتهم الفعلية في الخلاص منه لا يقود على استقرار الأوضاع وبناء حياة جديدة. فالتغيير يفترض أن يكون ما في نفس الناس. ولهذا قيل قديماً تغيير ما في النفي أصعب بكثير من القيام بثورة وكذا الاحتفاظ بها.

عند قرائتي لما كتب عن النظام الدكتاتوري البعثي الصدامي البغيض بالعراق وقعت على مادة كتبها صحفيون ألمان ثلاثة التقيت بأحدهم في ندوة في قناة فينكس الألمانية في العام 2004، أي بعد سقوط الدكتاتورية الفاشية على أيدي قوات الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وإعلان احتلال العراق، وكنت قبل ذلك قد التقيت به بطلب منه لنتحدث عن أوضاع العراق ومشكلاته وما كان يجري في فترة حكم حزب البعث والدكتاتور أحمد حسن البكر ورفيقه صدام حسين والعواقب الوخيمة لاحتمال تسلم القوى الإسلامية السياسية الطائفية الحكم بالبلاد.

حين كنت أقرأ مسرحية ثور فالارس في خريف هذا العام (2013) تذكرت تلك الندوة والمقابلة مع الصحفي الألماني كريستوف ماريا فرودر Christoph Maria Fröhder والمقالة التي كتبها وسلمها لي في حينها حول العراق ومن ثم الكتاب الذي أصدره حول حرب بوش بالعراق. وفتشت على المقالة في أوراقي فلم أجدتها وقدرت أنني فقدتها فكتبت له راجياً إرسال تلك المادة. ولكنه أرسل لي مادة مماثلة كتبها ثلاثة صحفيين ألمان زاروا العراق في فترة مبكرة من سقوط الدكتاتور صدام حسين ونظامه. جاء في هذا

المقال ثلاث صفحات عن ماكينة كهربائية عملاقة مهمتها نهرم اللحوم والعظام، وهي الماكينة التي استخدمها النظام العراقي في فرم أجساد الموتى أو رميهم بها وهم أحياء. ولكي لا أخص هذا الموضوع المهم والذي، كما أعتقد، لم يطلع عليه إلا القلة من الناس، وخاصة الألمان، قمت بترجمة هذه الصفحات التي أرفقها مع هذا المقال وهي ترجمة كاملة للنص الخاص من مقال الصحفيين الثلاثة المنشور على موقع الإنترنت موقع وارفقها مع هذه القراءة لمسرحية "ثور فالارس"، إذ إن تاريخنا العراقي مليء بمثل هذه الممارسات والتي تقترب من ذلك الثور النحاسي الذي مهمته لا قتل البشر فحسب بل وتغذيتهم. جاء في مقال الصحفيين الثلاثة ما يلي:

" إنه مجرد أنبوب عادي، لكنه يجسد رمز القسوة التي عانى منها العراقيون بسبب الشكوك التي تنشأ عند الدكتاتور حوله. الأنبوب يقود إلى "ماكينة الموت". في واحدة من قاعات معسكر سري تابع لجهاز الأمن. الموقع يستخدم اليوم من قبل القوات الأمريكية. الصحفيون الأجانب، وخاصة الألمان، منعوا من ولوج هذا الموقع. يصعب فهم هذا الموقف، إذ من مصلحة أمريكا الكشف عن أساليب التعذيب التي كانت أجهزة أمن الدكتاتور تمارسها. تمكن ضابط إيطالي من زيارة الموقع الجهنمي بعد سقوط النظام مباشرة. اسم الضابط الإيطالي هو **Colonell Georg Di Pauli, Carabinieri**

إليك أحد الضحايا. حين اختفى حاول ابن أخته قرر أن يبحث عنه بأمل العثور عليه. بعد تحريات فاشلة، توجه إلى أحد زملاء الدراسة الذي يعمل في أجهزة الأمن. صديق الدراسة طلب منه الحفاظ على السرية التامة، إذ وجد إشارة في جهاز الكمبيوتر تؤكد وفاته تحت التعذيب. في عمود خاص وجد إشارة إلى أن جثمان عم صديق الدراسة قد فرم بماكنة فرم الجثث. وبهذا أمكن مسح أي أثر للعلم. ابن الأخ لم يستطع استكمال الحديث عن عذابات عمه حتى النهاية وعن صورة الماكينة، لأنها كانت ماكينة لفرم الضحايا.

في الجهة المقابلة لمعسكر الأمن السابق يعيش ضابط طيران سابق. كان على علم بماكنة القتل هذه، حتى إنه كان مرة في الموقع حين انهار النظام وهجم الناس على هذا المكان. هو نفسه حافظ على مجموعة من أجهزة التعذيب لكي لا تسرق أو تدمر، ولكن لا يحتفظ بصورة لهذه الأجهزة. إلا إنه يعرف الضباط الذين كانوا يعملون على هذه الماكينة.

بعد مرور يومين عرض علينا تخطيطاً لأحد هذه المكائن الخاصة بالقتل الذي وضعه أحد الزملاء. وخشية من العقوبة التي يمكن أن تلحق بهم رفضوا الاتصال بنا والحديث معنا. وأخيراً فرض الأمريكان عليهم الصمت المطبق.

هذا هو الجهاز (الماكنة). من كل جهاته تير سكاكين تدور وتقطع. من أعلى الجهاز كانت ترمى الأجسام في الماكنة وبالسكاكين كانت تقطع أجسام الضحايا. وقد نبه الذي وضع التخطيط إلى دقة عمل ماكنة القتل الصدامية.

الشاهد الأخير تسنى له مشاهدة الماكنة بأمر عينيه حين كان معتقلاً عدة مرات. كنتني لم يمكن ملزماً بتصليح الماكنة وهو لا يمتلك صورة لها، ولكن يعرف عن وجود مكائن أخرى مماثلة لها وأنجز تخطيطاً وتخطيطات أخرى للمكائن التي شاهدها. أنه يعيش حتى الآن في كوابيس ... ثم حدثنا بما يلي:

في أحد الأيام احتاجوا إلى أعز صديق لي. لقد قاوم، ولكنهم جلبوه إلى الموقع، ولكنه واصل المقاومة بيأس شديد. استطاع أن يدفع وأثناء المقاومة باثنين من حراسه بحوض الماكنة الكهربائية المتحركة. عندها وجهت إلى صديقي نيران الحرس وقتل في الحال وجرى قذف جثته في الماكنة. هكذا قتل ثلاثة أشخاص أمام عيني. لقد كان مشهداً مريعاً.

القضية تطرح الكثير من الأسئلة. المفروض أن يجري توضيح مسألة ماكنة القتل الصدامية بعد انسحاب القوات الأمريكية. ويفترض أن يجري التيقن من البلد الذي باع هذه المكائن إلى النظام، وهل حقاً إن إحدى الدول الأوروبية هي التي باعتها له وهل إن بعض الأوروبيين التقنيين قد سافر إلى العراق لتصليح العطلات التي كانت تتعرض لها.

هذا هو النص الكامل حول الماكنة الذي نشر في من قبل تليفزيون ألمانيا الأول ARD بتاريخ 2003. علماً بأن الصحفي السيد Christoph Maria Fröhder قد أعطاني في حينها نسخة من تقرير أعده للجهة الإعلامية التي أودته إلى بغداد بعد سقوط الدكتاتورية مباشرة وكان فيه تخطيط لهذه الماكنة الكهربائية العملاقة. ومن المؤسف أنني فقدت هذا التقرير فكتبت له وأرسل التقرير ولكن بدون تخطيطات صادر عن التلفزيون المشار إليه في أعلاه، والتقرير محفوظ في أرشيفي ولكن يمكن العثور عليها باللغة الألمانية وعلى الموقع الإلكتروني التالي:

Duell mit Saddam, Buchs Krieg gegen den Irak,ARD 3. März 2004, 23.00

Uhr

Eine Dokumentation von: Jorg Armbruster, Christoph Maria Fröhder, Ulli

Neuhoff

لم يكن اختيار هذا الموضوع من الناحيتين الفكرية-السياسية والدرامية عفويًا، كما أشار إلى ذلك الكاتب ماجد الخطيب ذاته في مقدمة الكتاب، بل كان اختياره للموضوع مدروساً وموفقاً ومناسباً لواقع العراق والكثير جداً من الدول النامية، كما إن الطريقة التي عالج بها المشكلة ناجحة تماماً ووصل بها إلى الهدف المنشود بشكل يشكر عليه. أراد الكاتب بهذه المسرحية أن ينبه الكاتب المبدعين على نحو خاص إلى:

1. الابتعاد عن مراكز السلطة الغاشمة وعدم الوقوع في حبال حب المال والروح الانتهازية واعتماد غير مبني لقاعدة "الغاية تبرر الوسيلة" بما لا يستقيم مع الإبداع الفني والالتزام بمبدأ الإخلاص لقضية الشعب ووضع الفن في خدمة التقدم بحيوية ومسؤولية في آن.
2. وأن يُذكر الكتاب والكاتبات والناس جميعاً لما حصل في ظل الهيمنة البعثية الصدامية على العراق وشعبه والمصير الذي آل إليه من سقط في أحضان الدكتاتورية والفاشية من كتاب وفنانين تقدميين وبعضهم يساري أو شيوعي أيضاً، كما في مسرحية "عاشق الظلام" على سبيل المثال لا الحصر.
3. والغريب في الأمر أن من تورط بالعمل مع نظام البعث الصدامي كان يعرف جيداً طبيعة هذا النظام والجرائم التي اقترفها بحق الشعب بكل قومياته حتى قبل بدء الحرب العراقية الإيرانية والحروب اللاحقة، فبعضهم مجد الدكتاتورية و"عظمة القائد الضرورة"، وبعضهم الآخر أضاف إليها تمجيد حروب الدكتاتور الداخلية وضد شعبه والخارجية ضد جيرانه والأشقاء العرب وساهم عملياً في الدفع باتجاه وقوع المزيد من ضحايا الحروب والدكتاتورية.
4. وإن المرحلة الراهنة وفي ظل الصراعات الطائفية المقيتة بين الأحزاب والقوى الإسلامية السياسية الحاكمة المتفاقمة يسهل السقوط في حبالها وحبال من بيده السلطة والمال والقدرة على الإغواء.
5. ونبه إلى أهمية المعرفة الدقيقة بموازن القوى في التحرك لعملية التغيير التي يفترض أن تستند إلى الغالبية العظمى من المجتمع، إلى إرادة التغيير التي يمكنها أن تحقق المعجزات.



6. وأن الطغاة مهما تجبروا لن يدوم لهم الحكم بأي حال وإن إسقاطهم بالطريقة التي جرت بالعراق دون مساهمة فعلية مباشرة من جانب الشعب وضعف الوعي وسيطرة الفكر الديني المتخلف لا تقود على السلام الاجتماعي ولا إلى الهدوء والاستقرار. فالمشكلة تكمن في ضعف الوعي الاجتماعي والثقافي وضعف شعور الشعب بضرورة التغيير والخلص من الدكتاتورية الظالمة وضعف قدرته على تحقيق ذلك.

7. ويبدو مفيداً الإشارة هنا إلى وجود تباين واضح بين شخصية الشاعر في مسرحية عاشق الظلام وشخصية النحات في مسرحية ثور فالارس، في عاشق الظلام كان الشاعر سياسياً وعضواً في حزب سياسي ومناهضاً للنظام الاستبدادي في شعره ونشاطه وكامل تاريخه قبل سقوطه السياسي في أحضان الدكتاتورية وتمجيده حروب الدكتاتور، في حين أن الشاعر في ثور فالارس، ورغم صداقته للمعارضين، لم يكن سياسياً، علماً بأن السياسة لا يمكنها أن تفارق أحداً بسبب علاقتها بحياة الإنسان اليومية، كما إن الأول كان قد عاش الصراع الداخلي بعنف شديد، في حين أن الثاني لم يعيش هذا الصراع الداخلي بسبب موقفه اللامبالي مما كان يجري في المجتمع وما يمارسه الدكتاتور ضد شعبه، كان المهم عنده أن يصل إلى ما يريد بأقصر الطرق والتي قادته إلى حتفه. كلاهما حالة درامية، تراجيدياً، مأساة، وأن اختلفا في المنحى.

8. لقد منح ماجد الخطيب النص الذي بين أيدي القراء والقارئات حوارات متماسكة ومجسدة للحدث التاريخي المتكرر باستمرار قبل ذلك وبعد ذلك أيضاً ولم ينقطع حتى الآن، العلاقة بين المثقف والسلطة، بين وعي المثقف لذاته ووعيه للمجتمع وما يجري فيه ومسؤوليته إزاء كل ذلك.

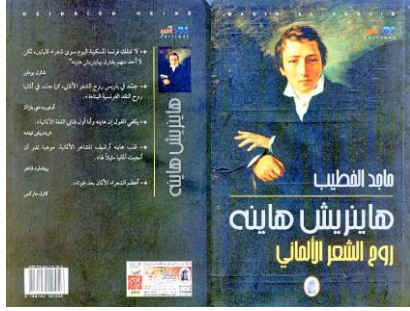
9. ويضعنا الكاتب وجهاً لوجه أمام مجموعة من حاشية الدكتاتور المطلق ووعاظ السلاطين الذين يبذلون المستحيل للحفاظ على وجود الدكتاتور في السلطة وتمجيده للحفاظ على مصالحهم ومكاسبهم والتي تجلت في سعيهم لإثارة الدكتاتور ضد فيثاغورس الذي احتضن المعارضين ليشن الحرب ضده وضد المدينة التي احتضنت المعارضين الهاربين من ظلم وقتل الدكتاتور فالارس لهم. وهو يذكرنا بما كان يجري بالعراق في فترة صدام حسين أو من هم موجودون الآن في فترة نظام المحاصصة الطائفية، سواء من يعيش منهم في داخل البلاد أم خارجها.

لقد استخدم ماجد الخطيب الحدث التاريخي لبلد غير العراق، لبلد إغريقي، البلد الذي انطلقت منه كلمات الحرية والديمقراطية وتكرست مبادئ الفلسفة، ليجسد لنا ما حصل ويحصل بالعراق أيضاً، عراق الحضارة القديمة، عراق الانقطاع المتكرر عنها، ولكنه في الوقت نفسه عراق الاستبداد والقسوة والسادية التي تميز بها الحكام عموماً والتي ما زال الحكام العراقيون يتسمون بها حتى

الآن!!!



## دراسة معمقة في حياة وأعمال ونقاد هاينريش هاينه للكاتب ماجد الخطيب



اسم الكتاب: هاينريش هاينه روح الشعر الألماني

المؤلف: ماجد الخطيب

إصدار: المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت

الطبعة الأولى 2012

عدد الصفحات: 406 صفحة

هدية جميلة وممتعة تلك التي تسلمتها من الصديق الكاتب والروائي والصحفي المميز ماجد الخطيب، كتاب جديد صدر له تحت عنوان " هاينريشهاينه روح الشعر الألماني". لقد تمتعت كثيراً بقرأة هذا الكتاب من حيث المضمون وكذلك اللغة السلسة التي كتب بها والترجمة الممتازة لشعر هاينريش هاينه غير السهل على الترجمة إلى العربية حقاً. وكانت المروءة والصدقة المتينة التي جمعت بين الكاتب والشاعر الفقيه مهدي محمد علي، أن يهدي ماجد الخطيب هذا الكتاب إلى ابن البصرة الفيحاء والشاعر المبدع الذي غاب عنا

جميعاً بوقت مبكر، مات في الغربة اللعينة كالكثير من مثقفي ومثقفات شعبنا الجريح، إضافة إلى الكثير من المواطنين والمواطنين العراقيين.

تضمن هذا الكتاب تسعة فصول بضمنها المقدمة ومأساة المنصور وقصائد أخرى مترجمة.

تضمن الفصل الأول المقدمة التي كرست لمتابعة رؤية جورج لوكاتش لهاینريشهاينة، وكانت بعنوان "هاينريشهاينة بعيني جورج لوكاتش" أو [الشاعر بين "حماربلعام" و"ثور فالارس"]. وبحث الفصل الثاني في الإشكاليات التي رافقت حياة هاينريش هاينه مما دفع الكاتب إلى اختيار عنوانين لموضوعين في هذا الفصل هما " قلما فهمتموني ..."، و"ها قد جاء الموت .. الذي طالما خفق له قلبي". وتضمن الفصل الثالث بحثاً عن هاينه باعتباره "الشاعر المجدد"، في حين بحث الفصل الرابع في العلاقة بين الشعارين الألمانين العملاقين "هاينه وغوتيه" وأراء كل منهما إزاء الآخر أو "صراع المواطن والنبيل في الثورة الفرنسية". وركز الفصل الخامس عن العلاقة المتميزة التي ربطت بين "هاينه والشرق". وانتقل في الصف الفصل السادس لمعالجة العلاقة بين هاينريش هاينة والفاثيكان وموقفه من الدين عموماً. أما الفصل السابع فقد توقف كثيراً عند الطبيعة التي ميزت الشاعر ووضع له العنوان التالي "الشاعر بين"انثى الشؤم" و"الأنثى الهشة". وتابع الكاتب في الفصل الثامن ان " نظرية المؤامرة في موت هاينة". ويضاف إلى ذلك تضمن الكتاب "مأساة المنصور" ومجموعة من أشعاره المتميزة إضافة على نبذة مختصرة عن حياة الشاعر وفهرست لمؤلفاته ونبذة قصيرة عن المؤلف ماجد الخطيب ومؤلفاته وترجماته. من مطالعة هذا الفهرست لمواد الكتاب يستطيع القراء والقارئات تقدير الجهد المبذول في إنجاز وفي التطرق إلى مختلف جوانب حياة ونشاط وشعر وعلاقات الشاعر بالمجتمع والقوى الفكرية والسياسية حينذاك والمكانة التي كان يحتلها في ألمانيا أو في الدولة التي انتقل للعيش فيها فرنسا ومن ثم مات ودفن فيها.

حين بدأت بقراءة هذا الكتاب لم أتوقف عن القراءة حتى انتهت من الفصل الثامن، ثم توقفت عند مأساة المنصور، إذ إنها تراجيدياً متميزة ورائعة تستوجب القراءة المتمعنة للتعرف على صراعات تلك الفترة في أسبانيا وموقف الشاعر من أحداثها ومن القوى المتصارعة فيها. شعرت وأنا أقرأ الكتاب بمتعة كبيرة فالكاتب والصحفي والروائي استخدم لغة أدبية رفيعة وأسلوب بحثي متماسك وقدرة صحفية على تطويع اللغة لصالح تسهيل القراءة وتكثيف المادة وبرؤية تقديمية وبحث ديمقراطي ناضجين.

استخدم ماجد الخطيب في إنجاز كتابه عن هاينريش هاينه خمسة أصوات في هذا الكتاب ومتطلعاً لصوت سادس هو صوت القارئات والقراء ليكون كل منهم رأيه الخاص في شعر وحياة هاينريش هاينه وفي مواقف

نقاده وفي الكتاب الذي أنجزه الخطيب. اعتمد الكاتب هنا صوت هاينريش هاينه حين كان يتحدث عن نفسه أو عن غيره وعن مراراته في الحياة وعن رغبته في الموت أو عن أفكاره وعن علاقته المرهقة بزوجته وعلاقاته الأخرى وتطلعاته وقلقه الشديد على ألمانيا وعن موقفه من يهوديته أو من الأديان كافة. ثم وضعنا الكاتب في مواجهة صوت النقاد الكارهين لهاينريش هاينه والحاقدين عليه، سواء أكان ذلك الكره بسبب ثورته وتقدميته وكرهه للحرب والعنف وصداقته مع اليساريين في تلك المرحلة من تاريخ ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، أم كان بسبب رفضه للفكر المحافظ والرجعي وإدانتته للرأسمالية والاستغلال، أم بسبب ولادته في عائلة يهودية فقيرة، أم بسبب فقره وشطف عيشه، حيث قال عنه غوته "لو أن هاينه توقف عن التصرف كـ"ابن شوارع" لكان أكبر شاعر عرفته!" (ص 108). بعدها قدم لنا الكاتب صوت النقاد الذين عشقوا شعر هاينريش هاينه وتوافقوا مع مواقفه الثورية وشاعريته الكبيرة فوصفه بعضهم بأنه "يقف بين شاعري ألمانيا الكبيرين غوته وشيلر"، وهو موقع عظيم وصائب لشاعر كبير مثل هاينه. ثم كان الصوت الرابع الغاضب لطاغية الإمبراطورية الروسية، الأمير والكونت كليمنس فينزل ميترنيش ( 15 مايو 11 - 1773 يونيو 1859 )، مستشار الدولة البروسية حينذاك، المعبر عن أكثر القوى المحافظة رجعية والممثل الشرعي لها وفي فترة قفزة التطور الصناعي في ألمانيا وأوروبا عموماً، الذي طارد الشاعر الكبير هاينريشهاينه بسبب مواقفه الثابتة والجريئة من الظلم والطغيان وانتقاده للمستبددين حتى يشك في كون الطاغية قد أرسل جواسيسه لاغتيال الشاعر بدس الرصاص في الشراب الذي يتناوله الشاعر والذي كشف عن وجود مادة الرصاص بنسبة عالية حين تم فحص شعرة من رأس الشاعر. ولم يقتصر الفحص المختبري على جهة واحدة بل أكدته جهات أخرى مستقلة أجرت الفحص أيضاً. وأخيراً كان الصوت الخامس، صوت الكاتب ماجد الخطيب، الذي تابع بدأب وعناية كبيرة كتابات النقاد والكثير من الدراسات والأبحاث التي صدرت عن هاينريش هاينه وحياته وشعره ساعياً لا إلى استعراضها فحسب، بل وإلى إبداء رأيه الخاص بشأنها وبالشاعر وشعره. كما أعطى فسحة مناسبة للقراء ليدلوا بدلوهم ويكونوا رأيهم المستقل بهذا الشاعر العظيم الذي توفى بعد أن أقعده المرض عن عمر ناهز التاسعة والخمسين.

إن تنوع وتعدد فصول الكتاب توضح إلى إن الكاتب ماجد الخطيب قد تتبع بجهد كبير حياة هاينريشهاينه منذ الولادة مروراً بمرحلة الشباب والدراسة والحياة الزوجية وثم الشيخوخة المبكرة والمرض الذي ألم به طوال سنوات من جهة، والأعمال الشعرية والنثرية من جهة أخرى ووضع يده على الملامح الأساسية لشخصية وشعر هاينريش هاينه ودوره في العصر الذي ولد فيه وموقفه المبدئي من اتجاهات التطور في ذلك العصر.

لقد كان الشاعر صارماً في نقده للرجعية والارستقراطية الألمانية والأوروبية وهي التي جلبت عليه الكثير من المشكلات بما فيها ترك المانيا والهجرة إلى فرنسا والتي تجلت بوضوح في سلسلة المقالات التي كان يكتبها من باريس ويرسلها إلى الجريدة الألمانية "الغماينه تسايتونگ" للنشر والتي وجدت رواجاً واسعاً وتأييداً من جانب المجتمع الألماني، إذ كان توجه النقد الصارم والكشف عن المشكلات التي يعاني منها المجتمع الألماني حينذاك وعن الحراك الثوري في تلك الفترة من حياة الشعب الألماني. (ص 204).

لم يكن هانيريش هاينه مراقباً لما يجري في ألمانيا من تناقضات فحسب، بل كان ساعياً إلى بلورة الأجواء التي كانت تنشأ فيها تلك التناقضات من جهة وإلى تبيان العوامل الكامنة وراء ذلك وإلى نقدها أيضاً، كما عبر عن ذلك بطريقة ما لوكاش. (ص 15/14) ويمكن أن نقرأ ذلك في الأبيات التالية: (ص 15).

تغفو الغابة، والنهر ينام باطمئنان،

مغرق بضوء القمر الناعم؛

يعلو فجأة أزيز. هل كانت رصاصة؟

ربما أنه صديق أعدم؟

لقد وقف الشاعر بكل ثقله الفني إلى جانب قوى اليسار والتقدم ولكنه لم ينتم إلى حزب سياسي معين. كان صديقاً لكارل ماركس وزوجته ولعدد كبير من اليساريين الألمان والفرنسيين.

كان هانيريش هاينه ساخراً معبراً بعمق ومسؤولية عن الأوضاع البائسة التي يعيش تحت وطأتها الشعب الألماني والشعوب الأوروبية والتي تجلت في قصيدته عن "الملوك الثلاثة المقدسون" والتي كان يقصد فيها مستشار ألمانيا وإمبراطور النمسا وقيصر روسيا (ص 208-211).

ويبدو إن الشاعر قد عانى الأمرين من زوجته، هذه المرأة الفرنسية الشابة اللعوب والمزاجية وذات طموح كبير للصعود إلى مصاف الارستقراطية الفرنسية، وهي بالضد من طبيعة ومزاج وحيات هانيريش هاينه. وقد لعبت زوجته دوراً كبيراً في عزلته الشديدة عن أقرب أصدقائه بسبب كرهها لهم وسعيها لإهانتهم لكي ينقطعوا عنه. وفي هذا الصدد كتب ماجد الخطيب عن موقف ماركس من وفاة صديقه هانيريشهاينه ما يلي: "زعى كارل ماركس، حينما بلغه نبأ وفاة صديقه الشاعر هانيريش هاينه، " قتلتها هذه المرأة"، وكان يعني ماتيلده زوجة هاينه" (ص 198). وفي قصيدة له يعبر هانيريش هاينه عن حياته الزوجية وعذاباته الشخصية تحت عنوان العالم السفلي نقتطف منها ما يلي :

فقط لو أنني عازباً بقيت!

يطلق بلوتو ألف حسرة -

الآن، في عذاباتي الزوجية،

لا أجد الجحيم، فيما مضى

، دون زوجة، جحيماً.

فقط لو أنني عازباً بقيت!

مذُ حظيت ببروسرينا

أتمنى لو يضمني القبر يومياً!

حين تلعن وتزمر، لا أكاد أسمع

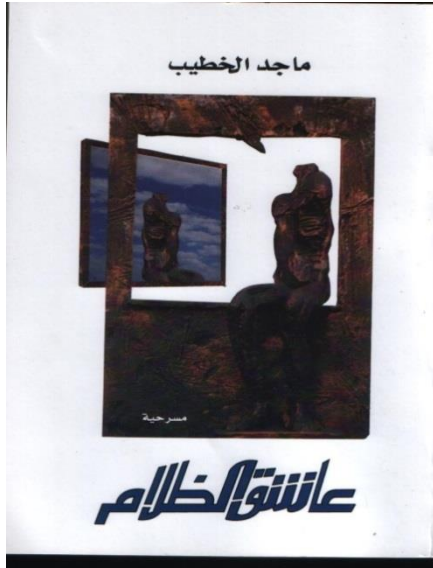
حتى نباح كلبى سيريبروس

.... (ص 74-75)

لقد حاولت بهذه المقالة القصيرة أن أجلب انتباه قارئات وقرء العربية إلى هذا الكتاب المهم الذي يقدم لنا واحداً من ثلاثة أعظم شعراء ألمانيا في القرن التاسع عشر وما بعده.

السلطة والمثقف في مسرحية -عاشق الظلام-

للكاتب ماجد الخطيب



اسم الكتاب: عاشق الظلام (مسرحية)

الكاتب: ماجد الخطيب

مكان وسنة النشر: دمشق 2006

عدد الصفحات: 62 صفحة

السلطة والمثقف في مسرحية "عاشق الظلام"

كانت العلاقة بين السلطة والمثقف موضوع أبحاث وروايات وكتابات كثيرة. فهي في غالب الأحيان ملتبسة، وهي قضية قديمة وجديدة في آن، أو متجددة باستمرار. إنها ورغم كونها تعبر عن علاقة بين طرفين هما السلطة والمثقف، إلا أن المجتمع الذي تحكم فيه السلطة ويعيش فيه المثقف، يشكل معهما حجر الزاوية في هذه العلاقة أيضاً.

تمتلك السلطة، أي سلطة، القوانين والأنظمة الإدارية والأجهزة الحكومية، بما فيها الأجهزة القمعية والسجون



وأدوات التعذيب والمحاربة بالرزق، كما تمتلك الحق في ممارسة العنف والقوة دون غيرها لتكريس القانون من حيث المبدأ. ولكنها لا تمتلك دولياً حق التجاوز على حقوق الإنسان وحقوق المواطنة. والسلطة التنفيذية تقف على قدم المساواة مع السلطتين التشريعية والقضائية. وتعتمد سبل استخدام السلطة لصلاحياتها ومدى احترامها للدستور وللسلطتين التشريعية والقضائية على طبيعة وبنية الدولة والحكومة لا من حيث كونها ملكية أو جمهورية، بل من حيث كونها دولة القانون الديمقراطي أو دولة الاستبداد بمختلف صورها ومبرراتها. فسلطة تستند إلى دستور ديمقراطي ودولة القانون واحترام السلطتين واستقلاليتها عن السلطة التنفيذية وخضوع الأخيرة لإرادة المجتمع تختلف كلية عن سلطة استبدادية تركز الدستور بقدميتها وتدوس على القوانين وتخضع السلطتين التشريعية والقضائية لإرادتها ورغباتها وتنتهك حقوق الفرد والجماعة وتتخلى عن كل المعايير والقيم الحضارية الحديثة، بغض النظر عما إذا كان هذا النظام الاستبدادي مدني أم عسكري، حزبي أم قبلي أو عشائري، حزبي أم فردي أم يرتبط بعائلة بعينها، إذ أن الحصيلة واحدة، والحكم ظالم.

أما المثقف فلا يمتلك سوى ثقافته وإرادته، سوى قدرته وموهبته على التعبير بمختلف أشكال التعبير المرئية والمقروءة والمسموعة والملموسة، سواء أكان شعراً أم رواية أم قصة أم مقالة أم عملاً تشكلياً أم أغنية أم لحناً موسيقياً أو نقداً أو أي عمل إبداعي ونشاط ثقافي بما في ذلك الوعي بواقع المجتمع ومشكلاته وحاجاته وسبل التعبير عنها. هذه هي أدواته في العمل وفي الكفاح اليومي.

بين هذين الطرفين يمكن أن تسود أجواء دولة القانون الديمقراطية واحترام متبادل ونقد موضوعي وعمل بناء لصالح المجتمع وتطور الدولة، وهي حالة يمكن أن نجدها في بنية المجتمع المدني الديمقراطية بصيغ غير كاملة ونموذجية بطبيعة الحال، ولكنها تعبر عن المستوى الذي بلغته حضارة الإنسان وقيمه ومعايير التقدمية. ومثل هذه المجتمعات لا تخلو من عيوب، ولكنها الجنة المفقودة بالنسبة لأوضاع المثقفين في دولة الاستبداد وغياب دولة القانون والحياة الحرة.

في الدولة الاستبدادية التي عاش العراق في ظلها طويلاً جداً وما يزال لم يتخلص من بقاياها وسيبقى يعاني المثقف، ومعه المجتمع، طويلاً وكثيراً إلى حين تكريس دولة القانون والحياة الدستورية الديمقراطية. لقد أجبر النظام المقبور، وهذا يحصل في كل نظام مماثل، أن يتوزع المثقفون على ثلاث جماعات، وهي:

1. الجماعة التي اصطفت منذ البدء إلى جانب السلطة نتيجة تبنيها الإيديولوجية والمواقف السياسية المماثلة لمواقف السلطة السياسية.

2. الجماعة التي اصطفت ضد السلطة السياسية نتيجة تبنيها إيديولوجيا مختلفة عن أيديولوجية السلطة وتباين مواقفها السياسية واختلاف قناعاتها.

3. الجماعة المستقلة التي تشكل الغالبية العظمى من المثقفين، وهم في الغالب الأعم يتخذون مواقف ديمقراطية عامة. فهذه الجماعة لا تنتمي إلى حزب أو جماعة ولكن لها مواقفها الفكرية والسياسية ورؤيتها الخاصة لدور الثقافة والمثقف.

هذا التقسيم لا يعني عدم وجود جماعات بينية أخرى أو تفاصيل كثيرة في إطار كل جماعة وكل حزب. فالسلطة السياسية المستبدة تسعى في نشاطها اليومي إلى تأمين المسائل التالية:

- أن يكون الولاء كاملاً ومطلقاً وملتزماً من جانب مثقفي السلطة إلى جانب السلطة بكل كتاباتهم وممارساتهم، ولا يقبل الدكتاتور بأقل من ذلك.

- ممارسة أسلوب ومبدأ "الجزرة والعصا" في الوصول إلى الجماعتين الثانية والثالثة لكسب عناصر المجموعتين إلى جانب مثقفي السلطة، وبتعبير أدق إلى جانبها. وإذا عملت الجماعة الثانية وتكتب ضد السلطة وسياساتها، تمارس الجماعة المستقلة دورها المستقل في تأييد أو رفض ما تراه مناسباً أو تلجأ إلى الصمت طويلاً أو تستخدم أسلوب "كليية ودمنة" في التعبير عما تريد قوله.

- ترفض السلطة الدكتاتورية وجود مثقفين معارضين أو مستقلين، فليس في قاموسها ما يسمى بالموقف الثالث، إذ أنها تحدد موقفين أما "أن يكون المثقف مع السلطة وإما ضدها".

لقد أدت هذه السياسة إلى هلاك الكثير من المثقفين في المجموعتين الثانية والثالثة، ولكن لم ينج جميع من كان في صف السلطة من الهلاك، بل أن بعضهم خسر حياته بسبب بعض المواقف الجريئة. ويتطلب الأمر أن نشير هنا أيضاً بأن من يقف إلى صف المعارضة ضد سلطة مستبدة لا يعني أن تلك القوى المعارضة هي بالضرورة ديمقراطية، وإنما إذا ما وصلت إلى السلطة ستمارس أساليب ديمقراطية في علاقتها مع المثقفين أو مع المجتمع أيضاً. فحين تتحول قوى المعارضة إلى مواقع السلطة، يتحول من كان في السلطة إلى صف المعارضة في ظروف بلدان نامية ومتخلفة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ووعياً بضرورة الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وبالتالي تنقلب المعادلة ولكن لا تختلف مضامينها. في مجرى الصراع مع النظام الدكتاتوري الصدامي، استطاع النظام أن يكسر شوكة بعض المثقفين من المعارضين والمستقلين وأن يجرحهم إلى مواقعهم وأصبحوا من المدافعين عنه وعن نظامه أكثر من مثقفي السلطة ذاتها. وهي حالة ليست نادرة في التاريخ. ولكن الغالبية العظمى من المثقفين المعارضين والمستقلين حافظوا على رفضهم للنظام السابق، بغض النظر عن خلفياتهم الفكرية والسياسية، أو ما مارسه البعض بعد وصول المعارضة إلى السلطة، إذ هو ليس موضوع بحثنا. واستشهد الكثير من المثقفين تحت التعذيب أو كان نزول زلزال النظام، أو أصبح في مقابره الجماعية، أو أنها أجبرت الغالبية العظمى منهم على الهجرة خارج البلاد.

موضوع هذه العلاقة القديمة الجديدة بين السلطة والمثقف يعالجها الصديق الكاتب والصحفي ماجد الخطيب في مسرحيته الجديدة "عاشق الظلام". فقد صدرت عن إحدى دور النشر الدمشقية في نهاية العام 2006 هذه المسرحية، وهي من فصل واحد وممثل واحد وأصوات عديدة دون وجوه وصوت متفرج واحد. المسرحية التي يقدمها لنا السيد ماجد الخطيب تعالج موضوع العلاقة الجدلية بين السلطة والمثقف، السلطة المالكة لأدوات القهر والمثقف الذي لا يملك سوى ثقافته، من خلال تناول شخصية شاعر عراقي، ولكنها في الوقت نفسه تعالج الوضع الثقافي العراقي في فترة الحكم الدكتاتوري المقبور عبر أبعاد ثلاثة رئيسية، وأعني بها:

البعد الأول هو المثقف الضحية في ظل نظام استبدادي مقيت، والأجواء والهاوية التي يمكن أن ينحدر إليها الضحية بعد سقوطه، وليس كل ضحية بالضرورة.

البعد الثاني هو السلطة أو الجراد الذي اسقط الضحية نتيجة ممارسته سياسة الجزرة والعصا وأساليب تلك القوى التي تأتمر بأمر الدكتاتور والتي بدونها لما استطاع المستبد البقاء في الحكم طويلاً. البعد الثالث هو القارئة والقارئ أو الجمهور الذي عاش التجربة ويشارك في متابعة المسرحية. وفي الوقت الذي أعطى حيزاً كبيراً للضحية، باعتباره موضوع المسرحية أساساً ويعيش صراعاته الداخلية، فإنه ومن خلال حديثه المباشر مع نفسه كشف بصورة مباشرة وغير مباشرة عن سلوك الجراد وأساليبه في التعامل مع الشعراء وإخضاعهم لما يسعى إليه الدكتاتور بثتى السبل المتوفرة تحت تصرفه بغض النظر عن مدى شرعيتها أو تحريمها دولياً. ولكن من خلال المسرحية لم يبرز دور المثقف الراض لضغوط السلطة وقهرها إلا من خلال حديث الممثل الوحيد (س) القائل بأنه كتب وتحدث ضد الساكتين فقط! ظاهرة الرفض كانت أوسع من ظاهرة الخنوع والخضوع للدكتاتورية في صف المثقفات والمثقفين في العراق. السؤال الذي يراود الجميع هو: هل يمكن أن تتخلى السلطة، أي سلطة، عن السعي لتطويع مثقفها؟ وفي أي من الأجواء يمكن أن ينشأ المثقف المستقل الذي لا يخضع لهذه السلطة أو تلك بل يتصرف بوحى من ضميره ووعيه وقدرته على تقدير الموقف الصائب الذي يفترض أن يتخذه؟ إنها الإشكالية الكبيرة من الناحية النظرية والعملية في آن.

ليس صعباً أن نقوم بتحليل العلاقة بين المثقف والسلطة في فترة البعث فقد عشنا التجربة بكل حذافيرها. إذ أنها مشكلة الديمقراطية والحياة والمؤسسات الدستورية وحقوق الإنسان الغائبة عن حياة ونشاط الشعب العراقي بكل مكوناته خلال فترة حكم صدام حسين. فالمثقف لا يمتلك الحرية لكي يقرر موقفه من الأحداث. ولكن كيف عالج الكاتب في مسرحيته عاشق الظلام هذه القضية الحساسة، قضية العلاقة بين السلطة والمثقف؟ لقد اختار الكاتب شخصية الشاعر بسبب إصرار الدكتاتور على التعامل بشكل خاص مع الشعراء على طريقة الحكام العرب في مختلف العهود، من يتلوا مديحاً للدكتاتور يتسلم عطايا المستبد بأمره ومن لا يفعل ربما يواجه السجن والمحاكمة بالرزق أو حتى الموت.

الجديد في المسرحية لا يكمن حقيقة وجود الصراع وطبيعته، إذ أنه دائم الوجود، بل في الأسلوب الذي اختاره الكاتب لطرح المشكلة وتجلياتها في مجرى الحوار وسبل ولوج الأصوات الأخرى إلى المسرحية في ظل منولوج ذاتي يجسد أبعاد صراعه الداخلي وموجه في جوهره للمشاهدين الذين يراود لهم العيش في التجربة ذاتها. فالأصوات كانت تنطلق إما من غرف أخرى في الشقة لا وجوه لأصحابها، وإما أن تظهر على شاشة التلفاز أو عبر الهاتف، إضافة إلى صورة الكاتب ذاته أو ضميره المخطوف من جسده حتى أصبح غريباً عنه. ليس سهلاً السيطرة على مشاعر وانتباه الجمهور في مسرح لا يقف فيه سوى شخصية سلبية واحدة، لهذا كان الحوار التلفزيوني والتلفوني وأصوات أفراد العائلة مدخلاً مهماً في بناء المسرحية من أجل تغيير أجواء السرد المسرحي بحركة صوتية يتسنى لها تغيير أجواء المسرح لصالح النص والممثل وتحقيق التفاعل الحسي بين الممثل والنص والجمهور، خاصة وأن الجمهور يعرف الحقيقة بكل أبعادها!

المسرحية تقدم للقارئ والمشاهدات والمشاهدين، إذا ما أخرج النص مسرحياً، نموذجاً حياً لشخصية شاعر ألفناها في حياتنا اليومية في فترة الحكم الدكتاتوري المقبور، شخصية معروفة، رغم وجود ما يماثلها، شاعر كان مبدعاً ينزع عن نفسه ضميره ويتصرف بحرية المغلوب على أمره لصالح الطاغية وحروبه وسياساته ولم يعد شعره ينبض بالحياة. ويبدو من مجرى الحوارات الذاتية ومع الضمير غير الفاعل أن الشاعر كان يتبنى مواقع فكرية أخرى غير مواقع فكر الدكتاتور، ولكنه انتقل إلى مواقع المستبد بأمره دون أن يشعر بالندم على فعلته، بل كان يغوص فيها ويشرب كأس الذل حتى الثمالة. ولكنه، ورغم سقوطه الكامل وتحوله إلى مثقف السلطة كان يخشى السلطة من جهة، ويستعيد أحياناً شبح ضميره الذابل والمعذب المرمي على قارعة الطريق ليحاسبه على ما اقترفه بحق نفسه وشعره قبل غيره بصوت يشوبه الشك ويسيطر عليه العجز عن العودة إلى جسد الشاعر الذي غادره دون رجعة من جهة أخرى. ويمكن للمتفرج أن يؤشر بيديه دون تردد إلى هذا الشاعر أو ذاك بأنه المقصود من هذه المسرحية، سواء أكان شاعر السلطة أو تحول إلى شاعر للسلطة بفعل عوامل عديدة، علماً بأن الأصابع تمتد إلى شخص بعينه، والمنافسة التي تتجلى في حديثه مع الموظف الكبير أو مع البيدر، باعتباره شاعر السلطة بالأساس، وهو لا يختلف عن طينة وطبيعة (س) ذاته، إن لم يكن ذاته، إذ يمكن أن يتبادلا المواقع. نحن هنا أمام صراع بين السلطة والمثقف وخضوع الأخير للسلطة، وهو نموذج واحد غير سائد في العراق، لكنه مألوف ومعروف ومدان. وهنا نلتقي بصراع آخر، هو الصراع بين الشاعر المعارض، الذي تحول إلى شاعر جديد للسلطة، وبين شاعر السلطة منذ البدء، إذ يكشف لنا الكاتب حقيقة الغيرة والحسد التي تقتل الاثنين بسبب سعيهما المشترك إلى ما يرضي الدكتاتور ليمنحها ما شاء من الأوسمة والعطايا المالية وليحتل لديه الموقع الأول! يمنح الكاتب الصراع بين الضحية والجلاد أبعاداً أخرى ذات أهمية فائقة للضحية التي تسقط تحت سياط الجلاد المستبد بأمره، تحت وابل من الجزرات والعصي في آن واحد.

حين يبدأ الشاعر بالهبوط من عليائه الشعري، حين يعدو مدفوعاً بسرعة فائقة من قممه العالية في أعالي الجبال نحو الهاوية لا يشعر بأي وخز للضمير، بل يزيد على ذلك حين يبدأ بالتكالب في المنافسة مع شعراء آخرين من ذات الطبيعة، بهدف التقرب من الدكتاتور للحصول على وسام جديد أو لقب الشاعر الأول أو شاعر القادسية أو أم الحواسم وللوصول إلى عطايا أخرى، ولكنه يبقى في المحصلة النهائية شاعر الظلام والجن والرذيلة، شاعر البؤس الداخلي، رغم أن الظلام يمنحه بعض الجرأة لمواجهة نفسه والحديث الصريح مع نفسه حول الجلاذ، ولكنه يبقى في خشية شديدة من زائر ثقيل يأتيه عبر الظلام وعبر النافذة ويفسد عليه جرأته البائسة التي لا تأتيه إلا في الظلام الدامس وهي محفوفة بمخاطر جدية. المسرحية تقدم لنا صورة فردية لشاعر، ولكنها تعتبر نموذجاً حياً لمجموعة من الشعراء أو الأدباء وغيرهم، خضع لما أراد منه الدكتاتور عبر أزماته والمسئولين عن ترتيب الدعاية له ورفع سمعته في مجمع المستبدين.

المسرحية تطرح أزمة الخوف المهيمنة على الساحة السياسية في فترة سيادة الدكتاتورية والقمع الهجمي في دولة بوليسية تحكم فيها أجهزة الأمن والمخابرات، حتى القسيس الذي يقف وراء صومعة الاعتراف يخشى من الضحية، إذ يمكن أن يتسبب في كارثة له مع السلطة، أو أنه يخشى على نفسه وكنيستته من وجود لاقطات نصبت من قبل أجهزة الأمن في جدران صومعته، فيرفض حتى سماع اعتراف الشاعر الذي يريد طلب الغفران باعترافه بما أُلحق من أضرار بآخرين من شعراء قرروا السكوت وتجنب السقوط في الهاوية التي حط فيها الشاعر (س)، ولكنه يريد أن يكونوا معه في نفس القارب الآيل إلى الغرق أو في نفس الهاوية التي سقط فيها، وبالتالي يبدو وكأنه أصبح شبه جلاذ. وقد استطاع الكاتب أن يسيطر على أحاسيس القارئ في مشهد العلاقة بين الشاعر (س) وشاعر السلطة (البيدر) عبر شاشة التلفزيون والنظرات العدائية والغامزة المتبادلة بينهما. إن الشاعر الذي استسلم لجلاذيه تحول في لحظات معينة إلى جلاذ ضد الذين رفضوا الاستسلام مثله أو سكتوا ليبتعدوا عن الأضواء، ولكنه كان يكتب ضد من يسكت ليسحبهم إلى المستنقع الذي سقط فيه. الطبيب النفساني، الذي يعالج الشاعر المصاب بانفصام الشخصية وعاشق الظلام ويعاني من صراع داخلي، يدرك عمق الهاوية التي انتهى إليها الشاعر ويدرك الخواء الذي يعيشه والصراع الذي يؤرقه حين تزوره صورته الأصلية، شبحه الباهت، حين تحاسبه على أفعاله. فهو عاجز عن التماسك أمام صورته أو شبحه لأنها تطرح الحقيقة المرة دون رتوش.

والطبيب النفسي يتلاعب بالكلمات التي تعبر عن واقع الشاعر وماساته في محاولة للسخرية منه، ولكنه يستخدم كلمات حمالة أوجه، إذ أنه لا يأتمن الشاعر ويخشى من غضبه واحتمال تفاقم سقوطه في الهاوية وما يمكن أن يترتب عن ذلك ويجره عليه من مصاعب لا تحمد عقباها.

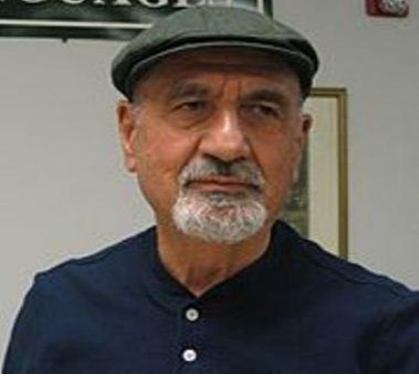
لا تقدم لنا المسرحية صورة الجلاذ ذاته مباشرة بل من خلال أزماته ومريديه والمؤتمرين بأمره، وهي التي تروج له وتتعامل مع الضحية وتسقطها لصالح الدكتاتور، إذ لا يمكن أن يحكم أي دكتاتور جلاذ على هذه

الأرض دون أن يكون لديه من يرتب له الأمور ويدعم سياساته ويكرسها ويدجن الناس ويفرض عليهم القبول بها ويسعى إلى نقل الشعراء وغيرهم من صف المعارضين للجلاد إلى صف الجلاد. ولكن الكاتب يكشف بجمل قصيرة وعلى عجل عن ضحالة الدكتاتور وولده وعجز الأخير حتى عن فهم شعر ريك وضحل، إذ أن بناء المسرحية قائم على تحليل الوضع النفسي والبؤس الداخلي للضحية التي نست أحياناً أنها ضحية! المسرحية تنقلنا إلى أجواء رمادية أو سوداء قابضة للنفس عاشها الشعب العراقي طيلة عقود، ولكن عبر رؤية ولغة ساخرة وغاضبة تأتي على لسان الشاعر ذاته وتجسد عمق انهياره واستسلامه أمام القوة والعنف والمال. لقد غاص الكاتب في أعماق الشاعر المنهار وخرج لنا برؤية واضحة عن ذهنية ونفسية شاعر انتهى، كما يقول المثل الشعبي "تتنه خلصان" وحط في أكوام من الوحل. وبقدر ما كان الشاعر ذليلاً مستجيباً لطلبات الجلادين، كان وقحاً وعدوانياً وامتسلطاً على عائلته (حايط نصيص)، كما يقول المثل الشعبي، وهو تعبير عن التناقض الذي يتآكل فيه وازدواجيته اللعينة.

السؤال الذي دار في بالي هو: هل في مقدور شاعر فقد الإحساس بالفعل الذي يمارسه وينافس الآخرين في الشعوذة التفكير بالانتحار، إذ أن خشيته من الموت هي التي دفعت به إلى هذا الموقع؟ والجدير بالإشارة إلى أن سبب الرغبة في الانتحار لم يكن موضوع الشعر الذي يكتبه في تمجيد الجلاد والحرب، بل لأن ما يكتبه كان قد أصبح "خريطي" من حيث الشكل الشعري والمضمون، كما عبرت عنه زوجته بصدق وألم كبيرين.

أوائل نيسان/ابريل 2007

## قراءة في رواية صيدُ البطِّ البريِّ للروائي محمود سعيد



عنوان الكتاب: صيد البط البري

المؤلف: محمود سعيد

دار النشر: دار ضفاف للنشر - الشارقة - بغداد

سنة النشر: طبعة أولى 2013

ما إن تقرأ عنوان هذه الرواية للكاتب والروائي المبدع الأستاذ محمود سعيد حتى يخيّل لك أنك ستقوم برحلة مع مجموعة من الأصدقاء لصيد البط البري في إحدى الغابات أو المناطق التي تعيش فيها هذه الطيور الجميلة. ولكن ما أن تبدأ بقراءتها حتى تفاجأ بمسألة أخرى بعيدة كل البعد عن رحلة ممتعة لصيد البط البري، بل يضع الكاتب القارئ والقارئة أمام فاجعة كبرى، أمام مأساة إنسانية مريعة، أمام عملية صيد وقتل مباشر وخارج القانون للبشر العراقي، لأبناء وبنات الحضارة البابلية.

وحين تبدأ بقراءة هذه الرواية الإنسانية القيمة "صيدُ البطِّ البريِّ" تجد نفسك غير قادر على تركها، فتواصل القراءة حتى تنتهي منها وأنت مفجوع بأحداثها المريعة وعواقبها المريرة وعمق تعلق الكاتب بحب الإنسان وحياته وكرامته. ستجد نفسك بشكل عفوي أمام استنتاج أساسي لا مفر منه: كانت الحروب في الماضي وما تزال حتى الآن وستبقى أفعالاً غير إنسانية مدمرة للحياة البشرية ومخرّبة للحضارة الإنسانية، كما إنها تتسبب في العيش بكوابيس مرهقة لا حصر لها للشعوب، وإن الإنسان الذي عاش أحداثها يبقى يعاني طوال عمره

من كوابيس منهكة للصحة والنفوس. وتجارب الشعوب والأفراد تؤكد بأن كوابيس الحروب مريعة، متفاعلة، متداخلة ومنغصة لعيش الإنسان، ولن تفارقه رغم معالجات الطب النفسي. كما يتأكد لك بأن حطب الحروب أو وقودها هم الناس الأبرياء، وليس الحكام الأغبياء والأوباش الذين يزجون شعوبهم بتلك الحروب أو يشعلونها لتحقيق أهداف غير إنسانية. ولا شك في أن حروب العراق كلها تدخل في هذا السياق، سواء كانت تلك التي أشعلها النظام ذاته في الداخل والخارج، أم تلك التي أشعلتها الولايات المتحدة ومن تحالف معها لـ”تحرير الكويت” في العام 1991 أو لإسقاط الدكتاتورية في العام 2003. والحروب بالمحصلة النهائية لا تحل أية مشكلة قائمة حين يعتقد مشعلوها بقدر الحرب على حلها، بل العكس هو الصحيح، إذ تزيدها تعقيداً وتضيف إليها مشكلات جديدة، كما تخلق جروحاً عميقة تترك ندبها العميقة طويلاً في العلاقات الإنسانية بين الشعوب.

رواية “صيد البط البري” تعتبر واحدة من أروع روايات محمود سعيد التي يعالج فيها بعض أبرز العواقب الوخيمة والمفجعة لحرب الخليج الثانية (1991) وما نشأ عنها وارتبط بها فيما بعد في حرب الخليج الثالثة (2003) ضد العراق. إنه تسجيل أمين وذكي ومؤثر لعواقب حربين ما كانتا ينبغي أن تحصلأ، وما كان للشعب العراقي أن يعاني منهما، إضافة لما حصل بينهما، وما يعاني منه منذ سقوط الدكتاتورية حتى الآن. إن ما نقرأه في الرواية هو البعض البارز من عواقب تينك الحربين.

تقدم لنا هذه الرواية إنساناً عراقياً طبيعياً تخرج من كلية اللغات وجُند بالرغم منه، وكبقية العراقيين، في القوات المسلحة العراقية التي اجتاحت واحتلت الكويت في العام 1990 بعد أن كان العراق قد خرج لتوه مثخن الجراح من حرب مجنونة ضد إيران دامت قرابة ثماني سنوات. وجد المواطن المجند منصف نفسه في الكويت ضائعاً بعد غزو جنوني. تعرّف على التذمر الذي شمل كل مواطني الكويت والعاملين فيه من العراقيين والعرب وغير العرب. شاهد بأمر عينية كيف كان يمارس السلب والنهب في الكويت. ولكن كان مفجوعاً بما كان يحصل والعواقب المحتملة. لم يطل فيه المقام حتى وجد نفسه مع مئات ألوف العراقيين الجنود والضباط وغيرهم في عملية هروب جماعية من الكويت صوب العراق.

وجد منصف نفسه في وسط آلاف الجنود والضباط الهاربين من الجحيم المرتقب. كان تهديد القائد العسكري الأمريكي صارخاً: سنصطاد العراقيين كما نصطاد البط، هكذا نقل راديو مونت كارلو تصريح هذا القائد. وهكذا كان على الطريق الدولي الصحراوي الطويل باتجاه الأراضي العراقية. كانت أصوات وبيانات الدعوة إلى الهروب تسمع وتقرأ في كل مكان تذيعها وتوزعها القوات الأمريكية.

ابتعد منصف بمعطفه العسكري وبسطله الثقيل عن الطريق العام وسار بالاتجاه الصحيح وهو يغوص ويتعثر في رمال الصحراء. هذه التعب وأنهكه الجوع ومع ذلك واصل السير. ربض في حفرة بعيداً عن الطريق الدولي. غفا قليلاً. استيقظ على اهتزاز الأرض كزلزال شديد. “رفع رأسه، ارتقى تلة وحدق بالشارع، استخدم ناظوراً



عثر عليه في الطريق بعد أن تخلص منه صاحبه. “رأى لهباً يمتد عشرات الكيلومترات على طول الطريق الدولي. يعلو، يحرق الظلام. انفجارات جبارة، شظايا تتناثر على بعد مئات الأمتار، سقط بعضها مدوياً على بعد منّي متر منه، بالرغم من بعده أحس بالخوف. ماذا يعصمه من شظية ضالّة!” (ص 10) هكذا يصف لنا محمود سعيد حالة الجندي منصف الهارب من الكويت. رأى منصف “أسراباً هائلة من الطائرات ترمي حممها. قذيفة تقسم شاحنة عسكريّة قسّمين، يتطاير العشرات من فوق السيّارة، ينقذفون إلى الأعلى، تلتهمهم النيران، يحركون أيديهم وأرجلهم كأنهم يسقطون من عليّ. طفل يلتهب، يرتفع نحو ثلاثة أمتار، ثم يسقط، سيارات مدنيّة تغرقها النيران، تنفجر، يتطاير زجاجها، أبوابها، ما فيها، من فيها. مئات آلاف النّاس يحترقون على طول الطّريق، ينقذفون في الهواء كأنهم تماثيل خشب. كاد يتقيّاً.. ظلت الطائرات تلقي بالقنابل ، بالمتفجرات، بالوقود حتى بداية ضوء الفجر .. عندئذ بدأت الطائرات السمتية بقنص من بقي حياً: جنود، مدنيون، نساء، أطفال، كما يقنص الصياد ضحاياه.” (ص 10) أليس هذا جحيماً فعلياً نفذته القوات الأمريكية ضد العراقيين والعراقيات، أطفالاً ونساءً وشيوخاً عجزة.

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: إذا كان الضباط والجنود يهربون بأعداد غفيرة من الكويت باتجاه العراق، عشرات الألوف منهم سيراً على الأقدام وبعضهم في عربات، الكثير منهم ترك سلاحه ولم يعد قادراً على القتال ولا يرغب به أصلاً، فلماذا استخدمت دول التحالف القذائف المحتوية على اليورانيوم المنضب في عدوانها على العراق في العام 1991؟ لماذا استخدمت هذه القذائف ضد أهداف مدنية وضد البشر الهارب من الكويت والذي لم يعد في أتون المعركة؟ ألم يكن هذا بمثابة انتقام وحشي من العراقيين والعراقيات لأنهم، كما قال قائد العمليات العسكرية في العراق حينذاك سفارتس كوبف، انتخبوا صدام حسين مدى الحياة؟ وهل حقاً انتخب سكان العراق هذا الدكتاتور الأرعن أم إن قمع النظام وإرهاب الدولة هو الذي فرض عليهم صدام حسين؟ إن ما حصل على الطريق الدولي كان مجزرة بشرية مرعبة، مجزرة نفذتها الولايات المتحدة مع سبق إصرار وتصميم! لنقرأ معاً وصفاً لأرض معركة تدور من طرف الولايات المتحدة ضد عزل هاربين من الجحيم، كما كتبه لنا محمود سعيد:

“غادر مخبأه، اقترب من الشارع، كاد يتقيّاً ثانية بالرغم من جوعه، ماتزال الدماء تسيل من بعض الجثث، لكنّ بعضها بات أسود، السيّارات، الجثث، عشرات آلاف العائلات متفحّمة في سيّاراتها، خارج السيّارات. رجال، أطفال، نساء، جنود عرفهم من أحذيتهم الكبيرة المميّزة، لم يبق منهم سوى أجساد متفحّمة قرب حدائد سلاح كانوا يحملونه. الوجوه تماثيل من الفحم. عظام سود. لم يدر لماذا كانت عيون بعضهم بارزة ومتفحّمة، توقّف. ما هذا؟ لا، لن يصدّقني أحدٌ لو رويت له ما أشاهد الآن. رجل وراء مقود السيّارة، كلّه من الفحم، يلتفت إلى اليسار، الشّبّاك حديد فقط، ليس هناك زجاج، كلّ من في السيّارة متفحّم، هيكل امرأة في المقعد الأمامي مع السائق، ثلاثة أطفال في الخلف، لماذا كلّهم منحنون نحو الأسفل؟ مقاعد السيّارة محترقة. حديد أسود. نوابض سود، أجساد بشريّة سود، السائق وحده تمثال فحم منتصب ينظر إلى اليسار؟ أفاجأه اللهب

فأحرقه وجمّده كمنصب منحوت؟ يا لعذابه! لماذا ينظر إليه؟ الكرّتان السّوداوان اللتان كانتا محجّريه بارزتان، خارجتان من الجمجمة، تلمعان في ضوء الشّمس، من يصدّق؟ عيانان متفحّمان لامعتان في جمجمة متفحّمة! في حافة الطّريق الدّولي المبلّط وعلى بعد متر واحد، اثنان تغطّي الرّمال رأسيهما، أيديهما وحدها تتمرّد على الرمال، مرتفعة متفحّمة مع أصابعها، هل نبشت القبلة الرّمال ودفنتهما؟ سيارة يبدو سائقها كاملاً، كلّه من الفحم حتى شعره، يغطي نافوخه، كباروكة صغيرة، عيناها مفتوحتان، فمه مفتوح على أسنان كاملة قاومت اللهب، لم يحترق شيء منها، كفاه وحدهما على “دشبول” السيّارة مستريحتان متفحّمتان، حتّى ملابسه كما هي لكنّها من الفحم. جنديّ بملابسه، قتله اللّهب وظلاه بالسّخام. عيانان مفتوحتان. فم مفتوح. شاربه كما هو، شعر رأسه باقٍ كاملاً لكن كل ذلك من فحم. سبعة جنود ببطانياتهم وملابسهم، أحدهم قرب الآخر، ثلاثة جنود مدفع مضادّ للجوّ متكومين على بعضهم متفحّمين، لماذا معظم المتفحّمين بلا رؤوس؟ مئات سواق السيّارات العسكريّة متفحّمون في مكانهم، عشرات آلاف الضّحايا من فحم، منبثّون على الطّريق المبلّط الدّولي وجناحيه من الرّمال الشّاسعة كأن الصّحراء أنبتتهم، وزرعتهم بعثية، ومن دون نظام في أرض تمتد عشرات الكيلومترات. ” (ص 11/10) وحين وصل إلى بغداد بعد عذاب مرير وجد بيت والديه فارغاً. أخبرته أخته والبكاء يشل نطقها، إنّهما قتلا في “مخبأ العامرية مع جمهرة كبيرة من البشر البريء الذي “راح يبغي نجوة من هلاك فهلك! مصائب متتالية شملت ملايين البشر بالعراق. يا لبشاعة جرائم الحرب المرتكبة، جرائم إبادة جماعية وضد الإنسانية، يا لفظاعة الهدف الذي سمح بقتل عشرات ألوف البشر في يوم واحد لا غير... هل يمكن لإنسان يرى كل ذلك أن لا يصاب بعقل نفسية، أو أن يبقى سالماً معافى، أو أن لا يصاب بكوابيس تفسد عليه حياته وتقوض كيانه؟ وهل من المستغرب أن يتكرر العيش مع هذه الكوابيس في الليل والنهار، وبالتالي أن يسرح وهو يقود عربته بسرعة فائقة فتصطدم بعمود كهربائي محاولاً في اللحظة الأخيرة تجنب إصابة امرأة وطفليها بموت محقق؟ إن الاختصاصيين يطلقون على حالة منصف بـ “صدمة ما بعد الحرب”، وهي لعمري أفسى الصدمات المنغصة لعيش الإنسان الذي يرت كل تلك المآسي ويبقى على قيد الحياة!

إن منصفاً ليس إلّا نموذجاً لعشرات الآلاف من العراقيين الذين يعيشون كوابيسهم اليومية في أعقاب حروب متتالية وحصار وموت جماعي خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين وما بعدهما. لم تكن القوات الأمريكيّة وحدها شرسة وقاسية مع الشعب العراقي ومع المجندين على نحو خاص، بل كان النظام العراقي شديد الشراسة مع الشعب العراقي وشديد القسوة قبل الحروب وإثنائها وما بعدها. فالجندي أو الضابط الذي ينجو من الموت أثناء الحرب ويتراجع ويعجز عن حمل سلاحه بسبب الجوع والإنهاك وفي حالة هروب جماعي من قوات العدو التي تطارده، يجبر عملياً على ترك سلاحه، ولكنه يحاسب ويحكم عليه بالموت. هذا ما تشير إليه الرواية في الحوار التالي بين مجموعة من الجنود وضابط عراقي، بعضهم يريد الذهاب إلى الولايات المتحدة:

“توقّع كمعظم النَّاس، العاديين، المثقّفين سقوط الحكومة بين لحظة وأخرى. إن تغيّرت الحكومة فلم الذهاب؟ ردد غير واحد ذلك. لكنّ الجميع فوجئوا باتّفاق خيمة سفوان مع الأمريكيان. هتف أحدهم بألم: “سيبقى الوضع، لن يتغيّر.” “سيعود كلّ شيء إلى ما كان عليه” التّغيير حلم، بعيد المنال “أحسّ بخسارة مضاعفة. حتّى وفاة والدّيه لم تدخل البؤس إلى قلبه، أصابته بحزن عميق فقط. لكنّ بقاء الوضع خلخل كيانه. هتف أحدهم بلوعة: “بعد كلّ التّضحيات، والموت، والحرق والدّمار سيبقى السيف مصلّتا على الرّقاب.” اجتثّ خبر الخيمة ما تبقى من فرح، سعادة، أمل في الحياة. أحسّ أنّ الشّؤم ساد في جوّ المقهى ثقيلًا، قاتلاً. لكنّ أحدهم نظر بغتة إلى الصّورة المعلقة على الحائط، هتف بسخرية: أهلاً! أهلاً بالنّشمي! ضحك غير واحد. علّق أحدهم: أسد عليّ وفي الحروب نعامة.

- منصف؟

التفت إلى الدّاخل، شخّص المتكلّم، عميد تقاعد قبل الحرب ببضعة أشهر. رآه بين حين وحين من قبل في غير مناسبة، أوّل مرّة يتكلّم معه، كيف عرف اسمه؟ في الوقت نفسه دخل المقهى كهل حنطيّ اللون، متوسط القامة، لم يتجاوز الخمسين. شعر وجهه لم يحلق لبضعة أيام، سروال كحلي وسترة جلد، ملامحه حزينة، وقف قرب مسطّبه. أجاب منصف: “نعم”. جاء صوت العميد قويًا مباشرًا من زاوية المقهى. هتف: “أنت مازلت جنديًا. أين سلاحك؟”. ارتجّ على منصف: لا أدري تركته في قلعة صالح. لماذا؟

سئستدعي وتُسال عنه، ستُحاسب أنت وغيرك.

ارتفع غير صوت في المقهى: أبنّي جنديّ. أخي جنديّ، أولاد أخي جنود، الآل..

قاطع العميد: كلّمهم سيُسالون عن السّلاح، القانون نفسه موجود قبل الحرب وبعدها، مادام النّظام باقياً سيحاسبون، سيُعاقبون، سيكون مصيرهم الإعدام أو السّجن، قانوناً هم متخاذلون، يعني جنباء، يعني إعدام أو سجن إن رأف بهم القاضي، أعدم عزة الدّوري أكثر من ألف منسحب من المحمّرة.” (ص 14) منصف، الذي هاجر إلى أمريكا بواسطة مكتب الهجرة التابع للجيش الأمريكي، يعيش في الولايات المتحدة حياة معقدة، يعيش الماضي بكلّ حذافيره ومآسيه يومياً، وحين يجد الفرحة في الجنس أو اللقاء بأصدقاء له ولو لساعات، تعود إليه الكوابيس، وكأنّها تنتقم من سعادته القصيرة، فيصرخ إلى الحد الذي يربع النساء اللواتي يمارس الجنس معهن. يهرين مرتاعات من صراخه ولا يعدن له، رجل يعيش الرعب الوحشي. واحدة فقط عشقته ووافقت على العيش معه، إنها حلّيمة، ولكنها لعوب!

رواية صيد بط بري لا تقدم لنا طريق الآلام والحزن والأسى في حرب “تحرير الكويت” حسب، بل وتجعلنا ننف غاضبين أمام مأساة “ملجأ العامرية” الذي قصف بقنبلتين “وزن الواحدة ألفا رطل، اخترقتنا سقفاً

بسمك يزيد على مترين” حيث قتل فيه 400 إنسان معظمهم من النساء والأطفال والمسنين، مبنينهم والد ووالدة منصف”، إضافة إلى ما أعقب حرب الخليج الثالثة من جرائم بشعة ارتكبتها القوات الأمريكية ورجال الأمن الأمريكيون في سجن “أبو غريب”. هكذا كانت الولايات المتحدة في قنابلها النووية على هيروشيما وغازاكي وفي حربها ضد الفيتنام ويوغسلافيا، وكذلك بالعراق.

لقد دوختنا الإدارة الأمريكية بدعايتها الباهتة عن حقوق الإنسان والقيم الحضارية الحديثة، وإذا بها ترتكب أبشع الجرائم بحق السجناء، بغض النظر عن الجرائم التي ارتكبتها هؤلاء السجناء، فهم أمانة في عهدة القوات الأمريكية ويفترض أن يحاسبون أمام القانون، وإذا بهم يسامون سوء العذاب من تعذيب نفسي وجسدي يفوق ويتماثل مع ما كان يرتكبه صدام حسين. وقد تعلمت أجهزة الأمن العراقية الجديدة و”المؤمنة بالله والرسول والمعصومين من أهل البيت والآخرة!” من تلك الأجهزة الأمريكية وأجهزة الدكتاتور صدام حسين الكثير من أساليب التعذيب الوحشية التي تمارس ضد المعتقلين والسجناء في الوقت الحاضر.

والكاتب لا يقدم لنا صورة مفصلة وأمينة عن عواقب الحروب ومآسيها الفردية والخاصة، بل ينقل لنا لوحات عميقة المعاني والأبعاد عن نماذج من العراقيين والعراقيات الذين يعيشون الغربة والصراع الداخلي من جهة، والاختلاف ما بين ثقافتين وانعكاسات ذلك على تصرفاتهم الشخصية، رغم وجود قيم عامة وشاملة. فحليمة المرأة العراقية المتزوجة ثماني مرات هي عاشقة مولها بمنصف وتشتعل فيها نيران بابا گرگر في داخلها (آبار النفط السطحية في كركوك). والحوار التالي بين حليمة ومنصف يعبر عن التحولات التي تطرأ على الإنسان حين ينتقل من ثقافة ليعيش في أجواء ثقافة أخرى أكثر تحراً وامتلاك الفرد لحريته، مع بقاء الخشية التي تحيطه بسبب المحيط العراقي القريب منه:

“قهقهت ساخرة: “شرب الخمر و “باب گرگر ” “أشارت إلى وسطها العاري” وتدين؟ أنت منافق.. ظلّ يحثق فيها! تطالبها عيناه بالتوضيح. مدت ذراعها، حددت نحو خمسة وعشرين سنتماً من ساعدها، قالت: “أضحى بهذا الطول.” نظر إليها شاكاً، مدّ ذراعه، وضع أصبعه على منتصف ساعده: “بهذا الطول؟ هزت رأسها، وهي تخرج ذؤابة لسانها متلَمَظة: “نعم”. انفجر ضاحكاً: “منذ متى وأنت تعاشرينه؟”. ردت جادة: لم أعاشره قط. تزوجنا. طلقته بعد ثلاث سنوات زواج، ثم تزوجت المكسيكي خمس سنوات، عندما سمع أن المكسيكي طلقني، جاء مستعظفاً، لم أدخله بيتي. ظلّ يتوسل، حتى أقنعني بالزواج مرة أخرى. لم أعاشر أحداً من دون زواج سواك.

وقف خلفها، أخذ يفرك كتفيها العاريين: “لماذا طلقته؟”. أمسكت يمينه، قبلتها: ضرب ابنتي، طرده، ثم طلقته، لكننا ظللنا أصدقاء”. لم يقتنع، سأل ضاحكاً: “والمكسيكي؟”. أجابت حالاً: “ظنّ أنني أخونه.” وضع خديها بين كفيه: “أفعلت؟”. ارتجت، تحرك ثدياها: “بالطبع لا، الخيانة زنى، حرام”. ابتسم: “لكننا كنا نلتقي”. انفجر ضاحكاً، حدقت به مستغربة: “عندما يسافر فقط.”

-أليست هذه خيانة؟

-أنت وحدك.

ابتسم وهو يهزّ رأسه: "الزنى معي إخلاص، ليس خيانة؟". أغمضت عينيها: "إنه موضوع آخر". جلس،

أخذ ينقر على المنضدة، ويشرب الشاي: ما هو؟

-يخونني مع أخريات.

-أأنت متأكّدة؟

-نعم.

-لماذا لا تصارحينه.

-لا أملك الدليل." (ص 57)

وحين التقى في بيت صديقه بكر بفتاة من شيكاغو أثناء احتفال بعيد ميلاد صديقة لها، راحت إليزابيث تغازله منذ النظرة الأولى وتعبّر عن حبها له بعفوية رائعة وعشق معلى، وهي الوحيدة التي تولع بها حقاً وربما رغب بالزواج منها، لولا الخشية من كوابيسه وصراخه الذي لم ينفعه الطبيب النفساني كثيراً. ثم التقى بتلك العاملة المكسيكية التي تتجنبه أثناء عملها ورفضت العلاقة به، ولكن حين تجنبها لاحقته والتقت به ومارست الحب معه، ولكنها لم تحتل صراخه أثناء النوم حتى أجبرته على مغادرة دارها ولم تعد إليه، إنها الكوابيس المرعبة التي يعيشها باستمرار.

تقدم الرواية لنا جوانب أخرى من الحياة في الولايات المتحدة، عن الحب والحركة وحياة الناس. تقدم لنا لوحات متنوعة عن تضامن الملايين مع الشعب العراقي ضد الحكومة الأمريكية وقراراتها بالحرب والتجوع وعن تخلف العراقيين والعرب عن المشاركة فيها.

تبدأ الرواية بالربط المحكم والسلس بين الكوابيس والارتطام بالعمود الكهربائي ومديرة الشركة التي يعمل فيها. بسر المرأة الصارمة التي أطلقوا عليها مسز تاتشر".، المديرة التي زادها صرامة وجهامة تلك اللصقتان اللتان وضعتهما على خديها فزادها قبحاً، رغم رشاقتها وقدها الجميل وشعرها الأشقر. وكان الجميع يعتقد بأنها أمريكية أو من أمريكا الجنوبية. وفاتحته بالحادث الذي ارتكبه وهو غاطس في أحد كوابيسه. ساعدته لينجو من العقوبة ودفعته للاستقالة من العمل لتشغله عندها ولو لفترة. التزم تعليمها الضرب على الحاسوب الإلكتروني مقابل أجر مغري. وفي بيتها فوجئ بأنها عربية وتريد تعلم الضرب على الحاسوب بالعربية واسمها سناء وإنما جميلة جداً. اكتشف ذلك حين دعوته إلى عشاء في مطعم فاخر فلم يتعرف عليها لولا صوتها. وكانت قد رفعت اللاصقين عن خديها الجميلين. أدرك سبب جمال ابنتها فجر التي رأى صورتها في بيتها. وتساءل مع نفسه، لماذا كانت تمارس لعبة اللاصق على الخدين ولا تكشف عن هويتها العربية وتمارس

القسوة والصرامة رغم رقتها وعذوبة صوتها؟ هل كانت خشية من ملاحقة ومضايقة العرب لها أو غيرهم جمالها، أو التخلص من محاولات التقرب لها للحصول على مكاسب في العمل أو الجنس؟ لا أحد يدري. والرواية تنتهي بمفاجأة أكبر من البداية، بدراما فعلية، بمأساة شخصية لسناء، لكنها كانت قد حسبت لها وتوقعت ذلك حين طلبت منه أن يكون عونها حين تحتاج إليه. وافق. اكتشف إنها حين استقالت من عملها في الشركة لم تعمل في الخليج كما أخبرته، بل نجحت في اختبار العمل مع القوات الأمريكية بالعراق، وإن تعلمها العمل على الكمبيوتر والكتابة على الحاسوب بالعربية لم يكن إلا بهدف العمل بالعراق. وكان يعتقد إن عملها في الخليج سيجلب لها المال الكثير، وإذا بها تعمل مع الأعداء الذين رفض هو العمل معهم حين خير بين البطالة والتسكع والعمل مع القوات الأمريكية كمتربح وبراتب كبير جداً لا يحلم به. كانت المفاجأة حين اتصلت ابنتها به راجية منه مساعدتها، وهو الذي أوعد أمها بمساعدتها عند الحاجة. وحين التقت به أخبرته بالمفاجئة الكبيرة، أمها سجين في سان دييغو بعد أن صدر الحكم عليها من محكمة عسكرية بسبب أسرار سربتها من العراق. وإنها الآن بحاجة إلى مساعدته. وعرف منها إنها ملاحقة وتحتاج إلى مساعدته، وأن هناك من اتصل بها يريد رؤيتها سراً وفي وقت محدد. إنها مفاجأة كبيرة ومليئة بالأسرار والأخطار. رافق البنت إلى محامي متطوع للدفاع عن الناس في مثل هذه الحالات. الأم متهمة بتسريب معلومات عن سجن أبو غريب وسجنت لهذا السبب. رجل مجهول اتصل بالابنة وطلب حضورها في موعد وكان معينين ليسلمها شيئاً. نظم منصف توزيعاً للأدوار، صديقه بكر في مكان والصديق الآخر الأيمن في مكان آخر يراقبان الطرق، هو وإليزابيث وفجر وققوا في المكان المحدد. "كانت الدقائق الأخيرة بطيئة مشحونة بالقلق والتربق" توقفت فجأة، ودون أن يشعر بذلك، دراجة بخارية يقودها ملثم سلم فجراً كيساً كبيراً وأسرع بدراجته بعيداً عنهم لا يلوى على شيء. حين فتحوا الكيس وجدوا أنه مليء بالأشرطة التي هربتها أمها نحو الخارج وهي كلها تدور عن سجن "أبو غريب" وربما عن قضايا أخرى غير أبو غريب ضمن الأفعال غير الشرعية التي ارتكبتها القوات الأمريكية بالعراق. بهذا تنتهي الرواية تاركَةً للمستقبل كشف ما في هذه الأشرطة من أسرار حين يكون الوقت مناسباً، واتخذ المحامي الخطوات الأولية للقاء بين الابنة والأم في سجنها والدفاع عن الأم في محكمة التمييز والقلق يؤرقهم، بين الأمل والواقع المر.

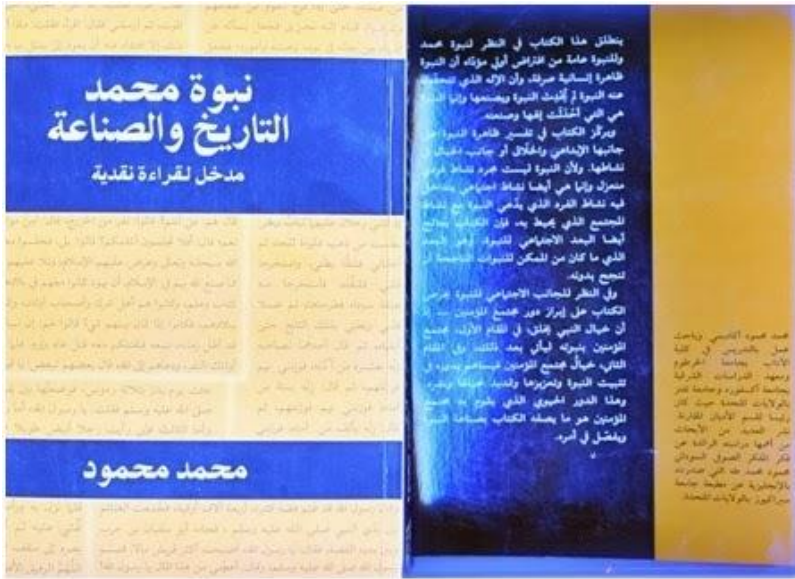
لهذه الرواية نكهة خاصة. فهي تطرح موقفاً واضحاً من أكثر من حرب واعتداء، من احتلال وتعذيب وموت بالجملة، من شعب ما يزال يعيش عواقب تلك الحروب والسياسات. فالرواية تتسم بالحبكة المتناسكة والسلاسة في تصوير الأحداث ولا تخلو من نكتة ومداعبة أو ضحك حتى على النفس. كما إنها من الروايات الهادفة التي تدفع بالقارئ أو القارئة نحو أعمال العقل والتفكير بالأحداث برؤية تستند إلى القيم والمبادئ العامة والشاملة. إذ إنها تطرح الكثير من التساؤلات عبر السرد أو الوصف أو تسجيل المواقف. وللكاتب على امتداد الرواية تشعر بالجهد الذي بذله لكتابتها ولتحديد موقفه الثابت والواضح من تلك الأحداث والذي يتجلى في الموقف الصارم والحازم لمنصف الذي يدين الحرب والمآسي والآلام التي تحملها الشعب العراقي في

الطريق الدولي بين الكويت والعراق وعذابات وآلام سجناء أبو غريب وضحايا ملجأ العامرية والعمل مع القوات الأمريكية بالعراق أو حتى بأمريكا. وفيه إدانة واضحة وصريحة لكل من عمل ويعمل مع القوات الأمريكية. ولكنه في الوقت ذاته يقف مفكراً بجدية حين يكتشف القرار الذي اتخذته سناء، ذات الهوية العربية الفلسطينية، في العمل مع القوات الأمريكية، بهدف فضح سياساتهم وأفعالهم بالعراق. لا شك، إن الرواية تطرح الصراع الفكري الذي يعاني منه المغترب، الصراع بين القيم والمعايير التي اكتسبها من ثقافته الشرقية الإسلامية والعربية وبين الثقافة الغربية الأمريكية بقيمتها ومعاييرها الحديثة، وما يصاب به المغتربون من توترات بينهما ومن ضياع في بعض الأحيان بين "مدينتي لا ونعم" حسب وصف الشاعر الروسي أفتوشنكو. ورغم التحرر الذي يبدو عليه منصف، بطل الرواية، فإنه يبقى خاضعاً لأخلاقيات شرقية يحاول فرضها على الآخرين، كما في قضية زواج ابنة حليمة من أمريكي مسيحي وهي مسلمة، والعكس صحيح أيضاً حين يحاول الأمريكي "الحضاري" فرض مسيحيته على البنت للزواج في الكنيسة. ولكن الصراع الداخلي يبدو أكثر شدة حين يخضع لرقابة الدين والحرية الفردية، بين القلب المتعطش للحب وبين الدين الذي يفرض عليه موقفاً معيناً، فهل يجوز لنا أن نضع الدين رقيباً على قلوب وعقول الناس؟ هذا السؤال يفرض نفسه حين نقرأ الحوارات بين بين حليمة ومنصف. إذ يضع الكاتب بطل الرواية أمام امتحان عسير، بين الوظيفة التي يفترض الذهاب للمقابلة من جهة والسفر إلى حبيبته الجديدة إليزابيث بشيكاغو أو إلى حليمة بسان ديبغو وبين المشاركة في مظاهرة واشنطن ضد الحرب. فيقرر ودون أدنى تردد المشاركة في المظاهرة الاحتجاجية. ويضعنا القارئ أمام حالة أخرى تستحق المقارنة. في المظاهرات التي شارك فيها أكثر من مليوني إنسان في مختلف المدن الأمريكية عرض بواشنطن حماراً يحمل اسم بوش. وليس هناك من حاسب الفاعلين. لو حصل هذا بالعراق ووضع اسم نوري المالكي أو قبل ذلك صدام حسين أو أي مسؤول عراقي آخر على حمار مماثل، فماذا كان سيحصل للفاعل أو الفاعلين؟ كلنا يدرك عواقب ذلك!! إن الرواية باختصار جديرة بالقراءة والتفكير بما وقع للعراق خلال العقود الأخيرة وما يعاني منه اليوم. إنها شهادة مهمة لتلك الأحداث ولو لجزء مهم منها.

لقد تمتعت بقراءة هذه الرواية ولم يكن الكتابة عنها سهلاً، وتمتعت بالكتابة عنها وتعلمت منها، وسيطر عليّ الحزن والكآبة، ولو لفترة، لأن الرواية تتسم بانتقالات بينية، تمنح فرصة التغيير بين الحزن والفرح، بين الجنس والكوابيس، تلك اللفتات الجميلة والحوارات المنعشة واللقاءات مع الطالبات والطلبة ومع حليمة وإليزابيث وسناء في بيت بكر والأيمن.

تشرين الثاني/ نوفمبر 2013

## قراءة في كتاب "نبوة محمد" للكاتب الدكتور محمد محمود



اسم الكتاب: نبوة محمد - التاريخ والصناعة - مدخل لقراءة نقدية

اسم الكاتب: محمد محمود (أكاديمي من السودان)

دار النشر: مركز الدراسات النقدية للأديان

مكان النشر: لندن، بريطانيا

سنة النشر: ط 2 / 2013

عدد صفحات الكتاب: 474 صفحة

المدخل:

يتضمن البحث العلمي المميز لذي أنجزه الباحث الأكاديمي والكاتب السوداني الدكتور محمد محمود مقدمة قصيرة ولكنها تكشف عما يمكن أن يواجهه هذا الكتاب من المتشددین والمتطرفین والجهلة من محاولات



للتشويه والإقصاء والتشكيك بكل ما هو علمي وخاضع للتحليل المادي التاريخي والمصاعب التي يواجهها البحث العلمي عموماً في هذه المرحلة التي بدت وكأنها صعود للفكر غير التنويري الغائص في الأساطير والخرافات والخزعبلات الفكرية والرافض للفكر النقدي من جهة، ويشعرنا من جهة أخرى بأهمية الخوض في مثل هذه الأبحاث مستنداً إلى الحكمة التي طرحها ابن خلدون في كتابه "المقدمة" إذ كتب ما يلي: "إنه لا يكفي أن تصف موج البحر، وظهور السفن، حين تريد أن تتكلم عن حياة البحر .. لا بد لك أن تفهم ما في القاع.. قاع البحر المليء بالغرائب والتيارات والوحوش... وقاع السفينة حيث يجلس عبيد وملاحون إلى المجاديف أياماً كاملة، يدفعون بسواعدهم بضائع تحملها السفن، وثروات وركاباً .. وينزفون عرقاً، وتتمزق أجسامهم تحت السياط.. أجل، ينبغي أن تعطيني صورة كاملة، عندما تريد أن تقنعني بأمر من الأمور". ثم يضيف الدكتور محمد محمود مسألة مهمة جداً تمس استقلالية وجدية البحث العلمي حين يؤكد ضرورة رفع القدسية عن كل شيء حين يراد التعمق حتى القاع في البحث العلمي بهدف الوصول إلى الحقائق الصلدة وليس برؤية مسبقة، ولكن بافتراضات علمية يسعى البحث للتيقن منها أو رفضها، أي البحث بهدف الوصول إلى الاستنتاجات العلمية التي يصعب دحضها من خلال إيراد الأساطير التي تناقلتها المجتمعات البشرية منذ العهود السومرية والأكدية والآشورية والكلدانية وعموماً البابلية أو الفرعونية أو غيرها كالتوراة والإنجيل والتلمود والمدراش... الخ والمسطرة من جديد وبصيغ وأساليب أخرى في القرآن.

حين كنت أدرس في الجامعة المستنصرية كان الأستاذ الكبير إبراهيم كبة يدرس تاريخ الفكر والمذاهب الاقتصادية. وكنت في حوار معه حول الدين الإسلامي والفكر الديني عموماً فأشار بما معناه: عزيزي أبا سامر، أنا أعالج في محاضراتي نقد الدين والفكر الديني المسيحي بشكل مباشر وواضح، وهذا يتوجه مباشرة إلى الدين والفكر الإسلامي، فهما في الجوهر واحد، ولكن الأوضاع وهيمنة الفكر الديني المتخلف لا تسمح بتوجيه النقد المباشر للإسلام أو الفكر الإسلامي". هكذا كان وهذا هو واقع العراق والدول العربية في الموقف من الدراسات والأبحاث العلمية في الدين والفكر الديني، وهي المشكلة التي عانى منها اليهود والمسيحيون في القرون الوسطى وبعدها بفترة غير قصيرة، ولكن فترة التنوير والتطور الرأسمالي، وخاصة المجتمع البرجوازي الصناعي لعبا دورهما في تغيير اتجاه التفكير والعقل في أوروبا والولايات المتحدة وكندا وأستراليا على وجه الخصوص، رغم إن المدارس الدينية فيها ما تزال تمارس أسلوباً مقارباً للماضي مع تفتح نسبي أفضل وعجز عن مواجهة الدراسات والبحوث العلمية. في حين إن الإسلام ما يزال يعيش الفترات التي عاشتها منذ قرون الديانة المسيحية وقبل ذلك الديانة اليهودية. ( بعد سقوط الدكتاتورية الصدامية بالعراق دعيت لإلقاء محاضرة في نادي اتحاد الأدباء والكتاب في العراق وقد تطرقت إلى أهمية نقد الدين والفكر الديني. وبعد الانتهاء من المحاضرة قدم أحد مسؤولي الاتحاد نقداً لي بشأن نقد الدين وقال يفترض أن نتحدث عن نقد الفكر الديني. أدركت حينها المصاعب التي تواجه الاتحاد من قبل قوى الإسلام السياسي المسيطرة على

السلطة السياسية ولم أرغب وأنا الضيف والزائر أن أخلق مصاعب إضافية للاتحاد، فقلت نعم كما تريد نقد الفكر الديني، في حين كنت أقصد بالتحديد نقد الدين والفكر الديني الكثير من المقالات قبل ذلك، كاظم حبيب).

كما يتضمن الكتاب الذي نحن بصدده ثلاثة عشر فصلاً وخاتمة. بحث في الفصل الأول بزوغ النبوة في الإسلام وأساسها الفعلي المنطق من أرضية الإيمان اليهودي المسيحي بوحدانية الله والمرتبطة أيضاً بالحنيفية التي كانت منتشرة في حينها في مكة والمنطقة بأسرها، والتي كانت بدورها توحيدية الإله ورفضت كثرة الآلهة كما عرفها العرب والتي تجلى وجودها في "بيت الآلهة أو "الكعبة".

وركز الفصل الثاني على البيئة الاجتماعية والفكرية والسياسية العامة والديانات التي برزت حينذاك والتي أثرت في نبوة محمد. أما الفصل الثالث فيبحث في نبوة محمد ولحظته التأسيسية لدينه الجديد الذي لم يكن مفاجئاً للكثير من العرب حينذاك بسبب معرفتهم لهذه الظاهرة الإنسانية ولهم تجارب مع الديانتين اليهودية والنصرانية وقبل ذلك مع الحنيفية. أما الفصل الرابع فيتطرق بتفصيل وعمق إلى مرحلة النشوء الأولى في مكة والمصاعب الكبيرة التي واجهته من القوى التي انحدر منها وتبنى فكرها وعقيدتها وآمن بآلهتها ولم يثقوا باحتمال أن يكون نبياً أو مرسلًا من إله واحد أحد، في ما عدا قلة من القريبيين منه وممن لم تكن فكرة الإله الواحد غريبة عنهم. لقد عانى أتباع محمد الكثير في مكة، وكان المؤمنون بدين محمد مسالمين ولم يكونوا عنيفين في مواجهة مناهضيتهم. وخصص الباحث الملتزم بعلمية عالية الفصلين الخامس والسادس للمرحلة الجديدة، لفترة الهروب إلى المدينة وبدء خلق التضامن والتآخي بين المهاجرين والأنصار في يثرب وبناء دولته (دولة المدينة) التي لم يكن غيره فيها نبياً ومشروعاً ومسؤولاً عن الدعوة للحروب والغزوات والاقتصاد وترتيب معيشة قواته المتنامية التي نشطت لديهم الرغبة في التوسع على حساب مناطق أخرى وللحصول على المزيد من الأموال والأسلاب والرقيق والجواري. وهنا نتابع معاركه المستمرة ضد اليهود والمذابح التي نظمت ضدهم وخاصة بني قريظة. لقد كرس محمد سلطته وسيطرته على المدينة وعلى أتباعه وبدأ سعيه الجديد للعودة إلى مكة التي بدأ بها دعوته وفشل في إقناع أهلها واجبر على الهروب منها.

الفصلان السابع والثامن يعالجان المعارضة المستمرة له في مكة حتى بعد عودته إليها ونجاحه في العودة. ويحلل هنا قوى المعارضة في مكة، في حين يخصص الفصل الثامن للمعارضة اليهودية والمسيحية في المدينة. وإذ يبدو إن محمداً في عداً مستحکم ضد اليهود، فإنه كان قليل الشدة في مواجهة أتباع الديانة المسيحية. لقد تحول محمد أثناء وجوده في المدينة بالمقارنة مع فترة وجوده الأولى في مكة إلى ساع

للحروب والتوسع والقتل لنشر الدعوة وكسب المؤيدين والحصول على المزيد من الأراضي الخصبة والثمار والأموال والعبيد. لقد تميزت الفترة بالعنف الصاعد الذي اقترن ليس بالحروب فحسب، بل وبالاعتقالات والتمثيل بالموتى أو حتى أثناء قتلهم، ولكن في مرحلة لاحقة حرم المثلة بالميت، كما جاء في القرآن.

وخصص الكاتب الفصل التاسع لمواجهة المنافقين، أي مواجهة الأوس والخزرج وغيرهم ممن لم يؤمنوا بدين محمد إيماناً صحيحاً، وكان عليهم شديداً، أدى إلى قتل الكثير منهم، وفيه التعبير الصارخ عن حالة إقصاء الآخر ليستتب له ولدينه الأمر في المدينة وحاوليها.

أما الفصول الأربعة التالية فتبحث في الرسالة المحمدية وما بثه من الشعائر كالصلاة والصوم والأذان، وكذلك في الأخلاق التي تقترب جداً من الوصايا العشر الواردة في الديانتين اليهودية والمسيحية، أو التي لا تختلف عنها إلا بالصياغة والأسلوب ولكنها واحدة في المضامين. وهنا يأتي الموضوع المهم والبارز في الفصلين الثاني عشر (صناعة محمد من البداية إلى الكلمة) والثالث عشر (الفعل والصفات الخصوصية) حيث يبحث الكاتب بعناية كبيرة، كما في الفصول السابقة، صناعة محمد وصناعة الجماعة والمجتمع للنبوة ومن ثم دور السلطة في هذه الصناعة وفي نشر الدين. ويتجه صوب ثلاث مسائل جوهرية هي:

(1) خصوبة خيال محمد وتجربته وإطلاعه على الديانتين اليهودية والمسيحية وعلى الحنيفية وقدرته على استخدام هذا الخيال في صناعة القصص والأساطير أو إعادة صياغة القديم منها وتقديمه لأتباعه.

(2) دور الصناعة الجمعية المجتمعية للنبوة من جانب أتباعه الذين ساهموا في نشر الدعوة والترويج لها وخيالهم في ابتداع معجزات عند محمد لم يحققها ولم يسجلها لنفسه، بل من عنديات أتباعه مقترنة بسياسة التوسع على الأرض وكسب المزيد من الناس للدين الجديد، الإسلام.

(3) أما القوة الثالثة التي لعبت دوراً في صناعة النبوة فهي السلطة، تلك السلطة الفعلية التي تمتع بها محمد ومن هم حوله. وكان النبي محمد يمسك بيديه عملياً ما اصطلاح عليه حديثاً بالسلطات الثلاث السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، بما فيها المالية، وسلطة القضاء أو إنزال العقاب بمن يخالف ما جاء به ونص عليه. فهو صاحب القرآن حيث التشريع، وهو صاحب القرار في الحروب والسلام وتوزيع الأسلاب والأموال والأسرى أو العبيد وهو القضاء في حسم الخلافات وإنزال العقاب والثواب. لقد أضافت السلطة السياسية عملياً الخيال الثالث لصناعة النبوة ونشرها بقوتين قوة الإقناع وقوة السيف، فمن لم يقتنع بالحجج التي يقدمها

المريدون يأتي دور السيف، ولهذا يرفع المسلمون في أعلامهم السيف، كما هو الحال في السعودية، أو كما عبر عنه العرب في تقاليدهم وثقافتهم:

السيف أصدق أنباء من الكتب  
في حده الحد بين الجد واللعب

والسيف، أي القوة والعنف، هو الذي ساهم في التوسع على الأرض في فترة وجود محمد وفي زمن الخلفاء الراشدين ومن ثم في الدول التي تبنت الإسلام للتوسع، سواء أكانت الدولة الأموية أم الدولة العباسية أم الدولة العثمانية أم الدول الأخرى أينما وحيثما نشأت على دين محمد ودينه في الحكم.

ثم يتضمن الكتاب خاتمة مهمة تلخص النتائج التي توصل إليها الكاتب والتي ستجد الكراهية والحقد والإساءة من المتطرفين والمتشددين وأشباه المثقفين ممن لا يعون أهمية البحث العلمي وضروراته. ويبرز أمامي في هذا الصدد مقال خالد موسى ممثل النظام الإسلامي الاستبدادي السوداني في ألمانيا والمعبر عن هذا الموقف الإقصائي لكل من يفكر بعقلانية وعلمية، فعنده التفكير لا يبتعد عن قاعدة "لا تفكر لها مدبر!" وكفى الله المؤمنين شر القتال. أما الرأي والرأي الآخر فلا مكان لدى هؤلاء الناس الذين تعلموا في الكتاتيب ولم يغادروها فكراً وممارسة.

أين تكمن قوة كتاب نبوة محمد؟

إنها على وفق قناعاتي تكمن في النقاط التالية:

1. في معرفته الممتازة لأصول وأسس وقواعد الأديان التي سبقت التوحيدية ومن ثم التوحيدية قبل الإسلام ومن ثم الدين الإسلامي المستلهم منها بسبب دراساته المقارنة وتدرسه لها، وبالتالي فهو يتحدث عن معرفة معمقة وموسوعية في مجال الديانات عموماً والدين الإسلامي خصوصاً.
2. استخدامه للمنهج العلمي النقدي والشفاف في دراسة الأديان الثلاثة التي يطلق عليها بالسماوية، اليهودية والمسيحية والإسلام، والتحري عن أصولها المشتركة وتفرعاتها والتمايز في ما بينها، سواء في مكان ظهورها أو زمن هذا الظهور أو الظروف التي أوجبت بروزها، إضافة إلى فعل وتأثير الديانتين وكتابيهما على القرآن وعلى عملية جمعه فيما بعد.
3. استخدامه لأبرز وأكثر المصادر العربية والإسلامية والأجنبية التي بحثت في تاريخ نشوء وتطور الإسلام والتي يشهد لها بأنها الأكثر إلى الصواب في ما نقلته أو تحدثت به، إضافة إلى تحليل أساليب وأدوات نشر الدعوة الإسلامية وصناعة النبوة الجمعية الاجتماعية.

4. في جراته وصراحته في الكشف عن الحقائق الصلدة دون اعتبار لتلك القوى التي ستسعى بعد نشر الكتاب إلى نهشه. فالحقائق رغم نسبيتها صخور صلدة من لا يعترف بها يصطدم رأسه بها ويتحطم، كما يقول المثل الانجليزي. لقد كشف عن طبيعة النبوة وكونها نابعة من خيال خلاق للإنسان وبالتالي فالنبوة صناعة إنسانية وليست صناعة إلهية، وبالتالي فإن الله لم يصنع الإنسان كما إنه لم يصنع النبوة والمرسلين أو الأنبياء بل الإنسان والأنبياء هم الذين صنعوا إلههم الواحد الأحد.

5. وكان الكاتب محللاً دقيقاً ومدققاً وواضحاً جداً في تشخيص العوامل التي دفعت محمد إلى التحول في حالات ثلاث جوهريّة هي:

أ. من دين كان موجهاً لأهل مكة ومن فيها إلى دين موجه للمدينة ومكة ومن ثم للعالم.

ب. من الموقف السلمي في نشر الدعوة، إلى موقف يتميز بالعنف والسادية المرضية في الحروب والقتل والتعذيب والاختيال والتمثيل ورفض الآخر والدعوة إلى مقاتلته.

ج. من الدعوة لدين جديد هو الإسلام إلى العمل من أجل الحكم والسيطرة والتوسع على حساب الغير. وما يرتبط بهذا التحول من متطلبات اقتصادية، أي من غزو وسلب للأرض والأموال والثمار من أجل تأمين التوسع في القوات والمزيد من حروب الغزو أو "الفتح" الإسلامي.

6. الأسلوب الذي انتهجه النبي محمد في إقصاء الآخر سواء أكان الدين وثنياً أم يهودياً ومن ثم مسيحياً. فرغم إنه اعترف بها وبوجودها ولكنه أكد أنها بنشوء الإسلام انتهى دور الأديان الأخرى ولا بد أن يكون الجميع في صفوف المسلمين، وأنهى عملياً "لكم دينكم ولي دين". ولم يكن هذا الطرح دفعة واحدة بل تدرج بها ليصل في المحصلة النهائية إلى عدم صلاحيتها، والإسلام هو للجميع. كما بشر بأن دين محمد أو دين الإسلام هو آخر دين ينزله الله لبني البشر وأغلق الباب على كل من يريد أن يدعي النبوة. كما إن روح الإقصاء استمر فعلها لدى شيوخ المسلمين والأحزاب الإسلامية السياسية حتى الآن وبعد مرور أكثر من 14 قرناً على بدء ظهور الإسلام. ويبرز هذا الإقصاء في حينها صارخاً في تهديم الأوثان وفي محاربة اليهود وقتل عدد كبير يصل إلى 600 رجل في بعض الروايات و3000 رجل في روايات أخرى مع سبي النساء والأطفال وتحويلهم إلى عبيد وصبوب الإسلام، كما حصل هذا مع بني قريظة المؤمنين بالديانة اليهودية، أو ما حصل مع الأوس والخزرج وغيرهم. (ملاحظة: استوطنت في يثرب قبل ظهور الإسلام بعدة قرون ثلاث قبائل آمنت بالديانة اليهودية وهي بنو قريظة، وبنو قينقاع وبنو النضير. طرد محمد قبيلة بني قينقاع وبني النضير من يثرب بعد أن تعززت سيطرته حين رفضوا الإسلام ديناً بدلاً عن دينهم وليكون درساً لبني قريظة،

التي تعرضت فيما بعد للمذبحة الرهيبة التي ذكرتها في أعلاه رغم حفاظها على العهد ولم تدعم قوى الأحزاب  
المكية ضد محمد والمسلمين. ك. حبيب).

أورد الكاتب صلاح يوسف في مثال له بعنوان "الأسباب الحقيقية للتكفير... بعض الآيات القرآنية التي تدل  
على رفض محمد والإسلام للديانات الأخرى في الفترة الثانية التي تميزت بالتحول صوب العنف وعدم التسامح  
مع أتباع تلك الأديان: "يقول محمد في القرآن ( قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين  
الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون )، كما يقول ( يا أيها النبي  
حرص المؤمنين على القتال ) كما يضيف ( وإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ) كما يقول ( كتب عليكم  
القتال ) ويقول أيضاً ( اقتلوهم حيث ثقتموهم ) !! القرآن إذن يضحج بالأوامر ( الإلهية ؟ ) التي تحرض  
المؤمنين على قتل الكفار وقطع رؤوسهم كما فعل محمد بقبيلة بني قريظة التي ذبح رجالها وسبى نساءها  
واسترق أطفالها ونهب أموالها .. لماذا ندفن رؤوسنا بالرمال ولا نجروا على البوح بالكلمة الحرة الصادقة ؟؟!"  
(الحوار المتمدن، صلاح يوسف، الأسباب الحقيقية للتكفير، العدد 4420 بتاريخ 2013/9/19).

7. ويستخلص الكاتب محمد محمود بدقة سليمة إن الانغلاق الفكري على البحث العلمي والتفكير العقلاني قد  
دفع بالدين الإسلامي والمسلمين إلى الأزمة الحضارية الراهنة، فهم يعيشون في حضارة القرن الحادي  
والعشرين من حيث استخدام أعلى مستويات منتجات ومنجزات الثورة العلمية والتقنية وثورة الأنفوميديا من  
جهة، ولكنهم يعيشون في ما يشبه القرون الوسطى من حيث الفكر ومستوى العقلية والحرية والحياة  
الديمقراطية، بما في ذلك حرية البحث الأكاديمي وحرية المرأة... الخ من جهة أخرى. إنها المحنة والتناقض  
الذي يدفع بالمسلمين باتجاهات عدمية ومتطرفة. فهم يعتقدون بالقدرة على العودة إلى الماضي السلفي في  
الفتح والتوسع وإقامة دولة الله على الأرض بعد مرور 1434 سنة هجرية، ويحق لهم استخدام الحروب  
والغزوات والعنف كما استخدم في سالف الزمان ليعودوا إلى حكم الخلافة حتى لو مات الملايين من البشر،  
وهو ما يشاهده ويعيشه الناس في العمليات الإرهابية والقتل الواسع النطاق لتنظيم القاعدة والتنظيمات  
الإسلامية السياسية المتطرفة والإرهابية، وهي نتاج للتثقيف والتربية الدينية في المملكة السعودية وإيران  
والسودان والعراق وغيرها، أو في محاولات قوى إسلامية سياسية تسمى معتدلة ولكنها في المحصلة النهائية  
تصل إلى نفس العواقب السيئة والسلبية كما حصل في مصر على أيدي جماعة الإخوان المسلمين أو ما  
يجري في العراق والسودان وغيرها.

إن الاستنتاج الأساسي الذي سجله الدكتور محمد محمود والذي أثار ويثير غضب المهوسين بمناهضة البحث العلمي والعلمانية والمتشبهين بقدسية الدين والفكر الديني هو الافتراض الذي طرحه في مقدمة الكتاب وبرهن عليه على امتداد الفصول الـ 13 والقائل: " ونطلق في كتابنا هذا في النظر لنبوة محمد وللنبوة عامة من افتراض أولي مؤداه أن النبوة ظاهرة إنسانية صرفة، وأن الإله الذي تتحدث عنه النبوة لم يحدث النبوة ويصنعها وإنما النبوة هي التي أخذت إلهها وصنعتة." (المقدمة صفحة ح). وبهذا المعنى فالنبوة فعل إنساني خلاق، خيال نشط وإبداعي فردي، ولكنه يخلق معه خيال مجتمعي جمعي يلتزمه ويدعو له ويعزز وجوده، ثم يكرسه خيال سلطوي تسلطي يزود عنه ويشرع له. ويمكن أن نتابع ذلك في الدول ذات الأثرية الإسلامية التي تتحدث عن الدين باعتباره دين الدولة وتكرسه في دساتيرها وتمنع أي بحث في نقد الدين أو الفكر الديني كما في المادة 126 من الدستور السوداني السيئ الصيت أو دساتير أخرى بالدول العربية.

إن نحن أمام حقيقة علمية مهمة قيلت قبل قرون من الفارابي وابن رشد وغيرهما في أن الإنسان هو الذي خلق إلهه وليس الإله من خلق الإنسان، وليس الإله من خلق النبوة، بل النبوة هي التي خلقت الإله.

لم يكن محمد هو النبي الثالث في التوحيديين، بل كان هناك 25 ألف نبي في هذا العالم الفسيح وجلهم أن لم يكونوا كلهم في هذه المنطقة من المشرقين الأدنى والأوسط. وعلى وفق رأي محمد وما ورد في القرآن فأن هناك 25 نبياً يحتلون الصدارة وقد وضعت في نص على النحو التالي كما كنا نتعلمه في المدرسة أو في البيت والذي حفظناه عن ظهر قلب أو في الصدر:

خمسة وعشرون فخذ بياني

هم آدم إدريس نوح هود\*\*\*يونس إلياس يسع داود

ثم شعيب صالح أيوب\*\*\*إسحاق ثم يوسف يعقوب

هارون إبراهيم لوط موسى\*\*\*ذو الكفل يحيى زكريا عيسى

ثم سليمان وإسماعيل\*\*\*خاتمهم محمد الخليل

ولكن الكثير من الأنبياء الذين ظهوروا وأعلنوا عن نبوتهم في العالم لم يسعدهم الحظ لبناء دين جديد، والكثير منهم كان كبقية الأنبياء من الذين تبنا أفكاراً إصلاحية بغض النظر عن النتائج التي وصلت إليها في المحصلة النهائية تلك الأفكار والأديان. برلين في 2013/10/2 كاظم حبيب

رسالة المؤلف الدكتور محمد أحمد محمود

عزيزي حامد

تحية طيبة

لك جزيل الشكر على جذب انتباهي لمقالة الأستاذ كاظم حبيب في الحوار المتمدن، وحسنا فعلت، فإن موقع الحوار المتمدن قد أصبح مدينة ضخمة مزدحمة الطرقات ما كان من الممكن أن أعثر فيها على مقالة الأستاذ كاظم بسهولة.

هذه مقالة قيمة أعتبرها أفضل ما كتب عن الكتاب حتى الآن إذ أنها لا تحوم حول موضوعه وإنما تبسطه بسطا أمام القارئ من غير تهيب أو لجلجة تقية (ولقد أصبح هذا بكل أسف نهج الكثير من التقديميين عندما يخوضون في أمر الدين). ولقد كان من الواضح لي سبب ذلك وهو أن الأستاذ كاظم مشغول بالقضية الأساسية للكتاب وفوق ذلك مشغول بها انشغالا نقديا . وما أعجبني في مقالته أنه التزم فيها بمعايير مراجعة الكتب السليمة فأعطى القارئ المعلومات البيبلوغرافية الأساسية ولمحة عن هيكل الكتاب وفكرة عن الأطروحة الأساسية للكتاب، وكل هذا بمنهج يكشف عن عقل مرتب.

وفي إطار موقف عام لا يتخوف الأستاذ كاظم من التصريح به كمنثقف ظل دوما من حملة مشعل الموقف النقدي.

أرجو أن تنقل للأستاذ كاظم خالص شكري على الزمن الذي أعطاه لكتابي والمجهود الذي بذله في التعريف به، وليدم ذخرا لقضية التغيير في مجتمعاتنا المتطلعة لغد أفضل.

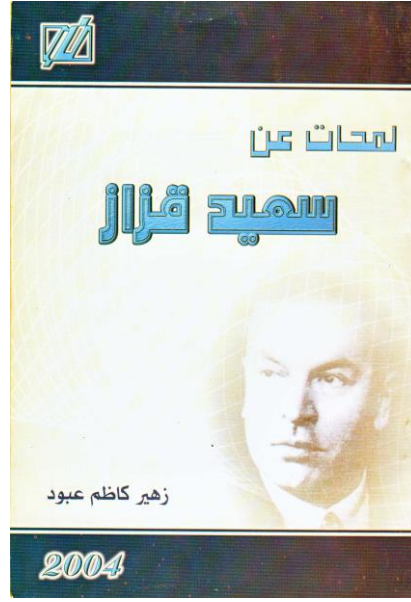
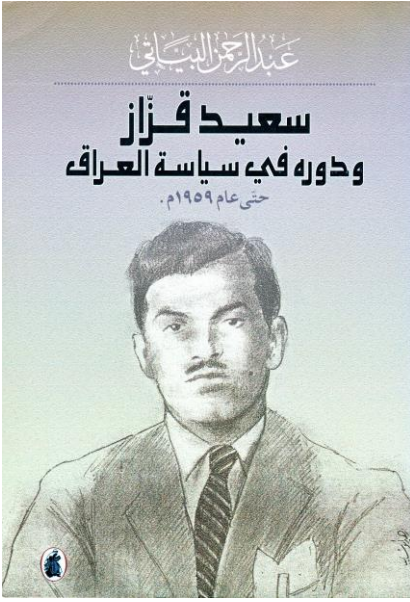
مع خالص مودتي

محمد

7/10/2013



قراءة في كتابي "سعيد قزاز ودوره في سياسة العراق حتى عام 1959"  
للسيد عبد الرحمن إدريس البياتي بإشراف الأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد  
و"لمحات عن سعيد قزاز" للقاضي زهير كاظم عبود



المدخل محاولة غير موفقة لإعادة كتابة التاريخ

عندما يمتد العمر بجمهرة المثقفين والسياسيين غالباً ما يجدون حاجة إلى إعادة النظر بالمراحل المنصرمة وأحداثها والأحكام التي أطلقت على تلك الفترات والشخصيات التي شكلت النخب السياسية الحاكمة أو المعارضة. وقلة قليلة من هؤلاء ممن يلتفت، حين يكون الحديث عن تلك الشخصيات والأحداث والفترات، كيف كانت حالة الغالبية العظمى من السكان في ظل تلك الأوضاع أو النظم السياسية، وكيف كانت علاقة تلك النظم والشخصيات بالمجتمع. وبالتالي يبقى البحث يدور حول السمات الخاصة لهذه الشخصية أو تلك

دون أن يكون هناك أي رابط فعلي بين هذه الشخصية التاريخية أو تلك وبين مجمل النظام وسياساته والاثار المباشرة وغير المباشرة على مجمل العملية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في البلاد. ويبدو لي أن هذه النقطة تشكل خلافاً في بعض الدراسات الخاصة بالأحداث والوقائع التاريخية وشخصيات الفترات المختلفة، وغالباً ما تجري مقارنة تلك الشخصيات والأحداث بالفترة التالية وفي ظل نظام جديد دون أن يكون هناك وجه مقارنة مناسب بين الفترتين، فالزمن قد تغير والحكام قد تغيروا والأوضاع كلها كانت في حراك، سواء أكان ذلك الحراك صوب الأمام أم إلى الوراء، وسواء أكان تقدماً أم ردة حضارية أم ثقافية واجتماعية واقتصادية وأمنية قاسية ومريرة، كما يعيشها العراق حالياً أو منذ سقوط الجمهورية الأولى. ليس لدي من شك في أن العراق الراهن بحاجة إلى إعادة كتابة تاريخه الحديث الحافل بالأحداث، أي الفترة الواقعة بين الحرب العالمية الأولى وسقوط النظام البعثي الصدامي. إذ بالإمكان إعادة النظر في جملة من الأحداث والوقائع، وربما إعادة الاعتبار لعدد من الشخصيات السياسية والثقافية والاجتماعية من جهة، أو سلب الاعتبار عن البعض الآخر لهذا السبب أو ذاك من جهة ثانية. ولا يمكن لشخص واحد أن يؤدي هذه المهمة، رغم أن البحث الخاص ورسائل الماجستير والدكتوراه ومراكز البحث العلمي قادرة على أن تقدم ما هو مفيد ومتقدم في هذا الصدد، حين تتوفر في تلك الدراسات الرؤية الموضوعية والحرص على دراسة الأحداث في ظل الأوضاع التي تمت فيها الأحداث أو سلوك الأشخاص المطلوب البحث فيهم أو عنهم. إلا أن ما هو أساسي في هذا الأمر هو أن لا يخضع البحث للمزاجية الشخصية وهوى الأشخاص أو الأحزاب أو اتجاهات أيديولوجية مغلقة، بل أن يستند إلى الوثائق والوقائع المثبتة والحقائق التي يعرفها الناس في حينها، رغم نسبيتها والزوايا والمصالح التي ينطلق منها كل فرد في تحديد مواقفه.

في السبعينات من القرن الماضي تحدث وكتب الدكتاتور صدام حسين لأول مرة عن إعادة كتابة التاريخ العربي والعراقي، ودعا إلى تفسير الأحداث وفق فلسفة ووجهة نظر وفكر حزب البعث العربي الاشتراكي. وحرك لهذا الغرض العديد من الكتاب وأساتذة الجامعات والباحثين ومراكز البحث العلمي للبدء بإعادة كتابة تاريخ العراق والعرب ودورهم في العراق والمنطقة والعالم. وقد نتجت عن هذه الدعوة السلطوية مجموعة من الدراسات والكتب التي استندت إلى منطلق فكري وسياسي شوفيني يميني وحيد الجانب، إضافة إلى سعيها إلى تضخيم دور حزب البعث وفكره و"القائد المؤسس" ميشيل عفلق، ثم "القائد التاريخي والضرورة" صدام حسين. وقد كانت النتيجة مشوهة حقاً. فقد تم تشويه الأحداث التاريخية وتم لوي عنق الحقائق لصالح العرب والبعث وصدام حسين، بدلاً من الإمعان في، والتحري عن، الحقائق النسبية للأحداث والأكثر قرباً من الواقع واستخلاص الدروس والعبر للأجيال القادمة وللمستقبل، ودون الإساءة المتعمدة للعرب أو للشعوب الأخرى.

ويمكن أن نجد ذلك واضحاً في كتاب "تاريخ الوزارات العراقية في العهد الجمهوري" الذي كتبه مجموعة من الكتاب، وأغلبهم من البعثيين الملتزمين بفكر وسياسة حزب البعث أو الخاضعين للحزب والمنفذين لإرادته في إعادة كتابة التاريخ.

وفي هذا الإطار نشط الكثير من طلبة الماجستير والدكتوراه، من بعثيين وغير بعثيين لإنجاز دراساتهم ورسائلهم الجامعية في ضوء مقولة صدام حسين حول إعادة كتابة التاريخ، بما فيه كتابة تاريخ مجموعة من الشخصيات السياسية التاريخية أو الشخصيات السياسية العراقية في القرن العشرين، ومنهم نوري السعيد وصالح جبر والدكتور فاضل الجمالي وكامل الجادرجي وجعفر أبو التمن وجعفر العسكري وبكر صدقي وسعيد قزاز ومحمد رضا الشبيبي وغيرهم، وكذلك أحداث ثورة العشرين والوثبات والانتفاضات، إضافة إلى إعادة كتابة تاريخ الحضارة العراقية من منطلق عربي بعثي، أو تاريخ أحداث كردستان ونضالات القوميات الأخرى في العراق أو السعي لتحليل أقوال صدام حسين الفارغة، وكأنها فلسفة وقانون أو علم حديث في الحقوق، مما أساء لهؤلاء الباحثين، إذ ما تزال تلاحقهم حتى الآن رسائل الدكتوراه التي أنجزوها والتي تظهر مدى انتهازية البعض. إذ لم يكن هذا البعض مجبراً على كتابة مثل تلك الرسائل البائسة، خاصة وأن الأمر لم يقتصر على رسائل في دراسة الأحداث التاريخية، بل شملت القانون والسياسة والحروب وأهمية أقوال وخطب القائد صدام حسين في كل ذلك... الخ. وكانت مثل هذه الدراسات والرسائل تنجز في بعض الجامعات العراقية أو مراكز البحث العلمي أو في الأكاديمية العسكرية التي سميت بأكاديمية البكر أو ما أسس بعد ذلك من أكاديميات أخرى. وكان البعض من تلك الدراسات قيماً ومفيداً ومحايداً إزاء الأحداث، وبعضها الكثير كان متحيزاً ومشوهاً للأحداث التاريخية والشخصيات المختلفة. وأبرز الدراسات التي تمت في الأكاديميات التي أسسها حزب البعث وصدام حسين كانت من النوع السيء حقاً والقائم على أساس ما سمي بفلسفة ونظرية حزب البعث واتجاهاته في تفسير الأحداث والوقائع التاريخية، ونحن نعرف كم هي انتقائية هذه الفلسفة المهلهلة، وكم هو انتقائي وبائس فكر البعث الصدامي.

وفي جامعة بغداد أنجزت الكثير من الدراسات على أيدي مختصين في التاريخ ولهم رؤية علمية وموقف علمي من الأحداث. ولم تكن كلها جيدة بطبيعة الحال، إذ كان حزب البعث والأمن العراقي وراء الكثير من الباحثين ومراقباً صارماً على ما يكتبون بما يخالف أو يختلف مع فكر حزب البعث ونهجه السياسي. أشرف المؤرخ البارز الأستاذ الدكتور كمال أحمد مظهر على عدد مهم من تلك الدراسات في الماجستير والدكتوراه، والتي تميزت بالموضوعية العلمية والجودة. وكان للأستاذ موقف علمي واضح في كيفية الخوض

في دراسة الأحداث التاريخية والشخصيات السياسية والاجتماعية والقواعد المبدئية التي يفترض أن يلتزم بها الباحث عند إعداد بحثاً علمياً من النوع الذي نتحدث عنه، وخاصة بالنسبة إلى طلبة الماجستير والدكتوراه. كانت إحدى تلك الدراسات لنيل شهادة الماجستير، التي أشرف عليها الأستاذ مظهر، هي التي أنجزها السيد عبد الرحمن إدريس البياتي، التي بحثت في الموضوع التالي "سعيد قزاز ودوره في سياسة العراق حتى عام 1959". والسيد سعيد قزاز أحد أبرز وزراء الداخلية في العراق في سنوات العقد السادس من القرن الماضي حتى سقوط النظام الملكي في العام 1958.



الأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد 2010م

نشرت هذه الرسالة في كتاب في العام 2001 عن المؤسسة العربية للطباعة والنشر ببيروت. كتب الأستاذ مظهر مقدمة مهمة وحيوية لهذا الكتاب تستحق القراءة والنقاش. وفي هذه المقدمة أكد الأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد أهمية أن يأخذ الباحث، عند دراسة أحداث وشخصيات الفترة الملكية في العراق، أي الفترة الواقعة بين 1921-1958، مسائل كثيرة، ولكن أشير إلى مسألتين مهمتين، إضافة إلى ما ذكره عن أهمية الموضوعية في البحث والاستناد إلى الوثائق... الخ، وهما:

1. أن الفترة الملكية تميزت بعدم ممارسة نظام الحكم للديمقراطية في حكم البلاد وفي العلاقة مع المعارضة السياسية والمجتمع، إذ يشير الدكتور إلى ذلك بقوله: "وفي الواقع إن أكبر خطأ قاتل ارتكبه النظام الملكي في العراق يكمن في موقفه من الديمقراطية، فعلى العكس من منطق الأشياء سار الخط البياني لتطور الديمقراطية في العهد الملكي من الأعلى إلى الأسفل، لا من الأسفل إلى الأعلى، ويتحمل الجميع وزر ذلك، ولكن بدرجات متفاوتة". (المقدمة، ص 18). وهنا يطرح السؤال

نفسه، ما المقصود بـ "يحمل الجميع وزر ذلك، ولكن بدرجات متفاوتة"، في حين أن الحكم ذاته وليس غيره الذي بدأ بالتراجع عن الديمقراطية النسبية التي سادت فترة العشرينات والثلاثينات وتراجعت تدريجاً منذ النصف الثاني من الأربعينات وخاصة في الخمسينات. ولا يمكن اتهام المعارضة الوطنية في أنها كانت السبب أيضاً في مثل هذا التراجع. ويؤكد الدكتور أحمد في مكان آخر من المقدمة إلى التراجع في الحياة البرلمانية أيضاً (على الصفحة 19) حين كتب: "صحيح طراً قدر من التراجع على واقع الحياة البرلمانية في العراق في عهد ما بعد فيصل، .."، ولكن علينا أن نعترف بأن عهد فيصل ذاته لم يكن نظيفاً تماماً في إيصال النواب إلى البرلمان، بل كان هناك توزيع خاص على القوى السياسية: البلاط والإنجليز ومعها بعض قوى النخبة الحاكمة والإقطاعيين وبعض قوى المعارضة السياسية لخلق توازن معين.

2. وأن قوى المعارضة السياسية، وخاصة القوى اليسارية منها، كانت متطرفة في تحديدها للمهام وأساليب عملها وخطابها السياسي، إضافة إلى أحكامها الشديدة حول الكثير من تلك الأحداث والشخصيات.

يبدو لي أن أي باحث علمي متمرس يمكنه أن يتفق من حيث المبدأ مع هاتين الملاحظتين الأساسيتين والعامتين للفترة موضوع البحث التي شخصها الزميل مظهر، مع تحفظ مهم هو أن واقع تلك الفترة، التي كنت شاهداً عليها منذ النصف الثاني من العقد الخامس من القرن الماضي ومشاركاً في النشاط السياسي منذ أوائل العقد السادس، تؤكد بأن القوى اليسارية الديمقراطية لم تكن كلها متطرفة في أحكامها حول العديد من الشخصيات بل تعاونت مع بعض المسؤولين في الحكومة في فترات مختلفة وأيدت سياساتها في فترات أخرى، إذ أن اليسار الديمقراطي لا يمكن أن يقتصر على الحزب الشيوعي العراقي وحده أو بعض التكوينات اليسارية الأخرى مثل حزب الشعب أو حزب التحرر الوطني أولاً، أو أن كل أحكام الحزب الشيوعي كانت تنطلق من مواقع ستالينية وخاصة بصدد القضايا الداخلية ثانياً. كما لا يمكن أن نتهم جميع من كان مشاركاً في الحكم في مختلف فترات النظام الملكي بأنهم لم يكونوا من الصف الديمقراطي أولاً، كما لا يمكن اتهام أغلب قوى المعارضة الوطنية وفي مختلف فتراتها بالتطرف، بما فيها القوى اليسارية ثانياً، إذ أننا عندما نفقد الموضوعية والرؤية الواعية للأحداث والشخصيات، إذ لم يكن الجميع مبتلى بالستالينية، كما يشير إلى ذلك الأستاذ مظهر، وخاصة في مجال الإضرابات العمالية، وسواء أكان الأمر يتعلق بأحداث كاورباغي في كركوك في العام 1946، أم في أحداث عمال شركة نפט البصرة في العام 1953.

حين نبحت في الفترة الملكية من حكم العراق، علينا أن نميز بين الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية وتلك التي أعقبها، إذ أن الظروف السياسية على الصعيدين الإقليمي والدولي في الفترتين لعبت دورها في الأحداث السياسية العراقية وفي الصراع بين السلطة والمعارضة السياسية، وبين السلطة والمجتمع عموماً.

فإذا كانت فترة الملكية قد بدأت بانفتاح نسبي من جانب الحكم على المجتمع بالارتباط مع الخلاص من الهيمنة العثمانية وهبوب نسائم حضارة غربية حديثة مع دخول الاستعمار البريطاني للعراق واضطراره إلى وضع دستور مدني وديمقراطي في أعقاب ثورة العشرين أبعد تقدماً من طبيعة المجتمع العراقي والقاعدة الاقتصادية والوعي الاجتماعي السائدين فيه حينذاك، فإن الفترة التي أعقبت وفاة الملك فيصل الأول (1933) تميزت بحالة جديدة في العراق والمنطقة العربية وفي العالم، خاصة فترة الصراع بين الديمقراطية على الصعيد العالمي والفاشية الإيطالية والنازية الألمانية والعسكرية اليابانية والتي تجلت فيما بعد في الحرب العالمية الثانية، كما انعكست على أحداث العراق الداخلية وسياسة الحكم، في حين اختلفت الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية بتوجهات ديمقراطية أولاً، ثم بدء تصاعد الحرب الباردة تدريجاً بين الدول الرأسمالية المتطورة والدول الاشتراكية. ولم يترك هذا الصراع الدولي الدول النامية بمعزل عن تأثيراته المباشرة أو غير المباشرة، بما في ذلك العراق. وإذ كانت الفترة الأولى من الحكم الملكي قد تشابكت النخبة الحاكمة بقوى المعارضة، إذ كانت في غالب الأحيان تتبادل المواقع أو تتعاون في حكومة واحدة وتتشكل معارضة جديدة، فإن الفترة التي أعقبت انقلاب بكر صدقي قد شهدت تدخل العسكر في شؤون العراق وتنامي الفكر القومي اليميني في العراق وانقلاب رشيد عالي الكيلاني بقيادة العقلاء الأربعة. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية تنامي الاستقطاب والاصطفاف السياسي بين النخبة الحاكمة وبين قوى المعارضة من مختلف الاتجاهات والتي تبلورت صراعاتها في أحداث 1946 و1948 و1952 و1956 وأخيراً في ثورة تموز 1958.

سأحاول في مقالتيين أو ثلاث مقالات أن أناقش وجهات نظر متقاربة في الموقف من شخصية عراقية رحلت عنا بتنفيذ حكم الإعدام بها شنقاً في العام 1959. في المقال الأول سأناقش مقدمة الأستاذ كمال أحمد مظهر لكتاب السيد عبد الرحمن إدريس البياتي، ثم كتاب السيد البياتي ذاته في المقال الثاني، وأخيراً كتاب الأستاذ زهير كاظم عبود الموسوم "لمحات عن سعيد قرزاز" في المقال الثاني أو في مقال خاص به.

## المقال الأول

هل يمكن الفصل بين سياسات النظام وممارسيها في العراق؟

عند البدء بدراسة شخصية سياسية أو اجتماعية عامة لعبت دوراً كبيراً في الحياة السياسية العراقية وساهمت باعتبارها أحد أعمدة النظام الملكي لا بد من الأخذ بنظر الاعتبار الملاحظات التالية:

- لا يجوز التفكير ابتداءً بإعادة النظر في الموقف من هذه الشخصية أو تلك، بل يفترض البدء بالتحري عن هذه الشخصية ومواقفها المختلفة استناداً إلى المصادر المتوفرة عنه والوثائق التاريخية والسياسات التي مارسها في حياته العملية والوظيفية وتلك التي سجلتها الذاكرة الفردية والجمعية، إضافة إلى النتائج والعواقب التي ترتبت عن تلك السياسات التي مارسها النظام، حيث كانت هذه الشخصية أو تلك جزءاً من هذا النظام ومن سياساته الفعلية، خاصة إذا تبوأ مراكز أساسية وحساسة في الدولة مثل رئاسة الوزراء أو وزارة الداخلية.

- كما لا يمكن الفصل الفعلي بين هذه الشخصية أو تلك وبين سياسة النظام الذي كان يجسد مصالح الفئات الاجتماعية التي كان يمثلها النظام ويدافع عنها بشكل ملموس، بغض النظر عن الموقف الشخصي لهذا الوزير أو ذاك الذي لن يجد أي تأثير له في تغيير جوهر سياسة وممارسات النظام الفعلية. وهذا يمس بشكل خاص الموقف من الإقطاع والعلاقات الإقطاعية في البلاد على سبيل المثال لا الحصر، فهو وأن اختلف سوف لن يكون سوى أداة فعالة لتلك السياسة.

- ويفترض أن يفصل الباحث بين السلوك الشخصي والعائلي لهذا السياسي أو ذاك عن ممارساته وهو في السلطة، إذ غالباً ما يكون السلوك متناقضاً، وقد تأكد ذلك من خلال متابعة الكثير من الشخصيات السياسية في الفترات الهتلرية والستالينية والتيتوية والتشاوشسكية أو حتى في فترة صدام حسين... الخ. وإذ برز أحياناً التوافق بين السلوكين سلباً أو إيجاباً، برز في مرات أخرى التناقض تماماً بين السلوك الشخصي مع العائلة أو مع بعض الناس، وبين السلوك السياسي الحكومي الذي يمارسه عن قناعة ويعبر عن مصالح النظام الذي يمثلها.

- وليس من حق الباحث أن يتشبث بقوانين البلاد في الدفاع عن مواقف سياسيين معينين، إذ أن القوانين هي من صنع النظم السياسية والشخصيات الحاكمة فيها وغالباً ما تعبر عن مصالحها، وبالتالي

فلاستعداد لتنفيذها يعبر عن الالتزام بها سياسياً وأخلاقياً، وبالتالي يكون الوزير المنفذ لها مسؤولاً مسؤولية كاملة عنها مع نظامه السياسي.

• كما يفترض أن يتخلى الباحث في دراسته عن الانتقائية، بل ممارسة منهج علمي موضوعي في تتبع سياسات الرجل وسلوكه السياسي الفعلي وممارساته إزاء المجتمع وقوى المعارضة السياسية في الفترة التي كان فيها في دست الحكم وإزاء الإنسان والمصالح العامة للمجتمع. وهذه الملاحظات يمكن أن تؤخذ بالاعتبار حين دراسة شخصيات في قوى المعارضة وفي تتبع مواقفهم وأدوارهم ومدى التزامهم بالسبل الديمقراطية في معالجة قضايا البلاد أو موضوعيتهم في الموقف من سياسات الحكومة أو أحكامهم إزاء الشخصيات السياسية الحاكمة أيضاً.

من هذا المنطلق قدم لنا الزميل الأستاذ مظهر في مقدمته لكتاب السيد البياتي ملاحظات مفيدة للباحث، ولكنه بقدر ما كان متساهلاً مع الحكام الملكيين، وخاصة مع سعيد قزاز، بالقدر ذاته كان جائراً على قوى المعارضة السياسية، وخاصة اليسارية، رغم قناعاتي التامة بأن القوى اليسارية ذاتها لم تكن كلها ديمقراطية، وأنها لو كانت قد وصلت إلى السلطة لمارست سياسات غير ديمقراطية حقاً، وهي إشكالية ترتبط بطبيعة الواقع الاقتصادي والاجتماعي والوعي الديني غير المتنور في العراق، إضافة إلى التناقضات والصراعات الدولية التي كانت تؤثر على الواقع السياسي العراقي، وكذلك المواقف الأيديولوجية المتحكمة بها. وقد كتبت عن ذلك في مقالات ودراسات عديدة، بما في ذلك كتاب "فهد والحركة الوطنية في العراق". لقد حاول الدكتور مظهر أن يخفف من مسؤولية سعيد قزاز وهو على رأس وزارة الداخلية ولعدة سنوات ومن مسؤولية وضع أو تنفيذ المراسيم التي اتخذت في الفترة التي كان نوري السعيد رئيساً للوزراء أو في الفترة التي وقعت فيها أحداث إضراب عمال النفط في البصرة. ويبدو لي أن علينا أن نتذكر بوضوح بشأن الوزير الراحل سعيد قزاز المسائل التالية

- لم يكن الرجل شخصية ديمقراطية في الموقف من الفكر والرأي السياسي الآخر، بغض النظر عن طبيعة الفكر والرأي السياسي الآخر، بل كان غير ديمقراطي وظالم في تعامله مع الفكر والرأي الآخر، وليس مع الفكر الشيوعي فقط.

- لقد شارك في وضع المراسيم الرجعية المعادية للدستور العراقي والحياة الديمقراطية في العام 1954، وبشكل خاص في موقفه من الحياة الحزبية ومن الجمعيات والمنظمات الديمقراطية، إذ ما يزال في ذاكرة تلك الأجيال الجملة التي وردت في المرسوم رقم 16 لسنة 1954 الذي أضيفت إلى ذيل قانون العقوبات



البغدادية رقم 51 لسنة 1938 الذي حرم المذاهب الاشتراكية البلشفية -الإباحية- الشيوعية أو ما يماثلها...، والتي تضمنت : "سواءً كان ذلك مباشرة أم بواسطة هيئات أو منظمات تهدف إلى خدمة أغراض المذهب المذكور، تحت ستار أي أسم كان: كأنصار السلام، الشبيبة الديمقراطية وما شاكل ذلك". (جريدة الوقائع العراقية، العدد 3455، في 14/أيلول/سبتمبر 1954). وكان هذا يعني إمكانية اعتقال أي إنسان بحجة انتمائه للشبيبة والطلبة وأنصار السلام ورابطة المرأة وما شاكل ذلك، وهو ما تحقق فعلاً. والمراسيم التي أوردتها طالب الماجستير السيد البياتي تحت الأرقام التالية 16، 17، 18، 19، 24 و25 لسنة 1954، في رسالته تؤكد النهج الاستبدادي لنظام الحكم ووزير داخلته في هذه الفترة بشكل خاص من تاريخ العراق الملكي.

- لقد فرض قرار إجبار السياسي على تقديم البراءة، أي أن يتخلى الإنسان عن المبادئ التي يعتنقها والحزب الذي ينتمي إليه والرأي الذي يعتقد به لكي يطلق سراحه من المعتقل أو السجن، وإلا فالسجن هو مكانه الطبيعي.

- لقد مورست أشد أساليب التعذيب شراسة وقهراً للإنسان في عهد بهجت العطية، مدير التحقيقات الجنائية، ومعاونه فزاع فهد وجلاوزة التحقيقات الجنائية، وكانت مديرية التحقيقات الجنائية تابعة لوزارة الداخلية وتحت إشراف الوزير مباشرة، وكان يعرف بكل ما كان يجري فيها من تعذيب لا يطاق، وكان يزود بالمعلومات المستمرة وبطرق تحريرية وشفهية بشكل خاص.

- لقد نفذ سعيد قرزاز في فترة وزارته قانون إسقاط الجنسية عن جمهرة من الوطنيين العراقيين الذين لا يجوز القول اليوم بأنهم كانوا من القوى اليسارية لكي نبرر للنظام وله مثل هذه السياسة البشعة التي تتناقض مع الدستور العراقي ومع الرؤية لروح المواطنة، خاصة وأن العراق كان قد وقع على اللائحة الدولية لحقوق الإنسان الصادرة في العام 1948 وأحد المساهمين في وضعها.

- لقد كان نظام الحكم الملكي موالياً للنظام الإقطاعي ومعبراً عن مصالح الإقطاعيين في العراق، وكان الوزير، بغض النظر عن الإشارة إلى أنه قام بعمل ما ضد أحد إقطاعيي الموصل، ممثلاً لسياسة الحكومة ومجسداً لها ولن يعفيه من سياسة النظام الذي أيده فكراً وممارسة عقلاً وقلباً، أنه كان في داخله يعارض الإقطاع او مارس شيئاً ضد أحدهم.

- لقد كان سعيد قرزاز واحداً من أبرز المناهضين لانتماءات الشعب الكردي بقيادة الحزب الديمقراطي الكردي برئاسة وقيادة مصطفى البارزاني. إذ ما تزال في الذاكرة ما قام به في حينها عندما كان متصرفاً

في لواء أربيل. لقد كان الرجل ظالماً وليس كما جاء في المقدمة حازماً. وكان عليه، إن كان يشعر بأي تعاطف مع الحركة الكردية، التي كانت تطالب بحقوق مشروعة لم يحققها النظام العراقي رغم الاتفاق بين حكومة الملك فيصل الأول وبين عصبة الأمم وفق رسائل رسمية متبادلة بهذا الصدد، أن يترك الموظف الكبير والمسؤول ويعلن عن احتجاجه لسياسة الحكومة المعادية للحركة البارزانية لا أن ينفذ الموقف الشرس للحكومة من القضية الكردية وحركة الشعب الكردي. لقد كان سعيد قزاز كردياً حقاً ومن أسرة محترمة لا غبار على ذلك، ولكنه لم يكن يشعر بأي تعاطف مع المطالب القومية للشعب الكردي التي جسدتها الحركة الكردية خلال تلك الفترة، بغض النظر عن الأخطاء التي ارتكبت من هذا الطرف أو ذاك من أطراف الحركة التحررية الكردية.

- ليس دقيقاً ما أشار إليه الأستاذ مظهر حول إعدام الضباط الكرد الأربعة. الوقائع الواردة في المقدمة صحيحة بشأن الضباط الأربعة، ولكن الحكومة العراقية كانت قد أعدت كل العائدين بالعمفو عنهم أو بمحاكمة عادلة، ولم يكن الإعدام وارداً في الموقف من الضباط الأربعة حين تقرر تسلم أنفسهم. وفي ضوء ذلك وافق الضباط الأربعة على تسليم أنفسهم إلى الحكومة العراقية، رغم التحذير الذي وجهه لهم الملا مصطفى البارزاني من أن الحكومة لا يمكن الاعتماد على وعودها وقرر الهجرة ومن معه إلى الاتحاد السوفييتي، ولكنه لم يتخذ قراراً يفرض على الضباط الأربعة بعدم تسليم أنفسهم، بل ترك لهم الخيار. وكان على الحكومة العراقية حتى في حالة صدور حكم الإعدام عن المحكمة، أن تصدر عفواً ملكياً أو تغيير الحكم بأي حكم آخر غير تنفيذ حكم الإعدام، لولا الحقد الأعمى الذي كان ينهش قادة الحكم الملكي ابتداءً من عبد الإله ومروراً بنوري السعيد ومن بايعه على سياساته الاستبدادية.

- وليس دقيقاً أيضاً ما كتب عن موقف سعيد قزاز من المضربين العمال في البصرة وما نقله عن السيد عبد الرزاق الحسني، إذ أن الحسني قد اعتمد على تقارير الشرطة السرية والتحقيقات الجنائية، وهو أمر معروف في أغلب ما نشر عنه في مثل هذه الأحداث، خاصة وأن سعيد قزاز قد سارع إلى تقديم الهدايا للشرطة التي مارست العنف ضد المضربين. لا شك في أن الاتجاه اليساري الصبياني قد تغلب حينذاك على سياسة القوى اليسارية، ومنها الحزب الشيوعي العراقي والتي ظهرت في أحداث انتفاضة 1952، ولكن لا يجوز أيضاً الموافقة على ممارسات الحكومة الملكية حينذاك في ما قامت به ضد المضربين من العمال بحجة أن هناك من كان لا يريد الإضراب، خاصة ونحن نعرف دور كاسري الإضرابات العمالية لا في العراق فحسب، بل وفي جميع أنحاء العالم، كما أن الحجة بأن المضربين يضيقون على الناس ويفرضون عليهم الإضراب، وأن الإضراب يمكن أن يتحول إلى مأساة مماثلة لما حصل في كاورباغي

معروفة لنا وغير مقبولة عموماً. فالمطالب كانت عادلة والأساليب لم تخرج عن حدودها حينذاك. أتفق من حيث المبدأ على أن سعيد قزاز كان نزيهاً وإدارياً صارماً وساهم بفعالية كبيرة في درء الفيضان عن بغداد بحكم موقعه كوزير داخلية أو ساعد بعض الأشخاص كأفراد، ولكن هذا لا يغير من حقيقة إخلاصه المطلق لنظام ملكي غير ديمقراطي شبه إقطاعي دافع عنه بحماس منقطع النظير أولاً، وموقفه السياسي العام وتأييده المطلق لسياسة الحكومة السعيدية المعروفة بعنائها للديمقراطية وحقوق الإنسان ثانياً، خاصة وأن الحكومة العراقية كانت قد وقعت على اللائحة الدولية لحقوق الإنسان. لست إلى جانب من يتهم سعيد قزاز بالعمالة للأجنبي بأي حال، بل كان للرجل موقف فكري وسياسي محافظ واضح، رغم تنوره النسبي، ولكن الإشكالية لم تكن في مسألة العمالة ولا لموقفه الفكري والسياسي، بل في الموقف من الحياة الديمقراطية في البلاد ومن حق الآخر في التفكير والتعبير وممارسة حقوقه كاملة غير منقوصة. ومن هنا أيضاً اتفق بأن المحكمة الخاصة التي حاكمت سعيد قزاز لم تكن عادلة في حكمها، إذ أنها حاكمت النظام السياسي ككل، وبالتالي فإن قرار حكم الإعدام لم يكن عادلاً بحقه أيضاً، ولكن هذا لا يعني أنه كان لا يستحق الحكم بالسجن وإدانته على العديد من المخالفات الدستورية والقانونية والسياسات والإجراءات التي أصدرها ومارسها حين كان وزيراً للداخلية أو مورست باسمه.

لقد كان الرجل رحيماً بالطفل أنور الذي رباه وجعل منه معلماً، وهذا موقف شخصي جميل، ولكنه لم يكن رحيماً بالشعب العراقي والشعب الكردي وبالحركة الوطنية العراقية. لقد كان نزيهاً ونظيف اليد ولا غبار على ذلك، ولكنه لم يكن مقتصداً في الصرف على أجهزة الأمن والشرطة التي كانت تتقرر في وزارته ومن ثم في مجلس الوزراء. لقد كان وزيراً حازماً في وزارة الداخلية، ولكنه كان ظالماً مع أولئك الذين استشهدوا في انتفاضة 1956 أو الذين أعدموا في الحي. يشير الدكتور مظهر إلى ما يلي: "يؤخذ على سعيد قزاز العديد من المواقف الحازمة مع قوى المعارضة". (ص 22 من مقدمة كتاب السيد البياتي). والسؤال المنطقي الذي يفترض أن أطرحه على الدكتور مظهر هو: هل كان سعيد قزاز حازماً أم ظالماً مع قوى المعارضة العراقية؟ وهنا لا أقصد الموقف من الشيوعيين فحسب، بل موقفه من بقية قوى المعارضة الوطنية الديمقراطية، ومنهم الأستاذ الراحل كامل الجادرجي أو جماعة حزب الاستقلال أو غيرهم، حين كان وزيراً للداخلية. هل يكفي يا سيدي الفاضل أن يكون سعيد قزاز قد ساعد ذنون أيوب، الذي لم يكن حينذاك شيوعياً ولم يكن حزبياً أو يقود حزب معين، بل كان بعيداً عن السياسة، حين منحه جواز سفر يحق بموجبه مغادرة العراق، ولم يكن هناك من مانع قانوني أو حكم صادر بحقه يحرمه من الحصول

على جواز سفر ومغادرة العراق غير تلك الإجراءات الظالمة التي كانت تمارسها التحقيقات الجنائية التي كان هو مسؤولاً عنها، إذ كلها كانت بعلمه ومعرفته التامة. فهو وزير قوي ومطلع على جميع أجهزة وزارته ولا يسمح لأحد بتجاوزه، فهل يمكن أن نتصور أن يتجاوزه بهجت العطية، الذي كان ذليلاً أمام رؤسائه.

لم أطلع على المحاضرة التي قدمها الدكتور كمال مظهر أحمد حول إعادة كتابة التاريخ، ولكن مقدمته لكتاب السيد البياتي يكفي لأن أقول بأن هذه المقدمة لا تعطي الانطباع بحيادية الكاتب في الرؤية الضرورية للسيد سعيد قزاز حين كان وزيراً للداخلية، بغض النظر عن كونه كان في المعسكر الآخر فكرياً أو أن الأجواء بين العائلتين الكرديتين لم يكن اعتيادياً.

لقد عشت هذه الفترة بكامل تفاصيلها وكنت سياسياً وسجيناً وأتذكر جيداً كيف كان تصرف أجهزة وزارة الداخلية في تنفيذ المراسيم التي أصدرتها وزارة نوري السعيد، وخاصة التحقيقات الجنائية والشرطة السرية في الأولوية والأفضية والنواحي وفي السجن والإبعاد، ولا يجوز التخفيف من مسؤولية سعيد قزاز عن كل ذلك. وما أزال أتذكر التعذيب الذي تعرضت له أنا شخصياً في التحقيقات الجنائية وفي السجن المركزي ببغداد وفي سجن بعقوبة لكي ينتزعوا مني دون جدوى اعترافاً ومن ثم فرض البراءة (نشرت مقالاً تحت عنوان "أسبوعان في ضيافة التحقيقات الجنائية في العام 1955 وأهديته إلى السيد علي بن حسين بن علي بن حسين شريف مكة في ضوء تصريحاته عن ديمقراطية النظام الملكي). وجرى أمامي تعذيب الكثير من الناس بهدف انتزاع البراءة منهم رغم كونهم لم يكونوا من الشيوعيين، بل كرامتهم كانت تفرض عليهم عدم الخضوع لابتزاز السلطة ورئيسها نوري السعيد ووزير داخليتها سعيد قزاز. صحيح جداً أن بعض القوى اليسارية في الحركة الوطنية العراقية، ومنها الحزب الشيوعي العراقي، مارست في بعض الأحيان اتجاهات ومواقف يسارية متطرفة، سواء أكان ذلك برفع بعض الشعارات المتطرفة، أم بتنظيم بعض المظاهرات أو الإضرابات، رغم عدالتها. ولكن السؤال الذي يفترض طرحه على الدكتور مظهر هو: أليست السياسات غير الديمقراطية في الحياة العامة والتشويه المتواصل للانتخابات من جانب الحكومة، بما في ذلك مشاركة سعيد قزاز حين كان متصرفاً في الموصل في إيصال النواب الذين يطلبهم القصر، أو حين كان وزيراً للداخلية، وعدم السماح بتشكيل الأحزاب أو إلغاء إجازاتها، وممارسة سياسات اقتصادية لم تساعد على تغيير فعلي في البنية الاقتصادية للاقتصاد العراقي أو تقليص البطالة وتقليل مستوى الفقر المرتفع، كانت السبب في تنامي قوى المعارضة السياسية للنظام وسقوطه أخيراً؟ ألم تكن هذه السياسات الحكومية سبباً في بروز بعض التطرف في بعض المجالات ومن

بعض القوى السياسية؟ فلم لا يحمل الحكومة أساساً جريرة كل ذلك، ومعها وزير الداخلية، القطب الأبرز في حكومة نوري السعيد والشخصية الأكثر قوة وتأثيراً فيها؟ ولم يحمل القوى اليسارية والوطنية عموماً مسؤولية تطرفها وبالتالي يشير إلى أن تطرف الحكومة ضدها هو نتيجة تطرف المعارضة حين قال وأن وزر ذلك يتحملة الجميع وأن بدرجات متفاوتة؟

يقول الدكتور كمال مظهر أحمد في معرض حديثه عن حلف بغداد ما يلي:

وللأسف الشديد أن العراق لم ينعم بضمان إقليمي حقيقي طوال تاريخه المعاصر إلا في ظل "ميثاق بغداد" دون أن يعني ذلك، بالبداية، تبريراً للجوانب السلبية للميثاق في نظرنا، لكن ينبغي أن يأتي حكم التاريخ للظواهر في إطار شامل، غير أحادي". (المقدمة المذكورة سابقاً، ص 16).

أود هنا أن أذكر الأستاذ الدكتور مظهر بما يلي، مع الابتعاد عن الدخول في حوار حول أهداف حلف بغداد حينذاك:

1. نعم العراق بالهدوء الإقليمي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى العام 1979، وأن النظام الدكتاتوري صدام حسين هو الذي فجر أول حرب عراقية ضد إيران. ولم يكن العراق إلا في فترة قصيرة قد ارتبط بحلف بغداد، وهي الفترة 1955-1958 لا غير. أي ليس حلف بغداد كان المسؤول عن الهدوء الإقليمي.

2. كان حلف بغداد سبباً في تفجير الكثير من الصراعات الداخلية والمؤامرات ضد سوريا... الخ، باعتبارها خارجة عن الخط العام الذي يسعى إليه حلف بغداد، أي معاداة الشيوعية والاتحاد السوفييتي. وهنا تؤكد ضرورة أن لا يكون التحليل أحادي الجانب أولاً، وأؤكد بأن إسرائيل كانت إلى جانب حلف بغداد لأنه كان يسعى إلى تأمين الضمانة لها قبل غيرها ثانياً.

3. أصبح العراق، وبعد صدور المراسيم السعيدية التعسفية في العام 1954، التي كانت بمثابة إجراءات تمهيدية لدخول العراق في حلف بغداد بالرغم من إرادة المعارضة وقوى واسعة من الشعب العراقي، خاضعاً لنظام استبدادي شرس يقوده نوري السعيد ونخبة سياسية كانت تمارس السلطة معه، ومنها سعيد قزاز، وهي التي نضجت ظروف الثورة ضد النظام بشكل خاص.

4. وقد كانت هذه الفترة 1954-1958 أسوأ فترة في تاريخ العراق السياسي الداخلي من حيث التعسف والاستبداد، أي غياب حقيقي للحياة الديمقراطية وإلغاء الانتخابات وإجراء انتخابات مزيفة ليكون مجلس

النواب الجديد والمفبرك من قبل نوري السعيد مستعداً للموافقة على الدخول في حلف بغداد وعلى جملة من المشاريع الأخرى.

5. وضمت السجون العراقية في هذه الفترة أكبر عدد من السجناء والمعتقلين والمبغدين السياسيين من مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية، وأن كان للحزب الشيوعية أكثرية سجينة، بالقياس إلى كل الفترة الواقعة بين نهاية الحرب العالمية الأولى حتى سقط النظام الملكي في العراق في العام 1958. ورغم هذه الملاحظات النقدية أو في ختام هذا المقال أن أشير إلى أني من القراء المعجبين والمتابعين الجيدين لكتابات وكتب الأستاذ الفاضل مظهر وأقيمها عالياً، رغم أني لم ألتق به حتى الآن وأتشفرف بمعرفته، ولكن الاختلاف في وجهات النظر وبصدد هذه القضية مفيد للحوار وتبادل الرأي.

## المقال الثاني

سعيد قزاز في كتاب السيد عبد الرحمن البياتي



نشرت رسالة الماجستير السيد عبد الرحمن إديس البياتي في كتاب بعنوان "سعيد قزاز ودوره في سياسة العراق حتى عام 1959 م" وصدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت في العام 2001. ويبدو أن الرسالة قد أنجزت في العام 2000، أي في ظل نظام البعث وصدام حسين. وكان الأستاذ الدكتور كمال أحمد مظهر مشرفاً عليها وقدم للكتاب.

تضمن الكتاب مقدمة وأربعة فصول وشهادة شخصية بحق سعيد قزاز. بحث الفصل الأول في نشأة وثقافة سعيد قزاز والسلم الوظيفي الذي تدرج فيه، واكتسب خبرته الأمنية والإدارية في أجهزة الإدارة البريطانية في أوائل حياته الوظيفية، ثم في أجهزة الدولة العراقية حتى وصوله إلى منصب وزير الشؤون الاجتماعية ومدير عام الموائى العراقية، في حين بحث الفصل الثاني تبوء سعيد قزاز منصب وزير الداخلية ومواقفه الملموسة في إضراب عمال ميناء البصرة ودوره في درء الفيضان عن بغداد، ثم دوره في انتخابات أرشد العمري في العام 1954 وقبل وصول نوري السعيد إلى رئاسة الوزراء للمرة الثانية عشرة والمرة الثالثة عشرة. أما الفصل الثالث فقد احتوى بشكل موسع ومفيد المراسيم الاستثنائية التي أصدرتها وزارة نوري السعيد في العام 1954 ودور سعيد قزاز في تنفيذها وموقفه من الحريات الديمقراطية والحياة الحزبية والصحافة ومن العائلة البارزانية، وكذلك موقفه من منع سفر وفد المحامين العراقيين إلى مؤتمر المحامين العرب في نفس العام، إضافة إلى تتبع مواقف سعيد قزاز، كوزير للداخلية، من رفض منح إجازة تأسيس حزب المؤتمر الوطني العراقي الذي تشكل من الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال،

إضافة إلى مواقفه من الحركة الوطنية العراقية، وخاصة في أحداث انتفاضة عام 1956 التي تركز النضال فيها من أجل دفع العراق لدعم مصر بعد تأميمها لقناة السويس والاحتجاج على العدوان الثلاثي البريطاني - الفرنسي - الإسرائيلي على مصر، وكذلك دوره السلبي في توتر العلاقات المصرية العربية. أما الفصل الرابع والأخير من هذا الكتاب فقد تتبع الباحث فيه موقف سعيد قزاز من أحداث عام 1958 وقبل ثورة تموز من نفس العام وحياته وسلوكه المتماسك في المعتقل، ثم محاكمته أمام المحكمة العسكرية العليا الخاصة (محكمة الشعب) وموقف القزاز منها. ثم يتطرق الباحث عن الأيام الأخيرة لسعيد قزاز في المعتقل وقبل تنفيذ حكم الإعدام به. ثم يقدم أخيراً شهادة شخصية كتبها السيد محمد سعيد الخفاف حيث يتطرق فيها إلى خصائص الوزير الراحل سعيد قزاز.

من هنا يتبين لنا أن البحث تضمن في فصوله المختلفة الأدوار المختلفة من حياة الشخصية السياسية العراقية موضوع البحث، إذ أفادنا الباحث بالكثير من المعلومات المتوفرة في وثائق وأصابير وزارة الداخلية وفي الصحف العراقية التي كانت تسجل أحداث العراقي في حينها. ولا شك في أن الكتاب يتضمن منهجية مقبولة ومستوى طيباً في البحث والتمحيص والتتبع الجيد. ولكن السؤال المناسب هنا هو: كيف كان محتوى الكتاب ووجهة الباحث في إنجاز رسالته ثم إصدارها في كتاب؟

نشير باتداءً إلى أن الباحث قد بذل جهداً طيباً في أن تكون رسالته علمية في منهجها. فقد استند إلى:

- الكثير من المصادر الأساسية والوثائق الحكومية للعهد الملكي؛

- وعقد لقاءات مع شخصيات عرفت أو تعرفت على الوزير العراقي الراحل عن قرب؛

- والتحري والبحث في الصحافة العراقية في العهد الملكي ودراسة محاضر جلسات المحكمة العسكرية العليا الخاصة التي حاكمت سعيد قزاز في العام 1959.

- وقد بذل الباحث، كما بدا لي جهداً ملموساً ليكون قدر الإمكان حيادياً في عرض الأحداث والتصورات التي وردت عن الراحل سعيد قزاز، وتتبع حياته طيلة الفترة التي كان فيها موظفاً ضمن أجهزة الدولة العراقية وخاصة في المجالات الأمنية والإدارية.

واستناداً إلى ذلك سعى الباحث إلى تتبع نشاط ودور سعيد قزاز كموظف وكرجل دولة وسياسي ضمن النخبة السياسية البارزة والتميزة في عهد النظام الملكي من جهة، والشخصية المقبولة والمحبوقة والمقدرة من قبل أجهزة سلطة الانتداب البريطانية على العراق قبل دخول العراق عصبة الأمم ثانياً، كما



تتبع سلوكه الشخصي وتصرفاته الاجتماعية وعلاقاته المختلفة ثالثاً، إضافة إلى تطرقه إلى المحاكمة والموقف منها وموقفه فيها. والسؤال الذي يدور في البال هنا أيضاً، هو: هل توفق الباحث في دراسته التي استغرقت حوالي 170 صفحة من القطع الكبير في أن يقدم لنا دراسة محايدة إلى حدود بعيدة وموضوعية في حكمها على من رحل عنا ولمي عد قادراً الدفاع عن نفسه؟

إن الإمعان في الكتاب يسمح لي بتوزيع الإجابة على مستويين، وهما:

أولاً: مستوى العرض والتحليل لحياة سعيد قزاز.

ثانياً: مستوى الاستنتاج والتقدير لممارسات سعيد قزاز، وخاصة حين كان وزيراً للداخلية. وبصدد الفقرة الأولى يمكن القول بأن السيد البياتي استطاع أن يستعرض حياة سعيد قزاز ونشاطه ودوره، سواء حين كان موظفاً صغيراً عند الإدارة البريطانية وضمن جهاز القلم السري، أم حين كان موظفاً في الإدارة المحلية العراقية، ومن ثم موظفاً كبيراً في الميناء أو وزيراً للشؤون الاجتماعية، ومن ثم وزيراً للداخلية لعدة سنوات ومع العديد من رؤساء الوزارات، ولكن بشكل خاص مع نوري السعيد، زميله الذي احتضنه ورعاه وسانده في تقدمه الوظيفي، استناداً إلى قدراته الإدارية واتفاق وجهات النظر بين الشخصيتين في أغلب المسائل العراقية الداخلية منها والخارجية، وخاصة مواقفها العدائية المشتركة من اليسار عموماً والشيعوية على وجه الخصوص من جهة، ومواقف الصداقة والتعاون الوثيق مع المملكة المتحدة من جهة أخرى.

وفي عرضه لهذه اللوحة المكثفة كان البياتي حيادياً في توصيفها والإشارة إلى أبرز المشكلات التي يدور حولها الخلاف مع من يناصر إعادة النظر في الموقف من سعيد قزاز ومن يرى غير ذلك. فلم يتردد في عرض مواقف سعيد قزاز من إضراب عمال النفط في البصرة ومنحه شرطة البصرة هدايا وترقيات بسبب موقفها من الإضراب الذي أدى إلى مقتل عدد من الأشخاص وجرح عدد آخر من المضربين. كما لم يتردد في شرح مواقف سعيد قزاز السلبية والمعادية للحركة الكردية المسلحة وموقف العداء للبارزاني، سواء حين كان متصرفاً في أربيل أم فيما بعد، وكذلك مواقفه السلبية من الحركة الوطنية العراقية ورفضه لاتجاهات التطور في مصر من ناحية الموقف من تأميم القناة ودعوته بريطانيا لضرب مصر لكي لا تنتصر الحركة وتشتعل المنطقة بالنضال ضد الهيمنة البريطانية على سياسات دول منطقة الشرق الأوسط. كما شرح بتوسع موقف سعيد قزاز من المراسيم الرجعية الاستثنائية التي أصدرتها وزارة نوري السعيد في العام 1958، رغم قوله بأن سعيد قزاز لم يكن موجوداً حين صدرت تلك المراسيم، ولكن سعيد

قزاز أيدها تأييداً كاملاً وأصدر التعليمات لتنفيذها وسبل التنفيذ وعمل جاهداً على أن تنفذ بإبداع، وخاصة فرض التوقيع على نص البراءة من الشيوعية، وشرح ما نشأ عن تنفيذ تلك المراسيم الرجعية. وطرح بوضوح لا لبس فيه موقف سعيد قزاز من الحزبية والأحزاب السياسية حتى تلك التي لا تعرف بكونها يسارية، كما في الموقف من حزب الاستقلال أو الحزب الوطني الديمقراطي أو حزب المؤتمر الذي تشكل منهما، أو الموقف من بقية القوى السياسية العراقية، دع عنك موقفه الكاره والمليء بالحق لليسار والشيوعية. وإذا كان من حقه أن يكره هذا التيار أو ذلك وهذا الحزب أو ذلك ويحقد عليه، فليس من حقه بأي حال أن يمارس الكراهية والحقداً فعلياً بأساليب قمعية معروفة للعراقيين، وخاصة من عاش تلك الفترة أو تلظى فيها.

ولا شك في أن سعيد قزاز تمتع بشخصية نافذة ورؤية واضحة لما كان يريد أو يهدف، وبالتالي فإنه قد دافع عن تلك المواقف أمام المحكمة العسكرية العليا الخاصة بجرأة رغم الأجواء المعادية له التي رافقت جلسات المحكمة إزاء حكام العهد الملكي، وخاصة إزاء سعيد قزاز باعتباره وزيراً لداخلية العراق ومسؤولاً بعد نوري السعيد عن سياسة العراق الداخلية ومقرباً منه ومن البلاط الملكي والإنجليز. وفي الفقرة الثانية من البحث تلمست بوضوح أن السيد البياتي فقد حياديته التي برزت في عرضه لحياة ونشاط ودور سعيد قزاز وبالنسبة إلى عدد من المسائل المهمة التي يصعب قبولها من باحث علمي موضوعي. وهذا الرأي الذي أطرحه أشير معه إلى عاملين مهمين يلعبان دورهما البارز في كتابة رسائل الماجستير والدكتوراه، وأعني بهما:

1. وجود البعث وصدام حسين وأجهزتهما في السلطة حين إعداد الرسالة والكتاب، والحدود التي يستطيع فيها الباحث طرح الأمور بصورة مستقلة بعيداً عن تأثيرات الوضع السياسي وممارسات السلطة المباشرة وغير المباشرة، وقدرة الباحث على استخلاص الاستنتاجات أو الأحكام التي بصورة مستقلة، مع عدم نسيان تأثير ودور نهج الحكم وصدام حسين في مسألة إعادة كتابة التاريخ.

2. مدى تأثير الباحث بأراء وتصورات الأستاذ المشرف عليه بصدد الشخصية موضوع البحث ونهجه في إعادة كتابة تاريخ هذه الشخصيات الخاصة بالعهد الملكي. وعلينا أن نقرأ المقدمة التي كتبها الأستاذ المشرف وأن نتابع نهج البياتي في البحث والكتابة والاستنتاج.

بعد أن انتهيت من قراءة الكتاب للمرة الثانية توصلت إلى الرأي التالي: أن الباحث البياتي (ربما) قد وجد نفسه ملزماً أو طوعاً على الأخذ بنظر الاعتبار الواقع السياسي حينذاك حين كتب رسالته، ولكنه في كل

الأحوال لم يكن مجبراً، كما أرى، على الالتزام برأي أستاذه المشرف في هذا الصدد، إذ أنه المسؤول أولاً وقبل كل شيء عما يكتبه، كما أنني لا أشك بأن الأستاذ مظهر لا يفرض على طلابه وجهة نظره أو وجهة نظر محددة في البحث أو في الخروج باستنتاجات باتجاه معين، إذ عندها يفقد البحث العلمية والموضوعية ويفقد الأستاذ دوره في العملية العلمية أساساً، وهذا ما لا يمكن تصوره عن الأستاذ الفاضل مظهر. لقد كان البحث يتضمن إغارة انتباه شديد لموقف السلطة من البحث أولاً، والتزاماً ملموساً برأي الأستاذ المشرف ثانياً. إذ أن ما توصل إليه الباحث يتناقض مع الاستعراض والتحليل الذي قدمه لنا. وبقدر ما كان واضحاً في الاستعراض كان مرتبكاً في الخروج بالاستنتاجات الصائبة التي يفرضها منطق التحليل الذي التزم به الباحث.

لقد بذل السيد البياتي جهوداً كبيرة لتبرير السياسات والمواقف التي اتخذها ومارسها سعيد قزاز بثلاث حجج أو مبررات، إذ غالباً ما كانت الحكومات العراقية المتعاقبة تعتمدها في تبرير سياساته وإجراءاته القمعية القاسية ضد قوى المعارضة أو ضد المتظاهرين أو المضربين أو السجناء السياسيين الذين لم تعترف الحكومة ولا وزارة الداخلية يوماً ما بكونهم السياسيين بل كانوا يعاملون على أساس سجناء عاديين! والحجج الثلاث هي:

- المصلحة الوطنية التي هي فوق كل اعتبار؛
- وتطبيق القوانين السائدة والتي يفترض ممارستها واحترامها لصيانة أمن المواطنين وحياتهم وأملاكهم؛
- ومحاربة الشيوعية الهدامة التي تريد أن تخرب البلاد وتنشر الإباحية في المجتمع .

ولم يكن السيد البياتي موفقاً في الاستناد إلى ذات التبريرات التي اعتمدها الحكومات الملكية المتعاقبة ووزارة الداخلية، وخاصة في فترة سعيد قزاز، لتبرير المواقف السلبية والقمعية والمناهضة لحقوق الإنسان إزاء الحركة الوطنية العراقية، خاصة وأن السيد البياتي كان لا يتعامل في بحثه مع موظف صغير في إحدى دوائر وزارة الداخلية، بل كان يبحث في شخصية سياسية كبيرة كانت تحمل حقبة وزارة الداخلية، وكان سعيد قزاز هو الشخصية المعتمدة من قبل الجهات الثلاث المعروفة لنا، البلاط ونوري السعيد والسفارة البريطانية، والأخيرة كانت ترى فيه القدرة والكفاءة على مواجهة الحركة الوطنية وبالتعاون مع نوري السعيد. لقد كان سعيد قزاز عرى رأس وزارة الداخلية ملاذاً مهماً اعتمده الدولة الملكية في الحفاظ عليها والدفاع عن مصالحها ومصالح الفئات التي بيدها السلطة، كما أن نوري السعيد كان يعتبره اليد اليمنى المساعدة له في كل شيء، ولم يكن سعيد قزاز يرفض للأخير طلباً، ولكن كان في مقدوره

رفض طلب من عبد الإله، الوصي على العرش، الذي لم يكن يحظى بتأييد مطلق من جانب البريطانيين. ومن هنا نشأت محاولة عبد الإله التقرب من الولايات المتحدة الأمريكية بأمل الحصول على تأييد أكبر في موقفه السياسية في العراق وفي الصراع مع نوري السعيد. ولم يترك السيد البياتي أي إجراء يمكن الطعن من خلاله بمواقف سعيد قزاز، إذ أنها كانت كلها تبرر على أنها بحكم الدفاع عن مصلحة الوطن أو تطبيقاً لقوانين سارية.. الخ. فالعرض الذي قدمه لنا السيد البياتي عن السياسات والإجراءات التي مارسها سعيد قزاز، بما في ذلك مشاركته في تزوير الانتخابات، تتناقض حقاً مع التبريرات التي قدمها في نهاية كل فقرة دفاعاً عن سعيد قزاز. وكان على المشرف أن يلاحظ ذلك بوضوح لولا تبنيه نفس النهج الذي سار عليه الباحث والتي تجسد تناغماً مع الأستاذ المشرف على البحث، وبالتالي لم يجد ما يبرر الاعتراض على الباحث.

لقد كان الباحث، ولست معنياً بوجهة نظره الفكرية والسياسية إذ أنه قدم لنا رسالة ماجستير طبعت في كتاب، إذ كان عليه أن يكون علمياً وموضوعياً لا في عرضه لحياة الشخصية موضوع البحث فحسب، بل وفي استخلاص الدروس والاستنتاجات. وعلى سبيل المثال لا الحصر كان البياتي مجافياً للواقع والموضوعية في بحثه حين كان يتحدث عن الحركة الكردية المسلحة وتسمية المناضلين فيها بأنهم من المتمردين، وأن سعيد قزاز كان يدافع عن العراق ضد المتمردين حين تصدى للحركة الكردية المسلحة. وهذه هي المسألة الوحيدة التي اعترض عليها المشرف في مقدمته على بحث السيد البياتي، وكان محقاً في اعتراضه طبعاً. ولكن الأستاذ مظهر لم يكن موضوعياً حين كتب يقول: "مما يؤسف له حقاً إن المثقف العربي إما لا يعرف شيئاً من تاريخ الكرد، أو يعرف، في أفضل الأحوال، نزرأً يسيراً مشوهاً منه إلا ما ندر، وهذا أمر متوقع تماماً إذا عرفنا أن مؤرخاً كبيراً منصفاً، غير متعصب مثل عبد الرزاق الحسني لم يتورع، بدوره، عن تشويه جوانب غير قليلة من تاريخ الكرد الحديث والمعاصر، الأمر الذي لا يمكن أن يخدم الوحدة الوطنية المطلوبة، بل أنه يسهم شئنا أم أبينا، في تخريب جسور العلاقات التاريخية بين الشعبين العربي والكرد، وإذا كان ديدن معظم الباحثين العرب هكذا، فمن الأفضل لهم ولنا أن لا يقتربوا من تاريخ الكرد لأن ضررهم أكثر من نفعهم بكثير كما بينت صراحة أثناء مناقشة هذه الدراسة في "معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا" ببغداد في مطلع هذا القرن". (المقدمة ص 34-35). لا بد من الإشارة إلى ثلاث ملاحظات، وهي:

1. لم يكن المؤرخ عبد الرزاق الحسني منصفاً في الكثير من ملاحظاته الخاصة وتعليقاته على مختلف الأحداث في العراق، ويمكن إيراد قائمة كاملة بذلك، إضافة إلى دراساته غير العلمية عن الإيزيدية وغيرهم، وبالتالي فهو لا يشكل حجة أو مثلاً في هذا الصدد.

2. إن الكثير من الكتاب العراقيين العرب يقفون بقوة إلى جانب القضية الكردية ويعرفون تاريخها وتطور صراع الكرد ونضالهم العادل في سبيل حقوقهم المشروعة في العراق وينصفونها في كتاباتهم، وهم لا يعدون على اصابع اليد بل أكثر بكثير.

3. وأن الكتاب العرب الذين يهاجمون الكرد وحركتهم النضالية في سبيل حقوقهم المشروعة ينتمون إما إلى فكر قومي يميني شوفيني مثل البعث أو المؤتمر القومي العربي أو بعض المعربين من الكرد مثل سعيد قزاز.

وكمثقف عربي أشعر بالحيف إزاء الكثير من المثقفين العراقيين العرب من هذا القول غير المنصف للسيد مظهر، في ذات الوقت يدافع عن سعيد قزاز الكردي الذي اتخذ موقف العداء إزاء القضية الكردية ومطالبها وليس فقط تباين في وجهات النظر وأساليب النضال.

وفي معرض القضية الكردية أورد السيد البياتي مقاطع مهمة من بيانات أصدرها سعيد قزاز بنفسه حين كان مسؤولاً وفي مواجهة القضية الكردية تكشف أيضاً عن مواقف سعيد قزاز المناهضة للحركة البارزانية والحركة الكردية المسلحة بشكل عام واتهامها بالعدوانية. فقد جاء في رسالة البياتي ما يلي: "وفي كتاب (سري للغاية) أرسله سعيد قزاز إلى وزارة الداخلية في 20/آب/1945، علل فيه فشل الحملات التأديبية ضد البارزانيين خلال عامي 1943 و1944، إلى الشعور السائد لدى أكثرية الناس بأن الشيوخ البارزانيين (مظلومين)، لافتاً النظر إلى أن كل جندي أو شرطي قاتل ضدهم خلال السنتين الماضيتين كان متحسناً لهذا الشعور مما أسفر عن وضع شاذ أكد سعيد قزاز ضرورة إزالته مهما كلف الأمر. ونقل سعيد قزاز إلى وزارة الداخلية بعض الملاحظات التي تتعلق بواقع الحال في المنطقة الشمالية، إذ أشار إلى أن الرأي العام هناك بدأ في هذه المرة يقدر مدى صبر الحكومة تجاه أعمال البارزانيين العدوانية، ويحبذ وضع نهاية لتجاوزاتهم، كما وجه عدد من الاتهامات إلى معروف جاووك متصرف لواء السلিমانية، بخصوص تحريضه الأهليين لاستعطاف الحكومة للتساهل مع البارزانيين، ومن أولئك الشيخ محمود وأولاده، وأن جاووك نظم مناشير سرية يسعى لتوزيعها في بغداد والسلیمانية بهدف تثبيط العزائم،...". ( ص 61 من كتاب البياتي). وفي مكان آخر يشير الباحث إلى ما يلي: "استمرت العمليات

العسكرية ضد البارزانيين حوالي شهرين أسهمت أعداد من العشائر الكردية التي وقفت ضد البارزاني وتمرده وانتهت الحركات في 14/تشرين الأول/ 1945، بعد أن هرب الملا مصطفى البارزاني وأخوه أحمد وأعوانهما إلى إيران. وفي 22/ كانون الثاني / 1946، وافق مجلس الوزراء على منح سعيد قزاز وسام الرافدين من النوع المدني من الدرجة الثالثة، وذلك تقديراً لأعماله الممتازة ضد حركات الملا مصطفى البارزاني وتمرده، فصدرت بذلك الإرادة الملكية بالرقم (89) في 3 /شباط / 1946". (ص 62 من كتاب البياتي).

وفي ما عدا عن ذلك لم يتورع الباحث عن اتهام كل ما كان يحصل في العراق بأنه من صنع الشيوعيين الهدامين ناسياً بالتمام والكمال دور القوى الوطنية العراقية الأخرى في النضال الذي كانت تخوضه ضد السياسات القمعية وغير الديمقراطية للحكومات العراقية المتعاقبة، مع اعترافه بأنه كان شديداً وقاسياً في التعامل مع الشيوعيين، (ص 208). حتى المراسيم التي أصدرها النظام حينذاك ونفذها وزير الداخلية بكل قسوة، وجد الباحث مبرراً لتصرفات الوزير باعتبارها كانت مراسيم رسمية كانت تصب في مصلحة الوطن وضد الشيوعيين!

إن دفاع سعيد قزاز عن حكومة نوري الدين محمود العسكرية وإجراءاتها القمعية ضد الحركة الوطنية العراقية (ص 77)، وليس ضد الشيوعيين وحدهم، وجدت تبريراً لها في كتاب السيد البياتي باعتبارها دفاعاً عن أمن المواطنين ومصصلحة الوطن والنظام الملكي.

والموقع الوحيد الذي سكت عن إجراءات الحكومة ووزير داخليتها، سعيد قزاز، برز في الموقف من انتفاضة 1956 حين أشار إلى الرأي التالي: "وكان لحزب البعث العربي الاشتراكي دور فعال في قيادة انتفاضة الشعب انتصاراً لمصر، وقامت الشرطة بالتصدي للمتظاهرين واعتقلت بعض قادة الحركة"، ص 153. ويكشف الباحث عن دور سعيد قزاز في تحريض بريطانيا على ضرب مصر في العام 1956 بقوله "ويشير الدكتور مؤيد الوندأوي إلى أن بريطانيا أصبحت مطمئنة على الوضع الداخلي في العراق والذي يمكن السيطرة عليه، بعد أن تسلمت تأكيدات من سعيد قزاز بهذا الشأن، والذي أخذ يحث بريطانيا على ضرورة توجيه ضربة عسكرية ضد مصر لأن نجاح عملية التأميم ستؤدي في المستقبل إلى زوال النظام السياسي في العراق، فضلاً عن زوال النفوذ البريطاني ذاته في منطقة الشرق الأوسط"، (ص 153).

إن الكتاب يكشف عن السلوك السياسي لسعيد قزاز حين نبعد جانباً تبريرات واستنتاجات الكاتب ذاته

المرتبطة بما أشرنا إليه سابقاً، إذ أنها لا تتناغم مع ما ورد من عرض في متن الكتاب لحياة سعيد قزاز السياسية.

ولا بد في الختام أن أؤكد بأن الباحث بذل جهداً ملموساً ومتميزاً:

• من أجل تبرير السياسات أو الإجراءات التي كان يتخذها سعيد قزاز كوزير داخلية باعتباره كان ينفذ القوانين والتعليمات.

• كما برز بشكل خاص الجوانب الإيجابية في سلوكه الشخصي إزاء عدد من القضايا الفردية، بما فيه مساعدة ذنون أيوب، الذي كان قد تخلى في حينها عن السياسة في الحصول على جواز سفر مثلاً أو مساعدات مماثلة لأشخاص آخرين. وهي مسألة اجتماعية لا شك فيها وفي جانبها الإيجابي في شخصية سعيد قزاز ومنها نزاهته الشخصية ونظافة يديه.

• ومع ذلك كان الباحث العراقي السيد البياتي واضحاً في إبراز كرهه الشديد للرأي الآخر، للشيعوية واليسار عموماً، وحقده على من يحملها وتبريره لإسقاط الجنسية العراقية عن مجموعة من المواطنين العراقيين، ومنهم الأستاذ الفاضل والراحل عزيز شريف، أي أنه كان يشير بشكل غير مباشر إلى غياب الديمقراطية في سلوك سعيد قزاز والحكم الذي كان يدافع عنه وعن الانتخابات التي كانت تجري في فترة استيزاره لوزارة الداخلية العراقية.

• كما أجد صواب ما توصل إليه الباحث بشأن سوء معاملة محكمة الشعب لسعيد قزاز، بغض النظر عن الموقف السياسي منه وسلوكه المشين ضد الديمقراطية حين كان وزيراً، إذ كان المفروض أن يتمتع بحقوقه كاملة كإنسان متهم بقضايا كبيرة له الحق الكامل في معاملة إنسانية والابتعاد عن الإساءة له من جانب المحكمة أو الحضور أولاً، وأن حكم الإعدام الذي صدر بحقه لم يكن حكماً عادلاً، ولكن هذا لا يعني تبرئة ساحته من السياسات التي مورست في العراق حينذاك.

## المقال الثالث

كيف يُقرأ كتاب "لمحات عن سعيد قزاز" للأستاذ زهير كاظم عبود؟



ابتداءً أود أن أشير إلى أنه تربطني بالصدیق الأستاذ زهير كاظم عبود علاقات يسودها الود والتقدير والاحترام المتبادل. فقد سعينا معاً ومع أخوات وأخوة آخرين، وبمبادرة منه، إلى تشكيل "التجمع العربي لنصرة القضية الكردية" على صعيد المنطقة، وليس على صعيد العراق فقط متطوعين بكل ما تؤكده هذه الكلمة من معنى. كما شكلنا معاً ومع أخوات وأخوة آخرين، وبمبادرة مني، هيئة الدفاع عن أتباع الديانات والمذاهب المختلفة في العراق. وكلا المنظمين تؤديان خدمات طيبة في مجال نشاطهما. وخلال السنوات المنصرمة زرت عدة مرات السويد ومدينة مالمو حيث استضافتنا عائلة الصديق على غداء فاخر لا ينسى صنعه يد ماهرة ونفس طيبة هي زوجته الفاضلة السيدة أم علي، التي كانت في أوائل السبعينات من القرن الماضي إحدى طالباتي النجيبات. وفي المحاضرة الأخيرة التي قدمتها في مالمو قدمني الأستاذ عبود وأدار الندوة، وكانت المحاضرة بعنوان "المستجدات في الوضع السياسي في العراق وآفاق تحقيق مشروع المصالحة الوطنية". كما أن الأستاذ عبود أهداني الكتاب الذي بحث فيه "لمحات عن سعيد قزاز"، إضافة إلى كتبه الأخرى. إن الود والصدقة التي تربطني بالصدیق الفاضل الأستاذ عبود من جهة، والعمل المشترك في منظمات المجتمع المدني الديمقراطية من جهة ثانية، ومهمتي ككاتب وصحفي أمام القارئ



والقراء الكرام من جهة ثالثة، جعلتني أقرر كتابة هذا المقال عن الكتاب المذكور برؤية مدققة ومثالية تماماً، كما تعاملت مع كتاب السيد عبد الرحمن إدريس البياتي في المقال الثاني، أو مع مقدمة الأستاذ الدكتور كمال أحمد مظهر في المقال الأول.

في العام 2004 صدر عن وزارة الثقافة في إدارة السليمانية كتاب بعنوان "لمحات عن سعيد قزاز" للقاضي السابق والكاتب الأستاذ زهير كاظم عبود. وهذا يعني أن الكتاب قد صدر بعد مرور ثلاث سنوات على صدور كتاب الأستاذ البياتي (2001) الذي ناقشناه في المقال الثاني وليس في العام 2003 كما ورد في مقدمة كتاب الأستاذ عبود على الصفحة 12.

تضمن الكتاب مقدمة وأربعة فصول وخاتمة. يبدأ الفصل الأول بشهادة عن أحد أشهر الأطباء العراقيين ثم البحث في "الرجل النبيل". أما الفصل الثاني فيبحث في صعود سعيد قزاز بجدارة في الوظائف إلى أن تقلد منصب وزير الشؤون الاجتماعية، ثم وزارة الداخلية من العام 1953 حتى سقوط النظام في العام 1958. وكان استوزر في وزارة فاضل الجمالي التي مارست سياسة الانفتاح على القوى السياسية العراقية عموماً والتي سعت إلى منح بعض الحريات الديمقراطية، ثم تقلد في وزارتي نوري السعيد 12 و13 منصب وزير الداخلية وكذلك في وزارة أحمد مختار بابان، وهي آخر وزارة شكلت في العهد الملكي. أما الفصل الثالث فقد بحث القاضي السابق موقف سعيد قزاز أمام المحكمة العسكرية العليا الخاصة، وأجرى مناقشة قانونية مع الحكم، ثم سجل تقويمه للحكم المجافي للعدالة بشأن المحاكمة والحكم الذي صدر بحق الوزير المتهم. أما الفصل الأخير من الكتاب فقد خصص للبحث في أيام سعيد قزاز في السجن ثم تنفيذ حكم الإعدام والكلمة الأخيرة والخاتمة. كما تضمن الكتاب وجهات نظر بعض الشخصيات العراقية حول الموقف من الحكم الذي صدر ونفذ بسعيد قزاز.

وقبل البدء بمناقشة مضمون الكتاب أود أن أبدي بعض الملاحظات على المنهج الذي تعامل به الكاتب مع شخصية ومفردات الكتاب، والتي يمكن تلخيصها بما يلي:

1. يفتقد البحث إلى المنهجية في التعامل مع المادة التي في حوزته وفي ترتيب الفصول، ومنها على سبيل المثال: كان المفروض أن يبدأ الباحث باستعراض حياة الرجل وثقافته ويتدرج معه إلى حين وصوله إلى مختلف المناصب، لا أن يبدأ بمدحه وإبراز جوانبه "الناصعة" ومن ثم شهادة طبيب كان صديقاً له، إذ كان في مقدور الباحث أن يورد ذلك في نهاية الكتاب مثلاً، كما فعل السيد عبد الرحمن البياتي في شهادة محمد سعيد الخفاف. وينطبق هذا الأمر على فصل المحاكمة. فالكاتب يطلعنا

بحدود 30 صفحة على الحوار بين رئيس المحكمة والمتهم ودفاع المتهم منقولاً من محاضر جلسات المحكمة العسكرية العليا الخاصة، ولكن لم ينقل لنا شهادة بعض أبرز الشهود وأكثرهم صدقاً وبعيداً عن الشك في مصداقيتهم من أمثال الأستاذ عزيز شريف أو الشهيد الأستاذ توفيق منير أو الشهيد الأستاذ كامل قزانجي، لكي يتبين القارئ مدى صحة دفاع المتهم عن نفسه، أو شهود الطعن بقضايا البصرة أو سجن الكوت... الخ. وهو خلل صارخ في الكتاب لا يساعدنا على المقارنة والخروج بحكم ذاتي بغض النظر عن مدى قناعتنا بحكم السيد عبود. كما ينطبق على مواقف سعيد قزاز من المسألة الكردية طيلة حياته ومنذ كان يعمل في القلم السري للمفتش الإداري في السليمانية دليو. أي. لاينو ومن ثم الكاتب السري للمفتش الإداري في لواء الدليم (محافظة الأنبار، ثم موظفاً في المخابرات السرية لوزارة الداخلية التي كان يشرف عليها البريطانيون في ظل الانتداب... الخ. (راجع: البياتي، سعيد قزاز ودوره في السياسية العراقية، ص 52)، إذ تجنب الباحث التحري عن مواقف سعيد قزاز إزاء القضية الكردية، وجل ما حدثنا به أن موقف سعيد قزاز إزاء الكفاح المسلح كان سليماً، إذ لم يعد استخدام السلاح في النضال الوطني في المرحلة الراهنة، وهو موقف لا ينسجم والدراسة التاريخية للأحداث والعوامل الكامنة وراء ذلك. ولم يكن جواب سعيد قزاز بإهداء القلم إلى السيد مسعود البارزاني عن سؤاله حول أسباب اعتقال البارزانيين، يعادل العذابات التي تعرض لها البارزانيون من جراء سياسات النظام وممارسات سعيد قزاز الفعلية إزاء نضال الشعب الكردي، بغض النظر عن مدى فرحة الصبي بالقلم، إذ إن الصبي مسعود كان يتوقع جواباً عن سؤاله أساساً، ولم يحصل عليه.

2. وأن الاسم الأكثر ملاءمة للكتاب هو "سعيد قزاز أمام المحكمة الخاصة" إذ أن جل الكتاب يبحث في موضوع المحاكمة والحكم الذي صدر ونفذ بحق السيد سعيد قزاز حيث احتل 51 صفحة من مجموع صفحاته البالغة 161 صفحة.

3. من الجراً بمكان أن يتصدى باحث عراقي لدراسة حياة سعيد قزاز الذي عرفه العراق لسنوات طويلة ولكن بشكل خاص حين كان وزيراً للداخلية في الفترة بين 1953-1958 حتى أطلق عليه بستولوبين العراق (ستولوبين وزير داخلية روسيا القيصرية الذي نفذ مجزرة الأحد الدامي في ثورة 1905 الشهيرة).

4. لم أفهم سبب النصح الذي قدم له بعدم الكتابة عن حياة سعيد قزاز ابتداءً، ولكن بعد أن انتهيت منه وللمرة الثالثة أدركت السبب، وخاصة إن كان من قدم له النصح قد قرأ الكتاب فعلاً وكان صديقاً صادقاً له. ولهذا أتمنى على الصديق عبود، إذا ما أراد إعادة طبع الكتاب أن يعيد النظر بجملة من الأمور المهمة، لكي يستطيع أن ينفذ مضمون الحكم القاطع الذي تحدث عنه في مقدمة الكتاب.

5. استناده إلى جملة من المصادر التي لا تبحث في حياة ونشاط سعيد قزاز، ولكنها تتطرق له، وهي في الغالب الأعم تتحدث عن الجوانب الإيجابية لسعيد قزاز.

6. الشخصيات التي تحدث معها هي في الغالب الأعم من أصدقاء سعيد قزاز ومن له فضل عليه، بمن فيهم الكاتب الراحل مير بصري الشخصية المحافظة جداً والمخلص الكبير للنظام الملكي ولشخصيات ذلك العهد والتي تبرز في أغلب كتبه، بما في ذلك كتابه عن الشخصيات السياسية، رغم ما لحق باليهود، وهو منهم، من أدى في العهد الملكي.

7. الاستناد إلى محاضر مجلس النواب ومحكمة الشعب، وهما مصدران مهمان طبعاً.

8. لم استطع تبين أي حيادية حقيقية في الكتاب إزاء شخص سعيد قزاز بعكس ما وجدته في كتاب السيد عبد الرحمن البياتي، بل أن الكتاب من أوله إلى آخره محاولة جادة لتبييض صفحة سعيد قزاز بغض النظر عن كل الأدلة والبراهين والشهود والوثائق التي تؤكد طبيعة السياسات القمعية التي مارسها سعيد قزاز إزاء قوى المعارضة العراقية. ومن الغريب أن يورد حادثاً سماه طريفاً، بدلاً من أن يعتبره من أعمال الشقاوة وليس من أعمال الشجاعة حين اعتدى وزير الداخلية في الشارع على عدنان جالميران في مظاهرة الموصل. أي استخفاف بالفكر الحر وبعقولنا حين يتحدث الزميل عبود عن وثوق سعيد قزاز "من قوة شخصيته وشجاعته وانعكاس ذلك على الناس، ولذا قرر مواجهة المتظاهرين دون حماية ودون سلاح وهي حالة نفتقدها في هذا الزمان"، في حين أن السيد عبود يدرك من يقف وراء سعيد قزاز من أجهزة أمنية. ويفترض أن نحیی العهد الذي يختفي فيه مثل هذه الشخصيات لا أن نحزن لعدم وجود أمثالهم.

سأحاول الآن تتبع الكتاب بسبب أهمية الموضوع الذي يثيره الصديق الكاتب، بادر السيد زهير كاظم عبود في المقدمة إلى تسجيل القول التالي: "ربما كتبنا المعلومات الشخصية عنه بعين واحدة إذا جاز التعبير". ثم يقول في مكان آخر جملة مهمة هذا نصها:

"إن السكوت عن ذكر المحاسن وإطرائها لا يقل خطورة وجراً من السكوت عن ذكر المثالب والتنديد بها، من خلال هذا الأساس نؤسس بحثنا عن سعيد قزاز". (ص 6 من المقدمة). الحكم الذي جاء في هذا النص الثاني خطير للغاية، ما كان من الصائب صياغة الموقف بهذا الحكم المطلق، إذ كان الأفضل لو كان قد صاغ الموقف على النحو التالي: "أن الإمعان في المدح لا يقل خطأ عن الإمعان في الذم، إذ أن في سلوك كل إنسان ما هو إيجابي وما هو سلبي، ما هو صحيح وما هو خاطئ". والصياغة المقترحة تسمح لي ولغيري بمناقشة الكتاب دون أن نتهمه بواحدة من الاثنين أو أن نسيء له، وهو صديق كريم. إذ أن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: هل التزم الكاتب زهير كاظم عبود بما جاء في هذا النص الشديد والقطاع في حكمه، وبالتالي هل تخلص من أحد الموقفين اللذين حددهما بنفسه؟ سنجد الإجابة عن السؤال بعد التمعن في مضامين الكتاب، خاصة وأنه يقول في مكان آخر ما يلي: "الحقيقة دوماً مقدسة وقد اعتبرت على الدوام العمود الفقري للتاريخ، ومن خلال هذه الحقيقة بحثت كثيراً عن شيء يخص سعيد قزاز بعد أن دوخ الدنيا وشغل الناس في العراق مدة تزيد على أكثر من الربع قرن، فلم أجد من يسعفني بكتابة يساعدي على تلمس الطريق إلى كتاب أو دراسة عن سعيد قزاز...". (ص 11 المقدمة). المسألة الأولى يا سيدي الفاضل أن الحقيقة نسبية ومتغيرة من جيل إلى جيل، كمت يبدو هذا واضحاً من الكتاب نفسه. والمسألة الثانية أن الكاتب لم يتحرى كما ينبغي عن الحقيقة، إذ أنه أورد نصف الحقيقة التي اعتبرها حلوة وناصعة وسكت عن الصف الثاني، وهو ما يبدو واضحاً من الرجل النبيل وشهادة طبيب والمقدمة ذاتها والنصوص التي اعتمدها من الأستاذ مظهر في مقدمته لكتاب السيد البياتي. والثالثة كما يبدو لي أن ذاكرة الإنسان قصيرة جداً بحيث تنسى ما مر بها، خاصة إذا اصطدمت بفترة أمر من الفترة التي سبقتها، وبالتالي يتحسر الإنسان على تلك الفترة في حين أنها كانت ظالمة أيضاً والاختلاف يبرز في مستوى القمع والسوء.

يقول الأستاذ زهير كاظم عبود على الصفحة 4 من المقدمة إنه كان ما يزال طفلاً صغيراً في الفترة التي استوزر فيها سعيد قزاز، وحين تم إعدامه كان في الصف الأول المتوسط، وأنه لفت انتباهه أن الرجل كان شجاعاً، ولكن من المؤسف أن السيد عبود لم ينتبه إلى ضحايا سعيد قزاز الذين قدموا شهادات واقعية وحقيقية عن المتهم، وكان المفروض أن يتتبع بعد ذلك كل مواقف سعيد قزاز من مختلف القضايا وليس من المحاكمة وحده، خاصة وأن اسم الكتاب "لمحات عن سعيد قزاز". لم أكن موجوداً في العراق حين حوكم سعيد قزاز، إذ كنت قد غادرت للدراسة بعد انقطاع لعدة سنوات بسبب سياسات النظام القمعية، ولكني كنت أحد شهود هذه الفترة، إذ كنت في هذه الفترة رهينة سياسية لدى وزارة الداخلية

والحكم الملكي منذ العام 1955 حتى العام 1958، أي كنت أحد مئات المعتقلين والمجندين قسراً في معسكر الشعبية للطلاب أولاً، وأحد مئات السجناء والمبعدين السياسيين ثانياً، استناداً إلى السياسات والإجراءات التي مارسها كل من عبد الإله ونوري السعيد وسعيد قزاز، وخاصة مراسيم تلك الفترة الاستثنائية من تاريخ العراق الملكي والتي صدرت في آب وأيلول وما بعدها من العام 1954.

ركز الباحث في كتابه على أن حكم الموت الصادر بحق سعيد قزاز كان حكماً خاطئاً. ولا أشك في صواب هذا الاستنتاج. ولكن كان على السيد القاضي أن يشير لنا يجب عن بعض الأسئلة المهمة، وهي:

1. ألم يكن مفيداً أن يتضمن كتابه بعض إفادات شهود الإثبات وعدم الاقتصار على الحديث المتبادل بين سعيد قزاز ورئيس المحكمة، خاصة وأنه يعرف إن من بين الشهود من يمكن الثقة بأقواله وليس من الكذابين؟

2. وهل حقاً أن جميع الشهود كانوا من الشيوعيين الكذابين؟

3. وهل كان سعيد قزاز هو الصادق الوحيد في المحكمة الذي يستحق التعاطف وامتلك الجرأة في الدفاع عن نفسه، ولم تشعر بأي تعاطف عقلي مع ضحايا النظام، ضحايا نوري السعيد وسعيد قزاز؟

4. ألم يجسد سعيد قزاز سياسة النظام القمعية وممارساته ضد قوى المعارضة العراقية، باعتباره ممثلاً أساسياً من ممثلي النظام الملكي القومي ومسؤولاً عن أجهزة القمع العراقية حينذاك، ويدها الطولى في إذلال المعارضة ولا أقول الشعب كله.

5. هل كان المتهم مذنباً ويتحمل مسؤولية ما ارتكبه من مخالفات فعلية؟ أم كان بريئاً من أي تهمة في ارتكاب المخالفات؟

6. وبالتالي، ما هي العقوبة التي كان يقترحها السيد القاضي على حكام محكمة الشعب؟ هل كان يقترح البراءة أم الحكم بعدد من السنين بدلاً من الإعدام؟ أي حكم كان مناسباً للسياسات والإجراءات التي مارسها سعيد قزاز أثناء مشاركته في حكم العراق؟ وهل كانت سياساته وإجراءاته تتناغم مع الدستور العراقي ومع الوثيقة الدولية التي وقعها العراقي في العام 1949، اللائحة الدولية لحقوق الإنسان، وأنت من مناصري حق الإنسان؟ وهل المعارضة العراقية هي التي تجاوزت على حقوق الإنسان وحقوق النظام وحقوق سعيد قزاز في العهد الملكي؟ هل كان سعيد قزاز سويماً في تعامله مع الفكر الآخر بغض النظر عن رأيه الشخص بهذا الفكر أو ذاك، وخاصة وهو وزير داخلية مسؤول عن التعامل مع المواطنين بصورة سوية ومتساوية؟

ليس عدلاً بحق الشعب وبحق محكمة الشعب، رغم قناعاتي بخطأ تشكيلها كمحكمة عسكرية عليا للنظر بقضايا رجال العهد الملكي، ورغم قناعاتي التي سجلتها بأكثر من مقال عن أساليبها غير الديمقراطية التي مارستها إزاء المتهمين، ولكن ألا يرى الزميل أنه تجاوز المعقول في دفاعه عن واحد من أبرز ممثلي ودعاة ممارسة القمع ضد معارض النظام وكان يحتضن ويرعى أجهزة القمع حسب قول الأستاذ عبود نفسه، ولكنه لا يدينه ولا مرة واحدة في كل فصول الكتاب.

لا أدري لم اعتمد السيد عبود على رجل بعثي معاد للشيوعية ومن المتهمين بأحداث الموصل مثل السيد حازم العلي في البرهنة على أن الشيوعيين هم الذين كانوا وراء شنقه مرتين، علماً بأنه أول من أورد هذا الأمر عن لسان شخص معادٍ للشيوعية، وأن الشيوعيين هم الذين كانوا وراء كل ما أصابه من أذى في السجن، في حين أنه يدرك تماماً عدد الأعداء الذين كانوا يكرهون سعيد قزاز وليس الشيوعيين وحدهم، رغم قناعاتي بأن الشيوعيين ارتكبوا جملة من الأخطاء خلال هذه الفترة بالذات وفي المحكمة أيضاً، كما ارتكب غيرهم أخطاءً أيضاً.

أشعر بأن من حق السيدة الفاضلة ابنة الوزير الراحل سعيد قزاز أن تسعى إلى تبرئة والدها من كل ما حصل في العراق وإبراز وجهه ناصعاً، رغم أن البنت لا تؤخذ بجريرة الوالد، ولكن مهمة الكاتب والمؤرخ والناقد أن يتحرى عن الحقيقة، رغم نسبيتها، ولكن صديقي الفاضل لم يلتزم بما تعهد به في بداية الكتاب، بل نظر إلى سعيد قزاز بعين واحدة فقط وكانت الأخرى مغلقة كلية.

أرجو أن لا أتهم بأني من المتزمتين في الهجوم على أقطاب النظام، كما ورد في المقدمة استناداً إلى النص الذي اقتطفه من الأستاذ الفاضل كمال أحمد مظهر، أدرك تماماً ما يلي:

1. علينا أن نعيد النظر ببعض أحكامنا السابقة إزاء الأحداث أم الشخصيات، ولكن وفق منهج علمي وموضوعي محايد وغير متحيز.

2. وأن الرجل سعيد قزاز امتلك القدرة الإدارية والمعرفة والخبرة في تسنمه المراكز المختلفة. ولكنه لمي تقدم لهذه الأسباب فقط، بل كانت هناك أسباب أخرى، إذ لم يكن في العراق شخص واحد يمتلك ما يمتلكه سعيد قزاز.

3. وأقدر في الوقت نفسه شجاعته واستعداده لتحمل مسؤولية ما مارسه من سياسات واتخاذ إجراءات قمعية دفاعاً عن النظام الملكي وسياساته التي لم تكن كلها في مصلحة الشعب.

4. وأدرك أن الرجل كان مذنباً في جملة من الأمور، ولكن كان من العدل إلغاء حكم الإعدام وتخفيفه إلى السجن. ونحن نعرف إن من أعدم هو أربعة من أقطاب النظم السابق وكلهم كان مسؤولاً عن وزارة الداخلية والتحقيقات لجناية ومجازر السجن ومحافظ بغداد. \* نشرت هذه المقالات الثلاثة في مجلة رؤية التي تصدر عن مؤسسة حمدي للطباعة والنشر في السلبيانية على التوالي في أشهر أيلول، تشرين الأول وتشرين الثاني 2006 .

تعقيب على تعقيب الأستاذ القاضي زهير كاظم عبود

حول مقالي النقدي لكتابه الموسوم -لمحات عن سعيد قزاز

تعقيب على تعقيب الأستاذ القاضي زهير كاظم عبود حول مقالي النقدي لكتابه الموسوم "لمحات عن سعيد قزاز"

قرأت بعناية تعقيب الأستاذ الفاضل زهير كاظم عبود حول مقالي النقدي لكتابه الموسوم "لمحات عن سعيد قزاز"، تماماً كما كنت قد قرأت كتابه حين كتبت النقد، إذ أن مسؤولية الناقد تعادل مسؤولية الكاتب في التحري عن الحقيقة والالتزام بالموضوعية. عبر الصديق الأستاذ عبود عن موقف علمي وتواضع جم إزاء النقد الذي وجهته له، وهو ما كنت أتوقعه منه، إذ أن أي نقد علمي بناء يخدم الحقيقة ولا يسيء للكاتب، بل يساعده ويساعد الناقد ذاته من خلال مواصلة النقاش بهدف الوصول إلى رؤية أكثر وضوحاً حول المادة التي يجري حولها النقاش. وإذا وجد من لا يرتاح للنقد ويشعر بالمرارة من نقد الآخرين له، فهو لا يستحق أن يكون كاتباً ومشاركاً في تبادل الرأي ووجهات النظر والحوارات الفكرية والسياسية أو النقاشات المختلفة، شريطة أن يكون النقد لا يستهدف الإساءة لأحد.

سأحاول فيما يلي أن أتطرق مرة أخرى إلى الكتاب وإلى التعقيب الذي تفضل به الأستاذ عبود حول مقالي الموسوم "كيف يقرأ كتاب الأستاذ زهير كاظم عبود لمحات عن سعيد قزاز".

#### أولاً: حول المنهج

1. لا يمكن من حيث المبدأ الاتفاق مع الكاتب السيد عبود بشأن قوله أنه لا يكتب رسالة ماجستير أو رسالة دكتوراه ليلتزم بمنهجية الرسائل الأكاديمية، إذ أن أي كتاب، وخاصة من يريد إعادة كتابة التاريخ، أن يلتزم بمنهجية علمية لا تقل صرامة عن رسائل الماجستير والدكتوراه، لكي يستطيع بموجب تلك المنهجية أن يصل إلى نتائج ربما لا يستطيع تقديرها في بداية البحث، إذ لا يجوز في البحث أن تكون لها استنتاجات مسبقة بشأن هذه القضية أو تلك بل البحث والتحري يفترض أن يوصلنا إلى ما هو موضوعي. ويفترض أن يحرص الكاتب على التناغم بين الشكل والمضمون، بين العنوان والبحث أيضاً. وهو ما أردت الإشارة إليه، إذ أن ذلك يعتبر أحد مستلزمات الكتابة العلمية الجادة، إذ أعرف أن ما كتبه الزميل عبود ليس برسالة ماجستير ولا رسالة دكتوراه، ولكنها محاولة لإعادة الاعتبار لشخص سعيد قزاز، ومحاولة لإعادة كتابة التاريخ في العراق. ولهذا أشرت إلى ملاحظتين، بغض النظر عن حجم الأخطاء المطبعية والتي لا دخل للكاتب بها، وهي أن مفردات الكتاب تفتقد إلى التسلسل المنطقي، وهي جزء من منهجية العمل وليست كل المنهجية أولاً، ومن ثم أن اسم الكتاب لا ينطبق على مضمونه وكان الأفضل أن يسمى محاكمة سعيد قزاز على نمط محاكمة صدام حسين، إذ أنها كانت المسألة المركزية في الكتاب.

2. يشير السيد عبود إلى أنه سيواصل تتبع خطى الأستاذ الدكتور كمال أحمد مظهر ومنهجه في إعادة كتابة التاريخ. وليس لدي أي اعتراض على ذلك. وهي مسألة تمس الزميل ذاته. ولكن من المفيد أن نشد أنفسنا على المنهجية وليس إلى فرد يستخدم منهجته في البحث. والمنهجية في كتابة التاريخ ليست واحدة، كما أن الباحث أياً كان ليس معصوماً عن الخطأ. أحترم الأستاذ الدكتور كما أحمد مظهر باعتباره باحثاً جاداً ومشرفاً على عدد غير قليل من رسائل الدكتوراه والماجستير، ولكني لا أتفق مع الطريقة التي مارسها، فهي طريقة انتقائية وليس منهجاً حين بدأ في إعادة كتابة تاريخ بعض الشخصيات العراقية، سواء أكان ذلك بالنسبة إلى نوري السعيد أم سعيد قزاز، إذ أجد أنه بعيد كل البعد عن المنهج الموضوعي في دراسة الشخصيات والأحداث في أجوائها وظروفها الملموسة.

أدرك أن الكاتب السيد عبود يتسم بالجرأة في الكتابة وفي البحث في مسائل مهمة، ولكني لم أتوقع صدور مثل هذا الكتاب عنه. إذ تبدو لي ملاحظته الواردة في التعقيب لا تتناغم مع مضمون كتابه حول سعيد قزاز



حين كتب في تعقيبه يقول: "ولم تكن عيني الثانية مغلقة مطلقاً فقد بقيت مفتوحة على الحقيقة التي تحملت وسأتحمل من أجلها الكثير حتى يستقر منهجنا في كتابة التاريخ ( منهج كمال أحمد مظهر ) الذي يقول : " علينا أن نعيد النظر ببعض أحكامنا السابقة إزاء الأحداث أم الشخصيات، ولكن وفق منهج علمي وموضوعي محايد وغير متحيز". النقد يا صديقي لا يسيء لأحد ولا يحتاج الإنسان إلى أن يتحمل الكثير من أجل الحقيقة، إذ أنها نسبية ومتغيرة باستمرار مع تغير الزمان والمكان وغيرها، ولا اعتقد بأن كتابه عن سعيد قزاز سيحمله الكثير دفاعاً عن حقيقة سعيد قزاز، هي ليست بالضرورة الحقيقة بعينها . أتمنى لزميلي أن لا تتحمل في المستقبل الكثير من أجل الكشف عن الحقائق التي هي باستمرار نسبية والتي يمكن أن يعتبرها البعض إنها الحقيقة المطلقة. كما أنني وفي الوقت الذي أقول أن عيونه على الكثير من الأمور متفتحة ومنفتحة، ولكنها هنا كانت النظرة من خلال عين واحدة، علماً بأن التعقيب على مقالي يشير إلى أن الصديق الكريم بدأ يفتح أحياناً ويغلق أحياناً آخر عينه الثانية.

ثانياً: حول مضمون الكتاب

1. حين ندرس سيرة حياة شخصية عامة مثل سعيد قزاز يفترض أن ننتبه إلى مسألتين متباينتين لا يجوز الخلط بينهما، رغم التفاعل القائم بينهما، ولكنهما تعبران عن أمرين مختلفين، وأعني بهما: أ. السلوك الشخصي أو الفردي والخاص للشخصية العامة، وربما في بيته ومع الأصدقاء؛ وب. السلوك الوظيفي أو باعتباره جزءاً من نظام سياسي قائم في حينها. فغالباً ما تختلف الشخصيتان وتعبران عن ازدواجية أو انقسام في الشخصية التي غالباً ما يتميز بها المسؤولون المستبدون، كما في حالة صدام حسين مثلاً. ولهذا فإن الخلط بينهما وتبرئة ذمة هذا المسؤول أو ذاك من السلوك العام أمر يتناقض مع المنهجية العلمية بشكل عام. فما كان يمارسه سعيد قزاز في البيت أو مع البعض من أصدقائه أو معارفه هو غير ما كان يمارسه مع المجتمع والمعارضة السياسية للنظام. وبقدر ما كان ودوداً مع صحبه، كان قاسياً وشرساً وعدوانياً مع المعارضة السياسية، وخاصة إزاء الحركة الشيوعية والتقدمية بشكل عام، وهو ما لا يجوز نسيانه والخلط به.

2. يفترض أن لا ننسى الحقيقة التالية: لم يكن سعيد قزاز أحد بياذق النظام الملكي في فترة تفسخه وسقوطه، بل كان أحد قادة النظام المعتمد من قبل شركات النفط والسفارة البريطانية ونوري السعيد، رغم وجود بعض مواقف الخلاف بين الشخصيتين. ولم يحكم على هذا الرجل وحده بالإعدام، بل حكم على مدير التحقيقات الجنائية بهجت العطية، ومتصرف لواء بغداد عبد الجبار فهمي ومدير السجن

عبد الجبار أيوب بالإعدام أيضاً ونفذ الحكم بالأربعة. أي المجموعة التي كانت مسؤولة في وزارة الداخلية، والتي كانت مسؤولة عن كل ما كان يجري في العراق في التصدي للمعارضة السياسية للنظام الملكي. وسعيد قزاز لم يكن موظفاً صغيراً في وزارة الداخلية لينفذ أوامر سيده الوزير، بل كان السيد وزيراً للداخلية ومن أبرز واضعي سياسة العراق الداخلية حينذاك في موقف الحكومة العراقية الملكية من المعارضة السياسية. ولم تكن محاكمة سعيد قزاز قضائية فقط، رغم أنها كانت كذلك، ولكنها كانت بمعنى معين سياسية ضد كل النظام وضد كل الذين أساءوا للشعب وقضيته في تلك المرحلة. يبدو لي مفيداً أن نتعمق في دراسة سلوكية الفرد المسؤول، والتحري عن ازدواجية أو انفصام الشخصية فيه، وخاصة لشخصيات مستبدة مثل نوري السعيد وسعيد قزاز وغيرهما في المنطقة.

3. حين يتفق معي الصديق الفاضل عبود إلى أن سعيد قزاز كان جزءاً من النظام القمعي حيث كتب يقول: هل كان المتهم مذنباً ويتحمل مسؤولية ما ارتكبه من مخالفات فعلية؟ أم كان بريئاً من أي تهمة في ارتكاب المخالفات؟. فأقول نعم هو جزء من النظام القمعي ولكنه ليس كل النظام وليس الجزء الأساسي منه، "...، إذن من الواجب محاكمته. وليس هناك أي خطأ بمحاسبته. وأختلف معه في كونه ليس الجزء الأساسي، بل أقول لقد كان سعيد قزاز جزءاً أساسياً وقطباً فاعلاً ومؤثراً في تشكيلة النظام القمعي وليس خردة أو هامشياً في الوزارة، ولم يكن عبثياً أن يكون وزيراً للداخلية في نظام قمعي. وبقية الموضوع أشرت إليه في مكان آخر من هذا التعقيب.

4. لقد حوكم أغلب مسؤولي النظام الملكي، عدا الذين قتلوا تجاوزاً على حقوق الإنسان، في شوارع بغداد، وهم الملك فيصل والوصي عبد الإله ورئيس وزراء الوحدة العراقية الأردنية حينذاك، نوري السعيد. وكان رمز النظام حينذاك هو سعيد قزاز، الذي تجاوز مع غيره على دستور البلاد لعام 1925. وكان في مقدوره أن يرفض ما يصدره مجلس النواب ويستقيل من وظيفته ويقبل بتحمل ما تتحمله الآن من أجل الكشف عن الحقيقة. ولكنه لم يفعل ذلك بل غاص في مستنقع قمع الشعب، بما في ذلك قضية شعبه الكردي. (وبالمناسبة عدت قبل يومين من زيارة شخصية إلى إقليم كردستان العراق واستفسرت بشكل مباشر عن الأسطورة الواردة في الكتاب عن اللقاء بين السيد مسعود البارزاني وسعيد قزاز في حينها، كما جاء في كتاب السيد عبود، وعن موضوع الخيار بين الخنجر والقلم، فجاء الجواب من مصدر موثوق تماماً بأن الحادث لا أساس له من الصحة كلية ولم يكن

هناك أي لقاء بين الرجلين أبداً). لم يكن سعيد قزاز ظالماً مع المعارضة العراقية فحسب، بل كان ظالماً مع قضية شعبه ومواقفه إزاء الحركة السياسية الكردية، وليس مع الكفاح المسلح فقط، وهذا يؤكد ما أشرت إليه في تعقيبي على كتاب السيد عبود.

5. أشرت إلى أنني قرأت يامعان محاكمة سعيد قزاز، إذ أن مجلدات محكمة الشعب موجودة في مكتبي، إذ أنجزت دراسة عن طبيعة هذه المحكمة وتصرفاتها ضمن كتابي الموسوم "لمحات من عراق القرن العشرين". إلا أن هذه المحكمة صدر بها قرار من أعلى سلطة في البلاد، رغم اختلافنا معها عن مدى صلاحيتها في تشكيل مثل هذه المحكمة. ولكن سؤالي الذي أثرته ما يزال مطروحاً. لست إلى جانب قرار حكم الإعدام بأي حال، ولكن ألم يكن الرجل مذنباً حتى لو كان الحكم عليه بعدة سنوات أو غرامات كما تشير إلى ذلك، فلم لا يشار إلى ذلك بأن الرجل كان مذنباً في أكثر من حادث أو إجراء مارسه وهو على رأس وزارة الداخلية. لست مع من يقول أن الرجل كان عميلاً، فهؤلاء كانت لهم فلسفة ونهج نختلف حوله. وليست هذه هي المشكلة، بل المشكلة في القوانين التي أصدرتها والسياسات التي مارسوها. وإذا كان الأستاذ عبود صبيحاً يافعاً حينذاك، فأن كثرة منا كانوا ضحايا سياسات النظام التي كان سعيد قزاز أحد أبرز أقطاب تلك السياسة. من المفيد إعادة كتابة التاريخ ولكن شريطة أن تكون وفق أسس ومعايير واضحة بحيث لا يتحول الجراد إلى ضحية والضحية إلى جراد، والسياسة القمعية التي مورست كانت تدافع عن نظام رسمي وعن دستور وبرلمان وحكومة، والمعارضة كانت متطرفة في مواقفها وبالتالي استحققت العقاب! هذا هو تقريباً ما توصل إليه الدكتور كمال أحمد مظهر، وهو ما لا أتمنى أن يتفق معه الأستاذ عبود ويجد منهجه صائباً.

6. لم تكن هناك مخالفات مارسها وزير الداخلية، بل كانت هناك جرائم ارتكبت بحق الوطنيين العراقيين وصدرت بقرارات وأوامر من مجلس الوزراء، وكان هو أحد أبرز المسؤولين عنها، باعتباره وزيراً للداخلية، وبالتالي لا يجوز وضعه في خانة وكأنه موظف بسيط. إن الجهة المسؤولة عن محاكمته كان يفترض أن تكون محكمة جنائيات وليس محكمة جزاء. إن إسقاط الجنسية العراقية جريمة، إن شق الناس بمحاكمات شكلية وقرارات مسبقة الصنع جريمة، أن قتل السجناء العزل جريمة، إن قتل المضربين جريمة. ولكن لا أختلف في الوقت ذاته بأن من الصائب أن لا تكون المحكمة عسكرية، رغم أن القضاة كانوا جميعاً، وكذلك هيئة الادعاء العام من خريجي كلية الحقوق العراقية التي يعين منها القضاة، بل كان الأفضل تقديمه إلى محكمة الجنائيات.

7. لقد كانت وزارة الداخلية، ومنها مرؤوسيه في التحقيقات الجنائية، تتدخل في الأحكام التي تصدر

ضد المتهمين بقضايا سياسية خلال فترة وجود سعيد قزاز على رأس وزارة الداخلية. ولدي من الشواهد ما يؤكد العلاقة المباشرة بين ما كانت تمارسه التحقيقات الجنائية وما كان يؤديه سعيد قزاز باعتباره المسؤول الأول عن أمن العراق حينذاك وعن التحقيقات الجنائية. وهذه المسألة بحد ذاتها تستوجب تقديم سعيد قزاز إلى المحاكمة. لقد كان الشهود يزورون، وكانت الأوراق والمستمسكات تزور في المحكمة، وكانت الأحكام معدة سلفاً في وزارة الداخلية والتحقيقات الجنائية. لقد قدمت صورة مبسطة عن أساليب التعذيب التي كانت تمارس في العهد الملكي في ذكريات نشرتها حول وجودي في ضيافة التحقيقات الجنائية في العام 1955 ولمدة أسبوعين، ثم صدر حكم بحقي بالسجن والإبعاد. وكان تعذيبي أهون بكثير مما واجهه في حينها بهاء الدين نوري وحמיד عثمان وجبار حسين وكريم أحمد الداوود وفاضل عبد الكريم والمئات بل الآلاف من المناضلين. وكانت بعلم ومسؤولية وموافقة وزير الداخلية يا صديقي العزيز. وما كان يجري في سجون العراق لم يكن تحت إشراف وزارة الشؤون الاجتماعية فحسب، بل ووزارة الداخلية وكان العمل مشترك ومنسق بين الوزيرين.

8. المتهم الرئيسي في فترة الملكية هو النظام السياسي، هو الحكم. وكان الحكم يدار بشخصيات معينة، وبالتالي فإنها المسؤولة عن سياسات تلك الفترة. لم يكن فاضل الجمالي بفضاعة سعيد قزاز. وإذا كان قزاز هو المسؤول عن المشاركة في إصدار المراسيم التي وضعت قبل أن يكون في الخارج ويأتي ليجدها جاهزة، فقد كان متفقاً معها وموافقاً عليها، فأن الجمالي كان المسؤول عن إطلاق الحريات الديمقراطية في العام 1953/1954 التي أتى عليها نوري السعيد ومعه سعيد قزاز بمراسيم عام 1954 و1955 وكذلك عبد الإله. ومع ذلك حوكم فاضل الجمالي وصدر بحقه حكم من ذات المحكمة، ولكن أخف من حكم سعيد قزاز، ثم أطلق سراحه. وأنا مع هذا الحكم وضد الحكم الذي صدر بحق سعيد قزاز، ولكن هذا الموقف يختلف عن محاولة تبييض وجه سعيد قزاز بالطريقة التي جرت في الكتاب، وبالتالي، فأنا ما أزال ألاحظ عيناً مفتوحة وأخرى مغلقة، وهي ليست إساءة لأحد بل هو نقد لمنهج البحث الذي يخلط بين السلوك الشخصي والسلوك العام، عندها يصعب التمييز بينهما.

9. أعرف أن السيد عبود عربي القومية والراحل سعيد قزاز كردي القومية ولم أدعي وجود رابطة قومية أو عائلية أو شخصية من هذا النوع أو غيرها بينهما، ولهذا لم يكن موجباً طرحها. ومع ذلك أشير بما لا يقبل الالتباس إلى أن ملاحظتي حول رغبة السيدة الفاضلة ابنة الراحل سعيد قزاز التي

اتصلت، بعد نشر فصول الكتاب في جريدة الزمان، بالكاتب الفاضل لا تعني أي إساءة للكاتب، ولكن أشرت إلى حصول مثل هذا الموقف أو الصلة فقط وهو الذي أشار لي بها حين كنا معاً في لندن، وحين حثته بصراحة بملاحظاتي حول الكتاب وأشرت إلى أنها ستنتشر قريباً.

10. أشارك السيد عبود رأيه في الموقف من أحمد صالح العبدى. لا أظن بأن أي إنسان تقدمي رفع صورة العبدى في بيته، ومنهم أعضاء الحزب الشيوعي العراقي، ومن رفع صورته كان في الغالب الأعم هم البسطاء من الناس بسبب ظهور اسمه مع بقية الذي شاركوا في الثورة على النظام الملكي، كما رفع صور الكثير من هؤلاء القادة. وأنا شخصياً لم أرفع أي من صورة هؤلاء القادة في بيتي وغير مسؤول عن رفع صورته. ولكن يبدو مفيداً أن أشير إلى أن العهد الجمهوري قد ارتكب الكثير من الأخطاء والخطايا بحق الناس الأبرياء وليس فقط بحق البعض من أقطاب النظام السابق. ولكن حين نكتب عن النظام الجمهوري، سنشير إلى تلك التجاوزات، وعلينا أن لا نخفف من طبيعة الحكم الملكي وسياساته أو سياسات وإجراءات أقطابه لأن الوضع الذي تلي ذلك كان أسوأ من قبله. وينطبق هذا على النظام القضائي، وخاصة السياسي منه أيضاً.

11. صدرت أحكام مختلفة بحق الوطنيين العراقيين في عهد نوري السعيد وسعيد قزاز. وكان المسؤول عن تلك الأحكام هو النظام الملكي ومجلس النواب والنخبة التي كانت تحكم البلاد حيث صدرت في عهدها تلك الأحكام. هذا صحيح جداً. وإذا قصر المسؤولون في محاكمة الآخرين، علينا أن نتساءل لماذا؟ ولكن لا يجوز، كما أرى، أن نقول ولمِ حوكم هذا فقط. أرجو أن لا تقترن الإجابة بكونه كردي، إذ أن بقية من حوكم معه وصدر بحقهم حكم الإعدام كانوا جميعاً من العرب. السبب أن هؤلاء كانوا مسؤولين عن وزارة الداخلية وعن الأمن والتعذيب والقتل... الخ. هل ينبغي أن نحاسب من يوقع على اتفاقيات مخلة باستقلال وسيادة العراق أو مخلة بالديمقراطية وحقوق الإنسان، رغم موافقة البرلمان عليها؟ أقول نعم يجوز ذلك، لأن بإمكان الوزير، وهو رجل يمتلك عقلاً ومسؤول عن أفعاله، أن يرفض التوقيع أو ممارسة سياسة مخالفة لنصوص الدستور أو لحقوق الإنسان، وكان العراق قد وقع منذ العام 1948 على لائحة حقوق الإنسان العالمية وصادق عليها. ولكنه الوزير الراحل كان يمارس تلك السياسات والإجراءات لأنها كانت تنسجم مع سلوكه وبرنامجه الوزاري التي كان جزءاً أساسياً منها. ينبغي أن

لا تأخذنا العزة بالخطأ ونصر على أمور ونتحرى عن سبل للدفاع عن أمور غير صحيحة. 12. اختلف مع السيد عبود حول من سماهم، شاء ذلك أم أبي، بالكذابين، رغم قوله بأنه كان لا يريد تسميتهم لأنهم أموات، فالإشارة ذاتها تعبر عما كان يريد أن يقوله فعلاً بشأن من تعرضوا للاضطهاد في فترة حكومة نوري السعيد والوزير سعيد قزاز. والعودة إلى أضابير المحكمة تؤكد أن هؤلاء الناس لم يكذبوا، ولكن لا شك في أن كل فرد يرى الأمور من زاويته الخاصة ويمكن أن تحصل مبالغت معينة، وتبقى نسبة الانحراف غير كبيرة. إن من عاش تلك الفترة غير من سمع بها أو قرأ عنها. لقد كان من نصيبي أن أكون أحد الذي عايشوا هذه الفترة. كان وزير الداخلية هو الذي وافق على إرسال المئات من أساتذة الكليات والمعاهد والمثقفين العراقيين إلى السعودية، وإرسال مئات من طلبة الإعدادية إلى العسكرية بعد جروهم من مقاعد الدراسة قسراً ودون قرارات قضائية وممارسات شرعية. وكان في مقدوره أن يرفض التوقيع على تلك الإجراءات، ومن واجب القضاء محاسبته على تلك المواقف وكامن يعرف بها جيداً، بل بأوامر منه صدرت في ضوء قرارات من مجلس الوزراء وكان في مقدوره أن يستقيل ويرفض التنفيذ. هل يجوز لنا أن نعفي عصابة صدام حسين الآن ونقول أن المسؤول هو صدام حسين فقط، أم يفترض أن يحاكم كل الذين مارسوا القيادة الفعلية، ومنهم الوزراء الذين مارسوا القمع، وخاصة وزراء الداخلية والأمن والاستخبارات؟

13. نعم أستغرب، وهو حق لي، من اعتماد شخص مناهض للشيوعية والشيوعيين العراقيين ليقدم شهادة ضد الشيوعيين باعتبارهم مسؤولين عما جرى من اضطهاد لسعيد قزاز أثناء التحقيق أو الاعتقال. نعم استغرب إذ لا يجوز الاعتماد على مثل هذه الشهادة، فهي من خصم لا يريد إلا الإساءة القصدية للشيوعيين، خاصة بعد أحداث الموصل ومحاولة انقلاب العقيد الركن عبد الوهاب الشواف، إذ كان طرفاً في تلك الأحداث، وكان الأفضل رفض تلك الشهادة أو التشكيك بصحتها على الأقل وليس القبول بها كما وردت في الكتاب وكأنها الحقيقة الناصعة. أنها أقرب ما تكون إلى موضوع العلاقة بين السيد مسعود البارزاني وسعيد قزاز وقضية الخنجر والقلم. لست ضد نقد الشيوعيين أو غيرهم، بل يمكن توجيه النقد للشيوعيين في مواقع أخرى وفي أحداث أخرى، واعتماد أناس حياديين حقاً، ومناسبات ذلك ليست قليلة في تلك الفترة. إن العودة إلى كتابات السيد حسن العلوي تشير إلى مدى الكذب الذي مورس من قبل جمهرة من البعثيين والقوميين لتشويه سمع

الشبيوعيين، بما في ذلك الادعاء بحرق القرآن أو الإساءة إليه أو شتم عبد الكريم قاسم... الخ.  
ومن هنا كان الموقف الحذر مناسباً.

2006/12/10

## قراءة نقدية متأنية في كتاب (عندما كنت وزيراً)

للبروفيسور الدكتور عبد الأمير رحيمة العبود

اسم الكتاب: عندما كنت وزيراً

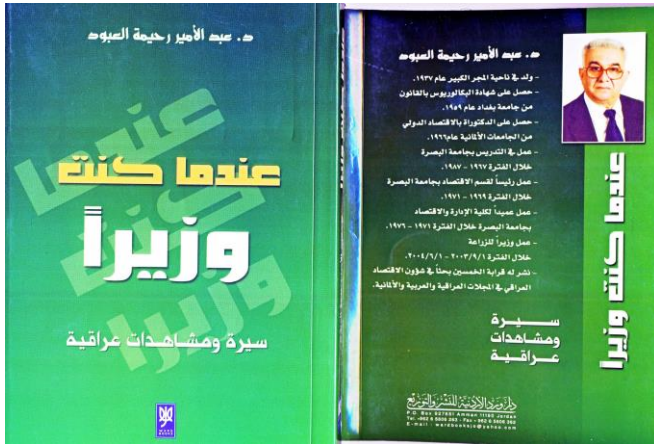
المؤلف: الدكتور عبد الأمير رحيمة العبود

دار النشر: دار ورد الأردنية للنشر والطباعة

مكان النشر: عمان-الأردن

سنة النشر: 2007 م

عدد الصفحات: 360 صفحة



صدر في العام 2007 عن "دار ورد الأردنية للنشر والطباعة" في عمان العاصمة كتاب جديد للأخ الأستاذ الدكتور عبد الأمير رحيمة العبود تحت عنوان "عندما كنت وزيراً"، علماً بأن عنوان الكتاب بمسودته الأصلية التي اطلعت عليها قبل نشره كان "من خزين الذكريات"، وهو عنوان مناسب لمضمون الكتاب وللخبرة والمعرفة التي يقدمها لنا الكاتب والتي اختزنها طوال العقود السبعة من عمره. يتضمن الكتاب مقدمة وثلاثة فصول، يحمل الفصل الأول عنوان الكتاب الأساسي "من خزين الذكريات"، ويتضمن الفصل الثاني فترة "ما بعد الحرب" أي بعد العام 2003 وسقوط نظام الطاغية صدام حسين، في حين يحمل الفصل الثالث عنوان الكتاب المطبوع "عندما كنت وزيراً للزراعة".



شعرت وأنا أقرأ الكتاب أن فيه بعض الخصائص المهمة التي تميزه، منها مثلاً:

- العفوية في سرد الأحداث وبعيداً عن الحذقة، ولكنه مباشر ودون رتوش.
- الصراحة والصدق في التعبير عن تلك الأحداث وفي الموقف منها حتى لو كانت تمسه شخصياً.
- بساطة الجمل التي يتضمنها الكتاب، ولكنها مليئة بالمعلومات والآراء والمواقف.
- الخزين الحي للذكريات ابتداءً من الطفولة ومروراً بفترة التلمذة والدراسة والحياة الأكاديمية والعيش في ظل النظام الدكتاتوري والحروب والحصار والخوف من الحاضر والمستقبل.
- الحب للوطن، للناس، وللأرض التي سار عليها وهو طفل صغير، والنهر الذي سبح فيه وهو صبي وشاب يافع، والوفاء لأصدقاء الطفولة والصبا والشباب والحياة العملية.
- ويتلمس القارئ أخيراً وليس آخراً التطور الفكري والسياسي الذي شهدته مراحل حياته والمواقف الصعبة التي واجهها والقضايا التي لا يزال يتحرى عن إجابة عنها ولم يستح أو يتردد عن ذكرها.

قرأت الكتاب وكان ما يزال مسودة وأبدت ملاحظاتي المتواضعة لصديقي الكاتب بكل صراحة وودٍ واحترام. ولهذا سأحاول أن أكون بذات الصراحة في محاولتي الكتابة عن صيغته الجديدة. لقد أعطى الكاتب المسودة لأكثر من صديق وأبدى البعض ملاحظاته واستفاد منها دون أدنى ريب. وهي ظاهرة صحية في أن يسعى الإنسان إلى معرفة رأي الأصدقاء وملاحظاتهم النقدية لما يريد أن ينشره وفيها الكثير من التواضع المحمود. والكتاب يستحق القراءة لأنه شهادة حية، ومن زاوية رؤية الكاتب، لأحداث تمتد قرابة ستة عقود، وأهميتها أيضاً تبرز في معالجته لوضع العراق في فترة حرجة واستثنائية من تاريخ العراق، في أعقاب إسقاط النظام الدكتاتوري في حرب غير متكافئة طبعاً عبر القوات الأجنبية وإعلان احتلالها العراق الذي رفضه الشعب كله وكل القوى السياسية العراقية، ومن ثم قيام سلطة الاحتلال بقيادة العراق بطريقة لا يمكن التعرف على أسوأ منها وكان بطلها السيئ المستبد بأمره بول بريمر!

حين تبدأ بمطالعة الكتاب تشعر برغبة المواصله. فوصف حياة طفل وصبي في مدينة المجر الكبير التابعة للواء العمارة (ميسان) والركوب بزورق صغير صوب المجر الصغير أو بالمشحوف صوب الأهوار وحياة المدينة الريفية الصغيرة بحميرها وبعيرها باعتبارها وسائط النقل الأساسية، هي مسألة نادرة حقاً لا تتوفر باستمرار لقارئة العربية أو قارئ العربية. ففي الكتاب وصف جميل لهذه المدينة ونشاطها التجاري وعلاقتها بالبصرة والمدن المجاورة وحركة الناس وهمومهم وتطلعاتهم، فيه وصف للمجر الكبير لسوقها وأزقتها وشوارعها غير المبلطة وتلك التي بلطت حديثاً وبيوتها ونخيلها وبساتينها والنهر الذي كان يسبح فيه مع بقية أقرانه. حين تقرأ ذلك تشعر بدفء الحياة والناس ومشاعر الود التي تميز علاقات الناس ببعضهم وتجمع شملهم. يحدثك الكتاب بعفوية وصدق عن العلاقات الطبيعية والودية بين السنة والشيعية والصابئة المندائيين، إذ لم يشعر الفرد هناك بأي تمييز بين هذه الطوائف. ثم يتحدث بحس إنساني عن انعدام التمييز بين الناس على أساس الدين أو المذهب حين أشار إلى

المواطن والطبيب المسيحي السيد عزت وزوجته المواطنة والطبيبة جوزفين، وكلاهما كان قد أقام علاقات طيبة مع الناس في المجر الكبير واحبهما الناس كثيراً لأنهما قدما خدمات طيبة للناس ، علماً بأن السيدة جوزفين كانت وفي تلك الفترة تظهر سافرة في شوارع وسوق المدينة ولم يكن لأحد أن يخطر بباله الاعتراض عليها. ولكن لم يفت الكاتب أن يدلنا على واحدة من أكثر المشكلات التي يعاني منها الشرق الإسلامي المتخلف ، وأعني به الموقف من المرأة. فهي ليست حبيسة العباءة السوداء القاتمة وحبيسة المطبخ والدار وتربية الأطفال حسب، بل هي لا تعرف الشارع والعمل أيضاً. كان هناك بعض النسوة اللواتي استطعن فرض أنفسهن على المجتمع لقوة شخصيتهن أو لحاجة ماسة فرضت نفسها على العائلة ، ومن بينهن يبرز اسم "فهيمة" التي تتعامل بالسوق فتبيع وتشتري الحبوب والمنتجات الحيوانية، و"غنيمة" التي كانت تباع الأعشاب الطبية في باحة السوق.

ومن دون أن يقيم مقارنة مع الأيام الراهنة، يشعر القارئ بأن الكاتب يقول له بألم عميق: أين نحن الآن من تلك الأيام الخوالي حيث لم يكن هناك أي تعصب أو تطرف ديني أو مذهبي أو عنف عدواني لدى الناس، في حين يعيش المجتمع العراقي حالياً في ظل التمييز الديني والطائفي والصراع المحتدم بين الأحزاب الإسلامية السياسية القائمة على أساس المذهبية السياسية المقيتة والقتل بالجملة وعدم احترام الأديان والمذاهب من قبل جماعات كثيرة بمن فيها القوى الاستبدادية والظلامية.

يقدم الكاتب لنا صورة حية وواقعية عن مراسيم الزواج والأعياد وعن طقوس عاشوراء والظلمة، والموكب التي تتوجه سنوياً إلى كربلاء للتعبير عن حزنها لمأساة الحسين وعائلته وصحبه التي وقعت قبل قرون كثيرة، وتبنى لو تنتهي الطقوس الراهن لصالح التأيين الحضاري لهؤلاء الشهداء الأبرار. ثم يتحدث عن شهر رمضان ولياليه المقمرة والمنعشة المليئة بالحركة والزاهية بليلاتها والمنعشة للأطفال، وعن الأعياد وفرحة الأطفال بها وبالعيدية والمراجيح والبدلة والحذاء الجديدين أو النظيفين والزيارات بين الأقارب والعائلات الصديقة وصنع الكليجة والأكلات الرمضانية الطيبة والاستثنائية والزلابية والبقلاوة وشعر البنات. ولا شك في أن لعبة المحببس كانت تهيمن على مقاهي المدينة ورجالها فقط.

يقدم لنا الكاتب صورة عن التعليم والمعلم وعفوية الحياة في مثل هذه المدينة الصغيرة الخالية من كل ثقافة حديثة، وطيبة هؤلاء المعلمين وتأثيرهم الطيب والوطني على التلاميذ. ولكنه يدلك بصوت هادئ منغم وواضح عن البؤس والفاقة والحرمان والبطالة التي شاهدها في هذه المدينة، وعن الفجوة بين الأغنياء والفقراء، ولم يستح أن يقول بأن عائلته كانت واحدة من تلك العائلات الفقيرة التي اغتنت فيما بعد بعمل الوالد التجاري. لم يتردد عبد الأمير عن الحديث عن حبه الأول وولعه الصباني الجميل بساجدة، هذه البنت الشابة التي تكبره كثيراً ليؤكد لنا بعفوية أن الحب هو رحيق الحياة منذ أن وجد الإنسان على هذه الأرض الطيبة وسيبقى كذلك. ولهذا كان الحب رقيقاً دائماً وطيلة حياة الكاتب، خاصة أثناء دراسته في ألمانيا ، ولم ينج منه حتى عندما كان وزيراً! وفي خضم الأحداث المتلاحقة في الكتاب ، نسي الكاتب أن يسرنا بحقيقة بسيطة هي أن هذه المنطقة، التي عاش فيها طفولته وصباه،

كانت هي الأخرى أحد مهود الحضارة السومرية والبابلية القديمة، والتي ساهمت أيضاً بتطوير وسائط النقل النهريّة، ومنها المشحوف.

ويشعر القارئ بأن الحياة كانت حينذاك تعجل في دفع الإنسان نحو الرجولة المبكرة. فما أن دخل عبد الأمير الصف السادس الابتدائي حتى أعطانا الانطباع بأنه أصبح يقرأ أشياء أخرى غير الكتاب المدرسي لجورجي زيدان ومصطفى المنفلوطي وجبران خليل جبران مثلاً ، ويعي أشياء أخرى غير ألعاب الطفولة ، وخاصة بعد أن تعرف على السياسي الشيوعي الراحل سامي أحمد العامري ، وهو يكبره سنّاً، وعرف منه ماذا يعني الإقطاع واستغلال الفلاحين الفقراء والمعدمين وحياة البؤس التي يعيشها القسم الأعظم من سكان الريف. لقد بدأت السياسية تنفذ إلى رأس الصبي في وقت مبكر وتشغل باله، ثم تنمو صورة الواقع وتتكامل حين يدخل الثانوية في مدينة العمارة والكلية ببغداد العاصمة.

انتقل عبد الأمير الشاب المراهق إلى العمارة ليتسنى له دراسة المتوسطة والثانوية فيها لخلو المجر الكبير منهما، دع عنك خلوها من مدرسة متوسطة أو ثانوية للبنات في المجر الكبير حينذاك. وفي الثانوية توسعت مداركه وبدأ يشعر بوضوح وفي مدينة العمارة البائسة، رغم أنها كانت أكثر تطوراً من المجر الكبير أو الصغير، بؤس الناس وفاقة الفلاحين على نحو خاص وظلم الإقطاع. وكانت هذه الفترة أول تماس له مع الحزب الشيوعي العراقي دون أن يصبح عضواً فيه في أي من مراحل حياته، ولكنه لم يكن بعيداً عنه. لقد كان الحزب الشيوعي يملأ الساحة السياسية في العمارة وتجد أفكاره صدى لدى الناس، وخاصة في صفوف الطلبة، هكذا كان يرى عبد الأمير الحركة في الساحة السياسية في العمارة حينذاك، وهي نموذج لبقية أنحاء العراق. وحين هبّت في بغداد انتفاضة 1952 شارك طلبة الثانوية في العمارة فيها ولم يتخلف عنها، بل كان ضمن المنتفضين على ظلم الحكم الملكي وجوره على الفلاحين وتغييبه لحرية الناس والديمقراطية. حين اصطدم الرجل السياسي عبد الأمير بظلم نظام صدام حسين وما جرى فيه من انتهاك لحقوق الإنسان وخاصة حقه في الحياة والتعبير والعمل... الخ، وجد بعض الفضائل في النظام الملكي بالمقارنة مع ما حصل فيما بعد سقوطه، إذ يقول في هذا الصدد ما يلي: " وحينما أعود بالذاكرة إلى سنوات الأربعينيات والخمسينيات، وما تميز به الوضع الاجتماعي والاقتصادي والنفسي لأهالي المجر الكبير في ذلك الحين، تتكرر أمامي حالة القناعة والرضا والابتهاج والانشرح التي كان يتصف بها أولئك الناس ، على الرغم مما كانوا يعانونه من حرمان مادي وعوز وشظف في متطلبات المعيشة....، لكن الإنسان في الوقت الحار يفتقد غالباً إلى السعادة والرضى والانشرح ، بل تجده دائماً مهموماً مكلوماً قلقاً لا يستقر على حال . وما أكثر أسباب القلق والاكتئاب والخوف التي يتعرض لها الإنسان في عصرنا الراهن.". (عندما كنت وزيراً، ص 48/49).

وبقدر ما هي صحيحة من جانب، هي خاطئة بقدر أكبر من جانب آخر، وهي إحدى الإشكاليات التي يعاني منه العديد من الكتاب، إذ أن بعضهم ينسى بأن النظام الملكي الذي داس على الدستور العراقي الذي أقر في العام 1925 وأصدر قوانين مناهضة لمضمون وزور عن عمد الانتخابات وعمق

الاستغلال في الريف وصادر الحريات، كان قد أسس قاعدة لثورة 14 تموز 1958 أولاً وأسس للعنف وعدم احترام القوانين والحياة الدستورية، فهو القاعدة السلبية التي شكلت شخصية العراقي في ظل الملكية وما بني عليها لم يكن أفضل منها، بل أسوأ بكثير. لا شك في أن الفارق بين العهد الملكي والعهد أصدامي كبير جداً كبعد الأرض عن السماء، ولكن الأساس المادي واللبننة الأولى لما حصل فيما بعد ناشئ تاريخياً في العراق وقبل الملكية ولكنه استكمل في عهد الاحتلال البريطاني والملكية والإقطاع في العراق. هذا ما يفترض أن نعيه ونحن نكتب عن تلك الفترة. فأنا أعرف معاناة جيل الأربعينات والخمسينات ومعاناة الإنسان السياسي على نحو خاص، ولكن معاناة الفلاحين والعاطلين عن العمل والهاربين من ظلم الإقطاعي إلى المدن ومطاردة الشرطة لهم لإعادتهم إلى "سادتهم الإقطاعيين" ما تزال حية في الذاكرة. وما أزال أتذكر هوسه الفلاحين في أوائل الخمسينات التي منها :

كريم ياكل عنبر وأنا بليه دنان اسمع يا مفوض

كريم يركب كاديلاك وأنا بليه نعال اسمع يا مفوض

وما تزال هوسه نوري السعيد من راديو بغداد ، وأنا مع حشد من المبعدين في المنفى في مدينة بدره على الحدود العراقية الإيرانية ، ترن في أذني وهو يصرخ بهستيريا "دار السيد مأمونة" وكأن لم يكن واثقاً من استمرار دار السيد، ثم حديثه البائس عن سبل معالجة الإقطاع عبر الزمن من خلال توريث الأراضي لأبناء الإقطاعي بعد موته، إذ أن الأخير يتزوج كثيراً وينجب كثيراً، وبالتالي يحل مشكلة الأرض عن هذا الطريق ناسياً جموع الفلاحين الفقراء المعدمين والمحرومين من الأرض الزراعية. إن القناعة التي يتحدث عنها الدكتور العبود عند الناس حينذاك لا تعبر عن وعي بالواقع الذي كانت الغالبية العظمى من الناس تعيش فيه، بل تعبر عن تخلف في وعي الواقع القائم ومشكلاته والبؤس الذي كان يلف الجميع. ولم يكن المثقفون مخطنين حين كانوا يشيرون على أن العراق مبتلى اجتماعياً بثلاث علل، وهي: الجهل والفقر والمرض.

يعود الكاتب إلى نفس الموضوع ليؤكد على الصفحة 69 من كتابه "عندما كنت وزيراً" بشأن أحداث الفترة الواقعة بين 1945-1958 وعن الحماس القومي لمقارعة النظام والاستعداد للتضحية والاندفاع نحو القضايا القومية ما يلي:

" اكتشفنا بعد فترة متأخرة ، وبعد فوات الأوان ، بأن الفترة بين عام 1945 وعام 1958 هي فترة جيدة في تاريخ العراق المعاصر ، لو أخذنا تطبيق القانون واحترام النظام من قبل الدولة والشعب ، ومدى تطبيق أسس النظام الديمقراطي والتقيدها بها من قبل السلطة والشعب في دولة نامية كالعراق في ذلك الوقت و أساساً للقياس ومقارنة ذلك مع ما كان يحصل في الدول المجاورة والدول النامية. وحتى لو أخذنا النظام السياسي والنظام الاقتصادي في تلك الفترة بنظر الاعتبار ، فقد تمخضت تلك الفترة عن انتخاب البرلمان ووجود عدد من الأحزاب السياسية ، ووجود عدد كبير من الصحف التي كانت تنتقد الدولة ، وحتى السياسة الاقتصادية فبالرغم من شحة الموارد المالية آنذاك أقيمت قاعدة

جيدة من الهياكل الارتكازية من الطرق والمواصلات والاتصالات والمداري والمستشفيات وغيرها من المشاريع التي نفذت من قبل مجلس الإعمار". (ص 70/69 من نفس الكتاب) وهو في نفس المقطع ينتقد الأحزاب السياسية التي اختارت العنف طريقاً للوصول إلى السلطة.

ومع أن كلمة لو التي وردت أكثر من مرة شكلية وسفستائية إلى حد اللعنة، لأن الأمور جرت باتجاه آخر، فسأحاول هنا أن أحاور الصديق الفاضل بعدة نقاط، وأهمها:

لم يكن خيار العنف الذي وافقت عليه الأحزاب السياسية العراقية وتبنته في النضال ضد السلطة الملكية إلا نتيجة ممارسة السلطة للعنف في أعقاب الحرب العالمية الثانية وابتداء من مظاهرة حزيران من العام 1946 وسقوط عدد من الضحايا. ثم تكرر المشهد في إعدامات أقطاب حركة مايس 1941، ومن ثم إعدام الضباط الكرد الأربعة الذين شاركوا في حركة الشعب الكردي بقيادة الملا مصطفى البارزاني في العام 1946 رغم الوعود التي أعطيت بعدم إعدام من يسلم نفسه، ثم تكرر العنف في وثبة كانون 1948 ومعركة جسر العتيق (جسر الشهداء) المعروفة لنا جميعاً، وأعتقد إن قصيدة الجواهري ما تزال ترن في أذن كل عراقية وعراقي من ذلك الجيل حين غنى "أخي جعفر" الذي استشهد في هذه الوثبة. لننتذكر معاً محنة مواطنات ومواطني يهود العراق حين تأمر عليهم النظام العراقي وبريطانيا وإسرائيل سويةً لتهجيرهم قسراً وعنوة عبر قانون إسقاط الجنسية العراقية وسرقة ونهب أموالهم المنقولة وغير المنقولة واستخدام الشرطة لإيصالهم على شركة الطيران التي كان لتوفيق السويدي حصة فيها، ثم لننتذكر العام 1949 حين جرى إعدام عدد من قياديي الحزب الشيوعي العراقي، ثم شهداء وسجناء انتفاضة 1952. ولن ننسى شهداء مجزرتي سجن الكوت وسجن بغداد في العام 1953 التي نظمت من قبل حكام بغداد، وبعدها كانت انتفاضة 1956 التي يشير إليها الدكتور العبود أيضاً، إضافة إلى زج المئات من المثقفين والطلبة في السجون وفي المعسكرات والنفي.

حينها لم تجد القوى السياسية العراقية طريقاً غير الطلب من الجيش لدعم قضية الشعب، الذي كان بدوره قد تحرك في الخمسينيات لينظم نفسه ويعمل للقيام بانتفاضة عسكرية تحققت في الرابع عشر من تموز 1958. كم كان بودي أن يعود الصديق إلى مراسيم حكومة نوري السعيد في العام 1954 بعد أن حل المجلس النيابي وأجرى انتخابات جديدة وزيف الانتخابات وأخرج قوى المعارضة من البرلمان وأصدر مجموعة من المراسيم التي صادرت الحريات الديمقراطية تماماً وأسقط الجنسية عن مجموعة من الوطنيين الديمقراطيين العراقيين.

لم يتعرض السياسيون ضد إقامة الهياكل الارتكازية في العراق، بل اعترضوا على المشاريع التي كان يراد إقامتها للأغراض العسكرية. وكانت المطالبة كبيرة بإقامة مشاريع البنية التحتية من كهرباء وماء وهواتف ونقل ومواصلات وشوارع... الخ. ويبدو أن الدكتور عبد الأمير العبود، وهو اقتصادي لامع وعميد سابق لكلية الاقتصاد في البصرة أن يقول بأن السياسة الاقتصادية للحكومة كانت جيدة، في وقت كانت تمثل مصالح كبار الملاكين والإقطاعيين، وأن تنفيذ المشاريع الاقتصادية لم يصل في حينها

لم يتجاوز الـ 25% مما كان مفروضاً إنجازه. ويمكنني أن أحيل الدكتور العبود على رسائل الدكتوراه التي وضعت في الستينيات أولاً وإلى كتابات الدكتور الراحل محمد سلمان حسن أو كتاباتي عن هذه الفترة أو رسالة الدكتوراه التي أنجزها العبود نفسه في مجال التجارة الخارجية والعلاقات الاقتصادية الدولية. التي أحتفظ بنسخة منها باللغة الألمانية.

وفي الوقت الذي يكتشف الزميل بعض الجوانب الإيجابية في فترة الملكية ويؤشر جوانب سلبية فيها أيضاً، ينسى الإرهاب والقمع وعمل التحقيقات الجنائية والجواسيس حينذاك. ولكنه يتذكرهم فجأة حين يجري الحديث عن توزيع البيانات، حيث يقول: وكان الحماس لمقارعة النظام يلهب الجميع. فترى مجموعات من الطلبة في نقاش محتدم خلال فترات استراحتهم حول مساوئ نظام الحكم وارتباطه بالاستعمار ، والبعض منهم يحمل النشرات السياسية ودسها في جيوب زملائه خلسة، تفادياً لمتابعة رجال الأمن ، ...". (نفس الكتاب ص 68). والأسئلة المنطقية التي تفرض نفسها هنا، هي : لماذا تجبر القوى السياسية على إصدار نشرات سرية، ولماذا لا يحق للناس إصدار نشراتهم بصورة علنية؟ ولماذا توزع هذه النشرات خلسة بعيداً عن أعين الرقباء؟ ولماذا كانت هناك شرطة سرية تتابع العمل السياسي من هذا النوع؟ ولماذا كانوا يحاكمون ويزج بهم في السجون حين العثور على بعض تلك النشرات؟ ألا يرى الزميل، وقد عاش هذه الفترة وساهم في العمل السياسي بشكل مستقل ولكن ليس بعيداً عن الحركة الديمقراطية العراقية والحزب الشيوعي العراقي ، وأعتقد أنه يرى ذلك تماماً، بأن كل هذا كان مخالفاً للائحة حقوق الإنسان التي ساهم العراق بوضعها في العام 1948 وصادق عليها رسمياً؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة تمنحنا رؤية واضحة عن طبيعة النظام الحاكم في العراق حينذاك. ولكنه في الوقت الذي لم يكن أسوأ مما جاء من بعده في الستينيات والسبعينيات، لكنه كان اللبنة الأولى في صرح العراق الحديث والدولة الملكية الدستورية التي بني عليها ما جاء من بعدها. لم تكن الفترة الواقعة بين 1945-1958 مرحلة واحدة متماثلة، بل كانت تتضمن أربع مراحل متباينة نسبياً

1945-1947 حيث نشأت بعض الحريات الديمقراطية وتم تأسيس بعض الأحزاب السياسية ومنع بعضها الآخر.

1948-1953 حيث سادت القوة والعنف في مواجهة الشعب وضرب الوثبة والانتفاضة وإعدامات وسجون وعدد كبير من السجناء السياسيين.

1953-1954 حيث جرت محاولات لكسر الإرهاب وإعطاء بعض الحريات الديمقراطية وبعض الصحف مثل البلاد والأهالي وجريدة الوادي والرأي العام ، إضافة إلى الصحف الحكومية الرسمية وغير الرسمية.

1954 1958 عاد الإرهاب إلى بقوة في ممارسات السلطة السياسية تمهيداً لإقرار الدخول في حلف بغداد ومواجهة الوضع المتطور في الساحة السياسية العراقية.

لم تكن الحركة الوطنية متطرفة في طروحاتها، بل كانت سياسة الدولة خارج إطار الدستور والقوانين والشرعية، ولم تكن المجالس النيابية سوى برلمانات مزيفة، هكذا تحدث عنها نوري السعيد نفسه حين تحدى من يستطيع الوصول إلى البرلمان دون دعم الحكومة مباشرة.

السياسة التي مارستها الحكومات المتعاقبة في العهد الملكي لم تكن ديمقراطية، وأجبر الشعب على النضال من أجل حقوقه. ولو لا ذلك النضال لما وافقت بريطانيا على مناصفة عوائد النفط الخام في العام 1952 واعتبار القرار رجعيًا من عام 1951، بعد أن كان يدفع للعراق 4 شلنات ذهب عن كل برميل يصدر من العراق لصالح الشركات الدولية. وكان لنضال الشعب الإيراني وتأميم الدكتور مصدق لمصالح شركات النفط حينذاك، رغم الضربة الموجهة التي تعرض لها الشعب هناك بانقلاب زاهد بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وشركات النفط الاحتكارية، دور على خشية الشركات الاحتكارية أن يحصل لها ما حصل في إيران.

لم يكن الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال والحزب الشيوعي يطالبون بإسقاط النظام الملكي، ولكن النظام الملكي كان يريد تصفية هذه الأحزاب، وبالتالي كان عليها أن تناضل ضد هذه النظام. النظام الملكي مسئول عن الإساءة للدستور العراقي وإرادة الشعب وتزوير الانتخابات وإصدار مراسيم مخلة بالدستور ومصالح الشعب. وانتفاضة الجيش العسكرية في العام 1958 سببها سياسة الحكم حينذاك، وسببها الظلم الذي تعرض له الشعب، ولهذا لم تكن الفرحة بانتصار 14 تموز، التي شارك في الفرحة عفويًا الطالب في كلية الحقوق عبد الأمير العبود، عبثية ودون مبررات. لقد كانت الغالبية العظمى من الناس تعاني من الفقر والفاقة وظلم الإقطاعيين وإرهاب التحقيقات الجنائية، بالرغم من غنى البلاد بنفطها وبشرها وإمكانياتها الزراعية، وبالرغم من وجود نظام ملكي دستوري وقوانين ومجلس نيابي. إلا أن الشاعر الكبير معروف الرصافي كان يعبر بصدق عن معاناة الناس حين قال :

علم ودستور ومجلس أمة كل عن المعنى الصحيح محرف

أو كما عبر عن ذلك بأبيات أخرى حين قال:

يا قوم لا تتكلموا أن الكلام محرم

ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم

وما تزال أبيات شعر محمد مهدي الجواهري الكبير تذكرنا بأوضاع الفترة الملكية بالنسبة للمستوى المعيشي للناس حين قال:

نامي جياح الشعب نامي حرسك آلهة الطعام

نامي وأن لم تشبعي من يقظة فمن المنام

نامي على زبد الوعود يداف في عسل الكلام

نامي تزرك عرائس الأحلام في جنح الظلام

وأذكر القارئ والقراء هنا بالشاعر جميل صدقي الزهاوي حين قال:

يا مليكاً في ملكه ظل مسرفاً فلا الأمن موفور ولا هو يعدل  
تمهل قليلاً لا تغظ أمة إذا تحرك فيها الغيظ لا تتمهل  
وأيديك إن طالت فلا تغترر بها فأن يد الأيام منهن أطول  
وفي بالي أيضاً شعر محمد صالح بحر العلوم حين قال:  
وفتاة ما لها غير غبار الريح سترا  
تخدم الحي ولا تملك من دينها شبرا  
وتود الموت كي تملك بعد الموت قبراً  
وإذا الحفار فوق القبر يدعو  
أين حقي

أدرك تماماً إن الوضع المأساوي الراهن الذي يمر به الشعب حالياً هي التي تجعل الحنين للماضي من  
جهة، والمقارنة مع الماضي من جهة أخرى، قضية إنسانية مشروعة، ولكنها من الناحية التاريخية  
غير دقيقة بأي حال، وأن الصديق الأستاذ العبود يشاطرنى الرأي، أرجو ذلك على الأقل.

2007/6/16

انتهت الحلقة الأولى وتليها الحلقة الثانية

كان طالب الحقوق عبد الأمير قد نجح من الصف الثالث حين انتفضت وحدات من القوات المسلحة  
العراقية بقيادة حركة الضباط الأحرار التي كان يقودها الزعيم الركن عبد الكريم قاسم. وقد تفجر الفرح  
من أعماقه عفويًا كباقي العراقيات والعراقيين، ونشأ التصور بأن عهداً جديداً قد بدأ يشق طريقه في حياة  
الناس، وخاصة الفقراء والكادحين والفلاحين والعمال والمثقفين .

حاولت بعض الأحزاب السياسية قيادة الجماهير من أجل تحويل تلك الانتفاضة الشعبية إلى ثورة شعبية  
تكون قادرة على إنجاز تغيير ثوري وجذري في أوضاع العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولكنها  
اصطدمت ببرامجها ورؤيتها المخ0تلفة لمصالح الشعب والوطن. كما اصطدمت برغبة العسكر في أن  
يواصلوا البقاء في الحكم رغم الاتفاق المبدئي في تسليم السلطة إلى المدنيين بعد فترة انتقال قصيرة.  
أوجد هذا الواقع فوضى وحالة عبثية بدأت بوقت مبكر بعد انتصار الثورة.

انخرط عبد الأمير، كغيره من شباب العراق والكثير من الشباب، في الحركة السياسية وساهم في العطلة  
الصفية في لجان حماية الجمهورية. وعاش في هذه الفترة بعض المفارقات التي تدل من حيث المبدأ  
على بساط الناس وتخلف الوعي الاجتماعي، كما حصل مع عمه والإنجليزي الغريب المتوقع وصوله،  
وهي حكاية طريفة. كما يمر على بعض الأحداث التي عاشها والتي برزت في أعقاب الثورة مشيراً  
بصواب إلى عدد من الملاحظات المهمة التي ميزت تلك الفترة، ومنها:

• الانطلاقة الشعبية التي لا يمكن أن تحصل إلا في أعقاب أحداث كبيرة والتي اقترنت ببروز الفوضى  
والصبيحة السياسية أو عدم نضوج التي سادت البلاد؛



• غياب الوعي السياسي والاجتماعي لدى الأحزاب السياسية، دع عنك الأوساط الشعبية الكادحة؛  
• الصراع القومي - الشيوعي حول شعار الوحدة والاتحاد وانقسام المجتمع إلى معسكرين، كانت  
الأغلبية لصالح التيار الوطني الديمقراطي والشيوعي؛  
• فردية قاسم وعجزه عن وعي المشكلات التي أخذت بالتفاقم وابتعاده عن التفكير بالحلول العملية؛  
• المؤامرات التي تفاقمت ضد الحكم والتدخل اللفظ من قبل دول الجوار العربية وغير العربية بالشأن  
العراقي؛

• تفاقم الصراعات الحزبية الضيقة وما جره كل ذلك من خراب على البلاد والذي اقترن بانقلاب 1963  
البعثي - القومي أو السوري - الناصري .

ويشير الدكتور عبود في مكان آخر إلى أنه شاهد "في احد الأيام شرطة العاصمة وهم يقومون بمظاهرة  
في شارع الرشيد وهي تهتف: إعدم إعدم جيش وشعب يحميك من كل ظالم"، (الكتاب، ص 77)، كما  
يتحدث عن "هجوم جماعات من الطلبة الشيوعيين على الطلبة القومييين والبعثيين وبنهالوا عليهم ضرباً  
وتوبيخاً". ويقول "كنت اشجب تلك الأعمال حينما ألتقي مع بعض الأصدقاء وبخاصة زميلي نصير  
الجادرجي الذي كان يشاطرنى الرأي في شجب تلك المظاهر". (الكتاب ص 77)

ثم يوجز الدكتور العبود موقف بما يلي: "الآن وبعد مرور خمسة عقود على تلك الأعمال والمظاهرات لم  
تتحقق الوحدة، ولم يتحقق الاتحاد الفيدرالي، لكن الذي حصل هو توسع عناصر الفرقة والخلاف بين  
الدول العربية ... ، وهو ما يؤكد حقيقة أن الاندفاع السياسي الذي كان يحصل من قبل الأحزاب  
والمنظمات السياسية لم ينطلق من أسس علمية وعملية وديمقراطية سليمة، بل كانت النشاطات  
السياسية، إلى حد بعيد غير منضبطة وغير مدروسة ... وكانت تنطلق في كثير من الأحيان من  
المصالح السياسية الضيقة والشخصية بعيداً عن المصالح العليا للوطن، واعتماد العنف واختراق القانون  
والنظام نهجاً لتحقيق الأهداف". ويخلص الدكتور عبود إلى استنتاج مفاده: "ولهذا لم يحالفها (المقصود  
الأحزاب والمنظمات السياسية، ك. حبيب) النجاح في تحقيق أهدافها المعلنة من قبلها سواءً الوطنية أو  
القومية منها". (الكتاب، ص 78). طبعاً للأخ العبود العذر في عدم تعرضه للقوى القومية والبعثية التي  
صالت وجالت في العراق حتى في فترة قاسم وقتلت الكثير من البشر عبر المؤامرات والاعتقالات وإشاعة  
الفوضى. وقتل الكثير من المناضلين الوطنيين، وبينهم جمهرة من الشيوعيين واليساريين الديمقراطيين،  
إذ كان السيد العبود قد غادر العراق بعد مرور سنة واحدة ويوم واحد على ثورة تموز 1958، وكان  
أثناء انقلاب شباط/فبراير 1963 طالباً في برلين بألمانيا الديمقراطية يدرس الماجستير والدكتوراه.  
لا بد هنا من الإشارة إلى أن موضوع ثورة تموز وتعقيداتها لم تأخذ الحيز المناسب لها، ولأخ عبود  
عذره في ذلك، إذ أنه يكتب من خزين ذكرياته وليس اعتماداً على قراءاته. صحيح أن ثورة تموز والقوى  
السياسية الديمقراطية لم تحقق الأهداف التي كان يفترض أن تحققها تلك الانتفاضة العسكرية على  
النظام الملكي. ولا شك في أن السبب يرتبط عضوياً بالقوى التي نفذت تلك الانتفاضة، أي العسكر وعدم

رغبتهم في تسليمها إلى الأحزاب والقوى الديمقراطية من خلال تشكيل حكومة مدنية مؤقتة تشرع دستوراً دائماً للبلاد وتجري انتخابات حرة وديمقراطية نزيهة وترسي دعائم البلاد على أسس مؤسساتية. وهذه المسألة ترتبط عضوياً بالمستوى المتخلف لتطور المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وتجليات ذلك في الوعي العام للمجتمع. ومع ذلك فقد صدر قانون برجوازي ديمقراطي للإصلاح الزراعي يساعد على نمو الرأسمالية في الريف ، وقانون الأحوال المدنية الذي يمنح المرأة بعض حقوقها المغتصبة ويمنع تعدد الزوجات إلا بحدود القانون ، وقانون تقدمي للعمل والعمال، والتوجه صوب التصنيع باتفاقيات مهمة مع الاتحاد السوفييتي وبلدان اشتراكية أخرى ، وإلغاء معاهدة 1930 العسكرية والخروج من حلف بغداد ومن منطقة الإسترليني والبدء بمفاوضات نفطية وصدور القانون رقم 80 لسنة 1961 الذي استعاد الراضي العراقية التي كانت تحت تصرف شركات النفط إلى الحكومة العراقية لتستثمرها مباشرة، والتفكير بتشكيل شركة وطنية للنفط لتمارس التنقيب عن النفط في تلك الأراضي، وإعادة النظر بالعلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية للعراق. كانت هذه الإجراءات كلها على الطريق الصحيح، إلا أن الصراع الداخلي من جهة والصراع الإقليمي والتدخل في الشأن العراقي من جهة ثانية، والتدخل الدولي وتدخل شركات النفط الاحتكارية من جهة ثالثة، وسياسات قاسم الفردية وغير الديمقراطية وحربه ضد الحزب الديمقراطي الكردستاني والشعب الكردي، ومطالبته غير المشروعة بالكويت .. الخ، كلها أجمت ضده قوى محلية وعربية وإقليمية ودولية جديدة وواسعة وبلورت عوامل ساعدت على الإطاحة به بتحالف رجعي واسع .

إذن غادر الطالب عبد الأمير العراق إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية للدراسة فيها بعد مرور عام على ثورة تموز. وعلى القارئ أو القارئة أن يتصوراً حالة طالب عراقي لم يزر بلداً عربياً أو أجنبياً قبل ذلك، وهو قادم من منطقة المجر الكبير بأزقتها التربة الضيقة وشوارعها غير المبلطة والحزينة وسوقها الشعبي الوحيد المنهك والمليء بالأوساخ وعدم وجود مجاري لتصريف المياه، وبيوتها الهرمة وسكانها الذين يعانون من الفقر والفاقة وشتى الأمراض، والنساء اللواتي لا يظهرن بالشارع أو حين يظهرن في الشارع يكن برفقة رجل ما من الأقارب والعباءة السوداء تغطي المرأة من قمة الرأس إلى أخصم القدمين، هذا الشاب يدخل من ذلك الجو الكئيب إلى مدينة ميونيخ الجميلة بشوارعها العريضة والمبلطة وبيوتها الشامخة والشرفات المليئة بالنباتات وحدائقها الغناء وطبيعتها الرائعة وحركة السيارات الكثيفة والترامواي الذي يقطع بعض شوارع المدينة ومحطة القطار الجميلة والواسعة، ثم مخازنها العصرية الكبيرة والنسوة الجميلات الباسمات المعطرات يزهون في الشوارع وكأن أحدهن تنادي خذني يا عبود. ورغم كثرة الناس والسيارات فالنظام يسود المدينة. قال لينين عن الألمان مرة أنهم إذا قاموا بثورة وأرادوا احتلال محطة قطار ميونيخ فأنهم سيقطعون بطاقة دخول إلى المحطة، هكذا هو النظام وهكذا هو القانون إلي يحترمه الألمان وكل الأوروبيين عموماً، وهي الظاهرة التي شخصها الدكتور عبود والتي تتناقض مع الوضع في بلداننا لأن حكامنا الذين وضعوا تلك القوانين لم يحترمونها .

النسوة في ألمانيا يتمتعن بالحرية والمساواة من حيث القانون ومن الناحية العملية إلى حدود غير قليلة، ولكنها ليست تماماً، إذ أن الرجل ما زال يقاوم المساواة التامة للمرأة معه. لقد أنعشت هذه الأجواء المشبعة بالحرية والود الدافئ شهية الشاب عبد الأمير ودفعت ببطلنا المغوار ليتحدث بشوق كبير وحين إلى بعضهن من عائلة شتارك أو غيرهن كثيرات !

كان عبد الأمير صادقاً حين أشار إلى انه كان مثابراً على الدراسة جاداً في تعلم اللغة، تماماً كما كان جاداً في معايشة البنات الشابات الجميلات اللواتي كن يتطلعن إلى شبابه الطافح وشعره الأسود الفاحم وعينية السوداويتين بين رجال كلهم شقر وعيون زرقاء أو خضراء أو بينهما وغير جائعين للجنس كالقادم الملهوف من المجر الكبير .

يقدم لنا العبود في كتابه مقارنة بين الدراسة الجامعية في ألمانيا الاتحادية، سواء أكانت في ميونيخ أم في برلين الغربية، وبين نظام التعليم في العراق من خلال تقديم جملة من الأسس التي يعتمد عليها التعليم المتقدم والمجرب والناجح في ألمانيا الذي كان يُخرج حملة شهادات في جميع الاختصاصات العلمية والإنسانية الصرفة والتطبيقية التي يشار إليهم بالبنان بشكل عام، إضافة إلى إشارته الجيدة إلى الأهمية التي كانت وما تزال ألمانيا تمنحها للدراسات المهنية والفنية، التي ترتبط بقضايا الإنتاج والخدمات مباشرة، واهتمامها الفائق بالبحث العلمي .

انتقل عبد الأمير إلى الدراسة في كلية الاقتصاد ببرلين الشرقية، وكانت عاصمة ألمانيا الديمقراطية بعد أن تعذر عليه مواصلة الدراسة في برلين الغربية بسبب وفاة أستاذه ورفض الأساتذة الآخرين الاعتراف بشهادة البكالوريوس العراقية. وكانت هذه واحدة من المشكلات التي كان العراقيات والعراقيون من حملة شهادة البكالوريوس وما زالوا يعانون منها في كل ألمانيا أو في كل أوروبا .

يقدم لنا عبود في القسم الخاص بوجوده في ألمانيا الديمقراطية تلخيصاً قيماً عن التعليم في ألمانيا الديمقراطية، وهي تجربة غنية ومفيدة كانت ذات فائدة خاصة للطلبة العراقيين لأنها كانت فيها رقابة جيدة على مشاركة الطلبة في حضور المحاضرات أو المشاركة في السيمينارات وتتبع الطلبة في الدراسة ومساعدتهم للنهوض بمستواهم وبلوغ مستوى الألمان. ويبقى المعيار الأساسي في مدى فائدة الطالب من أي نظام تعليمي يكمن في مدى رغبة وجدية الطالب في اكتساب المعرفة والعلم والتخرج بمستوى لائق. ومعرفتي الشخصية بالزميل عبود أثناء الدراسة، إذ كنا في كلية واحدة، كانت تؤكد سعيه الجاد والحثيث للدراسة والتزود بالمعارف والخبر والاستفادة الواعية من الحياة الحضارية الثقافية في ألمانيا .

ومن الغريب في خزين ذكريات الدكتور عبود أن القارئ لا يجد في كتابه أي ذكر للطلبات والطلاب العراقيين والعرب الذين كانوا معه في الدراسة ولم يتحدث عن خبرته معهم أو ملاحظاته عنهم أو عن نشاطه الاجتماعي معهم، خاصة وأنه كان من بين النشطين في مؤتمرات الطلبة ونقاشاتهم المختلفة، وقد جاء على ذكر أحد احتفالات الطلبة في ذكرى ثورة 14 تموز لأنه عاش مفاجأة فيها حين ألقى صديقاً ألمانيا له قصيدة بحقه في تلك الحفلة التي أقيمت في برلين. لقد كانت حياة الطلبة العراقيين في

برلين أو في ألمانيا الديمقراطية وعموم ألمانيا غنية وحركة وفعالة وشيقة ومتنوعة في آن واحد، إذ كانت هناك نشاطات سياسية واجتماعية وثقافية كثيرة ومؤتمرات تعقد ونقاشات تدور وندوات تنظم . ولا يمكن أن يكون الدكتور عبود قد نسى حضور الشاعر الكبير والراحل محمد مهدي الجواهري إلى برلين بمعية الأستاذ الراحل عبد الفتاح إبراهيم عن "رئاسة لجنة الدفاع عن الشعب العراقي" التي شكلت في أعقاب انقلاب شباط 1963 وإلقاء الكلمات والقصائد في هذه الندوة التي حضرها عراقيات وعراقيون من سائر أنحاء ألمانيا الشرقية والغربية. وكان الجواهري، كعادته بطل تلك الحفلة، اعتقد أن الأخ عبود لم ينس، وأن لم يذكر ذلك، بأن الجواهري نظم أبيات شعر جميلة في إحدى حفلاتنا بذكرى ثورة تموز في العام 1962 في مقابل تقبيله لشابة شقراء جميلة وناعمة كانت بمعية المصور العراقي المعروف جلال البيتوشي. وقد وضع عدة أبيات ولكل بيت شعر قبة منعشة وضعها جلال البيتوشي في جيبه وكتبت على علبة سجائر. لا شك أن البيتوشي ما يزال يحتفظ لوحده بتلك الأبيات الجملة التي ارتجلها الجواهري. يبدو لي أن ذكرياته مع العراقيين في برلين لم تكن حميمية بما فيه الكفاية، مما جعلته يبتعد عن ذكرها، وإذا كنا قد تعارفنا لأول مرة في ميونخ، ولكن صداقتنا بدأت فعلياً في برلين وفي كلية الاقتصاد وفي جمعية الطلبة العراقيين.

يقدم الأستاذ عبود لوحة معبرة وصادقة عن الحياة في ألمانيا الديمقراطية. يمكن أن أتعرف على صدقها بسبب معاشتي لها والتي تشكلت لدينا ذات الرؤية بشأن الواقع حينذاك. كتب شخصاً بعض الجوانب المهمة في تجربة ألمانيا الديمقراطية كما يلي:

"الدولة الاشتراكية في ألمانيا الديمقراطية كانت تمتلك كل وسائل الإنتاج، وتطبق نهج التخطيط الاقتصادي والاجتماعي الشامل، وهي تضمن للفرد كل احتياجاته الأساسية الضرورية، فالعمل مضمون والتعليم بكامل مراحل مجاني، والصحة بكافة مستوياتها مضمونة والنقل أشبه بالمجاني لرخص أسعاره، ووسائل الثقافة والمعرفة متاحة للجميع بأسعار زهيدة، ولكن الاقتصاد الوطني لم ينم نمواً سريعاً والإنتاجية بقيت منخفضة، ولم يحصل الازدهار الاقتصادي والاجتماعي، ويعود ذلك على عجز السياسة الاقتصادية عن النهوض بالاقتصاد الوطني والتقيد بالقوانين الصارمة للتخطيط الاقتصادي الشامل، وتجهل تأثير العوامل النفسية على سلوك الأفراد، وغياب عنصر المنافسة وإهمال العوامل المؤثرة في اقتصاد السوق، فالفرد ينظر إليه ضمن هذا النظام كرقم واحد ضمن حركة المجتمع التي تحكمها ضوابط التخطيط الصارمة دون النظر إلى نوازعه النفسية". (الكتاب، ص 120/121) ثم يشير إلى جانب آخر من المشكلة فيقول: "كانت نتيجة ذلك الإخفاق في تحقيق النمو السريع في الإنتاج والإنتاجية هي العجز في ملاحقة التطورات في حقول العلم والتكنولوجيا، وكان البديل الذي اعتمدت عليه الأنظمة الاشتراكية هو اختيار النهج الدكتاتوري لقيادة المجتمع بدلاً من النهج الديمقراطي الحر، ولهذا أصبح لرجال الأمن والحزب الحاكم الدور الرئيسي في توجيه النظام والحظوة بمزايه". (الكتاب، ص 121)

أشاطر الزميل عبود الرأي بما أشار إليه حول النهج السياسي للاشتراكية في كونها تدعو إلى توفير

ظروف عمل وحياة أفضل للناس من حيث المبدأ. ولكن الاشتراكية، لكي تعيش وتتجج وتتطور، تستوجب ليس فقط توفير المأكل والمشرب والملبس والسينما والمسرح للفرد، بل تستوجب تأمين تمتع الفرد بالحرية وممارسته حقوقه المدنية وحقوق الإنسان وسيادة الديمقراطية في حياة البلاد، تستوجب التعددية السياسية والحياة البرلمانية الحرة والنزيهة والمشاركة الحرة والوجدانية فيها وليس الإلزام والخشية، وتستوجب المنافسة في خدمة المجتمع ووجود معارضة تنتقد وتطرح البديل. الاشتراكية لا يمكن أن تنمو وتتطور في ظل عدم الثقة في المجتمع والخشية منه وتسليط أجهزة الأمن عليه وسجن من يعترض أو يعارض سياسة الحكومة والحزب الوحيد الحاكم، دع عنك مسرحية الجبهة الوطنية ذات الأحزاب التابعة للحزب الحاكم. لم تكن السياسة الاقتصادية والاجتماعية التي مارسها الحكومة عقلانية، كما لم تكن واقعية ولم تكن في كل الأحوال اشتراكية، فالمكاسب التي كان يراد توفيرها للناس لم تكن تستند إلى أرضية اقتصادية صلبة، بل كانت هشّة جداً تبرز بوضوح بسياسة الأسعار للسلع والخدمات وفي سياسة الأجور ومستوى إيجارات الشقق السكنية الواطئة والنقل الرخيص الأشبه بالمجاني... الخ. لم يكن هناك أي احترام للقوانين الاقتصادية الموضوعية، بل كانت الإرادة الذاتية للحزب الحاكم أو للسكرتير العام للحزب ومكتبه السياسي هو الموجه والمحدد للسياسة والاقتصاد. إن التصادم قد نشأ فعلاً بين القوانين الاقتصادية الموضوعية التي تعمل عفويًا وبمعزل عن إرادة الفرد من جهة، والسياسة الاقتصادية الذاتية المناقضة لتلك القوانين من جهة أخرى. لا يمكن للاشتراكية أن تنفصل عن الحرية والديمقراطية فهما وجهان لعملة واحدة، وغياب أحد الوجهين ينفي وجود الثاني.

الفقرة التي أوردها الدكتور عبود التي تتحدث عن العجز عن اللحاق بالتطور العلمي والتكنولوجي صحيحة، ولكن ليست لها علاقة بما ورد بعدها بأي حال. إذ لا أجد أي ارتباط بينها وبين القول بأن البديل كان سياسة الدكتاتورية. الدكتاتورية لم تكن بديلاً للتكنولوجيا والعلم، بل كانت بديلاً للحرية والديمقراطية. لقد كان هناك تطور علمي وتكنولوجي في الاتحاد السوفيتي وفي ألمانيا الديمقراطية، إلا أن هذا التقدم العلمي والتقني كان قد وجه صوب الجوانب العسكرية والإنتاج العسكري وليس نحو الإنتاج المدني. هنا تبرز واحدة من أكثر إشكاليات الحرب الباردة في حينها والتي أجهزت على النظم الاشتراكية القائمة حينذاك والتي لم تكن اشتراكية طبعاً. أما مسألة الدكتاتورية فكانت البديل الفعلي المعاكس لما كان يفترض أن يسود، أي الثقة بالشعب والحرية للأفراد والجماعات والديمقراطية والتعددية وممارسة النقد... الخ. لقد سادت في هذه البلدان ما سميت بدكتاتورية البروليتاريا، ولكنها لم تكن سوى دكتاتورية الأجهزة البيروقراطية في الحزب والدولة، في حين لم يتمتع الشعب بالديمقراطية ولا بحق النقد وممارسة بقية الحقوق بما فيها السفر إلى الدول المختلفة وحصرها بالدول الاشتراكية. لم تكن السياسة الاقتصادية والاجتماعية والبيئية عقلانية وإنسانية. لقد تخلت الكثير من الأحزاب الشيوعية عن دكتاتورية البروليتاريا، ويبدو أن البعض منها في بلداننا في منطقة الشرق الأوسط ما يزال يحن لها ويدور حولها يطرحها بصيغة غير مباشرة، وهو حينئذ بائس للستالينية لا غير.

في هذا الجزء من الكتاب يقدم الأستاذ عبود جزءاً من الأجواء النشطة في مجال الحياة الثقافية ونشاط الأدباء والفنانين الألمان ومشاركته في البعض منها. الشعب الألماني محب للثقافة ويمتلك طاقة كبيرة من حب المعرفة والإطلاع وله إنجازات كبيرة في مجال العلم والأدب والفن والموسيقى والمسرح، وعلى مدى القرون الثلاثة المنصرمة على الأقل قدم الألمان نخبة رائعة من المفكرين والفلاسفة والفنانين والأدباء الشعراء وكتاب الروايات والقصة والمسرحيات، إضافة إلى فن الرسم النحت وفن الغناء والموسيقى. ولهذا فإن ارتباط عراقي بأي امرأة ألمانية ستجره لا محالة إلى التمتع ببعض هذه المجالات وتشده إليها.

المسألة التي كان بودي أن يتطرق إليها الزميل عبود والتي لم أعر عليها تمس عملية التنوير التي شهدتها ألمانيا والتي تتجلى اليوم وبعد عدة قرون من بدئها في حياتها السياسية والاجتماعية والعلاقة بين الدين والدولة. أي الأخذ بمبدأ المجتمع المدني العلماني الذي يفصل بين الدين والدولة، إذ لكل منهما مجال اختصاصه ولا يتدخل في شئون الآخر، وهو الذي قاد إلى الكثير من الاستقرار والابتعاد عن الخلافات المذهبية في الديانة المسيحية. الاحترام الكامل لكل الأديان والمذاهب وحرية الإنسان في ممارستها، ولا دخل للدولة فيها، كما لا تتدخل الكنيسة في شئون الدولة.

يطرح الأستاذ الدكتور عبود ملاحظة يكتشفها كل عراقي أو أي مواطن من الدول النامية في المجتمعات الأوروبية المتقدمة، ومنها المجتمع الألماني، وهي التي يقول عنها عبود "ظاهرة غياب التماسك العائلي والوفاء والالتزام بين أفراد العائلة. فالفرد الألماني يعتمد على عمله وعلى الدولة في تهيئة متطلبات معيشته الضرورية، والأبوان يلتزمان بتوفير متطلبات معيشة أولادهم حسب القوانين ولحين بلوغ سن الرشد، وبعد ذلك ينبغي أن يعتمد الأولاد على أنفسهم،..." (ص 115/114).

إن وجود هذه الظاهرة يرتبط عضوياً بواقع التحولات التي بدأت في ألمانيا مع المرحلة الأولى من التصنيع في ألمانيا، وها نحن اليوم في المرحلة الثالثة، أي مع بدء التصنيع ونمو العلاقات الإنتاجية الرأسمالية والبرجوازية الألمانية والقضاء على الإقطاع والعلاقات الإقطاعية، أي مع بروز ظاهرة العمل الأجير وبيع قوة العمل وتطور العلاقات الرأسمالية التي فرضت علاقات جديدة على الفرد والعائلة والعشيرة والمجتمع. لقد كانت العلاقات العائلية والعشائرية الألمانية في فترة العلاقات الإقطاعية لا تختلف عن العلاقات العائلية والعشائرية في العراق أو في أي بلد آخر من الدول النامية. ولكن مع تطور الرأسمالية والتصنيع ومستلزمات الحياة الجديدة وقوانينها الموضوعية والقوانين الوضعية برزت ظواهر جديدة تحددت عبر طبيعة العلاقات الجديدة، إذ تتكون العائلة الواحدة من الأب والأم والأبناء، من نبات وأولاد، وبالجدتين والجدين من الطرفين. وهنا تنتهي سلسلة العائلة الواحدة، ولكن هذا لا يعني أن ليست هناك علاقات مع أبناء وبنات العمّة والعم أو الخالة والخال، ولكنها ليست كثيفة ولا حميمية ومتروقة للصدف. وحين يترك الولد أو البنت بيت الأبوين يكون قد وجد له عملاً أو دراسة، وهو لا يحتاج بالضرورة إلى مساعدة الأبوين. وكانت هذه العلاقة في ريف ألمانيا الشرقية مثلاً تختلف إلى حد ما عن

ريف ألمانيا الغربية بسبب التقدم التقني وشروط العمل التي كانت قد تطورت في ألمانيا الاتحادية أكثر منها في ألمانيا الغربية، إلا أن الاختلاف لم يكن كبيراً. وليس في العلاقات الألمانية ما يفترض أن نسميه عدم الوفاء وغياب التماسك العائلي على الطريقة الشرقية المرهقة للجميع، بل هناك وفاء والتزام بالحدود المطلوبة والمعقولة والمقبولة من الجميع. ولا شك في أن هذه الأحكام تبقى شرقية ومعبرة عن شعورنا نحوها ولا تفر وغير مفهومة أحياناً غير قليلة من جانب الألمان. وأعتقد أن حب الأشياء الخاصة حالة طبيعية لدى الأفراد في كل المجتمعات، فالألماني لا يعرف مثلاً كلمة "أكل" عندما تجد لدى شخص معين حلة جميلة أو مسبحة رشيقة غالية الثمن أو قلماً ممتازاً ( باركر 51 مثلاً) أو حتى رباط عنق بديع، فتقول له هذا جميل مثلاً، فيكون جوابه لك عراقياً وبشكل مباشر "بالعرضة" أو "أكل" أي "إقبله هدية مني". فهذا الشيء غير معهود لديهم وغريب أيضاً، وهو ليس بالضرورة يعبر عن حالة إيجابية أو كرم خاص بالضرورة .

يقدم الكاتب عبود وصفاً جميلاً وشيقاً عن الأعياد وحفلات الزفاف أو الطلاق لأي سبب كان أو العشرة المشتركة دون زواج، والمتعارف عليه في بلداننا بـ "الخليلة". كما يمنحنا صورة واقعية عن المهارات التي يتمتع بها الإنسان الألماني أياً كان مركزه العلمي وشهادته العالية أو منصبه الوزاري، فهو قادر ومستعد ويمارس تصليح سيارته أو أي عطل في حنفية بيته أو كهربائيات الدار أو الشقة. ونجد في القسم الشرقي من ألمانيا حتى اليوم أن جميع أساتذتهم في الجامعات وفي مراكز البحث العلمي يحملون مع تلك الشهادات العالية حرفة أو مهنة معينة فيقال أنه حداد أو نجار أو بناء أو ميكانيكي أو كهربائي أو باني أسقف السطوح... الخ .

في هذا القسم من الكتاب متعة خاصة حيث يصف الدكتور عبود الكثير من العادات والعلاقات الاجتماعية وموقفه منها كقادم من شرق متخلف ومهموم ومحروم، كما يوضح تطور علاقاته بعدد كبير من الناس الألمان من أوساط المثقفين، وخاصة علاقاته الحميمة والدافئة بالنسوة. لقد كان عبد الأمير رحيمة العبود فارساً مغوراً وكازانوفاً جائعاً قادماً من المجر الكبير إلى ألمانيا. وكان وما يزال يتندر على زميله كاظم حبيب الذي تزوج مبكراً ولم يذق في حياته غير طعم الباذنجان، في حين أن المفروض في الرجل كما يرى العبود، وخاصة الشرقي، أن يذوق طعم ويشم رائحة كل الأكلات الشهية !

كل عراقية وعراقي يغادران العراق لأغراض الدراسة يكونان متشوقين للعودة إلى الوطن والمشاركة في الحياة العملية وخدمة الشعب بعد أن يكونا قد تلقيا العلم والثقافة الحديثة وما يؤهلانها لأن يمارسا دوريهما في الحياة العامة. وغالباً ما كان العراقيون يصطدمون بمصاعب جمة للتعيين والعمل في المجالات التي اختصوا بها وتذهب الكثير من الأحلام الوردية أدراج الرياح. وكثيراً ما فكر البعض الكثير

بالعودة إلى الخارج والعمل والعيش هناك. ومن جراء ذلك خسر العراق الكثير من الكفاءات العلمية والأدبية بعد أن يكون قد صرف على كل منهما مبالغ طائلة. وكانت إشكالية خريجي البلدان الاشتراكية واحدة من أبرز المعضلات إذ كان تعادل الشهادات يستغرق وقتاً طويلاً وتقف بوجه العائد الكثير من العقبات.

إلا أن الدكتور عبد الأمير العبود لم يصادف هذه العقبات وكان محظوظاً إذ تعين بعد أقل من عام من عودته إلى الوطن واحتل موقعه كمدرس للاقتصاد في جامعة البصرة. كان ذلك في فترة حكم عبد الرحمن عارف حيث كان القوميون الناصريون في السلطة. ولكني واجهت الكثير من المتاعب حين فشلت في الحصول على عمل في المؤسسة العامة للصناعة برغم المقابلة التي أجريت لي مع لجنة من خبراء أجنبية أشروا بضرورة تعييني بسبب درجة الامتياز التي منحت لنتيجة تلك المقابلة إذ أن رئيس المؤسسة العامة للصناعة ورئيس المؤسسة الاقتصادية رفضا تعييني ولم يقدموا سبباً لعدم التعيين فاشتغلت بأجر يومي في الدائرة الاقتصادية التابعة لوزارة الزراعة. وكانت ثلاثة عوامل تقف حائلاً دون التعيين: البلد الاشتراكي الذي تخرجت فيه وانتمائي للحزب الشيوعي العراقي إضافة إلى عامل ثالث معروف للجميع .

الدكتور العبود يحدثنا في هذا الجزء من الكتاب عن تعيينه في الجامعة وحياة الطلبة والطالبات وعبور النهر للوصول إلى الجامعة وظروف التدريس والمحاضرات والنشاط العلمي الذي تميز به في هذه الفترة كأبي خريج نشط جديد. ألا أن وصول البعث إلى السلطة في عام 1968 قد جعل الأمور أكثر صعوبة وتعقيداً إذ ينقل لنا معلومات صادقة ومعروفة لمن كان يعمل في سلك التعليم الجامعي منها مثلاً :

- قيام بعض الأساتذة بالوشاية وكتابة التقارير عن زملائهم الأساتذة للإيقاع بهم بهدف الحلول محلهم أو لمشكلة شخصية وقعت بين الزملاء .

- تنامي عدد الجواسيس والعيون التي تراقب تحركات الطالبات والطلبة والأساتذة والإدارة.
- العمل من أجل فرض الانتماء لحزب البعث لا على الطلبة فحسب بل محاولة فرضها على الأساتذة.
- بروز العنف في سلوك أجهزة الأمن وتجلياتها في اعتقال الطلبة والطالبات وإخضاعهم للتعذيب والاعتقال لفرض تخليهم عن معتقداتهم الفكرية والسياسية.
- اغتيال أو اعتقال الأساتذة وإعدام البعض منهم أو تغييبهم .

وفي استعراضه حالة المجتمع في البصرة في فترة حكم البعث يشير إلى أن العنف والإرهاب والقمع هي



الوسائل التي مارسها البعثيون ضد فئات المجتمع على امتداد الفترة التي كانوا في السلطة ويورد ما يلي:

"وبعد عام 1977 اتخذت إجراءات البعثيين منحى جديداً متميزاً بتطبيق المزيد من إجراءات الاضطهاد والعنف والحرمان للمواطنين الذين يرفضون الانتماء إلى تنظيمات حزب البعث وقد اقترنت تلك الإجراءات بحملات الملاحقة والاعتقال والإعدام للأكراد من أتباع الحزب الديمقراطي الكردستاني ثم شملت المتهمين بالانتماء إلى الحزب الشيوعي العراقي. كانت أجهزة الأمن تسحب الطلبة والطالبات من صفوفهم ومن أروقة الجامع من دون أن يعلم أحد عن مصيرهم، وما أن حل عام 1979 حتى بدأت حملة شرسة لملاحقة واعتقال وإعدام أتباع التيار الديني الشيعي بخاصة أنصار حزب الدعوة الإسلامية وما أن أعلنت ثورة الإيرانيين على حكم الشاه بقيادة آية الله الخميني حتى بدأت التحضيرات للحرب على إيران وفي حينها اعتقل أخي الأكبر عبد الكاظم وعذب ولم أجد سبباً منطقياً لذلك الاعتقال." (الكتاب، ص 152). ونتيجة تلك التقارير وتردي الأوضاع وإعدام أخيه المعتقل وابن أخيه أزيح الدكتور العبود عن مركز عميد كلية الاقتصاد .

وفي جزء آخر من الكتاب يعرض لنا الدكتور عبود حالة العراق في فترة الحرب العراقية - الإيرانية والمآسي التي تعرض لها الشعب عبر نشاط أجهزة الأمن وخاصة مطاردة أولئك الذين كانوا يحملون الجنسية العراقية المؤشر عليها بحرف (ب) أي أنهم من التبعية الإيرانية وكيف أن أجهزة البعث قتلت دفعة واحدة أكثر من 800 إنسان لهذا السبب كان من بينهم ابن أم عباس التي هجر زوجها وبنات لها واعتقل ابنها ليموت مع آخرين ويدفن ضمن القبور الجماعية. كما عرض علينا جملة من المظالم والقمع التي كانت تتعرض لها العائلات العراقية لأسباب لا يعرفها المتهمون أنفسهم بسبب وشايات لا أول لها ولا آخر. وأورد أمثلة من حياة الناس ومنها حالة السيدة العراقية أم عباس والدكتور محمود جابر أو الدكتور علي الرمضان الذي أعدم بعد عودته من مناسك الحج، وغيرها، ثم يستعرض مصاعب الحرب وسقوط الصواريخ والقنابل على رؤوس الناس في البصرة وفيما بعد في بغداد حيث انتقل إليها هرباً مع أفراد عائلته من القصف الإيراني المتواصل لمدينة البصرة .

وفي فترة الحرب العراقية الإيرانية كان هناك نضال عنيد تخوضه قوات البيشمركة - الأنصار في كردستان العراق ضد النظام الدكتاتوري، وكانت هناك عمليات الأنفال الإجرامية التي نفذها الدكتاتور ضد الشعب الكردي وراح ضحيتها عشرات الألوف من الناس الكرد الأبرياء، وكان ضمنها تلك المجزرة البشعة التي نفذها الدكتاتور وابن عمه علي حسن المجيد (علي كيمياوي) في حلبجة، الذي حكم أخيراً

بالإعدام لخمسة أو ست مرات بسبب قيادته تلك العمليات وغيرها. إلا أن هذا الحدث لم نجد له أثراً في كتاب الدكتور العبود، فهل لم يعرف به حين حصوله في كردستان العراق في عام 1988، أم أن ذاكرته الذكية لم تستوعب مثل تلك الأحداث الأليمة لتختزنها. لا أدري إن كان العراقيون في هذه الفترة غير عارفين بما كان يمارسه الدكتاتور في كردستان. يصعب تصور ذلك، خاصة أن الجنود هم في الغالب الأعم من أبناء الوسط والجنوب، كما أن الآلاف من الكرد قد رحلوا عبر المدن المختلفة إلى "تكرة السلطان"، وكانت الإذاعات تنقل تلك الأخبار. لم استطع أن أفهم هذا الموقف من الصديق الدكتور العبود !

وما أن انتهت الحرب المجنونة حيث امتلأت البلاد بالجرحى والمعوقين والخراب وأصبحت الدور والشوارع موشحة بالسواد حزناً على الذين غابوا ولن يعودوا حتى بدأ الدكتاتور الأهوج غزوه العدوانى لدولة الكويت الشقيقة وما نجم عنها من حرب الخليج الثانية وما اقترن بها من مشكلات وكوارث جديدة للشعب، ومنها بشكل خاص الحصار الاقتصادي المدمر وموت الكثير جداً من البشر .

وهنا نستعيد مع الكاتب حالة العراق في التسعينيات حيث الجوع والحرمان والبطالة الواسعة جداً والتضخم النقدي وانهيار سعر العملة العراقية والبطاقة التموينية وقصور الدكتاتور التي لم تكف عن التكاثر في مختلف أنحاء البلاد. وتشتد في هذه الفترة ظواهر السلب والنهب والسطو على البيوت وقطاع الطرق كما يزداد نهب موارد البلاد في الوقت نفسه تزداد عطايا وأوسمة الدكتاتور واحتفالاته بأعياد ميلاده من جهة وقتله الناس وتغييبهم تماماً وتفاقم الفقر والمرض وسقوط القيم الإنسانية من جهة ثانية. ويشتد دور الأجهزة الأمنية والمخابرات في حياة الناس . كتب العبود يقول :

"لم يكن في ما حصل من جراء الحرب عبءاً لنظام صدام حسين بل ازداد بطشاً وتقشيراً بآلاف الشباب وبالرغم من الحصار الجائر الذي طبق على العراق بعد الحرب فقد كان صدام حسين ينفق الملايين من الدولارات التي كان يحصل عليها من جراء تهريب النفط على بناء القصور والإنفاق والبذخ على نزواته وعلى أتباعه من رجال الأمن والمخابرات وقادة الحزب بينما كان الشعب يتضور جوعاً."، (الكتاب، ص 167). (ملاحظة: صدرت في الفترة الواقعة بين غزو الكويت وبدء الحرب ضد النظام في عام 1991 ومن ثم في أعقاب الحرب 30 قراراً منها ما هو قبل الحرب ولكن بعد الغزو، ومنها ما بعد الحرب. إلا أن قرار الحصار الاقتصادي صدر بعد الغزو ولكن قبل الحرب وليس بعدها كما يشير الدكتور عبود. إذ كان القرار برقم 661 في 6 آب 1990، في حين أن الحرب بدأت في 19/3/2003، ك. حبيب)

يقدم الدكتور العبود لوحة حزينة وقائمة ومريرة حقاً، وهو على حق، عن هذه الفترة وما عاناه الشعب من حرمان وفاقه وبؤس. يكفي أن نذكر بأن كثرة من المثقفين الديمقراطيين العراقيين والمستقلين قد أُجبروا على بيع مكتباتهم الخاصة لتوفير عيش يومهم أو قيام العائلات الكثيرة ببيع أثاث بيوتهم أو سياراتهم أو حتى أبواب غرفهم الداخلية. لقد كانت فترة عصيبة في حياة العراق إذ فرض حصار ظالم على الشعب بنية إسقاطه ولكن الحصار كان إسقاطاً للشعب في عمق البؤس والمرض والظلمات التي يعاني منها اليوم بشكل صارخ. لا شك في أن الدكتور العبود يصف حالته الخاصة وعمله محامياً ومن ثم كصراف في سوق الصرافين بين إحالة نفسه على التقاعد وترك جامعة البصرة في عام 1987 وبين سقوط النظام في عام 2003، حيث تقدم لنا صورة نمطية لحياة مثقف في مثل هذه الأوضاع المعقدة والمتشابكة والمليئة بالمفاجآت غير السارة .

وفي القسم الخاص بالحرب الخارجية ضد النظام الدكتاتوري يشير الدكتور العبود إلى هروب جماهير واسعة من بغداد الى مدن أخرى لحماية نفسها من احتمال ضرب بغداد وما ينجم عنها من موت وخراب ودمار واسع. يصف إقامته مع عائلته في "الكرمة"، هذه المدينة التي تبعد عن بغداد قرابة 40 كيلومتراً، يوماً بيوم ويمنحك قدراً من تصور حالة الإنسان الذي تأتيه الأخبار يومياً وكل ساعة عن الموت الواسع والجثث المتراكمة في الشوارع والدمار الهائل الذي لم يلحق بالمؤسسات والمواقع العسكرية حسب، بل شمل البنية التحتية، بما فيها شبكة ومؤسسات الماء والكهرباء والهاتف والجسور... الخ، ودور السكن والمدارس والمستشفيات وغيرها.

وأخيراً يكتب الدكتور العبود ما يلي في اليوم التاسع من نيسان 2003 حين وضعت الحرب أوزارها، كما تصورتها الإدارة الأمريكية، ما يلي:

"وفجأة سقط تمثال صدام حسين أمام مشاهدي التلفزيون، وتعالق الزغاريد، وراح الكل يصفق ويرقص احتفالاً بسقوط تمثال الطاغية، لقد كانت فرحة العمر، ولم تسبقها فرحة مثلها، إنه سقوط نظام الطاغية صدام، وانهزام أعوانه وفدائييه الذين تبخروا في لمح البصر .."، (الكتاب، ص 178). ولكن ماذا بعد السقوط؟ هذا ما سنحاول تناول ما جاء في الكتاب بشأنه في الحلقة التالية.

سقط نظام بغداد الدكتاتوري في التاسع من نيسان/أبريل 2003 وهرب الطاغية وانهارت جحافلها كلها دفعة واحدة، ودخلت قوات "تحرير العراق"، على وفق تصريحات جورج دبليو بوش، لتعلن بعد فترة وجيزة جداً قرار احتلال العراق الذي صدر عن مجلس الأمن الدولي وأثار استياء كل الناس في العراق. وبهذه المناسبة تذكر الناس بيان الجنرال البريطاني ستانلي مود حين دخل بغداد فاتحاً في الحادي عشر من

آذار/مارس 1927، إذ جاء فيه : " إن الغاية التي ترمي إليها كل من فرنسا وبريطانية العظمى في خوض غمار الحرب في الشرق من جراء أطماع ألمانية، هي تحرير الشعوب التي طالما رزحت تحت أعباء استعباد الأتراك تحريراً تاماً نهائياً، وتأسيس حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من رغبة نفس السكان الوطنيين ومحض اختيارهم. وتنفيذاً لهذه الغايات قد اتفقت كل من فرنسا وبريطانية العظمى على تشجيع ومساعدة إنشاء حكومات وإدارات وطنية في كل من سورية والعراق، وقد حررها الحلفاء فعلاً، وفي الأقطار التي يسعى الحلفاء إلى تحريرها، والاعتراف بهذه الأقطار بمجرد تأسيس حكوماتها تأسيساً فعلياً"، أي جننا محررين لا فاتحين أو محتلين). الحسني، عبد الرزاق. الثورة العراقية الكبرى. طبعة منقحة. الطبع بدون تاريخ وبدون بلد الإصدار. ص 21). وإذ كانت الفرحة في المرة الأولى كبيرة، ثم كانت الأزمة والصراع والنزاع وفرض الهيمنة الاستعمارية الطويلة والانتداب والامتيازات على الحكومة الملكية التي تشكلت في العام 1921، فإنها كانت في المرة الثانية الفرحة أكبر وعارمة بسقوط الطاغية ونظام حكم الطغاة ، ولكن بدأ بعدها الصراع والنزاع وإصدار قرار بالاحتلال وكل ما نعيشه اليوم .

كان السؤال الأكبر: وماذا بعد السقوط؟ يبدو أن غالبية الناس كانت قد نست أو تناست في غمرة فرحتها العارمة حقاً ما توعدهم الدكتاتور منذ سنوات طويلة وفي منتصف السبعينات حين أكد بقوله "جننا لنبقى، ولن نترك العراق إلا على أنقاض وجثث". وقد ردد ذلك القول نعيم حداد ، حين كان عضواً في القيادة القطرية لحزب البعث وسكرتيراً عاماً للجبهة الوطنية والقومية التقدمية ، عشرات المرار لكي ترسخ المقولة بأذهان الناس والقوى والأحزاب. وحين نُسيت هذه المقولة برزت عدة ظواهر سلبية حادة نشير إلى بعضها بشكل خاص:

1. أن قوات الاحتلال التي حررت العراق من الدكتاتورية وجدت أن من حقها حكم العراق مباشرة، وهي التي رفضت قبل ذلك أيضاً تشكيل حكومة مؤقتة في المهجر لتتسلم الحكم بعد سقوط النظام مباشرة، كما لم تتشكل مثل هذه الحكومة بعد السقوط ، وبغض النظر عن الأسباب.

2. نشوب صراع حاد بين القوى السياسية العراقية التي كانت قبل ذلك في المعارضة حول السلطة وسبل توزيع المواقع.

3. استثمار القوى المعادية للفراغ السياسي الذي نشأ والصراعات الداخلية من أجل إعادة تنظيم الصفوف والتحضير لبدء المعارك، تماماً كما فكر بها ورسم لها وأوكل تنفيذها إلى عزة الدوري بشكل خاص.

وساعدت الفوضى العارمة ، التي تحدث عنها الدكتور عبد الأمير العبود في كتابه "عندما كنت وزيراً" ، في أعقاب سقوط النظام والفرهود الذي مارسه جمهرة واسعة جداً من الناس على نشوء أرضية صالحة لبدء أعداء الوضع الجديد بتنفيذ مخططاتهم الإجرامية .

ليس الفرهود ظاهرة جديدة في تاريخ العراق. فقد حصل الكثير منه على مر التاريخ العراقي، حيث كانت تستباح المدن من القوات الغازية ومن الناس أنفسهم، ثم كان الفرهود الذي حصل في النجف والحلة وكربلاء حين أجتاح الوهابيون السعوديون هذه المدن في فترة الحكم العثماني، أو الفرهود الذي تعرض له السكان اليهود في بغداد في أعقاب انهيار حركة رشيد عالي الكيلاني في العام 1941 وسقوط الكثير من الضحايا بين قتل وجريح ، أو النهب الذي حصل في أعقاب المأساة الإنسانية التي وقعت في حلبجة بعد ضربها بالكيماوي في العام 1988 من قبل النظام الدكتاتوري وبأوامر من صدام حسين وتنفي علي كيماوي. (راجع: الطالباني، جلال. حول القضية الكردية في العراق. تشرين الثاني 1988. ص 60/61).

لقد كانت قوات الاحتلال الأمريكية وغيرها تشاهد كيف تنهب وزارات ومؤسسات ومتاحف وبنوك ومدارس ودور الدولة والمسئولين السابقين دون أن تتحرك لمنع تلك الجماعات الهمجية من ممارسة ذلك النهب والسلب العام. لقد لعبت قوات الاحتلال الدور الرئيس والأساسي في انهيار كامل للدولة المؤسسية بغض النظر عن طبيعتها الفاشية، كما عمقت ذلك بحل الجيش والحفاظ على وزارة النفط سالمة من كل أذى.

كتب العبود يقول:

...، الملفت للنظر والمؤلم في الوقت ذاته أنك تلاحظ أينما ذهبت بنايات حكومية قد نهبت وبعضها قد أحرقت وعلى جدرانها السواد من أثر الاحتراق ، المتحف العراقي نهبت كنوزه ، بثاره الثمينة التي تتحدث عن تاريخ البشرية ، المكتبة العامة ومكتبة كلية الآداب اللتان تحتويان على آلاف الكتب النادرة والمخطوطات قد أحرقت بالكامل ، وغابت عنهما كنوز الثقافة والمعرفة ، الكثير من المدارس والمستشفيات والبنوك والوزارات والدوائر الحكومية قد نهبت وطال النهب حتى سجلاتها وأوراقها.، (الكتاب، ص 183).

إن ما حصل في العراق بعد سقوط النظام من فوضى ونهب وسلب ساهم في تبرير الدعوة الأمريكية - البريطانية إلى فرض قرار الاحتلال على العراق بحجة حماية السكان، وإلى استمرار الوجود الأمريكي والبريطاني في البلاد، وهذا الاستنتاج توصل إليه الكاتب، كما توصل إليه آلاف الكتاب العراقيين، فقد كتب العبود يؤكد بأن الولايات المتحدة لم تبذل تلك الأموال والنقود لكي تحرر العراق فقط، بل لأن لها

إستراتيجيتها في العراق والمنطقة. وإذ يجد صواب إسقاط النظام من قبل الولايات المتحدة، إذ كان يرى: " لو لم يتم إسقاطه بهذا الشكل لبقى النظام الصّدّامي سنوات طويلة لا يمكن معرفتها"، لكنه كان يرى أيضاً بأن فرض الاحتلال جاء مخرلاً بكلّ التّعهدات الدولية التي قطعتها الإدارة الأمريكية لقوى وأحزاب المعارضة السياسية العراقية قبل التحرك صوب إسقاط النظام. (الكتاب، ص 188/189).

قبل صدور قرار فرض الاحتلال على العراق، عين الدبلوماسي الأمريكي والمتخصص بقضايا الإرهاب، بول بريمر، سفيراً للولايات المتحدة، أو حاكماً عاماً على العراق. ومع هذا التعيين بدأت مشكلات البلاد تتخذ أبعاداً جديدة وتتفاقم تعقيداً وتشابكاً.

يشخص الدكتور عبود بصواب طبيعة بريمر ويتفق في ذلك مع تشخيص السيد رئيس الجمهورية جلال الطالباني في تصريحاته الأخيرة للحياة حين قال أن بريمر كان يتصرف كنائب الملك في الهند. وقد شخصت ذلك منذ بداية تعيين بريمر لهذا المنصب وبعد أن راقبت أسلوب وأدوات عمله وسميته بالمستبد بأمره والحاكم المطلق على العراق .

والسؤال المشروع الذي يفترض طرحه على أنفسنا هو : لماذا عين بريمر سفيراً أو حاكماً عاماً على العراق؟ من يقرأ كتاب الدكتور العبود يستطيع أن يلتقط ، ولو في مواقع مختلفة ، بعض الأهداف التي عين من أجلها بريمر. ولكن سأحاول هنا بلورة ما أراه صحيحاً من جانبي مع ما طرحه السيد العبود لتكوين صورة صادقة ومتكاملة نسبياً عن أهداف هذا الرجل الممثل للإدارة الأمريكية والمنتسب إلى جماعة المحافظين الجدد والبراليين الجدد في النخبة الحاكمة الأمريكية. يمكن بلورة ذلك بما يلي:

1. كان على الولايات المتحدة الأمريكية أن تباشر العمل لحماية أمنها الداخلي وان تحول كفاحها ضد الإرهاب ودفاعها عن الولايات المتحدة من أراضي الولايات المتحدة إلى شن هجوم ضد القوى الإرهابية في أراضي الغير، وكان العراق أولاً وأفغانستان ثانياً هما الموقعان الأساسيان لجذب الإرهابيين إلى العراق وأفغانستان بهدف "النقاطهم" والخلص منهم. لقد أصبح العراق الموقع الأول والأمامي في الصراع ضد القاعدة،

2. وكان لا بد من أجل تحقيق هذا الغرض ترك الحدود العراقية مفتوحة على الدول المجاورة لكي ينفذ منها الإرهابيون إلى العراق لتبدأ المعركة معهم على أرض العراق. وكان لا بد من تدمير مؤسسات الدولة أيضاً، كما كان لا بد من ترك فراغ سياسي يسمح بتوفير الأرضية المناسبة للصراع، وكان لا بد من إصدار قرار حل القوات المسلحة وقرار "اجتثاث البعث" لخوض المعركة دفعة واحدة ضد هؤلاء جميعاً. وكان لهذه القرارات وقع الصاعقة على الوضع في العراق .

3. وكان على بريمر أن يضع مجموعة من المستشارين العراقيين الذين وصلوا معه على رأس إدارة استشارية تابعة له وخاضعة لمجموعة من الاستشاريين الأمريكيين يحكم من خلالها العراق ولفترة غير قصيرة. وكانت الوعود قد أغدقت على العديد من الاستشاريين العراقيين بأنهم سوف يحتلوا مراكز وزارية في العراق ليساهموا في بناء بلدهم وتعزيز التحالف العراقي - الأمريكي!
4. وكان لا بد من إنجاز عدة مهمات في الجانب الاقتصادي والاجتماعي، ومنها:
- a. إنهاء دور الدولة الاقتصادي وتصفية مشاريعها ومؤسساتها الاقتصادية، أي تنفيذ عملية الخصخصة لكل مؤسسات الدولة الصناعية وغيرها، والكف عن الحديث عن قطاع دولة أو عن دوره في الحياة الاقتصادية العراقية.
- b. اعتبار القطاع الخاص هو القاعدة الأساسية الوحيدة للنشاط الاقتصادي في البلاد والأخذ بنموذج صندوق النقد الدولي والبنك الدولي في وجهة النشاط والتطور الاقتصادي العراقي التي تركز على نموذج التثبيت الاقتصادي والتكيف الهيكلي .
- c. فتح الاقتصاد العراقي بالكامل أمام السوق العالمي والتجارة الخارجية، مما يحرم الاقتصاد العراقي من القدرة على الاحتفاظ بمشاريعه الاقتصادية أو بناء مشاريع صناعية جديدة .
- d. فتح الأبواب لولوج ونشاط وتوظيف رؤوس أموال القطاع الخاص الأجنبي، وخاصة الأمريكي وتأمين رفع كل القيود عنها.
- e. التهيئة الجادة لعقد اتفاقيات وإصدار تشريعات حول اقتصاد النفط الخام العراقي وربطه بعجلة الاقتصاد الأمريكي وشركات النفط الدولية.
5. بناء السلطة السياسية وفق ما هو مرسوم في رأس الإدارة الأمريكية والبنتاگون في أن يجري إرساء السلطة على أسس طائفية ومحاصصة طائفية في ضوء تقديرات النسب السكانية .
- لقد أساء بريمر إلى الاقتصاد والمجتمع العراقي وتسبب في مختلف المجالات التي كان مسئولاً عنها، وكان مسئولاً عن كل شيء في العراق، بإلحاق جملة من الأضرار الفادحة والتي كان وسيبقى يعاني منها الشعب العراقي طيلة السنوات العشر أو أكثر القادمة. إذ لم يكن المجتمع قادراً على تحمل فكرة الاحتلال أصلاً، وكان أول من اقترح ذلك على الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش، ولم يكن الاقتصاد العراقي مؤهلاً للخصخصة على الطريقة التي سار عليها بريمر، كما لم يكن العراق قادراً على تحمل تسريح كل الجيش العراقي والشرطة وجميع الأجهزة العسكرية الأخرى وتركها تسرح في البلاد لتقوم بتنظيم الكثير من العمليات الإرهابية أو تشارك في عمليات مضادة للاحتلال. ورغم البنية السكانية التي يطرحها الدكتور

عبود كتبرير للمحاصصة الطائفية، فإن هذا التوزيع لم يكن صائباً وأدخل العراق في نفق مظلم وطويل لا يمكن لأحد أن يتنبأ عن الفترة التي سنقضها فيه قبل رؤيتنا النور ثانية... وهكذا في بقية المسائل بما في ذلك اتساع نطاق الفساد المالي والإداري ونهب أموال الدولة والمساعدات التي تقدم والتي كشفت عنها لجان الرقابة المالية التابعة للولايات المتحدة الأمريكية وليس العراقية. لقد كان بول بريمر واحداً من أسوأ الحكام الأجانب الذين عرفهم العراق الحديث ويبقى اسمه يحمل الحزن والألم ومشاعر الغضب في ذاكرة العراقيين والعراقيين، لأنه كان الأداة المنفذة والمبدعة لتطبيق سياسات خاطئة ومضرة بالعراق وشعبه. وهذا ما شخصه الدكتور العبود أيضاً.

عند قراءة ما كتبه الدكتور العبود بشأن حلقة النقاش الاقتصادية والمالية ذات الطبيعة الاستشارية غير الملزمة، التي كان عضواً فيها والتي شكلها بريمر من حوالي 40 عضواً أجنبياً وموظفاً محلياً وخبراء اقتصاد وممثلي أحزاب سياسية لفترة قصيرة، يتيقن دون أدنى ريب من تلك الأهداف الاقتصادية التي كان يسعى إليها بريمر بكل السبل، إضافة إلى أنه وفيما بعد كان يسعى إلى نزع صلاحيات مجلس الحكم الانتقالي. يقول الدكتور العبود في هذا الصدد ما يلي :

"ومما تجدر الإشارة إليه لغرض توضيح العلاقة بين مجلس الحكم الانتقالي وسلطات التحالف هو أن قرار مجلس الأمن المرقم 1483 (لسنة 2003، ك. حبيب) قد أقر خضوع العراق للاحتلال على وفق مبادئ القانون الدولي ومنح قوات الاحتلال كافة الصلاحيات التي يشير إليها هذا القانون ، وبناء على ذلك أصبحت بيد السفير بريمر صلاحيات كاملة لحكم العراق سياسياً وعسكرياً ، وأصبحت العلاقة بين مجلس الحكم الانتقالي والسفير بريمر مرهونة بما يقرره ويصادق عليه السفير بريمر" (الكتاب، ص 214) ثم يشير إلى ما يلي:

"ومن هنا وجد مجلس الحكم نفسه وهو يدير شؤون البلاد مجرداً من الصلاحيات الأمنية والمالية ، بل أن كافة قراراته لم تأخذ طريقها للتنفيذ ما لم تقترن بتوقيع السفير بريمر...". (الكتاب، ص 214) لم تظراً على بال الدكتور عبود حلاً لهذه المشكلة في حينها ولم يسجل ملاحظة كحل كان يمكن أن ينتهج من جانب أعضاء مجلس الحكم الانتقالي للخلاص من حقيقة "اسمه بالحصار ومنجله مكسور"، أي رفض هذه الوصاية وتقديم استقالة جماعية من المجلس التي كانت تضع الإدارة الأمريكية كلها أمام أحد أمرين إما التسليم بالأمر الواقع ووضع السلطة بيد حكومة عراقية وعدم تصرف المستبد بأمره بول بريمر كما يشاء وكنائب لملك الهند في العراق، أو أنهم يتركون الأمر للأمريكيين. ولم يكن أمام الإدارة الأمريكية سوى النزول عن بغلتها والرضوخ لإرادة أعضاء مجلس الحكم. إلا أن هذا لم يحصل لسبب



بسيط هو أن الوحدة بين القوى الفاعلة كانت غائبة، وكان البعض يرى أن من مصلحته البقاء للمشاركة في ترتيب الأوضاع بدلاً من فقدان مقعد له في المجلس.

ورغم ذلك يقول السيد العبود على أن مجلس الحكم الانتقالي قد أنجز الكثير من المهمات، رغم أنني أرى بأن سياسات وتصرفات بول بريمر هي السبب الأول والرئيسي وراء ما يعاني منه الشعب العراقي منذ ما يزيد عن خمس سنوات عجاف.

لم يكن عبد الأمير العبود طيلة حياته السابقة حزبياً، إذ كان باستمرار يتحرك على هامش حزبين هما الحزب الشيوعي العراقي والحزب الوطني الديمقراطي، وهي مرتبطة بالأصدقاء الذين ارتبط بهم وكانوا أعضاء في أو مؤيدين لأحد هذين الحزبين. أما بعد سقوط النظام فقد التحق عن طريق صديقه الشيوعي السابق والكادر الطلابي النشط محمد الحاج حمود بالحزب الوطني الديمقراطي، بعد أن أصبح الأخوة الثلاثة يعملون في إطار الحزب الوطني الديمقراطي، أي، السادة هديب الحاج حمود ومجيد الحاج حمود ومحمد الحاج حمود، بالحزب الوطني الديمقراطي. لا شك في أن لهذا الحزب تاريخ نضالي طويل في العهد الملكي بسبب الشخصيات الوطنية والديمقراطية البارزة التي ساهمت في تشكيل جماعة الأهالي ومن ثم الإصلاح الشعبي في منتصف الثلاثينات، ومن ثم الحزب الوطني الديمقراطي منذ العام 1946. وكانت هناك شخصيات بارزة فيه بدءاً بالأستاذ كامل الجادرجي، رئيس الحزب والأساتذة محمد حديد وحسين الجميل وهديب الحاج حمود ونجيب محي الدين وغيرهم، ممن كان لهم الدور البارز في النضال الوطني العراقي وفي سبيل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية في العراق. والتأسيس الجديد جاء على يد الأستاذ نصير الجادرجي، ابن كامل الجادرجي، والأستاذ هديب الحاج حمود والأستاذ نجيب محي الدين (نقيب المعلمين السابق) والأساتذة هاشم شبلي ومجيد ومحمد الحاج حمود وغيرهم. ولكن سرعان ما دب الخلاف الذي يحاول أن يوضحه الدكتور عبود في كتابه على عجل. لا شك في أن مثل هذا الحزب يمكن أن يلعب دوراً كبيراً في الحياة السياسية العراقية إذا ما نمت الطبقة الوسطى في العراق والتي هي في حكم الوداع، ولا شك في أن الوضع سيتغير وستنمو هذه الطبقة وتكبر ويزداد وزنها وتأثيرها في الحياة السياسية العراقية. ولا شك في أن هذا الحزب يمكن أن ينمو ويتقدم إن استطاع كسب الشببية له، إذ مع أهمية معارف وتجارب وخبرة الكادر القديم، فإن مهمة العمل الحزبي تستوجب حيوية وفكر ودور الشباب. وإذا فشل في ذلك، فلن يكون في مقدوره أن يلعب الدور المنشود، بل سيبقى يلعب دوراً هامشياً ضعيفاً في أحداث العراق. ولا يمكن لأي حزب أن يبقى ويعيش على تراثه النضالي السابق.

في العام 2003 اتصل بي الأستاذ الدكتور منذر الفضل عبر الهاتف من بغداد مستفسراً مني عن أصدقاء اعرفهم يمكن ترشيحهم لمنصب وزير الزراعة والاقتصاد. وفي حينها أخبرني بان من المجموعة المحيطة ببول بريمر طلبت منه أن يقدم بعض السماء. قدمت له أربعة أسماء في حينها كان من بينهم الدكتور مهدي الحافظ والدكتور عبد الأمير العبود والدكتور فائق عبد الرسول والدكتور جعفر عبد الغني. فشكرني وانتهى الموضوع. كان في حينها يعمل بريمر على تشكيل حكومة تعمل تحت أمرته الكاملة، في حين كانت تدار شكلياً من قبل أحد أعضاء مجلس الحكم الانتقالي حين يكون رئيساً لمجلس الحكم لشهر واحد .

بالتأكيد كان الدكتور العبود مرشح الحزب الوطني الديمقراطي والدكتور مهدي الحافظ مرشح حزب الوسط الديمقراطي الذي كان يرأسه الدكتور عدنان الباجي، وبالتالي جاء تعيينهم في ضوء ذلك، وليس بسبب اقتراحي لأسمائهم.

في أول حكومة مؤقتة بعد سقوط النظام عين الدكتور عبد الأمير رحيمة العبود، أستاذ الاقتصاد الدولي والتجارة الخارجية السابق والحقوق، وزيراً للزراعة. وها نحن ندخل الفصل الذي أصبح عنواناً لكتابه، وهو موضوع الحلقة القادمة والأخيرة.

يبحث الفصل الثالث من كتاب الدكتور العبود عن اختياره ليكون وزيراً للزراعة في فترة عمل مجلس الحكم الانتقالي والمشكلات التي واجهها والعلاقات التي سادت بين الوزارة وسلطة التحالف وموضوع هيئة اجتثاث البعث، إضافة إلى المشكلات الزراعية الكثيرة والإجراءات التي اتخذها كوزير لمعالجة تلك المشكلات وما توصل إليه بعد انتهاء فترة استيزاره .

لا بد من أن أسجل ابتداءً ثلاث ملاحظات تمس هذا الفصل من الكتاب، وهي:

1. إن البحث في هذا الموضوع يتسم بالملموسية والجانب العملي في ما يخص القضايا التي واجهت الوزارة في تلك الفترة، ولكن لم يتطرق الباحث إلى السياسات الزراعية والاقتصادية التي مارسها النظام السابق في تخريب الاقتصاد الزراعي وعدم تغيير بنيته المتخلفة من جهة، ودور الحصار الاقتصادي الدولي الذي ساهم في تعميق وتكريس مشكلات هذا القطاع وبقية القطاعات الاقتصادية.
2. اتسم البحث في هذا الفصل بشكل عام بالجفاف بعكس الفصول السابقة لأسباب كثيرة، بما فيها طبيعة الموضوع ذاته والقضايا الإدارية والأسلوب الذي استخدمه الكاتب في معالجة مشكلات الزراعة في الكتاب. وكان المفروض أن يطرح الكاتب جوهر المشكلات التي يعاني منها القطاع الزراعي كجزء أساسي من المشكلات التنموية والعملية الاقتصادية والأمن الغذائي للعراق.

3. كما أن البحث يبرز أد "أنا" بشكل كبير، وتجنب البحث في مسألة مهمة هي التغيرات التي تطرأ على الإنسان حين يصبح جزءاً من حكومة معينة وكيف ينظر إلى الأمور من زاوية وجوده في السلطة، ثم كيف ينظر إليها حين خروجه منها أو قبل أن يكون في ذلك المنصب. وهي لا تمس الدكتور العبود وحده، بل وزراء آخرين في ذات الحكومة التي كان فيها أو بشكل عام.

إلا أن الدكتور العبود قد أعار في هذا الفصل اهتمامه بمشكلات الفلاحين الفقراء وصغار المنتجين وبالإنتاج الزراعي وبمحاولة استعادة ما يمكن استعادته من وزارة فشلت وكانت تحتضر بسبب سوء العناية بها والخراب الذي لحقها من جراء الفرهود الذي عم البلاد وسبب العباد تحت سمع وبصر قوات الاحتلال، حتى أن القادمين معهم لم ينتبهوا أو لم ينبهوا إلى ذلك أو لم تستجب لهم ولغضب العالم من تلك الاستباحة .

من كان متابعاً لنشاط الدولة في القطاع الزراعي كان يعرف أيضاً أن هذا القطاع لم يلق العناية من أي حكومة في العراق على امتداد العقود المنصرمة، رغم الدعاية له باعتباره القطاع الأهم، ورغم كونه كان القطاع المنتج الرئيسي لسنوات طويلة في العهد الملكي، عدا النفط الخام، والمموم للسوق المحلية بالسلع الزراعية الاستهلاكية والممول للنشاط الاقتصادي في فترات غير قليلة قبل أن يتحول إلى مستهلك لأموال الدولة وعاجز عن المساهمة الفعالة في الإنتاج والتمويل والتمويل. وعدم العناية لم تشمل مجالات الإنتاج الزراعي وأساليب وأدوات وطرق الإنتاج والتسويق حسب، بل وشملت العلاقات الزراعية والخدمات العامة والاجتماعية في الريف ومسألة الأسعار والدعم والقروض والمستوى المنخفض جداً لدخل ومعيشة الفلاحين، وخاصة الكادحين وغير المالكين للأرض الزراعية... الخ. وكان التخلي عن قوانين الإصلاح الزراعي والتراجع عنها لصالح العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية عملياً وإهمال مصالح صغار الفلاحين المنتجين الفعليين هي السمة التي ميزت الفترة الواقعة بين نهاية الثمانينات ومجمل الفترة اللاحقة على نحو خاص. كما أهملت مشاريع الري والبنزل التي صرف عليها عشرات الملايين من الدنانير العراقية في السبعينات من القرن الماضي، إذ قاد هذا الإهمال إلى عواقب وخيمة على الزراعة والريف والفلاحين والاقتصاد الوطني.

ثم جاء الحصار الاقتصادي الدولي، الذي دام ثلاثة عشر عاماً، ليوجه الضربة القاضية بالاقتصاد الوطني عموماً ، ولكنه مارس التدمير المركز في القطاع الزراعي وبالإنسان والمجتمع في العراق بشكل خاص، من هنا نستطيع تأكيد أن ما وصل إليه القطاع الزراعي في أعقاب سقوط النظام قد ارتبط بثلاث عوامل أساسية، وهي:

1. طبيعة السياسات السيئة والغبية التي مارسها النظام الدكتاتوري في القطاع الزراعي وإعادته للعلاقات الإنتاجية البالية إلى سابق عهدها وأكثر سوءاً من السابق، ثم عواقب الحروب الخارجية والداخلية وتلوث التربة والماء وزرع الألغام في مساحات واسعة من الأراضي الزراعية على حدود البلاد وإخراجها من دائرة الإنتاج.

2. سياسة الحصار الاقتصادي الظالم التي مارسها الأمم المتحدة نتيجة إصرار الولايات المتحدة وبريطانيا على ذلك بهدف إضعاف النظام الدكتاتوري وشل حركته وقدراته، في حين أن كانت لتلك السياسة عواقب مدمرة للاقتصاد والمجتمع والفرد الفقير بشكل خاص، ولكنها لم تلحق أي أذى فعلي بالنظام ورهطه .

3. طبيعة السياسات التي مارسها أجهزة ومؤسسات الأمم المتحدة في العراق وخاصة في إطار "النفط مقابل الغذاء"، ومنها منظمة الفاو FAO والفساد الواسع النطاق الذي تميزت به تلك المؤسسات وتشابكها مع الفساد الداخلي لأجهزة النظام العراقي. لقد تعرض المجتمع العراقي إلى نهب منظم من جانب القوى العاملة في أجهزة تنفيذ "قرار النفط مقابل الغذاء" على الصعيدين الدولي والمحلي والإقليمي .

إذا ما اتفقنا على ذلك سنكون قد وضعنا أصابعنا على الجرح الحقيقي في العراق أولاً، ومن ثم سنكون قادرين على تشخيص ما لحق بهذه المجالات من عواقب إضافية في أعقاب حرب الخليج الثالثة التي انتهت بإسقاط النظام والسياسات المستهجنة والمضرة التي مارسها قوات الاحتلال، التي أطلق عليها اسم "قوات التحالف"، إلا أنها كانت قوات محتلة فعلياً وفق قرار فرض الاحتلال على العراق الصادر عن مجلس الأمن الدولي في العام 2003 وبرقم 1483 .

ولكن ما الجديد في وزارة الزراعة في أعقاب سقوط النظام؟

يبدو أن الجديد قد تبلور في نقاط عديدة يشير إليها الدكتور عبود ويتبرم منه عن حق، منها مثلاً:

• قيام المستبد بأمره پاول بريمر بتعيين خبراء أجانب كمستشارين لا معرفة لهم بالعراق والقطاع الزراعي العراقي وبالمشكلات الزراعية والإنسانية في الريف العراق على رأس الوزارة. وكان هذا حال كل الوزارات وبالتالي صح عليهم قول الشاعر الراحل معروف الرصافي:

المستشار هو الذي شرب الطلى فعلام يا هذا الوزير تعربد

• عجز الوزارة عن تأمين حاجة القطاع الزراعي بالسلع والمواد الضرورية لتمشية الإنتاج وتطويره.

• نقص شديد في الموارد المالية وعجز عن اتخاذ القرارات أو المصادقة عليها أو تنفيذها بسبب ارتباطها

المباشر بالحاكم بول بريمر .

•الرغبة العارمة لدى الخبراء الأجانب في اعتماد العراق على الاستيراد السلعي بدلاً من تنمية وتطوير الإنتاج الزراعي. وكان هذا الموقف يشمل جميع القطاعات الاقتصادية بما فيها الصناعة والإنتاج الحرفي السلعي الصغير.

•تفاقم البطالة في الريف والمدينة التي أصبحت أرضية صالحة لتحري الكثير من الفقراء المعدمين عن مساعد مالي لهم وجدوها لدى قوى الإسلام السياسي المتطرفة والمليشيات ولدى قوى الإرهاب الدموي. •ورغم أن الإدارة الأمريكية قد وظفت لديها ما يقرب من 135 خبيراً عراقياً بمختلف الاختصاصات قبل إسقاط النظام فترة غير قصيرة وصرفت عليها خلال أكثر من عام أو عام ونصف الملايين من الدولارات الأمريكية، إلا أنها لم تستفد منهم في العراق مباشرة، بل حولت بعضهم إلى مقر مترجمين وتخلت عن الوعود التي أعطتها لبعضهم في تعيينهم وزراء مما حدا ببعض الاستقالة المبكرة، واستنكر البعض الآخر أسلوب التعامل المتعالي من جانب بريمر والخبراء الأجانب الذين ما كانت لديهم أي معرفة في العراق كسيدهم بوش وبريمر !

يسلط الدكتور العبود في هذا الفصل الضوء على جملة من المشكلات ذات الأهمية السياسية والاقتصادية الفائقة التي ساعدت، كما أرى، إلى تفاقم الوضع الذي نعيشه اليوم في العراق .وقد شخص العبود بعض تلك المسائل ووزعها في مواقع مختلفة من الكتاب. ويبدو لي أن مشكلات البطالة وإعادة تعيين المفصولين السياسيين ونشاط هيئة اجتثاث البعث والتدخل للفظ للخبراء الأجانب في شؤون الوزارة والوزير والطائفة السياسية والمحاصصة التي سادت البلاد ونقص الموارد المالية والعجز عن اتخاذ القرارات، إذ أنها بيد بريمر لا غير وليس بيد مجلس الحكم الانتقالي، الذي كان، كما يبدو الآن، مجرد يافطة، هي نموذج حي لكل الوزارات الأخرى، رغم ما يدعي البعض بأنهم كانوا أحراراً في ما كانوا يتخذونه من قرارات أو يمتنعون تدخل الخبراء في شؤون وزارتهم. حتى لو حصل هذا مجازاً، فإن القرار النهائي كان بيد بريمر في المحصلة النهائية، الذي اعتبر العراق من حصة التحالف لأنها حررت العراق من الدكتاتورية وأن قرار الاحتلال هو الذي يمنحه ويمنح هذه القوات هذا الدور الحاسم في كل شيء . يقدم لنا الدكتور العبود الكثير من النماذج الحية في التدخل وفي الفساد المالي. سأحاول هنا إبراز ثلاث حالات منها لأهميتها لسبب أساسي واحد هو أنها لا تزال تحصل يومياً في العراق، إضافة إلى كون الوزارات كلها دون استثناء إما غارقة في بحر من الطائفية السياسية المقيتة أو محصورة على حزب أو قومية أو دين ولكن لهذا المذهب أو ذلك بشكل خاص .

الحالة الأولى : تمس العلاقة بين العراق والفاو FAO، أي منظمة الغذاء والزراعة الدولية التابعة للأمم المتحدة. يقول العبود بأن منظمة الفاو أدعت تزويد العراق وفق الاتفاقيات المعقودة معها بالأسمدة الكيماوية، وبأنها قد نقلت هذه الأسمدة بشاحنات عبر الحدود الأردنية العراقية. وعندما تم استفسار الوزارة من نقط الحدود العراقية الأردنية، تبين عدم دخول مثل هذا العدد الذي ذكرته المنظمة عبر الحدود العراقية بأي حال من الأحوال، أي لم يكن الادعاء صادقاً. ثم يؤكد الدكتور العبود أنه وعندما عمل مستشاراً لرئيس الوزراء لشئون الخدمات العامة اطلع "على عدد من الوثائق التي توضح إن متعهدي منظمة الـ (FAO) وغيرهم من المتعهدين الدوليين كانوا قد استلموا مبالغ بملايين الدولارات من البنك المركزي العراقي ، عن قيمة سلع زعموا أنها أرسلت من قبلهم إلى العراق ، ولكن مؤسسات وزارة الزراعة لم تستلمها ، أو أنها لم تستلم إلا جزءاً منها ، وقد ذكر لي المدير العام للتجهيزات الزراعية في وزارة الزراعة بأن ممثلي قوات التحالف كانوا يصدقون وثائق استلام هذه السلع على الحدود الأردنية دون التأكد من استلامها من قبل دائرة وزارة الزراعة وهو ما يوحي بمشاركة قوات التحالف بعمليات الفساد هذه ويقتضي المطالبة بتلك المبالغ قضائياً). "الكتاب، ص 279. (ولكن الكاتب لم يشر إلى أنه أثار هذا الموضوع مع ممثلي المنظمة ببغداد وأصر على معالجة الموضوع، ولكن المنظمة كانت تماطل وترفض عملياً البحث في الموضوع. وحين فاتح أحد الوزراء المختصين بالعلاقة بالمنظمات الدولية حينذاك، نصحه هذا الوزير بعدم إثارة الموضوع، لأنها تخلق مشاكل إضافية وتعرق عمل العراق مع المنظمات الدولية!! وقد أخبرني الدكتور العبود في حينها بالحادث وباسم الوزير المعني، وبما أنه لم يذكره بالاسم، فليس من حقي ذكره، إذ يبقى الحديث بيننا في إطار ما يطلق عليه بالأمانات، وكان المفروض أن يذكره العبود نفسه. وعليه أن يتحدث عن هذا بصراحة في الطبعة الثانية للكتاب. وفي السنة الماضية وقبلها كشف النقاب عما جرى في "إطار النفط مقابل الغذاء" من فساد ونهب لأموال العراق من قبل مجموعة منظمة جيداً شارك فيها ابن الأمين العام للأمم المتحدة. ويبدو أن هناك رغبة في لفلفة المسألة على حساب العراق باعتبار أن ما حصل بعد ذلك أسوأ وأمر من ذلك. ويبدو أن العراق سيبقى لفترة طويلة مبتلى بالفاستين والمفسدين!

الحالية الثانية : تمس هيئة اجتثاث البعث التي كانت تريد فصل عدد كبير من موظفي وزارة الزراعة باعتبارهم من البعثيين، رغم أن القانون كان يمس مستويات معينة منهم. ولكن قرار الهيئة يمس مستويات بعيدة كل البعد عن أن تكون بعثية متقدمة أو مسئولة، بل أن أغلبهم من النوع المجبر على أن يكون بعثياً. ورغم أن الوزير قد أصر على رفض الخضوع لذلك القرار، ولكن من جاء من بعده نفذ

بالقطع. وكانت حجة العبود أن هؤلاء من المختصين والخبراء بالشئون الزراعية الذين تحتاجهم الوزارة وإلا ستبقى الوزارة دون عمل. ولكن روح الانتقام كانت هي العامل الحاسم والمميز لنشاط هيئة اجتثاث البعث. كتب الدكتور العبود في هذا الصدد ما يلي :

"استلمت في مطلع عام 2004 كتاباً من تلك الهيئة (أي هيئة اجتثاث البعث، ك. حبيب)، يطلب مني ، بصفتي وزيراً للزراعة ، فصل 21 موظفاً من وزارة الزراعة ، أغلبهم ممن يحملون درجة الدكتوراه ، وبعضهم يتبوأ مهمة المدير العام في وزارة الزراعة ، ومن بينهم المدير العام للثروة الحيوانية ، والمدير العام للتخطيط والمتابعة، والمدير العام للوقاية ، والمدير العام للمحاصيل الصناعية ، والمدير العام لتصديق البذور ، والجزء الأكبر من هؤلاء كانوا من كبار الموظفين في وزارة الزراعة الذين يتمتعون بالخبرة العالية ويمارسون قيادة أهم المراكز الإدارية. ذهلت حقاً لحظة الإطلاع على مضمون ذلك الكتاب ، لأن الأشخاص الذين وردت أسمائهم في ذلك الكتاب هم من قادة الدوائر في وزارة الزراعة ، وأفضل ذوي الخبرة والكفاءة فيها ، ورحت أسأل نفسي كيف أستطيع إدارة شؤون هذه الدوائر عتد تنفيذ المطلوب في هذا الكتاب وهو فصل هؤلاء الموظفين الكبار جميعاً وعلى الفور؟ (الكتاب، ص 313/312). وقد كان قبل ذلك قد أشار إلى أن سلطات التحالف كانت قد قامت "بفصل كافة الموظفين ممن هم بدرجة عضو فرقة في حزب البعث المنحل فما فوق من الوظيفة في الدولة ، كما صدر قرار آخر بعدم جواز تبوء المناصب الحكومية الكبرى كمنصب المدير العام فما فوق ممن كانوا بدرجة عضو عامل في حزب البعث المنحل ، وقد نفذ هذا القرار في حينه" (الكتاب، ص 312). هذه صورة واحدة لوزارة واحدة، في حين أنها كانت النموذج الفعلي لبقية الوزارات في طريقة تعامل هيئة اجتثاث البعث ودورها في تعبئة كل البعثيين أو أغلبهم ضد الوضع الجديد.

الحالة الثالثة: تمس تدخل الخبراء والمستشارين الأجانب في الشأن الداخلي لصلاحيات الوزير المختص. وهو تدخل باتجاهات مختلفة منها رفض القرارات التي يتخذها الوزير، ومنها رفض الخبير تنفيذ قرار الوزير بشأن زراعة النخيل، أو رفض تسليم السيارات لوزارة الداخلية، أو طلب تعيين أو نقل كبار الموظفين من وإلى الوزارة، ثم موقف بريمر من المسائل التي تمس الوزارة ونشاطها.

اشعر بأن الدكتور العبود قد قدم لنا وثيقة مهمة تؤشر فترة من فترات حياة العراق ونشاطه السياسي والإداري ودور قوات الاحتلال في العراق وتأثيرهم على وجهة التطور وعواقبه التي نعيشها اليوم. وهي مشاركة مهمة تزيدها توضيحاً التقارير الكثيرة والمقالات الكثيرة التي نشرت في الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية ذات الأهمية الفائقة التي تؤرخ هذه الفترة من تاريخ العراق.

إن أهمية هذا الكتاب تكمن أيضاً في كون ما تحدث عنه في كتابه لا يزال يحصل يومياً في العراق ومن قبل سلطات الاحتلال والخبراء الأجانب ومن جمهرة غير قليلة من السياسيين العراقيين، كما أن الطائفية السياسية لا تزال هي التي لها قدح المعلى في الواقع العراقي، وأن العراق أصبح يواجه واقعاً جديداً، إرهاباً عارماً وموتاً مستمراً لمزيد من البشر، وأن هذه الحالة لا يمكن حلها إلا بوحدة القوى الوطنية والديمقراطية العراقية لتجاوز المحنة والتغلب على الكارثة المحدقة بعراقنا الحبيب .

أتمنى على الكاتب أن يستفيد من جملة الملاحظات التي أبدأها له بعض النقاد لكتابه مع تقديري للجهد الطيب والمحمود المبذول فيه.

برلين في العام 2007



## قراءة في مقالة - صورة الإسلام في ألمانيا -

للبروفيسور الدكتور هاينر بيليفيد



الكراس: صورة الإسلام في ألمانيا - تعامل الرأي العام مع الخوف من الإسلام  
الكاتب : الأستاذ الدكتور هاينر بيليفيد، مدير المعهد الألماني لحقوق الإنسان/ برلين  
الترجمة عن الألمانية : السيدة فادية فضة والسيد الدكتور حامد فضل الله  
سنة الصدور بالعربية : تموز / يوليو 2008  
الإصدار: المعهد الألماني لحقوق الإنسان / برلين - ألمانيا

### المدخل:

يتكون البحث من أربعة أجزاء، كما ورد في مقدمة الكراس (المقالة). يبحث الجزء الأول منه في أسباب التشكك بالإسلام والمسلمين في ألمانيا، ثم يبحث الجزء الثاني في المعايير اللازمة لثقافة حوار علني وفق أسس التنوير، وي طرح الجزء الثالث مفهوم رهاب الإسلام (الرهاب مصطلح يمكن أن يجمع بين الخشية المرضية والعداء للأجانب، وهنا المقصود العداء للإسلام، إسلام فوبيا)، أما الجزء الرابع فيقدم لنا الأستاذ الباحث استنتاجات الدراسة التي توصل إليها حول العلاقة بين المسلمين والألمان في ألمانيا. وهو يرى بأنها تعتبر نموذجاً مماثلاً للعلاقة بين المسلمين وبقية الأوروبيين على صعيد دول الاتحاد الأوروبي. ثم يشخص الزميل بيليفيد الكيفية التي يفترض أن يكون عليها الحوار والعمل المشترك للوصول إلى المبتغى، إلى علاقة

أفضل بين المسلمين والألمان.

لا شك في أن الباحث يقدم لنا دراسة ممتعة ومهمة حقاً حول الأجزاء الأربعة التي بحث فيها، ويساهم بذلك في إرساء بعض المؤشرات المهمة حول الإشكاليات التي تعاني منها العلاقة بين المسلمين من مختلف القوميات وبين الألمان في المجتمع الألماني المتعدد الثقافات، رغم محاولات البعض نفي حقيقة أن المجتمع الألماني أصبح منذ سنوات كثيرة متعدد الثقافات.

أولاً : حول الجزء الأول

في هذا الجزء المكثف من البحث يصف لنا الباحث الأسباب التي يعتقد أنها كانت أو لا تزال تقف وراء نشوء الخوف من الإسلام في ألمانيا، وبالتالي من المسلمين، كنموذج لما عليه الحال في كل أوروبا، ويورد استطلاعاً للرأي يؤكد حقيقة وجود ونمو هذه المخاوف ويعزيها إلي عدة أسباب :

• الظواهر السلبية لسلوك المسلمين في ألمانيا والتي يتجلى بعضها في الموقف من المرأة أو القتل لغسل العار (تطهير الشرف)، ثم الخشية التي تبرز لدى الألمان من تلك الظواهر السلبية على التطور الثقافي الذي أنجز خلال الكثير من العقود المنصرمة في ألمانيا والتأثير السلبي المحتمل على الثقافة الألمانية القائدة *Leitkultur* في ألمانيا. ومن المفيد أن أشير هنا إلى النقاش المديد الذي خاضه السياسيون والمثقفون الألمان على صفحات الجرائد والمجلات والتلفزة حول الدور القيادي والطليعي للثقافة الأولى، الثقافة الألمانية، في ألمانيا. وقد تبلورت وجهة النظر هذه لدى المحافظين في الحزب الديمقراطي المسيحي والحزب الاجتماعي المسيحي (فريدريك ميرتس ورونالد كوخ)، في حين رفض اليساريون والاشتراكيون والخضر مثل هذا الطرح وأكدوا ضرورة عدم الخشية من الثقافات الأخرى على الثقافة الألمانية، بل لا بد من حصول تفاعل وتلاقح بين الثقافات المتعايشة في ألمانيا.

• الأحكام المسبقة التي يحملها الألمان المسيحيون نحو الإسلام كدين ونحو المسلمين لا تزال تميز، من حيث المبدأ، العلاقة الملتبسة بين الغرب والشرق.

ولا بد هنا من الإشارة الواضحة إلى أن الكنيسة المسيحية عموماً لم تعترف حتى الآن بالدين الإسلامي كدين سماوي لاحق للدينين اليهودي والمسيحي، في حين يعترف الإسلام بالدين اليهودي والدين المسيحي باعتبارهما دينين سماويين سبقا الإسلام. ولكن أراد النبي محمد بن عبد الله أن يكون الإسلام آخر دين كما جاء في القرآن وأن تنتهي به الأديان السماوية، وأن يوقف أي دعوات لاحقة بأديان سماوية أخرى.

• السعي المتواصل إلى إقامة الكثير من الجوامع في المدن الألمانية والتي تثير مخاوف الألمان لا بسبب تدين هؤلاء المسلمين وصلاتهم فيها، بل خشية من أصوات السماعيات التي تنصب على مآذن الجوامع،

وخشية من أن تتحول إلى مراكز للدعاية السياسية والعنف وجمع التبرعات وكسب الانتحاريين .. الخ وتنظيم عمليات قتل وتدمير من قبل القوى المتطرفة في ألمانيا.

وهي لا شك مشكلة فعلية يعاني منها الإنسان الألماني ولا يجوز تجاوزها أو إنكار وجودها، خاصة وأن المعلومات تشير إلى عودة الكثير من المتدربين في أفغانستان إلى ألمانيا والذين يرتبطون بتنظيم القاعدة الإرهابي لتنظيم عمليات إرهابية في ألمانيا وأوروبا. وقد تم أخيراً اعتقال البعض منهم في مطار فرانكفورت بألمانيا.

• أحداث 11 سبتمبر 2001 ونشاط قوى الإسلام السياسي المتطرفة وخشية الألمان في أن تمارس تلك الأفعال الإجرامية في ألمانيا أيضاً أو في عموم أوروبا.

مع صواب ما أورده الأستاذ بيليفيلد في هذا الصدد، أجدّه غير كافٍ لتحديد أسباب نمو الكراهية والعداء للإجانب المسلمين في ألمانيا، إذ أن تشخيصها الدقيق هو الذي يساعد على معالجتها والخلص منها. أورد هنا بعض الإضافات لاستكمال الصورة، كما أرى، وهي على النحو التالي:

1. لا تزال الكثير من الجهات الألمانية والأوروبية، بل الغربية عموماً، تذكر شعوبها عن طريق الأفلام وشاشات التلفزة ومحطات الراديو والصحف والكتب بالحروب الصليبية بين المسيحيين والمسلمين حول القدس، والتي يمكن أن يجدها الباحث في كتاب "صراع الحضارات" للباحث الأمريكي الدكتور صموئيل هنتنكتون. وهي تذكر باستمرار بالصراع بين الغرب المسيحي والشرق المسلم. ومثل هذه الممارسات، النظرية والعملية، تترك أثرها المباشر وغير المباشر على ذهن وسلوك المواطن الألماني وعلى المسلم في آن واحد. وعلينا أن نتذكر هنا رد الفعل الأولي بعد أحداث 11/سبتمبر 2001 من جانب الرئيس الجديد للولايات المتحدة جورج دبليو بوش حينذاك، حين أشار إلى، ونذكر، بالحروب الصليبية، رغم اعتذاره عن ذلك فيما بعد!

2. استمرار فعل الأحكام المسبقة والعامّة بشأن الإسلام والمسلمين والقادمة من أجيال وأجيال سابقة والتي تعتبر ضمن ما يطلق عليه بـ "الستيروتوب" أو النمطية في التفكير.

3. التصرفات اليومية التي تمارسها غالبية المسلمين والتي تعبر عن مستوى حضاري وثقافي متخلف عموماً، وليس كل المسلمين المقيمين في ألمانيا أو أوروبا بطبيعة الحال، وتلك التي يمارسها الألمان والتي تعبر عن مستوى حضاري وثقافي متقدم لا بد من تأشيرته وعدم التقليل من شأنه، إذ أن تلك الظواهر ترتبط بالحياة والاحتكاك اليوميين. ويجد هذا تعبيره في الجوار (السكن) وفي الشارع وفي العمل وفي المدرسة والجامعة ... الخ.

4. الاحكام المسبقة التي يحملها المسلمون إزاء الألمان والتي لا تختلف عن كونها استريوتوب أيضاً، والتي تتجلى في سرعة اتهام الألمان بالنازية والعنصرية والفاشية لأقل خلاف يحصل بين مسلم وألماني في الشارع أو في العمل أو في الجامعة، وهو ما يغيظ الألمان بحق ويتنافى مع التصرف الديمقراطي العام للغالبية العظمى من الألمان.

5. الحملات الإعلامية التي تسبق الحملات الانتخابية لمجالس وحكومات المحافظات أو على مستوى الاتحاد والتي غالباً ما تكون موجهة من بعض القوى السياسية، وخاصة الاتحاد الديمقراطي المسيحي والاتحاد الاجتماعي المسيحي، إضافة لما تثيره بعض قوى أقصى اليمين والأكثر محافظة والنازيين، بشأن الآثار السلبية لوجود كثرة من الأجانب في ألمانيا، سواء أكان ذلك بالنسبة إلى فرص العمل أو الدراسة أو رياض الأطفال أو دور السكن أو الخشية على المستوى الدراسي لطلبة الابتدائية بسبب كثرة الأجانب أو الخشية على "تقاوة" الثقافة الألمانية "الأصيلة" من تأثير وتهجين الثقافات الغربية أو الأخرى. وهنا يتجلى بوضوح "صراع" الأنا" ضد "الآخر" المحملة بالكثير من الأحكام المسبقة وصورة "الأنا" المعاكسة والمناقضة لصورة "الآخر".

وعلينا أن ننتبه هنا إلى حقيقة أخرى هي أن هذه الخشية من المسلمين لم تقلل من الموقف العام في ألمانيا وفي أوروبا إزاء السامية، وبالتالي لم يحل رهاب أو العداء للإسلام محل رهاب أو العداء للسامية بأي حال، فكلاهما موجود وأن اختلفا من حيث النسبة المئوية والآنية أحياناً أو الخشية من التعبير عن العداء للسامية علناً، ولكن كثيراً ما نلاحظ محاولات جادة لمناهضة السامية من قوى نازية وفاشية ويمينية متطرفة بعينها في ألمانيا، أي مناهضة وجود اليهود في ألمانيا، ومنها تدنيس مقابر اليهود أو رسم الصليب المعقوف النازي عليها.. الخ من الأعمال الإجرامية التي تعبر عن الطبيعة الدنسة لهؤلاء الأوباش عبر التحرش بقبور الموتى.

كما أن علينا أن نتذكر باستمرار إلى أن المجتمع الألماني، كأى مجتمع آخر، يعيش صراعاً داخلياً بين مكوناته الألمانية ذاتها حول الكثير من الأمور بما فيها مكانة وثقافة ألمانيا في العالم، وكذلك الموقف من الأجانب عموماً ومن المسلمين بشكل خاص.

وأذ يذكرنا الباحث بأهمية الأخذ بالاعتبار التباين بين المسلمين والمذاهب المتعددة التي يتبعونها، إلا أنه لم يشر إلى أهمية معرفة البنية الاجتماعية (الطبقية) لغالبية المسلمين التي تعيش في ألمانيا. ومن هنا يمكن الإشارة إلى أن التركيبة الاجتماعية للقادمين المسلمين إلى ألمانيا أو إلى أوروبا بشكل عام منذ أن بدأت هجرة العمل في أوائل الستينيات من القرن العشرين تتوزع على النحو التالي:

1. إن المجموعة الكبرى التي قدمت إلى ألمانيا من الدول الإسلامية، وخاصة من تركيا والدول المغاربية، كانت تنحدر من أصول ريفية وفلاحية وبرجوازية صغيرة فقيرة ومعدمة وعاطلة عن العمل وغارقة في الغيبات وذات مستوى تعليمي واطىء أو حتى أمية القراءة والكتابة أو ثقافة دينية متدنية وغير متنورة، إضافة إلى المستوى الحضاري العام المتدني لتلك البلدان. وكان الهدف من وراء القدوم هو الحصول على فرصة للعمل وجمع المال والعودة لإقامة المشاريع الخاصة بهم في بلدانهم. واعتبر الألمان أن هؤلاء القادمين للعمل ضيوف مؤقتون لا غير. لم يتعلم هؤلاء اللغة الألمانية، وخاصة عائلاتهم، ولم يلعبوا دوراً مهماً في اندماجهم في المجتمع وشكلوا جيوتات في مناطق سكنهم، وأن اختلفت مواقع العمل (الترك نموذجاً).
2. نسبة مهمة من المهاجرين كانت من الجماعات السياسية المثقفة التي عانت من الاضطهاد السياسي في بلدانها وجاءت لتتمتع بالحرية، وهي أقل الجماعات التي كانت أو لا تزال تعاني من مشكلات في هذا البلد.
3. الطلبة المسلمون الذين لا يشكلون ثقلًا مهمًا في ألمانيا بسبب قلة الدارسين والمتدربين من الدول الإسلامية في ألمانيا بشكل عام وبسبب سياسة الهجرة الألمانية المتشددة. وعلينا أن ننتبه إلى أن السياسة الألمانية لم تنجح حتى الآن في تأمين أسس سليمة وعقلانية لإندماج المسلمين في المجتمع الألماني، وهي بحاجة إلى تعديلات كثيرة وصياغة جديدة واستمرارية من جانب، كما أن القادمين إلى ألمانيا يحتاجون إلى استيعاب طبيعة هذا المجتمع وثقافته وحضارته وما يفترض أن ينتبه له القادمون الجدد وكيف يتم التعامل معهم، وأن يكون على استعداد فعلي للاندماج في المجتمع، وهو لا يعني الانصهار. إن كانوا يريدون العيش بسلام ووثام وعمل في ألمانيا.
- لا شك بأن الأسئلة التي وضعت لاختبار مدى أهلية الأجانب المسلمين للحصول على الجنسية الألمانية ليست سوى نظرة متعالية عن واقع هؤلاء الناس وإمكانيات الكثير منهم وراغبة في رفضهم ابتداءً، وضرورة إدخال من يأتي إلى ألمانيا في دورات دراسية لا تتعلم اللغة الألمانية فحسب، بل وللتعرف على التاريخ والحضارة والتقاليد والأعراف والقيم الألمانية أيضاً.

## ثانياً : الجزء الثاني

يتطرق الجزء الثاني من هذا البحث إلى أهمية وضرورة تبني وممارسة "ثقافة حوار تنويري بين المسلمين في ألمانيا والألمان. إذ إن أي حوار جاد ومسؤول بين أتباع الديانات والمذاهب المختلفة يتطلب توفير الحد الأدنى من المستلزمات الضرورية لكي ينتهي الحوار إلى نجاح فعلي وليس إلى تكرار دون أن يخرج بنتائج إيجابية، بل في الغالب الأعم يقود إلى مزيد من عدم التفاهم والفرقة والكراهية. ومن بين أهم تلك المستلزمات

نشير إلى ما يلي:

1. الاستعداد الذاتي لقبول بثقافة الحوار التنويري الهادئ والهادف بدلاً من ثقافة النزاع والقتال، أي التخلص من الثقافة التي سادت ولا تزال سائدة في العالمين العربي والإسلامي، ثقافة:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

2. الاستعداد الذاتي لقبول فكرة ممارسة النقد المتبادل لا باعتباره تجريحاً أو إساءة متبادلة، بل رأياً ومادة للحوار وقاعدة للوصول إلى نتائج واضحة، سواء باتفاق أو باختلاف في وجهات النظر.

3. الاستعداد للمساومة بما ينسجم مع المبادئ والقيم العامة والشاملة، إذ لا ينفع الإصرار على ما يسمى بالثوابت وبالتالي المراوحة في المكان.

4. وعند الاختلاف يفترض أن يبقى شعار الجميع هو "الاعتراف المتبادل والاحترام المتبادل وعدم الإساءة المتبادلة بأي حال".

5. أي اتفاق يفترض لا يعتبر كسباً لأحد وخسارة للثاني، بل هو نجاح للطرفين بهدف المزيد من التفاعل والتلاقح والتفاهم

حين نتفحص الأسباب التي تقود إلى بروز العداء أو رهاب الإسلام والمسلمين أو نمو ظاهرة الخشية والكراهية أو العداء الصريح للأجانب، يفترض أن نتحرى عن المسؤولين عنه لا في طرف واحد، بل في طرفين أو أكثر، أي يفترض أن نرى كيف تتوزع مسؤوليتها على الجهات التالية:

\*\* مسؤولية عملية التربية والتنشئة الخاطئين في ألمانيا، إذ نلاحظ في بعض جوانبها ديني كنسي متعصب والبعض الآخر قومي شوفيني متطرف، كما يلاحظ ذلك على دور ونشاط أجهزة الإعلام المسييسة والحزبية في هذا الصدد.

\*\* مسؤولية الدول التي يأتي منها المسلمون، حيث تعاني الثقافة ودور التربية من تخلف شديد في مجال الاعتراف بالأديان الأخرى وعدم احترامها وغياب التسامح الديني في ما بين اتباع مختلف الديانات والمذاهب، إذ لا تسود في غالبية تلك الدول ذات الأغلبية المسلمة مبادئ حقوق الإنسان، بل يسودها الاستبداد وغياب الديمقراطية او وجود ديمقراطية شكلية لا تغني ولا تسمن.

\*\* مسؤولية الدين والمؤسسات الدينية ذاتها حيث أن الدين الكثير من القضايا التي تعتبر حمالة أوجه من جهة، وبعض جوانبه لم تعد ملائمة للعصر الراهن من جهة أخرى، والتي يصير الفقهاء أو تلح المؤسسات الدينية على تكريسها رغم فوات أوانها، مثل "شعب الله المختار" لدى اليهود، و "كنتم خير أمة أخرجت للناس" لدى المسلمين، أو الحق في تغيير الدين غير المحرم في القرآن والمحرم من قبل الفقهاء، على سبيل المثال

لا الحصر.

\*\* المسؤولية الفعلية التي تتحملها المؤسسات الدينية وغالبية الفقهاء ، إذ أنها كرست مع الزمن الكراهية المتبادلة وعدم احترام الأديان والمذاهب الأخرى ومن ثم العداء غير المبرر.

\*\* مسؤولية المجتمعات التي جاء منها المسلم والفرد المسلم ذاته، بسبب التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وضعف مستوى الوعي الاجتماعي والديني لدى الفرد والمجتمع وعدم بذلها الجهد الضروري لتنوير المجتمع والفرد في آن، وإبقاء الذهن مشدوداً لاجترار الماضي السلبي والأحكام المسبقة.

كل هذه الجهات يفترض أن تلعب دورها في تغيير هذه الحالة المرفوضة كل وفق مسؤوليته لضمان العيش المشترك والإنساني بين جميع الناس من مختلف الأديان والمذاهب والقوميات. إذ أن هؤلاء الناس ينقلون ما تعلموه في بلدانهم إلى ألمانيا أو الدول الأوروبية ويتعاملون مع الواقع الجديد بنفس الأسس والقيم والتقاليد السابقة. وهي التي تشكل نقاط احتكاك شديدة ومقلقة للعلاقة بين الطرفين.

لا يمكن لأحد أن ينكر مسألة مركزية تلعب دورها في ثقافة الإنسان المسلم التي يسعى البعض إلى تغييبها، وكأنها غير موجودة أو غير ذات أهمية، ثم يحاول عبثاً أن يرمى اليسار بكون يتقول على الإسلام والمسلمين. وهو خطأ فادح يرتكبه البعض من الكتاب ومنهم الأستاذ بيليفيلد في كراسه الجديد.

فليس اليسار وحده من درس الأديان والمذاهب، ومنها الدين الإسلامي أو درس القرآن واطلع على السنة والفقاه الإسلامي المتعدد الأطراف (الفقاه السني بأنواعه، والفقاه الشيعي بتفرعاته.. الخ) وتعرف على مختلف جوانبه وشخص بعض النقاط المهمة القابلة للنقد، بل هناك الكثيرين ممن عمل ويعمل على إبراز أهمية نقد الدين، وخاصة حركة التنوير منذ بدء بروزها. فليست العقوبات الجسدية، بما في ذلك الرجم بالحجارة أو قطع الرأس بالسيف، أو ممارسة التعذيب، رغم تحريم المثلة في الإسلام، أو اعتبار المرأة ناقصة العقل أو حق الرجل بضرب المرأة لتأديبها أو الزواج باريح نساء وما ملكت أيمانكم...، إضافة إلى وجود مسائل سلبية أخرى غير موجودة في القرآن ولكنها تستوجب النقد بسبب تشريعها من جانب المؤسسات الدينية وشيوخ الدين، وبالتالي فهذه المسائل هي جزء من الإسلام أو من صورته أمام الألمان والعالم. هذا لا يعني أن الأديان الأخرى ليست فيها مثل هذه الأمور السلبية، إلا أن حركة التنوير هي التي أبعدها أو خففت من تأثيرها في الممارسة الفعلية. وهذا لا يعني أن الأديان كانت في مختلف مراحلها سلبية، بل هي حركات إصلاحية في مراحل ظهورها، وواقع الإنسان والمجتمع هو الذي استوجب ظهورها هذه الأديان بغض النظر عن رأي أو رأي الآخرين بها أو غيرها من الأديان كالمجوسية والبوذية والهندوسية والكونفوشيوسية والتاوية وغيرها.

والتنوير، هذه الحركة التي بدأت ثم توقفت إلى حدود بعيدة في العالمين العربي والإسلامي (ليس هناك توقف

كامل ولكن التحول التنويري غير محسوس وبطءٍ جداً)، عملية سيرورة وصيرورة معقدة وطويلة، ولكن لا مناص منها. ويمكن هنا الإشارة إلى أن عملية التنوير الديني والاجتماعي تهدف إلى إزالة الأخطاء والتشوش والبلبي الفكري والديني والاجتماعي من ذهن الإنسان والمجتمع واتجاهات تفكيره وسلوكه وإعادتهما إلى الرشد. ويمكن بلورة ما يسعى إليه التنوير بالنقاط التالية، سواء بالنسبة للمسلمات والمسلمين في بلدانهم أم في ألمانيا وأوروبا وعموم الخارج:

• نقد الموروث الديني باتجاهين :

(أ) تأشير ما فات أوانه وكان مقبولاً حين طرح لأول مرة من جانب الأنبياء والمصلحين لمجتمعاتهم وظروف حياتهم وعلاقاتهم، ولكن لم يعد مناسباً ومنسجماً مع المرحلة الجديدة التي يمر بها المجتمع البشري أو المجتمعات العربية والإسلامية.

(ب) تأشير ونقد ما أضافه شيوخ الدين والفقهاء والمؤسسات الدينية إلى الأسس الأولى التي اعتمدها كل دين من الأديان والتي وضعت لأغراض لا تمت بصلة إلى مضمون الأديان ذاتها. وقد جاء في تعريف الفيلسوف "كانت" للتنوير النص التالي : "التنوير هو خروج الإنسان من اللارشد الذي اقترفه بحق نفسه"، ويمكن أن يضاف إلى ذلك "وما اقترفته المؤسسات الدينية وفقهاء الدين من اللارشد بحق الإنسان".

• تخلص المجتمع من الأفكار البالية والمعتقدات غير العلمية والخرافات والغيبيات التي ألحقت وتلحق أضرار الأضرار بالإنسان ووعيه وعلاقته بالآخر ومن الأحكام المسبقة التي يحملها إزاء الآخر.

• توجيه الإنسان نحو الفكر الحر الديمقراطي والعلمي ورفع مستوى وعيه بالواقع الذي يعيش فيه وبحقوقه وواجباته كإنسان وبحقوق الآخرين المتساوية، والفجوة المتسعة بينه وبين الشعوب الأخرى نتيجة سيطرة تلك الأفكار البالية على ذهنه ووعيه ووجهة تفكيره وسلوكه وأحكامه المسبقة بحق الآخر.

• رفض القبول بأفكار التمييز بين البشر على أساس عرقي أو قومي أو ديني أو مذهبي أو التمييز ضد المرأة وعدم مساواتها بالرجل أو رفض منحها كامل حقوقها... الخ.

والتنوير يفترض ان يؤدي من عدة جهات بالتوافق والتتابع والتكامل، ومنها :

1. من جاني الإنسان الفرد ذاته من خلال نضاله من أجل رفع وعيه ومستوى ثقافته ووعيه بمفهوم الحرية باعتباره إدراك الضرورة، ونضاله مع المجتمع لنفس الغرض والخلاص مما علق بذهنه من أوهام وأحكام مسبقة وكليشيات عفا عليها الزمن. إنها عملية معقدة وطويلة ولكنها ضرورية.

2. من جانب تلك الجهات والمؤسسات التي كرس في وعيه التشوه بسبب حشوها بتلك الأفكار المشوهة والعقائد البالية والخرافات والأساطير التي لا تمت إلى الواقع بصلة، ومنها المؤسسات الدينية على نحو



- خاص. ولقد سمحت بذلك بروز وتنامي ظاهرة الاغتراب لدى الإنسان من الدين وعن الدين في آن.
3. من جانب الحكومة التي يفترض أن تسن القوانين والنظم التي تساهم في رفض ما هو قديم وبالي والدعوة لما هو حديث وإنساني متفتح، والتي لم تقم بذلك، بل كرست ما هو مناقض للمطلوب.
4. المثقف الديمقراطي الذي يحمل فكراً حراً ومبدعاً قادراً في التأثير المباشر على فكر الإنسان بالشعر والقصة والرواية، بالرسم والنحت والكاريكاتور والتصوير الفوتوغرافي والسيراميك (الفنون التشكيلية ..) والخط والموسيقى والمسرح والسينما، بالعلوم الحديثة وما هو جديد يفرض على الإنسان التخلي عن القديم منطقياً وعلمياً.
5. المؤسسات العلمية، المناهج التربوية والتعليمية في مختلف مراحلها، إضافة إلى منظمات المجتمع المدني، ومنها منظمات حقوق الإنسان.
6. أجهزة الإعلام التي يمكنها بوسائلها التقليدية والحديثة إيصال الفكرة السليمة إلى وعي الإنسان بأسلوب سلس وسليم ومتناغم مع العلم والواقع، والتصدي لكل ما هو مناهض للعلم والواقع.
- إن أهمية التنوير تبرز في دوره في تحقيق عدة نتائج أساسية لأي تقدم وتطور لدى الإنسان وفي البلاد التي تؤمن أكثريتها بالدين الإسلامي وللمسلمين الذين يعيشون في أوروبا:
1. احترام مفهوم الحرية الفردية والمجتمع المدني والديمقراطية وفصل الدين عن الدولة واعتبار "الدين لله والوطن للجميع".
  2. مغادرة أجواء الغوص في الغيبات والخرافات والتقاليد والعادات والطقوس التي ترسخت عبر قرون منصرمة في أذهان الناس وتناقلتها دون التمحيص بها والتخلص منها، والتفتح صوب حياة حرة جديدة واقعية ومليئة بالحياة والحركة والفعل الإيجابي لصالح الفرد والمجتمع.
  3. احترام حقوق الإنسان وحقوق المواطنة المتساوية واحترام المرأة واستعادتها حقوقها كاملة غير منقوصة ومساواتها بالرجل واحترام حقوق القوميات والأديان والمذاهب والاتجاهات الفكرية والسياسية غير العنصرية والشوفينية ورفض التمييز بين الأديان والمذاهب الدينية أو أي شكل آخر من أشكال ظهوره وممارسته.
  4. احترام حق الإنسان باختيار ما يراه مناسباً له من دين أو مذهب أو اتجاه فكري أو حزب سياسي.
  5. الالتزام بقيم وأسس جديدة لحياة الفرد والجماعة والعلاقة المتبادلة بين الأفراد والجماعات في مجتمع ما وفي ما بين المجتمعات التي تقوم على أسس التعاون المتبادل والمنفعة المتبادلة.
  6. احترام وممارسة الثقافة الحرة والديمقراطية بمختلف صيغ تجلياتها الفكرية والاجتماعية والفنية والرياضية وأهمية التفاعل والتلاحق الثقافي الإنساني.

7. احترام التراث الفكري العربي والإسلامي الإيجابي والنزعات المادية والإنسانية فيه والتخلي عن السلبي والعدواني الذي علق به عبر القرون المنصرمة.

8. رفض العدوان وأفكار الجهاد والفتح وما إلى ذلك من مخلفات القرون المنصرمة والكف عن تقسيم العالم إلى "ديار حرب وديار سلام"، وبتعبير أدق "ديار الكفار وديار الإسلام". وهي الموضوعات التي تتشبهت بها القوى السلفية المتطرفة وأغلب الجماعات الإسلامية السياسية المتطرفة، ومنها تنظيم القاعدة مثلاً.

9. القبول بالذاتير الأوروبية باعتبارها تركز الأسس التي تستند إليها حقوق وكرامة الإنسان والمجتمع، وان لا تختلط مع الشرائع الإسلامية العديدة وفق المذاهب الإسلامية المختلفة. وهو الطريق العملي للاندماج بالمجتمع الألماني أو الأوروبي بشكل عام.

إلا أن عملية التنوير لا تتم بشكل عفوي، بل تتطلب عملية تغيير فعلية وجادة للواقع الاقتصادي والاجتماعي للناس وللبلدان التي يعيش فيها المسلمون والمسلمات والتي بدورها تساعد على نشوء قيم ومثل وتقاليد جديدة ووعي اجتماعي وديني جديدين لا يمتان إلى الماضي بصلة إلا بقدر قناعة الإنسان بعقيدة دينية أو فكرية أو بما هو إيجابي من تاريخ الإنسان ومجتمعه.

علينا أن نتذكر باستمرار بأن تخليص الشعوب من التقاليد والعادات والطقوس البالية، وخاصة ما تركز عبر الدين والمؤسسات الدينية وعبر الزمن وإجراء تغييرات جدية على ثقافتها وتطوير حضارتها ليس بالعملية السهلة والسريعة، بل هي الأكثر تعقيداً من أي عملية أخرى في المجتمعات المختلفة وتستغرق وقتاً طويلاً.

### ثالثاً : الجزء الثالث

وفي هذا الجزء من البحث يتطرق الباحث إلى "الحدود الشائكة بين نقد الإسلام والعداء للإسلام". ويصيب الهدف المناسب حين يؤكد دور القوى الإسلامية المحافظة والمتطرفة في تنشيط العداء للإسلام والمسلمين حين لا يميزون بين النقد، الذي يمارسه المجتمع الأوروبي إزاء الأديان والمذاهب، وبين التجريح المتعمد من أجل الإساءة للإسلام وكرامة الإنسان المسلم. فالأول مقبول والثاني مرفوض طبعاً.

يشكل النقد قاعدة أساسية ومنطلقاً للتقدم والتخلص من الجوانب السلبية في مسائل الدين أو العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبدون ذلك يتعذر إحراز التقدم والتحسين والتغيير لدى الفرد والمجتمع أو في ممارساته وطقوسه الدينية. ولكن التربية الاجتماعية والدينية من جانب المؤسسات الدينية وشيوخ الدين تؤكد إن الإسلام، وبالتالي المسلم، يمتلك كل الحقيقة، كانت ولا تزال هذه الخطيئة الكبيرة لا تقود إلى التعالي فحسب، بل وإلى ارتكاب أخطاء فادحة تترتب عليها وعنها عواقب سلبية كثيرة وتؤجج الصراعات والنزاعات.

ومن هنا يصعب على الكثير من المسلمين تحمل النقد الموضوعي الذي يوجه للإسلام وتعتبره تجريحاً، وهي تتعمد توجيه مثل هذه التهم الزائفة بأمل منع تكرار ممارسة النقد أو الاستمرار به، أو أنهم يسعون إلى إثارة الناس البسطاء ضد حرية الرأي والتعبير عنها، وهو ابتزاز لا يجوز القبول به أو الرضوخ له. فالبحث والتدقيق والمراجعة المستمرة بشأن ما يثار حول عدد نساء النبي محمد مثلاً ونقد صور من حياته المنقولة عنه والمنسوبة إليه أمر بالغ الأهمية، إذ لا بد من معرفة العوامل الكامنة وراء مثل هذه الزيجات المتعددة في تلك الفترة وما التفسير الذي يطرحه شيوخ الإسلام، وما هي حقيقة المسألة، لأن في مثل هذه الدراسات محاولة جادة لاستخلاص الدروس وتصحيح السلوك في المرحلة الراهنة من جهة، ومنع وضع محرمات على النقد إزاء هذه الشخصيات الدينية المصلحة والكبيرة من جهة أخرى. الإسلام والمسلمون بحاجة إلى نقد صريح وشفاف وعقلاني، ولا يحتاجون إلى المجاملة والسكوت عن النواقص والأخطاء التي لديهم، كما لا يحتاجون ولا يريدون التجريح أو الإساءة لهم.

لا يجوز القبول بهذه الحساسية المغالية لدى المؤسسات الدينية الإسلامية ولدى المسلمين، بل لا بد لهم أن يتعلموا اسس التعامل في ما بين البشر من ديانات ومذاهب مختلفة، وأن يتعلموا سماع النقد والاستفادة منه، حتى لو كان رسوماً كاريكاتيرية، والغضب والكراهية يعينان العجز عن الحوار والنقد المتبادل والبرهنة على العكس ويقودان إلى الاقتتال.

ليس من السهل وضع حدود فاصلة بين النقد والتجريح في عالم يتمتع بالحرية الفردية والحق في التعبير ونشر الرأي، إذ من حق الآخر أن يمارس النقد والرد ولكن وفق ذات الأسس التي مارسها الأول وليس بحمل السلاح والتظاهر والتخريب وتدمير المؤسسات الثقافية والسفارات والدعوة للمقاطعات أو وضع الحد عليه، أي القتل. كما توجد محاكم مستقلة في مقدورها أن تنظر وتصدر أحكامها إذا ما نشأت خلافات ومشاعر بالتجريح الشخصي بسبب مقال أو صورة كاريكاتيرية أو كتاب... الخ.

لنورد هنا مثلاً على سوء التعامل مع الفكر والأدب من جانب كثرة من الفقهاء والمسلمين والمؤسسات الدينية. فرغم أن كتاب سلمان رشدي (آيات شيطانية) لا يرقى إلى مستوى الأدب الجيد والرواية الناضجة والمتماسكة، ولكن كان من حقه أن يمارس الكتابة، ولكن ليس من حق أحد أن يحل دمه ويطلب قتله أياً كان ذلك المسلم وأياً كانت منزلته الدينية في العالم. إذ كان في مقدور أي شيخ دين، بمن فيهم الراحل روح الله الخميني، رفع دعوى قضائية ضد سلمان رشدي حول كتابه "آيات شيطانية" بدلاً من تلك الضجة المفتعلة التي أثرت دون مبرر وأعطت للكتاب قيمة أكبر وطلباً أكبر من قيمته الفعلية وزادت من رغبة الاطلاع عليه (الإنسان حريص على ما منع). على المسلمات والمسلمين أن يتعلموا التعامل مع النقد بروح حضارية جديدة

وبعيداً عن الاستفزاز والشعور بالغضب والإساءة والرغبة بالانتقام. النقد هو النور الذي يهدينا إلى طريق الصواب، وهو طريق التواضع والتعلم!

رابعاً : الجزء الرابع

يتضمن هذا الجزء الأخير بعض الاستنتاجات المهمة التي توصل إليها الباحث الدكتور بيليفيلد من خلال دراسته التي هي تلخيص وتكثيف وبلورة لما سجله في كتبه السابقة في هذا الصدد. ولا شك في أن وجوده على رأس المعهد الألماني لحقوق الإنسان أسهم في بلورة رؤية حقوقية سليمة تستند إلى مبادئ لائحة حقوق الإنسان وحقوق المواطنة في تعامله مع وجود الأجانب في ألمانيا. وهو يوزع المسؤوليات في ما يحصل على جهات كثيرة وبشكل صائب ويطالب الحكومة الألمانية والمعنيين إلى تغيير الكثير مما يمارس اليوم في ألمانيا من أجل إزالة التمييز إزاء الأجانب عموماً، والمسلمين على نحو خاص، لأنهم أكثر عرضة للتمييز من الأجانب القادمين من دول ذات أكتية مسيحية مثلاً.

حين يطالب الكاتب من الألمان أن يكونوا أكثر حرصاً على التعامل مع المواطن أو المهاجر من قومية ودين آخر، لا بد له أن يطالب المسلمات والمسلمين ومن كل الأجانب أن يتعاملوا مع الواقع والثقافة والحضارة الألمانية بشكل سليم أيضاً، وأن يكونوا أكثر حساسية في التعامل مع العادات والتقاليد والطقوس التي يلتزم بها الألمان أيضاً. ولكن أكثر تلك الأمور إلزاماً بالنسبة للمسلمات والمسلمين فهي:

1. تعلم اللغة الألمانية بما يسمح بالتعامل والتفاعل مع الحضارة والثقافة والمجتمع الألماني.
2. التزود بالثقافة الألمانية باعتبارها ثقافة حية ومتقدمة ومتطورة من جهة، والسعي لوعي أهمية التلاحق الثقافي مع الثقافة التي يحملها المواطن أو المهاجر الأجنبي المسلم في ألمانيا من جهة أخرى.
3. إن هذين العاملين يساعدان دون أدنى ريب على ضمان الاتصال المستمر بالألمان وبالتالي يسمح بالاندماج الفعلي في المجتمع الألماني. وهذا لا يعني الانصهار بالمجتمع الألماني، إذ أن الاندماج شيء والانصهار شيء آخر.
4. إن أول مستلزمات المواطنة، بغض النظر عن قومية أو دين أو مذهب أو اتجاه فكري وسياسي، هو الالتزام بالدستور المقرر في البلاد. إن هناك الكثير من الألمان الذين يختلفون مع بعض مواد الدستور، ولكن ليس من حقهم رفضه أو عدم الالتزام به، ولكن من حقهم النضال الديمقراطي المشروع من أجل تغيير تلك المواد التي لا يريدونها أو يريدون صياغتها بصورة أخرى. وهذا الحق مضمون للمواطنات والمواطنين المسلمين أيضاً، ولكن وفق الشرعية الدستورية واحترام قوانين البلاد.

5. احترام التقاليد والعادات والأعراف الألمانية، وهذا لا يعني الأخذ بها، فهي خاصة بالشعب الألماني ولا يجوز لأي فرد الإساءة إليها، ولكن من حق كل فرد نقدها بطريقة مناسبة إن وجد أنها متخلفة أو غير مناسبة للعصر الراهن أو لأي سبب آخر. ولكن عليه أن يتحمل النقد الذي يوجه لتقاليد وعاداته وطقوسه... الخ أيضاً، إذ أن شارع النقد يسير باتجاهين وليس باتجاه واحد.
6. الابتعاد عن اتهام الألمان، مع أول خلاف ينشأ معهم بالفاشية والنازية أو العنصرية. فالمجتمع الألماني الراهن غير مجتمع الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، رغم وجود نازيين جدد وفاشيين ومحافظين يمينيين متطرفين في كرههم للأجانب أياً كان ذلك الأجنبي، ولكنهم لا يشكلون سوى أقلية صغيرة جداً وغير مؤثرة في الحياة العامة للمجتمع الألماني.
7. لا يجوز للمسلمين المبالغة في المطالبة بإقامة جوامع في المدن الألمانية، كما يفترض الكف عن نصب مكبرات الصوت فوق المآذن أو استخدام الجوامع للعمل السياسي والديني المتطرف، كما حصل في الأعوام السابقة.
8. لا أرى صواب الادعاء بأن الألمان قد تحولوا من العداء للسامية صوب العداء للإسلام. إن العداء للسامية موجود في ألمانيا، كما هو موجود في أوروبا، وفق تقديرات "المركز الأوروبي لرصد التمييز والعداء للأجانب في فيينا"، وأنه كان في السنوات الأخيرة في تزايد نسبي واضح. كما أن العداء للأجانب عموماً وللمسلمين على نحو خاص موجود هو الآخر، وهو آخذ بالتزايد أيضاً، وليس على حساب بعضهما الآخر، كما تدعي بعض المؤسسات الدينية الإسلامية في ألمانيا.
9. لا بد من الاعتراف من جانب الألمان بأن بلادهم الجميلة والمضيافة أصبحت منذ أكثر من عقدين من السنين متعددة الثقافات، وفي هذا إغناء للمجتمع الألماني ولثقافة الألمانية، كما أنها إغناء للثقافات الأخرى القادمة من شعوب أخرى عبر المهاجرين. ويسمح هذا اللقاء الإنساني والثقافي بالتلاقح المغني للجميع وليس في هذا أي خطر على الثقافة الألمانية أو نقاوتها، إذ ليست هناك ثقافة في العالم نقية وخالصة من تأثير الثقافات الأخرى.
10. ولا بد من الإشارة هنا إلى مسألة أساسية غالباً ما تنسى من جانب السياسيين المحافظين واليمينيين الألمان، وهي أن المجتمع والاقتصاد في ألمانيا بحاجة إلى الأجانب، سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم لأربعة أسباب جوهرية، وهي :
- أ. الاقتصاد الألماني بحاجة إلى أيدي عاملة رخيصة ومستعدة للعمل في كل الفروع الاقتصادية التي لا يرغب الألمان العمل فيها.

ب. وان هذه المجموعة الكبيرة من البشر الأجانب التي يقدر تعدادها بحوالي ثمانية ملايين إنسان من مجموع 82 مليون مواطنة ومواطن في ألمانيا (عدا من تجنس بالجنسية الألمانية من الأجانب) تساهم في إغناء الناتج المحلي الإجمالي والدخل القومي الألماني وفي تشغيل الكثير من الأيدي العاملة في مشاريع صغيرة ومتوسطة، كما أنها تساهم في استهلاك المنتجات الألمانية.

ت. وأن الهرم السكاني في ألمانيا لا يعكس فتوة، بل أن الهرم لا يسير لصالح نمو إيجابي للمواطنات والمواطنين الألمان، في حين أن الهرم السكاني للأجانب في ألمانيا يتسم بالفتوة، ويساهم في زيادة الولادات والنمو السكاني المطلوب، سواء عبر الزواج المختلط أم في ما بين الأجانب أنفسهم، وفي هذا تحسين مستمر للهرم السكاني الألماني.

ث. وأن هذه الجاليات الأجنبية التي تعيش في ألمانيا تساهم في تطوير وإغناء العلاقات بين ألمانيا وبلدان المنحدر الأصلي ليس من الناحية السياسية حسب، بل ومن الناحية الاقتصادية، بما فيها الجوانب التجارية والمالية والتقنية، والناحية الثقافية على نحو خاص.

وأخيراً لا بد من الإشادة بالترجمة الممتازة والدقيقة لهذا النص الفكري الألماني القيم والمعقد من جانب السيدة الفاضلة الكاتبة فادية فضة والصدیق الفاضل والكاتب السيد الدكتور حامد فضل الله.

برلين في 2008/10/11

قراءة في الجزء -النظري- من كتاب -نحو ثقافة تأصيلية- -البيان التاصيلي-

للسيد محمد شاويش



حضرت ندوة عقدت في برلين قدم فيها الأخ والصديق الدكتور حامد فضل الله قراءة نقدية لكتاب السيد محمد محمود شاويش الموسوم "نحو ثقافة تأصيلية، البيان التاصيلي" الصادر عن دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع في دمشق في العام 2007. وقد كانت الدراسة النقدية التي قدمها الدكتور فضل الله قيمة حقاً في رؤيتها لنقاط الضعف والخلل الجوهرية الواردة في الكتاب، سواء أكان ذلك في ما يمس الجوانب النظرية أم الجوانب التطب يقية من القضايا المطروحة. وقد نشر المقال في موقع الكلمة الإلكتروني. كما قُدمت ملاحظات نقدية جوهرية من جانب الأخ الدكتور نبيل بوشناق، وخاصة في ما يخص قضايا الاستبداد وحقوق الإنسان التي أغفلها الكاتب كلية في كتابه المليء بالحنين للماضي الذي لن يعود، إضافة إلى ملاحظات كثيرة أخرى من بعض الحاضرين الآخرين. وبما أنني لم أكن قد قرأت الكتاب، ولم يتسن لي إبداء كل الملاحظات التي تكونت لدي عن مضمون الكتاب أثناء القراءة النقدية له، فقد قررت استعارة الكتاب والبدء بمطالعة الكتاب عنه بصورة أكثر دقة وتدقيقاً. وقرأته فعلاً بإمعان وتكونت لدي الملاحظات التالية التي يمكن أن تفتح نقاشاً حول أفكار الكاتب ونقاده.

الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات نشرت في فترات متباعدة في الصحافة العربية تم جمعها من قبل الكاتب ثم كتب لها مقدمة عامة بما يساعد على منحها خيطاً واحداً يشدها في فكر ديني شديد المحافظة والحنين، حيث يبدو أن الكاتب يعيش الماضي في الحاضر ويسعى إلى استعارة فكر الماضي واستعادة الماضي بحذافيره الذي

فات ولن يعود، فهو لا يسبح في كتابه هذا ضد تيار حركة التاريخ، بل ضد الحقائق القائمة على الأرض، وهي صخور صلدة تحطم رأس من يصطدم بها، كما يقول المثل الإنجليزي.

وزع الكاتب السيد محمد محمود شاويش جهده على قسم عام سماه "البيان التأصيلي" والذي يتكون من تسع موضوعات موزعة على سبع صفحات تقريباً، وعلى قسم تطبيقي احتل 97 % من حجم الكتاب عدا المقدمة التي كتبت من أخيه السيد الدكتور حسين شاويش . سأقتصر في مناقشتي لأفكار الكاتب على المقدمة العامة من الكتاب، التي اعتبرها الكاتب القاعدة النظرية لتحليلاته اللاحقة، إذ أن الأخ الدكتور حامد فضل الله منح القسم التطبيقي جل اهتمامه وأوفى، رغم كل الجهد الذي بذله، إذ كان قد ارتدى الزميل قفازاً حريزاً حين سجل ملاحظاته كي لا يثير الكاتب، كما عبر عن ذلك أحد قارئى الكتاب. ورغم جدية النقد بقى الكثير من الأفكار، التي تعود لعصور سالفه، الذي يفترض نقده، إذ أن أفكار هذا الكاتب الفاضل تشكل، كما أرى، خطراً على أذهان الشبيبة وسعيها لبناء حياة جديدة متقدمة وسعيدة. لا شك في أن لكل كاتب الحق والحرية الكاملة في التعبير عن وجهات نظره، ومن حقنا الكامل ممارسة النقد لها. واحترام هذه الحرية المشتركة وهذا الحق المتبادل واجبنا جميعاً، إذ بدون ذلك لا يمكن أن نتقدم خطوة جادة نحو الأمام لصالح الثقافة والتقدم الثقافي والاجتماعي في عالمنا العربي والإسلامي وفي عصر العولمة والثورة المعلوماتية. الموضوعة الأولى:

طرح السيد شاويش في موضوعته الأولى مجموعة من الأحكام المطلقة التي، وفق رأيه، لا يرقى إليها الشك ولا تقبل النقض، ضمن مجموعة من الأحكام المطلقة الأخرى التي سنتعرض لها تباعاً. فماذا تتضمن هذه الموضوعة؟ إنها تتضمن ما يلي:

1. أن الإسلام هو الخيمة الأخيرة لا للأمة العربية، إذا أرادت أن لا تندثر، بل إنه الخيمة للبشرية كلها.
2. إن البشرية جمعاء تسير بفرعنة لا مثيل لها صوب الهاوية.
3. وأن الإنسان يعبد المادة أو القوة والعمل، في حين أن عليه أن يعبد الله.

وينتهي من هذا الطرح إلى مقولة قديمة جديدة واسطوانة مشخوطة يحملها "الأخوان المسلمون" معهم دوماً ويروجون لها أبداً ومفادها أن "الإسلام هو الحل". ولكنه لا يكتفي بما يقوله الأخوان المسلمون، بل يزيد عليه، بأن هذا الحل ليس للمسلمين فحسب، بل هو للبشرية كلها!

ماذا يعني ذلك؟

1. إنه يعني دون أدنى ريب رفض قاطع لكل الأديان الأخرى واستفزاز مباشر وإثارة متعمدة لأتباع الديانات الأخرى في العالم، وهو حكم عاجز عن الصمود أمام الواقع القائم. كما أنه مطالبة غير مباشرة إلى



اعتبار الأديان الأخرى تساهم في انهيار البشرية وهلاك البشر، وأن أمام البشرية كلها قارب نجاة واحد وحيد هو الإسلام.

2. أن البشرية كلها تقف على شفا هاوية وانهيار كامل واندثار أيضاً. ولكن هل هذا التصور حقيقي أم ادعاء باطل؟ فهو لا يبذل الجهود للتدليل على ذلك، فبالنسبة له حكم مطلق لا يقبل النقض.

3. ومثل هذا الطرح يذكرنا بمقولة كامل ماركس حيث يستخدم الدين وعبادة الله كأفيون للشعوب، للكادحين، لفقراء البشرية، وليست للأغنياء من الناس، فلهؤلاء الفقراء السعادة في الجنة وللأغنياء السعادة في الحياة الدنيا.

4. إن هناك خلطاً فاضحاً بين العلم وامتلاك القوة العلمية وبين عبادة الله. فشعوب الدول الغربية التي استطاعت تطوير العلم والتقنيات الحديثة وتحقيق الثورة المعلوماتية مؤمنة، والبعض منهم مسلم أيضاً، ولكن أغلبهم يدين بدين آخر، كما هو الحال في الدول الأوروبية والولايات المتحدة وكندا وأستراليا وغيرها من الدول. وروح هؤلاء الناس غير فاسدة، بل طيبة ونقية، كما هي روح أي إنسان آخر في العالم، بل الروح الفاسدة هي في أولئك الذين يرون أن روح الناس في الغرب فاسدة أو بلا روح. المسيحي والمسلم واليهودي والصابئي المندائي والهندوسي والبوذي والكونفشيوسي والمجوسي كل منهم له دينه الذي يدين به وعلينا احترام كل تلك الأديان وغيرها، وأن لا ننتهمهم بأنهم بلا روح ويدفعون البشرية إلى الاندثار لأهم غير مسلمين، بل هم يساهمون أكثر من المسلمين في الوقت الحاضر في تطوير حياة وسعادة الإنسان، رغم ما في هذا العالم أيضاً من جور وظلم وفقدان العدالة الاجتماعية، وأكثر تلك المظالم نعيشها في العالمين العربي والإسلامي. ويكفي أن نلقي نظرة على النظم العربية لنعرف ما يجري فيها!

ولكن السيد محمد شاويش لا يقدم لنا كيف يمكن أن يكون الإسلام هو الحل لكل مشكلات البشرية وكيف يمكن أن يعالج موضوعات الحاضر والتقدم التقني. كما لم يقدم لنا الأسباب الكامنة وراء احتمال اندثار الحضارة العربية والإسلامية وحضارة الإنسان والإنسان كله. إنه حكم لا يستند إلى قاعدة مادية يمكن أن تقبل، فهو كمن يقول لك هذا حكم الله والله موجود فلا تناقش، النقاش هنا محرم. الإسلام هو الحل، ولكن كيف؟ ولماذا لم يستطع أتباع الإسلام التغلب على الواقع الراهن حتى الآن، وهم يعيشون في عدد كبير من الدول العربية وغير العربية؟ هل يمكن أن نعزو كل ذلك للاستعمار، أم إلى التخلف الفكري والعلمي الذي يعيش فيه المسلمون وبسبب غياب التنوير في المجتمعات الإسلامية؟ ألا نلاحظ أن الفقه الإسلامي قد تخلف حتى عما كان عليه في زمن صاحب الدعوة الإسلامية محمد بن عبد الله؟ إن الإسلام هو الحل ليس سوى انغلاق حقيقي على الفكر والعلم على الصعيد العالمي، وتصدي لأي تلاحق فكري وحضاري مع الفكر والحضارة الجارية على الصعيد الدولي، وهي الدعوة التي يروج لها السيد شاويش خشية منه على

نقاوة الفكر والثقافة الإسلامية والعربية، وهو أمر سيقود إلى مزيد من التخلف والجمود والشرنقة الثقافية والحضارية، وهو ما ترفضه قوانين التطور الاجتماعي التي يستهين بها وبحركتها وفعلها ونتائجها السيد شاويش.

إن الإسلام دين كبقية الأديان في هذا العالم، ومن حق من يؤمن به أن يدعو له، ولكن لا على أساس فرضه على الشعوب الأخرى وبهذه الطريقة المسيئة إلى بقية الأديان التي يدعو لها السيد شاويش. الموضوع الثانية:

في موضوعه الثانية يفترض السيد شاويش "جازماً" بأن البشرية كلها تسير صوب الإسلام، وهو حكم مطلق. لهذا يرى بأن على المسلمين أن يبعدوا حضارتهم وثقافتهم عن التلاحق مع حضارة الغرب باعتبار الحضارة الغربية الإنسانية الحديثة أفعى تريد التهام بقية الحضارات والثقافات وكذا الهويات الثقافية للشعوب الإسلامية، وخاصة العربية. وفي الوقت نفسه يرى أن الحضارة الغربية سائرة إلى الانهيار والزوال، ومع ذلك يخشاها ويخشى تأثيرها كما يخشى الفأر من قط متربص له. ويرى، أن أصحاب الحضارة الغربية هم الذين يقولون ذلك، لأن لا علاج لهذه الحضارة من الانهيار، حتى الماركسية باعتبارها كانت آخر علاج لها لم ينفعها ولم ينفذها من مصيرها، وبالتالي عليها أن تسير صوب الإسلام، وإلا فالموت نصيبها لا محالة. لا بد لي أن أشير هنا إلى الملاحظات التالية:

1. إن زميلنا الطيب، رغم عيشه الطويل في أوروبا، لم يع حتى الآن مفهوم الحضارة ومكوناتها واتجاهات تطورها، لم يمسك بجوانب قوتها وضعفها والأسباب الكامنة وراء تطورها المتسارع. لقد أخذت هذه الحضارة من الشرق الشيء الكثير، لقد أخذت الديانتين اليهودية والمسيحية، وبعضهم أخذ الإسلام أيضاً، كما استفادت من الديانات الوضعية الأخرى كالهندوسية والبوذية وغيرهما، ولكنها طورت هذه الديانات عبر عمليات التنوير المعروفة من جهة، كما استفادت من حضارة الشرق الأخرى، ومنها ما وصلها من الدولة الأموية والدولة العباسية على نحو خاص ومن الدولة الفارسية والعثمانية من جهة أخرى، ودفعت بذلك إلى المزيد من التطور والتقدم لحضارتها الغربية. لا شك أن ليس كل شيء في هذه الحضارة طيب، ولكن لا مجال للمقارنة بين استمرار تخلف حضارتنا الراهنة وبين استمرار تقدم حضارة الغرب، التي هي جزء من حضارة المجتمع البشري. لقد خرجت أوروبا من ظلمات القرون الوسطى إلى النور، أما نحن فقد دخلنا منذ القرن الحادي عشر الميلادي، ولكن بشكل خاص منذ سقوط بغداد في القرن الثالث عشر الميلادي (1258) بيد جيوش هولاكو الغازية حتى الآن، إلى حياة التخلف والتقهقر ولم نتقدم كثيراً، رغم أن الحضارة الغربية قد ساهمت بكسر الكثير من القيود التي كانت تقيد شعوبنا ولكنها ما تزال ضعيفة بالقياس إلى ما ينبغي أن يحصل.

5. والرجل، كما أرى، عاجز عن إدراك حقيقة أن كل ثقافة في بلد ما لا يمكن أن تكون ثقافة نقية، بل هي متلاحقة مع ثقافات شعوب أخرى، ولكنها تشكل مع بقية الثقافات ثقافة وحضارة البشرية بكل تنوعاتها وتفاعلاتها والتبادل والتلاقح في ما بينها.

6. ويرى بأن الماركسية قد سقطت بسقوط الدول الاشتراكية في أوروبا أو في غيرها من الدول، ولا يريد أن يعي بأن الانهيار قد أصاب نظاماً وتجارب بعينها، تلك التي تبنت قولاً الماركسية وعجزت عن وعي مضامينها. ولهذا راح يترحم على المادية الجدلية والتاريخية، كما فعل نوربرت بلوم حين ترحم على الماركسية وأراد دفنها. الماركسية، أيها السيد الكريم، نهج فكري مادي دياكتيكي (جدلي) ومادي تاريخي، وليست نظرية جامدة راكدة متشرنقة. وبالتالي، مع تغير الزمان والمكان تتغير النظرية ذاتها باستخدام المنهج العلمي في التحليل والعمل من أجل التغيير. الدول الغربية بدأت تدرس من جديد كتاب رأس المال لأنه السفر العالمي الذي كشف عن خبايا الرأسمالية، نقاط قوتها ونقاط ضعفها، كما وضع أسس التغيير المستقبلي لها. ويبدو لي أن الكاتب السيد شاويش مغرم بالأحكام المطلقة التي لا يكلف نفسه جهد إثبات ما يطلقه من أحكام، وهو موقف شكلي ميتافيزيقي لا غير، لا يعتمد الرؤية الجدلية للأفكار التي يطلقها. والموضوعتان الثالثة والرابعة:

يتحدث هنا الكاتب عن المطلق والنسبي، ولكنه عجز هو نفسه عن ممارسة هذا التمييز في كتابه الموما إليه، فكل أحكامه كانت مطلقة وليس فيها أية رؤية نسبية للأفكار التي طرحها. ثم يتحدث عن التأصيل وتمييزه عن الأصولية الغربية، ولكنه نسى بأنه استخدم التأصيل هنا بمعنى السلفية المفارقة بالمحافظة لا غير، رغم الادعاء بأن التأصيل يرتبط بالواقع الجديد ويتأثر به. وهو يتهم الغرب والحضارة الأوروبية بالنزعة المتمركزة على الذات، وهذا الاتهام ليس كله دون أساس لدى جمهرة من الكتاب الأوروبيين، ولكنه نسى أن الفكر الوارد في الكتاب انبطاح كامل أمام النزعة المتمركز على الذات الإسلامية السلفية وبأعتى صورها وأشكال ظهورها، فماذا يعني "الإسلام هو الحل" غير ذلك، والإسلام هو الخيمة الأخيرة للبشرية كلها ليس سوى رؤية بعين واحدة، حيث كانت العين الأخرى مسدودة تماماً. والموضوعتان الخامسة والسادسة :

بحث موضوعته الخامسة في الصحة الإسلامية الكبرى ... السؤال المنطقي الذي يواجه كل ذي إنسان هو : هل نحن أمام صحة إسلامية حقاً، أم نواجه ردة فكرية وسياسية واجتماعية وحضارية لا مثيل لها في العالم الإسلامي منذ قرون طويلة؟ ألسنا نواجه استخدام أساليب فاشية في فرض رأي جماعات إسلامية متطرفة وهمجية على المجتمع العرب والإسلامي والعالم؟ فهل هذه يا سيدي الكريم صحة إسلامية أم توحش لا مثيل له؟ لقد عجز النهضويون من العرب والمسلمين عن إخراج المسلمين من الظلمات إلى النور عبر عملية تنوير دينية واجتماعية، وهم الذين يرى فيهم السيد شاويش أنهم قد أساءوا للإسلام لأنهم لم يتنكروا لما تحقق في الغرب من تقدم حضاري، ويدعي أنهم كانوا في انبهار تام

من تقدم الحضارة الغربية. ألم يكن هؤلاء النهضويون محقين في المقارنة بين أوضاع بلدانهم وشعوبهم المتخلفة وبين أوضاع بلدان وشعوب الغرب المتقدمة؟ تصوروا إلى أي مستوى وصل فكر الأخ شاويش بحيث يتهم محمد عبده وصحبه بأنهم قد أساءوا للإسلام والأمة الإسلامية! إنها لجرأة مخجلة أن يواجه الرجل مثل هذا النقد لأولئك الأوائل الذين حاولوا دفع العرب والمسلمين إلى مواقع أفضل وأكثر تقدماً، في حين يريد الكاتب دفعهم إلى مواقع أكثر تخلفاً وبؤساً وفاقاً فكرية وثقافية وحضارية. لقد أخذ اليهود والمسيحيون من الحضارة العراقية القديمة ومن الحضارة المصرية القديمة الكثير، وأخذ العرب والمسلمون القدامى من تلك الحضارات ومن اليهود والمسيحيين أيضاً، فما العيب في ذلك من جهة، وما أهمية ذلك للمجتمع العربي والإسلامي من جهة أخرى؟ ألم ينهض العرب بترجمة الكثير من الكتب عن الثقافة والفلسفة اليونانية والإغريقية؟ ألم يساهم هؤلاء بترجمة وتطوير وإغناء الفكر قديماً، كما فعل الكثير من فلاسفة العرب الشجعان ومن المسلمين من غير العرب في عهد المأمون مثلاً، في حين نرى أن الزميل يحاول أن يعيدنا إلى ماضٍ سحيق حيث لا وجود إلا لفلسفة البؤس وبؤس الفلسفة. ويشعر بالقرف من كثرة الترجمات العربية عن اللغات الأخرى، في حين رأى السيد الدكتور فضل الله بحق أن ما ترجم إلى العربية قليل وقليل جداً من تلك الكتب الثقافية الممتازة التي تساهم في إغناء ثقافتنا العربية.

هل ثورة الشعب الإيراني، التي اختطفها الخميني وحولها إلى حركة طائفية مقيتة في إيران وفي حركات إسلامية أخرى، صحوة إسلامية؟ هل نشاط القاعدة وتنظيمها وعدوانيتها وأساليبها الفاشية في العالم كله صحوة إسلامية كبرى؟ هل نشاط حماس وعدوانيتها في غزة وإزاء منظمة التحرير الفلسطينية صحوة؟ هل تعبئة حزب الله لإيران ونشاطه في مصادرة الدولة اللبنانية وتعطيل عملها عبر ميليشياته المسلحة صحوة؟ هل المدارس الدينية الوهابية في السعودية وباكستان وما شاكلها المنتشرة في جميع أنحاء العالم ودروسها المليئة بالفكر التحريضي المعادي للفكر الآخر والدين الآخر والإنسان الآخر صحوة إسلامية كبرى؟ هل اضطهاد شعب دار فور وممارسة التمييز العنصري في السودان صحوة إسلامية كبرى من جانب النخبة الحاكمة؟

إن هذه الحركات والدول أعادت الدول العربية إلى الوراء لعقود كثيرة. نحن في هذا الكتاب أمام طمس الحقائق التاريخية والواقعية، نحن أمام علاقة غير سليمة ومسيئة بين الحكام المسلمين وأتباع الديانات الأخرى في الدول العربية والإسلامية عموماً، أمام تمييز ديني ومذهبي شرس.. وهنا الحديث لا يمس الدول العربية بل الدول الإسلامية كلها. أورد أمثلة كثيرة على ذلك: الموقف من القبطيين في مصر، الموقف من البهائيين في إيران، الموقف من الصابئة المندائية والإيزيدية في العراق على سبيل المثال لا الحصر.

لا يمكن لثقافتنا أن تتطور وتغني ما لم تحتك وتتفاعل وتتلاقح وتتبادل المعارف والخبر مع الثقافات

الأخرى. ومن هنا نشأت الترجمة ونشأ النشر الدولي الذي ساهم في نشر الثقافات المختلفة والمعارف والخبر وأغنى الثقافة والحضارة البشرية. فألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة وكتابات ابن سينا وابن رشد والفارابي وعشرات غيرهم ترجمت إلى الكثير من اللغات الأوروبية، وجرى العكس أيضاً. ومن هنا نشأت أيضاً حركة تبادل الوفود والفرق الثقافية الشعرية والمسرحية والموسيقية - الغنائية والرقص والعلوم لأنها مساهمة فعلية في هذا التعارف والتلاقح المثمر. يسمى السيد شاويش ثقافتنا بالـ "هجينة"، جنني يا سيدي بثقافة "نقية" في هذا العالم الكبير. هل الثقافة الصينية هجينة أم نقية؟ والنبي محمد بن عبد الله قال في حينها "أطلب العلم ولو في الصين"؟ هل الثقافة الأمريكية نقية أم هجينة؟ وهل الثقافات الأوروبية هجينة أم نقية؟ التمييز لا يتم على أساس النقاوة والهجينية، بل على أساس الإجابة عن الأسئلة التالية: هل التلاقح الثقافي مفيد أم غير مفيد؟ هل هذه المسألة الثقافية المأخوذة من ثقافة أخرى تنفع شعوبنا العربية وتساهم في تطويره أم لا؟ هل نركض وراء القشور ونأخذها أم نأخذ اللب الذي يغني ثقافتنا؟ هنا المسألة وليست في مكان آخر يندفع إليه السيد شاويش بهاجس إسلامي يخشى من جميع الثقافات على الثقافة العربية "النقية جداً! إن ثقافتنا العربية أعطت الكثير للثقافات الأخرى و ومن حقها أن تأخذ منها دون أن تفقد هويتها، فمن يخشى على هويته، لا هوية له أصلاً!

وفي هذا الإطار يكتب عن الهوية الثقافية والخشية عليها ويحاول بحثها فكرياً وممارسة في مقال عن الهوية. وفيها يرتكب الأخ الفاضل محمد شاويش أكبر الأخطاء، كما يرتكبها أكثر الكتاب المغالين والمتطرفين من المسلمين ومن القوميين اليمينيين، حين يبحث في نقاوة الهوية الثقافية العربية والإسلامية. فهؤلاء يخشون اضمحلال الهوية الثقافية العربية - الإسلامية. ولكن السؤال هو: هل يمكن أن تضمحل ثقافة وهوية ثقافية قابلة وقادرة على الحياة والتطور وساهمت في إغناء البشرية والثقافة الإنسانية في الكثير من الأعمال الإبداعية في مختلف مجالات الثقافة المتعددة، ومنها الأدب، شعراً وقصة وحكايات وأساطير، والموسيقى والغناء والرقص، والرسم والمسرح، وكذلك في العلوم والفلسفة والطب والكيمياء والفلك؟ ولكن هل من المعقول أن نقصر الثقافة العربية على الجانب الإسلامي منها؟ إلم تتطور الثقافة العربية عبر الجماعات اليهودية والمسيحية والصابئة المندائية وغيرها من الأديان؟ هل هي هوية ثقافية عربية إسلامية أم هي متنوعة حقاً ومتلاقحة أيضاً؟ إن الطريقة التي طرح بها الأخ موضوعته تعبر عن مصادرة وإلغاء لدور المسلمين من غير العرب في الثقافة العربية والهوية العربية الثقافية. هل تشكل المسيحية جزءاً من الهوية الثقافية الإسلامية، أم أنها جزء من الهوية الثقافية العربية وذات مسحة مسيحية أو يهودية أو صابئية مندائية أو أفريقية غير إسلامية .. الخ. والسيد شاويش يؤكد أن الثقافة الإسلامية هي سنية، في حين كان الأفضل له أن يسميها إسلامية وفيها فقه متعدد التحليل والتفسير والتأويل ومتلاقح أيضاً.

وردت الجملة التالية في كتابه الموسوم "البيان التأسيلي": "نحن في الاتجاه التأسيلي ننطلق إذن من هذه الهوية، نريد لها أن تبقى متميزة ونقف بالمرصاد لمن يريد أن يذوّب هذه الهوية وهذه المهمة نراها تهم الجميع..." ص 30/29. هذا التهديد طائش لا يخدم أحداً، كما أنه لا ولن يخيف أحداً، إذ ليس هناك من يريد أن يصفى هذه الثقافة وينهي دورها المتميز، ولكن يفترض أن نرفض أيضاً تحنيط ثقافتنا وهويتنا الثقافية وشرنقتها ووضعها في متحف للتاريخ بدلاً من جعلها تتفاعل وتتلاقح مع الهويات الأخرى، تؤثر وتتأثر، وتبقى محتفظة بجوهرها الإنساني التقدمي. هذا الهوس وهذا التهديد هو من طبيعة السلفيين الذين لا يرون في التجديد والتحديث إلا تهديداً للثقافة العربية ولهيتها الإسلامية. ويبدو واضحاً أن كل القوميين اليمينيين والمسلمين المتشددین مصابون بمثل هذا الهوس والهاجس. من المسائل التي تواجهنا في فكر هذا الكتاب أن الكاتب غير قادر على التمييز بين التخلف والتقدم، بين ما تعانية شعوبنا من تخلف وجهل وبؤس وفاقة في العلم والتقنيات والبحث العلمي و وأن علماء العرب والمسلمين يهربون على بلدان أخرى في الغرب، وبين تقدم الغرب في هذا المجال، بين مستويين حضاريين تقوم بينهما فجوة هائلة يصعب تجاوزها لسنوات طويلة قادمة، ومع ذلك فهو يريدنا أن نعوض في الفجوة ونوسعها أكثر فأكثر، فهو مأخوذ بأن "الإسلام هو الحل"، وهذا من حقه، ولكن عليه أن لا يحاول فرضه على الجميع ويهدد الجميع بالويل والثبور في حالة رفض رأيه وفي فهمه للهوية الثقافية وتنوعها. كم كنت أتمنى عليه أن يقرأ كتاب أمين المعلوف الموسوم "الهويات القاتلة" ليدرك في أي موقع يريد الرجل أن يدفنا إليه والعيش في ظلمات الماضي البعيد.

نسى اكاتب أن في ثقافتنا العربية والإسلامية الكثير مما هو بائس وخائب يفترض رفضه، ومنه الموقف من الاستبداد ومن الحاكم المستبد، والموقف من حقوق الإنسان، وبشكل خاص الموقف من حقوق المرأة، والموقف من أتباع الديانات الأخرى وفرض الذمة عليهم فرضاً وكأنهم من المواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة. نسى الرجل التعذيب والظلم والجور الذي تعرض له الإنسان في الدولة الإسلامية على امتداد تاريخ الدولة الإسلامية. كم أتمنى عليه أن يعود إلى كتاب موسوعة العذاب للسيد عبود الشالجي وهو في سبعة أجزاء ليعرف طبيعة الثقافة العربية في مجال الاستبداد والقسوة والتعذيب (الشالجي، عبود. موسوعة العذاب. الدار العربية للموسوعات. بيروت. بدون تاريخ النشر)، وكتاب الاستبداد والقسوة في العراق (حبيب، كاظم د. الاستبداد والقسوة في العراق. مؤسسة حمدي للطباعة والنشر. السليمانية. ط 1. 2005)، وكتاب "تاريخ العنف الدموي في العراق (ياسين، باقر. تاريخ العنف الدموي في العراق. دار الكنوز الأدبية. بيروت. ط 1. 1999).

يتحدث الكاتب عن المساواة إزاء أتباع الديانات الأخرى في العالم العربي والإسلامي وينسى سياسة الضم والإلحاق والاحتواء والتمييز. كم كنت أتمنى عليه أن يعود إلى كتاب الدكتور عبد العزيز الدوري حول القرن العاشر الميلادي والرابع الهجري ليري كيف كان التمييز إزاء اليهود والمسيحيين وغيرهم (الدوري،

عبد العزيز د. تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ط3. 1995).

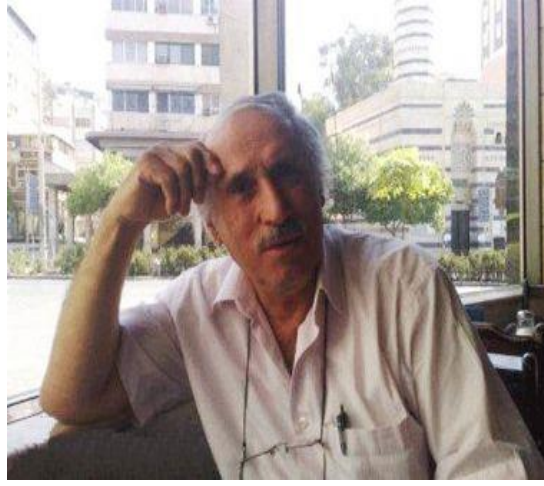
اشعر بالحزن لهذا الرجل إذ أني به وكأنه يستقي أفكاره من فكر القرون الوسطى، كما عبر عن ذلك أحد القراء. في الكتاب الكثير مما يستحق النقد، ولكن أكتفي بهذا القدر.

د. كاظم حبيب 2008/6/32

قراءة في كتاب تاريخ العنف الدموي في العراق" للكاتب باقر ياسين

الأساس المادي للقسوة والتعذيب والتمييز في المجتمع

"



أصدر بعض الكتاب العراقيين وفي فترات مختلفة عدداً من الكتب المهمة والقيمة التي تبحث في موضوع القسوة والتعذيب والعنف والاستبداد في العراق أو في المجتمع الإسلامي عموماً والعراق خصوصاً. وإذا كان بعضهم استعرض بشكل موسع ومتعدد الجوانب مختلف أنواع القسوة والتعذيب والاستبداد ومعاناة الإنسان، وبذل جهداً كبيراً في جمع وتصنيف وتدقيق الكثير من المعلومات المتناثرة في عدد كبير من الكتب خلال القرون المنصرمة، كما في الكتاب الطليعي المتميز الذي أصدره الباحث الأستاذ الراحل السيد عبود الشالجي الموسوم "موسوعة العذاب" بأجزائه السبعة<sup>43</sup>، فإن كتاباً آخرين سعوا ضمن محاولة جادة إلى استعراض (أو) وتحليل العوامل الكامنة وراء بروز

43 الشالجي، عبود. موسوعة العذاب. مؤلف في سبعة أجزاء. الدار العربية للموسوعات. بيروت. لندن. بدون تاريخ.



ظاهرة القسوة والتعذيب والاختيالي في الإسلام، كما في أبحاث الكاتب الراحل الأستاذ هادي العلوي<sup>44</sup>، أو كتاب السيد باقر ياسين الموسوم "تاريخ العنف الدموي في العراق"<sup>45</sup>، أو "ثقافة العنف في العراق" للكاتب سلام عبود<sup>46</sup>، أو كراس "تشريح الاستبداد: النظام العراقي نموذجاً" للكاتب إسماعيل شاکر الرفاعي<sup>47</sup>، أو في كتابي السيد كنعان مكية الموسومين "الصمت والقسوة" و"جمهورية الرعب"، إضافة إلى أبحاث الأستاذ الدكتور علي الوردی الخاصة بالمجتمع العراقي، ومنها دراسته لـ "شخصية الفرد العراقي"، وكتاب "وعاظ السلاطين"، والمجلدات الستة مع الملحق الغزير بالمعلومات والتحليلات والموسوم "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث". كما صدرت مجموعة أخرى من الكتب المهمة الأخرى التي سجلت ممارسات الإرهاب والقمع في العراق قبل وبعد ثورة تموز عام 1958 التي في مقدورها إنارة الطريق للبحث في هذا الموضوع المهم. ولا شك في أن سقوط النظام الاستبدادي سيوفر إمكانية كبيرة لدراسة تفصيلية عن حالات وأساليب القسوة التي مورست في العقود الأخيرة في العراق من الناحيتين النظرية والعملية. ويفترض هنا أن نستعين، لفهم الحالة، بدراسة أوضاع الجلادين قبل تحولهم إلى جلادين وبعد سقوط النظام والتحولات الجارية في سلوكهم، ثم أوضاع الضحايا قبل وأثناء وبعد التعرض للقسوة بمختلف أشكالها وسبل

---

44 العلوي، هادي. فصول من تاريخ الإسلام السياسي. دفاقر النهج. مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي. نيقوسيا. قبرص. 1995.

45 ياسين، باقر. تاريخ العنف الدموي في العراق. دار الكنوز الأدبية. بيروت. ط 1. 1999.

تشكل دراسة السيد باقر ياسين محاولة جادة للبحث في أصل العنف الدموي في العراق، وهي تثير الكثير من الأسئلة التي يفترض فينا التحري عن إجابات لها. ولدي ثلاث ملاحظات أساسية حول الكتاب، والتي سأتناول بعضها في متن البحث مباشرة، وهي: (1) إن البحث تاريخي ومعاصر في آن واحد، فهو إلى جانب بحثه في تاريخ العنف، يتحرى عن الوقائع والدوافع والحلول أيضاً، كما جاء في عنوان الكتاب. ومع أن الكتاب مكون من 435 صفحة، فإن ما منح للفترة الواقعة بين 1958-1968 لا يزيد عن عشر صفحات فقط لا تتضمن التجربة التي سعى الباحث إلى تجسيدها في دراسته لتاريخ العنف في العراق، كما لم يتطرق إلى جوهر الإشكالية في هذا الصدد؛ (2) تجنب الباحث، علماً بأن البحث قد أنجز في عام 1999 أن يدرس الفترة التي أعقبت انقلاب 1968 حتى الوقت الحاضر، وهي من أكثر فترات العراق ظلامية وظلماً وعدوانية بحق الشعب العراقي؛ (3) ويدا لي أن الباحث حاول أن يعزي تلك الظواهر إلى طبيعة الشعب العراقي، وهي إشكالية سنحاول معالجتها في متن البحث مباشرة. ويمكن أن يكون النقص في معالجة الفترة 1958 وما بعدها ناشئ عن جانب منهجي، أي أن البحث يعالج تاريخ العنف في العراق، ولا يبحث في الحاضر. وإذا كان الأمر هكذا، فمن المفيد أن يواصل هذا البحث ويعالج الفترة التي أعقبت ثورة تموز عام 1958 مروراً بانقلاب شباط عام 1963 وتشيرين الثاني عام 1963 وانقلاب عام 1968 حتى الوقت الحاضر. خاصة وأن الكاتب على علم بخبايا الفترة الواقعة بين 158-1968 بشكل خاص وما بعدها بشكل عام (ك. حبيب)

46 عبود، سلام. ثقافة العنف في العراق. منشورات الجمل. كولون. ألمانيا. 2002.

47 الرفاعي، إسماعيل شاکر. تشريح الاستبداد: النظام العراقي نموذجاً. دار الكنوز الأدبية. بيروت. 1999.

تعامل المجتمع معهم وسير حياتهم والأحلام أو الكوابيس التي يتعرضون لها، ومدى فهمهم للعوامل الكامنة وراء تعرضهم لضروب من ممارسات القسوة في ظل دولة استبدادية مطلقة.

يعتبر كتاب السيد باقر ياسين محاولة جادة وجهداً طيباً لاستعراض واقع القسوة وعمليات التعذيب على امتداد فترة زمنية طويلة من تاريخ العراق من جهة، ودراسة العوامل الكامنة وراء بروز هذه الظاهرة في العراق من جهة أخرى، كما أجرى مقارنة للتناقض القائم أو للمفارقة الفعلية بين شدة وسعة وعمق وشراسة العنف وديمومته في العراق من جانب، والحضارة الشامخة التي بناها شعب العراق على مر العصور، وخاصة في العصر البابلي، من جانب آخر، فكتب يقول: "إننا لا نريد ولا نرضى الإساءة لبلادنا العريقة - وادي الرافدين الخالد - لكننا نسعى بالتأكيد للتفتيش عن مجموع الدوافع الغريبة التي تقف وراء الأنماط من السلوك المتصف بالعنف الفائق والقسوة البالغة والتطرف والشدة والقهر والميل شبه الدائم نحو سفك الدماء والأعمال اللاإنسانية والنزوع العدواني في فرض الموت القسري على الإنسان في هذه البلاد منذ أكثر من خمسة آلاف سنة والذي ما زالت فصوله المخزية تدور دون توقف حتى يومنا هذا...".<sup>48</sup> ثم يواصل قوله مؤكداً ما يلي: "إننا لا نريد أن نبرهن هنا على وجود العنف الدموي والقسوة في حياة العراق ومسيرته التاريخية فحسب، بل نريد البرهنة إضافة إلى ذلك على وجود التطرف والمبالغة في تنفيذ العنف والقسوة والدموية، وسنحاول أن نثبت ذلك بالشواهد والوقائع والأحداث المستمدة من التاريخ العراقي لتسليط الضوء على هذا الموضوع وتشخيص بعض الجوانب المتميزة في طبيعة السلوك الاجتماعي لسكان هذه البلاد /الحكام والرعية/ ورصد مظاهر العنف والدموية كنزعة سيكولوجية ثابتة في حياة المجتمع العراقي"<sup>49</sup>. ثم أورد الكاتب سلسلة مرعبة من أحداث العنف والقسوة التي عاشها العراق على امتداد أكثر من خمسة آلاف سنة، إلى جانب العلوم والتقنيات التي اكتشفها أو اخترعها وساهم بها العراق في بناء حضارة الإنسان. ويورد كثرة من الشواهد على ذلك. ثم يكتب محلاً ظاهرة العنف والقسوة على النحو الآتي: "إن التحليل المنطقي لهذه الظاهرة والأكثر انطباقاً على الواقع هو ما ينسجم مع منهج بحثنا ووجهة نظرنا عن شيوع العنف الدموي في العراق والتصاقه بتاريخ هذه البلاد على نحو استثنائي غير طبيعي، وإن مناخ العنف السائد في العراق باعتباره الميزة المستديمة لطبائع الأقوام والقبائل والناس إضافة إلى شيوع السلوك المتسم بالقسوة والشراسة والنفور والطباع الحادة وسيادة الأعراف البدوية والتقاليد القبلية الصارمة ذات النزوع الدائم للتمرد والثأر والعنف والتحدي الدموي والذاتية وقوة الشكيمة والعناد لدى سكان البلاد ربما كانت هي العوامل والأسباب

48 ياسين، باقر. تاريخ العنف الدموي في العراق-الوقائع - الدوافع - الحلول. دار الكنوز الأدبية. بيروت ط 1.

1999. ص 17/16.

49 نفس المصدر السابق. ص 19.

التي دفعت خالد 50 لتلك التصرفات الدموية الشرسة والتشدد البالغ في العنف والإجراءات المتصرفة بالقسوة والصرامة مع أهل العراق كي يستطيع فرض سيطرته على الموقف"51. ثم يقارن بين ما جرى في العراق وما جرى في بلاد الشام فيقول: "بينما كان غياب تلك العوامل والأسباب وانتفاء وجودها في الشام ربما هو السبب الذي أضفى على شخصية خالد الصارمة تلك الأبعاد الإنسانية من الليونة والمرونة والتسامح والصبغة السلمية التفاوضية التي اتسم بها سلوكه ومواقفه وتصرفاته خلال تنفيذ مهماته العسكرية في بلاد الشام"52. ثم يواصل قوله مستنتجاً ما يلي: "أما إذا لم تكن تلك الأسباب هي الباعث لهذه الظاهرة فإن التفسير الوحيد لذلك التباين في حجم المعارك واتساعها ودمويتها بين العراق والشام هو أن يكون العنف الدموي القدر الإلزامي الذي يتوجب أن يلازم بلاد الرافدين وسكانها في كل الحقب والعصور"53. وفي فقرة "تطبع المجتمع العراقي بالجدية والتذمر والحزن الدائم" يخلص باقر ياسين إلى القول: "كان من نتائج وانعكاسات تطبيق منهج العنف الدموي لفترات زمنية طويلة في تاريخ العراق، شيوع وانتشار بعض الطباع والعادات والسجايا الأخلاقية والسلوكية التي أصبحت، بمرور الزمن، جزءاً من معالم وسمات المجتمع العراقي بعد أن طبعت بطابعها سلوك الفرد العراقي وحددت بدرجة كبيرة تصرفاته وميوله الشخصية بصورة عامة"54. والطباع هنا لا تعني التقاليد والعادات، إذ أنه يشير إلى العادات بعد الطباع مباشرة. فهل يعني في ذلك أنها غريزة من غرائز الإنسان أي أنها جزء من البنية البيولوجية للإنسان العراقي؟ وهل العنف هو حقاً من طبيعة الإنسان عموماً والعراقي خصوصاً، أم أن العنف والقسوة من جهة، والسلم والرحمة أو الرأفة من جهة أخرى، هما من السلوكيات المكتسبة عند الإنسان؟ ومما رفع من درجة الشك في هذا التصور محاولة السيد باقر ياسين اعتبار تلك النزعة وكأنها سيكولوجية ثابتة وموروثة وغير متغيرة في حياة المجتمع العراقي. وفي مكان آخر من الكتاب يقول السيد باقر ياسين ما يلي في معرض مناقشته لفكرة التبدل السريع في السلوكية والمزاج لدى الناس في العراق: "لقد أورد الباحث ستيفن لونكريج أن سبب هذا التغيير الحاد

50 المقصود هنا القائد العسكري العربي خالد بن الوليد.

51 ياسين، باقر. تاريخ العنف الدموي في العراق-الوقائع - الدوافع - الحلول. دار الكنوز الأدبية. بيروت ط 1. 1999. ص 94. يقصد هنا خالد بن الوليد عند فتحه العراق والجزائر التي ارتكبت بحق الأسرى من العراقيين والفرس في دفاعهم عن وطنهم ضد الفاتحين الجدد، لأنهم دافعوا عن وطنهم بحرارة ولم يستسلموا بسهولة. سنبحث في هذه النقطة لاحقاً.

52 نفس المصدر السابق. ص 94.

53 نفس المصدر السابق. ص 95/94.

54 نفس المصدر السابق. ص 411.

والسريع في موقف الأهالي في بغداد من قاسم باشا هو "العنف الخالي من الحكمة الذي أبداه قاسم .. وسوء سلوك أحلافه الشمريين العقيل"55. غير أن ذلك السبب لا يبدو كافياً لإحداث مثل هذا التبدل الحاسم والمصيري في موقف الناس في بغداد بعد بضعة أيام من استقبالهم لقاسم باشا .. ذلك الاستقبال البهيج الحافل بمظاهر الفرح والتأييد والإجلال. إن السبب الذي يورده الباحث لونغريك لا يمكنه أن ينفي شكوك الباحث المتتبع أو يبعد تفكيره عن الأسباب والمعاني المتعلقة بالجانب السلوكي والنفسي (السيكولوجي) للفرد العراقي ونزوعه الفطري في هذا المسلك خصوصاً إذا وضع في الاعتبار الأرضية التاريخية الغنية بالشواهد والأمثلة والدلائل والأحداث المماثلة التي يحفل بها التاريخ العراقي منذ قرون عديدة"56. إن مجرى البحث والمقطع الأخير بشكل خاص حيث يشير إلى الجانب الفطري في السلوك العراقي يؤكد للمتتبع مسألتين في آن، فهي مرة ظاهرة ملازمة لا باعتبارها مكتسبة بل فطرية، ومرة أخرى باعتبارها ظاهرة مكتسبة عبر السلوكية العامة للحكام والمجتمع العراقي في آن. وفي موقع آخر من الكتاب يذكر الكاتب في الفقرة الأولى من الفصل الأول وتحت عنوان: بلاد الرافدين: تاريخ عريق يبدأ بالعنف التصادمي، يقول الباحث ما يلي: "ليس غريباً أن يبدو التاريخ العراقي أمامنا غارقاً بأحداث العنف الدموي عندما نكتشف أن بدايات هذا التاريخ تتحدث للبشرية منذ بدء الخليقة عن قصص الصراع المتواصل القائم على العنف التصادمي بين الإرادات المتناقضة للآلهة المتعددة الأسماء التي عبدتها وخضعت لها الأقوام والحضارات التي قامت في وادي الرافدين منذ الألف الرابع قبل الميلاد، تلك القصص التي أبدعتها وصاغت التجربة الأولى للعقل البشري والمتمثلة بالأساطير الملحمية لشعوب سومر وبابل وآشور"57. ولكن علينا أن لا ننسى بأن تاريخ العراق أو أن وجود الإنسان في العراق قد سبق هذا التاريخ بآلاف كثيرة أخرى من السنين، إذ لم يكن الوضع فيه على شاكلة العهد السومري أو حتى على شاكلة سكان تل العبيد قبل ذلك. إذ أن هاتين الحضارتين متقدمتان كثيراً بالقياس إلى حضارات أخرى في العراق سبقت حضارة تل العبيد وحضارة سومر. فالتنقيبات في المناطق المجاورة أو تلك التي أجريت في كردستان وشمال العراق عموماً تؤكد وجود الإنسان منذ آلاف السنين كما تشير إلى حياة وعلاقات تختلف عن حياة وعلاقات العهد السومري، وبالتالي فإن تاريخ سكان وادي

55 لاحظ هما أن الكاتب لونغريك يطرح فكرة مفادها أن العنف يمكن أن يكون حكيماً وعنفاً آخر يمكن أن يكون غير حكيم، وهو تعبير عن التفكير الذي يؤيد العنف على أن يستخدم بحكمة، وهي فكرة مرفوضة من جانبي إن أن العنف بكل أشكاله مرفوضاً ويقود إلى اضطهاد وعنف مضاد في حالات غير قليلة. خط التشديد مني. ك. حبيب.

56 ياسين، باقر. تاريخ العنف الدموي في العراق-الوقائع - الدوافع - الحلول. دار الكنوز الأدبية. بيروت ط 1. 1999. ص 242.

57 نفس المصدر السابق. ص 29.

الرافدين هو أقدم بكثير من العهد السومري، أي أنه لم يبدأ بالعنف الذي تميزت به عهود سومر وبابل وآشور، وهي تعبر عن حضارة جديدة تحققت في الثورة الثانية عملياً، أي حضارة دويلات المدن التي تختلف إلى حدود كبيرة عن حضارة عهد الصيد وجمع الثمار وحضارة الرعي والزراعة. إذ أن الحضارة الأولى وجزء مهماً من الحضارة الثانية، رغم تشابك الأخيرة مع حضارة دويلات المدن والدولة المركزية فيما بعد، تميزتا بعلاقات وسلوكية وسمات اجتماعية تختلف عن العلاقات والسلوكية الاجتماعية التي تشكلت في المدن ودويلات المدن في الحضارة السومرية والبابلية والآشورية والكلدية، باعتبارها حضارة ارتبطت بوجود دولة وتقسيم عمل اجتماعي وتملك خاص وفائض إنتاج وتنامي دور الدين والحياة المؤسسية للمجتمع والتي اعتمدت على وضع وتنفيذ القوانين والشرائع المختلفة.

والآن، كيف نفهم مضمون مثل هذه الموضوعات والآراء وبعض الأحكام التي تتضمنها إزاء الفرد في العراق، وبالتالي إزاء المجتمع أو الشعب في العراق؟ وما مقدار الحقيقة التي تحملها هذه الآراء والأحكام؟ وكيف يفترض أن نتعامل مع الحكم الرئيسي الشائع والقائل: الفرد العراقي عنيف ومتطرف بالطبع، أو أنه يحمل جرثومة العنف منذ الولادة؟ وما هي العوامل التي تسببت في انتشار مثل هذه المقولات؟ وكيف يمكن تجاوز هذا الأحكام؟ أو كيف يمكن التعامل معها؟ وكيف يمكن الخلاص منها؟

من أجل أن تكون الإجابة واضحة وموضوعية لا بد لنا من متابعة بعض النتائج الأساسية التي توصلت إليها الدراسات التي أنجزت في مجال الأنثروبولوجيا حول الكثير من الجماعات البشرية التي تسمى بدائية لمعرفة مدى وجود جملة من ظواهر العنف والقسوة والعدوانية في السلوك الإنساني عند تلك الجماعات، وتلك الدراسات الاجتماعية التي استفادت منها ل طرح استنتاجها بهذا الصدد.

كانت هناك مجموعة من الباحثين تؤكد في دراساتها "أن الإنسان ورث من أسلافه الحيوانات التي تطور عنها تلك الظواهر الغريزية، وهي بالتالي تشكل جزء من طبيعة الإنسان تبدأ بولادته وترافقه طيلة حياته، أو أن القسوة والهدم هما جزء من طبيعة كثرة من البشر والتي لا يمكن تغييرها. فقد كتب الباحث وشبورن Washburn بهذا الصدد يقول: يمتلك الإنسان نفسية أكلية اللحوم. وإذا كان من السهل تعليم الإنسان على القتل، فأن من الصعب تطوير تلك العادات التي تتجنب القتل لديه. كثرة من البشر تجد لذة في رؤية إنسان يتعذب، أو أنها تفرح عند قتل الحيوانات. فالتأديب والتعذيب على رؤوس الأشهاد يمارس بشكل اعتيادي في الكثير من الثقافات" 58. ويرى وشبورن

أن القتل والقسوة هما مظهران مرتبطان بنفسية أو ناشئان عن نفسية الصياد. إذ أنه يكتب قائلاً: "يشعر الإنسان بالفرح عندما يصطاد حيوانات أخرى. وإذا لم تجر عملية تربية متأنية لتخليصه من هذه الغريزة الطبيعية عند الإنسان، سيجد الإنسان سعادة في الصيد والقتل. في مجتمعات بمثل هذه الثقافات يجعل المرء من التعذيب والمعاناة عرضاً عاماً للمتعة الشعبية"<sup>59</sup>. ويرجع هذا الأمر إلى ثلاثة عوامل هي: الصيد بمثابة رياضة عند الصياد (القتل بمثابة رياضة صيد)، وسرعة تعلم وممارسة الأطفال لألعاب الحرب، والموقف من الغريب عن هذه الجماعة البشرية أو تلك<sup>60</sup>. ولا تصمد العوامل التي يعرضها وشبورن لتأكيد موضوعته عن السعادة في القتل عند الصياد في تلك الحقب التي كان الإنسان البدائي يعتمد فيها في التخلص من الحيوانات التي تؤذي مزروعاته أو للحصول على غذائه اليومي أما النقاش العلمي. فالطفل مثلاً يمكن أن يتعلم كل شيء بسهولة كبيرة، ويجد لذة في التعلم وحب الاستطلاع، رغم احتمال بروز اختلافات بين رغبات هذا الطفل أو ذاك إزاء مختلف الألعاب. إذ أن تعليم ألعاب الحرب للأطفال يمكن أن تقابلها تعليم مسائل أخرى ذات وجهة رياضية وسلمية وتكون محبوبة ومقبولة عند الأطفال أيضاً. ولم يكن موقف الإنسان البدائي بالضرورة عدوانياً إزاء الغريب من الناس، إذ أن جماعات بشرية عاشت جنباً إلى جنب وبسلام، رغم تباينهما من حيث المجموعة البشرية التي يعودون لها، وهو ما أمكن التدليل عليه عند الإنسان البدائي. ولكن هناك البعض الذي لا يرتاح للغريب، وهي إشكالية مرتبطة بتجربة الإنسان ذاته وفق الظروف والشروط الملموسة التي كان يعيش في ظلها.

وتوجد في الوقت نفسه مجموعة من الآراء الأخرى التي ترى بأن تلك الظواهر ناتجة عن الشروط التي يعيش فيها الإنسان والظروف الملموسة التي يمر بها والتي تساهم في تكوين سلوكه وعاداته وتقاليده أو مجمل شخصيته. وهي التي دلل عليها أريش فروم مستنداً في ذلك إلى عدد من البحوث والباحثين في القضايا الأنثروبولوجية، مثل لوغلين W. S. Laughlin، ومومفورد Erich، Mumford، L. فالدراسات الأنثروبولوجية تؤكد موضوعاً أساسية سجلها لنا أريك فروم Erich Fromm في كتابه المعروف عن نظرية العدوانية، حين كتب يقول:

---

Destruktivitaet und ihre jeweiligen Voraussetzungen. Band VII. Deutsche Taschenbuch

Verlag. Muenchen. 1. Auflage. 1989. S. 116.

59 نفس المصدر السابق. ص 116.

60 نفس المصدر السابق. ص 116-120.

"لا يمكن شرح روح الهدم والقسوة عند الإنسان على أنها من مخلفات ميراثه الحيواني أو من غريزة الهدم، بل ينبغي إرجاعها إلى تلك العوامل التي يتميز بها الإنسان عن سلفه الحيوان"61. ثم يواصل قوله "إن المشكلة تكمن في أن التحري يفترض أن يتجه نحو: إلى أي مدى وإلى أي درجة تكون مسؤولية الشروط الملموسة التي يعيش فيها الإنسان عن نوعية وشدة رغبة الإنسان واندفاعه إلى القتل والتعذيب"62.

إن استخلاص هذه الموضوعية الأساسية جاءت بعد دراسات واسعة أجريت على عدد كبير من الجماعات البشرية (30 جماعة) التي دعيت بالبدائية والتي تشبه في أسلوب حياتها ومعيشتها وظروف نشاطها الإنساني حياة الإنسان الأول الذي كان يعيش على الصيد وجمع الثمار وفي مرحلة التحول النسبي صوب الزراعة والرعي. وخلص البحث بتلك الموضوعية التي أشرنا إليها في أعلاه.

ولكنه لاحظ أيضاً بأن تغيرات طرأت على سلوكية القبائل عندما بدأت تتحول من حياة الريف إلى حياة المدن ودخول عوامل جديدة على حياة وعلاقات الناس في ما بينهم. وكان هذا التحول بمثابة ثورة في المجتمع الإنساني، والذي يمكن للقارئ أن يتابع ذلك في العديد من المجتمعات، ومنها المجتمعات البابلية حيث اتخذت العلاقات بين الناس صيغاً جديدة ونظمت بقواعد وأعراف وقوانين ملزمة وعقوبات رادعة. ولكن هذا التحول كان بدوره بطيئاً والتغير الذي حصل في القوانين ومدى قسوتها وشدتها يشير إلى ذلك بوضوح بالارتباط مع اكتشافات الإنسان الجديدة، ومنها تعرفه على إمكانية استغلال الإنسان للإنسان اقتصادياً، أي من خلال استخدام الإنسان كأداة اقتصادية، حيث يمكن تحويل أسرى الحرب أو العبيد إلى مثل هذه الأدوات63.

لقد عاشت المجتمعات البشرية حقبةً طويلة كان الصراع فيها يدور بين الإنسان والطبيعة في محاولة منه إلى تجنب المخاطر المرتبطة بعواقب فعل قوانين الطبيعة الموضوعية دون وعي منه بها من جهة، والاستفادة مما في الطبيعة من موارد لصالحه من جهة ثانية. وكان في هذا الصراع نوع من التناغم والانسجام بين الإنسان والطبيعة أيضاً، ولم يكن تخريب الطبيعة من قبل الإنسان كما هو عليه الآن. وكان هذا الصراع هو الدافع أيضاً لتطور حياة الإنسان. إلا أن هذا التطور كان بطيئاً وأستغرق عشرات آلاف السنين، وهي حالة مرتبطة بالقدرات الفكرية والعملية للإنسان

---

61 Fromm, Erich. Gesamtausgabe. Aggressionstheorie. Dritte Teil. Die verschiedenen Arten der Aggression und Destruktivitaet und ihre jeweiligen Voraussetzungen. Band VII. Deutsche Taschenbuch Verlag. Muenchen. 1. Auflage. 1989. S. 166.

62 نفس المصدر السابق. ص 166.

63 نفس المصدر السابق. ص 145.

حينذاك. وكان الصراع يدور أحياناً كثيرة بين الإنسان والحيوان لا بهدف القسوة والعنف، بل لحاجة الإنسان للغذاء أو لتجنب الموت على أيدي الحيوانات المفترسة، والعكس صحيح أيضاً بالنسبة للحيوانات المفترسة إزاء افتراسها للإنسان أو للحيوانات الأخرى. هكذا كانت حياة الإنسان في فترة الصيد وجمع الثمار أو القوت. وعند الحديث عن المجتمعات البدائية وضعف أو غياب القسوة والعنف عنها، لا يعني هذا بالضرورة عدم وجود مشكلات معينة في تلك المجتمعات وفي ما بين البشر، إذ بدون بروز تلك المشكلات يصعب تطوير الحياة وإغنائها، فالحياة هي التي تدفع بالمشكلات إلى الظهور وتطالب الإنسان بحلها، بما فيها تلك المشكلات في ما بين الناس إزاء الطبيعة وسبل التعامل معها أو مع موارد ومنتجات الطبيعة، والإنسان أحدها طبعاً. فوحدة وصراع الأضداد يعتبر أحد القوانين الموضوعية الأساسية التي تساهم في دفع عملية التطور في المجتمع البشري إلى أمام. ولم يكن هذا القانون الموضوعي غائباً عن الفعل في المجتمعات البدائية، ولكن ليس بالضرورة كان معروفاً لتلك المجتمعات، إذ أنه يفعل دون وعي منا به وبعيداً عن إرادة الإنسان ورغباته أيضاً، ولكنه يصطدم بنتائج أو عواقب فعله. وهكذا يسري ذلك على بقية قوانين الطبيعة وقوانين التطور الاجتماعي التي تفعل في المجتمع، مثل قانون تحول التغيرات والتراكمات الكمية إلى كيفية جديدة. أو قانون سلب السلب ...، إضافة إلى القوانين الاقتصادية الموضوعية الأساسية الفاعلة في كل المجتمعات وأن كانت بمستويات وتأثيرات ونتائج مختلفة.

أما الأستاذ الدكتور الراحل علي الوردي فقد ربط في مقدمة مجموعة دراساته ومؤلفاته الاجتماعية القيمة والأصيلة حول المجتمع العراقي والفرد العراقي بين سلوك الفرد والمجتمع وبين العلاقات الاجتماعية القائمة في هذا المجتمع أو ذاك. فالسلوك والعادات والتقاليد، بما فيها القسوة والعنف أو ازدواج الشخصية، عند الإنسان هي حصيلة تفاعل الماضي بالحاضر. يقول علي الوردي ما يلي:

عند دراستي للمجتمع العراقي - وهو الموضوع الذي أولعت به زمناً غير قصير - أدركت أنني لا أستطيع أن أفهم المجتمع في وضعه الراهن ما لم أفهم الأحداث التي مرت به في عهده الماضية، فكل حدث من تلك الأحداث لا بد أن يكون له شيء من التأثير قليلاً أو كثيراً في سلوك الناس حالياً وفي تفكيرهم<sup>64</sup>. ثم يواصل قوله: "من الممكن تشبيه المجتمع في هذا الشأن بشخصية الإنسان البالغ إذ هي في حاضرها تتأثر بما حدث لها في ماضيها، وهذا التأثير قد يكون لا شعورياً إنما هو موجود على أي حال وهو قد يظهر بمظهر العقدة النفسية التي تدفع الإنسان نحو بعض الأفعال "السخيفة" إذ هو يفعلها مرغماً بتأثير حافز لا إرادي يسيطر عليه. أكاد أعتقد أن المجتمع لا يختلف عن الفرد في هذا، فكثيراً ما تخلق الأحداث الماضية في المجتمع عقدة كالعقدة النفسية

64 الوردي، علي د. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. بغداد. 1974. الجزء الأول. ص 3.



حيث نرى الناس يندفعون ببعض العادات والأفكار الموروثة اندفاعاً لا شعورياً، وقد يؤدي ذلك بهم إلى المهالك بينما هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا". وهو بذلك يتجنب احتمالات التأويل بشأن أصل السلوكيات المختلفة ويؤكد علاقة الترابط بين المظاهر السلبيه في سلوك الفرد بالواقع الاجتماعي القائم وبالموروث الاجتماعي المتراكم في المجتمع. وفي الوقت نفسه يؤكد على أن غياب الديمقراطية عن المجتمع واستمرار الحاكم في حكمه دون مراقبة أو مؤسسات ضابطة لسلوكه تقود إلى الاستبداد حيث كتب، في الفصل الرابع "عيب المدينة الفاضلة" من كتابه الموسوم "مهزلة العقل البشري" رأياً تعميمياً لا يقتصر على العراقيين بل يشمل جميع البشر، يقول: " كل إنسان ميال إلى الاستبداد والظلم حين يترك على دست الحكم منفرداً يحكم كما يشاء"<sup>65</sup>. ويستند في ذلك إلى قول للإمام علي بن أبي طالب حين قال: "من ملك استأثر"<sup>66</sup>. وهو استنتاج صحيح يستند إلى وقائع تاريخية مرت بها جميع الشعوب وما تزال تمر بها حتى الوقت الحاضر، سواء أكان ذلك في البلدان الاشتراكية قبل انهيارها، أم الدول الرأسمالية المتقدمة، ومنها ألمانيا في فترة حكم المستشار الألماني الدكتور هلموت كول، وكذلك البلدان النامية بشكل عام.

ويكتب العالم الراحل الدكتور علي الوردي، نافية الادعاءات القائلة بوراثة جينات الجريمة أو القسوة والعنف عند البشر أو ما شاكل ذلك في مكان آخر، ما يلي: "وجد بعض الباحثين أن المجرمين في بعض البلاد تكثر فيهم دمامة الوجه أو العاهة، فاستنتجوا من ذلك أن ألمعية الدميم يميل بطبعه إلى الإجرام لأنه، على زعمهم، يمثل نكسة بايولوجية نحو الطبيعة الحيوانية الأولى. أن هذا الاستنتاج مغلوط من أساسه. فليس هناك مجرم حدث فيه الميل إلى الإجرام طبيعة. الإجرام اكتسابي في أغلب الأحيان، وسببه اجتماعي. إن الدميم ليس مجرماً بالطبيعة كما يقول بعض المترفين، إنما هو قد وصفه المجتمع منذ طفولته بالإجرام من أجل دمامته المكروهة، فنشأ مجرماً، أي أن المجتمع كره هذا الطفل الدميم وحكم عليه بالسجن لأقل سبب وعامله بخشونة وظلمه وأذاه فأصبح مضطراً على الجريمة سائراً في سبيلها أراد ذلك أم كره"<sup>67</sup>.

وفي مكان آخر من محاضراته التي ألقاها في عام 1951 يقول الدكتور علي الوردي حول شخصية الفرد العراقي ما يلي: "لقد لاحظت بعد دراسة طويلة بأن شخصية الفرد العراقي فيها شيء من الازدواج وأناي وأن كنت غير واثق، كما قلت آنفاً، من نتيجة هذه الدراسة ولكني أجد كثيراً من

65 الوردي، علي د. مهزلة العقل البشري. الطبعة الثانية. دار كوفان. لندن 1994. ص 71.

66 نفس المصدر السابق. ص 71. نقلاً عن: عباس محمود العقاد. عبقرية الإمام علي. ص 191.

67 الوردي، علي حسين د. شخصية الفرد العراقي. منشورات دار ليلي - لندن. 2001. ص 34/35.

القرائن تؤيدني فيما أذهب إليه"68. ويعزي هذه الظاهرة في النفس العراقية إلى ازدواجية القيم في المجتمع العراقي فيقول: "أعود فأقول أن هذه ظاهرة (أي ازدواج شخصية الفرد العراقي. ك. حبيب) موجودة في كل نفس بشرية، ولكنها في النفس العراقية أقوى وأوضح لأن قيم البداوة والزراعة قد ازدوجتا في العراق منذ أقدم العصور ولا تزال تصطرع في أنفسنا حتى اليوم"69. ويرى الدكتور الوردى في نظامي القيم (البداوة والزراعة) ما يلي: "نظام يؤمن بالقوة والبسالة وتسود فيها قيم الإباء والشجاعة والكبرياء وما إلى ذلك من صفات المحارب الفاتح؛ وبجانبه نظام آخر يؤمن بالكدح والصبر ويمارس أداء الضريبة والخضوع والتباكي. إن هذا الصراع الحضاري، أو ما يسمى في علم الانثروبولوجي: (Clash of Cultures)، قد أثر في شخصية الفرد العراقي تأثيراً بليغاً. فالفرد العراقي أصبح مضطراً أن يقتبس نوعين من القيم الاجتماعية، أو يقلد طبقتين من الناس: طبقة البدوي الغالب وطبقة الفلاح المغلوب، فهو تارة يؤمن بالغلبة ويتباهى بها أو يحاول أن يظهر قوته على غيره، وهو تارة أخرى يئن من سوء حظه ويشتكى من ظلم الناس له"70. ويواصل قوله ويورد أمثلة من حياة العراقي اليومية ومن تصرفاته وأغانيه فيقول: "ففي بعض الأحيان تراه يقتل شاربيه ويرفع عقيرته قائلاً (أنا أبو جاسم، والمصطفى لأسقط سبع دول). وتراه في أحيان أخرى يغني مكتئباً: (شيفيد السعي لو نام البخت والحظ ... أنا من أقول آه واتذكر أيامي ... ظلام ما عندكم رحم، ياللي ظلمتوني ... وين المروة، گلبى تجوه..."71.

وكما نرى فإن الرأي الذي يطرحه الدكتور الوردى يختلف من حيث المبدأ عن الرأي الذي يقدمه السيد باقر ياسين، فإذا كان الأول يرى الأمر مرتبطاً بالمجتمع والعلاقات السائدة فيه، أي أنها حالة مكتسبة، يرى الثاني أنها من الطبيعة التي جبل عليها العراق، أو بتعبير أكثر صرامة أنها جزء من الغرائز الموجودة في الإنسان العراقي التي لا يستطيع الإنسان التدخل فيها والتأثير عليها، فهي والحالة هذه حتمية، كما أنه يضيف إلى ذلك ويشير إلى وجود عادات وتقاليد أخرى مكتسبة. وإذا كان الأول مصيباً في رأيه فإن الثاني، وكما أرى مخطئاً في ما توصل إليه بشأن الطباع الموروثة، رغم أنه لا يطرح المسألة بهذه الصراحة التي حاولت إبرازها في ضوء مجمل الكتاب بهدف إزالة الالتباس إن وجد. وينبغي أن لا يفوتنا القول بأن الدكتور الوردى استدرك في قوله مشيراً إلى غالبية حالات الجريمة مكتسبة من المجتمع الذي يعيش فيه الفرد. وسبب هذه الاستدراك هو وجود

68 الوردى، علي د. مصدر سابق. ص 46

69 نفس المصدر السابق. ص 52.

70 نفس المصدر السابق. ص 51/50.

71 نفس المصدر السابق. ص 51.

بعض الحالات المرضية النفسية أو الاختلالات العصبية التي تقود إلى ارتكاب هذه الجريمة أو تلك. وهو استدراك صحيح.

ويبدو لي مفيداً تسجيل جملة من الحقائق التي لم تغب عن بال الدكتور الوردى عندما كتب محاضراته أو أبحاثه اللاحقة بشأن الفرد والمجتمع العراقي، ولا عن بال السيد باقر ياسين عندما كتب عن تاريخ العنف الدموي في العراق، ومنها:

• ليست ظاهرة العنف والقسوة حكراً على، أو حصراً بالفرد أو المجتمع العراقي، بل هي كانت وما تزال موجودة في كل المجتمعات دون استثناء، وبشكل خاص منذ أن برزت في هذه المجتمعات الملكية الخاصة وعمليات تقسيم العمل الاجتماعي ونمو الإنتاج وتطور فكر الإنسان وخلقها واختراعه واستخدامه للأديان المختلفة واستعمال دماغه أكثر فأكثر في ما يدور حوله وما يواجهه من أحداث وظواهر.

• ولم يتم انتقال الجماعات البشرية من موقع إلى آخر في العهود السالفة، إلا بسبب شحة الأمطار أو المياه في المنطقة التي هم فيها وصعوبة الحصول على المواد الغذائية التي هم بحاجة ماسة لها. وتبدو الحالة أكثر ملموسة عند هجرة هذه الجماعة أو تلك من موقع إلى آخر حيث يتوفر فيه الماء ويزداد الكلاً فتصطدم بالجماعات القاطنة فيها وتحاول إزاحتها أو التقاسم معها، في حين تحاول الأخرى الدفاع عن مواقعها وعن الغذاء المتوفر فيها. وهنا يفترض أن ندرس هجرة سكان البادية في منطقة الشرق الأوسط إلى وادي الرافدين والصراعات التي نشبت حولها ودويلات المدن التي أقيمت فيها، ومن ثم الدول المركزية التي نشأت على أنقاضها. وهناك أمثلة كثيرة في مناطق أخرى سنأتي عليها في مجرى البحث. وبدأ الربط يحصل في تفكير وممارسة الإنسان بين الحرب وإمكانية الحصول على الأسرى وبالتالي إمكانية استغلالهم في النشاط الاقتصادي للحصول على محاصيل أكبر، أو الحصول على أرض جديدة ومواقع أفضل للزراعة والرعي وما إلى ذلك. أن هذه الشروط الجديدة هي التي بدأت تلعب دورها في تغيير تصرف الإنسان وفي إيجاد علاقات قسرية تفرض على الإنسان التصرف بشكل معين، وإلا فسيعرض لعقوبة معينة. وفي هذا بدأت مظاهر القسوة والهدم والتخريب تظهر في ممارسات إنسان المدينة وحضارة المدينة. لقد تنامي تفكير الإنسان وتطور استخدامه لدماغه، وتطورت معه أساليب وأدوات القسر والسلطة ليتكون منها نظاماً خاصاً للتعامل بين السلطة والفرد في المجتمع، وهي التي لم تعرفها المجتمعات السابقة، كما لم تكن بحاجة لها وكانت تعيش على ما هو متاح حيث توزع وتستخدم ما هو متوفر من قبل هذه الجماعة البشرية أم تلك. ولعب الدين دوراً متميزاً في تنمية هذه الظاهرة بما فيها ظاهرة السلطة والقسوة والتي برزت في تقليد الضحايا (القرابين) التي يراد تقديمها إلى الآلهة. ففي الوقت الذي كانت في البداية عبارة عن تقديم نباتات أو أشياء لا تؤذي أحداً، أصبحت في فترة

لاحقة تقديم الحيوانات، ثم الأبناء والبنات أو النساء أيضاً. كتب السيد محمود القمني بهذا الصدد يقول:

"وقد اتخذ أغلب الباحثين من مسألة القربان أحد موقفين:

- موقف يرى أن القربان في بداية أمره اقتصر على ثمار النبات، ثم رأى الإنسان - زيادة في تملق آلهته - أن يذبح لها ماشيته، بحسبان أن اللحم أعلى من النبات رتبة، ولما لم يكن متيسراً له أن يحمل قربانه ليذبحه عند عروش الآلهة، فقد عمد إلى ذبحه ثم حرقه لتتصاعد مادته دخاناً، تشمه الآلهة فتهدأ نفوسها. وزيادة في المغالاة، وإثباتاً لخصوص ضميره لآلهته تحول نحو الدماء البشرية، فأسال بعض دمائه -بجروح مقصودة- على مذابح الآلهة، تقرباً وفداء لنفسه ولأولاده وممتلكاته، ثم تحول الأمر إلى ما يشبه الذور فكان يذبح واحداً من أبنائه لآلهته، إن هي استجابت لرجائه في أمر يريه، أو دفعاً لشر محتمل الحدوث.

- وموقف آخر يرى عكس ذلك تماماً، مسايرة لسنة تطور العقل البشري الارتقائية، إذ يذهب إلى أن البداية كانت بالضحايا البشرية، عندما كان الإنسان لا يزال يصارع بدائيته الوحشية، وبالتدريج الارتقائي في تطور العقل تحول نحو الحيوان يستبدله بالإنسان، ليقدمه مذبوحاً أو محروقاً فداء لنفسه أو للقبيلة أو الوطن، وأحياناً اكتفى بتقديم النبات في حال احتياجه للحيوان"72.

وتؤكد الغالبية العظمى من الباحثين إلى أن الحالة الأولى هي التي عرفتھا المجتمعات بشكل عام، رغم أن الإنسان في المحصلة النهائية استقر على الحيوانات وأحياناً دفع النقود للفقراء أو مسائل عينية أو غذائية... الخ، ولكنها لم تعد تقدم الإنسان قرابين أو نذوراً للآلهة أو لله الواحد. ومن يتابع العهد القديم أو الإنجيل أو القرآن سيجد فيه الكثير من الحكايات والأساطير حول الآباء الذين كانوا يقدمون الأولاد والبنات قرابين لآلهتهم أو لإلههم الواحد.

وفي الحضارة البابلية كان الدين يركز على الصلاة وتقديم القربان باعتبارهما التعبير عن الخوف من الآلهة من جهة، والحب للمعبود من جهة أخرى. وعبر عن ذلك في النص التالي:

قدم الخضوع كل يوم لآلهك:

التضحيات والصلوات والبخور الواجب

ليكن قلبك نقياً أمام ربك !

إن هذا هو ما يرضي المعبود

إن أنت قدمت التوسل والدعاء والصلاة والسجود في كل صباح

72 القمني، سيد محمود. الأسطورة والتراث. سينا للنشر. القاهرة. ط 2. 1993. ص 77.

فأنه يمنحك كل الكنوز

وسوف تزدهر أيامك بفضل إلهك

وعقلك راع اللوحة:

الخوف يولد الرفق أو العاطفة

والتضحية تطيل العمر

والصلاة تخلص من الإثم"73.

وكانت الدعوة غالباً ما تكون بتقديم الحمل كقربان للمعبود، إذ ورد في نص بابلي ما يلي:

"الحمل فداء للبشر

لقد قدم حملاً بدلاً عن حياته

لقد قدم رأس الحمل بدلاً من رأس الإنسان

لقد قدم عنق الحمل بدلاً من عنق الإنسان

لقد قدم صدر الحمل بدلاً من صدر الإنسان"74.

وهذا النص يشير بشكل غير مباشر إلى الفترات التي سبقت ذلك كانت هناك قرابين أخرى غير الحيوانات، أي الإنسان ذاته. ولم يكن الحمل وحده هو القربان الذي يمكن تقديمه، بل كانت هناك حيوانات أخرى، ومنها الخنزير للتكفير عن أخطاء المريض مثلاً، كما كان النبيذ يقدم أو النعاج والأطعمة ومنها اللبن والخبز...75.

• إن جميع هذه التغيرات التي ارتبطت بشكل واضح بتطور الملكية الفردية وتقسيم العمل الاجتماعي وزيادة الإنتاج وحصول فائض فيه، ثم بروز التمايز في ما بين البشر، بين المالكين لوسائل الإنتاج وبين غير المالكين لها تجد تعبيرها في الأدب والتراث الثقافي البابلي بشكل ممتع وهو الذي يعطي القارئ صورة حية عن هذا التطور والتحول عند الإنسان في التفكير والتشريع والممارسة.

---

73 ديلا بورت ل. بلاد ما بين النهرين. ترجمة محرم كمال. الهيئة المصرية العامة للكتاب. الألف كتاب الثاني. 283.

ط 2. القاهرة 1997. ص 163.

74 نفس المصدر السابق. ص 164.

75 نفس المصدر السابق. ص 164.

• إن العنف والقسوة ينموان وتتسع قاعدتهما ويزداد عدد المشاركين في ممارستهما حيثما تتوفر في المجتمعات شروط أو مستلزمات ذلك. أي عند نشوء وتطور الملكية الفردية وتقسيم العمل الاجتماعي وزيادة الإنتاج وبروز إمكانية التبادل على أساس المنفعة لفائض متاح في الإنتاج، وعند استخدام الحرب كوسيلة اقتصادية للحصول على أسرى حرب وعبيد يراد استخدامهم في النشاط الاقتصادي لتنمية الثروة، برزت معها الحاجة إلى الزعامة وفرض السيطرة واستخدام السلطة التي ارتبطت بدورها تدريجاً بوجود المظالم والجور والاضطهاد ضد هذا المجتمع أو ذلك. وفي ظل مثل هذه المجتمعات تنمو أيضاً ظواهر ممارسات القسوة والرغبة في السيطرة والهدم أو التخريب التي عرفها المجتمع البابلي مع تكون دويلات المدن ومن ثم تنامي ذلك وتفاقم مع تكون الدولة المركزية. وأصبح القائد يفترخ ويعتز بكونه مارس القسوة والعنف والتخريب ضد المدن الأخرى ويتحدث عن الدماء التي سالت. ويمكن هنا العودة إلى كتابات الملوك الآشوريين أو حتى قبل ذلك بكثير.

• إن بروز القسوة والهدم، أي بروز ظاهرة السادية في سلوك الفرد أو المجتمع تقترن ب بروز ظاهرة أخرى في المجتمع هي ازدواج الشخصية، باعتبارها أداة للتخلص من القسوة والتعذيب المحتملين. فاستخدام السلطة أو الحاكم لأساليب من هذا النوع تخيف المجتمع وتدفع به للتحري عن أساليب أخرى غير تلك التي مارسها قبل ذلك بسبب عدم حاجته إليها لحمايته من غضب الحاكم. فممارسات الاستبداد والقسوة والتخريب والسادية وفرض إجراءات محددة على المجتمع تخلق عند الفرد والمجتمع ظواهر أخرى مثل الخوف والخشية من العقاب، وبالتالي التحري عن أساليب لتفاديها، ومنها ظاهرة ازدواج شخصية الفرد، أي فرد، وبغض النظر عن مكان وزمان وجوده، فالرغبة في تحقيق شيء ما أو الوصول إليه من جهة، والخوف من الظلم والجور والاضطهاد من جهة أخرى تدفع بالإنسان إلى التقية أو إبداء موقفين متباينين إزاء مسألة واحدة بهدف الحصول على الشيء بعيداً عن احتمال التعرض إلى العقوبة والاضطهاد المحتملين، ولكنها يمكن أن تخلق ظاهرة مواجهة العنف بالعنف والقسوة بالقسوة والهدم بالهدم أيضاً. وهو ما حصل في المجتمع البابلي العراقي القديم أو المجتمعات المشابهة والمماثلة لمرحلة التطور والمتوفرة فيها ذات الشروط تقريباً؛

• إن خوف الإنسان من ظاهرة معينة أو من فرد آخر أو جماعة معينة أو من استغلال واستعباد يمكن أن يتعرض له، يدفع به إلى محاولة القيام بعمل ما لاستباق الحدث أو مواجهته بدلاً من الخنوع أو الخضوع له. وهذا يعني في حالات معينة ممارسة القسوة خشية التعرض لها. كتب الشاعر المصري نجيب سرور في فترة الخمسينات قصيدة جاء فيها ما يلي:

"سأقتلك، سأقتلك، وقبل أن تقتلني سأقتلك ... وقبل أن تغوص في دمي أغوص في دمك".

إنها لوحة سادية تعبر عن محاولة قتل لتجنب القتل المحتمل. كانت القصيدة في معرض الحديث عن الاستعمار والاستعباد والاستغلال، إذ يريد بها مقاومة الاحتلال والاستعمار قبل أن يتعرض لهما. وهي تأكيد على القيام بفعل يجسد القسوة بعينها تجنباً للوقوع تحت وطأة القسوة.

• وفي فترات تحول المجتمعات البشرية من علاقات إنتاجية إلى أخرى، أي الثورات أو فترات الحروب والفوضى أو وقوع المجاعات، يزداد بروز تلك المظاهر السلبية عند الفرد أو الجماعة، ولكنها تختف في فترات الاستقرار والسلام والرفاهية. كانت الخشية من المجاعات التي تعرض لها الإنسان في فترات مختلفة قد حولت الفرد والمجتمع عموماً إلى سلوكية الخشية من الإفراط في الصرف أو السعي إلى التخزين والاحتناز خشية الوقوع بمحنة جديدة. وأصبحت بمرور الأيام تقليداً يعبر عن بخل لمواجهة شحة محتملة.

• وعلى امتداد تاريخ البشرية، وبالرغم من بعض الجوانب الإيجابية في خلق الإنسان الحاكم على نحو خاص للأديان ونشر الإيديولوجية الدينية وغير الدينية لأسباب كثيرة لسنا بصدد البحث بها، فأنها لعبت دوراً بارزاً في تنشيط مختلف الظواهر، إذ أنها كانت المعبر عن واقع معين من جهة، ومحفز على خوض غمار نشر تلك الأديان والإيديولوجية بين الجماعات التي ساهمت بدورها في تشديد الصراع بين الثقافات، وبضمنها الأديان من جهة أخرى

• وفيما بعد لعبت الإيديولوجية العنصرية المستندة إلى أرضية دينية "سماوية" أو تفسير ديني - وأقدمها العهد القديم - دورها البارز في تنشيط عمليات التمييز بين البشر وتشديد الصراع والعنف على ذلك الأساس. فكما هو معروف توجد نظريات غير قليلة تؤكد بأن الشعوب تنقسم إلى ثلاث جماعات عرقية أساسية تتمايز في ما بينها في الخصائص والسلوك والدور في المجتمع البشري، ونعني بها: الشعوب الحامية، أي شعوب القارة الأفريقية، والشعوب السامية، أي شعوب القارة الآسيوية، والشعوب الآرية، أي الغالبية العظمى من الشعوب الأوروبية مع بعض شعوب الشرق الأوسط باعتبارهم من أصل آري أو آري-هندي. وأن الشعوب الآرية تقف على رأس سلم التطور البشري، تليها الشعوب السامية ومن ثم الشعوب الحامية، التي تقف في أسفل سلم التطور. وأن هذا الاختلاف ناجم عن التباين في الجينات التي لا يمكن تغييرها، وستبقى تميز تلك الشعوب التي ولدت عليها ولا خلاص لها منها. ومثل هذه النظريات في التقسيم العنصري ما تزال قائمة ويؤمن بها كثرة من الناس في أوروبا وأمريكا وفي غيرها من مناطق العالم، رغم كونها مبتذلة وجرى تنفيذها في القرنين الأخيرين. وهي التي نادى بها الحزب النازي وعلى رأسه هتلر وفلاسفته العنصريين في ألمانيا وساهمت في التسبب بنشوب الحرب العالمية الثانية. وهي التي تتحكم بتصرفات غير قليلة على مدى القرنين الأخيرين، وخاصة سلوك الجنس الأبيض في مقابل الأجناس الأخرى من البشرية الواحدة. وهي اليوم تتجلى بصيغة ما في ممارسة السياسة الأمريكية إزاء

العالم. وكتاب صدام الحضارات للدكتور صاموئيل هنتنكتون يعرض هذه الذهنية الجديدة القديمة بشكل صارخ وفاضح<sup>76</sup>، يلتزم بها في السياسة الدولية الراهنة المحافظون والليبراليون الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية والذين يتركز وجودهم بشكل خاص في الحزب الجمهوري وحول الرئيس جورج دبليو بوش، أي في الإدارة الأمريكية وفي وزارة الدفاع ومجلس الأمن القومي والمعاهد العلمية المرتبطة بهاتين المؤسستين.

بعد مرور ما يزيد على أربعة عقود على نهاية الحرب العالمية الثانية، وبعد أن أُلحقت نتائج الدراسات العلمية الهزيمة بالنظريات العنصرية والتمييز العنصري، نشر الأستاذ جورج هانسن في عام 1988 مقالة حول "مساهمة التربية في تجنب العداء للأجانب" يفضح فيها بعض جوانب النشر والمواقف العنصرية في ألمانيا حيث يورد مقطعاً مهماً من مقالة نشرتها جريدة Frankfurter Allgemeine Zeitung بتاريخ 6 شباط/فبراير 1988، وهي للكاتب الألماني كلاوس ناتروب جاء فيها ما يلي:

"إن أصحاب الجرائم في منطقة الروهر بألمانيا كانوا في الغالب أشخاصاً من فصيلة الدم B.

إن أغلبية البولونيين هم من مجموعة الدم B، أما الألمان فهم من فصيلة الدم A.

إن المهاجرين الناطقين باللغة البولونية في منطقة الروهر هم، كما يبدو بشكل واضح، لم يندمجوا حتى الآن بالمجتمع بشكل صحيح.

ومن هنا يأتي مستوى الجريمة العالي بين أطفالهم وأطفال أطفالهم<sup>77</sup>.

في هذا المقطع القصير يشخص القارئ مجموعة من الأفكار العنصرية المقيتة والمتشابكة التي تربط بين فصيلة الدم والجريمة، واعتبار فصيلة الدم التي يحملها البولونيون، أو "العرق" الذي ينحدر منه البولونيون، هي التي تدفع بهم إلى ارتكاب الجرائم، وأن الجريمة لا تقتصر على الآباء، بل تشمل الأبناء والأحفاد وأحفاد الأحفاد لأنهم يحملون نفس فصيلة الدم، لأن هؤلاء الناس لم يختلطوا بالألمان، وبالتالي لم يتلقح دمهم بالدم الألماني "الأفضل والأنقى" ولم يتعلموا من الألمان

---

76 هنتنكتون، صموئيل. صدام الحضارات. إعادة صنع النظام العالمي. ترجمة طلعت الشايب. الكتاب صدر في عام 1996 وترجم في عام 1998 سطور. القاهرة. 1998.

77 Natrop, Klaus. Frankfurter Allgemeine Zeitung (FAZ), vom 6.2.1988. Zitiert aus dem Buch "Extremismus und Fremdenfeindlichkeit". Herausgeber: Bundesminister des Innern. Bonn. 1992. Bd. 1. S. 34.



من خلال اندماجهم بالمجتمع الألماني. إنهم بذلك يريدون الإشارة الواضحة إلى أن الجينات التي يحملها البولونيون والمتوارثة أباً عن جد هي المسؤولة عن ذلك وهي التي تنتج الجريمة المتأصلة في نفوس البولونيين والتي يستحيل تغييرها. وهذا يعني من جانب آخر، بأن على الألمان أن يتجنبوا تلويث دمهم بدماء البولونيين التي تحمل جنينياً جرثومة الجريمة من خلال التزاوج. إن مثل هذه الموضوعات ليست مجرد هذيان وإعادة إنتاج بعض الأفكار العتيقة والبالية لجماعة ضالة من السياسيين، بل إنها تعبر عن ذهنية عنصرية مريضة وعدوانية شرسة في آن واحد. والغربة لا تبرز هنا في وجود "بشر" يفكرون بهذه الطريقة العنصرية الخرافية البالية، سواء كان ذلك في ألمانيا أم في بقية بلدان الاتحاد الأوروبي أو في بقية بقاع العالم، بل الغربة كل الغربة تبرز في امتلاك جريدة يومية سياسية عامة ومشهورة في ألمانيا، وهي جريدة سياسية معروفة بوجهتها اليمينية، أن تنشر هذراً وسمماً من هذا النوع لا يسيء إلى الشعب البولوني فحسب، بل ويثير الحقد والبغضاء بين الشعوب، ولا تقدم للمحاسبة أو المحاكمة بسبب نشرها مثل هذه الدعاية العنصرية والمحرضة ضد الجاليات والشعوب الأخرى. كما لا يحاسب الكاتب على هذه الصياغات العنصرية التي تستهدف إثارة الألمان ضد وجود بولونيين في ألمانيا، كما إنها إثارة ضد كل الذين تجري في عروقهم دماء من المجموعة B.

ولكن هل يمكن لمثل هذا التحليل أن يصمد أمام الحقائق العلمية الحديثة في تحليل بنية وطبيعة الإنسان عموماً، وفي تحليل أسباب العنف وممارسة التعذيب في البلدان المختلفة، ومنها العراق القديم والحديث؟ وهل يحق لنا قبول مثل هذا التبسيط للأمور، والموافقة على اتهام شعب بأكمله بالتطرف وبالاستعداد لممارسة العنف والتعذيب؟ إن ظواهر التطرف والعنف والتعذيب وقسوة المعاملة التي مارسها الدولة الأموية وكذلك الدولة العباسية، أو حتى في فترة الخلفاء الراشدين في صدر الإسلام، أو قبل ذلك في العراق القديم، لا يمكن فصلها عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية التي سادت في تلك البلدان في مختلف العهود، ولا بد عند دراستها من بذل جهود غير قليلة لاستيعاب وتحليل تلك الأوضاع وفهم علاقتها بالتراكمات الحاصلة في هذا الصدد منذ عشرات القرون في العراق القديم وصولاً إلى الأوضاع الراهنة في العراق الحديث. من يتابع أحداث القرون الوسطى في أوروبا مثلاً سيدرك حقيقة أن أوروبا عاشت وشهدت أبشع أشكال العنف وأساليب التعذيب الجسدي والنفسي في تاريخ البشرية كلها حينذاك. كما أن من يدرس تاريخ أمريكا الشمالية سيدرك شدة العنف والقسوة الطاغية والقتل الجماعي الواسع التي مارسها الأوروبيون النازحون والمستوطنون في تلك المنطقة للتخلص من سكان أصل البلاد، الهنود الحمر، والحلول مكانهم في القارة، وكثرة من الأفلام السينمائية الأمريكية الجادة تظهر هذه الحقيقة، في حين تحاول بعض الأفلام الأخرى أن تزين القضية للمشاهد وتضع الأمر وكأنه يعبر عن صراع بين الحضارة والتخلف.

وتاريخ أمريكا الشمالية يدل أيضاً على القسوة الجامحة التي مارسها الأوروبيون النازحون إلى هذه القارة الجديدة في حينها والأساليب التي مارسوها للهيمنة على القارة الجديدة والتخلص من الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين. وكان القتل والتشريد والتهجير القسري جزء من تلك الأساليب الهمجية التي مورست. وكانت الحرب الأهلية التي تفجرت بين الشمال والجنوب واحدة من أبرز قضايا تاريخ الولايات المتحدة حين تعرض الأفارقة السود الذين جلبوا من القارة الأفريقية إلى العبودية والاستغلال البشع على أيدي العوائل وأصحاب رؤوس الأموال والسيطرة الكاملة على الحكم والمجتمع. والعنف هما الطريق لتحقيق الأرباح وتعظيم رؤوس الأموال والسيطرة الكاملة على الحكم والمجتمع. ولم تكن الحرية إلا للأوروبيين الغزاة. وهذه السلوكية لدى الأوروبيين الأمريكيين ما تزال هي المحددة للقوى الحاكمة هناك والتي تتجلى في الموقف من الحروب ومن الادعاء بأنهم يحملون لواء الحرية بيد والخير بيد الأخرى لمحاربة لواء العبودية والشر في العالم.

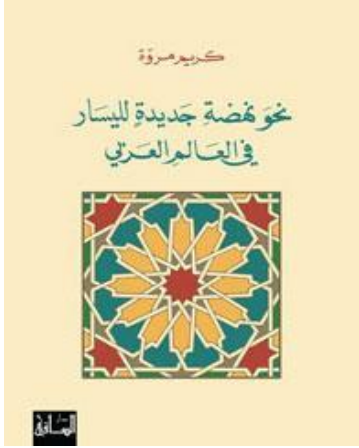
عند دراسة تاريخ النازية في ألمانيا يتعرف الإنسان بشكل دقيق على أسس ممارسة العنف والتعذيب إزاء بنات وأبناء الشعب الألماني ذاته وإزاء الشعوب الأخرى في فترة الحرب العالمية الثانية لأسباب عنصرية وتعصبية وفكرية واستعمارية متنوعة لم يعرف تاريخ البشرية مثيلاً لها من قبل. وفي الوقت الذي تعرض اليهود في ألمانيا الهتلرية إلى صنوف التعذيب والقتل في غرف الغاز وأفران الحرق وسلخ الجلود على امتداد فترة الاعتقال في معسكرات الفاشية في ألمانيا وفي غيرها من الدول الأوروبية المحتلة حينذاك حتى وصل عدد ضحايا اليهود وحدهم إلى ستة ملايين إنسان، بسبب موجات العداة للسامية، أو لليهود الساميين على نحو خاص، فإن حكومات إسرائيل المتعاقبة تمارس شتى أشكال التعذيب الجسدي والنفسي والقتل المتعمد في السجون وفي الشوارع ضد المواطنين الفلسطينيين العرب من مسلمين ومسيحيين، إضافة إلى العقوبات الجماعية مثل تهديم البيوت على رؤوس ساكنيها ورميها بالصواريخ والقنابل وما إلى ذلك من أسلحة محرمة دولية. ولا شك في أن العمليات الانتحارية التي يقوم بها الشباب الفلسطيني بتنظيم ودفع ودعم من منظمات وأحزاب الإسلام السياسي المتطرفة التي تؤدي إلى قتل وجرح عدد كبير من اليهود، إضافة إلى الشباب المنتحرين. وتؤدي بدورها إلى سلسلة من العمليات الانتقامية على طريقة العين بالعين والسن بالسن.

وقدمت جمهورية جنوب أفريقيا نموذجاً مماثلاً في القسوة والإرهاب والقمع ضد سكان البلاد الأصليين من جانب السكان الأوروبيين البيض النازحين إلى أفريقيا. فكانت أساليب الاعتقال والتعذيب والقتل والقمع الذائب هي الأساليب المميزة لفرض التمييز العنصري في الجمهورية وضمن استمرار الاستغلال وتحقيق أقصى الأرباح.

ويمكن أن نتعرف على ما يماثل ذلك في عدد كبير جدا من بلدان العالم. فالعمليات الإرهابية الأخيرة التي قامت بها مجموعة إرهابية "عربية مسلمة" ضالمة ضد بنايات المركز التجاري الدولي في نيويورك وضد البنتاغون في واشنطن يؤكد على أن الحقد والكراهية وما ينجم عنهما غير محصور ببلد وشعب بعينه بل يمكن أن نجده في بلدان وبين أوساط كثيرة.

وإزاء هذا الواقع يدرك الإنسان بشكل منطقي وعلمي بأن العنف وأساليب التعذيب أو القسوة وارتكاب الجريمة وعدوانية التصرف لا ترتبط بجينات الفرد وليست هي وراثية، كما يحاول التحليل المبسط و"العلمي المبثذل"، أن يؤكد لنا، بل هي عادات وسلوكيات مكتسبة في المجتمع ومن المجتمع ذاته وعبر أجيال متتابعة. وليس من شك في أن أمراضاً يمكن أن تصيب الإنسان تقوده إلى ممارسة القسوة، ومنها السادية وجنون العظمة والنرجسية التي أن اجتمعت عند إنسان معين، كما كانت لدى هتلر وموسوليني وستالين وصادم حسين وأسامة بن لادن وغيرهم تحولهم إلى مجرمين من طراز خاص وعتاة لا يمكن للبشرية أن تتحملهم.

قراءة في كتاب "نحو نهضة جديدة للياسار في العالم العربي" للكاتب كريم مروة



عنوان الكتاب: نحو نهضة جديدة للياسار في العالم العربي

الكاتب: كريم مروة

دار النشر: الساقى - لندن

سنة النشر: 2010

عدد الصفحات: 224 صفحة

استهلال

منذ أن تعرفت على الصديق كريم مروة في منتصف الستينيات من القرن الماضي في بيروت وأنا في طريقي إلى بغداد بصورة سرية، ومنذ أن بدأ حوارنا بشكوك مشروعة حينذاك حول مدى صواب ما طرحه الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي وتبنته الحركة الشيوعية العالمية عن إمكانية ولوج طريق التطور اللارأسمالي وتجاوز مرحلة الرأسمالية صوب الاشتراكية أو ما سمي بطريق التوجه الاشتراكي في الدول النامية، ومنها الدول العربية وحول نظريات الانتقال إلى الاشتراكية وحين تمادى البعض، فالتر أولبريشت، وأطلق على مصر

بأنها تسير بالاتجاه الاشتراكي، بدأت متابعتي لنشاط الحزب الشيوعي اللبناني وكتابات ومواقف كريم مروة. كنا جميعاً من مدرسة واحدة هي المدرسة الماركسية-اللينينية، وكنا نشترك بذات الأحلام والكثير منها كان أوهاماً بنوايا حسنة. كان ينقصنا إدراك لمخاطر تلك الأخطاء. ومع ذلك فقد كانت فترة مليئة بالحركة الدائبة والتضحيات الجسام والبطولات النادرة التي اجترحها الشيوعيون والتقدميون والديمقراطيون في الدول العربية، رغم الحصيلة الضعيفة لذلك النضال التي اقترنت بانتكاسات سياسية واجتماعية كبيرة على صعيد الحركة الشيوعية العالمية والمعسكر الاشتراكي، طاولت عموم منطقة الشرق الأوسط، ومنها الدول العربية.

ومنذ ما يقرب من عقدين، وقبل وقوع الزلزال الكبير، الذي هزَّ العالم بسقوط الاتحاد السوفييتي وبقية الدول الاشتراكية، وهو زلزال شبيهه، في شروط تاريخية مختلفة، بالزلزال الذي هزَّ العالم لدى قيام الدولة السوفييتية في أعقاب انتصار ثورة أكتوبر في عام 1917، منذ ذلك التاريخ الجديد المشار إليه بدأ التفكير لدى مجموعة من مناضلي الحركة الشيوعية وماضي حركة اليسار بضرورة التمعن في ماضي الحركة الشيوعية وأحزابها السياسية وحركة اليسار وحاضرها وآفاق المستقبل، ومتابعة جادة للتحويلات الكبيرة الجارية في العالم والتغيرات الحاصلة في منطقة الشرق الأوسط واستيعاب الواقع المتحرك والمتغير سلباً أو إيجاباً في الدول العربية.

لا شك في أن حركة البريسترويكا في الاتحاد السوفييتي منذ العام 1985/1984 قد حركت المياه الراكدة في أوساط وأحزاب الحركة الشيوعية العالمية ودلت على عمق الأزمة التي يعاني منها الفكر الماركسي-اللينيني وحركة اليسار على الصعيد العالمي. وهي الأزمة التي دفعت برفاق في الأحزاب الشيوعية في الدول العربية إلى التفكير بعقلية نقدية لماضي وحاضر الحركة الشيوعية والعمالية ولسياسات أحزابها ولممارساتهم الفعلية، ومنها الحزب الشيوعي اللبناني وإلى التطلع في مشروع جديد نحو المستقبل. في هذه الفترة بالذات كنا في الحزب الشيوعي العراقي، نتابع أوضاع هذا الحزب الشقيق والصراعات الفكرية والسياسية الجارية فيه والمواقف المتباينة إزاء الكثير من الأحداث وبروز تيار تجديدي فيه يحمل رؤية جديدة وطرح جديد للمشكلات التي تعاني منها الدول العربية. ولم تكن كلها موضع ارتياح أو تقبل من جانب العديد من الأحزاب الشيوعية في الدول العربية، ومنها الحزب الشيوعي العراقي. ولم يكن هذا الجديد في السياسة كله على صواب، إذ لم يكن قد بني على أسس وقواعد متينة وواضحة حينذاك. كما عن البعض منه تميز بالمساومة مع حزب البعث العربي الاشتراكي والنظام العراقي على حساب الحزب الشيوعي العراقي والقوى الديمقراطية الذي تم نقده فيما بعد.

كان كريم مروة أحد أبرز وأنشط من اجتهد لتكوين رؤية جديدة ونقد الكثير من مواقع الفكر القديم الذي كان راسخاً في أذهان غالبية رفاق الحركة الشيوعية في لبنان وفي سائر الدول العربية. وكان يستند في عرض أفكاره تلك إلى معرفة نظرية جيدة وإلى استيعاب لمكونات المنهج المادي الجدلي وسبل استخدامه، وإلى قراءة مدققة للواقع المتحرك وتجربة غنية ومترجمة عبر عقود من العمل الفكري والسياسي وعلاقات واسعة مع قوى حركة اليسار على الصعيدين العربي والعالمية.

ومنذ ما يقرب من 15 سنة، وأنا أتابع كتابات الأستاذ كريم مروة ومواقفه الجديدة من الحزب الشيوعي اللبناني وفي الحركة الشيوعية في الدول العربية ومن محاولاته في بث روح التجديد في الحركة اليسارية في بلداننا، كما كنت أتابع الرفض والمقاومة الشديدة التي يواجهها من قوى متنفذة في الأحزاب الشيوعية في الدول العربية من جهة، والرضا والقبول من جانب قوى يسارية تتطلع للجديد والتجديد من جهة أخرى.

علينا باستمرار أن نتذكر بأننا كنا، كشيوعيين، نعمل في حركة شديدة التماسك والانغلاق الإيديولوجي على الذات والانضباط الحديدي الذي لم يفسح في المجال للفكر من الانطلاق بحرية ومبادرة حيوية. كانت المدرسة قد التزمت بالنظرية الماركسية-اللينينية التي تحولت بمرور الزمن إلى أشبه ما يكون بـ"دين" وإلى قيد شديد على فكر وحركة وحرية الإنسان الشيوعي وقدرته على ممارسة الاستقلال الفكري، كما كانت التربية وحيدة الجانب ومتعالية على المدارس الفكرية الأخرى، بعكس ما كان يفترض أن تكون عليه. ولهذا كنا، نحن أعضاء هذه المدرسة الفكرية، شديدي الفناعة بنظيرتنا دون أن يكون لدينا أدنى شك وقلق حول تحليلاتنا واستنتاجاتنا بعكس ما كان يتطلبه الموقف العلمي الرصين من الغوص في أعماق الأحداث وتحليلها بعناية واستخلاص المقولات. كنا نستهلك ما ينتجه السوفييت من مقولات واجتهادات، دون أن نمتلك الحق عملياً في المبادرة الفكرية وطرح ما نفكر به. ومن هنا نشأ الجمود في حركتنا. وبدأت مظاهر الأزمة الفكرية والسياسية في الحركة الشيوعية وفي حركة اليسار على الصعيد العالمي منذ زمن بعيد. ثم تراكمت وتشابكت وتفجرت تلك الأزمة في نهاية الثمانينات من القرن الماضي وأحدثت ذلك الزلزال الذي لا تزال مفاعيله تبرز بصيغ كثيرة.

لا شك في أن الحركة الشيوعية في الدول العربية لعبت دوراً متميزاً وملموساً في النضال ضد الإمبريالية والسيطرة الأجنبية ومن أجل تعزيز الاستقلال والسيادة الوطنية وتنشيط عملية التنوير الديني والاجتماعي والدفاع عن مصالح الكادحين والمحرومين. وقدمت في نضالها الكثير من التضحيات الجسام قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها. لكنها كانت في الوقت نفسه قد ارتكبت الكثير من الأخطاء التي خلفت عواقب غير

قليلة على الصعيدين الفكري والسياسي وعلى صعيد الممارسة العملية. ويبدو لي إن واحدة من أبرز تلك الأخطاء الفكرية والسياسية للمدرسة الماركسية-اللينينية، التي كنا جزءاً منها، هي القناعة الإيمانية غير المبررة بأننا كنا دوماً على حق وأن الحقيقة كانت إلى جانبنا وأن الصواب كان يقترن بتحليلاتنا وتقديرنا للواقع وللمهمات التي كانت تواجه شعوبنا. واستندنا في تلك القناعة إلى أننا كنا نستخدم المنهج المادي الجدلي بشكل صحيح، ولم يكن الأمر هكذا دائماً. بل كنا في تلك القناعة على خطأ كبير. لقد كانت رغباتنا وطموحاتنا تسبق تحليلاتنا. وكانت هي الموجهة الفعلية لتلك التحليلات وليس الواقع القائم باعتباره أساس وقاعدة التحليل الفعلية. أورد مثلاً واحداً على ذلك. لقد توصلت الحركة الشيوعية وفي وقت مبكر إلى القناعة بأن الرأسمالية كانت تقترب من نهايتها، إنها كانت في المرحلة الثالثة من أزماتها العامة، وأنها كانت قاب قوسين أو أدنى من مرحلة لفظ أنفاسها ممهدة بذلك لمرحلة جديدة في حياة البشرية، مرحلة الاشتراكية الخالية من الاستغلال والحرمان والعبودية لرأس المال. وقد بلغ الأمر بسكرتير عام الحزب الشيوعي السوفييتي، نيكيتا خروشوف، أن طرح مقولة وهمية خادعة مفادها "أن أفق بناء الشيوعية في الاتحاد السوفييتي لم يعد بعيداً بل أصبح قريباً جداً"، في وقت كانت الأزمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية قد بدأت منذ سنوات العقد السابع من القرن العشرين تشدد من خناقها على رقاب شعوب الاتحاد السوفييتي وتلقي بظلالها على الحياة اليومية للإنسان السوفييتي. لقد تم إنكار واقع وجود تناقضات وصراعات اجتماعية وسياسية في المجتمع السوفييتي، باعتبار أن الاشتراكية لا تعرف التناقضات، وبالتالي لم يتحركوا باتجاه حلها، مما زاد من فعلها وعمق من تلك التناقضات وشدت من الصراعات وكاد يحولها إلى نزاعات. وقد كرر هذا الموقف ليونيد بريجنيف مرة أخرى رغم بروز مظاهر الأزمة المتفاقمة والمتعددة الجوانب في الاتحاد السوفييتي. وسرنا مع الاتحاد السوفييتي في ذلك التصور الحالم، وكنا واهمين وارتكبنا بذلك، كحركة وكأحزاب وكأفراد، سلسلة من الأخطاء الفادحة كان يفترض فيها، ومنذ فترة غير قصيرة، أن تدفعنا إلى إعادة النظر بحركة اليسار عموماً، وبالأحزاب الشيوعية منها بشكل خاص، من أجل استخلاص الدروس والعبر من الماضي واستيعاب حركة الحاضر واستشراف المستقبل. ولا بد لنا أن نعترف هنا مرة أخرى بأننا كنا مستهلكين للتنظير السوفييتي الذي كان في الغالب الأعم إرادي النزعة وسطحي التحليل في التعامل مع المادية التاريخية. ولم تكن مبادرين وفعالين في التحليل المطلوب لأوضاعنا المحلية وللأوضاع على الصعيدين الإقليمي والدولي، مما أوقعنا في أخطاء ومطبات كثيرة وكبيرة.

والآن وللأسف الشديد نلاحظ حراكاً ضعيفاً في صفوف الشيوعيين باتجاه إعادة النظر الجادة بالماضي وبسياسات الأحزاب الشيوعية، مما ساهم بتقسيم حركة اليسار إلى جزء قديم وآخر يطمح للتجديد، وإذ يتمثل

القديم بتلك الأحزاب التي تعيش بين مدينتي "نعم ولا" وفق تعبير جميل للشاعر الروسي يفجينيا فتوشنكو، أي بين الخشية من التغيير والتعثر في ما جرى تجديده، وهو قليل، وبين عدم القدرة على متابعة التغيرات الكبيرة الجارية في عالمنا الراهن، والعجز بالتالي عن فهم ضرورات إجراء التغيير والتجديد الفكري والسياسي والتنظيمي والتجديد في العلاقة مع فئات وقوى المجتمع داخل حركة اليسار في الدول العربية. أما الجديد في اليسار فلا يزال في بداياته. فهناك تيار التجديد الذي يتمثل بإفراد وجماعات صغيرة أخذت على عاتقها طرح رؤيتها الجديدة حول الأفكار والأحداث والسياسات السابقة، قدمت تحليلاتها للواقع الجاري ومهمات المرحلة الراهنة والسعي لاستشراف المستقبل. ولا شك في أن كل ما هو جديد لا يصطدم بالقديم فحسب، بل ويُحارب بقوة من جانب حاملي المشروع القديم. إذ يتهم أصحاب المشروع الجديد باليمينية وبالمساومة مع الإمبريالية والبرجوازية وما إلى ذلك. ومثل هذا التوجه يلحق الضرر البالغ بعملية التجديد المنشودة في حركة اليسار ويعطلها، ولكن الجديد سيفرض في المحصلة النهائية نفسه عاجلاً أم آجلاً.

نحن اليوم أمام محاولات واجتهادات جادة لتجديد فكر ومشروع اليسار في الدول العربية، ونجد لذلك نواتات في الكثير من الدول العربية، ومنها لبنان والعراق على سبيل المثال لا الحصر. ويحتل كريم مروة مكانة مرموقة و متميزة بين دعاة التجديد في فكر ومشروع اليسار الديمقراطي في لبنان والدول العربية. ويتجلى ذلك في الذهنية المتفتحة والشابة والنشاط الدعوى، وهو ابن الثمانين عاماً، في مجموعة الكتب والمقالات واللقاءات الغنية التي نشرت التي يتحرى فيها الكاتب بجهد مثابر ومسؤولية عالية عن سبل تجديد حركة ومشروع اليسار. ومن بين أبرز ما كتبه إلى الآن يتصدر كتابه الأخير الموسوم "نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي"، وهو كتاب يستحق القراءة والمناقشة بجدارة. (صدر عن دار الساقى، بيروت، 2010)

إن الانطلاق بحركة اليسار نحو آفاق جديدة وتجديد فعلي لفكرها ومشروعها السياسي يتطلب الالتزام بالقواعد التالية:

- 1 . ضرورة الاستخدام السليم والعلمي للمنهج المادي الجدلي في البحث والتحليل والتدقيق في الظروف الملموسة لواقع هذا البلد أو ذاك.
- 2 . الانطلاق من واقع الحياة اليومية للناس ومن المتغيرات الجارية على الاقتصاد والمجتمع وعلى فكر ووعي الفرد والمجتمع أولاً، وكذلك التغيرات الحاصلة على الصعيدين الإقليمي والدولي ثانياً، من أجل تحديد المهمات والأهداف المرورية والابتعاد عن محاولة القفز فوق المراحل و حرقها.



3 . تأمين الربط العضوي بين عملية التغيير في البنية الاقتصادية والاجتماعية في هذا البلد أو ذاك، وبين تطور وعي الفرد والمجتمع وسعيهما المشترك لصالح حرية الإنسان وحقوقه المشروعة وسعادته والعدالة الاجتماعية، واستخلاص مدى الاستعداد الفعلي للمشاركة في عملية التغيير.

4 . تشخيص دقيق وسليم للقوى الاجتماعية التي يهملها إنجاز مهمات المرحلة والتي يفترض أن تتبلور في مجالين أساسيين:

أ. مجال تحديد مهمات في إطار برنامج تستوحيه طبيعة المرحلة.

ب. أن تكون المهمات المطلوب تحقيقها متطابقة مع القوى الاجتماعية والسياسية المعنية بالنضال لتحقيق المشروع الوطني والديمقراطي.

وفي هذا الاتجاه يحدد كريم مروة بعض المرتكزات العامة التي يفترض أن تسود في العلاقات السياسية، بعد أن غابت عنها طويلاً مثل الأخلاق والصدق والشفافية واحترام الرأي والرأي الآخر ورفض العنف وسياسة القوة، والتحول صوب التنافس الديمقراطي في تحقيق المهمات، والتداول الديمقراطي السلمي والبرلماني للسلطة، وفصل الدين عن الدولة وحرية وحقوق الإنسان وحرية المرأة... الخ، ثم يخلص إلى تأكيد مرتكزين أساسيين. في المرتكز الأول يؤكد مروة "أن المفاهيم العامة في الفكر السياسي والاجتماعي، وفي الفكر عموماً، هي مفاهيم متغيرة، أي غير ثابتة،.." (ص 74)، في حين يتلخص المرتكز الثاني في كون "بلداننا هي جزء من عالم يتغير وتجري فيه تحولات كبيرة، وأن علينا أن نكون جزءاً من هذه التحولات، في الاتجاه الصحيح فيها، ضد الاتجاهات النقيضة لمصالح بلداننا ولمصالح البشرية عموماً." (ص 75/74). وهما مرتكزان يفترض أن لا يغفلهما الإنسان عن دراسة الأوضاع في بلداننا وفي العالم المعاصر.

إن الاستناد إلى المنهج المادي الجدلي في دراسة أحداث السنوات المنصرمة تجعلنا وجهاً لوجه أمام جملة من المسائل المهمة التي يمكن تلخيص أبرزها فيما يلي:

1 . القفزة الهائلة في مستوى تطور القوى المنتجة المادية والبشرية على الصعيد العالمي. وهي نتاج الثورة العلمية-التقنية، ثورة الإنفوميديا، التي ساهمت بدورها في نقل الرأسمالية إلى مرحلة جديدة في تطورها، هي مرحلة العولمة في جميع مجالات الحياة باعتبارها عملية موضوعية لا مرد لها، حولت العالم إلى قرية كونية صغيرة متلاصقة في دورها ودروبها. وقد أسهمت هذه الثورة في توفير إمكانية أفضل للرأسمالية على الصعيد العالمي في معالجة مشكلاتها وأزماتها الاقتصادية بمستويات جديدة ترمي بثقل عواقبها على الفئات الأكثر ضعفاً في شعوب الدول الرأسمالية المتقدمة وعلى شعوب الدول النامية على نحو خاص. وهو ما تشير إليه وتؤكدده الأزمة المالية والاقتصادية الجديدة الجارية، التي تفجرت في نهاية العام 2009 وتفاقت في بداية

2010 والتي لم تصل إلى نهايتها حتى الآن. لكنها توفر، في الوقت نفسه، إمكانية جديدة لدفع عملة التطور في الدول النامية إن أحسن الاستفادة منها وتجاوز السلبيات التي تنشأ عن السياسات العولمية التي تمارسها الدول الرأسمالية المتقدمة على الصعيد العالمي وإزاء الدول النامية بشكل خاص.

2 . إن الانهيار الكبير للاتحاد السوفييتي وبقية بلدان مجلس التعاضد الاقتصادي قد نشأ بفعل عوامل داخلية وتراكمات كثيرة ارتبطت بالواقع الذي انطلقت منه تلك الدول ومن التراكم الذي كان يتم على ذلك الأساس الهش من البناء، إذ لم تتوفر لروسيا القيصرية في حينها القاعدة المادية ولا الوعي الفردي والاجتماعي الكافيين والضروريين للتوجه صوب بناء الاشتراكية. وهو ما حصل بالفعل في الدول الأخرى التي لحقت بالاتحاد السوفييتي في أعقاب الحرب العالمية الثانية وتبنت نمودجه للاشتراكية. وعليه فإن العوامل الخارجية لم تلعب سوى الدور المساعد لتعجيل الانهيار.

3 . الانتكاسات المتلاحقة لحركة التحرر الوطني العربية التي اقترنت بعدد كبير من العوامل، بما في ذلك مشروع الأحزاب الشيوعية وحركة اليسار عموماً، إضافة إلى الحركات القومية والدينية المتشددة التي يعود بعض أسبابها لطبيعة المهمات التي رفعتها تلك الحركات التي لم تكن متناغمة مع طبيعة المرحلة ومع مهماتها ولا مع أساليب وأدوات النضال.

4 . تبلور قراءة جديدة أكثر واقعية وفهماً وأكثر تدقيقاً في مسألتين مهمتين، هما:

سبل التعامل مع الفكر الماركسي ومنهجه المادي الجدلي من جهة، والاستناد إلى الواقع الذي تعيش فيه شعوب الدول النامية، ومنها الدول العربية، عند استخدام هذا المنهج المادي الجدلي لإعادة النظر في الماضي وفهم الحاضر واستشراف المستقبل من جهة أخرى.

نحن أذن أمام قوى لا تزال تحمل القديم وتتشبث به وترفض التنازل عنه ولا تريد أن ترى الجديد أو عاجزة عن رؤيته لأي سبب كان، وأخرى قرأت الجديد واستوعبت ضرورة وعي القوانين الموضوعية المحركة لعمليات التحول الاقتصادي والاجتماعي في هذا البلد أو ذاك، التي على ضوءها يمكن رسم المهمات التي يفترض النضال من أجلها في المرحلة الجارية.

في هذا الإطار يضعنا المفكر والسياسي كريم مروة أمام مجموعة من القضايا الجوهرية التي ربما ليس عليها خلاف كبير في الظاهر، ولكن الاختلاف حولها يبدأ في الممارسة العملية. إن الدراسة التي يقدمها لنا الأستاذ كريم مروة غنية ومتعددة الجوانب سأحاول أن التقط منها بعض النقاط المهمة لإبداء الرأي بشأنها.

أولاً: طبيعة المرحلة ومهام بناء الدولة الديمقراطية الحديثة

ذلك السؤال الذي يواجهنا في المرحلة الراهنة هو تحديد المهمة المركزية في النضال الذي تخوضه شعوب الشرق الأوسط بشكل عام وشعوب الدول العربية على نحو خاص؟

هنا أجد نفسي متفقاً مع الكاتب حين أكد: أن المهمة التي تواجه شعوبنا ليست تحقيق الاشتراكية، بل هي مهام وطنية وديمقراطية، تقع في إطار مرحلة انتقالية تتطلب إقامة العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في اقتصاديات ومجتمعات الدول العربية، رغم الاختلاف في مستويات تطورها. إننا إذن أمام مهام التخلص من بقايا العلاقات ما قبل الرأسمالية وبناء الرأسمالية الوطنية التي يفترض أن تكون غير منفلة وتشكل القاعدة المادية لتطور جديد مناسب للقوى المنتجة المادية والبشرية، إضافة إلى ربط ذلك بمستوى تطور وعي الإنسان الفردي والجمعي المجتمعي.

فشعوب الدول العربية لا تزال تعيش في ظل علاقات إنتاجية واجتماعية متنوعة تتراوح بين البداوة والفلاحة، علاقات أبوية وعلاقات إنتاج شبه إقطاعية متخلفة وعلاقات عشائرية، وبين مجتمعات نمت لتوها علاقات إنتاج رأسمالية حديثة التكوين وفي مجالات التجارة والعقار، وأخرى نمت فيها علاقات الإنتاج الرأسمالية نسبياً، كما في كل من مصر وسوريا والمغرب والعراق، وأخرى قائمة على الاقتصاد الريعي النفطي. وفي جميع هذه الدول يلاحظ وجود نظم سياسية غير ديمقراطية واستبدادية وغياب الحياة الديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق القوميات والعدالة الاجتماعية واتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء. كما تلعب المؤسسات الدينية دورها البارز في التأثير على فكر الإنسان وعلى الكثير من سلوكياته وتصرفاته إزاء نفسه وإزاء الآخر.

والجدير بالملاحظة أن شعوب هذه البلدان غالباً ما تكون في علاقة عدائية مستحكمة مع حكوماتها لأسباب ترتبط بإهمال مصالح وحاجات هذه الشعوب وعدم توفير البديل المناسب.

من هنا نستخلص استنتاجاً جوهرياً يؤكد بان مهمة شعوب هذه البلدان، مهمة أحزابها اليسارية لا تكمن في رفع شعارات اشتراكية تتجاوز حدود المرحلة الديمقراطية، بل يفترض أن تستجيب لطبيعة المرحلة ومهامها الأساسية، التي بلورها كريم في المشروع الذي طرحه كبرنامج مرحلي للييسار العربي، رغم التباين الذي يمكن أن يحصل حين يجري الحديث عن كل بلد بشكل ملموس.

إن هذا الإقرار يقود إلى الرؤية التالية:

- إن المرحلة الراهنة ليست مرحلة انتقالية من الرأسمالية إلى الاشتراكية أو تجاوز المرحلة الرأسمالية، بل هي بالتحديد مرحلة انتقال من علاقات ما قبل الرأسمالية وهي علاقات عديدة متشابكة، علاقات رأسمالية حديثة التكوين وضعيفة، انتقال إلى علاقات إنتاجية رأسمالية متقدمة.

- هذه الرؤية الواقعية لا تعني بأي حال إيقاف النضال من أجل مواجهة محاولات تشديد استغلال العمال والفلاحين والكسبة والحرفيين والمثقفين في هذه البلدان، بل يفترض أن يتواصل النضال من أجل الحد من هذا الاستغلال بقوانين اقتصادية واجتماعية ملزمة.

إن هذا الواقع يطرح علينا سؤالاً مشروعاً: إذا كانت المهمة ليست اشتراكية ولا شيوعية، وإذا كانت ذات طابع وطني وديمقراطي، تقود إلى إرساء قواعد ومبادئ الحرية الفردية وحرية المجتمع وسيادة الديمقراطية ودولة القانون والحق والمؤسسات الدستورية.. الخ، فإن هذا يفترض أن يتجلى في أربع مسائل جوهرية بعيداً عن الهروب إلى أمام:

1. إن على البرامج الجديدة التي يفترض أن تطرحها قوى اليسار للنضال مع قوى الشعب من أجل تحقيقها مرحلياً يفترض فيها أن تتناغم مع فهم الواقع واستيعاب مهمات وأساليب وأدوات تغييره.
2. إن اسم هذا الحزب اليساري أو ذلك الذي ينبغي أن ينسجم مع طبيعة المهمات المرحلية.
3. تحديد الأدوات والأساليب السلمية والديمقراطية التي تختارها قوى اليسار للنضال من أجل تحقيق تلك الأهداف، وبعيداً عن العنف والقوة والسلاح أو الانقلابات.
4. تحديد القوى الطبقية والسياسية التي تلتقي عند هذه الأهداف وتناضل بصورة مشتركة لتحقيقها وتعبّر عن مصالحها المشتركة.

إن هذا التوجه يحصن قوى اليسار من الهروب إلى أمام، كما حصل في بداية ثورة أكتوبر 1917. ففي الوقت الذي استنتج لينين في كتاب "الدولة والثورة" في العام 1916 بأن روسيا غير جاهزة للبناء الاشتراكي بأي حال، فإنه سرعان ما قرر بعد الثورة مباشرة السير بالبلاد نحو بناء الاشتراكية! ثم عاد عن ذلك في العام 1921 في "برنامج السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) انطلاقةً من قناعته بعدم واقعية ذلك الهدف على وفق ما ورد في برنامج الحزب. وكان ستالين منذ العام 1922 تقريباً قد هيمن على قيادة وسياسة الحزب والدولة ودفع بهما صوب تنفيذ النهج المتطرف الأول في بناء الدولة السوفييتية الجديدة بعد أن فرض العزلة الفعلية على لينين المريض حتى مماته. وقد انتهت هذه الدولة في العام 1990/1989 إلى النهاية المأساوية المعروفة لنا جميعاً. وعلينا أن نتذكر البرامج الطموحة التي طرحتها الأحزاب الشيوعية في الدول العربية خلال العقود المنصرمة التي عجزت عن تحقيق الكثير والأساسي منها، وساهمت عملياً، في خلق أجواء

الإحباط السائدة في الوقت الراهن، بسبب انهيار التجربة الاشتراكية. وكانت الأحزاب الشيوعية في الدول العربية تنطلق ي وضع برامجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية من المقولة التي سادت حينذاك بأن العالم يعيش مرحلة الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، وكان الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية هو المؤثر المباشر على تفكيرنا وتحليلنا، في حين أن الرأسمالية كانت ولا تزال تمتلك مقومات البقاء أولاً، وأنها لا تزال ضرورة موضوعية لاقتصاديات مجتمعاتنا ثانياً. ولهذا يمكن القول بوضوح إن برامجنا في العديد من القضايا الجوهرية والأساسية لم تكن متطابقة مع واقع بلداننا حينذاك ومع الواقع القائم في العالم.

ومن هنا جاء مشروع البرنامج الذي طرحه كريم مروة في كتابه " نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي " مطابقاً بخطوطه العامة والأساسية، كما أرى، لمهمات المرحلة والواقع الراهن في الدول العربية، مع ضرورة جعل فقراته أكثر ملموسية بالارتباط مع واقع كل دولة. لقد هربنا إلى أمام في برامجنا السابقة ولا بد من العودة إلى أرض الواقع وبعيداً عن الأوهام، ولا بد أن تكون نقوى اليسار أحلامها التي تعطي لنضال الإنسان حيويته والمجتمع وتشبع طموحاته المشروعة، أحلام العيش في أجواء الحرية والديمقراطية والمواطنة المتساوية والعدالة الاجتماعية والسلام.

ماذا يقدم لنا كريم مروة في مشروع برنامجه الجديد؟

ابتداءً يمارس كريم مروة، وقبل تقديمه مشروعه، نقداً موضوعياً وواعياً لتجربة الحركة الشيوعية في العالم العربي خلال العقود المنصرمة. التي جاءت في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبشكل أكثر ملموسية منذ العقد السابع من القرن الماضي، إذ بدون مثل هذه الرؤية النقدية للتجربة المنصرمة بما لها وما عليها لا يمكن التقدم خطوات ثابتة وقوية نحو الأمام لتحقيق نهضة جديدة في حركة اليسار. فمن يعجز عن القيام بدراسة نقدية لماضي الحركة وحاضرها بجرأة ومسؤولية واستخلاص دروسها، يصعب عليه تحقيق التجديد ووعي مهمات الحاضر والدفع السليم باتجاه مستقبل أفضل. ومن الجدير بالإشارة إلى أن كريم مروة لا ينسى بأنه كان من المشاركين الفعالين في وضع تلك البرامج القديمة ومن مواقع القيادة أيضاً، وبالتالي فهو ينتقد نفسه من موقع المسؤولية في قيادة الحزب الشيوعي اللبناني حينذاك ويؤشر بذلك مصداقية النقد الذي يمارسه.

بعد ذلك يقدم لنا كريم مروة مشروع برنامج نضالي ديمقراطي متوازن يتضمن عشرين بنداً يعالج فيها قضايا النضال في ظروف المرحلة الراهنة التي تستهدف بناء الدولة الوطنية الديمقراطية الحديثة التي يتمتع فيها الفرد بحقوق الإنسان والمواطنة الحرة والمتساوية، سواء أكان رجلاً أم امرأة، دولة حق وقانون ديمقراطي، دولة

مؤسسات ديمقراطية، الدولة التي ينمو في إطارها المجتمع المدني الديمقراطي الحديث وليس الأهلّي القديم. دولة مدنية علمانية تفصل بشكل واضح بين الدين والدولة وتحترم جميع الأديان والمذاهب وتوفّر لمعتنقيها حرية ممارسة العبادة والطقوس الدينية. ويطرح كريم مروّة في هذا الجزء من الكتاب بقية بنود البرنامج الذي يقترحه بجوانبه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية، من دون أن يغفل الموارد الطبيعية وسبل استثمارها. كما يعطي مكاناً خاصاً للضمانات الاجتماعية والتشغيل وجوانب أخرى من السياسات الداخلية، ويدعو إلى احترام حقوق "الأقليات" القومية في الدول العربية، ويشدد على ضرورة النضال لتحرير بلداننا من أنظمة الاستبداد ومن المظالم التي تفرضها على شعوب البلدان التي تسود فيها هذه الأنظمة.

ولم ينس كريم مروّة القضية الفلسطينية، إذ أفرد لها فقرة خاصة باعتبارها واحدة من أبرز القضايا التي تشكل مصدر القلق والتوتر والحروب في منطقة الشرق الأوسط. ومن حقه أن يحمل أربعة أطراف مسؤولية الوضع في فلسطين، وهي إسرائيل وسياسات الاحتلال والقمع والغلطسة التي تمارسها بإصرار وعناد، وعجز الدول الكبرى والمجتمع الدولي عن المساهمة في حل هذه المعضلة، وكذلك الحالة المزرية السائدة في معسكر القوى الفلسطينية والدول العربية. كما يفترض أن يضاف إلى ذلك عامل التدخل اللفظ في شؤون الشعب الفلسطيني من جانب دول المنطقة وبشكل خاص إيران وسوريا التي ساهمت في نشوء الواقع الراهن عموماً والمشكلة الناشئة عن انقلاب حماس في غزة ورفضها حل الخلاف مع الحكومة الشرعية في الضفة الغربية. ولا يدري الإنسان حتى الآن إلى أين ستنتهي اتفاقية المصالحة التي وقعت بين فتح وحماس في القاهرة أخيراً.

ويتطرق مروّة إلى موضوع التكامل الاقتصادي بين الدول العربية والتنسيق السياسي لصالح الدفاع عن القضايا العربية الملحة والعدالة، ثم يطرح بصورة دقيقة أهمية العلاقة بين الدول العربية والعالم، انطلاقاً من أن بلداننا كجزء من هذا العالم ولنا فيه مصالح ولنا قضايا يستوجب حلها وجود مثل تلك العلاقات مع جميع دول العالم لمساعدتنا في حل الإشكاليات الإقليمية التي لم تحل إلى الآن، ومنها القضية الفلسطينية أو الأراضي العربية المحتلة من جانب إسرائيل في الجولان السوري أو مشكلة الإرهاب.. الخ. وأخيراً يضع كريم مروّة أمامنا بوضوح الموقف الذي يفترض أن تتخذه قوى وحركة التغيير الديمقراطي في العالم العربي من قوى وحركة التغيير على الصعيد العالمي، أي لا بد من تحقيق التعاون والتنسيق في النضال من أجل الوصول إلى قواسم مشتركة في ما بينها لتعمل من أجل تحقيق تغيير فعلي في سياسات الدول الكبرى في الكثير من القضايا الملحة السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية والعسكرية، ورفض التهديد باستخدام القوة أو الحروب الاستباقية من جانب الدول الكبرى وحل المعضلات بالطرق السلمية الديمقراطية، ورفض الإرهاب الدولي المتصاعد الصادر عن قوى الإسلام السياسية المتطرفة وإدانتها ومعالجة العوامل التي تتسبب في بروز ظاهرتي التطرف والإرهاب على الصعيد الإقليمية والدولية.

ثانياً: الموقف من العولمة والأحزاب الشيوعية

\*\* وفي الختام أود أن أشير إلى ثلاث نقاط مهمة:

## 1 . حول العولمة

علينا أن نميز بوضوح، وبخلاف ما يطرح من جانب بعض قوى اليسار، بين العولمة كعملية موضوعية باعتبارها مرحلة من مراحل تطور الرأسمالية لا مرد لها، وهي مرتبطة عضوياً بالتطور الهائل الحاصل في القوى المنتجة المادية والبشرية على الصعيد العالمي، وهي ذات طبيعة رأسمالية وتسري عليها قوانين المرحلة الرأسمالية في تطور المجتمع البشري، وهي ذات طبيعة استغلالية دون أدنى ريب، وبين السياسات العولمية التي تمارسها الولايات المتحدة الأمريكية والدول الرأسمالية المتقدمة وخاصة السبع الكبار + واحد والتي تعبر عن محاولة جادة للهيمنة على الاقتصاد العالمي والتحكم بتطور الدول النامية واستغلال شعوبها. وإذ تشكل دولنا جزءاً من العالم المعولم موضوعياً حيث يفترض في هذه الدول الاستفادة القصوى من الجوانب الإيجابية في هذه العولمة لصالح تطورها المستقل، فأن على شعوب هذه الدول التصدي النضالي المثابر لتلك السياسات العولمية التي تساهم فيها المؤسسات المالية الدولية مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة الدولية الحرة، والعمل الجاد للتخلص من الجوانب السلبية الناشئة عن تلك السياسات التي تمارسها الدول الرأسمالية المتقدمة التي تسعى باستمرار إلى التضييق على وجهة تطور هذه الدول، وخاصة في مجال التصنيع وتحديث الزراعة وتنويعها والبحث العلمي ورمي ثقل أزماتها على عاتق الفئات الكادحة من شعوبها وشعوب الدول النامية.

## 2 . حول الأحزاب الشيوعية

لقد تشكلت الأممية الثالثة في العام 1919 وجاء ذلك في أعقاب ثورة أكتوبر 1917 ونشوء الاتحاد السوفييتي ومحاصرته من جانب الدول الرأسمالية المتقدمة حينذاك والحرب التي شنت ضده من قبل 22 دولة رأسمالية ولعدة سنوات وحاجته إلى دعم دولي من جانب حركة شيوعية جديدة في مواجهة أحزاب الحركة الاشتراكية للأممية الثانية. وإذ انتقلت بعض الأحزاب الاشتراكية أو أجنحة فيها إلى الأممية الثالثة، فقد تأسست في سنوات لاحقة مجموعة من الأحزاب الشيوعية في بلدان العالم العربي بقرار من من الأممية الشيوعية. وعبر تشكيل الكومنترن الذي لعب دوراً كبيراً في هذا المجال وربط الحركة الشيوعية بمركز توجيهي واحد هو الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، أصبحت الحركة الشيوعية عموماً مستهلكة للفكر

السوفييتي بدلاً من أن تقوم تلك قوى الحركة ذاتها بإنتاج أفكارها وسياساتها اطلاقاً من واقعها الخاص. لقد تمت روسنة الفكر الماركسي في فترة مبكرة من تأسيس الحركة الشيوعية وجرى تعميمها وترويجها وبشكل خاص في فترة هيمنة ستالين على مركز الحركة الشيوعية العالمية تحت مصطلح الماركسية-اللينينية الذي لم يكن مطروحاً في فترة لينين. إن تأسيس الأحزاب الشيوعية في العالم العربي جاء استجابة لحاجة تضامن دولية بين أنباع الماركسية-اللينينية من جهة، ووجد استجابة محلية حينذاك بسبب السيطرة الاستعمارية والتخلف الشديد والبؤس الواسع النطاق في الدول العربية والدور السلبي للمؤسسة الدينية في التنوير الديني والاجتماعي من جهة ثانية. إن إدراك هذه المسألة والسعي للتخلص من احتمال إقامة أي مركز قادم للحركة اليسارية هو السبيل لتطور الحركة وتقديمها فكرياً وممارسة. إن هذه الواجهة تحقق استقلالية الحركة في كل بلد من البلدان، وهي ضرورية لوضع سياسة تتطابق مع، أو تقترب جداً من، الواقع، وهي لا تتعارض مع الحاجة الفعلية إلى التضامن والتشاور والتعاون والتفاعل في ما بين الأحزاب والقوى اليسارية على الصعد المحلية والإقليمية والدولية.

### 3 . العلاقة الجدلية بين النضال من أجل الحرية وسعادة الإنسان

القضية الثالثة التي تهمننا نحن الذين نعاني من تراجع حادة وانكسارات شديدة في حركة التحرر الوطني وبناء الدول الوطنية الديمقراطية الحديثة والتي يثيرها بوعي ومسؤولية عالية الصديق كريم مروة، هي العلاقة الجدلية بين النضال من أجل الحرية والحياة السعيدة في الماضي منذ عهد سبارتاكوس مروراً بثورة الزنج في العراق وانتهاء بالواقع الراهن، وبين الفشل الذي أصيبت به تلك الحركات الذي تعود بعض أسبابه إلى عدم توافر الشروط الموضوعية للنجاح، إضافة إلى عدم امتلاك الوعي الضروري لدى تلك الحركات بالواقع الذي لم تدركه تلك الحركات جيداً ولم تستوعب حركة التاريخ وسبل التعامل الواعي مع القوانين الموضوعية. إن العالم يتحرك بمجمله نحو الأمام والارتدادات الحادة التي تصيب أجزاء من هذا العالم لا تؤثر كثيراً إلا بمقدار ما تساهم في تعديل المسيرة العامة. ومن هنا فإن انهيار الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي يجسد مجموعة من الحقائق التي تؤكد بأن البدايات لم تكن صائبة والواقع لم يكن مدركاً بشكل جيد وأن ما كان قد جرى تناقض مع ما كان يفترض أن يكون، وبالتالي اصطدم الفكر الانتقائي بواقع الحال. كل ذلك يستوجب إعادة النظر من قوى اليسار، القديم والجديد، إعادة النظر في دراسة التجربة والعوامل التي تسببت في



انهيارها وسبل الخلاص منها من خلال دراسة واقع العالم والمتغيرات فيه في ضوء المنهج العلمي المادي الجدلي.

إن انهيار النظام السياسي في الاتحاد السوفييتي وفي غيرها من الدول لا يعني ثلاث مسائل جوهرية:

\*\* لا يعني انتصار الرأسمالية على الاشتراكية أولاً.

\*\* ولا يعني فشل الفكر الاشتراكي أو فكر العدالة الاجتماعية والحرية والديمقراطية للإنسان الفرد والمجتمع ثانياً.

\*\* كما لا يعني أن على قوى اليسار في العالم، ومنها قوى اليسار في منطقة الشرق الأوسط وفي الدول العربية، أن تتوقف عن الحلم بعالم جديد خال من الاستغلال والبؤس والفاقة شريطة أن تعي مراحل تطور المجتمعات التي تعيش فيها وتناهى بنفسها عن الأوهام وتشخص المهمات والأهداف بصورة دقيقة وتستفيد من دروس التجارب السابقة منذ كومونة باريس في العام 1871 إلى الوقت الحاضر ثم تواصل النضال من أجل الأهداف الإنسانية النبيلة على وفق تلك المراحل وليس القفز فوقها.

لقد كان الفضل الكبير لماركس وإنجلز أنهما وضعاً أو استكملاً وضع منهج علمي للبحث والتدقيق واستخلاص الاستنتاجات الضرورية للممارسة السياسية من قبل الأفراد أو الجماعات أو الأحزاب السياسية، إنه المنهج المادي الجدلي. واستخدام هذا المنهج بوعي ومسؤولية في دراسة الواقع القائم في كل بلد من البلدان أو على الصعيدين الداخلي والخارجي أو الإقليمي والدولي، يساعدان على معرفة الماضي وفهم الواقع القائم والعوامل الفاعلة والمؤثرة فيه والمتغيرات الحاصلة عليه والسياسات التي يفترض انتهاجها على وفق المرحلة التي يمر بها هذا المجتمع أو ذلك. إنه الطريق الأسلم لوضع المقولات وتحديد المهمات والأهداف بعيداً عن الاتكاء على النظرية التي هي بالأساس ليست سوى تجريد وتجسيد الواقع القائم وصياغته في مقولات مع ما اكتشف من خلالها من قوانين موضوعية. ومن هنا جاء تشخيص إنجلز حين قال "الماركسية ليست عقيدة جامدة، بل نظرية مرشدة". فحين يتغير الواقع الذي نعيش فيه، تتغير المقولات النظرية أيضاً ولا بد من صياغة مقولات جديدة في ضوء العلاقة بين الظواهر الجديدة الفاعلة. ومن هنا يمكن القول بأن الكثير من المقولات أو الاستنتاجات النظرية التي تحدثت بها كل من ماركس وإنجلز في حينها لم تعد سارية المفعول حالياً أو شاخنت، ولكن دراستها مفيد لفهم طريقة التعامل مع الواقع وتحليله ليس أكثر. لكن القوانين التي تم

اكتشافها بصدد الرأسمالية مثلاً فهي لا تزال فاعلة لأنها مرتبطة بتشكيلة اجتماعية اقتصادية، رغم أن فعل هذه القوانين متباين من بلد إلى آخر وفق مستوى تطور البلدان وعوامل أخرى فاعلة.

وإذا كان الجزء من هذا الكتاب بهذا الغنى الفكري والسياسي، فإن الجزء الثاني منه تضمن نصوصاً منتقاة من ماركس وإنجلز ولينين وبليخانوف وروزا لوكسمبورغ وغرامشي، وهي نصوص لا يعني الأخذ بها، إذ إنها تعود إلى ذات الماضي، ولكن تتضمن فكرة أساسية ومهمة حقاً، إذ يطرح أصحابها رؤية جديدة ومهمة في الفترات التي عاشوا وعملوا فيها. وأهميتها تكمن في المنهج الذي استخدم في بلورة تلك الأفكار. إن إعادة نشرها في هذا الكتاب يراد منه قوى اليسار في الدول العربية بأن عليها تحريك المياه الراكدة في هذه المنطقة من العالم، رغم حركة المياه السريعة في أماكن أخرى من العالم. إن المشكلة التي يمكن تشخيصها بالنسبة لقوى اليسار في العالم العربي هي أن ساعة البلدان العربية وهذه القوى، ونحن منها، لا تزال متوقفة أو متأخرة في حركتها كثيراً، في حين أن الزمن يجري وبسرعة فائقة، وبالتالي فالأمر لا يقتصر على عدم تقدمنا خطوات إلى أمام، بل إلى واقع تراجعنا عن حركة الزمن وعن المسيرة والتقدم والحضارة العالمية، عندها تتسع الفجوة الفاصلة بين عالمنا والعالم المتحضر.

2010/8/15

قراءة في كتاب "دراسات حول القضية الكردية ومستقبل العراق" للأستاذ الدكتور منذر الفضل



الدكتور منذر الفضل 2012

عنوان الكتاب: دراسات حول القضية الكردية ومستقبل العراق

اسم الكاتب: الدكتور منذر الفضل

دار النشر: أراس - أربيل

سنة النشر: 2004

عدد الصفحات: 368 صفحة

أثناء إقامته في المنفى القسري في الدول العربية وأوروبا كتب الأستاذ الدكتور منذر الفضل مجموعة مهمة من الدراسات والكثير من المقالات حول القضايا العراقية الملتهبة في ظل الدكتاتورية الغاشمة التي جثمت على صدر العراق طوال 35 عاماً. جمع تلك الدراسات والمقالات في كتاب جديد ومهم صدر في شهر مايس/أيار من عام 2003. وقد أهداني الزميل الفضل مشكوراً نسخة من هذا الكتاب الذي يستحق القراءة والمناقشة للأفكار الكثيرة الواردة فيه.

يتضمن الكتاب قسمين، الأول منهما يعالج القضية الكردية في العراق، والقسم الثاني يعالج قضايا المجتمع المدني والديمقراطية وحقوق الإنسان في ظل النظام الدكتاتوري من جهة، والنضال في سبيل الخلاص من هذا النظام وإقامة المجتمع المدني الديمقراطي الحديث على أنقاضه من جهة ثانية.

تضمن القسم الأول سبعة فصول درس فيها القضية الكردية وموقف النظام العراقي المقبور منها وطبيعة العلاقات العربية الكردية على مر القرون المنصرمة منذ الفتح الإسلامي العربي للعراق والمنطقة. كما يبحث في الاتحادية الفيدرالية والقرار الذي اتخذته المجلس الوطني الكردستاني بهذا الصدد، وتصوراته عن العراق الديمقراطي الاتحادي المنشود مستعيناً في ذلك على الدراسات الخاصة بمفهوم ومضمون الاتحاد الفيدرالي واجتهاده في الأمر. ثم ينتقل إلى البحث في ما ارتكبه الطغمة الباغية في العراق ضد الشعب الكردي والأقليات القومية في كردستان العراق أثناء الحملات العسكرية الدموية ومجازر الأنفال وضحايا مجزرة حلبجة، إذ أنه لا يدينها بشدة فحسب، بل يطالب المجتمع الدولي على محاسبة ومعاقبة مرتكبيها والتضامن مع الشعب الكردي لتحقيق هذه الغاية. وفي فصل آخر من هذا القسم يعالج الأستاذ الفضل الجرائم البشعة التي ارتكبتها النظام العراقي منذ السبعينات، وخاصة قبل وأثناء الحرب العراقية-الإيرانية، ضد المواطنين العراقيين والمواطنين العراقيين من بنات وأبناء الشعب الكردي، أي ضد الكرد الفيلية، الذين شاركوا على امتداد قرون حياة الشعب العراقي وساهموا في صنع تاريخه وتطوره، وشاركوا في نضال القوى الوطنية والديمقراطية في معارك النضال ضد الاحتلال وفي سبيل الاستقلال والسيادة الوطنية والحريات الديمقراطية ولاقوا من عنت قمع البعثيين كثيراً لأسباب شوفينية وعنصرية، ولكنه أيضاً بسبب موقفهم النضالي والبطولي أثناء الانقلاب الدموي الفاشي في عام 1963 ضد حكم عبد الكريم قاسم. لقد قام النظام المخلوع بقتل عشرات الآلاف من الكرد الفيلية من النساء والرجال، والشبيبة منهم على وجه أخص، وهجر عشرات الآلاف الأخرى إلى إيران ومنها إلى مختلف بقاع العالم. وهم يتوقعون العودة على الوطن بعد زوال الدكتاتور. وفي القسم الثاني من الكتاب، الذي تضمن اثني عشر فصلاً، يعالج الأستاذ الدكتور الفضل مجموعة من القضايا الحيوية على شكل دراسات جادة وأخرى مقالات مهمة في الشأن العراقي وقضايا المجتمع المدني والديمقراطية وحقوق الإنسان. كما يحاول استشراف آفاق التحولات القادمة في العراق وبيشر الناس بقرب زوال ليل العراق الدامس.

في الفصل الأول تناول الزميل المبادئ الأساسية التي تحتويها شرعة حقوق الإنسان التي صادقت عليها الأمم المتحدة، وخاصة لائحة حقوق الإنسان التي أقرت في عام 1949، وكان العراق من أول المشاركين في إعدادها والموقعين عليها، ثم العهود والمواثيق الدولية الأخرى وخاصة العهد الخاص بالحقوق السياسية للمواطنة والمواطن في جميع أرجاء العالم، ثم العهد الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكذلك القرارات الأخرى الخاصة بحقوق المرأة والنضال ضد التمييز العنصري وضد التمييز بوجه عام وضد التعذيب وضد التهجير... الخ. ويستدل منه أن الأستاذ الفضل يميل إلى أن تصبح هذه الشرعة والقرارات

الأخرى الصادرة بهذا الصدد مادة أساسية في التعليم والتثقيف العام في صفوف المجتمع وعلى مختلف المستويات والمجالات. وهو أمر حيوي وقضية ملحة في هذه المرحلة وفي المستقبل.

أما الفصل الثاني فيطرح الزميل فيه الدستور الدائم للعراق الديمقراطي المنشود وإقامة دولة القانون الديمقراطي. وفي هذا الفصل مادة غنية للمناقشة والحوار التي تسهم في الوصول إلى الصيغة المنشودة للدستور العراقي الدائم، مستفيداً في ذلك من التجارب المريرة التي مر بها الشعب العراقي منذ تأسيس الدولة العراقية وصدور الدستور الملكي الأول في عام 1925 والذي تضمن مواد دستورية ديمقراطية كانت تهدف إلى إقامة المجتمع المدني، وكيف شوه هذا الدستور الدائم من قبل ذات السلطات التي وضعت وأقرته، من قوات الاحتلال البريطاني والسفارة البريطانية ومن الحكومات العراقية المتعاقبة في العهد الملكي المقبور، ثم في تجارب الدساتير المؤقتة والتجاوزات الصارخة عليها من خلال عدم وضع دستور دائم للبلاد ومن خلال انتهاك البنود الواردة فيه من ذات القوى التي وضعت. فهو يدعو إلى وضع وإقرار دستور ديمقراطي، مدني وعلماني قائم على أساس دولة ديمقراطية، دستورية، اتحادية، تعددية، برلمانية حرة وتستند إلى التداول الديمقراطي البرلماني للسلطة.

أما الفصل الثالث فيعالج موضوع السلطة القضائية مستفيداً من تجربته الغنية في العمل في وزارة العدل وفي الجامعة كأستاذ مشارك للقانون المدني ومطلعاً على الكثير من القوانين القضائية في البلدان العربية وفي غيرها من بلدان العالم. وداعياً بشكل واضح إلى استقلال القضاء العراقي الذي كان ولمدى عقود حبيس الدكتاتورية ورهينتها الدائم. وأهمية دور القضاء في الرقابة على السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية بهدف فرض ممارستها الصحيحة لبنود الدستور والابتعاد عن السقوط في هوة انتهاكه وانتهاك حرمة دولة القانون الديمقراطي. ومن خلال دراساتي يمكن القول دون تردد بأن العراق لم يعرف دولة القانون الديمقراطي عموماً ولكنه فقد كل قانون وبشكل كامل في فترة حكم البعث وقيادة صدام حسين للدولة الاستبدادية. ثم عالج الزميل التجاوزات الفظة على استقلال القضاء وحقوق الإنسان من خلال تشكيل المحاكم الخاصة والعسكرية التي كانت تنفذ إرادة الحاكم المستبد ويضع على رأسها أفراداً لا يفقهون من القانون شيئاً، ولا يعرفون شيئاً عن حقوق الإنسان، وكل همهم أنحصر في إرسال المزيد من البشر إلى طاحونة الموت شنقاً أو رمياً بالرصاص أو تحت التعذيب، إضافة مئات الآلاف الذين سجنوا وعذبوا في العراق الذي استباحته الطغمة الباغية.

وفي الفصل الخامس يعالج الدكتور الفضل حقوق المرأة في العراق، المرأة التي حرمت من كل أشكال الحرية، رغم دورها الكبير في المجتمع، المرأة التي تعيش في مجتمع ذكوري لا يعرف الرحمة ولا يحترم حقوق المرأة ويدعي أنه يريد حمايتها وحماية شرفها، في حين أنه يدوس على كرامتها. وكان النظام العراقي قد حرم المرأة بسياساته العدوانية والتوسعية من والدها وأخيها أو زوجها أو ابنها أو عزيز وحبيب لها من خلال الحروب التي خاضها والموت الذي حصد مئات الآلاف من البشر، وكذلك من خلال القمع الدموي. إن المرأة عانت

طويلاً من ظلم الدولة والمجتمع وهي التي يفترض أن تتمتع بكل الحرية. ويورد الزميل نماذج من موقف النظام من المرأة واحتقاره لها حيث أصدر صدام حسين قانوناً أجرى بموجبه تعديلاً على نص المادة 409 من قانون العقوبات العراقي رقم 111 لسنة 1969 وأصدر القرار رقم 111 لسنة 1990 الذي أجاز فيه قتل المرأة دون إنزال أي عقاب على الفاعل، إضافة على الضرب والإهانة وكل ما هو غير لائق. وكان هذا القانون بنصوصه الجديدة أسوأ ما عرفه تاريخ العراق من إساءات للمرأة ومن عودة إلى عهود مظلمة في بلد كان أول من وضع القوانين وسعى إلى تنفيذها واحترام المرأة وحاول إنصافها في بعض حقوقها، ونقصد بها القوانين البابلية ابتداءً من قانون أورنمو ومروراً بقانون أشتونة ولبت عشتار وقانون حمورابي وانتهاءً بالقوانين الآشورية، رغم أنها هي الأخرى لم تكن عادلة وكانت تميز بين المرأة والرجل، ولكنها كانت أكثر تحراً وحرية وأكثر نداءً للرجل مما هي عليه اليوم. ويقدم الأخ الفضل العديد من النماذج السيئة على ممارسة النظام المباد في سلوكه ومواقفه إزاء المرأة، رغم حديثه المكرر والممجوج والكاذب عن النساء "الماجدات"، في وقت كان يخطف يومياً منهن الابن والأخ والأب والزوج أو الخطيب والحبیب. أما الفصل السادس فيعالج فيه باختصار شديد موضوع العولمة العسكرية والمعارضة العراقية رابطاً فيه بين الجرائم التي ارتكبت في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 على الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها نموذجاً للإرهاب الدولي، وهو صحيح، وبين الحرب التي شنت على أفغانستان وحكم طالبان وتنظيم القاعدة الذي خطط ونظم ونفذ تلك الجرائم البشعة. ولكن الكاتب يمنح هذه الدولة الأعظم في العالم الحق في إنزال الضربات الإجهاضية بالإرهابيين أينما وجدوا أو بالدول الإرهابية. وبصدد هذه النقطة سأتوقف عندها لاحقاً، أي بعد الانتهاء من الاستعراض المكثف للكتاب.

وفي الفصل السابع يعالج الأستاذ الفضل موضوع هجرة العقول العراقية إلى الخارج والعوامل الكامنة وراء هذه الهجرة ودور النظام العراقي في كل ذلك والخسارة الكبيرة التي يتحملها المجتمع والاقتصاد في العراق من جراء تلك الهجرة وسبل إعادة المهاجرين أو المهجرين منهم قسراً إلى العراق للمشاركة في بناء العراق الديمقراطي المزدهر. ويقدم شرحاً مناسباً لمفهوم العقول العراقية، إذ لا يربطها بالشهادات العالية، بل بكل الكفاءات والقدرات العلمية والتقنية والفنية والمهنية والكتاب والأدباء والشعراء والفنانين المبدعين الآخرين بمختلف جوانب الإبداع والعمال المهرة والمنتجين الحقيقيين للثروة الاجتماعية. ونحن نعرف أن عدداً كبيراً جداً من العراقيين من ذوي الكفاءات هذه قد أجبروا بصيغ شتى، نتيجة للإرهاب والقمع وغياب الحرية الأكاديمية والاضطهاد والمحاكمة بالرزق أو الضغط للانتماء لحزب البعث أو رفض المشاركة في النشاط التخريبي للنظام، مما كان يدفع بهؤلاء الناس إلى الهروب والبقاء بعيداً عن طائلة النظام وجلاوزته. وفي الفصول اللاحقة يعالج الكاتب مشكلات التطرف والإرهاب الدولي، وإصلاح النظام القانوني والقضائي في العراق، وملاحظاته على مؤتمر المعارضة الذي حضرته أطراف ستة في لندن، وأخيراً يبحث في حالة حقوق الإنسان العراقي اللاجئ في ضوء أحكام القانون الدولي.

من هنا يتبين أن الأستاذ منذر الفضل عالج حزمة كبيرة ومهمة من القضايا العراقية الملحة، وخاصة القضية الكردية والمصائب التي عانى منها الشعب الكردي في كردستان العراق قبل وأثناء وبعد حملات ومجازر الأنفال الدموية، ومشكلات العنصرية والشوفينية العربية والتطهير العرقي ضد الشعب الكردي ومعاناة الأقليات القومية، إضافة إلى معاناة الكرد الفيلية في العراق طوال العهود المنصرمة، والسياسة الطائفية والعشائرية التي مارسها النظام أيضاً، ولكن بشكل خاص في ظل البعث الحاكم. كما تضمن الكتاب دراسة مهمة حول طبيعة الدولة والحكم والفيدرالية من ناحية القانون الدولي وموقفه من الاتحادية المنشودة في كردستان العراق في إطار الجمهورية العراقية. وكانت دراساته ومقالاته مهمة وواضحة الوجهة والموقف عند تطرقه لإشكاليات الديمقراطية وحقوق الإنسان في ظل الحكم المقبور وهجرة العقول العراقية إلى الخارج والعوامل الكامنة وراء تلك الهجرة الواسعة. ولم يكتف الأستاذ الدكتور الفضل في معالجة الواقع العراقي في ظل الدكتاتورية، بل عالج مستقبل العراق كما يراه وبتعبير أدق كما يريد أن يراه ويناضل في سبيله مع الكثير من قوى المعارضة العراقية الديمقراطية.

إن التحليل النقدي للكتاب يستوجب كتابة أكثر من مقال بسبب تنوع الدراسات التي تضمنها الكتاب وغزارة المعلومات التي قدمها والموقف الواضح والدقيق الذي اتخذته الدكتور منذر الفضل بشأن خمس قضايا جوهرية:

1. الموقف الصارم المناهض للعنصرية والشوفينية العربية التي عانى منها الشعب العراقي عموماً وشعب كردستان خصوصاً والمتمثل ليس بنظام البعث العراقي الحاكم المقبور فحسب، بل بكل الحكام الشوفينيين العرب والقوى الشوفينية التي تؤيد ممارسة التمييز العنصري والديني والطائفي والفكري في الدول العربية. ويدل على وجود الذهنية والممارسات العنصرية من خلال استعراضه لمسيرة النظام العراقي إزاء القضية الكردية والشراسة الدموية في مواجهة المناضلين في سبيل حقوقهم القومية العادلة والمشروعة، ويستعرض في هذا الصدد مواقف مختلف النظم إزاء الشعب الكردي ابتداءً من حكومة عبد الكريم قاسم واندلاع ثورة 1961 ومروراً بحكومات البعث والقوميين اليمينيين وانتهاءً بالحكم المطلق لصدام حسين. وبرز بشكل خاص حملات الأنفال التي استمرت من شباط/فبراير حتى تشرين الأول/أكتوبر من عام 1988 والتنشيد والتغيب والقتل الذي شمل 182000 إنسان كردستاني، غالبيتهم العظمى من الأكراد مع ضحايا آخرين من الأقليات القومية. ولا يكتفي بشجب هذا الموقف وإدانته، بل يطالب بتقديم المسؤولين عن تلك الجرائم إلى المحاكم الدولية باعتبارها جريمة ضد الإنسانية، وهو ما يتفق معه الغالبية العظمى من الناس الديمقراطيين ومحبي السلام في العالم.

2. يؤكد الأستاذ الفضل في دراساته إلى أن ما قام به النظام العراقي الاستبدادي ضد شعب كردستان لا يمت إلى الأخوة والتضامن النضالي بين الشعب الكردي والشعب العربي والأقليات القومية في العراق بصلة، بل هو ضدها وعمل على الإساءة إليها، وأن الشعب العراقي بغالبيته العظمى رفضها ورأي فيها تجاوزاً على كل القيم

والتقاليد الثورية والنضالية للشعب العراقي. وأكد بأن هذه الأخوة والوحدة الوطنية تتعزز أكثر فأكثر من خلال الاستجابة الواضحة والمسؤولة للمطالب العادلة للشعب الكردي التي طرحها منذ عقود طويلة قائد الشعب الكردي الملا مصطفى البارزاني والحزب الديمقراطي الكردستاني والأحزاب الوطنية الأخرى التي التزمت الدفاع عن القضية الكردية وحق الشعب الكردي في تقرير مصيره، أي إقامة الاتحاد الفيدرالي ضمن الدولة العراقية.

3. ويربط الدكتور الفضل بشكل سليم يعتبر عن وعي قانوني رفيع ومسؤولية عالية إزاء مصائر وآفاق تطور الشعب العراقي بين الاستجابة الواعية والمسؤولة إزاء هذه الحقوق وبين الدولة الديمقراطية الاتحادية التي يفترض أن يعيش في ظلها الشعب العراقي، دولة الدستور والقانون الديمقراطي والتعددية السياسية والبرلمانية الحرة والتداول الديمقراطي البرلماني للسلطة، والتعددية السياسية والبناء الاقتصادي والاجتماعي التقدمي وتحقيق العدالة الاجتماعية. وفي هذه الإشكالية الكبيرة تبرز أهمية الدراسات التي قدمها الدكتور في هذا الكتاب حول قضايا المجتمع المدني والديمقراطية وحقوق الإنسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكذلك حقوق المرأة في المجتمع الذكوري الذي نعيش فيه والذي اغتصب إلى ابعده حدود حقوق المرأة بحجة حمايتها والدفاع عن شرفها... الخ. وبهذا القسم من الكتاب يدل الدكتور الفضل على وعيه وحسه الديمقراطي ودفاعه من مواقع المسؤولية القانونية والإنسانية عن تلك القضايا العادلة التي غيبتها النظم السياسية التي حكمت العراق لا في ظل حكومات العراق الحديث فحسب، بل وفي ظل الدولة العثمانية وقبل ذلك أيضاً. ومن يقرأ الكتاب يتوصل إلى قناعة تامة بأهمية ما يدعو إليه الدكتور الفضل، وأعني بذلك دعوته المباشرة أو غير المباشرة أي من خلال النصوص وما بين السطور، إلى الفصل بين السلطات والاستقلال الكامل للقضاء العراقي، والرؤية العثمانية للدولة الحديثة التي تفصل بين الدين والدولة، وحرية الفرد والجماعة في المجتمع.

4. لقد تركز هم الكاتب في دراسته في الكتاب على فضح النظام المقبور والكشف عن سياساته وإجراءاته وممارساته الفعلية والقمعية إزاء الشعب العراقي كله وتجاوزه على كل القيم والمعايير القانونية، وكان يرى أن لا خلاص من هذا النظام إلا بوحدة القوى السياسية العراقية الديمقراطية وكل القوى المناضلة ضد الدكتاتورية. ولكنه، أدرك صعوبة تحقيق هذا الهدف وأدرك صعوبة إسقاط النظام بالقوى الذاتية للشعب العراقي، فأيد موقف أحزاب المعارضة العراقية الستة التي اجتمعت في لندن وصالح الدين، ولكنه انتقدها أيضاً على الأخطاء التي ارتكبتها أثناء تلك الاجتماعات، وعبر في ذلك عن موقفه السياسي الديمقراطي المستقل إزاء ما جرى ويجري في العراق.

5. وفي الوقت الذي كان يرى قدرة العراقيات والعراقيين على بناء بلدهم الحر الديمقراطي بما لديهم من كفاءات وقدرات علمية وفنية ومهنية اضطرت الغالبية العظمى منها إلى الهجرة والعيش في المنفى قسراً أو خياراً لا بد منه، وأن عودة هذه الكفاءات والعقول النيرة إلى بقية الموجودين في العراق ستسهل وتعجل مهمة إعادة بناء العراق الحر والديمقراطي. ولكن يرى بأن العراق سيحتاج إلى جهد العالم كله للخلاص من النظام



الذي قبر أخيراً من جهة، ومن أجل إعادة بناء العراق من جهة أخرى. وهي الإشكالية الكبيرة التي تواجه المجتمع العراقي في المرحلة الراهنة.

إن المواقف الحازمة التي اتخذها الدكتور الفضل خلال الأعوام العشرة الأخيرة ضد النظام العراقي من جهة ومواقفه الداعمة لحق الشعب الكردي في تقرير مصيره وتأييد خياره المشروع في إقامة الاتحادية الفيدرالية وشجب العدوان على الشعب الكردي وإدانة العنصريين والشوفيين العرب على سياساتهم في العراق ومنها سياسة القتل والتطهير العرقي والتعريب ومنها ما حصل في كركوك، سواء أكانوا في السلطة أم خارجها وسواء أكانوا عراقيين أم من بلدان عربية، قد جلبت له عداة الكثيرين، مما رفع من وتيرة التشهير به ومحاولات الإساءة إليه، وأعتقد بأن مثل هذه الحملة لا تعبر عن موقف حضاري وإنساني، بل هي من مخلفات الماضي حيث كانت المهارات تحتل موقعاً مهماً في الممارسات السياسية اليومية وفي الإعلام.

إن التنوع الكبير في الموضوعات التي عالجها الكتاب والرؤية الاجتهادية للكثير من القضايا الواردة في الكتاب تسمح بتنوع الرؤية أيضاً وبالاختلاف أو الاتفاق مع الكاتب، وهنا تكمن إحدى حسنات الكتاب، إذ أنه يثير الحوار تأييداً أو معارضة. وفي الوقت الذي وجدت في الكتاب الكثير من النقاط التي يمكن الاتفاق عليها مع الكاتب، وجدت نفسي مختلفاً معه في بعض الملاحظات التي أحاول الإشارة إليها، ولست مدعياً أن رأيي هو الصائب، بل أطرح اجتهادي لتنشيط الحوار والإغراء بقراءة الكتاب.

الملاحظة الأولى: تشير إحدى فقرات الدراسة الخاصة بـ "الحوار الكوردي-العربي" إلى ما يلي:

"ومن المعلوم أن العلاقة بين الكورد والعرب ليست وليدة اليوم بل هي روابط وطيدة تاريخية وتنطلق من مصير مشترك يمتد إلى أكثر من ألف عام، فالكورد من الأمم الأولى التي دخلت الإسلام دون حروب وارتبطت بعلاقات حميمة مع الأمم المجاورة ومنها العرب". [ص 16/15]

اعتراضي ينصب على الفكرة التالية فقط التي يقول فيها الدكتور ما يلي: "...، فالكورد من الأمم التي دخلت الإسلام دون حروب...". استناداً إلى المعلومات التاريخية التي لدي أوردت في كتابي المعد للنشر، وهو بعنوان "لمحات من نضال حركة التحرر الوطني للشعب الكردي في كردستان العراق"، الذي قدمته إلى الذكرى المئوية لميلاد الراحل قائد الشعب الكردي الملا مصطفى البارزاني، ما يلي بهذا الصدد: "تم فتح أو احتلال المنطقة الكردية (كردستان الحالية) في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. فبتوجيه منه أرسل سعد بن أبي وقاص جيشاً بقيادة هاشم بن عتبة لاحتلال جلولاء. ويشير السيد صلاح الدين الجوزي فيقول: "دخل الكرد في الإسلام بعد فتح بلادهم على يد الصحابي الجليل عياض بن غنم رضي الله عنه الذي فتح معظم بلاد الكرد من جهة الجزيرة (سنة 18 هجرية)، وكان القعقاع بن عمرو رضي الله عنه قد فتح حلوان الواقعة في جنوب كردستان قبل ذلك (سنة 16 هجرية)". ولم يكن الفتح سهلاً ولا المقاومة ضعيفة، إذ دافع

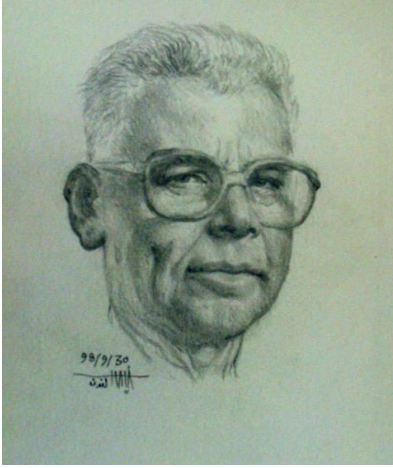
سكان هذه المناطق عن أرضهم بصلابة فائقة وقدموا الكثير من التضحيات. وكان الفاتحون والمحتلون الجدد قساة على سكان هذه المناطق بسبب دفاع القبائل الكردية عن أرضها، تماماً كما حصل في المعارك التي قادها خالد بن الوليد في العراق وفارس. وتشير الكاتبة جغالينا إلى حقيقة المقاومة ضد المحتلين الجدد من العرب المسلمين بقولها "لم يتقبل الأكراد الدين الإسلامي مباشرة. فقد قاوموا الفتوحات العربية بقوة، بالرغم من أن هذا الدين الجديد قد راق وأعجب المحاربين الأكراد، كما أعجب من قبلهم الأكراد القاطنين على أراضي القبائل العربية. وأصبح الإسلام يحاصر تدريجياً المعتقدات الدينية التي كانت سائدة في الأوساط الكردية قبل ذلك". ومنذ بدء احتلال هذه المنطقة وقعت معارك دامية وكثيرة، بما فيها العديد من الانتفاضات الشعبية المسلحة في محاولة من سكانها للتخلص من الهيمنة التي فرضت عليهم وجور الحكام، وخاصة في العهود التالية لحكم الخلفاء الراشدين. وتدرجاً، وعبر عمليات وإجراءات كثيرة دخلت النسبة الأكبر من الأكراد في الدين الإسلامي بعد أن كانت تدين بالزرادشتية، كما كانت تدين بها الكثير من الشعوب الإيرانية حينذاك، في حين حافظ الأكراد الأيزيديون على ديانتهم "الأيزيدية" التي تعتقد بالثنائية في الواحد بخلاف الديانة الزرادشتية التي تفصل بين الاثنين، أي بين الخير والشر، بين أهورامزدا وأهريمان، باعتبارهما قطبين متناقضين ومتعارضين وتنظر إليهما بشكل مستقل عن بعضهما. وأصبحت المنطقة الكردية أو كردستان الحالية بكل أجزائها تقريباً خاضعة للدولة الأموية، ومن ثم للدولة العباسية، وفيما بعد كان الصراع حولها بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية دمويًا وقاسيًا عانى منه بشكل خاص الشعب الكردي الأمرين، إذ كانت ساحته الأساسية كردستان بالذات ووقوده الشعب الكردي ذاته". هذه الحقيقة لا تخل بواقع العلاقات الودية والحميمة بين الشعبين التي أشار إليها الزميل الدكتور منذر الفضل، رغم التخريبات الحكومية والإساءات التي لحقت بالشعب الكردي من الأوساط الحاكمة العربية.

الملاحظة الثانية: تتعلق بالمقال الخاص بالعولمة العسكرية والمعارضة العراقية. كلنا يعرف بأن العولمة العسكرية هي جزء من مضمون العولمة التي بدأت تغزو العالم خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين حتى الوقت الحاضر. وهي عملية موضوعية ما تزال مستمرة وفي بدايتها. والمطلوب هنا أن نميز في موضوع العولمة بين مسألتين مهمتين: العولمة باعتبارها عملية موضوعية مرتبطة بثورة الأمفوميديا، الثورة المعلوماتية وبالتحولات الجارية في القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج على صعيد الرأسمالية الدولية، وبالتالي فهي مرتبطة بقوانين اقتصادية موضوعية لا مرد لها، يفترض فينا الإلمام بها واستيعاب حركة تلك القوانين وبالتالي الاستفادة منها لصالح تطوير بلداننا وإزالة التخلف العلمي والتقني ومكافحة الفقر والحرمان وغياب العدالة الاجتماعية، علماً بأن المستفيد الأول من العولمة الجارية حالياً هي البلدان الرأسمالية المتطورة بسبب طبيعة العولمة الرأسمالية وبسبب السياسات التي تمارس فيها، إذ أنها نجمت عن تطور الرأسمالية ذاتها. والمسألة الثانية تتبلور في سياسات العولمة التي تمارسها الولايات المتحدة الأمريكية على الصعيد العالمي والتي تستند إلى الليبرالية الجديدة التي تفوقها القوى المحافظة الجديدة في الولايات المتحدة الأمريكية

وتشاركها الكثير من الدول الرأسمالية المتقدمة وخاصة الدول الصناعية السبع الكبار. وسياسات العولمة تشمل مختلف جوانب الحياة بما فيها العولمة العسكرية. وهي التي تفاقم دورها بعد سقوط الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية ولا دخل لها بالحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001. إلا أن هذه الجرائم البشعة والمريعة التي ارتكبت في ذلك اليوم من قبل عصابات إرهابية دولية تتستر باسم الدين قد أعطى الفرصة لسياسات العولمة العسكرية لتحقيق أهداف سياسات العولمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الصعيد العالمي ولصالح الولايات المتحدة. إن القبول بالضربات الإجهادية التي تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية يعني رفض القوانين الدولية المقررة حتى الآن من مجلس امن الدولي، وهي تجاوز فظ على القانون الدولي والشرعة الدولية ومجلس الأمن الدولي والأمم المتحدة، إذ أن كل ذلك يفترض أن يتم عبر هذه المؤسسة الدولية وليس بقرار من الولايات المتحدة أو الكونغرس الأمريكي. ومثل هذه التجاوزات يفترض أن لا تقبل بها، إذ أنها تخل بالعالم وبالعلاقات الدولية، إن وافقنا أن تقوم الدولة الأقوى والأعظم بالتجاوز على بقية الدول لقوتها العسكرية ولضعف الدول الأخرى، ونعود بذلك إلى القرون الماضية وإلى عهود الغاب. وهو أمر غير مقبول ولا أعتقد بأن الدكتور الفضل يؤيد ذلك. إن قبول بعض أطراف في المعارضة العراقية بخوض الحرب لإسقاط النظام العراقي لا ينفي بأي حال تجاوز الولايات المتحدة وبريطانيا على شرعية مجلس الأمن الذي رفض الحرب، ويفترض أن لا يعمم النموذج في التعامل الدولي وأن لا يتحول إلى سياسات وإجراءات وحروب تمارسها الدولة الأعظم في مناطق أخرى من العالم. إن الإرهاب لا يتم معالجته بالإرهاب الدولي، بل بمعالجة تلك المشكلات التي كانت السبب وراء الإرهاب، رغم الإدانة الصارمة للعمليات الإرهابية التي قامت أو تقوم بها جماعات القاعدة أو غيرها، بما فيها العمليات الانتحارية التي يطلق عليها البعض بالعمليات "الاستشهادية" تعبيراً عن تأييدهم لها وبالتالي يصبحون مسؤولين عنها أيضاً. إن المكان المناسب لمعالجة المشكلات والخلافات الدولية والإقليمية وقضايا الجوع والحرمان والاستغلال واغتصاب ثروات الشعوب أو اضطهادها هو الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي، إذ أنها المؤسسة الدولية المعترف بها والمتفق عليها حتى الآن ولم يجر إلغاء هذه المنظمة. إن الخروج عن الشرعة الدولية واستمرار وجود تلك الظواهر هي التي تتسبب بنشوء أرضية صالحة للإرهاب، وعلينا مواجهة هذه المشكلات أولاً وقبل كل شيء، ولكن هذا لا يعني السكوت عن الإرهاب. إن الطريقة التي يعالج بها السيد جورج دبليو بوش، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، هذه القضايا فيها الكثير من التطرف والربط بين الوطنية الأمريكية والروح الدينية، حيث يتحدث بان الله يسندني في هذه الحملة ضد الإرهاب، وهو أمر يحمل في طياتها إشكاليات غير قليلة. أمني أن لا نقع بخطأ تأييد هذه الأعمال، رغم أننا ربما لا نستطيع الوقوف بوجهها، كما أن فيها الكثير من الاستعلاء.

2003/06/17

## في تأبين "أبو الحسن" هادي العلوي 78



فقدنا، بغياب هادي العلوي، مفكرا وكاتباً اجتماعياً تقديمياً متميزاً كرس حياته وعلمه ونشاطه لصالح القضية التي كان قد آمن بها وسعى إلى تحقيقها. لم يتسن لي إعداد دراسة مناسبة عن بعض جوانب تراث الفقيد هادي العلوي، إذ إن التعامل مع تراث هادي العلوي ليس سهلاً ويحتاج إلى عناية كبيرة، كما يتطلب تخصصاً في الجوانب التي كان يبحث فيها. ولهذا سأقتصر في مداخلتي القصيرة على بعض الملاحظات العامة راجياً أن تكون مفيدة في الحوار الذي نتوخاه.

تعرفت على هادي العلوي في أوائل السبعينات عندما عملنا سوياً، ومعنا الصديق والرفيق الفقيد د. هاشم الطعان وغيره من الرفاق والأصدقاء، في هيئة تحرير الثقافة الجديدة. سعيت في حينها إلى التعرف عليه وعلى اتجاهاته الفكرية والسياسية من خلال الحوار معه والاستماع إلى آرائه وقراءة ما كان ينشره حينذاك، إذ لم يكن ماركسياً أو مادياً تقليدياً في تحليلاته وكتاباته، كما لم يكن بعيداً جداً عن الفكر والمعالجات الميتافيزيقية. من عرف الفقيد يمكنه أن يشخص فيه مجموعة من الخصائص التي كانت تميزه أو يتفرد بها.

---

78 نص الكلمة التي ألقاها الدكتور كاظم حبيب بحفل تأبين هادي العلوي الذي أقامته ثقافة 11 بمدينة لاهاي الهولندية في 28-3-1999، وكان قد توفي بتاريخ 27 أيلول / سبتمبر 1998 بدمشق؟

فقد تميز بالتقشف والزهد والروحانية الرفيعة وضعته بجوار كبار المتصوفين القدامى من أمثال البصري والحلاج. وتجلّى ذلك في أسلوب حياته وزهده، وفي علاقاته العائلية، وفي طريقة تعامله من الحياة والناس والفقراء من البشر، لقد كان صوفي الروح ثوري النزعة، تميز بالجرأة التي تميز بها الحلاج المقدم وغابت عن سميّه "أبو الحسن البصري". 79

وكان العلوي دعواً في مجال البحث العلمي والتحري عن الحقيقة في بطون الكتب والسعي إلى تحليلها وتفسيرها وتقديمها بصورة تنويرية سلسة ولغة شعبية مقبولة تعبر عن سعة إطلاع وتمكن من اللغة ووضوح في الرؤية والمقصد؛

وكان الفقيد صادقاً مع نفسه ومع العالم الذي حوله، مع ضميره وشعبه والقضية التي كان يحملها في ثناياه، قضية الحرية والعدالة الاجتماعية، كان يعبر عن روحانية ثورية وقناعة حاملة في مواقفه الفكرية وتطلعاته السياسية؛

وكان العلوي حريصاً على قول الحق والموضوعية في البحث من زاوية الرؤية الخاصة به، وهي على سعتها تبقى ضيقة، إذ لم يكن باستمرار قادراً على التزام الموضوعية في البحث سواء بالنسبة لمن كان يقف إلى جانب أفكارهم ويساند مواقفهم، أم من كان يعارض وجهات نظرهم ويرفض مواقفهم. إذ كانت مواقفه الفكرية تؤثر بشكل واضح على دراساته وعلى استنتاجاته، كما لو إنها قد تحددت سلفاً. لقد كان العلوي يتحرك بين العلم والسياسة، بخطى متباينة، وإذ كان قد تميز بالبحث والتفكير العميقين، فإنه لم يكن سياسياً حكيماً أو عميقاً في فهم الأحداث وتحليل المواقف، وهي إحدى إشكالياته، إذ كان باحثاً وسياسياً في آن وكان يتحرك بينهما وفيهما على خطين غير متوازيين؛

---

79 كتب شقيقه حسن العلوي عن زهدي ما يلي: وعاش هادي بعد وفاة والدتي بفقراً، وكان يوزع راتبه بين المعوزين ولا يعطي لأهله سوى الجزء البسيط. وتحول إلى نباتي وبقي إلى أن توفي نباتياً. في المنفى يأخذ مني 100 دولار في الشهر فقط. أقول له: هادي هاي وين تحطه الميه خلي اسويه الك ميتين؟ يقول انطيني 200، فيأخذ المئة الثانية ويعطيها لبواب العمارة. أيام الوظيفة في بغداد كان يأخذني إلى السوق ويشتريني لي قميصاً جديداً ويأخذ القميص القديم. حذائي جديد وحذاؤه قديم. هو دائماً ملابسه قديمة. يقول كافي بنطلون واحد ونعال، ماذا لبس عمر ابن الخطاب وماذا لبس علي ابن أبي طالب، وماذا لبس الجاحظ. وكان يقول إن الشمعة التي عندي أكبر 40 مرة من ضوء الجاحظ الذي كتب عليه البيان والتبيين.. وماذا سأكتب؟ هل سأكتب شيئاً أهم مما كتب الجاحظ؟" (راجع: أقلام حرة، حسن العلوي عن هادي العلوي. 2010/3/23" (ك.ح)

وكان الفقيه يقف بشكل ملفت للانتباه إزاء التقدم والحدثة، إذ كانت له رؤيته الخاصة، أي أن فهمه للحدثة كان مختلفا عن الفهم العام والواقعي للحدثة الجارية في العالم. وهذه النظرة المتمتزة إزاء مفهوم الحدثة هي التي وضعت في تعارض مع الحدثة الغربية عموما، إذ كان يرى فيها إنها نتاج عالم غربي متفسخ. وكان الفقيه شديد العداء للإمبريالية والاستعمار والصهيونية والعنصرية والاستعباد والتمييز والرجعية والعلاقات الإنتاجية البالية، حتى أنه كان يرى أن كل شئ ناشئ عن الإمبريالية ومرتبطة به بطريقة ما، وبالتالي وتحت تأثير هذا الهاجس رفض الثقافة الغربية عموما، وهي إحدى إشكاليات تحليلاته وكتاباته الفكرية والسياسية التي تحتاج إلى قراءة نقدية صارمة؛

وكان العلوي يقف بثبات إلى جانب قضايا تحرر الشعوب وفكرة الشيوعية أو المشاعية الاجتماعية، باعتبارها الطريق الوحيد المفضي إلى العدالة الاجتماعية والمحفز للقيم الإنسانية الأخرى. ولم يستلهم هذا الموقف من الفكر الماركسي فحسب، بل ومن التراث العربي والإسلامي ومن تراث الصين على نحو خاص. ومن هنا انطلقت مواقفه الواضحة التي تجلت في دراساته وتحليلاته للتاريخ الإسلامي ووقوفه بحزم إلى جانب ثورة الزنج وحركة القرامطة الطليعية وبقية الحركات الفكرية والسياسية التقدمية التي دافع عنها ضد المغرضين والمسيئين إليها. وهكذا تجلت مواقفه أيضا إزاء الفلسفة التاوية، باعتبارها فلسفة شعبية، ولاوتسه، باعتباره المؤسس الأول لهذه الفلسفة الصينية، وميزها بوضوح عن الفلسفة الكونفوشيوسية، باعتبارها فلسفة السلطة والحاكمين. فمواقفه كانت إنسانية عميقة، وكان صارما في تبنيه ودفاعه عن قضية الفقراء في العراق وفي كل مكان من كوكبنا الفسيح، كما كان يريد أن يكون بجوارهم ومعهم في مستوى عيشه البسيط. وفي هذا كان منسجما مع نفسه ومع ضميره وإنسانيته. فقد وقف بحزم وثبات في معسكر الفقراء والمستضعفين وضد معسكر المستغلين والأغنياء والجائرين، ضد الملكية الخاصة الواسعة وضد تكنيز المال، وله في هذا ما يعتز به ويجعله حاضرا بيننا باستمرار. ويبدو لي أن هذا الموقف هو الذي وضعه على طريق المشاعية ومن ثم الشيوعية في وقت مبكر من حياته، كما أن هذه الوجهة هي التي كانت وراء تشكيله "الهيئة المشاعية العليا للعراق"، إضافة إلى إصداره النشرات والبيانات دفاعا عن العدالة وعن المحتاجين في عراق اليوم، وسعيه لجمع المبالغ الممكنة لتوزيعها على المحتاجين من العوائل العراقية. لقد رسم أبو الحسن العلوي في مخيلته وعلى الورق "دولته المشاعية" التي تذكرنا، بهذا القدر أو ذاك، بحركة القرامطة الكوفية وكذلك بدولة القرامطة في بداية تكوينها في البحرين، إنها الدولة التي كان يطمح بها ويسعى إلى تعبئة الناس من أجلها ويتمنى رؤيتها حقيقة واقعة، وكانت محض خيال بالصيغة والطريقة التي كان يريدتها؛

وتميز الفقيه بالحساسية الشديدة والانفعال الجارف للقضايا التي كان يقتنع بها ويساندها بغض النظر عن النتائج أو العواقب التي يمكن أن تلحق به وبعائلته. فكانت مواقفه هذه تفقده الموضوعية وتثير الالتباس، كما كانت تستقبل بالرفض في أحيان غير قليلة. ويرد في هذا الصدد موقفه السلبي الثابت الذي لم يتزعزع إزاء المثقفين. إذ كانت لشيخنا الفاضل وجهة نظر ومعايير محددة خاصة به بالنسبة للمثقف، ومن خرج عنها وضعه في خانة أخرى. لقد كان العلوي تعسفياً في بعض أفكاره وتصوراتهِ، سواء في هذا المجال أم في مجالات أخرى. ويبدو لي أن العلوي الباحث والعالم المبرز لم يكن في مواقفه الفكرية والسياسية ديمقراطياً حقاً، إذ كان يريد أن يكون الناس وفق المقاسات التي رسمها لهم، ومن ابتعد عنها ابتعد عنه أيضاً وأصبح في خانة غير المرغوب بهم. وفي هذا تعسف كبير وكثير في آن .

ومن الجدير بالإشارة إلى أن للفقيه العلوي اجتهادات مهمة وجديدة و متميزة في كتاباته التحليلية واجتهاداته بشأن تطور الفكر العربي والإسلامي وفي فهمه للعروبة والبداءة، وكذلك في فهمه للعلاقة بين اليهودية والمسيحية والإسلام، وفي تقديره للعلاقة الرباعية بين النبي محمد وأبي بكر وخديجة الكبرى وورقة بن نوفل، وما انعكس منها في القرآن والسنة، يفترض أن تدرس بعناية كبيرة من جانب المتخصصين لتسليط الأضواء عليها ومن أجل المزيد من بلورة العلاقة الفعلية بين هذه الأديان وبين التراث الفكري والديني القديم والمتنوع والمتراكم في منطقة الشرق الأوسط.

لقد برزت وتبلورت مساهمات هادي العلوي في الدراسات اللغوية وتاريخ تطور الفكر والممارسات السياسية الإسلامية بشكل خاص خلال العقدين المنصرمين، وكشف للقارئ جملة من المعضلات والأمراض التي كان المجتمع العربي وما يزال يعاني منها، أخص بالذكر منها موضوع الاستبداد والاختيال والتعذيب السياسي في الإسلام. وحاول بنجاح أن يكشف عن الأساس المادي الذي كان وما يزال يستند إليه الاستبداد والاختيال والتعذيب الذي تعرض وما يزال يتعرض له المواطن في البلدان العربية أو البلدان التي تسمى إسلامية أو في غيرها، وربط بشكل سليم بين طبيعة علاقات الإنتاج السائدة في هذه البلدان والنظم السياسية الاستبدادية المنبثقة عنها، وما ينشأ عن ذلك من ظلم ومصادرة للحريات والحقوق والممارسات الديمقراطية والتجاوز الفظ على حقوق الإنسان. ومن هنا جاء تأكيده أيضاً بأن ظواهر الاستبداد والقتل والتعذيب والتجاوز على حرية الفكر ومصالح الناس واغتصاب حقوقهم ليست حديثة العهد ولا تقتصر على الإسلام وحده، بل شملت جميع النظم الاستغلالية في العالم وعلى مدى العصور السالفة. فظواهر الاستغلال والعسف السياسي والقتل أو التعذيب قديمة حقاً وأقدم من الإسلام والمسيحية واليهودية، إذ يجدها المرء في ما وصل إلينا من معلومات

عن العراق القديم منذ العهود السومرية والبابلية والآشورية والكلمية أو الفارسية في فترات المجوس مثلا. كما إنها ظواهر عانت منها شعوب العالم كلها، وعرفت كل الأديان والمذاهب والتيارات الفكرية والسياسية على امتداد التاريخ حتى العصر الذي نعيش فيه، باعتباره أكثر العصور تطورا وتقدما وتحضرا، رغم الجوانب اللإنسانية التي ما تزال تميز هذا العصر حتى الوقت الحاضر. وإذا كانت النظم الإقطاعية والرأسمالية، وقبل ذلك نظم العبودية قد عرفت هذه الظواهر بكل جلاء بسبب طبيعتها الاستغلالية، فإن نظم اشتراكية الدولة في الاتحاد السوفييتي السابق وفي غيره من بلدان أوربا الشرقية لم تخل منها أيضا، بل كانت مسيئة جدا للمبادئ التي ادعت التزامها بها، كما كان المفروض أن تكون غريبة أيضا عن الفكر الذي تبنته تلك الدول. وهي ظواهر ما تزال موجودة في ما تبقى من تلك النظم، ومنها الصين الشعبية .

حاول هادي العلوي أن يقدم في بعض معالجاته للتراث الإسلامي (كتاب شخصيات غير قلقة في الإسلام على سبيل المثال لا الحصر) القيم السامية التي كان يؤيدها وتلك التي كان يتصدى لها، وهو ما فعله أيضا مع التراث الفلسفي والفكري الصيني بشكل عام، من خلال عرضه للقارئ نموذجين من البشر وجدتهما متجاورين في النظم السياسية والاقتصادية الاستغلالية، نموذج الإنسان الصالح والإنسان الطالح، نموذج الإنسان التقى والورع والزاهد، ونموذج الإنسان الظالم والبغي والجشع، نموذج الإنسان الذي كان يحترم إنسانيته وبالتالي كان لا بد له من احترام إنسانية الآخرين ونموذج الإنسان الفاقد لقيمه وإنسانيته، نموذج الحاكم البغي والظالم والمستبد أبدا، إلا في حالات نادرة، ونموذج المحكوم المضطهد والمعتدى عليه والمسلوب الإرادة أبدا، إلا في حالات الانتفاض والثورة على الظلم والاستبداد. ويبدو لي أنه، وبحسه المرهف، قد اكتشف أو شخص أيضا في أن من كان يقف في صف المعارضة المضطهدة يوما ما قد تحول في اليوم الآخر إلى صف الحاكم الباغي المستبد حال وصوله إلى السلطة. وهي حالة ليست عارضة، بل ذات طابع موضوعي، إضافة إلى الجوانب الذاتية فيها. وهو ما يمكن أن يحصل الآن وفي المستقبل أيضا. وهي الظاهرة المهمة التي كانت وما تزال بحاجة إلى دراسات معمقة. ولا شك في أن قوى المعارضة العراقية عموما تواجه اليوم وضعا من هذا النوع، إذ يمكن أن يتحول بعضها في حالة وصوله إلى السلطة إلى مواقع أخرى ويمارس الأساليب التي يمارسها اليوم الشقي صدام حسين، كما كان يحلو للفقيد الغالي تسميته. إنها بحاجة إلى معالجته منذ الآن وتقديم نموذج يختلف كلية عن النموذج القائم أو عن أي نموذج استبدادي آخر، نموذج يدين بالحرية والديمقراطية والتعددية والتداول الديمقراطي للسلطة ويؤمن بحقوق الإنسان ويمارسها فعلا .

لقد وجد هادي العلوي هذا العيب في البلدان الاشتراكية أيضا، تلك النظم التي أعطت ظهرها للشعب وللمبادئ التي كانت تحملها، وعزاها بطبيعة الحال إلى إنها خطيئة النظم السياسية التي أقيمت هناك وليس إلى الفكر



الذي ادعت استنادها إليه. وهو استنتاج صحيح إلى حدود غير قليلة. إذ كانت هناك عوامل أخرى أيضا في إطار المبادئ وضمن الواقع الذي كانت تعيشه تلك البلدان. وقد تلمست حقيقة مهمة هي أن هادي العلوي كان على وفاق مع موضوعة دكتاتورية البروليتاريا ومع العنف، كما أنه كان على وفاق مع "الشيخ" لينين، كما كان يسميه، في الكثير من القضايا، وهو ما كنت عليه أنا أيضا .

كان هادي العلوي يواجه الحاكم المستبد في عقر داره ويقول له أنت مستبد وظالم، وكان يواجه من يدعي التدين والإسلام بصرامة بالغة ويقول له بصدق وبساطة أنت بعيد عن هذا وذاك. وبسبب صراحته وصدقه والكشف عن دواخل البعض الكثير من هؤلاء الناس، عجز هؤلاء عن الرد عليه أو حتى الحوار معه، ولكنهم كانوا يريدون الخلاص منه وهددوه أكثر من مرة وفي فترات سابقة. كان العلوي يقف بصرامة صادقة ضد سلطة الدين والدولة ضد محاولة فرض سلطة الدين على المجتمع، كما كان ضد سلطة المال والجنس. إنها البلايا والكوارث الثلاث التي كان يكافحها فكريا وممارسة بكل حزم وعزم. وكان يطلق عليها بالخساعات الثلاث. ويبدو لي هنا أنه كان يهاجم سلطة الدولة بشكل عام باعتبارها أداة قمع وحراسة، كما كان لينين يشير إلى ذلك، وأن اختلفت وجهة القمع والحراسة، أو القوى التي تتعرض للقمع والقوى التي تحمي وتحرس مصالحها .

اتخذ العلوي موقفا غير ودي ولا متفهم من منظمات حقوق الإنسان، واعتبرها نتاج غربي لا فائدة منه. وإذا كان العلوي صائبا في بعض ما ذهب إليه في هذا الصدد، فإنه لم يكن محقا بالنسبة إلى عدد غير قليل من تلك المنظمات أو من عدد كبير جدا من الناس الذين كانوا وما زالوا يعملون فيها، إذ إنها استطاعت وبهذا القدر أو ذلك أن تسهم في الدفاع عن حقوق الإنسان وفي حمايته نسبيا. ويبدو لي أننا بحاجة ماسة إلى دراسة معمقة لموضوع حقوق الإنسان، دراسة ظاهرة تزايد تشكيل منظمات حقوق الإنسان العراقية وفي العلاقات المتبادلة في ما بينها.

أقرأ، كغيري من العراقيين، الكثير من الأدبيات التي تصدر عن بعض منظمات حقوق الإنسان العراقية في الخارج. وأشعر بأن خطاب بعضها يكرس الخطاب السياسي القديم للأحزاب السياسية العراقية ويكرس اللاديمقراطية ويصادر بطريقة ما حقوق الإنسان أو يتجاوز عليها. إنه ليس بخطاب الديمقراطية وحقوق الإنسان، بل هو خطاب سياسي لقوى المعارضة العراقية بتياراتها المختلفة التي تنعكس بوضوح في خطابها السياسي الواحد، رغم تعدده. إن حقوق الإنسان سلة كاملة من المبادئ والقيم التي لا يجوز ولا يمكن تجزئتها أو الاعتراف ببعضها دون غيرها. وهو ما يفترض أن يقتنع بها من يعمل في مثل هذه المجالات. فلو

عاد الإنسان، امرأة كانت أم رجلا، إلى العلاقات السائدة في ما بين تلك المنظمات والجمعيات التابعة لحقوق الإنسان، إلى الأعضاء في المنظمة الواحدة، سيدد الصراعات السياسية وغير المبدئية الحادة الجارية في ما بينهم، سيرى كيف يبذل أعضاء هذا الحزب أو ذاك جهودا خاصة للهيمنة على هذه المنظمات، رغم أن بعض قيادات هذه الأحزاب ترفض مثل هذه الوجهة، كما هو موقف قيادة الحزب الشيوعي العراقي، سيرى كيف يرفض البعض سماع أو احترام رأي البعض الآخر، رغم كونهم يعملون في منظمات حقوق الإنسان التي توجب الإصغاء إلى الرأي والرأي الآخر واحترامه. فهل يرجى من وراء من لا يعتمر قلبه وعقله بأيمان ثابت على حقوق الإنسان ومن لا يصغي للرأي الآخر أي خير في الدفاع عن حقوق الإنسان. إنها إشكالية يفترض أن ندرسها، وكانت إحدى الإشكاليات التي كانت تواجه العلوي في الحياة العملية ولم يستطع التغلب عليها. إن نقدي لمنظمات حقوق الإنسان يهدف إلى المشاركة في تبصيرها بواقعها الراهن الذي هو أحد نتائج الواقع العراقي وواقع الصراعات بين الأحزاب، وغربتنا الطويلة عن الديمقراطية، ولكن هذا لا يعني بأي حال أن المنظمات القائمة ينبغي لها أن تغلق أبوابها أو أن تكف عن النشاط، كما أن هذه الملاحظة النقدية لا تعني أن لا تضم هذه المنظمات الحزبيين في صفوفها أو أن الحزبيين لا يحق لهم أن يعملوا في هذا المجالات. إن هذا مطلوب تماما، ولكن على الجميع أن يدركوا بأن ممارستهم للنشاط في مثل هذه المنظمات يتطلب منهم أن يتخلوا في تلك اللحظة، وهم يبحثون حقوق الإنسان، حقوق الآخرين، عن حزبيتهم الضيقة، أن يتحلوا بقيم حقوق الإنسان ومعايير العمل المطلوبة في مثل هذه المنظمات .

لم يكن موقف العلوي من هذه المنظمات سليما، إذ اعتبرها كلها نتاج الفكر والسياسة البرجوازية الغربية، فهي فاسدة كتلك النظم. ولم يكن هذا سليما في كل الأحوال، ولكن لا يعني أن بعضها لم يكن كذلك، أو أن في جميعها قوى كانت وما تزال تسعى لفرض ما رفضه العلوي فيها. ومن يعمل في مثل هذه المنظمات يفترض أن يتمتع بحصانة غير قليلة من ضيق الأفق القومي أو الشوفينية أو التمييز بمختلف أشكاله وألوانه، وضد الاستبداد والجور. ويمكن الإنسان أن يورد أكثر من نموذج عن صدق هاجس العلوي إزاء نشاط البعض من هذه المنظمات والدول التي تدعي رعايتها لحقوق الإنسان. وأقرب مثل في هذا الصدد تقدمه الولايات المتحدة الأمريكية. فهي التي تدعي دفاعها عن حقوق الإنسان تنتهكها بفضافة لا مثيل لها، تنتهكها في الولايات المتحدة الأمريكية وإزاء السود والفقراء من الناس، تنتهكها في العراق بفرضها الحصار الاقتصادي الدولي الظالم ضد الشعب، تنتهكها بتوجيه القصف الجوي ضد البنية التحتية والسكان في العراق، وتنتهكها في الكثير من المواقع في العالم. كما إنها تنتهك اليوم الشرعية الدولية ومبادئ هيئة الأمم المتحدة

باتخاذها إجراءات وشن العدوان والحروب دون العودة إلى مجلس الأمن الدولي. ولا شك في إنها تستخدم بعض منظمات حقوق الإنسان الأمريكية لصالحها وضد مصالح الشعوب الأخرى.

من عرف الفقيه عن قرب عرف فيه جانبا آخر. لم نبحت فيه بعد ونحتاج إلى معرفته جيدا، أو بتعبير أدق معرفة ما كان يدور بخلده وهو يتخذ بعض المواقف التي كان من الصعب فهمها أو هضمها أو حتى تفسيرها أو تبريرها. ولدي رأي قلته للفقيه مرة، وأعيدته هنا ثانية، بأن هادي العلوي لم يكن قادرا على تحقيق التناغم أو الربط العضوي الجدلي أو تجنب الوقوع بتناقض وتقاطع بين الفكر الذي كان يحمله ويدعو إليه ويناضل من أجله، وبين بعض المواقف السياسية التي كان يتخذها والتي لم تكن تنسجم، حسب تقديري، مع الفكر الذي كان يحمله. وإذ تسنى لي الحوار معه في بعضها واختلفت معه، فلم أجد لديه الرغبة في الإصرار على رأيه إن وجد في الرأي الآخر ما يمكن أن يقنعه، ولكنه مع ذلك لم يكن إقناعه سهلا. ومع الأسف لم يتسن لي التمتع بحوارات كثيرة معه حول قضايانا المعاصرة والتاريخية. ناقشته مرة في دمشق حول الموقف من المرأة، إذ كان هادي العلوي، رغم تبنيه غير التقليدي للماركسية كفسفة للعمل والحياة، قد تأثر بالصوفية عموما وبالفلسفة الصينية التاوية وبطريقة حياة الصينيين خصوصا والتزم بعض مواقفهم إزاء عدد من القضايا الحياتية وبشكل خاص الموقف من المرأة. كان العلوي يدعو إلى مساواة المرأة بالرجل ويناضل من أجل ذلك. وتجلى ذلك في كتاباته العديدة وفي كتابه الموسوم "فصول عن المرأة" حيث يبدو فيه مدافعا عنها من زاوية مختلفة عن زاوية الرؤية الحديثة إزاء المرأة، الرؤية التي يسميها "غرباوية". وفي حوار معه حول دور المرأة أحسست أنه وجد في موقف الخميني من المرأة أفضل من موقف السوفييت أو النظام الاشتراكي السوفييتي في حينها من المرأة. كان يرى، كما ترى الفلسفة التاوية الصينية، أن كل شئ في الحياة، في هذا العالم يقوم على قطبين أحدهما مذكر والآخر مؤنث، ولا يمكن أن تكون هناك حياة دون الاثنين، ولكن لكل منهما واجب مهم في الحياة. وإذا كان واجب الرجل هو العمل والكد، فأن واجب المرأة يتلخص في تربية الأطفال والعناية بالبيت والمطبخ. وفي نظر أصحاب هذه الفلسفة القديمة، ومنهم المتأثر بها العلوي نفسه، أن هذا الموقف لا يقلل من أهمية المرأة ودورها ولا يحجب عنها حريتها ولا يقلل من مساواتها بالرجل أو يمنع عنها نشاطات سياسية واقتصادية واجتماعية أخرى. ومن هنا انطلق في مساندته للخميني في رأيه وحواره مع غورباتشوف بصدد المرأة في الإسلام في الرسالة المعروفة التي وجهها الخميني إلى غورباتشوف حينذاك. رغم رفضه لمجموعة من القيم التي كان وما يزال يتعامل بها الرجل المسلم، وفق ما طرح في القرآن أو في الأحاديث النبوية أو ممارسات وسياسات كثرة من الخلفاء أو عموم الرجال في مختلف المراحل، إزاء المرأة ابتداء من القيمومة عليها إلى حصتها في الميراث، أو في إلى البدع الجديدة

التي ظهرت في فترات مختلفة والتي وضعت المرأة تحت رحمة الرجل والحجاب. كان المجتمع الإسلامي، كما عبر عنه هادي العلوي، وكما هو معروف للجميع، ما يزال مجتمعاً ذكورياً، لا حقوق فعلية فيه للمرأة ولا مساواة لها حقيقية بالرجل. وقد كرس الإسلام الوجهة الذكورية إلى حدود غير قليلة. ومثل هذا المجتمع سيعاني من تطور ضعيف ومحدود، إذ من غير المعقول أن تغيب المرأة وبهذه الطريقة البالية عن النشاط الواعي والواسع والمتنوع للمرأة. ولكن لا يمكن تصور إمكانية استمرار هذا الوضع طويلاً، إذ بدأت المرأة تأخذ على عاتقها مهمة التغيير، وسيجبر الرجل على دعم هذا النضال في صالح حرية المرأة ومساواتها ودورها الفعال في المجتمع.

كانت للعلوي بعض المواقف السياسية التي تميزت بالغرابة والغربة في آن واحد. وهي مواقف كان يصعب تفسيرها أو فهم خلفياتها وتفسيرها من جانبه لم يكن مقنعاً بأي حال، منها، على سبيل المثال لا الحصر، موقفه من احتلال النظام العراقي للكويت. فقد كان الموقف بعيداً عن الموضوعية وعن الفهم الحقيقي للأوضاع السياسية الدولية والإقليمية والعربية، أو الأوضاع الداخلية أو حتى عن طبيعة النظام الذي قام باحتلال الكويت، رغم الموقف الصارم والواضح الذي اتخذته العلوي طوال حياته من كل النظم الاستبدادية الدموية في العراق ونضاله الحازم ضدها، ومنها النظام الدكتاتوري الحالي، وضد الشقي الفاسق صدام حسين. لقد التقى في ذلك مع مجموعة غير قليلة من المثقفين العرب، رغم تباينه عنهم واختلافه معهم في قضايا كثيرة أخرى، أولئك الذين فقدوا في موقفهم من احتلال العراق للكويت موضوعيتهم والديمقراطية والشرعية التي كانوا ينادون بها والفهم الديمقراطي للوحدة العربية، كما فقدوا الحس السياسي السليم للأحداث في حينها. ومن يتابع ما نشأ عن النظام الاستبدادي في العراق وعن سياساته الداخلية والخارجية، ومنها غزوه للكويت، وما يعاني منه الشعب يدرك بسهولة مدى الخطأ الذي ارتكبه تلك المجموعة من المثقفين القوميين والديمقراطيين العرب في ما اتخذوه من موقف .

لقد عبرت شخصية هادي العلوي عن تناقضات متنوعة كانت تعيش فيه وتتصارع وتتجلى صارخة مرة وهادئة مرة أخرى في كتاباته المختلفة، لقد كان الصراع في حقيقته بين الماضي والحاضر، بين الواقع والرؤية الفلسفية السابحة في فضاء جميل، بين صلابة الحقائق الحياتية، وهي صخور صلبة، كما يقول المثل الإنجليزي، وبين الرغبات الوردية التي كانت بمثابة حلم عن عالم جميل وعدالة مطلقة وغد مشرق، بين قساوة العالم الذي نعيش فيه وشفافية الروح التي كان يحملها في قلبه ويعبر عنها في كتاباته. لا أدري إن كان يحق لي أن اشخص بعضاً منه على أنه كان سذاجة سياسية، رغم نبل القصد، أو إنها كانت أحكاماً متسرعة على خلاف طريقته بالبحث والتدقيق العلميين. وإذا قلت ذلك عنه، هل أكون قد أنصفته أم ظلمته، أم

نصبت من نفسي، دون قصد الإساءة إليه في كل الأحوال، قاضيا لا أخلو من سذاجة في أحكامي أيضا. أترك الحكم على ذلك للزمن، رغم أنني قد برهنت في حياتي السياسية عن سذاجة غير قليلة، وارتكبت أخطاء لن أنساها وأرجو أن أتعلم منها، وفي الوقت نفسه أعتذر بصدق لمن يمكن أن أكون قد أسأت إليه بأي شكل من الأشكال ومن غير قصد، رغم أن النية والوجهة والمبادئ العامة كانت وما تزال صحيحة وصادقة، ولكن يعلم الجميع بأن الطريق إلى جهنم يمكن أن يكون مفروشا بالنوايا الحسنة والصادقة .

أجزم بأن شخصية هادي العلوي ستكون من الشخصيات التي كانت وستبقى يدور حولها خلاف كثير، رغم إقرار الجميع بالكثير من جوانبه الإيجابية التي ستبقى المهيمنة في حواراتنا وكتابتنا عنه، ومنها رؤيته لبعض القضايا الاقتصادية وطبيعة فهمه للعدالة الاجتماعية. وفي هذا تبرز أيضا جوانب المتانة والتنوع في كتابات وأراء الفقيه الغالي هادي العلوي. ولكن السؤال الذي كان وما يزال يراودني هو: هل كان الفقيه يعيش في أكثر من عالم واحد وفي أكثر من زمان ومكان، وهل كان عبر خياله الريح يسبح في فضاء يعود لأزمنة غابرة يحن لها ويحاول أن يسترجعها ويعيد بناءها ثانية في هذا الزمان، ولكن الزمن الذي نحن فيه لا يتسع لها وبالصيغ والطريقة التي كان يسعى إليها، هل كان يعيش في هذا العالم أم كان له عالمه الخاص، هل غريبا عنه أم مغتربا فيه؟ أسئلة كثيرة لم يعد قادرا على الإجابة عنها، وعلينا التحري عن إجابة عنها !

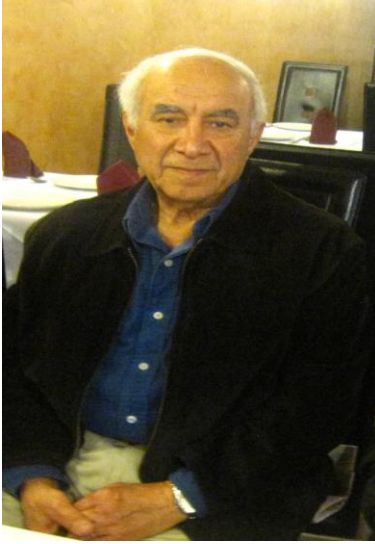
أستطيع العذر إن كنت قد سمحت لنفسي في أن أتجاوز المؤلف وأتحدث عن بعض النقاط التي كان لا بد من الإشارة إليها. فعندما يكون الحديث عن شخصيات عامة معروفة مثل الكتاب والأدباء والفنانين والعلماء والسياسيين وغيرهم من الشخصيات التي تعمل في الحقول العامة يفترض أن يكون هؤلاء جميعا عرضة للنقد والحوار والمساءلة الفكرية والسياسية والفنية وهم على قيد الحياة. ولكن لا بد من مواصلة النقد حتى عند مماتهم أو استشهادهم، إذ أن تراث ونشاط وسلوك هؤلاء يتحول إلى ملك المجتمع، ومن حق المجتمع أن يتعرف على مختلف الجوانب ليستفيد منها، إذ لا يكفي طرح المشرق والناصر من تراثهم وحياتهم وسلوكهم العام، بل جوانب النقص أو الضعف الإنساني أو جوانب الخلل التي كانت فيهم. ويفترض أن لا يتم هذا بقصد الإساءة لهم أو التعريض بهم، بل من أجل جعل حياة وعمل وسلوك هؤلاء ذات فائدة للأجيال الراهنة والقادمة. ومن هنا كان وما يزال يتعذر علي أن أفهم التمجيد الذي يمارسه البعض بعد وفاة أو استشهاد هذا الإنسان أو ذلك من المجالات التي أشرت إليها في أعلاه دون تمحيص وتدقيق، أو دون طرح الوجه الآخر من هذه الشخصية أو تلك. وأسلوب الابتعاد عن الدراسة النقدية الموضوعية يعبر عن ازدواجية فينا أساسا والتي يفترض أن نتخلص منها في كل الأحوال. لقد عقدت في السنوات الأخيرة مجموعة من الاجتماعات التأبينية أو التكريمية لشخصيات عامة فقدناها في غربتنا الراهنة، ولم يكن الحديث فيها إلا عن بطولات

وإبراز للجوانب المشرقة في هؤلاء، ولم تكن خاطئة، ولكنها كانت وحيدة الجانب وغير نافعة عموماً ولا محفزة ولا تحمل معها الدروس المناسبة للآخرين الأحياء، إذ أن الأحاديث التي كانت تجري وراء الكواليس باستمرار اتخذت وجهة أخرى. وفي هذا ازدواجية غير مقبولة ولا يعرف الإنسان سبباً لها. حاولت حتى الآن الابتعاد عن تقديم كلمات في مثل هذه المناسبات، إذ عند تقديمها سأكون أمام واحد من أمرين: أما أن أكون صريحاً وصادقاً مع نفسي، ويمكن في مثل هذه الحالة أن لا يفهمني البعض الكثير أو لا يريد أن يفهمني ويريد فرض قاعدة "اذكروا حسنات موتاكم"، أو أن أكون بخلاف ذلك، أي أن ألتزم بهذه القاعدة، وهو ما أرفضه لنفسي. أحترم رأي الآخرين وطريقة عملهم، ولكن يصعب عليّ فهمها أو الأخذ بها. أرجو أن أكون مفهوماً من الحاضرين كحد أدنى، وهذا لا يعني صواب ما قدمته أو أقدمه من ملاحظات في مثل هذه المناسبات أو في غيرها، إذ إنها بالقطع تحتمل الخطأ، بل يهمني هنا أولاً وقبل كل شيء ضرورة ممارسة هذا الأسلوب في التقييم، ومن ثم الاعتراف بحق الفرد في التعبير عن رأيه بشأن تلك الشخصيات العامة حتى بعد مماتهم، مع كل الاحترام والتقدير لمن فقد القدرة في الرد على تلك الملاحظات .

وأخيراً أؤيد بجرارة مقترح الناقد الأدبي والكاتب ياسين النصير الداعي إلى الاحتفاء بالكتاب والأدباء والشعراء والعلماء وغيرهم وهم على قيد الحياة أيضاً ليتسنى لنا جميعاً مناقشتهم وطرح الأفكار حولهم واستجلاء مواقفهم إزاء مختلف القضايا والأحداث.

## قراءة ومناقشة “خارطة طريق اقتصادية” للعراق

للسيد الدكتور محمد علي زيني 1-808



2013

### الحلقة الأولى

استهلال

نشر السيد الدكتور محمد علي زيني دراسة قيمة بعنوان “خارطة طريق اقتصادية” للعراق توزعت على سبع حلقات على موقع الحوار المتمدن، نشرت الحلقة الأولى منها في 2011/2/9 والحلقة السابعة والأخيرة في 2011/5/15. وبسبب أهمية الكاتب وكتاباته ودوره البارز في البحث والنشر حول الاقتصاد العراقي، وبسبب أهمية الموضوع والأفكار والمقترحات التي تضمنتها هذه الحلقات السبع بشأن إعادة بناء وتطوير الاقتصاد العراقي وتحقيق التنمية الاقتصادية والبشرية وجدت مفيداً للمشاركة في نقاش موضوعي هادف مع أفكار واستنتاجات الصديق الفاضل من جهة، وتحريك جو الحوار والنقاش الفكري والاقتصادي في أوساط العاملات والعاملين في المجال الاقتصادي العراقي في الداخل والخارج بما يسهم في بلورة ما أطلق عليه الزميل الفاضل “خارطة طريق اقتصادية” للعراق من جهة ثانية. ولا بد من الإشارة إلى أن الأستاذ الكاتب قد نشر أول كتاب اقتصادي مهم له، حسب علمي، في سنة 1995

---

80 نشر مقال الدكتور محمد علي زيني في موقع الحوار المتمدن ومواقع أخرى كثيرة وبشكل خاص موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين ومن ست حلقات متتالية ابتداءً من 2011/7/20.

تحت عنوان "الاقتصاد العراقي في ظل نظام صدام حسين - تطور أم تقهقر" صدر عن دار الرافد بلندن, ثم صدرت الطبعة الجديدة المنقحة والمزودة لهذا الكتاب في العام 2003 ومن الدار نفسها تحت عنوان "الاقتصاد العراقي بين الماضي والحاضر وخيارات المستقبل". كما نشر دراسة أخرى عن الفساد في العراق.

ومن المفيد الإشارة أيضاً إلى إن الاقتصادي العراقي المعروف السيد الدكتور صبري زاير السعدي نشر هو الآخر مجموعة من الدراسات المهمة والأبحاث القيمة في هذا الصدد, منها على سبيل المثال لا الحصر, دراسة قيمة بعنوان "السياسة والاقتصاد في نظام الحكم الديمقراطي (الجديد) في العراق: التي نشرت في العدد 126 من "الملف العراقي" الصادر في حزيران/يونيو 2002, كما صدر عن دار المدى ببغداد في عام 2009 كتابه المهم "التجربة الاقتصادية في العراق الحديث - النفط والديمقراطية والسوق في المشروع الاقتصادي الوطني" (1951-2006) وهو كتاب قيم. إضافة إلى ما نشر للدكتور السعدي من دراسات في مجلات مثل المستقبل العربي ودراسات عربية والثقافة الجديدة وفي مجلات أخرى باللغة الإنجليزية. وقبل ذلك صدر للطبيب الذكر الأستاذ الدكتور عباس النصراري (ت 2008) كتاب تحت عنوان "الاقتصاد العراقي" في عام 1995 عن دار الكنوز الأدبية ببيروت. وهي, إلى جانب غيرها من الكتب الاقتصادية, تعتبر من الكتب والدراسات المهمة التي تستحق وتستوجب القراءة من جانب العاملين في الشأن الاقتصادي العراقي.

يطرح الدكتور زيني في دراسته "خارطة طريق اقتصادية" للعراق مجموعة من الأفكار والاستنتاجات السديدة التي تستحق كل التأييد, سواء أكانت في الجانب النظري أم في الجانب التطبيقي وما يخص العراق بشكل مباشر. وحين اكتمل نشر الحلقات وجدت لزاماً عليّ أن أحاور الدكتور زيني مباشرة وأن أناقش الأفكار التي طرحها على الجميع للمناقشة. وقد أخذ السيد الدكتور كامل العضاض المبادرة فناقش الحلقة الأولى شخصياً بعض النقاط المهمة ومنتظراً الانتهاء من الحلقات لكي يناقشها. وأملني أن يواصل طرح ملاحظاته لصواب ما ورد في ما طرحه حتى الآن في رسالته الوجيهة إلى الدكتور زيني. وأتمنى عليه أن يستكمل المناقشة بعد أن انتهى نشر الحلقات السبع.

وفي مناقشتي المكثفة هذه سأطرق إلى تلك الأفكار والاستنتاجات التي توصل إليها الدكتور زيني في الجانبين النظري والتطبيقي أو ما يمس مسيرة العراق الاقتصادية المنصرمة والواقع الراهن وتصوراته لآفاق المستقبل. ومنذ البدء أشير إلى وجود اتفاق مع الزميل الدكتور زيني حول عدد مهم من القضايا النظرية والتطبيقية, ولكن توجد لدي ملاحظات ووجهات نظر أخرى تختلف عما ورد في دراسة الدكتور زيني والتي سأضعها أمام الزميل وأمام بقية القارئ والقراء ممن لهم اهتمام بالشأن الاقتصادي العام وبالشأن الاقتصادي العراقي لغرض المناقشة والتدقيق.



ابتداءً أود الإشارة الواضحة إلى ثلاث مسائل جوهرية حول ما أسعى إليه من هذه المناقشة: لا أدعي الصواب في ما أطرحه من ملاحظات نقدية، إذ إن مهمتها تنشيط النقاش وتدقيق الاستنتاجات النظرية والعملية، وهي تعبر عن اجتهاد شخصي وعن رؤيتي الناتجة عن قراءاتي وتجربتي الذاتية. وأنا مقتنع بما أنشره حتى الآن.

أن نتواصل في الحوارات والنقاشات الفكرية بهدف تعميق الرؤية الاقتصادية لنا وللمجتمع من جهة، والسعي لبلورة رؤية مشتركة للعاملات والعاملين في الشأن العراقي من جهة ثانية، بحيث تسهم في الدفع باتجاه:

عقد ندوة فكرية وتطبيقية حول الاقتصاد العراقي وسبل تطويره، أي العمل المشترك وعبر مؤتمر أو ندوة لعدة أيام للوصول إلى وضع "خارطة طريق اقتصادية- بشرية أو اجتماعية" أمام المسؤولين عن رسم إستراتيجية التنمية الاقتصادية والبشرية في العراق.

مناقشة مضامين دراسة "خارطة طريق اقتصادية" للعراق

وعلى هذا الأساس سأقسم مناقشتي إلى قسمين: القسم الأول سيتضمن عدة حلقات أناقش فيها الجوانب النظرية من أطروحات الزميل الدكتور محمد علي زيني، في حين سيتضمن القسم الثاني عدة حلقات أيضاً أناقش فيها جوانب السياسات الاقتصادية و البشرية التي يقترحها الزميل محمد علي زيني على العراق للأخذ بها.

أولاً: الجوانب النظرية

سأناقش في هذه الحلقة عدداً من الموضوعات التي وردت في "خارطة طريق اقتصادية" للعراق بشكل مكثف، وهي موزعة على مساحة الدراسة بحلقاتها السبع.

## 1. العلاقة بين السياسة والاقتصاد

استعرض الدكتور محمد علي زيني بصواب وموضوعية العلاقة الجدلية القائمة بين السياسة والاقتصاد والفعل والتأثير المتبادل بينهما، إذ أنهما، كما هو معروف، وجهان لعملة واحدة. ويؤكد ذلك حين يورد وقائع فعلية ملموسة عن الفترات السابقة وما يجري اليوم في البلاد. إلا إن العلاقة الجدلية بين السياسة والاقتصاد من الناحيتين النظرية ليست هي المشكلة، فالكل تقريباً يعترف بذلك، بل المشكلة تكمن في رفض حكام غالبية الدول النامية الاعتراف بالعلاقة الجدلية بين الفئات الحاكمة والقوى التطبيقية أو الفئات الاجتماعية المالكة لوسائل الإنتاج من جهة وسعي الحكام إلى تبني إيديولوجيا تلك الفئات الاجتماع والدفاع عن مصالحها وإرادتها بالضد، في الغالب الأعم، من إرادة ومصالح الغالبية العظمى من

فئات المجتمع. وهذه الحقيقة التي تُنكر كثيراً تؤكد حقيقة ان النخب الحاكمة ليست مستقلة عن الفئات المالكية لوسائل الإنتاج, بل معبرة عنها وعن مصالحها.

وتتجلى هذه العلاقة القائمة فعلاً في السياسات الاقتصادية والاجتماعية التي يمارسها النظام السياسي القائم وينعكس في الموقف من عملية التنمية الاقتصادية والبشرية أو في إعادة البناء في العراق, وبشكل أكثر ملموسية في الموقف من بنية ووجهة التصنيع وتحديث الزراعة ومن بنية قطاع التجارة الخارجية والسياسات المالية بكافة جوانبها, التي تعتبر الأداة التنفيذية للسياسات الاقتصادية. كما تتجلى في مجمل العملية الاقتصادية بمراحلها الأربعة: الإنتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك. ويمكن للمتابع أن نتيقن من ذلك حين يجري تدقيق بنية الدخل القومي من حيث سبل تكوينه وتوزيعه وإعادة توزيعه, ومن ثم في العلاقة بين الأجور وفائض القيمة (الأرباح والفوائد وأشكال الربح) أو توزيعه بين التراكم والاستهلاك وسبل استخدامه.

من يسعى إلى معرفة مدققة لطبيعة تكوين وتوزيع الدخل القومي في العراق في الفترات المختلفة السابقة من تاريخ العراق الحديث, يمكنه أن يعود بشكل ملموس إلى فترات العهد الملكي قبل وبعد الحرب العالمية الثانية ومن ثم في عهد عبد الكريم قاسم وفي عهد التحالف البعثي القومي بعد انقلاب شباط 1963 ومن ثم في فترات الأخوين عبد السلام وعبد الرحمن محمد عارف وفي فترة حكم البعث الثانية وصدام حسين الاستبدادية, وكذلك في أعقاب سقوط النظام الدكتاتوري وسيادة حكم المحاصصة الطائفية حتى الوقت الحاضر. ويمكن أن يرجع في ذلك على الميزانيات الاعتيادية وميزانيات التنمية الوطنية ليتحقق من ذلك من خلال أسس توزيع الدخل القومي وسبل استخدامه والقوى المستفيدة منه والمجالات التي صرفت فيه, إذ إنه سيدرك حقاً طبيعة تلك النظم الاجتماعية والسياسية ومدى ابتعادها عن مصالح الشعب الأساسية, في ما عدا فترة قصيرة من حكم قاسم.

فالسياسة الاقتصادية والاجتماعية في أي بلد كان, وكذا العراق, تجسد لنا بلا مواربة وبشفافية عالية طبيعة الفئة التي تحكم المجتمع العراقي حالياً. فنظرة متفحصّة للواقع العراقي الراهن تساعدنا على تشخيص حقيقة أن النخبة الحاكمة في أغليبيتها تنحدر من فئات برجوازية صغيرة ومن فئات اجتماعية رثة اقتصادياً واجتماعياً وكانت مهمشة وتعيش على هامش الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية, جماعات منحدرّة من فئات اجتماعية إقطاعية وعشائرية ما تزال تحن للماضي وترتبط به بوشائج كثيرة وتتمنى عود قانون العشائر الذي ساد قبل ثورة تموز 1958, وهو في الواقع العملي ممارس فعلاً. وهي ليست من تلك الفئات البرجوازية المتوسطة التي تعمل من أجل تصنيع البلاد وتحديث الزراعة وتأمين زيادة التراكم الرأسمالي لصالح تنمية الثروة الوطنية والدخل القومي, بل إنها من الفئات التي تركض وراء الربح السريع في القطاع التجاري وفي المضاربات المالية التي شكلت اليوم فئة برجوازية تجارية كومبرادورية ترتبط بمصالحها بمصالح الشركات الأجنبية المنتجة والمصدرة للسلع المصنعة وتشارك معها

في تحقيق أقصى الأرباح بغض النظر عن الأساليب المعوجة التي تمارس في هذه العمليات. وهي ليست ضد التعامل مع الرأسمال الأجنبي، ولكنها ضد مشاركته في تصنيع البلاد الذي يسهم في تغيير البنية الاقتصادية والبنية الاجتماعية وتحقيق التقدم وتطوير الوعي لدى الإنسان، بل تحصره في مجالات التجارة والبنوك والتأمين وإعادة التأمين لتحقيق لنفسها أقصى الأرباح على حساب التطور الاقتصادي والاجتماعي.

وتتجلى طبيعة النخب الحاكمة وتلك التي يُعبر عن مصالحها عبر الفئات الحاكمة ما يمر به المجتمع العراقي من فساد مريع تمارسه تلك الفئات بشكل واسع النطاق يقود إلى إفقار الثروة الاجتماعية والمجتمع ويشوه وجهة تطور البلاد ويعرقل تغيير بنية اقتصادها ويساهم في التفريط في قدرات البلاد على تحقيق التنمية والخروج من نفق التخلف المتعدد الجوانب الذي يعاني منه المجتمع. إن العواقب المباشرة من الحكم الذي يقاد من فئات اجتماعية ذات خلفية فلاحية وبرجوازية صغيرة لا تعمل في مجالات الإنتاج ورثة تستخدم العمالة والدين لأغراضها الذاتية وطفيلية النشاط، تظهر فيه جملة من الظاهر السلبية الحادة على سطح الأحداث اليومية ولكنها تجسد الخراب الجاري في عمق المجتمع، ومنها ممارسات المحسوبية والمنسوبية والعشائرية والطائفية السياسية باسم الدين والقومية الضيقة والشوفينية والفساد المالي والإداري، الذي احتل العراق مع الصومال المراكز الأولى في العالم، والخراب الاقتصادي وضد المرأة وحقوقها وممارسة التمييز بكل أشكاله وغياب مفهوم المواطنة الحرة والتمساوية من قاموس النخب الحاكمة. إن كل ذلك يصعب إصلاحه ما لم يجر تغيير لتلك القوى التي تمسك بزمام الأمور من خلال الانتخابات وتغيير طبيعة السياسات التي تمارس في البلاد من خلال رفض المحاصصة الطائفية... الخ. وهي مهمة كبيرة تستوجب نضالاً سلمياً وديمقراطياً شاقاً ومعقداً وطويلاً الأمد.

إن عرض هذه اللوحة الاجتماعية للنخب الحاكمة في البلاد يشير لنا بأن السياسات الاقتصادية التي تمارس في العراق تعتبر من هذا الخليط الاجتماعي المركب وتتجلى فيها العلاقة الجدلية لا بين السياسة والاقتصادية بشكلها العام والظاهر حسب، بل بمضامينها الاجتماعية أو الطبقيّة التي تحرص على مكافحة الطبقة الوسطى أو البرجوازية الصناعية المتوسطة والطبقة العاملة وفئة المثقفين وتحديث وتنويع القطاع الصناعي وحل المسألة الزراعية وتحديث الزراعية وتنويع بنية الإنتاج الزراعي وتنظيم التجارة الخارجية وتغيير بنيتها لصالح عملية التنمية الوطنية والتصنيع... الخ.

حين يستطيع المجتمع أن يخلق ميزان قوى جديد لصالح الفئات المنتجة للثروة الاجتماعية، للسلع المادية والروحية، يمكنه أن يشكل عند ذاك ضغطاً على الفئة الحاكمة لتمارس سياسة اقتصادية فيها شيء من الاستقلالية عن مصالح الفئات المالكة لوسائل الإنتاج، أو ما يحقق شكلاً من أشكال التوازن في المصالح بما يسهم في دفع عجلة التطور والتقدم إلى الأمام. ومثل هذه الحالة تستوجب نضالاً شاقاً

من جانب القوى المعبرة عن مصالح تلك الفئات لتنعكس في مجلس النواب وفي تشكيلات مجلس الوزراء وفي القوانين والقرارات التي تصدر عن الحكومة ومجلس النواب. وإلى ذلك الحين سيبقى العرق يئن من وطأة المشكلات الراهنة.

## 2 . العلاقة بين إستراتيجية التنمية والخطط الاقتصادية والاجتماعية

حين يكون الحكم على مستوى البلاد والمحافظات بيد هذه الفئات الاجتماعية التي تحدثنا عنها، فلا شك في أن المنتبج سيجد تعبير ذلك في غياب الرؤية العقلانية أو الرشيدة لعملية التنمية الأفاقية وعلى المدى البعيد أو ما نطلق عليه بإستراتيجية التنمية الوطنية التي تمتد لعقدين أو أكثر. وهذا ما نراه اليوم في العراق، إذ في ضوء غياب سياسة اقتصادية ومالية واجتماعية فعالة واقعية يختفي أيضاً التوزيع الرشيد للمهام والأهداف والتقدير للاستثمارات على خطط خمسية وسنوية وعلى مستوى الحكومة الاتحادية والمحافظات مثلاً. وفي غياب إستراتيجية التنمية الوطنية الشاملة وتقدير حاجات البلاد ذات المدى البعيد للموارد المالية بصورة علمية تقريبية، تغيب أيضاً إستراتيجية السياسة النفطية في البلاد وتتحول إلى تصريحات فارغة وتقديرات متباينة ومزاجية يدلي بها هذا الوزير أو ذاك حول كمية النفط التي يراد استخراجها وتلك التي يمكن تصديرها أو التي يمكن استخدامها في عمليات التكرير أو التصنيع الأخرى. وينطبق هذا على القطاعات الأخرى كالكهرباء مثلاً.

إن هذه الفئات الاجتماعية غالباً ما تكون انتقائية وعفوية وذات رؤية ضبابية لما يفترض أن ينمو ويتطور في العراق حالياً وفي المستقبل. هذا ما عاشت فيه البلاد في فترة حكم القوى القومية والبعثية منذ 1963 حتى سقوط نظام البعث وصدام حسين. لقد امتلكت سلطة حزب البعث جهازاً للتخطيط وكفاءات كبيرة وقيمة وإمكانات مالية كبيرة ووضعت للعراق خطة بعيدة المدى عمل عليها الكثير من الباحثين الممتازين من أمثال الدكتور عبد الرحمن قاسمelo والدكتور صبري زاير السعدي والدكتور جعفر عبد الغني والدكتور كامل العضاض والدكتور فرهانك جلال وعشرات من الخبراء والمختصين غيرهم، إضافة إلى بعض الأجانب، كما وضعت خطط خمسية مهمة، ولكن العفوية والانتقائية والرغباتية كانت سيدة الموقف وهي التي تحدد ما يفترض أن يقيم في العراق من مشاريع، وهي التي أبعدت كل الخطط عملياً وتركت صدام حسين وطه ياسين رمضان وعزت الدوري هم الذين يحددون وجهة تطور الاقتصاد باتجاه التصنيع العسكري على وفق الذهنية العسكرية الراجعة في القمع والحرب والتوسع.

ومن يطلع على الخطة الخمسية التي طرحها السيد الدكتور علي بابان سيجد إنها لا تمتلك رؤية مستقبلية ولا تقوم على رؤية إستراتيجية بعيدة المدى ووضعت على عجل. ولهذا فقد افتقدت للكثير من المسائل المهمة التي أشرت إليها في مقال لي حول الخطة الخمسية نشر في موقع الحوار المتمدن

وموقعي الخاص. ومع ذلك فقد كانت مبادرة مهمة. ولكن لم يأخذ الحكم الحالي بها لأنه لا يؤمن بالتخطيط ولا يرى ضرورة له ولا منفعة له فيه.

حين تضع إستراتيجية للتنمية الوطنية ستكون بحاجة ماسة إلى معلومات تفصيلية عن واقع العراق الاقتصادي والاجتماعي وإلى رؤية واقعية وصحيحة إلى رؤية ديناميكية للإمكانيات المتوفرة في البلاد من النواحي المالية والفنية والكوادر العلمية والفنية والإدارية والعلاقات العربية والإقليمية والدولية.. الخ في حالة حركتها والتغيرات التي يمكن أن تطرأ عليها وان تضع أكثر من احتمال ثم تحاول استخدام عملية التقريب المتتابع للوصول إلى النموذج الأكثر قرباً للواقع القائم والمتغير. ويدخل في التأثير على هذا الأمر الموقف من قضايا مهمة منها مثلاً النموذج الاقتصادي الذي تسعى إليه النخب الحاكمة والموقف من التصنيع والزراعة وبقية القطاعات, وكذلك الموقف من التنمية البشرية ومن البحث العلمي ومن القطاعين الخاص والعام والقطاع الأجنبي... الخ. وأسمح لنفسني أن أجزم بأن الحكومات الثلاث المنصرمة (علاوي والجعفري والمالكي) لم تكن لديها, كما إن حكومة المالكي الحالية ليست لديها رؤية علمية وواقعية لما يفترض أن تكون عليه إستراتيجية التنمية الاقتصادية والبشرية, ولكن لدى الكثير من الحكام والعاملين في الحكومة وأجهزة الدولة قدرة فعلية خارقة على أساليب وأدوات الاغتناء على حساب المال العام. وهي مشكلة أخرى ترتبط بدورها بالفقرة السابقة, بالطبيعة الاجتماعية للفئات الحاكمة والذهنية التي يتعاملون بها مع الشعب العراقي ومع ثروة البلاد.

وحيث توضع إستراتيجية للتنمية الوطنية يفترض أن يؤخذ بنظر الاعتبار الثروة الخامية المتوفرة في البلاد, أي النفط الخام والغاز المصاحب بشكل خاص, إضافة إلى موارد أولية أخرى والموارد البشرية والقدرات العلمية والفنية المتوفرة. وعليه يفترض أن يعتمد المخطط للاقتصاد العراقي على النفط الخام, كمادة أولية, وعلى موارده المالية في التنمية الاقتصادية وتغيير بنية الاقتصاد خلال 25 سنة القادمة. ويمكن العودة في هذا الصدد إلى مجموعة من مقالات الدكتور صبري زاير السعدي ودراسات مهمة لأخوة آخرين.

ولا بد لنا وبالرغم من الأوضاع المرتبكة الراهنة في العلاقات بين العراق والدول المجاورة والعراق والدول العربية, فإن أي إستراتيجية تنموية في العراق يفترض فيها أن تأخذ بالاعتبار التعاون والتنسيق العربي والإقليمي, لأسباب ترتبط بمجموعة من العوامل, سواء أكانت من حيث مستوى التقنيات وحجم رؤوس الأموال وحجم الإنتاج ومستوى الإنتاجية والتكاليف والقدرة على التسويق, خاصة وان العراق يعيش في عصر يزداد عولمة من سنة إلى أخرى ويفترض أن لا ينسى ذلك بغض النظر عن الملاحظات التي يفترض أن توضع على واقع سياسات العولمة الجارية من جانب الدول الرأسمالية المتقدمة التي لا تصب في صالح الدول النامية ومنها العراق, وبشكل خاص من خلال سياسات المؤسسات المالية الدولية

ونموذجها للتنمية، تلك المؤسسات التي يتصدرها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة الدولية الحرة.

هناك الكثير من المسائل التي يفترض أن نتطرق إليها في مجال إستراتيجية التنمية، ولكنني أكتفي بالإشارة السريعة إلى مسألة تعتبر أساسية بالنسبة للعراق في ضوء عواقب الحروب التي خاضها العراق والتي استخدم فيها السلاح الكيماوي من جانب النظام العراقي وعتاد مشع من جانب الولايات المتحدة الأمريكية والتي أدت إلى تلوث شديد للمياه والأرض والإنسان. وقد ظهرت أمراض خبيثة عديدة في العراق، وخاصة في جنوبه. ولهذا لا بد للعراق وهو يضع إستراتيجية تنموية أن يفكر بالتنمية الاقتصادية، وباقتصاد النفط الإستخراجي والتصنيعي، التي تقترن بحماية فعلية للبيئة من التلوث بمختلف احتمالاته، وأخص بالذكر هنا موضوع التنمية الصناعية والزراعية بما يحقق التوافق المناسب والمطلوب بين التنمية الاقتصادية وحماية البيئة والطبيعة. إذ بدون ذلك سيتعرض العراق لمشكلات بيئية كثيرة تعرض حياة البشر إلى أخطار كبيرة، كما سيصرف أضعاف ما يصرفه من أموال على التنمية من أجل إعادة تنظيف البيئة التي يصعب عندها تنظيفها من التلوث. إنها عملية ضرورية ما دام الإنسان يريد أن يعيش على الأرض العراقية وينعم بثرواتها الخامية ويبعد عن أجياله الحالية والقادمة أعباء الأمراض الخطيرة والموت المبكر والخسائر المالية الكبيرة بسبب تلوث البيئة.

قراءة ومناقشة "خارطة طريق اقتصادية" للسيد الدكتور محمد علي زيني

## الحلقة الثانية

### 3. اقتصاد السوق

يقدم الأخ الدكتور محمد علي زيني اقتصاد السوق الحر باعتباره النموذج الملائم لبناء الاقتصاد العراقي وتطوير المجتمع. ويؤكد هذا الاختيار في كل صفحة من هذه الدراسة تقريباً. ويمكن متابعة ذلك في الحلقتين الثانية والثالثة على نحو خاص، ولكن القارئ يجدها في كل الحلقات الأخرى وبصيغ مختلفة. حين انتهيت من قراءة هذه الدراسة المهمة اقتنعت بأن الزميل قد اختار هذا النموذج عن قناعة، وإلا لما احتاج إلى تأكيد هذا الخيار بهذه الغزارة في التكرار. ولا أشك، بل وأتفق معه، بأن الفترة الراهنة تتطلب اختيار اقتصاد السوق باعتباره يمثل مرحلة مهمة من مراحل التطور الاقتصادي في مجتمع ما زال يعاني من بقايا العلاقات الإنتاجية ما قبل الرأسمالية بحدود كبيرة بعد أن أعادته سياسات البعث البائسة وحروبه العدوانية واستبداده المشين إلى الوراء، إلى ما قبل مرحلة إقامة مجموعة من الصناعات في العراق. وهو بالتحديد ما هدد ووعده به جيمس بيكر، وزير الخارجية الأمريكي، النظام العراقي حين رفض الدكتاتور صدام حسين على لسان طارق عزيز وبعنجهية فارغة طلب مجلس الأمن الدولي بالانسحاب

من الكويت في العام 1991 وأصر على مواصلة الاحتلال وتعرض لذلك الانكسار العسكري والسياسي وتدمير البنية التحتية والصناعات الوطنية وما ارتكبه النظام من جرائم بشعة في أعقاب انتفاضة الشعب في ربيع نفس العام. ولكن الذي استوقفني في الدراسة تلك المواصفات التي قدمها الزميل زيني لاقتصاد السوق وشدد عليها وكأنها الصيغة الوحيدة المقبولة في اقتصاد السوق، بحيث اقترب بالفكرة كثيراً من مفهوم الليبرالية الجديدة وإلى حد التطابق تقريباً، وأن لم يذكر هذا المفهوم بالاسم، إذ أن المواصفات التي اختارها هي التي تسمح بتحديد هذه الواجهة. أرجو أن أكون مخطئاً في هذا الاستنتاج.

لقد برهنت العقود الثلاثة الأخيرة على فشل ذريع لسياسات الليبرالية الجديدة على الصعيد العالمي وكلفت العالم خسائر مادية وبشرية فادحة مما دفع بالكثير من الدول إلى التخلي عنها سياسياً واقتصادياً. ولهذا أرى بأن هذا التوجه نحو اقتصاد السوق بمفهوم الليبرالية الجديدة غير مناسب للعراق. وقد تسبب بالنسبة للبلدان التي انتهجته بالكثير من المنغصات والاختلالات الاقتصادية والاجتماعية. وكانت عواقبه سلبية على الغالبية العظمى من شعوب البلدان التي أخذت به وسارت عليه. وعلينا أن نتذكر سياسة الضربات الاستباقية التي مارستها إدارة بوش الأب وبوش الابن والتي اقترنت بإنزال الضربات الاستباقية العسكرية بـ "العدو المحتمل" وفرض سياسة الحصار الاقتصادي والمقاطعة الاقتصادية كأسلوب لممارسة التهديد بهدف تحقيق مصالح الولايات المتحدة. وقد دشنت الإدارة الأمريكية هذه السياسة في زمن بوش الأب ومن ثم واصلها بوش الابن، إضافة إلى المضاربات في الأسواق المالية التي تسببت في وقوع خسائر فادحة لعدد كبير من الدول في أمريكا الجنوبية وفي جنوب شرق آسيا، إضافة إلى النموذج السيئ الذي ما زال صندوق النقد الدولي والبنك الدولي يروجان له ويقدمانه إلى البلدان النامية منذ أكثر من ثلاثة عقود باعتباره النموذج الأفضل للأخذ به في بناء اقتصادياتها الوطنية، وهي السياسة التي مارستها الإدارة الأمريكية وبريطانيا منذ عهد إليزابيث تاتشر ورونالد ريغن في العلاقات السياسية والاقتصادية الدولية والتي اقترنت أيضاً بأزمات مالية ومن ثم اقتصادية كبيرة في أمريكا اللاتينية وفي جنوب شرق آسيا. وأخيراً وليس آخراً بروز مظاهر الأزمة المالية والاقتصادية منذ العام 2007 والتي بدأت تزحف تدريجاً وتتفاقم حتى انفجرت في العامين 2009 و2010 التي ما يزال الاقتصاد الدولي يعاني من عواقبها، وخاصة اقتصاديات شعوب الدول النامية وتلك الاقتصاديات الضعيفة في الاتحاد الأوروبي التي يمكن أن نتلمسها في تفاقم الأزمة المالية والنقدية لليونان والبرتغال وإسبانيا، وربما ستلحق بها بعض الدول الأخرى، على الرغم من الحجم الكبير جداً من الأموال التي ضخمت وما تزال تضخ إلى هذه الدول لتدارك انهيارها الاقتصادي الكامل. وكل هذه الدعم المالي لم يحقق حتى الآن نتائج كبيرة ومهمة وسوف يكلفها غالباً الآن وفي المستقبل وسيتسبب في بروز تناقضات ونشوء صراعات سياسية واجتماعية غاية في التعقيد والحدة والتوتر في البلدان المذكورة وفي غيرها نتيجة ممارسة سياسات تقشفية بدأت بها وهي موجهة في الغالب الأعم ضد الفئات المنتجة للخيرات المادية والكادحة

والفقيرة. ويمكن متابعة المظاهرات الشعبية في اليونان وإسبانيا والبرتغال التي تحتج على التقشف والموجه أساساً ضد الفئات الكادحة والفقيرة.

إنها الأزمة الخانقة التي فجرتها سياسات الليبرالية الجديدة، أي سياسات الاحتكارات الأمريكية في سوق العقارات والمضاربات العقارية وفي سياسات المصارف الأمريكية عموماً والعقارية منها بشكل خاص، ولكنها في المحصلة النهائية عمت الأزمة المالية والاقتصادية العالم كله ولم تنته بعد. ومع ذلك فإن اختيار الأخ الدكتور محمد علي زيني لاقتصاد السوق الحر ليمارس في العراق على وفق المواصفات التي حددها يبقى موضع احترام، رغم اختلافي معه بشأن تلك المواصفات، وسأبدي رأيي في أسباب رفض بعض المواصفات المقترحة.

من حيث المبدأ أود أن أشير إلى ثلاث ملاحظات مبدئية في ضوء إشارة الدكتور زيني حول اقتصاد السوق الحر ودفاعه الشديد عنه واعتبار الاقتصاد الاشتراكي في الإنتاج قد فشل، إذ كتب ما يلي: “وغني عن القول أن الاقتصاد الاشتراكي، بخصوص عمليات الإنتاج، فشل في جميع أنحاء العالم، ناهيك عن العراق، وأصبح الآن ضرورياً تفكيك معظم القطاع العام الفاشل، وفسح المجال أمام القطاع الخاص للقيام بمهمة الإنتاج.” (راجع الحلقة الثالثة من دراسة خارطة الطريق). وتتلخص ملاحظاتي بما يلي:

1. إن الرأسمالية ليست نهاية التاريخ ولا يمكن أن تكون كذلك. وحين أصدر فرنسيس فوكوياما كتابه الشهير “نهاية التاريخ وخاتم البشر” (مركز الأهرام، القاهرة 1993) في إشارة منه لفشل التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وبقية دول أوروبا الشرقية واعتبار ذلك انتصاراً حاسماً للرأسمالية وللحرف الرأسمالي على الفكر الاشتراكي، وأن ليس هناك من نظام آخر غير النظام الرأسمالي الديمقراطي فهو نهاية التاريخ ولا تاريخ بعده. ولكن سرعان ما اضطر فوكوياما تحت ضغط الواقع والرؤية الموضوعية لجدلية الحياة والتحويلات الاجتماعية وحركة التاريخ إلى التراجع عن تلك النظرية المتعجلة واعترف بخطأ مقولته غير العلمية. وعليه فإن الرأسمالية ليست نهاية التاريخ، بل سيبقى المجتمع البشري يناضل من أجل تحقيق حلم الإنسان وهدفه الرفيع في الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، بغض النظر عن التسمية.
2. إن سقوط النظم الاشتراكية التي كانت قائمة في الواقع لا يعني في الجوهر: \* إن الفكر الاشتراكي أو فكرة العدالة الاجتماعية سقطت بسقوط تلك التجارب التي شهدتها القرن العشرين من جهة، وإن سقوط تلك النظم السياسية وتجاربها لا يعني بأي حال انتصار الفكر الرأسمالي على الفكر الاشتراكي، أو الرأسمالية على الاشتراكية، بل هو سقوط لتلك النظم السياسية التي لم تستطع بناء الاشتراكية لأسباب موضوعية وذاتية. ويمكن الإشارة هنا وبسرعة إلى



اقتصاديات ومجتمعات روسيا القيصرية وفي ما بعد دول أوروبا الشرقية والصين الشعبية وكوبا وكذلك الوعي الاجتماعي العام لم تكن ناضجة ولا تمتلك القاعدة المادية لبناء الاشتراكية. يضاف إلى ذلك الأخطاء الفادحة التي ارتكبتها تلك النظم في الموقف من الحرية الفردية والديمقراطية وحقوق الإنسان, وفرض سياسات وإجراءات لا تتناغم مع القوانين الاقتصادية الموضوعية وإضافة إلى تفاقم البيروقراطية والهيمنة الحزبية وغياب التعددية الفكرية والسياسية وانتشار الفساد الذي ساد هذه البلدان .. الخ. وقد نتج عن كل ذلك تلك الثمار المرة, إذ نشأت عنها تلك النظم السياسية ذات النهج الشمولي التي فقدت تدريجاً القيم الإنسانية التي بدأت بها ثورة أكتوبر في العام 1917 وسعت لتطبيقها. وهو ما حصل أيضاً بالنسبة للنظم الديمقراطية الشعبية التي أقيمت في أعقاب الحرب العالمية الثانية في أوروبا الشرقية والصين وكوريا وكوبا, وهي التي أودت بتلك النظم, أي الخراب الداخلي بشكل خاص.

3. إن اقتصاد السوق الحر في مرحلة العولمة الرأسمالية الجارية وممارسة سياسة اللبرالية الجديدة وفي ظل سياسات المحافظين الجدد قد قاد إلى عواقب وخيمة في الدول الرأسمالية المتطورة, دغ عنك العواقب السلبية لذلك على الدول النامية. وبرزت تلك العواقب ليست الأزمات الاقتصادية الدورية ولا الأزمات العامة والبنوية التي أصابت حتى الآن النظام الرأسمالي العالمي فحسب, بل في استمرار حركة وفعل القوانين الاقتصادية الموضوعية التي عمقت دون انقطاع التناقضات الاجتماعية والمقترنة بمجموعة من الظواهر الملازمة لفعل تلك القوانين والتي هي نتاج التفاوت في مستويات التطور العلمي والتقني والإنتاج والإنتاجية في البلدان المختلفة وبسبب التباين بين مستويات تطور القطاعات الاقتصادية في ضوء حركة وفعل "قانون التطور المتفاوت" للرأسمالية, وكذلك بسبب تفاقم الفجوة في مستويات الدخل والمعيشة وظروف العمل والحياة بين طبقات وفئات المجتمع نتيجة حركة وفعل قانون القيمة وبقية القوانين الاقتصادية للرأسمالية. ونظرة واحدة على تقارير البنك الدولي وتقارير التنمية الدولية تمنح المتتبع معرفة دقيقة عن سعة الفجوة بين معدل حصة الفرد الواحد من الدخل القومي سنوياً في الولايات المتحدة الأمريكية أو في غيرها من الدول المتقدمة ومعدله في القسم الأكبر من الدول النامية. يضاف إلى ذلك تفاقم البطالة المكشوفة وجيش العاطلين وتفاقم المضاربات المالية على حساب المجتمع والاقتصاديات الوطنية للشعوب الأخرى.

لقد أشرت إلى هذه الملاحظات لا لإقناع الدكتور محمد علي زيني بسوءات النظام الرأسمالي, فهو كالاقتصادي وباحث علمي يعرف ذلك جيداً, بل لمن يعتقد بأن الرأسمالية هي الخيار الأول والأخير لشعوب الدول النامية, ومنها العراق, وبأمل أن لا نرتكب خطأ الاعتقاد بأن الرأسمالية هي نهاية التاريخ لشعوب العالم, فهي ليست كذلك. ولكنها هي الخيار الراهن ولفترة غير قصيرة. وإذا ما ابتعدنا عن هذه الموضوعات, عندها يمكن البحث في موضوع اقتصاد السوق بالنسبة

لدول النامية، وبالنسبة للعراق أيضاً باعتباره مرحلة من مراحل التطور الاقتصادي والاجتماعي. كلنا يعرف بأن اقتصاد السوق له قوانينه الاقتصادية الموضوعية التي تنطلق من طبيعة علاقات الإنتاج الرأسمالية التي تتميز بها وتسود في مجتمعاتها وتتحكم بتطورها، وهي من حيث المبدأ واحدة على الصعيد العالمي وفعالها ونتائج فعلها من حيث المبدأ ومن حيث الوجهة العامة واحدة، ولكن حركة وفعل ونتائج فعل هذه القوانين ترتبط بشكل ملموس مع مستوى تطور علاقات الإنتاج الرأسمالية في هذا البلد أو ذاك وطبيعة السياسات التي تمارسها كل دولة، إضافة إلى مستوى تطور حركة النضال الشعبي في الدفاع عن مصالح الشعب في مواجهة رغبة تشديد الاستغلال لدى الطبقة البرجوازية المالكة لوسائل الإنتاج، المالكة لرأس المال. ففانون فائض القيمة هو القانون الأساسي والرئيسي المتحكم في النظام الرأسمالي، ولكنه يعمل مع مجموعة كبيرة من القوانين الاقتصادية الموضوعية الأخرى، وهي علاقة جدلية ناشئة عن العلاقة القائمة بين العمل ورأس المال، أي بين العامل، الذي يبيع قوة عمله لصاحب رأس المال ليستخدما في إنتاج السلع المادية والروحية، وبين البرجوازي المالك لرأس المال الذي يشتري قوة العمل في سوق العمل لتنتج له السلع المادية والروحية التي تنتج عبر عملية الإنتاج السلع المادية التي تتضمن مكونات الإنتاج، الأجر وتكاليف وسائل الإنتاج وفائض القيمة. القيمة الزائدة التي أنتجها العمل الأجير والتي لا تعود لمنتجها بل تصبح من نصيب صاحب رأس المال هي الجزء المعني للثروة الوطنية. ففعل هذا القانون واحد في جميع الدول التي يسودها النظام الرأسمالي ويتسبب في حصول الاستغلال عند تقسيم الدخل القومي بين الأجر وفائض القيمة (الربح والفائدة والريع). وكذا الحال مع بقية القوانين الاقتصادية الموضوعية للرأسمالية. إنها تشكل الثروة الجديدة المضافة لثروة المجتمع التي تنشأ بفعل عمل المنتجين. أين يبرز الاختلاف ما دمنا نتحدث عن الفعل الواحد للقوانين الاقتصادية في الرأسمالية؟

الاختلاف في فعل القوانين الاقتصادية الموضوعية للرأسمالية يبرز لأسباب أربعة:

- 1) بسبب التباين الكبير بين مستوى تطور علاقات الإنتاج الرأسمالية السائدة في دول مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الاتحادية مثلاً من جهة، ومستوى تطور هذه العلاقات الإنتاجية في دول مثل العراق وسوريا والمغرب على سبيل المثال لا الحصر، من جهة ثانية.
- 2) وبسبب طبيعة السياسات الاقتصادية والاجتماعية والتشريعات التي تضعها النظم السياسية الحاكمة المعبرة عن مصالح مالكي وسائل الإنتاج أو رأس المال.

- 3) وبسبب قوة أو ضعف الحركة النقابية والعمالية والحركة المطالبة لمنتجات الخيرات المادية والروحية وقدرتها على خلق توازن معين أو ميل لصالحها أو تعجز عن ذلك فيكون الميل لصالح أصحاب رؤوس الأموال. إنها التناقض والصراع بين العمل ورأس المال.

4) بسبب التباين في النظم السياسية التي تقود هذه البلدان, هل هي ديمقراطية ودستورية أم استبدادية تغيب عنها الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان.

أشرت إلى إن الرأسمالية واحدة من حيث الجوهر ولكن عند تطبيقها في الدول المختلفة تظهر للمتابع إن المسألة ليست ذات لون رمادي واحد بل هي ذات ألوان عدة, يمكن للشعب والمشرع أو الحكم اختيار اللون الذي يناسب مستوى تطور هذا البلد أو ذلك, أي على وفق المرحلة التي تمر بها البلاد. وللتدليل على صواب ما أقول حول التفاوت في النظم السياسية للرأسمالية, وإنها في الواقع العملي ليست بلون واحد أورد المثال التالي: دول المحور الثلاث (ألمانيا وإيطاليا واليابان) التي شاركت في الحرب العالمية الثانية سادت فيها العلاقات الإنتاجية الرأسمالية, وكانت النظم السياسية السائدة فيها نازية وفاشية وعسكرية على التوالي. وفي المقابل سادت في معسكر الحلفاء العلاقات الإنتاجية الرأسمالية أيضاً مثل بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها وكانت كلها نظماً سياسية ديمقراطية, إضافة إلى التحاق الاتحاد السوفييتي بها بعد بدء ألمانيا الهتلرية بغزو الأراضي السوفييتية.

ومن هنا فالتعامل مع اقتصاد السوق يفترض أن يختلف من بلد إلى آخر على وفق السياسة الاقتصادية للبلد المعني. فالعراق الذي يعاني من التخلف والتبعية الاقتصادية في مجمل العملية الاقتصادية, عملية إعادة الإنتاج, ويعتمد على الصادرات النفطية في تكوين القسم الأعظم من دخله القومي وعلى صرف القسم الأكبر من هذا الدخل على أغراض الاستيراد السلعي والخدمي لإشباع حاجات المجتمع, يفترض أن يختلف في تعامله مع اقتصاد السوق وآلياته وقوانينه عن بلد آخر مثل بريطانيا أو ألمانيا الاتحادية أو الولايات المتحدة أو غيرها. ولهذا, وبما أن العراق لا بد له أن يختار اقتصاد السوق في هذه المرحلة من تطوره الاقتصادي والاجتماعي ومستلزمات نهوضه موضوعياً, كما أرى, فإن عليه أن يحدد بشكل دقيق ماذا يريد من اقتصاد السوق وما هو اللون الذي يفترض فيه أن يستقر عليه ويستفيد منه لصالح تعجيل تطوره ولفترة غير قصيرة. وهذا الأمر لا يمس العراق فحسب, بل يمس جميع الدول النامية التي تجد نفسها في وضع مقارب للعراق أو إنها تحتل مواقع متخلفة على التخوم (المحيط) إذ إنها ستبقى طويلاً في إطار تقسيم العمل الاجتماعي الرأسمالي الدولي وتطور حول أو في فلك الدول الرأسمالية المتقدمة, المراكز الرأسمالية الثلاثة, الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا واليابان, التي يمكن أن تتسع في الفترة القادمة لتضم إليها الصين وروسيا مثلاً. وسيحتاج العراق سنوات طويلة للخروج من هذا الموقع المختل وسياسات أخرى غير التي تمارس اليوم وقوى أخرى غير التي تحكم اليوم.

وإذ نتفق جميعاً بأن العراق, كما هو حال أغلب البلدان النامية, بلد متخلف اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً وبيئياً, إضافة إلى كونه يعاني من علل نفسية عديدة نشأت عن معاناة طويلة الأمد

تحت وطأة الاستبداد الشمولي والقمع والقسوة والحروب والحصار الدولي ومن ثم الخوف الدائم من الموت المتربص بالإنسان العراقي حتى الآن بسبب المحاصصة الطائفية والإرهاب والصراعات على المناصب والفساد السائد, كما لم يصل إليه التنوير الديني والاجتماعي والثقافي وتعشش فيه الأمية بنسبة عالية وخاصة بين النساء, رغم أن فيه الكثير من المثقفين والكوادر الفنية والعلمية المتخصصة والمتقدمة. ولا شك في أن القارئة والقارئ يميزان بين هاتين المسألتين.

وعليه فأن المهمة التي تواجه المجتمع هي حشد كل الطاقات والإمكانيات المتوفرة والكامنة الداخلية منها والخارجية لتنظيم وبرمجة عملية الخلاص من هذا التخلف الفكري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتنويري.. الخ الذي تعرض له الدكتور زيني بشكل واضح وسليم.

قراءة ومناقشة " خارطة طريق اقتصادية" للسيد الدكتور محمد علي زيني

### الحلقة الثالثة

#### اقتصاد السوق الاجتماعي

العراق في مرحلة تطوره الراهنة ولمدى طويل لاحق سوف يستند ملزماً إلى اقتصاد السوق. ولكن أي اقتصاد سوق نحتاجه وما هي مواصفاته؟

أشرت إلى أي أقف في هذه المرحلة مع اقتصاد السوق الذي يجمع بين الحرية النسبية والمشاركة الحكومية في التنمية, إضافة إلى الرقابة الحكومية, وكذلك مع مجموعة من المسائل الاجتماعية التي تحد من الاستغلال وتخفف من التناقضات وتسيطر على الصراعات ولكي لا تتحمل إلى نزاعات سياسية. وقد أطلق الألمان منذ ستينيات القرن العشرين اسم " اقتصاد السوق الاجتماعي " في فترة حين كان لودفيغ إيرهارد مستشار ألمانيا وصاحب "المعجزة الاقتصادية" حينذاك, وهي بخلاف نظرية الليبرالية الجديدة في إطار اقتصاد السوق التي تتسبب في تشديد استغلال الطبقة العاملة بمفهومها الواسع والحديث. لهذا اقترح في ظروف العراق الملموسة أن يؤخذ بمفهوم اقتصاد السوق الاجتماعي الذي يستند إلى عدة أركان هي:

أ) إعطاء دور متميز وفعال ورئيسي للقطاع الخاص والعمل على تشجيعه ودعمه وتوفير مستلزمات تطور دوره في الاقتصاد العراقي من جانب الدولة.

## اقتصاد السوق وبرنامج الإصلاح الاقتصادي والتكيف الهيكلي

عند قراءتي لدراسة الدكتور محمد علي زيني الغنية بالمعلومات لاحظت عدم إشارته إلى المؤسسات المالية الدولية ولكنه يشير إلى الاعتماد على الرأسمال الأجنبي. ولا شك في أن هذه المؤسسات هي من أكبر الممولين لرؤوس الأموال في السوق الرأسمالي العالمي. وهذه المؤسسات تطرح شروطها القاسية على الدول المقترضة، كما فعلت مع العراق حين تقرر إعفاء العراق من بعض ديونه الخارجية في أن يلتزم باقتصاد السوق الحر ووفق شروط ومواصفات محددة. ولهذا من المفيد للقارئ أن يعود إلى الحلقتين الثانية والثالثة من الدراسة المذكورة بشكل خاص لمتابعا موقف الدكتور زيني من دور الدولة وقطاعها الاقتصادي ومن التجارة والسوق الاقتصادي الحر. إن الزميل زيني يتبنى دون أن يشير إلى ذلك أهم الشروط التي يطرحها النموذج الذي تقترحه علينا المؤسسات المالية الدولية، الذي كما أرى، لا ينفع العراق في أغلب جوانبه وفي ضوء الواقع الذي يعيش فيه العراق. وملاحظاتي بهذا الصدد تتلخص في النقاط التالية:

إن فقرات برنامج الإصلاح الاقتصادي والتكيف الهيكلي المقترح من المؤسسات المالية الدولية لا تتميز بوحداية الجانب وذات صرامة شديدة لا يمكن ممارستها في العراق بسبب غياب مستلزمات ذلك في العراق وفي البلدان النامية كما إنها لا تأخذ بنظر الاعتبار نقاط جوهرية يمكن الإشارة إليها في ما يلي: إنها تسقط العلاقة العضوية القائمة بين السياسة والاقتصاد والمجتمع التي يفترض أن تكون لصالح المجتمع (راجع في هذا الصدد: د. صبري زاير السعدي. الاقتصاد السياسي للتنمية والاندماج في السوق الرأسمالية العالمية. بحث منشور في مجلة المستقبل العربي. يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية. العدد 11/1999 (249) بيروت. ص 31)، ولكنها في واقع الأمر تمارس سياسة طبقية صارمة، سياسة تحقق مصالح الدول الرأسمالية المتقدمة ومصالح الفئات الرأسمالية المالكة لوسائل الإنتاج والغنية على التوالي. فهي لا تتجنب الحديث عن الديمقراطية السياسية فحسب، بل تكثر من الحديث عن الليبرالية الاقتصادية وحرية المنافسة، وهي تضعف قدرة الدول النامية على المنافسة والبقاء في السوق الدولية لصالحها، إنها تنسى بكل معنى الكلمة أو تتناسى المصالح الاجتماعية والديمقراطية وحقوق الإنسان لا في الحياة السياسية والاجتماعية فحسب، بل وفي نشاط المؤسسات الاقتصادية والحياة النقابية، إذ ما يهمها يتركز في دمج اقتصاديات وأسواق هذه البلدان بالسوق الدولية وفتح الأبواب أمام نشاط احتكاراتها الدولية. إنها تطالب حكومات هذه البلدان بامتلاك الإرادة السياسية لتنفيذ البرنامج، والذي لا يعني سوى ممارسة سياسة الاستبداد الاقتصادي في تنفيذ سياسات اقتصادية لا تتبناها الغالبية العظمى من السكان ولا تخدم سوى مصلحة أقلية ضئيلة في المجتمع.

إنها تسقط من حسابها مصالح الفئات الاجتماعية الفقيرة والكادحة التي تحتاج إلى الدعم الحكومي بأشكال مختلفة، خاصة وإن العراق قد خرج لتوه من الدكتاتورية وحروبها وقمعها والحصار الاقتصادي، حيث اتسعت وتفاقت وتعمقت حالات الفقر والحرمان في الأوساط الشعبية وارتفعت نسبة السكان التي تعيش تحت خط الفقر المحدد دولياً. وفي المرحلة الراهنة تطالب هذه المؤسسات بإلغاء "البطاقة التموينية" كلية، ولم تدعو إلى حصرها بالمحتاجين، وهي من الأسباب التي أدت إلى التظاهرات الأخيرة أيضاً.

إنها تنسى الواقع الذي تواجهه هذه البلدان وأهمية وضرورة وجود قطاع v حكومي ديناميكي وفعال ومؤهل إدارياً وتقنياً ومستقلاً في أداء جملة من مهمات العملية الاقتصادية، خاصة وأن بعضها يمتلك موارد مالية يمكن توجيهها للأغراض التنموية حيث يعجز أو يمتنع القطاع الخاص عن الولوج فيها، إذ أن الدولة بحاجة إلى جزء من الفائض الاقتصادي لتوجهه إلى تلك المشاريع التي لا تتوجه صوبها رؤوس الأموال الخاصة لأي سبب كان، أو من أجل تأمين الدعم الحكومي النسبي للتخفيف من أعباء شدة استغلال رأس المال. (راجع: د. رمزي زكي، الليبرالية المستبدة. سينا للنشر. ط 1. القاهرة. 1993. ص 82-94).

إنها، وهي تدعو إلى تقليص الإنفاق الحكومي، تساهم في تشديد v الاختلالات والتناقضات لقائمة حالياً التي تعمق من انقسام المجتمع إلى معسكرين، الأغنياء والفقراء، وتجهز على مواقع الفئات الاجتماعية الوسطى في الإنتاج وتنهى عملياً وجودها على خارطة الاجتماعية لسكان، ولكنها تسكت كلية عن، أو حتى تشجع على، شراء الأسلحة التي تحمّل ميزانية هذه البلدان موارد مالية كبيرة وتزيد من مديونيتها الخارجية وتشجعها بهذا النهج على حل مشكلاتها الداخلية والإقليمية بالقوة وممارسة العنف والحروب، كما لا ترفض تزويد البلدان النامية بالقروض المالية لأغراض التسليح، وتغفل تماماً الأضرار الناجمة عن ذلك على العملية الاقتصادية وارتفاع المديونية الخارجية والفوائد المترتبة عليها وتدهور الحياة المعيشية والاجتماعية للغالبية العظمى من السكان. وكلنا يعرف العواقب الوخيمة التي تقود إليها هذه الحالة، ومنها مثلاً تقليص الموارد التي تخصص لأغراض التربية والتعليم والثقافة والصحة العامة والنقل... الخ. والشعوب العربية المنتفضة الآن هي نتيجة منطقية لسياسات الاستبداد والقهر السياسي فحسب، بل وبسبب تلك السياسات الاقتصادية التي مارستها وما تزال تمارسها الحكومات العربية والمبنية على اقتصاد السوق الحر بمواصفات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة الدولية الحرة، التي لا تغيب عنها العدالة الاجتماعية النسبية فحسب، بل وتشدت البطالة والفقر وتتسع فجوة الدخل السنوي بين الطبقات والفئات الاجتماعية وتركز الثروة بيد فئة صغيرة من المجتمع تحرم منها الغالبية العظمى من السكان التي تقود بدورها إلى تشديد التناقضات الاجتماعية والصراعات السياسية والنزاعات الداخلية

وتنتهي إلى ما نحن عليه الآن بعد أن أدركت الشعوب في الدول العربية إن عليها أن تأخذ مصيرها بنفسها وتتحكم بمستقبلها.

من هذا يتبين للقارئ والقارئ بأنني إذ أتفق من حيث المبدأ وفي المرحلة الراهنة مع زميلي الفاضل الدكتور زيني في مسألة الأخذ باقتصاد السوق، أي بناء العلاقات الإنتاجية الرأسمالية التي لا مفر منها مرحلياً، ولكنني أختلف معه في السبيل الذي يفترض أن نسلكه في إطار العلاقات الإنتاجية الرأسمالية للوصول إلى ما هو أفضل للعراق. أتمنى أن يساهم النقاش الفكري الموضوعي الهادف، كما تعودنا عليه في دراسات الزميل زيني، في الوصول إلى رؤية مشتركة أو متقاربة حول هذه الأمور التي تزداد أهميتها للمجتمع العراقي، خاصة ونحن معاً نحمل الهمم العراقي بمشكلاته وطموحاته وآفاق تطوره.

قراءة ومناقشة " خارطة طريق اقتصادية" للسيد الدكتور محمد علي زيني

#### الحلقة الرابعة

4. حول العلاقة بين القطاعين العام والخاص في الاقتصاد العراقي الدكتور محمد علي زيني يتبنى في دراسته المحمودة " خارطة طريق اقتصادية " للعراق من الناحيتين النظرية والعملية تلك الفكرة التي تدعو إلى ابتعاد الدولة كلية عن أي نشاط اقتصادي إنتاجي وترك هذا المجال كلية للقطاع الخاص المحلي. وخص الدولة بدور "الرقابة" و "التحكيم"، إذ كتب: "إن أهم درس خرجت به تجارب التطور الاقتصادي في مختلف دول العالم النامية هو تحديد العلاقة بين الدولة والسوق، أو بعبارة أخرى بين الحكومة والقطاع الخاص. وهذا الدرس يشير إلى أن عملية التطور الاقتصادي ستحقق النجاح عندما يكون دور الحكومة مكملاً لدور السوق وليس متضارباً معه". ويحدد دور الحكومة المكمل لدور السوق على النحو التالي: "ويكون دور الحكومة مكملاً لدور السوق (القطاع الخاص) عندما تتبنى الحكومة سياسة ودية نحو السوق (Market-friendly Approach) فتدع السوق تعمل بحرية حينما تنجح وتتدخل حينما تفشل. ولقد دلت التجارب على أن السوق إذ تنجح نجاحاً باهراً في الأنشطة الإنتاجية فإنها تفشل فشلاً ذريعاً في بناء البنية التحتية (المادية والبشرية) وحماية البيئة وتوفير الصحة العامة وفي كل مجال لا تحقق به أرباحاً مباشرة." وبناء على ذلك يستنتج الدكتور زيني الموقف التالي الذي يفترض أن تمارسه الحكومة: "إن هذا الدرس المهم يدعو الحكومة إلى أن تتخذ دور السند والداعم للقطاع الخاص بأن تركز جهودها في توفير البيانات والإحصاءات والمعلومات وبناء البنية التحتية والعناية بالصحة العامة وحماية البيئة ونشر التعليم وتشجيع البحوث وتمويلها، وكذلك التدخل في شتى المجالات الحيوية الأخرى التي ينحسر فيها نشاط القطاع

الخاص، أو أن يكون فيها نشاطه معارضاً لما يتطلبه الصالح العام، إذ يتعين على الحكومة هنا أن تتبنى دوراً رقابياً فاعلاً على أنشطة القطاع الخاص منعاً للاحتكار والانحراف والاستغلال المضر بمصالح المواطنين والدولة.” ولا يكفي بهذا بل يصر على توضيح أدق لموقفه فيؤكد: ”ويدعو هذا الدرس، من جهة أخرى، الحكومة أن تبتعد عن الأنشطة الإنتاجية التي هي من صميم اختصاص القطاع الخاص، كإنتاج السلع الالكترونية والأنسجة والاسمنت والأحذية والحديد والصلب وإدارة الفنادق والإنتاج الزراعي، وغير ذلك من الأنشطة التي يحسنها القطاع الخاص ويتفوق بها عندما يتوفر له المناخ الملائم.” (راجع: جميع هذه المقطعات مأخوذة من نص الحلقة الثالث من “خارطة طريق اقتصادية”). اخترت هذا المقاطع الطويلة نسبياً لأحدد بوضوح رؤية الزميل زيني من جهة، وابتعد عن تكرار إيراد مقاطع أخرى في الدراسة تشير إلى ذات الفكرة الرئيسية التي يرى إنها المعبرة عن جوهر اقتصاد السوق من جهة أخرى. بعد أن انتهيت من القراءة الثانية للمادة التي نالت إعجابي بشكل عام، ولكنها أثارت عندي الإحساس بأن الراديكالية التي كانت تدعو إلى هيمنة كاملة لقطاع الدولة في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، قوبلت حينذاك، وأصبحت اليوم تقابل براديكالية أشد تدعو إلى هيمنة كاملة للقطاع الخاص على العملية الاقتصادية، ولكن وبشكل خاص على القطاع الإنتاجي، في العراق، رغم إن الزميل زيني لا يتميز بالتطرف في أطروحاته السياسية والاقتصادية، بل يتسم بالموضوعية والاعتدال. إن الدراسة الغنية للدكتور محمد علي زيني قد أوجت لي أيضاً ودون أدنى ريب بأن العراق بحاجة تامة إلى نشاط واسع واستثمار كل الإمكانيات والطاقات المتاحة، سواء المتوفرة منها في الداخل أم التي يمكن استيرادها من الخارج، لتحقيق التنمية المستدامة المنشودة والخلص من التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي المريع الذي يعيش فيه المجتمع العراقي. وإذا كان هذا الإيحاء صحيحاً وفي ظل اقتصاد السوق، فليس هناك من الناحيتين النظرية والعملية أي مانع، وبخلاف ما يطالبنا به الدكتور زيني، من استخدام كل القطاعات الاقتصادية من حيث الملكية في العملية التنموية الاقتصادية والاجتماعية، أي مشاركة القطاع الخاص والقطاع الحكومي والقطاعين المختلط والتعاوني، إضافة إلى القطاع الخاص الأجنبي، بل هي ضرورة حتمية وملحة. والدكتور زيني لا يستثني قطاع الدولة من النشاط الاقتصادي، ولكن يحصره في البنية التحتية والخدمات العامة ليوفر كل ما هو ضروري للقطاع الخاص المحلي والأجنبي لأداء دورهما في العملية الاقتصادية. وفي هذا يبرز الاختلاف في الموقفين. علماً بأن هناك بعض الاقتصاديين الذي يتبنى بشكل مطلق فكر ونهج اللبرالية الجديدة في الحياة الاقتصادية ويرى بأن من يخالف اللبرالية الجديدة لم يطلع عليها وليست له معرفة بمضامينها! في مثل هذه الحالة لا يشعر الإنسان بجدية من يناقش بهذه الطريقة غير العقلانية التي يعتبر فيها وكأن الآخر يكتب بأمر لا علم له بها، وأنه وحده العليم بهذه الأمور



!! حين نستعيد مراحل تطور الرأسمالية على الصعيد العالمي, وفي فترات الحروب وفي أعقابها بشكل خاص, سنجد أن اقتصاد السوق الحر قد اعتمد في تطوره الاقتصادي على ملكية الدولة لوسائل الإنتاج وفي صناعات تحويلية مهمة, بل وأن هناك دولاً رأسمالية متقدمة ما تزال تمارس هذا النهج إلى جانب الدور الرئيسي للقطاع الخاص في مجمل العملية الاقتصادية, ومنها فرنسا. كما إن الأزمة المالية والاقتصادية الأخيرة التي ما تزال عواقبها مستمرة بفعالها السلبي على الصعيد المحلي والإقليمية والدولية, دفعت بالكثير من الاقتصاديين والسياسيين والباحثين في الشأن الاقتصادي والاجتماعي في أوروبا وفي الولايات المتحدة إلى الدعوة لاستعادة قطاع الدولة بعض دوره في العملية الاقتصادية في مجالات الصناعة والمالية والبنوك, أي الدعوة إلى تأميم مشاريع اقتصادية إنتاجية ومالية وخدمية. إذ إن العواقب الوخيمة التي تسببت بها الاحتكارات الرأسمالية الخاصة والبنوك كانت كبيرة وحملت خزائن الدول خسائر مالية فادحة تحملها دافعو الضرائب في تلك الدول, وهم في الغالب الأعم الفئات المنتجة للسلع المادية والروحية والكادحة, غداً غالباً ما يتهرب أصحاب رؤوس الأموال والاحتكارات الكبيرة من دفع الضرائب ويعفون تحت ذرائع كثيرة. من هنا أجد أن الملاحظة التي يطرحها الدكتور محمد علي زيني بشأن إبعاد الدولة عن المشاركة في قطاع الإنتاج وترك المهمة للقطاع الخاص متشدة وغير مبررة في ظروف العراق الملموسة. إذ أرى إن بلداً مثل العراق يفترض فيها أن يستفيد من القطاعين الخاص والعام أولاً, ومن القطاع المختلط والتعاوني ثانياً, وأن لا يستغني عن الاستفادة من القطاع الخاص الأجنبي ومن المعونات الخارجية غير المشروطة بأي حال. وأستند في هذا الرأي إلى ملاحظتين مهمتين: 1. إن صيغ تطبيق الرأسمالية ليست واحدة بل توجد صيغ كثيرة لا تعتمد على طبيعة المرحلة فحسب, بل على وفق الإمكانيات والقدرات الفعلية والوعي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمع وحاجات البلاد وإمكانياته. 2. وإن الدول الرأسمالية في مراحل مختلف من تطورها اعتمدت على قطاع الدولة في تنمية اقتصادياتها وكانت ناجحة في استخدام مشاريع القطاع الحكومي الإنتاجية. يحضرنى في هذا الصدد موقف الاقتصادي الإنجليزي جون مينايد كينز (1883 – 1946) (John Maynard Keynes) حين تحدث عن دور قطاع الدولة في فترات معينة من تطور الرأسمالية وأكد ضرورة تفعيل هذا الدور في أعقاب الحرب العالمية الثانية للخروج من عواقب الحرب المدمرة والنهوض بالاقتصاد الوطني للدول الأوروبية. كما إن ذلك قد تجلّى في موقفه حين شارك في المؤتمر الاقتصادي الدولي في أعقاب الحرب العالمية الأولى وكذلك في موضوعاته المهمة في أعقاب الكساد العالمي 1929-1932. إن الدعوة إلى مشاركة قطاع الدولة في التنمية الاقتصادية وفي القطاعات الإنتاجية التي أتبناها لا تميل أو تدعو إلى مقارنة ما حصل في الدول الاشتراكية التي كانت تمارس كل النشاط الاقتصادي وأبعدت كلية تقريباً القطاع الخاص وقدراته وكفاءاته العلمية والفنية أو دخلت في

إنتاج كل شيء واحتلت كل الخدمات تقريباً من جهة, ولا إلى ما حصل في العراق في فترة حكم البعث في الفترة 1968-2003 الذي حاول النظام السياسي من خلال هذا القطاع فرض هيمنته لا على الاقتصاد الوطني فحسب, بل وعلى كل العاملين في النشاط الاقتصادي وعلى جهاز الدولة باعتباره صاحب العمل الذي يسيطر عليهم ويريد منهم خدمة الفئة الحاكمة وحزبها وقائدها من جهة أخرى, إذ أن النموذجين, وأن اختلفا في الجوهر, ليسا صالحين للعراق. فالدولة العراقية المالكة للموارد الأولية, وخاصة النفط والغاز الطبيعي, يمكنها توفير الموارد المالية على الأمد المتوسط والطويل لصالح التنمية الاقتصادية, سواء بتأمين إقامة مشاريع البنية التحتية, ومنها مشاريع الخدمات الاجتماعية الأساسية بما يسهم في تقديم الخدمات للقطاع الخاص المحلي والأجنبي, أم في إقامة مشاريع إنتاجية ذات أهمية فائقة وذات طبيعة إستراتيجية للتنمية الاقتصادية المستدامة. والقطاع الخاص المحلي عاجز حالياً وإلى عقدين قادمين أو أكثر عن توفير مستلزمات النهوض بمهمات التنمية دون دعم واسع ومتواصل من جانب الدولة وقطاعها الاقتصادي. كما إن القطاع الخاص الأجنبي الذي نحتاجه في التنمية الاقتصادية سوف يتلأ كثيراً بسبب المنافسة الشديدة الخارجية على الاستثمارات الرأسمالية الأجنبية من جهة, وبسبب الأوضاع الداخلية التي لن تنتهي في فترة وجيزة في ضوء النظام القائم على المحاصصة الطائفية واستمرار الإرهاب المحلي والإقليمي وتدخل دول الجوار الفظ في الشأن العراقي من جهة ثانية, وطبيعة القوى الحاكمة التي لم تع, وربما لا تريد أن تعي مفهوم التنمية المستدامة الضرورية والملحة للنهوض بالاقتصاد العراقي من جهة ثالثة. يضاف إلى ذلك واقع الفساد المالي المستشري في العراق لا كظواهر متفرقة, بل كنظام سائد ومعمول به ومقبول من الدولة بسلطاتها الثلاث ومن فئات الشعب التي تمارسه يومياً مجبرة لأنها لا تستطيع بدون ذلك تمشية معاملتها وشؤونها اليومية. لا أنطلق في هذا الموقف من قطاع الدولة ودوره ودور بقية القطاعات الاقتصادية من حيث الملكية من مواقع أو رؤية إيديولوجية, بل استند في ذلك إلى منظور اقتصادي اجتماعي للمجتمع العراقي وبنيته التطبيقية ومن رؤية موضوعية لواقع العراق الملموس وحاجاته الكبيرة للتنمية وضرورة تعبئة كل الإمكانيات لهذا الغرض. ولهذا لا أرى صواب أن يشارك القطاع العام في إنتاج كل شيء بما في ذلك إبر الخياطة والخياط والدبابيس... الخ, ولا أن يعمل بالضرورة في صناعة الفنادق والسياحة مثلاً, ولكن من الممكن أن يشارك في صناعة الصلب والحديد أو في إنتاج الخبز الجيد والرخيص للمجتمع على وفق المثل الشعبي البغدادي القائل "الناس تفتش عن خبز باب الأغا حار ومغسب ورخيص". ولم ينشأ هذا المثل الشعبي عن فراغ, بل كان وما يزال يعبر عن حاجة الناس لذلك. ومثل هذه المواصفات الثلاث لا يوفرها القطاع الخاص وغير مستعد لتوفيرها على هذا الأساس. لا شك في أن من واجب الدولة أن توفر البنية التحتية لمشاريع الفنادق والسياحة, وربما يمكنها في مرحلة لاحقة أن تطالب

بتعويضات معينة من أصحاب مشاريع الفنادق والسياحة عن استخدامهم لتلك المرافق أو مشاريع البنية التحتية التي تقيمها وتساهم في تنشيط مختلف أنواع السياحة في العراق. العراق ورؤوس الأموال الأجنبية ويبدو لي إن من المفيد ونحن نتحدث عن الاستثمار الأجنبي في العراق أن نفكر بخمس مسائل جوهرية: 1 . إمكانية وضرة وأهمية مشاركة رؤوس الأموال القادمة من الدول العربية ومنطقة الشرق الأوسط في مشاريع اقتصادية مشتركة, سواء بمشاركة الدولة أم القطاع الخاص المحلي, أي مشاريع مختلطة لاكتساب الخبرة والمعرفة والمشاركة في الأرباح. وينطلق هذا الموقف من أهمية تحقيق التعاون والتنسيق الاقتصادي على صعيد الدول العربية والمنطقة لما في ذلك من أهمية في حجم رؤوس الأموال التي يمكن توظيفها وحجم الإنتاج والتقنيات الأكثر حداثة التي يمكن استخدامها في الإنتاج ورفع مستوى الإنتاج ونوعية الإنتاج وتقليل التكاليف وتوسيع السوق الذي يمكن تصريف السلع المنتجة فيه وتكون سلعه قادرة على المنافسة في السوق الدولية. أي الإنتاج الموجه للتصدير, ولكن في الوقت نفسه لأسواق المنطقة والداخل. 2 . أن تساهم رؤوس الأموال الأجنبية في تنمية تلك القطاعات أو المشاريع الاقتصادية التي يحتاجها العراق لتنمية المناطق التي ما تزال متخلفة وبحاجة إلى تنمية معجلة يصعب على القطاعين العام والخاص المحليين النهوض بها . وفي هذه المشاريع يمكن التفكير بدور مشارك للقطاع الخاص المحلي أو الحكومي للوصول إلى ذات الأهداف. 3 . أن نبتعد قدر الإمكان عن استثمارات الحافظة التي حذر منها بصواب الدكتور زيني, وأن ننشط استثمار رؤوس الأموال بشكل مباشر. ومن المفيد هنا أيضاً أن نشجع على الاستثمار المشترك, أي بين الأجنبي والعراقي, سواء أكان حكومياً أم خاصاً, في مجالات التنمية الاقتصادية والبشرية وفي إقامة وتنشيط مراكز البحث العلمي النظري والتطبيقي لصالح عملية التنمية. 4 . أن يلتزم القطاع الخاص الأجنبي بقوانين العمل والعمال والضمانات الصحية والاجتماعية والحماية الصناعية .. الخ في العراق وأن لا يتجاوزها بما يلحق الضرر بالعاملين ومصالحهم. 5 . أن تقدم الدولة تسهيلات مهمة ومناسبة, سواء أكانت في مجال الضريبة على الأرباح أو تخفيض التعريفات الجمركية على المواد الأولية والسلع نصف المصنعة المستوردة, من أجل تشجيع وتنشيط الاستثمار الأجنبي في الاقتصاد العراقي والسماح له بتحويل جزء مهم ومعقول من أرباحه إلى الخارج وإعادة توظيف جزء أخرى منها في الداخل لتنمية لتحقيق تراكم رأسمالي وتحسين التقنيات المستخدمة وطرق الإنتاج بما يتناسب وحماية البيئة في العراق. هل نحن بحاجة إلى خصخصة وأخيراً دعا الدكتور زيني في "خارطة طريق اقتصادية" للعراق إلى تحقيق خصخصة كاملة للمنشآت والمشاريع الحكومية المتبقية في قطاع الصناعة التحويلية, باستثناء قطاع النفط الخام. ومع تأييدي الكامل لحصر اقتصاد النفط الخام بالدولة العراقية, أرى خطأ اللجوء للخصخصة التامة لما تبقى من قطاع الدولة الصناعي, إذ إن العيب ليس في ملكية

الدولة لوسائل الإنتاج بل في طبيعة النظام السياسي وفي وأساليب وأدوات العمل والإدارة والأهداف المحددة لمشاريع هذا القطاع. الدكتور زيني يقول بهذا الصدد ما يلي: "ولقد استمرت هذه الحالة حتى الثورة في 1958 (ويقصد هنا الاعتماد على اقتصاد السوق, ك. حبيب)، حيث بدأت بعدها الحكومات العراقية المتعاقبة تستثمر في القطاع الصناعي. وعندما زاد الميل تدريجياً نحو الاقتصاد الاشتراكي، نفذت الحكومة عمليات التأميم في سنة 1964. ومنذ ذلك الحين هيمن القطاع العام على الاقتصاد العراقي. وغني عن القول أن الاقتصاد الاشتراكي، بخصوص عمليات الإنتاج، فشل في جميع أنحاء العالم، ناهيك عن العراق، وأصبح الآن ضرورياً تفكيك معظم القطاع العام الفاشل، وفسح المجال أمام القطاع الخاص للقيام بمهمة الإنتاج." (راجع: الحلقة الثالثة من "خارطة طريق اقتصادية"). في هذا المقطع ثلاث مسائل تستوجب المناقشة: 1. إن الميل صوب التأميم في العام 1964 لم ينطلق من رؤية وفلسفة اشتراكية ثانياً، ولا من جماعات كانت تؤمن بالاشتراكية ثانياً، فبعد السلام محمد عارف الذي وقع على إجراءات التأميم هذه لم يكن اشتراكياً بل كان الرجل قومياً شوفينياً وطائفيماً مقيتاً، كما إن الجماعة التي حركته للتأميم لم تكن هي الأخرى اشتراكية. لقد تمت عملية التأميم البائسة التي لم يبلغ حجم رؤوس الأموال المؤممة كلها وفي جميع القطاعات عن 28 مليون دينار عراقي حينذاك، وقد اضررت بالاقتصاد العراقي ولم تنفعه بشيء. لقد صدرت إجراءات التأميم تلك تحت فعل ثلاثة عوامل: أ. وجود الجماعة الناصرية في الحكم في عهد عبد السلام عارف التي حاولت التماثل مع سياسة عبد الناصر في مجال إجراءات التأميم التي وقعت بين 1961-1964 في مصر، والتي جاءت في مصر في حينها عقاباً للبرجوازية المصرية على موقفها من الوحدة مع سوريا، ولم تستند إلى فلسفة اشتراكية، وكان استغلال ونهب قطاع الدولة في مصر يتم من الباطن ولم يتوقف. وبالمناسبة أشير هنا إلى إن رسالتي للدكتوراه التي دافعت عنها في شهر شباط/فبراير 1968 حملت العنوان التالي "طبيعة إجراءات التأميم في جمهورية العربية المتحدة". ونشرت بشأن الإجراءات مقالين في جريدة الطليعة المصرية في أوائل 1968. ب. معاقبة البرجوازية الوطنية العراقية التي رفضت الانقلابات البعثية والقومية وسياساتها الفاشية وتوقفت عن توظيف استثماراتها في الاقتصاد العراقي بهدف إقناع الحكومة العراقية بضرورة تغيير سياساتها مواقفها الطائفية المتشددة التي تميزت بها مواقف عبد السلام محمد عارف حينذاك. وعلينا أن نتذكر هنا مذكرة الشيخ محمد رضا الشيببي إلى رئيس الوزراء الدكتور عبد الرحمن البزاز حول تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية في العراق حينذاك. ج. محاولة السيطرة على الاقتصاد الوطني لإخضاع كل العاملين في النشاط الاقتصادي وكذلك المجتمع للسلطة السياسية حينذاك والتحكم في وجهة التطور بأمل تحقيق الوحدة مع مصر. ولهذا فإن القول بأن الدولة كانت تتجه صوب الاشتراكية ليس صحيحاً وقد كتبت عن إجراءات التأميم في

العام 1964 ثلاث دراسات نشرت في مجلة دراسات عربية (1969) ومجلة الطريق (1970) ببيروت وفي أكثر من مقال في الثقافة الجديدة وفي مجلة الجامعة المستنصرية ببغداد باعتبارها إجراءات سيئة أعاقت عملية التنمية ودور القطاع الاقتصادي وبثت الخشية فيه طويلاً. وبذلك ساهمت في تهريب رؤوس الأموال إلى الخارج والابتعاد عن توظيفها في الداخل. 2 . بصدد الفترة 1968-2003 في الوقت الذي ساندت إجراءات التأميم في قطاع النفط الخام في العام 1972 ووقفت إلى جانب تطوير قطاع الدولة الاقتصادي، ولكنني رفضت تورط الدولة المفرط في التوسع العفوي والفوضوي لقطاع الدولة والمعرقل عملياً لنمو القطاع الخاص وتطوره ودوره في التنمية والعجز عن إدارة وتنظيم قطاع الدولة ومجمل الاقتصاد الوطني. ودعوت إلى تشجيع ودعم نشاط القطاعات الأربعة من حيث الملكية التي أشرت إليها في هذه الدراسة أيضاً والابتعاد عن عقد المشاريع تحت عنوان المشروع الجاهز أو تسليم المفتاح لما في ذلك من عواقب سلبية على الاقتصاد من حيث الكلفة وصعوبة إدارتها فنياً وعدم تدريب الكوادر الفنية العراقية عليها. كما كنت صارماً في الموقف من التنمية الانفجارية التي كتبت عنها الكثير وتسببت تلك الكتابات، وخاصة المقال الذي نشر في طريق الشعب في يوم الجمعة المصادف 7 من شهر تموز/يوليو 1978 حيث تم اعتقالي في نفس يوم نشر المقال وخلال اعتقالي وتعذيبي تمت أحوالي على التقاعد بدرجتين أقل وبدون راتب تقاعدي. ثم قدمت أوراقي إلى محكمة الثورة بتهمة إهانة مجلس قيادة الثورة، ودولة البعث ولكن كنت قبلها بقليل قد غادرت العراق إلى الجزائر. لقد كانت الجمهورية الرابعة، البعثية، استبدادية وبوليسية قمعية ومهووسة بأموال النفط الخام المصدر التي تساقطت على رأس النظام كزخات مطر أعمت بصر وبصيرة نظام البعث، كما نلاحظ هذه الظاهرة في يومنا هذا أيضاً وبصيغ متنوعة. ولهذا لم يهتم النظام بقطاع الدولة بقدر ما اهتم في التوسع به وهيمنته على كل العاملين في أجهزة الدولة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ودفعت به إلى تحميل خزينة الدولة خسائر مالية كبيرة من خلال تقديم الدعم المستمر لهذه المشاريع مع سبق الإصرار، إذ لم يعمل القطاع الحكومي على أسس اقتصادية ومحاسبية ومنافسة جدية، بل كان يراد منه إعطاء صورة كاذبة وكأن الدولة تسير بـ "الاتجاه الاشتراكي" ولهذا أطلقت عليه اسم القطاع الاشتراكي زيفاً وبهتاناً. العيب الفعلي لم يكن في قطاع الدولة، بل بالنظام السياسي الذي أخضع هذا القطاع له وتوسعه بصورة عفوية وعبثية. كما كان العيب في الأساليب والأدوات والكوادر البعثية التي وضعت على رأس هذا القطاع الحكومي ليخدم هيمنتها على الاقتصاد والمجتمع في العراق وليتحكم بأجهزة الدولة ومجالاته من جهة أخرى، وليكون أداة للنهب والسرقة والتحايل على المال العام، سواء من حيث التعاقد على إقامة تلك المشاريع، أم في فترة إقامتها أم في فترة إنتاجها. وبكلمة مختصرة فإن خسارة مشاريع قطاع الدولة كانت مبرمجة ابتداءً، إذ لم يكن هدفها اقتصادي، بل سياسي بحت. ولا

يمكن أن يتصور الإنسان نجاح مشاريع قطاع الدولة كلها حين يكون الهدف منها سياسي لا غير . 3 . وعليه فإن الحديث عن التوجه الاشتراكي في سياسة الدول وهي تقيم هذه المشاريع خاطئ حقاً ولا يتناغم مع الواقع الذي ساد العراق خلال الفترة . 1968-2003 فالاشتراكية لا تعني ملكية الدولة لوسائل الإنتاج، إذ إن الرأسمالية كانت فيها أيضاً ملكية دولة لوسائل الإنتاج دون أن يطلق عليها اشتراكية بل رأسمالية دولة. والاشتراكية لا تعني فقط وجود حزب يدعي الاشتراكية، كما في اسم حزب البعث العربي الاشتراكي، أو يدعي تمثيله للطبقة العاملة والفلاحين ولكن يسير بالاتجاه المعاكس كما عشنا التجربة في الدول الاشتراكية التي عبرت في الخط العام عن رأسمالية دولة، كما هو الحال في الصين حالياً. ولست هنا معنياً بتبيان ما تعنيه الاشتراكية، إذ ربما يحتاج هذا الموضوع إلى بحث مستقل. لقد كان نظام البعث شمولياً واستبدادياً دموياً، لقد كان فاشياً من الناحيتين الفكرية والسياسية والسياسات العسكرية والقمعية والقسوة، ولم تكن لكلمة الاشتراكية في تسمية حزبه إلا ذراً للرماد في عيون البسطاء من الناس. كما إن من غير الصائب الدعوة إلى الخصخصة إذا كان بالإمكان، وهذا ممكن فعلاً، إيلاء اهتمام أكبر بتلك المشاريع وإعادة تأهيلها ووضع كوادر إدارية ومحاسبية وفنية أمينة ونظيفة ومخلصة للعملية التنموية في العراق ولثروة الوطنية. انتهت الحلقة الرابعة وتليها الحلقة الخامسة.

قراءة ومناقشة "خارطة طريق اقتصادية" للسيد الدكتور محمد علي زيني

#### الحلقة الخامسة

#### العراق والعولمة

استخلص الصديق الدكتور محمد علي زيني بصواب أن "العولمة موضوع مثير للجدل، وهي ليست كلها نافعة كما هي، أيضاً، ليست كلها ضارة. فهي لها مجالات إيجابية عديدة يمكن التركيز عليها واستغلالها والاستفادة منها، ولها بعض المجالات السلبية التي يمكن تقليص آثارها إلى الحدود الدنيا إن لم يكن ممكناً تفاديها أو التغلب عليها بالكامل. وسيسهل أيضاً مواجهة تحديات العولمة إذا تمت الاستفادة من تجارب الشعوب الأخرى." (راجع: الحلقة الثالثة من خارطة طريق اقتصادية).

وهو من حيث المبدأ استنتاج واستخلاص سليم، إذ لم يعد ممكناً لأي بلد من البلدان تجاوز العولمة وفعلها وآثارها أو نتائجها وعواقبها في آن، فنحن وكافة الدول الأخرى تشكل جزءاً من هذا العالم ولا

نستطيع الهروب منه, وأن اختلفنا في المواقع التي نحتلها فيه. إذ العولمة الرأسمالية قد حولت العالم كله إلى قرية دولية صغيرة متفاعلة ومتبادلة التأثير ولكنها متباينة في مدى تأثير كل منها, كما إنها متباينة جداً في ما تملكه في هذه القرية من عمارات شامخة وفيلات ودور عامرة وبيوت بسيطة وأكوخ وبيوت قصديرية ومناطق سكن عشوائية. ففي هذه القرية دول متقدمة غنية ومتخمة يعيش فيها أقل من 20% من سكان العالم ولكنها تستحوذ على أكثر من 80% من الدخل القومي المنتج في العالم وتستخدم أكثر من 80% من الطاقة والأخشاب ومجموعة كبيرة من المواد الأولية الأخرى, وفيها ينتج حوالي 80% من إنتاج العالم... الخ, وبجوارها مئات الدول المتخلفة والفقيرة وبعضها أكثر من بائة يعيش فيها أكثر من 80% من سكان العالم ولكنها حصتها تقل عن 20% من الدخل القومي المنتج على الصعيد العالمي, ولا تستخدم سوى 20% من الطاقة والأخشاب ومن الإنتاج العالمي, بما في ذلك النفط الخام المصدر للدول الأخرى. في الدول الغنية في هذه القرية توجد مجموعة الدول المنتجة للسلع المصنعة التحويلية التي تسيطر على 80% من إجمالي صادرات العالم, في حين توجد بجوارها تلك الدول التي تنتج وتصدر في الغالب الأعم المواد الأولية, وبالتالي فهي غير متساوية في مستوى تطورها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ولا في قدرتها على حماية البيئة الذي تتسبب الدول المتقدمة في إنتاج أكثر من 80% من كمية التلوث في العالم, وهي بالتالي غير متكافئة في مجمل العملية الاقتصادية والتي تبرز بشكل جلي في عمليات التراكم والتبادل. ومن هنا فنحن أمام عالم واحد, ولكنه في واقع الحال عالمان, عالم غني متخم, وآخر فقير حد الإملاق. ورغم ذلك فمن يحاول رفض العولمة أو عدم التعامل معها والإفلات منا, كمن يضرب رأسه بصخرة فيشجها أنها حقيقة صلبة, لأنها نتاج موضوعي لمستوى تطور القوى المنتجة المادية والبشرية وطبيعة علاقات الإنتاج الرأسمالية على الصعيد العالمي, كما إنه يبدو أشبه بالنعامة التي تدفن رأسها بالرمال حين تواجه عدوها وجهاً لوجه بأمل أن لا يراها ذلك العدو! إنه الوعي المزيف الذي لا يريد أن يرى الأشياء على حقيقتها. فالعولمة قائمة بالرغم منا, إذ إنها ضمن مرحلة متقدمة من مراحل تطور العلاقات الإنتاجية الرأسمالية على الصعيد العالمي. فكما ظهر التبادل التجاري والتعامل الاقتصادي الدولي وتوسع تدريجاً في المراحل الأولى من تطور الرأسمالية وبرز بوضوح غير قابل للإنكار أو منعه من التطور في القرن التاسع عشر, إذ ما عاد بإمكان البرجوازيات المحلية الرجعية حينذاك تفادي التبادل أو التعامل الاقتصادي الدولي وما كان بالإمكان حصر التبادل داخل البلد الواحد, إذ كان هذا التوجه يتعارض مع النمو المتواصل في التقسيم الدولي الرأسمالي الاجتماعي للعمل. فالعولمة اليوم تسجل تطوراً هائلاً في القوى المنتجة المادية والبشرية, تطوراً في التقنيات الإنتاجية والاتصالات تتجلى في ثلاثية ثورة الإنفوميديا وما تحققه من تشابك وما تلعبه من دور متصاعد في اقتصادات وعلاقات دول العالم ومختلف أوجه حياة الشعوب. كتب ماركس وإنجلز في البيان الشيوعي في العام 1848

النص التالي:

“والبرجوازية، باستثمارها السوق العالمية، طبّعت الإنتاج والاستهلاك، في جميع البلدان، بطابع كوسموبوليتي، وانتزعت من تحت أقدام الصناعة أرضيتها القومية وسط غم الرجعيين الشديد. فالصناعات القومية الهرمة دُمّرت وتدمّر يوماً لتحل محلها صناعات جديدة، أصبح اعتمادها مسألة حيوية بالنسبة إلى جميع الأمم المتحضرة، صناعات لم تعد تستعمل المواد الأولية المحلية، بل المواد الأولية من أقصى المناطق، صناعات لا تُستهلك منتجاتها في البلد نفسه فحسب، بل أيضاً في جميع أنحاء العالم. فكانت الحاجات القديمة، التي كانت المنتجات المحلية تسدّها، تُحل حاجات جديدة تتطلب لإشباعها منتجات أقصى البلدان والأقاليم. ومحل الاكتفاء الذاتي الإقليمي والقومي والانعزال القديم، تقوم علاقات شاملة في كل النواحي، وتقوم تبعية متبادلة شاملة بين الأمم. وما ينطبق على الإنتاج المادي ينطبق أيضاً على النتاج الفكري. فالنتائج الفكرية لكل أمة على حدة تصبح ملكاً مشتركاً. والتعصب والتقوق القوميتان يُصبحان مستحيلين أكثر فأكثر. ومن الآداب القومية والإقليمية ينشأ أدب عالمي.” (راجع: كارل ماركس وفريدريك إنجلز. البيان الشيوعي. الفصل الأول). لهذا فمن يرفض التعامل مع العولمة كمن يرفض العصر الذي يعيش فيه. والاعتراف بوجود العولمة كعملية موضوعية لا يعني الخضوع لها ولا القبول بالسياسات التي ترسمها الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة التي تخدم مصالحها لا غير وتريد فرضها على شعوب وحكومات البلدان النامية. بل لا بد من التحري عن سبل جديدة لممارسة سياسات تعبر عن إرادة الشعوب وتخدم مصالحها، ومنها إرادة الشعب العراقي ومصلحه.

إن الاعتراف بوجود العولمة وحركة قوانين الرأسمالية وفعلها على الصعيد العالمي يتطلب من علماء الاقتصاد والاجتماع والمثقفين والسياسيين في العراق مثلاً التعاون في فهم جوانب العولمة وسبل الاستفادة منها، كما أشار إلى ذلك السيد الدكتور زيني بصواب وسبل التخلص من جوانبها السلبية الحادة على اقتصاديات العراق وشعبه. وعلينا أن نشير هنا إلى أن الكثير من الجوانب السلبية في العولمة الرأسمالية التي أود الإشارة إليها في أدناه تلتحم، من حيث الأساليب والأدوات والأهداف في الواقع العملي، بسياسات المؤسسات المالية الدولية والاحتكارات الكبرى المتعدية الجنسية وتتوافق معها وتتجلى في ممارساتها في موقعين: أ) في التعامل مع شعوب الدول النامية ومنها العراق، وب) في التعامل مع الجزء الأكبر من شعوبها، أي مع الفئات المنتجة للخيرات المادية والكادحة والعاطلة عن العمل في البلدان الرأسمالية المتطورة. ويلاحظ بوضوح حجم البطالة المتعاظم يوماً بعد آخر بسبب سعي أصحاب رؤوس الأموال إلى تقليص حصة العمل في القيم المنتجة أو حصة الأجور (رأس المال المتحرك) في إجمالي رأس المال الموظف في الإنتاج لصالح رأس المال الثابت. إنها الملاحظات التي يفترض، ونحن نتحدث عن العولمة أن لا تغيب عن ذهن اقتصاديي وحكام وشعوب الدول النامية، ومنها العراق التي أخص أبرزها في النقاط التالية:



\*\* إن العولمة تسعى إلى تجاوز الحدود والسيادة الوطنية للدول وتقليص قدرة الدول النامية على اتخاذ وتنفيذ قرارات اقتصادية أو حتى سياسية واجتماعية مستقلة عن الدول الكبرى المتحكمة بسياسات العولمة. ويتجلى ذلك في عدد كبير من الأمور في المجال الاقتصادي ومنها فرض أسس محددة في التجارة الدولية المفتوحة والاستثمارات والقوى العاملة وبراءات الاختراع... الخ. فقواعد اللعبة الاقتصادية بيد المراكز الدولية الثلاثة للعالم الرأسمالي وليس بيد غالبية الدول الأخرى في العالم. وغالباً ما يتسنى للولايات المتحدة الأمريكية فرض رغباتها وإرادتها على دول الاتحاد الأوروبي واليابان.

\*\* إن العولمة الجارية التي نتحدث عنها في هذه المرحلة من تطور المجتمع البشري ومن العلاقات الإنتاجية السائدة فيه تعتبر الوليد الشرعي للنظام الرأسمالي العالمي وقوانينه الاقتصادية الموضوعية الخاصة والعامة، أي إنها عولمة رأسمالية ناتجة في صيغتها الجديدة عن مستوى تطور أسلوب الإنتاج الرأسمالي.

\*\* وهذا يعني بدوره إن العولمة الرأسمالية بطبيعتها وطبيعة وفعل القوانين الاقتصادية المتحكمة فيها استغلالية ترتبط عضوياً بقوانين وآليات اقتصاد السوق الحر، وتسعى إلى تحقيق أقصى الأرباح. \*\* وأن هذه العولمة، وأن كانت عملية موضوعية، فإنها تتسبب، إضافة إلى سياسات الدول الرأسمالية المتقدمة، وخاصة بمضمون الليبرالية الجديدة، باستغلال شعوب البلدان النامية وكذلك الفئات الكادحة والمنتجة للخيرات المادية في بلدانها بالذات وتعميق التفاوت الطبقي الاجتماعي، وتتسبب في مزيد من الصراعات الطبقيّة والنزاعات السياسية على الأصعدة المحلية والإقليمية والدولية.

\*\* والعولمة، وهي تجعل جملة من القيم والمعايير عامة شائعة ومتداولة كالمجتمع المدني والحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ولكنها من حيث الجوهر تقلص ممارسة هذه القيم في الدول المتقدمة وغالباً ما تغيب عن الدول النامية كلية أو على نطاق واسع. وتتقلص أيضاً حتى صلاحيات مجالس النواب والسياسات الحكومية لصالح القرارات الدولية التي تتخذها تلك المراكز المهيمنة على سياسات العولمة. فمجالس النواب تخضع بشكل عام في قراراتها لاجتماعات الدول الـ 7 + 1 الكبار أو الدول الـ 20. وهذا ما نشاهده أيضاً في خضوع مواقف وقرارات مجالس النواب في الدول الأوروبية إلى المجلس الأوروبي.

\*\* والقوى الموجهة للعولمة التي تبدي اهتماماً خاصاً بالجانب الاقتصادي، تهمل بشكل تام تقريباً الجوانب الاجتماعية ومشكلاتها في حياة الشعوب، وخاصة مشكلات ومصاعب حياة الفئات الكادحة والمنتجة للخيرات المادية لا في البلدان النامية فحسب، بل وفي بلدانها بالذات. وقد تجلى ذلك بوضوح بعد انهيار الاتحاد السوفييتي الذي كان منافساً للدول الرأسمالية والتي أجبرت في حينها على المساومة مع النقابات العمالية والعمال في مجالات الرعاية والضمانات الاجتماعية والصحية والعطل السنوية والحماية الصناعية... الخ، إذ بدأت تتراجع عنها وتقلصها وتمارس استغلالاً أكثر قسوة مما يزيد من

التناقضات الاجتماعية والصراعات الطبقيّة. كما يمكن تسجيل نفس الملاحظة على موقف الدول الرأسمالية المتقدمة السليبي من اتخاذ قرارات صارمة لحماية البيئة أو استمرارها في زيادة مخزونها من أسلحة التدمير الشامل أو استخدام الذرة في إنتاج الطاقة الكهربائيّة رغم وقوع كوارث مثل تشيرنوبيل وفوكوشيما أخيراً، أو مواصلة تصدير المزيد من الأسلحة الهجومية على الدول النامية التي تسهم في دفع الدول لحل مشكلاتها عبر استخدام القوة والحروب من جهة، وتقليص ميزانيات التربية والتعليم والصحة والسكن.. الخ من جهة أخرى.

\* \* \*وعلينا أن نتابع في هذا المجال أيضاً موقف العولمة من تصنيع الدول النامية، وخاصة ضد إدخال الصناعات الأكثر حداثة وتقدماً والأقل تلويثاً للبيئة فيها، وكذلك السعي لإغراق أسواقها بالسلع المنتجة في دولها والتركيز على سياسة الباب المفتوح أمام التجارة الدولية الذي يعرقل بدوره نمو الصناعات الوطنية. علماً بأن التبادل التجاري الدولي يجسد بصورة فاضحة التعامل غير المتكافئ بين الدول المتقدمة والدول النامية لصالح الأولى. إن العولمة الرأسمالية تسعى إلى جعل عملية إعادة الإنتاج في الدول النامية تابعة وخاصة لعملية إعادة الإنتاج في الدول الرأسمالية المتقدمة. وهي مشكلة لا بد للعراق وبقية الدول النامية التفكير في سبل تحقيق الاستقلالية النسبية رغم التعامل مع واقع العولمة القائمة.

\* \* \* إن ابرز ما يهم المؤسسات المالية الدولية المعبرة عن روح العولمة ووجهتها الأساسية هو تقديم شروط التعامل مع الدول النامية، ومنها العراق، وأو حتى الدول الصناعية الضعيفة التطور، كما في حالة البلدان الاشتراكية السابقة، ومنها رومانيا وبلغاريا.. الخ، سواء أكان بتقديم القروض أم المساعدات المالية، التي تتركز في استكمال خصخصة المشاريع الحكومية وإبعاد الدولة عن النشاط الاقتصادي الإنتاجي وإلغاء الدعم الذي يوجه للسلع الأساسية التي تستفيد منها الفئات الكادحة والفقيرة، وإجراء ترشيح في ميزانية الدولة في حقول الرعاية الاجتماعية وممارسة سياسة توفيرية ضاغطة ومضرة بالفئات الفقيرة من المجتمع التي تقود بدورها إلى مزيد من الانفصام بين سياسات حكومات تلك البلدان والغالبية العظمى من شعوبها.

\* \* \* السيد مونتيفيرنغ، رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، ألقى خطاباً في تشرين الثاني/نوفمبر 2004 وتصريحات أدلى بها في نيسان/أبريل 2005 أستخدم صورة أسراب الجراد للتعبير عن سلوك الرأسماليين الألمان التي تريد التهام كل شيء ولا تبقي شيء للمنتجين الفعليين. (قارن: أولريش شيفر. انهيار الرأسمالية، عالم المعرفة 371. يناير 2010 ص 126-128). وهذه الحقيقة هي نتيجة منطقية لطبيعة العلاقات الإنتاجية الرأسمالية التي يسعى فيها الرأسمالي إلى انتزاع أقصى ما يمكن من الثروة المنتجة في البلاد على شكل أرباح وفوائد وريع ويترك القسم الضئيل منها لمنتجي السلع المادية والروحية، لمنتجي القيمة المضافة للثروة في المجتمع. وتزداد هذه الحالة في إطار العولمة الجارية. ويمكن أن نقرأ ذلك بوضوح في ملاحظات الدكتور زيني حول مسألتين من خلال

الأولى تمس واقع العقود النفطية التي وقعها العراق ولا تنسجم مع مصالح البلاد، بل تخدم بشكل صارخ مصالح الشركات الاحتكارية البترولية الأجنبية.

نظام الفساد السائد في العراق والذي تمارسه الشركات الأجنبية العملاقة مع العراق منذ نظام صدام حسين واشتد في الفترة التي أعقبت سقوط الدكتاتورية التي تحدث عنها بوضوح كبير الأخ الدكتور محمد علي زيني. إن الفساد الراهن في العراق معلوم بكل معنى الكلمة، وتشارك فيه قوى سياسية واجتماعية كثيرة.

والمثال الثالث الذي أورده هنا يمس موقف الدول الصناعية المتقدمة من النظم المستبدة في الدول العربية. فهي وعلى مدى عقود ساعدت الحكومات المستبدة والرجعية ابتداءً من السعودية ومروراً بكل دول المنطقة ومصر والعراق على حساب حرية وحياة ومصالح شعوبها لأنها كانت لها مصالح في هذه البلدان. وهي ما تزال تؤيد الكثير من هذه النظم لذات السبب. ولكن حين اصطدمت مصالحها ببعض تلك الدول لم يكن لديها مانع من شن الحرب للتخلص منها والعمل قدر الإمكان لإرساء نظام جديد يمكن أن يدعم بشكل أفضل مصالحها في هذه البلدان.

إن تشخيصنا لهذه الجوانب السلبية في العولمة وفي السياسات العولمية لا يعني عدم سعينا للاستفادة من جوانب إيجابية فيها مثل السعي للحصول على أحدث التقنيات المناسبة لإقامة الصناعات الحديثة غير الملوثة للبيئة أو في تطوير البحث العلمي والتدريب والخبرة العلمية والتطبيقية والتعليم وفي مجال التبادل التجاري والثقافي والبيئي، إضافة على الحصول على الاستثمارات الضرورية على وفق شروط مناسبة.

إن الاستنتاج الصائب حول العولمة الذي أورده الدكتور زيني وأشارت إليه في بداية هذه الحلقة، لم يبرز بوضوح، كما أرى، في مجمل دراسته عن خطة طريق اقتصادية للعراق وبشكل خاص في الموقف من الانفتاح التجاري واقتصاد السوق الحر والخصخصة.. الخ.

أتمنى أن تكون الدراسة التي قدمها الدكتور زيني فرصة لمزيد من النقاش الهادف.

قراءة ومناقشة "خارطة طريق اقتصادية" للسيد الدكتور محمد علي زيني

الحلقة السادسة

استهلال

قدم لنا الزميل الدكتور محمد علي زيني في دراسته للاقتصاد العراقي "خارطة طريق اقتصادية" تستحق القراءة والمناقشة. إنها لوحة مكثفة تتضمن مشكلات وإمكانيات وحاجات العراق للنمو الاقتصادي،

وشخص المهمات التي يستوجب النهوض بها لإخراج العراق من نفق التخلف. وقد طرح الأسئلة المهمة التالية وسعى للإجابة عنها وفق قناعاته:

“ماذا يجب أن نعمل وما هي الخيارات المتاحة لانتشال العراق من الهوة السحيقة التي وقع بها؟ ماذا يمكن أن تقوم به الحكومات العراقية بالتضامن مع الشعب العراقي، وبالتضامن مع المجتمع الدولي أيضاً، للخروج بالعراق من نفق التخلف الاقتصادي الطويل المظلم الذي دخل به؟ كيف سيتمكن العراق من استعادة عافيته الاقتصادية ثم المضي في طريق التطور الاقتصادي ليلحق بدول عديدة لم تكن أفضل منه في سبعينات القرن الماضي ولكنها حققت بالنهاية نجاحاً اقتصادياً باهراً، ومنها النمر الآسيوية كتايبان وكوريا الجنوبية وسنغافورة وماليزيا؟” (راجع: الحلقة الأولى من خارطة طريق اقتصادية). وسعى الزميل بجهد مشكور ولموس للإجابة عن تلك الأسئلة وعن سبل وأدوات تحقيق ذلك. وهي التي ستكون موضع نقاش ينطلق من مواقع الحرص على الاقتصاد العراقي التي كانت بدورها هدف الزميل الدكتور زيني أيضاً.

تضمنت الإجابة النموذج الاقتصادي الذي يراه مناسباً للعراق والأدوات التي يفترض استخدامها لهذا الغرض.

وتابعت المنهج الذي استخدمه في تلك الدراسة وفي الإجابة عن تلك الأسئلة، وهو حق ثابت له. وكقارئ أتمتع بقراءة ما يكتبه الدكتور زيني خاصة وأن تحليلاته تتسم بالجدلية والعقلانية ووضوح ما يريد كنت أرى أو أفضل أن يمارس أسلوباً آخر في معالجة الدراسة التي بين أيدينا بحيث تسمح للقارئ أن يتعرف بوضوح أكبر على المسائل التي تدور في ذهن الكاتب والتي تتجلى في الموضوع المطروح للمناقشة.

1. طرح المنهجية التي يريد بها معالجة المشكلة العراقية والنموذج الاقتصادي الذي يختاره لمعالجة مشكلة النمو الاقتصادي ووجهة التطور الاقتصادي والاجتماعي لكي لا يُجبر الكاتب على تكرار جوانب مختلفة من النموذج الاقتصادي، كما حصل في الدراسة.

2. ثم عرض المشكلات والاختلالات التي يعاني منها الاقتصادي والمجتمع في العراق من الناحية البنوية ومن ثم تجلياتها في القطاعات الاقتصادية العراقية لكي تبرز من خلال هذا العرض التحليلي تلك المواقع التي هي بحاجة إلى التغيير والتطوير.

3. ثم يتابع ذلك بتشخيص السياسات الاقتصادية التي تمارسها الدولة العراقية أو الحكومة في المرحلة الراهنة ومقدار استجابتها لمعالجة المشكلات والاختلالات القائمة، أو مدى تأثيرها على تعميق المشكلات التي يعاني منها الاقتصاد والمجتمع

4. وحين الانتهاء من هذه المهمة يضعنا الكاتب أمام رؤيته واقتراحاته للتغيير المنشود على مستوى الاقتصاد من الناحيتين الكلية والجزئية. فمشكلات الدخل والتشغيل والعلاقات في ما بين القطاعات الاقتصادية وقضايا الأجور والأسعار, وبتعبير أدق السياسات المالية والنقدية, ومشكلات التأمين والبنوك والعلاقات الاقتصادية الدولية, إضافة على المشاريع الاقتصادية التي يفترض اقتراحها لعملية التنمية, إضافة إلى السياسات الاجتماعية التي يفترض أن تتكامل في ما بينها لتحقيق التغيير المنشود في الاقتصاد والمجتمع. وهذا يتطلب ابتداءً تحديد إستراتيجية النمو الاقتصادي والتطور العام في البلاد وبضمنها إستراتيجية قطاع النفط الخام الذي يفترض أن يخضع لإستراتيجية البلاد الكلية لعقدين من السنين أو أكثر.

ولا بد لي من القول بأن هذه الموضوعات موجودة في الدراسة التي تحت تصرفنا, ولكنها مبعثرة وتنقصها الملموسية المطلوبة في مثل هذه التسمية للدراسة "خارطة طريق اقتصادية" للعراق. لقد قرأت منذ سنوات دراسة أخرى قيمة للأخ الدكتور صبري زاير السعدي تحت عنوان "نموذج النمو الاقتصادي والتوزيع في العراق (الثروة النفطية وإدارة الاقتصاد والعدالة الاجتماعية من منشورات دار الأديب البغدادية في العام 2004) وهي دراسة مهمة حقاً, بغض النظر عن مدى موافقة أو اختلاف القارئ مع هذه الفكرة أو تلك, إذ إن المنهج الذي استخدمه مهم ودقيق ويسهل فهم المادة المطروحة, بالرغم من المعادلات الرياضية أو الجبرية المستخدمة التي تفيد المختصين وليس عموم القارئ والقراء, كما يسهل البحث في الدراسة أو مناقشة أفكارها وما يسعى إليه الكاتب. ورغم وجود نقاط التقاء مهمة بين الدراستين, ولكن توجد تباينات أيضاً واختلاف كبير في منهجية الدراسة وفي طريقة العرض والتحليل.

في مناقشتي لهذه الدراسة سأتناول الموضوعات كما وردت عند الزميل بعد أن وزعت المناقشة على جانبيين النظري والتطبيقي, وبعد أن انتهيت من القسم الأول, سأبدأ بمناقشة الأفكار الواردة في الجانب الثاني أي وجهة ومضمون السياسات الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالعراق.

#### حول واقع الاقتصاد العراقي

قدم لنا الدكتور زيني في البداية لوحة حزينة, ولكنها واقعية, عن الكوارث التي حلت بالاقتصاد العراقي خلال العقود التي هيمن فيها حزب البعث العربي الاشتراكي على السلطة السياسية, ومن ثم على الاقتصاد والمجتمع في البلاد وأقام نظاماً شمولياً وبوليسياً جائراً, وبرز الخسائر المادية الكبيرة التي تسببت بها سياسات النظام الاقتصادية وحروبه الدموية, الخارجية منها والداخلية, إضافة إلى سياساته

القومية. وإذا كانت هذه المعلومات التي قدمها للقراء في هذه الورقة مكثفة جداً، فإنه كان قد توسع بها كثيراً قبل ذاك في كتابيه اللذين أشرت إليهما قبل ذاك.

فقد برز الزميل زيني حجم الدمار الهائل الذي لحق بالاقتصاد العراقي ومشاريع التنمية التي أقيمت في البلاد خلال أكثر من نصف قرن وكشف عن الخراب الذي انتهت إليه مشاريع البنية التحتية في حروب الخليج الثلاث. إذ قدرت بمئات المليارات من الدولارات الأمريكية إضافة إلى تلك الموارد المالية التي وجهت منذ منتصف السبعينات حتى عام 1990 نحو التسليح والتي بلغت أكثر من 250 مليار دولار أمريكي، (راجع: كاظم حبيب، المأساة والمهزلة في العراق، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 2000م)، التي أدت كلها إلى بدء مديونية العراق الخارجية التي بلغت أكثر من مئة مليار دولار أمريكي في حينها، دغ عنك الفوائد التي ترتبت عليها.

وإذا كان الزميل زيني لم يتطرق إلى الجانب البشري في خسائر العراق الكبيرة خلال سنوات حكم حزب البعث، كما أشار إلى ذلك الأخ الدكتور كامل العضاض بصواب في ملاحظاته على الحلقة الأولى من هذه الدراسة، فقد اعتمد، كما يبدو لي، على ما جاء في كتابيه ولم يجد ضرورة إلى إعادة ذلك في هذه الدراسة. إلا إنني أرى بأن هذه الدراسة تختلف عن الكتابين، وهي مستقلة، كما إن لها هدف محدد هو طرح خارطة طرق لإعادة بناء وتطوير الاقتصاد العراقي، ولذلك كان لا بد من الإشارة الواضحة إلى الخسائر البشرية باتجاهات خمسة هي:

1. سقوط ضحايا بشرية كبيرة قدرت عبر الحروب الثلاث المذكورة زائداً الحرب ضد الشعب الكردي والكرد الفيلية وضد سكان الأهوار بما يتراوح بين 750000 - 1000000 - إنسان وأغلبهم من القوى القادرة على العمل، وكان أغلبهم من الرجال، وبينهم الكثير من النساء والأطفال. كما إن الحصار الاقتصادي الدولي الظالم قد اختطف مئات ألوف الأطفال وكبار السن والمرضى نتيجة سوء التغذية وانعدام الأدوية والمعالجة الطبية وتدهور البنية التحتية في البلاد.

2.

2. جرة ما يزيد عن ثلاثة ملايين إنسان عراقي بين 1968-2003 من العراق، سواء أكان ذلك بسبب الهجرة القسرية، كما حصل بالنسبة للكرد الفيلية وعرب الوسط والجنوب بذريعة التبعية لإيران، أم بسبب الحروب والهروب منها، أم لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية وأخرى.

3. خسارة كبيرة جداً من ذوي الكفاءات العلمية والتقنية والمهنية والثقافية والأدبية والفنية تحملها الاقتصاد والمجتمع في العراق، سواء أكان ذلك بسبب الموت عبر الحروب والقمع الصدامي، أم بسبب الهجرة المرتبطة بالكثير من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية

والقومية والدينية، أم بسبب الأمراض التي أصيبوا بها في فترة الحروب والحصار الاقتصادي ولم تتوفر لهم المعالجة الطبية والأدوية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى إن الذين قتلوا أو استشهدوا في العراق كانوا في الغالب الأعم من أعمار تسمح لهم بالزواج أو كانوا متزوجين فعلاً وكانوا قادرين على الإنجاب والمشاركة في زيادة معدل النمو السكاني، ولكن هذا لم يحصل. وهي خسارة كبيرة في عملية إعادة إنتاج البشر. فالعراق لم يخسر من مات في الحروب أو قتل تحت التعذيب، بل وحرّم من الأطفال الذين كان في مقدور هؤلاء الذين قتلوا إنجابهم.

3. إن السياسات القمعية وإرهاب الدولة والحروب والحصار الاقتصادي والجوع والحرمان قد تسببت كلها وبالتضافر في نشوء علل نفسية وعصبية وجسدية وأخلاقية، إضافة إلى مئات ألوف الجرحى وعشرات ألوف المعوقين الذي يعانون اليوم ويعاني معهم المجتمع والاقتصاد الوطني من الكثير من المشكلات بما فيها الخروج من دائرة الإنتاج أو النشاط الاقتصادي العام. ومن بين العلل الاجتماعية نشير إلى ظواهر العنف والشراسة في التعامل والانتهازية، إضافة إلى الفساد الذي أصبح نظاماً سائداً في العراق.

ورغم سقوط النظام الشمولي، فإن عدد المهجرين والمهاجرين قد ازداد عما كان عليه في فترة صدام حسين بسبب نظام المحاصصة الطائفية والعمليات الإرهابية والصراعات الدينية والطائفية وعدم استقبال العائدين من ذوي الكفاءات استقبالاً حسناً، بل تحملوا الكثير من الإساءات والعزل والمرارة وأجبر الكثير منهم على العودة إلى خارج الوطن والقبول بالاغتراب الذي فضلوه عن اغتراب الإنسان في وطنه.

الزميل زيني كشف للقراء عن الحاجة الماسة لمزيد من الموارد المالية التي لن تكون موارد النفط المالية كافية لسد الحاجة الفعلية خلال العقدين القادمين. اتفق مع هذا الاستنتاج العام، شريطة أن يرتبط ذلك بتأمين تعبئة كل الطاقات المحلية والإمكانيات الخارجية لصالح تعجيل إعادة الإعمار والسير على طريق التنمية المستدامة والذي لم يحصل حتى الآن. ولكني أرى بأهمية وضرورة أن ننتبه إلى هذا الموضوع إذ إن المشكلة في العراق لا تخضع لعامل واحد هو حجم رؤوس الأموال التي يحتاجها العراق للنمو الاقتصادي، بل نحتاج إلى التفكير بعدد من العوامل الأخرى الفاعلة التي تؤثر دون أدنى ريب وبشكل مباشرة على هذه الحسابات بالزيادة أو النقصان والتي يفترض أن تؤخذ بالحسبان. لقد جرى استخدام نماذج رياضية في احتساب ما يحتاجه العراق لتسديد ديونه أو إعادة إعمار ما خربته الحروب في منتصف التسعينيات من عدد من الأخوة، منهم على سبيل المثال لا الحصر، الأخ الدكتور سنان الشيببي الذي قدم دراسة مهمة في ندوة عقدت في فيينا ونظمها المكتب الاستشاري العراقي بإدارة السيد أديب الجادر والدكتور مهدي الحافظ حول هذا الموضوع وطرح أرقاماً عن مدة تسديد ديون العراق وحجم النفط الذي سيصرف لهذا الغرض وحجم الموارد التي يحتاجها العراق لإعادة عملية الإنتاج فيه. وعلى أهمية

تلك الأرقام والاحتمالات التي طرحت, فإن الحياة قد برهنت على لوحة أخرى مختلفة بسبب الطريقة التي تم بها إسقاط النظام والقوى التي وصلت إلى السلطة وما أحيط بمجمل العملية من مصاعب ما زالت قائمة في البلاد وستبقى لفترة غير قصيرة قادمة.

أقصد هنا إن المسألة مرتبطة بعدد من العوامل المهمة, منها على سبيل المثال لا الحصر: 1. من هي القوى التي تمارس عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية أو البشرية, وما هي بالتحديد الإستراتيجية التي تتبناها في عملية التنمية, وهل ستتبنى التصنيع أم تبقى تعتمد على الاقتصاد الريعي النفطي بشكل خاص أم ستسعى إلى استثمار النفط لأغراض تقليص دوره لاحقاً من خلال تنويع البنية الاقتصادية من خلال عملية التصنيع وتحديث الزراعة وتنويعها وبالتالي تنويع مصادر الدخل القومي. (من المفيد هنا أن نعود إلى دراسات ومقالات عدد مهم من الاقتصاديين العراقيين, منهم السادة الدكتور صبري زاير السعدي والدكتور علي مرزا والدكتور فاضل عباس مهدي والدكتور كامل مهدي والدكتور كامل العضاض والدكتور فوزي القرشي والدكتور ماجد الصوري والدكتور وليد خدوري والأستاذ حمزة الجواهري, على سبيل المثال لا الحصر.

2. حين البدء بوضع الإستراتيجية التنموية يفترض أيضاً تحديد إستراتيجية اقتصاد النفط الخام التي يفترض موردها المالي والنفط الخام والغاز يساهمان في عمليات الاستثمار والإنتاج في العراق, أي ربط الإستراتيجيتين معاً ليشكلا القاعدة الأساسية لعملية التنمية وتغيير بنية الاقتصاد الوطني على مدى العقدين القادمين, أي أن يكون النفط الخام, كمادة خام وكمورد مالي, القاعدة الأساسية لعملية تغيير بنية الاقتصاد العراقي وتحقق التنويع الضروري في مكونات الدخل القومي وتقليص دور إيرادات صادرات النفط الخام فيه.

3. وكما أشار الدكتور زيني نفسه فإن المبالغ المقترحة تتغير بعد سنة أو عدة سنوات بسبب التضخم أو لعامل كثيرة أخرى, ولهذا يمكن أن تتخذ تلك الأرقام كمؤشر عام لوجهة التطور وحجم الاستثمارات المطلوبة.

4. إن احتساب المبالغ التي تستوجبها التنمية ذات المدى البعيد 20-25 سنة تحتاج إلى رؤية تفصيلية مرتبطة بطبيعة المشاريع التي يراد إقامتها وحدثاً التقنيات التي يراد استخدامها, سواء أكان ذلك في قطاع الصناعة النفطية الإستخراجية أم في الصناعة التحويلية أم في تحديث القطاع الزراعي أم في مجال التنمية البشرية, وهي الملاحظة التي أوردها الدكتور كامل العضاض في ملاحظاته المرسله لكم عن الحلقة الأولى من " خارطة طريق اقتصادية."

5. كما لا بد من الأخذ بنظر الاعتبار لا المبالغ المتوفرة فحسب, بل ومدى قدرات العراق الفعلية في الظروف الملموسة على التنفيذ, لكي لا نعمل على طريقة المقولة الشعبية " الهور مرگ والنزور



خواشيگ”. إذ لو ألقينا نظرة فاحصة على محاولات البرمجة والتخطيط منذ أن بدأ العراق بوضع البرامج في العام 1936/1935 حتى آخر خطة وضعت في العراق التي توقفت عمليا في فترات الحروب, فإن مستوى التنفيذ, أو بتعبير أدق, مستوى الصرف قد تراوح بين 20 % - في أحسن الأحوال. ولا أقصد بالمثل الشعبي هنا بطبيعة الحال ما طرحه الدكتور زيني, بل أقصد إن واقع العراق يتطلب الحذر من طرح الأرقام المجردة.

6. أما في حالة استمرار الفساد الجاري حالياً في البلاد, دع عنك الإرهاب, فإن على العراق أن يحسب أضعاف ما يطرحه الدكتور زيني من مبالغ للوصول إلى الحد الذي قدره للصرف الفعلي. إذ إن المعلومات المتوفرة لدينا تشير إلى ما يلي: حين يتم تخصيص مليون دولار لإنجاز مشروع (أ) في العراق, فإن ما يصرف على المشروع من هذا المبلغ فعلياً لا يزيد في أحسن الأحوال عن 10% منه, أي بحدود 100 ألف دولار والباقي يذهب في جيوب المقاولين بين مشتر وبائع للمشروع بين عدد منهم, سواء أكان المقاولون من داخل البلاد أم من خارجه. وأعتقد إن الدكتور زيني قد شخص ذلك في دراسته القيمة عن الفساد في العراق.

قراءة ومناقشة “خارطة طريق اقتصادية” للسيد الدكتور محمد علي زيني  
الحلقة السابعة

سأحاول في هذه الحلقة أن أتطرق إلى بعض المشكلات الاقتصادية الموروثة من العهود الماضية وما تراكم عليها خلال الفترة التي أعقبت سقوط نظام صدام حسين والتي فيها الكثير من التأييد والاتفاق مع الأخ الأستاذ الدكتور محمد علي زيني.

حين نتابع ما كتب عن الاقتصاد العراقي خلال القرن الماضي سنجد أن لدينا كم كبير ومهم من الدراسات الاقتصادية النوعية التي تبحث في واقع الاقتصاد العراقي ومشكلاته, ولهذا يصعب أن نأتي بجديد في تشخيص الظواهر الملازمة لهذا الاقتصاد. وسأحاول هنا أن أجمع في تقديري لواقع العراق الاقتصادي والاجتماعي ومشكلاته التي تجسد التفاعل بين السياسة والاقتصاد وتجلياتها في الواقع الاجتماعي مستنداً في ذلك إلى صحة ما أشار إليه الدكتور زيني بصدد العلاقة الجدلية بين السياسة والاقتصاد وتجليات ذلك على المجتمع وأحواله:

1. فمنذ تأسيس الدولة العراقية تحت الهيمنة البريطانية, ورغم إقرار النخب الحاكمة للدستور العراقي في العام 1925, ورغم تأييد وتوقيع العراق في العام 1948 على اللائحة الدولية لحقوق الإنسان, فإن الممارسة الفعلية كانت تتجلى في غياب الحياة السياسية الحرة والديمقراطية وتقليص الحرية الفردية

وقهر الإنسان سياسياً واجتماعياً واقتصادياً. ورغم أن الدولة العراقية قد امتلكت دستوراً أقر مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث واستقلال القضاء. إلا إن ممارسة تلك السلطات خضعت للإرادة السياسية للسلطة التنفيذية والسفارة البريطانية وشوهدت الحياة الدستورية والبرلمانية، وبالتالي لم ينعم الإنسان العراقي بأجواء تسهم في تفتحه الذهني وانطلاقته في التفكير الحر غير المقيد في فترة الحكم الملكي. وفي أعقاب سقوط الملكية كان الأمل في أن يتجه العراق صوب المجتمع المدني والديمقراطي، ولكنه سار بالاتجاه المعاكس بعد فترة وجيزة من عمر ثورة تموز 1958، وهيمنت سياسات الاستبداد والقسوة والتمييز مع الانقلابات القومية والبعثية في البلاد، والتي غاص الشعب في ربع القرن الأخيرة من عمر حكم صدام حسين في العزلة والظلمتين على حد تعبير الأستاذة بلقيس شرارة والأستاذ رفعت الجادرجي في كتابهما النفيس "بين ظلمتين".

2. ولا بد من الإشارة على إن الأحزاب السياسية العراقية التي نشأت في تلك البيئة غير الديمقراطية ورغم جهودها لتكون ديمقراطية، لم تكن كذلك على وفق ما يفترض أن تكون. ونحن نعيش اليوم حالة غالبية الأحزاب السياسية العراقية التي تفتقد للكثير مما يفترض أن يكون ديمقراطياً في علاقاتها الداخلية وفي ما بينها ومع المجتمع وفي استخدام السلطة السياسية.

3. وكحال الدول العربية ودول الإقليم المجاورة لم يشهد العراق حركة نهضوية وتنوير ديني واجتماعي-ثقافي تسهم كلها في إنقاذ الإنسان العراقي من براثن التخلف في الفكر الديني الشائع وفي ممارساته الشكلية المضرة، كما إن الأحزاب السياسية لم تسع إلى خوض صراع فكري مع المؤسسة الدينية التي لم تجدد نفسها ولم تسع إلى تجديد فكر المجتمع بل سعت إلى وضعه في ثلاجة تسهم في تجميده لا تحريكه. ولهذا تراجع العراق عن ركب الحضارة البشرية، رغم انه كان في يوم من الأيام أحد مهود الحضارة البشرية.

4. ولم يتجه التعليم في العراق صوب الدراسات المهنية والعلمية التطبيقية ومراكز البحث العلمي التي تدعم عملية التنمية الوطنية إلا بشكل محدود في أعقاب ثورة تموز 1958 والتي تطورت في ما بعد ولكن بوجهة خاطئة ذات طبيعة عسكرية رغبة من النظام الصدامي في العسكرية وشن الحروب والتوسع على حساب الجيران والهيمنة على "العالم العربي".

5. والحكومات العراقية المتعاقبة التي لم تفكر بمصالح المجتمع لم تعر أيضاً عملية التنمية الاقتصادية والبشرية اهتماماً كبيراً وبالوجهة الصحيحة التي تحقق التنمية المنشودة لبلد خرج لتوه من دولة عثمانية رجعية متخلفة في الدين والدنيا. وتجلى ذلك في سياساتها الاقتصادية. ونتج عن ذلك جملة من الخصائص السلبية التي تميز العراق بها التي يمكن بلورتها في النقاط التالية:  
أ. اقتصاد زراعي متخلف من حيث علاقات الإنتاج وأساليب وأدوات وطرق الإنتاج وكذلك في قواه

العاملة في الزراعة. وهي الظاهرة التي استمرت تميز الاقتصاد العراقي رغم محاولات تطبيق قوانين للإصلاح الزراعي التي جوبهت بمقاومة عنيفة من القوى ذات المصلحة بالعلاقات البالية وأجهزة الدولة التي لم تتغير حتى بعد ثورة تموز 1958 بل حتى الآن من حيث الجوهر ونظم العمل البيروقراطية السائدة والفساد المالي والمحسوبية المهيمنة. ورغم أهمية الزراعة في توفير الغذاء والأمن الغذائي، فإن الاهتمام بها وفي تغيير وتنويع بنيتها كان ضعيفاً ومتريداً، رغم الموارد المالية الكبيرة التي خصصت للري والبنزلة في سنوات العقد الثامن من القرن العشرين.

ب . اقتصاد ريعي يعتمد على اقتصاد النفط الخام في تكوين القسم الأعظم من ناتجه الإجمالي أو في تكون دخله القومي. وإذا كان القطاع في البداية بأيدي الشركات الاحتكارية الأجنبية فإن طبيعته لم تتغير حين أصبح عائداً للدولة العراقية وينفذ سياسات الحكومة العراقية. فمورد النفط المالية لم تتوجه صوب تنمية حقيقية موجهة وهادفة إلى تغيير بنية الاقتصاد الوطني، بل وجهت بالأساس لتلبية حاجات السلطة السياسية وأغراضها وحروب النظام.

ج . وبدلاً من تطوير صناعة تحويلية متقدمة وغير ملوثة للبيئة على وفق المقترحات التي تقدمت بها خبراء وزارة التخطيط، فإن مجلس قيادة الثورة كان يقرر ما يشاء وفق إرادته ورغباته وجرى التخلي عن الكثير من المشاريع المهمة التي اقترحها الخبراء. كما إن ما بني في العقد الثامن والنصف الأول من العقد التاسع وما كان موجوداً منذ العقدين السادس والسابع قد دمرته حروب النظام تقريباً. وكان الدكتور زيني محقاً في إشارته الواضحة إلى إن الاعتماد على صناعات إحلال محل الواردات لم يكن بالمطلق صحيحاً ولكنه لم يكن بالمطلق خطأ، وكذا مقترحه الأخير بصناعات لأغراض التصدير ينطبق عليها نفس المبدأ، إذ يفترض أن تتعين تلك الصناعات التحويلية على وفق إستراتيجية التنمية الاقتصادية والاجتماعية المدروسة والمقررة وتستند إلى ما يمتلكه من موارد أولية ومنتجات ومحاصيل زراعية وإمكانات فعلية وصناعات بتقنيات حديثة وغير ملوثة للبيئة.

د . واعتمد العراق طيلة الفترات المنصرمة حتى الوقت الحاضر على توجيه موارد البلاد صوب استيراد السلع المصنعة ولم يهتم ببنية الاستيرادات من أجل تحقيق تغيير تدريجي لبنية الاقتصاد الوطني. لهذا كانت موارد النفط المالية تصرف دون أن تحقق تراكم رأسمالياً ضرورياً لتنشيط النمو الاقتصادي وتحقيق التنمية الوطنية. ولا بد لي هنا من الإشارة إلى إن الانفتاح التجاري، كما اقترحه الزميل زيني، كما أرى غير مناسب للعراق. فالانفتاح مفيد شريطة أن تتحدد فيه: (1) سياسة حمائية للإنتاج الوطني، أي سياسة جمركية لا تلغي كلية المنافسة ولكنها لا تخنق الإنتاج الصناعي الوطني، و(2) سياسة تجارية تسمح بتنمية الصناعات التحويلية الوطنية وتنويع وتطوير الزراعة، و(3) أن تكون هناك رقابة صارمة على النوعية والموصفات والمقاييس... الخ، و(4) أن تدرس الميزان التجاري مع الدول المختلفة بعناية كبيرة لضمان تنشيط صناعتنا ومنتجاتنا الزراعية المحلية.

هـ. وقد توجه النظام منذ النصف الثاني من العقد الثامن (منتصف السبعينات (من القرن الماضي صوب التصنع العسكري والبحث العلمي فيه. وصرف مئات المليارات لهذا الغرض أو على التسلح من الخارج والتي في الغالب الأعم دمرت فيما بعد عبر الحروب والغارات عليها لتدميرها، إضافة إلى قرارات مجلس الأمن الدولي بهذا الصدد.

و. وقد توجه التعليم في العراق وجهة الدراسات الإنسانية وتخلف عن الدراسات العلمية الصرفة والتطبيقية أو المهنية لسنوات طويلة. وحين بدأ في أعقاب ثورة تموز 1958 لم يتواصل بالطريقة المناسبة. ومع ذلك نشأ في العراق على مدى أكثر من نصف قرن كم رائع من الكفاءات والقدرات العلمية والفنية والمهنية التي فرط بالكثير منها في حروب النظام ومن خلال سياساته العدوانية. وجزء كبير جداً من هذه الكفاءات موجود ومشتت اليوم في خارج العراق بسبب الأوضاع البائسة حالياً في البلاد. كما لا يستثمر المتاح منه في الداخل بصورة جيدة. وقد استشهد الكثير جداً من الكوادر العلمية والفنية والمهنية المتقدمة عبر عمليات الاغتيال الإرهابية بعد سقوط نظام البعث الدموي. وإذ حقق العراق في نهاية السبعينيات من القرن الماضي خطوات جيدة على طريق مكافحة الأمية بين الكبار، فإن الأمية اليوم تشكل خطراً كبيراً على البلاد يفترض معالجتها، وخاصة الأمية بين صغار السن الذين يتسربون من المدارس الابتدائية بسبب الفقر والبطالة وحرمان العائلات من القدرة على تعليم بناتهم وأبنائهم. يضاف إلى ذلك البطالة بين كبار السن، وخاصة بين النساء.

ز. يشير الدكتور زيني إلى ما يلي:

“منذ نشوء الدولة العراقية الحديثة، بدأ الاقتصاد العراقي نموه في بيئة يهيمن عليها بصورة رئيسية السوق أو القطاع الخاص. وحتى بعد اكتشاف النفط في 1927 وتزايد العوائد النفطية منذ 1950 التي شجعت على تبني خطط التنمية الاقتصادية، اقتصر معظم أنشطة الحكومة الاقتصادية على عمليات استخراج الموارد الطبيعية من باطن الأرض (النفط بالدرجة الأولى) وإدارة الصناعات المتعلقة بها. فالقطاعان الرئيسيان، الزراعة والصناعات التحويلية، بقيتا بأيدي القطاع الخاص بصورة كاملة تقريباً، أما الاستثمارات الحكومية فكانت تخصص لتوفير البنية التحتية مثل الطرق والجسور والنقل العام ومشاريع السيطرة على الفيضان والإرواء وتوفير الخدمات الأساسية كالكهرباء والماء والصحة والتعليم. ولقد استمرت هذه الحالة حتى الثورة في 1958، حيث بدأت بعدها الحكومات العراقية المتعاقبة تستثمر في القطاع الصناعي.” (راجع الحلقة الثالثة من الدراسة.)

يمكن إيراد ملاحظات توضيحية لما جاء في هذا المقطع: اتفق مع الأستاذ زيني على أن الدولة الملكية لم تعتمد في نموذجها الاقتصادي على قطاع الدولة. ولكن في أعقاب الحرب العالمية الثانية نشطت قوى المعارضة العراقية وطالبت الحكومة بثلاث مسائل من الناحية الاقتصادية، وهي: (1) تفعيل قانون

الحماية الصناعية لعام 1929 من أجل تنشيط القطاع الخاص للتوظيف في الصناعة المحلية (ب) ضرورة بناء صناعة وطنية من خلال توظيف استثمارات حكومية في القطاع الصناعي التحويلي, إضافة إلى مشاريع البنية التحتية لأهميتها للعراق ولتشغيل العاطلين عن العمل وزيادة الدخل وتحسين السيولة النقدية والقوة الشرائية للمواطنين والمواطنين. (3) تغيير شروط امتيازات النفط الممنوحة لشركات النفط العاملة في العراق باتجاه زيادة حصة العراق والتي تحققت في العام 1952 بمفعول رجعي لعام 1951. وقد حصل العراق على 50% من عوائد النفط الخام المصدر على وفق هذا الاتفاق وازدادت عوائده النفطية.

وبهذا ازداد الضغط على الحكومة لإقامة مشاريع في القطاع الصناعي التحويلي برؤوس أموال حكومية. وقبل ذلك كانت الحكومة قد بدأت في العام 1948/1949 بإقامة مشاريع في صناعة الأسمت تابعة للحكومة.

في العام 1951/1952 تم إنشاء مجلس ووزارة الإعمار ومن خلاله أمكن إقامة العديد من المشاريع الصناعية التحويلية المهمة في العراق, كما شارك المصرف الصناعي الذي تم تأسيسه في العام 1940 بموجب القانون رقم 12 لسنة 1940, ولكن نشاطه الفعلي بدأ في العام 1947 بموجب القرار رقم 41 لسنة 1947, حيث بدأ بمنح القروض أو المشاركة في رأس مال بعض المشاريع الصناعية .  
(Hamoud, Abdul Rasool. Einige Probleme der Leitung und Finanzierung des staatlichen Sektor der Industrie im Irak. Dissertation. Hochschule fuer Oekonomie. Berlin. 1968.)

وعلى هذا, وبالرغم موقف الحكومة الرافض للتوظيف في القطاع الصناعي, فإن الجهات التالية أبدت في حينها اهتماماً ملموساً بالقطاع العام الصناعي, وهي:

مجلس الإعمار ووزارة الإعمار.

المصرف الصناعي.

اتحاد الصناعات العراقي.

دائرة الشؤون الصناعية في وزارة الاقتصاد العراقية.

مصلحة المنتجات النفطية التي تركز نشاطها على تطوير صناعة تكرير النفط الخام وتسويق منتجاته. انصبت جهود هذه المؤسسات, وفق سياسة الحكومة العراقية, على إقامة المشاريع الصناعية

الاستهلاكية الخفيفة بشكل عام, إضافة إلى تنمية صناعات الأسمنت من جانب مجلس الإعمار لارتباط ذلك بمشاريع الري والبزل وإقامة السدود والخزانات المائية حينذاك, كما تركزت اتجاهات النشاط لهذه المؤسسات

إقامة مشاريع تابعة كلية لقطاع الدولة.

إقامة مشاريع صناعية برأسمال مختلط حكومي وخاص محلي.

تقديم القروض المالية لإقامة المشاريع الصناعية, سواء أكانت خاصة أم مختلطة من جانب المصرف الصناعي.

تركزت جهود مجلس الإعمار ووزارة الإعمار على إقامة مجموعة من المشاريع الصناعية خلال الفترة الواقعة بين 1951-1958, تم إنجاز ثلاثة منها قبل وقوع ثورة تموز عام 1958, كما استمر العمل بخمسة مشاريع أخرى أنجزت في أعقاب الثورة. وكانت المشاريع الثلاثة المنجزة هي مشروع إنتاج الإسمنت في سرچنار في السليمانية, ومشروع الغزل والنسيج في الموصل, ومشروع الإسفلت في القيارة في الموصل. أما المشاريع الصناعية التي أنجزت فيما بعد فكانت مشروع السكر في الموصل, ومشروع المنتجات القطنية في الهندية, ومشروع الإسمنت في حمام العليل في الموصل, ومشروع السجاير في السليمانية, ومشروعات إنتاج الطاقة في أبو دبس وبغداد والنجيبية .., وتم إنجاز هذه المشاريع في أوائل الستينات من القرن الماضي.

وكان نشاط الدولة الصناعي قد تركز قبل ذلك على مجالين أساسيين بالنسبة للاقتصاد العراقي, وهما قطاع إنتاج الطاقة الكهربائية, ومصافي النفط الخام. فحتى عام 1958 كان القطاع الحكومي يمتلك مشاريع مهمة لإنتاج الطاقة الكهربائية الموجهة لأغراض التنوير أو لتزويد المنشآت الاقتصادية بالطاقة الضرورية. . فقد وجدت في العراق 14 محطة لإنتاج الطاقة المحلية في مراكز المدن العراقية, إضافة إلى عدد من الشركات الأجنبية التي كانت تعمل في العراق, التي بلغت طاقة إنتاجها 70% من إجمالي إنتاج الطاقة في العراق. راجع في هذا الصدد:

**Zain Al-Abidin, Khalid Hamid. Zur Rolle und Problematik des Staates und des Staatssektors in der Industrie des Irak. Dissertation. Hochschule fuer Oekonomie. Berlin. 1966. S. 76.**

وعلى العموم فقد وجدت في العراق حتى عام 1954 (49) منشأة لإنتاج الطاقة الكهربائية, بلغ مجموع العاملين فيه 1359 شخصاً, كما كان هناك 22 منشأة تنتج الكهرباء وتزود السكان بالماء أيضاً, بلغ عدد العاملين فيها 1384 شخصاً. وفي ضوء التطور النسبي الذي شهدته الصناعة الوطنية وانتشار نسبي لاستخدام الكهرباء في المدن العراقية, أمكن تسجيل زيادة ملموسة في الساعات الإنتاجية لمحطات

الموجودة ولإنتاج الطاقة فعلاً في العراق خلال الفترة الواقعة بين 1951-1958. ففي الوقت الذي بلغت السعة الإنتاجية 394.200 ألف كيلوات/ ساعة في عام 1951، ارتفعت في عام 1958 إلى 840.084 كيلوات/ ساعة. وارتفع إنتاج ذات الفترة من 164.901 إلى 620.074 كيلوات/ ساعة موزعاً على الاستخدام الصناعي والتنوير السكاني بتناسب متقارب 1:1 تقريباً في عام 1951، إلى تناسب بلغ أكثر من 1,5:1 لصالح الاستخدام الصناعي في عام 1958. امتلك العراق حتى عام 1951 مصفى واحداً لتكرير النفط هو مصفى الوند في خانقين الذي اشتراه من شركة نفط خانقين. وكانت القوى السياسية المعارضة للحكومة تضغط دوماً باتجاه زيادة عمليات تصنيع النفط الخام في العراق بدلاً من تصدير الكمية الكبرى منه. ولكن هذه الرغبة كانت تصطدم باستمرار بموقف حازم من شركات النفط الأجنبية التي كانت تريد الاحتفاظ بذلك لاقتصادياتها من جهة، وإبقاء الأسواق المحلية مفتوحة لمنتجاتها النفطية، إضافة إلى خشيتها من نمو جديد في البنية الطبقيّة في المجتمع العراقي. ولكن تشكيل مصلحة المنتجات النفطية وتسليمها مسؤولية إدارة مصفى الوند وشركة نفط خانقين مسؤولية التفكير بمشروعات جديدة لتكرير النفط الخام. وظهرت في العراق تدريجاً منشآت صناعية جديدة لتكرير النفط الخام، إضافة إلى المنشأة القديمة، كما يظهرها الجدول التالي:

## منشآت مصافي النفط العراقية

المصفى الموقع	سنة التشغيل	رأس المال د. الطاقة	الإنتاجية عدد العاملين
الوند	1927	1.0	نهاية 1958
القيارة	1955	2.2	غ.م. ** .
الدورة	1955	23.7	340
المفتية	1952	0.4	1153*
		0.25	غ.م.
		27.3	
		3.750	
			4
			مصافي

Zain Al-Abidin, Khalid Hamid. Zur Rolle und Problematik des Staates und des Staatssektors in der Industrie des Irak. Dissertation. Hochschule fuer Oekonomie. Berlin. 1966. S. 104. \* 1000 مشغل عراقي و 153 خبير وفني أجنبي.

\*\* غير متوفر.

قراءة ومناقشة " خارطة طريق اقتصادية" للسيد الدكتور محمد علي زيني

### الحلقة الثامنة والأخيرة

أشرت في أول حلقة من حلقات هذه السلسلة النقاشية إلى إن الزميل الدكتور محمد علي زيني قد حرك لديّ ولدى آخرين بالضرورة جو الحوار الموضوعي والهادف والمسؤول حول واقع ومشكلات وحاجات واتجاهات تطور الاقتصاد العراقي من جهة، وأن في دراسته جملة من الأفكار التي أتبناها معه أو لدي تحفظات على بعضها الآخر أو آراء أخرى تستحق المناقشة وردت في حلقاته السبع الخاصة بـ" خارطة طريق اقتصادية" للعراق. وسأحاول في هذه الحلقة الأخيرة هنا أن أشير إلى أهم تلك الأفكار المهمة



التي أتفق فيها معه أو أتخفظ على بعضها أو جوانب منها مع الزميل الدكتور زيني والتي تحتل أهمية بالغة بالنسبة للعراق:

1 . بلورته الصائبة لمشكلات التخلف التي كان وما يزال يعاني منها الاقتصاد العراقي والمجتمع, إضافة إلى معاناتهما من سياسات العسكرة والحروب والحصار الدولي والدمار سنوات طويلة, وكذلك الخسائر البشرية الكبيرة التي تحملها المجتمع طيلة العقود المنصرمة حتى الوقت الحاضر.

2 . إشارته المهمة والواضحة إلى غياب العدالة الاجتماعية في توزيع وإعادة توزيع الدخل القومي في العراق وسوء استخدامه في آن واحد.

3 . إشارته إلى التشوه الملازم لبنية الدخل القومي الناتجة عن وحدانية الطرف في الاقتصاد العراقي, الاقتصاد الريعي النفطي على نحو خاص, وضرورة تغيير هذه البنية لصالح التنوع والتحديث.

4 . إشارته الصائبة إلى أن إجمالي الناتج المحلي أو الدخل القومي والمعدل السنوي لحصة الفرد الواحد منهما لا يعكسان الواقع الفعلي لمدى تقدم أو تخلف اقتصاد معين, إذ لا بد من معرفة تفاصيل بنية الإنتاج أو الدخل القومي أولاً, كما لا يعكسان عدالة توزيع الدخل القومي في المجتمع بل يغطيان على عدم العدالة السائدة في العراق مثلاً, ولكي نستطيع التعرف الدقيق على طبيعة وبنية الدخل القومي وعلى غياب عدالة التوزيع للدخل القومي بين فئات وأفراد المجتمع يفترض أن ندخل في تفاصيل المؤشرين وتجلياتهما في الواقع الاقتصادي والاجتماعي للفئات الاجتماعية المختلفة.

5 . إشارته إلى أهمية وضرورة وجود إستراتيجية تنموية للاقتصاد العراقي ولا بد من استخدام التخطيط لهذا الغرض, إضافة إلى إستراتيجية نفطية مرتبطة بها وتشكل جزءاً منها.

6 . تأكيده أهمية وضرورة التصنيع الوطني لتحقيق التنمية الفعلية المنشودة وإرساء الاقتصاد الوطني على قاعدة صناعية متماسكة.

7 . ضرورة الاستفادة القصوى من الزراعة لتنمية الاقتصاد الوطني وضمان الأمن الغذائي للمجتمع.

8 . إشارته إلى أهمية تغيير بنية التجارة الخارجية لضمان تحقيق التنمية الصناعية والزراعية.

9 . الاهتمام الرئيسي بالقطاع الخاص ومنحه الإمكانيات لزيادة دوره ونشاطه في الاقتصاد الوطني.

10 . الاستفادة من إمكانيات رؤوس الأموال الأجنبية في الاقتصاد العراقي وكذلك من جوانب العولمة الإيجابية وتجذب مزالقها السلبية.

ولكن إزاء هذه النقاط وغيرها, إضافة إلى ما أشرت إليه في الحلقات السابقة, بعض ما اختلف فيه جزئياً أو كلياً, مع الأخ الفاضل الدكتور زيني, منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: رفضه لأي دور يفترض أن يشارك فيه قطاع الدولة في النشاط الاقتصادي الإنتاجي، ومنح الدولة دور المراقب لما يجري في البلاد، وجعل القطاع الخاص ليس له الدور الرئيسي في العملة الإنتاجية فحسب، بل الدور الوحيد له. أي إنه يخرج قطاع الدولة من النشاط الاقتصادي، وخاصة الإنتاجي كلية، وهو ما أختلف معه عليه من الناحيتين المبدئية والعملية وفي ظروف العراق الملموسة. إذ علينا أن نلاحظ بعناية عدة مسائل في هذا الصدد: (أ) إن الدولة العراقية مالكة كبيرة لمورد أولي ضخم هو النفط الخام وقادرة بأموال النفط الخام تأمين الاستثمار في نشاطات اقتصادية إنتاجية في مجال الصناعة التحويلية إلى جانب الصناعة الإستخراجية وفي إقامة سلسلة من العمليات والمشاريع الإنتاجية الأمامية والخلفية ليس في مقدور القطاع الخاص النهوض بها أو يفترض من الوجهة الاجتماعية أن ينهض بها القطاع العام وليس القطاع الخاص، (وب) كما إن مستلزمات تطور القطاع الخاص في العراق حالياً غائبة حقاً وليس بمقدور القطاع الخاص النهوض بالعملية الإنتاجية في عموم البلاد، والتي لا يمكن توفيرها له خلال السنوات العشر القادمة وأكثر منها إن بقيت الأوضاع فترة أخرى على ما هي عليه الآن، (وج) كما يمكن لقطاع الدولة أن ينشط معه القطاع الخاص بإقامة قطاع مختلط، حكومي وأهلي، وقطاع تعاني يدعمه بمساعدات مالية وفنية وخبرات أيضاً، إضافة على مساعدة ودعم القطاع الصناعي الصغير الحرفي الذي يعاني اليوم من منافسة حادة غير متكافئة من جانب السلع المصنعة المستوردة. ثانياً: ومع الاتفاق بأهمية وضرورة مشاركة رؤوس الأموال الأجنبية في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية في العراق، فإن من الواجب أن نحدد ثلاث مسائل جوهرية في هذا الصدد ونبتعد عن أن يكون الباب مفتوحاً أمام رؤوس الأموال الأجنبية دون شروط مناسبة للعراق: (أ) أن تحدد الدولة المجالات التي يحتاجها العراق لتوظيف الاستثمارات الأجنبية فيها، سواء أكانت في اختيار القطاعات الاقتصادية النوعية، أم بالنسبة إلى مناطق التوظيف التي يستوجبها التقدم الاقتصادي للمحافظات أو التوطين الصناعي مثلاً، (ب) أن يلتزم الرأسمال الأجنبي بالقوانين العراقية، ومنها بشكل خاص قانون العمل والعمال وأن يلتزم بتشغيل الأيدي العاملة العراقية من عمال وفنيين وإداريين... الخ، (ج) وأن تحدد نسبة مناسبة لتصدير الأرباح المتحققة له، وأن يعيد توظيف نسبة من أرباحه السنوية في تحسين وتطوير تلك المشاريع الصناعية أو التوسع فيها لتحقيق التراكم الرأسمالي الذي تستوجبه عملية التنمية. كما يمكن للدولة أن تقدم له تسهيلات مهمة أيضاً لغرض تشجيع المستثمرين بتوظيف رؤوس أمواله في الاقتصاد العراقي.

ثالثاً: إن نموذج اقتصاد السوق الحر الذي يؤكد الدكتور زيني، وبالطريقة التي يدعو إليها والتي تلتقي مع نموذج باول بريمر والمؤسسات المالية والنقدية الدولية، يعني دون مواربة إطلاق العنان لآليات السوق بالعمل بصورة عمياء، وهي دون أدنى ريب ستقود أكثر فأكثر إلى مزيد من الاختلالات الشديدة في الاقتصاد العراقي وإلى تشديد الاستغلال وإلى تعميق التناقضات الاجتماعية، إذ إن الهدف الأساسي سيكون في مثل هذه الحالة زيادة حجم الأرباح التي يحققها رأس المال وليس التوفيق بين المصلحة

الخاصة لصاحب رأس المال والمصلحة العامة أو المصالح الاجتماعية عموماً. وما طالب به الزميل زيني لا يتعدى رقابة حكومية معينة لا تثمر كثيراً ولا تخفف من تفاقم التناقضات الاجتماعيات والصراعات الطبقيّة والنزاعات السياسيّة المحتملة جداً. إن الاتفاق على نموذج اقتصاد السوق لا يعني بأي حال الالتزام بالنموذج صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة الدوليّة الحرة، وهي مؤسسات تريد إطلاق العنان للقطاع الخاص والخصخصة والتجارة الخارجية المفتوحة تماماً والتي تقود كلها إلى ما لا تحمد عقباه على المجتمع. إلى عكس ما يقول به الدكتور زيني بأهمية التصنيع والزراعة. فالتجارة الحرة لا تجلب المنافع للبلاد، بل تجلب الكثير من الأضرار ما لم نتعامل بطريقة عقلانية في هذا القطاع الحيوي، أي ما يمكن وما يفترض أن نستورده لتنمية القطاعين الصناعي والزراعي وتنشيط الإنتاج الصناعي الصغير.. الخ. في مقابلة صحفية مع المدى قدم الدكتور صالح حسن ياسر أفكاراً واضحة على النتائج التي تترتب حتى الآن عن السياسات التي فرضها بريمر في العراق والتي ما تزال متواصلة حتى اليوم). راجع: جريدة التأخي، العدد 5889 بتاريخ 2010/6/17، ص 7). إن ما أدعو إليه، وفي إطار المرحلة التي يمر بها العراق، هو اقتصاد السوق المقيد بقوانين اقتصادية واجتماعية تحد من المنافسة المدمرة للصناعة والزراعة المحلية والموسعة للبطالة والمشددة لاستغلال الطبقة المنتجة، الطبقة العاملة. أي نحن بحاجة إلى حماية الاقتصاد الوطني والمجتمع والطبقة العاملة، بمفهمها الواسع، التي تبين قوة عملها الجسدية والفكرية لصحاب رؤوس الأموال، أي العمل من أجل ضمان الأخذ باقتصاد السوق الاجتماعي.

رابعاً إن العدالة الاجتماعية التي يقترحها الزميل زيني مهمة، ولكن النموذج الذي يقترحه، أي اقتصاد السوق الحر غير المقيد بقوانين اقتصادية واجتماعية، والتي نلاحظها بوضوح كبير في الدول الرأسمالية الأكثر تطوراً، يقود إلى نشوء "أمتين" في البلد الواحد، إلى أمة فقيرة وكادحة، وأمة غنية ومتنعمة، إلى أمتين تختلفان في مستوى الحياة والمعيشة والثقافة كلية وتتسع الفجوة بينهما ويحتدم التناقض وتتفجر الصراعات وتنشأ النزاعات الطبقيّة السياسيّة، ويتباين مستوى متوسط الأعمار وامتيازات أخرى كثيرة بين "الأمتين". ولهذا فالطرح الشكلي للعدالة الاجتماعية لا يقود إلى عدالة اجتماعية مناسبة بل إلى مزيد من تغييب العدالة الاجتماعية.

خامساً: ورغم تحذيره من جوانب العولمة السلبية، وهو تحذير وارد وضروري، ولكنه يقترح علينا الانفتاح الكامل على السوق الدولي والتجارة الخارجية التي يعتبرها مفتاح التطور وجني المنافع، في حين إنها تعطل دون أدنى ريب أي توجه فعلي لدعوته الجادة لتصنيع العراق وتنمية الزراعة وتحديثها وحماية الإنتاج الصناعي السلعي الصغير.

سادساً: كما أني أختلف مع الزميل زيني بشأن دعوته لخصخصة المنشآت الصناعية الباقية التابعة لقطاع الدولة. إذ إن عليه أن يتابع بأن العيب ليس في ملكية الدولة لوسائل الإنتاج, بل في طبيعة الدولة وأجهزتها الإدارية المتسمة بضعف الإدارة والتخلف والفساد والذي يفترض تغييره. فلا يجوز, كما أرى, الدعوة وبشكل مطلق إلى الخصخصة, بل دراسة كل مشروع ورؤية ما يمكن عمله لصالح تطويره وتحسين أوضاعه على أسس اقتصادية ومحاسبية سليمة. وعلينا أن نلاحظ الضغوط التي سلطتها المؤسسات المالية الدولية على العراق لتشطب على نسبة عالية من ديونه في مقابل الأخذ بشروط هذه المؤسسات, ومنها الخصخصة في فترة كان أياد علاوي رئيساً للوزراء ومن بعده إبراهيم الجعفري. واليوم, إذ تعاني اليونان من أزمة اقتصادية ومالية حادة أقرب إلى إفلاس الدولة, اشترطت دول الاتحاد الأوروبي والمؤسسات المالية الدولية تقديم القروض لها في مقابل خصخصة كاملة لكل مشاريع الدولة الاقتصادية, وسواء أكانت مشاريع البنية التحتية أم الصناعة التحويلية, وهو أمر يقود إلى مزيد من المشكلات للفئات الاجتماعية الفقيرة والمنتجة ولكنه يجلب الأرباح لأصحاب رؤوس الأموال الذين استفادوا من إفلاس الدولة والدول المتقدم صناعياً في الاتحاد الأوروبي مثل ألمانيا. إن اقتراب اليونان وإسبانيا والبرتغال من حالة الإفلاس ترتبط مباشرة بسياسات الاتحاد الأوروبي الاقتصادية والمالية والنقدية (تعميم اليورو) التي جمعت دولاً ضعيفة التطور مع دول متقدمة دون أن تتخذ الإجراءات الكفيلة بحماية الدول الضعيفة من الدول الأكثر تطوراً في إطار الاتحاد الأوروبي. إنها نتيجة منطقية ربما ستلحق بها دول أخرى من شرق أوروبا, مثل رومانيا أو هنغاريا أو بلغاريا على سبيل المثال لا الحصر.

سابعاً: هناك جملة من المسائل الأخرى التي تستوجب من الدكتور محمد علي زيني الولوج إليها بدلاً من الإشارة إلى جوانب من الاقتصاد الكلي, بل إلى الاقتصاد الجزئي أيضاً, وخاصة في موضوع التصنيع. إذ لا ينفع الحديث عن التصنيع بشكل عام, بل ما نريد أن نصنعه في العراق في الفترة القادمة. وهذه المهمة يفترض أن تنهض بها وزارة التخطيط ومن هو ملم تماماً بأوضاع القطاع الصناعي والزراعي. إذ لا بد هنا من الولوج إلى تفاصيل التنمية الصناعية وطرح النموذج المناسب لهذه العملية على المديات القصيرة والمتوسطة والبعيدة. هناك جملة من الدراسات المهمة التي طرحت خلال الأشهر الأخيرة, منها دراسة الأخ الدكتور علي مرزا بشأن التصنيع, ومقالة الأخ الدكتور فوزي القريشي عن التصنيع أيضاً, وكذلك الدراسة الجديدة التي ينوي نشرها الأخ الدكتور كامل العضاض عن الاقتصاد الريعي (النفط) ودراسات للأستاذ حمزة الجواهري التي نشرت في موقع الحوار المتمدن في 8 حلقات تحت عنوان "من أجل إدارة أفضل لتنفيذ عقود النفط" في العراق و3 حلقات حتى الآن تحت عنوان "من أجل بناء قطاع خاص في الصناعة النفطية", وهي مادة غنية تستوجب من الباحثين والاقتصاديين والمختصين بشؤون اقتصاد النفط والصناعة التحويلية المناقشة الجادة والمسؤولة والهادفة إلى توضيح الموقف من هذا

القطاع ومهامه ودوره في إستراتيجية التنمية الوطنية المستدامة, إضافة إلى غيرها من الدراسات وغيرهم من الباحثين.

ثامناً: إن متابعة اتجاهات التطور الاقتصادي والاجتماعي في العراق خلال السنوات الثمانية الأخيرة تؤكد مسألة مركزية في الجانب الاجتماعي, وهي التي يفترض أن تكون محط دراسة ومتابعة من جانب الباحثين في الاقتصاد والمجتمع في العراق, وأعني بها الفجوة الدخلية المتسعة في العراق بين الفئة الغنية والحاكمة من جهة, وفئات المجتمع الكادحة والفقيرة من جهة أخرى. والغنى الذي حصل للفئة الحاكمة والغنية لم يأت جراء عملهم وعرق جبينهم, بل وفي الغالب الأعم من جراء الفساد المالي ونهب قطاع الدولة ودور الشركات الأجنبية في نهب العراق وفي تنشيط عمليات الإفساد التي تساهم بدورها بتنشيط الإرهاب والقتل. لقد تضاعف عدد أصحاب الملايين والمليارات من الدولارات في العراق بفترة وجيزة عدة مرات. واغلب هؤلاء نجدهم في صفوف الفئة الحاكمة الجديدة وأحابها السياسية وكذلك الأفراد والجماعات القريبة من الحكم وتلك العاملة في قطاع النفط والمقاولات والتجارة الخارجية, وهم من المقربين للفئة الحاكمة والمحيطين بها أيضاً. وتقدم التقارير الدولية وهيئة النزاهة والشفافية مواد دسمة حول هذا الموضوع وكذلك مقالات الدكتور زيني نفسه وكذلك مقالات الأستاذ سلام إبراهيم كبة المنشورة في موقع الحوار المتمدن وغيرها عن الفساد السائد في العراق.

تاسعاً: وإذ يسجل الواقع العراقي نمواً واضحاً في الطبقة الوسطى في أجهزة الدولة والمقاولات والتجارة, نلاحظ عدم وجود أي نمو ملموس ومهم في قاعدة الطبقة الوسطى الصناعية والزراعية, وهي المشكلة الناشئة عن سببين: أ (السياسة الاقتصادية التي تبتعد عن التصنيع وعن دعم القطاع الخاص لإقامة المشاريع الصناعية بسبب منافسة الاستيراد المفتوح للسلع المنتجة محلياً, بما فيها الصناعة الصغيرة, وب) وجهة القطاع الخاص في العمل في القطاعات التي تجلب له الأرباح السريعة والمضمونة والعالية. وغياب الطبقة البرجوازية الوطنية المتوسطة في قطاعات الإنتاج الصناعي والزراعي, إضافة على ضعف نمو الطبقة العاملة في هذه القطاعات تسهم بدورها في إعاقة السير صوب بناء المجتمع المدني الديمقراطي الحر.

عاشرأ: المشكلة التي لم يعالجها الزميل زيني وتمس الاقتصاد الزراعي, هي مشكلة الأرض الزراعية التي تشير إلى اختفاء فعلي لما تبقى من قانون الإصلاح الزراعي وعودة العلاقات القديمة إلى سابق عهدها, وبالتالي يصعب تأمين تطور ملموس في الزراعة ما لم تعمد الدولة إلى تطبيق فعلي لقوانين الإصلاح الزراعي وتقديم الدعم للفلاحين للبقاء في الريف والمشاركة في الإنتاج الزراعي. إن سياسة الدولة التجارية تسهم في مزيد من هجرة الفلاحين من الريف والزراعة إلى المدينة, خاصة بعد أن قطع أي دعم للسلع الزراعية المنتجة محلياً من جانب الدولة, وهي السياسة التي تروج لها المؤسسات المالية والنقدية الدولية.

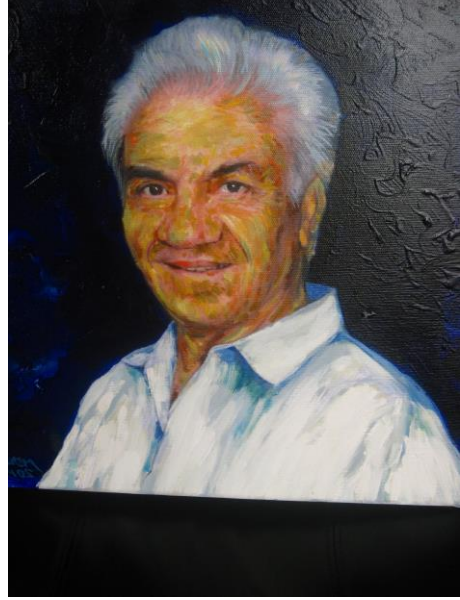
أحد عشر: ولم يعالج الزميل زيني السياسة المالية والنقدية وقضايا التأمين التي تعتبر كلها أدوات تنفيذية للسياسة الاقتصادية والتي كان المفروض أن يبحث فيها لنتبين الوجهة التي يتبناها ويدعو لها في ضوء النموذج الاقتصادي الذي تبناه.

إثنا عشر: كان المفروض أن يعالج الزميل زيني الإدارة الاقتصادية المتخلفة في العراق ومشكلاتها وسبل تغيير هذا الواقع، وهي لا تمس قطاع الدولة فحسب، بل القطاع الخاص أيضاً ومجمل العملية الاقتصادية. ولا بد هنا من التفكير في سبل تجديد الإدارة الاقتصادية ونظم العمل الإداري ودمقرطته وزيادة رقابة المجتمع المدني عليه ومشاركة الفرد في ذلك. إن الإدارة الاقتصادية غير البيروقراطية والفعالة والمستندة إلى الأساليب العلمية، (الإدارة علم وفن في آن واحد) الحديثة في هذا المجال وتطبيق مبادئ المحاسبة الاقتصادية التي تسهم لا في إنجاح المشاريع الاقتصادية فحسب، بل وتسهم في رفع إنتاجية العمل وإجمالي الإنتاج وتقليص التكاليف وتحسين ظروف العمل وعلاقات العمل وأجور العاملين وظروف حياتهم... الخ.

وأخيراً شكراً جزيلاً للأستاذ الدكتور محمد علي زيني على نشر دراسته القيمة الموسومة "خارطة طريق اقتصادية" للعراق التي فسحت في المجال لأهميتها على النقاش والتمعن في أوضاع العراق الاقتصادية والاجتماعية. أتمنى أن لا أكون قد أخطأت بحق زميلي الفاضل الباحث والكاتب الأستاذ الدكتور محمد علي زيني ودراسته القيمة.

نشرت الحلقات بين 5/19 و 2011/6/3

صورة الغلاف الأخير



كاظم حبيب